ليف تولستوي

الحرب والسلام

ترجمة: د. سامي الدروبي

26.5.2017

الجزء الأول



ليف تولستوي



(I)

ترجمة: د. سامي الدروبي



ليف تولستوي

الحرب والسلام

(I)

الكتاب: **الحرب والسلم (I)/ رواية**

تأليف: **ليف تولستوي**

ترجمة: **الدكتور سامي الدروبي**

عدد الصفحات: 560 صفحة

الطبعة الأولى في دار التنوير: 2017

الترقيم الدولي: 978-9938-886-94-8

رقم الناشر: 17/400-100

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) - الدور الأرضي - شقة رقم 2.

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

الترقيم الدولي: 978-977-828-001-2

رقم الإيداع: 2017/2379

صدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة في دمشق عام 1976.

تصدير

إن مجموع الأدب النقدي الذي أوحت به رواية تولستوي «الحرب والسلم» يبلغ من الكثرة والضخامة أننا رأينا من المناسب ألا نقدِّم هذا الأثر إلى قرائنا، على عادتنا، بمقدمة لن تكون في أحسن الظن إلاّ «نظرة» تضاف إلى نظرات كثيرة، بل بنص كتبه المؤلف نفسه، وفيه حدَّد أغراضه تحديدًا واضحًا، وعيَّن المشكلات التي فرضت نفسها عليه، أي وضع كتابه في موضعه من نظراته العامة وشعوره بالحياة وتفكيره آنذاك. ففي هذه الصفحات يقول لنا تولستوي على وجه الدقة ما يهم القارئ في هذه الأيام أن يعرفه عن نشأة هذا الأثر الأدبي، وعن اتساع ينابيع وحيه على قدر إيغال المؤلف في كتابته، وعن النتائج الفلسفية التي توصَّل إليها في كبريات المسائل: الحرب، ودَوْر الأشخاص في مجرى التاريخ، ودور الشعب والجماهير، أي المصير الإنساني منظورًا إليه من جهتين، جهة الجماعة وجهة الفرد، والمصير الإنساني على طريق الحياة والموت. ولكل قارئ بعد ذلك أن يقيس المسافة بين الأغراض التي حدَّدها المؤلف وبين الكتاب على نحو ما قدَّمه إلينا صاحبه.

أما في ما يتصل بالإيضاحات التاريخية، أي العلاقة بين الحوادث والشخوص التي يصفها المؤلف، والواقع الذي استوحاه على نطاق واسع، فإن الحواشي التي وضعها ألكسندر ف. سولوفييف، تعطينا فكرة عن العمل الذي قام به الكاتب على صعيد تعريفنا بالتاريخ، وعمّا قام به المؤلف من ربط بين الوثيقة التاريخية والخلق الأدبي. لقد وُصف كتاب «الحرب والسلم» بأنه الإلياذة الروسية. وهذا حق بمعنى من المعاني، بل

يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقول: إن هذا الكتاب الذي ليس رواية ولا قصيدة، ولا سجلًا لوقائع التاريخ، كما يعترف بذلك تولستوي نفسه، هو كتاب يتجاوز كل تصنيف في فئة من فئات التأليف الأدبي، فهو «مخلوق عجيب» على حد تعبير بيير باسكال، وهو حَدَث لا شك أنه فريد بين حوادث الأدب العالمي على مرَّ السنين. هذا الكتاب لا يشهد لإنسان من الناس بأن له قدرات فذّة خارقة فحسب، وإنما يشهد أيضًا بأن ما نسميه عامة باسم «النفس الروسية» ولا نعرف — بعد - قدراته الحقيقية ووظيفته إلاّ معرفة ناقصة، يملك طاقة روحية، فذة خارقة هي الأخرى.

جورج هالداس

مقدمة المؤلف

في الوقت الذي أطبع فيه كتابًا وقفت عليه خمس سنين من عمل متّصل انقطعت له ولم أشرك به عملًا آخر، وهيّأت لنفسي أثناء انصرافي إليه أحسن ظروف المعيشة وأفضل شروط الحياة، أودّ أن أمهّد لهذا الكتاب بمقدّمة أبسط فيها رأيي بصدده، فأتّقي بذلك الظنون الخاطئة التي قد يثيرها لدى قرّائي. إنني أود ألّا يروا في كتابي، وألّا ينشدوا فيه، ما لم أشأ وما لم أستطع أن أودعه إياه، وإنما أود أن يلتفتوا بانتباههم إلى ما أردت أن أضعه فيه، وإن تكن ظروف نشر الكتاب جعلتني لا أستحسن أن ألحَّ عليه، فلا الوقت الذي كنت أملكه ولا حسن الحيلة الذي أوتيته، أتاحَا لي أن أحقِّق نيّاتي تحقيقًا كاملًا. وإني لأستفيد من سماحة مجلة خاصة فأعرض للقراء الذين قد يهمّهم الأمر، رأي المؤلف في كتابه، ولو عَرْضًا ناقصًا غير كامل، موجزًا غير مسهب.

1 – ما كتاب «الحرب والسلم»؟ ليس برواية، ولا هو بقصيدة، ولا سجلّ لوقائع تاريخية. إن كتاب «الحرب والسلم» هو ما أراد المؤلف وما استطاع أن يعبِّر عنه في هذا الشكل الذي عبّر به عنه. إن تصريحًا كهذا التصريح عن عدم الإكتراث بالأشكال المتواضَع عليها والمتعارَف عليها في الإنتاج الفني النثري يمكن أن يبدو غرورًا لو كان مقصودًا ولم يكن له نظائر وأشباه. إن تاريخ الأدب الروسي، منذ بوشكين، حافل بأمثلة كثيرة على هذه المخالفات للأشكال المأخوذة عن أوروبا، بل إنه خالٍ من مثالٍ واحدٍ على نقيض ذلك. فمن كتاب غوغول، «النفوس الميتة»، إلى كتاب دوستويفسكي، «ذكريات من

منزل الأموات»، لا نقع في هذا العهد الحديث من عهود الأدب الروسي على أي أثر فنّي نثري ذي شأن تقيَّد تقيدًا تامًا بشكل الرواية أو القصيدة أو القصة.

2 - قال لي بعض القراء حين نُشر الجزء الأول من كتابي هذا، إنني لم أبرز فيه طابع العصر إبرازًا كافيًا. فأقول في الرد على هذا اللوم ما يلي: إنني أعرف ماذا يعنون بقولهم «طابع العصر» هذا الذي لا يجدونه في روايتي: إنه أهوال الرقّ، وحبس النساء وضرب الأبناء وقد بلغوا سن الرشد، والسالتيشيخا وما إلى ذلك. ولكنني لا أعدُّ هذه الخصائص التي تعيش في خيالنا أمينة وصادقة، ولا اعتقدت بأن عليَّ أن أعرضها. إنني بعد أن درست الكثير من الرسائل والمذكرات والروايات والعادات، لم أجد تلك الأهوال كلها أكبر من الأهوال التي يمكن أن أقع عليها في عصرنا هذا، وفي أيّ عصر آخر. ففي ذلك العصر، كما في عصرنا نحن، كان الناس يحبّون، وكانوا يغارون، وكانوا يبحثون عن الحقيقة ويبحثون عن الفضيلة، وكانوا ينقادون للأهواء، وكانت الحياة العقلية والأخلاقية معقّدة كتعقّدها في عصرنا نحن، بل كانت أحيانًا في الدوائر العليا أكثر رهافة. وإذا كنا في خيالنا نسبغ على ذلك العصر طابع التحكّم الأعمى، والعنف الفظّ، فما ذلك إلاّ لأن ما يرويه الرواة وتشتمل عليه المذكرات، وما كتبه الكتاب من روايات وقصص، لم ينقل إلينا إلّا حالات نموذجية تمثل العنف والقسوة الوحشية. فما مثل الذي يستنتج من ذلك أن الطابع المسيطر في ذلك العصر إنما هو القسوة الوحشية إلّا كمثل الذي يقف وراء قمة فلا يرى إلّا رؤوس أشجار، فيستنتج من ذلك أن المنطقة كلها ليس فيها إلاّ أشجار. إن لذلك العصر طابعه الخاص، شأنه في هذا شأن كل عصر. وهو طابع مردّه إلى أن الطبقة الأرستقراطية بقيت غريبة عن الطبقات الأخرى، وإلى الفلسفة التي كانت سائدة في ذلك الأوان، وإلى نوع خاص من التربية، وإلى عادة استعمال اللغة الفرنسية، وهلمَّ جرًّا. فذلك الطابع هو ما حاولت أن أصفه في حدود قدرتي.

3 - إن استعمال اللغة الفرنسية في كتاب روسي يحتاج إلى أيضَاح. لماذا نرى الروس والفرنسيين على السواء، في كتابي هذا، يتكلّمون بالروسية تارة، وبالفرنسية تارة أخرى؟ إن لومي على أنني أنطقت الشخصيات الروسية وأكتبتها باللغة الفرنسية يشبه اللوم الذي قد يوجهه شخص ينظر إلى لوحة فيأخذ عليها أن فيها بقعًا سوداء وظلالًا لا وجود لها في الواقع. ليس الذنب ذنب الرسام إذا كان الظل في صورة شخصية من الشخصيات التي تشتمل عليها لوحته يبدو لبعض الناس بقعة سوداء لا وجود لها في الأصل. إن الرسام لا يمكن أن يُلام إلّا إذا جعل ظلاله في غير محلها ورسمها بغير فن. إنني حين اهتممت بالعصر الذي يقع في بداية هذا القرن، وصوَّرت الشخصيات الروسية التي تنتمي إلى مجتمع ما، وصوَّرت نابوليون والفرنسيين الذين شاركوا مشاركة مباشرة في حياة ذلك العصر، قد اضطررت اضطرارًا إلى أن أخلع على لغتي وعلى فكري طابعًا فرنسيًا. لذلك فأنا رغم اعترافي بأنني لعلّني وضعت الظلال على لوحتي في غير محلها، أو وضعتها وضعًا لا حذق فيه، أود من الذين يجدون أن إنطاق نابوليون بالروسية تارة، وبالفرنسية تارة أخرى أمر مضحك، أود منهم أن يعترفوا بأن هذا الشيء إذا بدا لهم على هذا النحو، فإنما مرد ذلك إلى أنهم - كالرجل الذي ينظر في لوحة - لا يرون الوجه جملة واحدة بما يتداخل فيه من نور وظل، بل ينظرون إلى البقعة السوداء وحدها تحت الأنف.

4 - إن أسماء شخصيات روايتي، مثل أسماء بولكونسكي ودروبتسكوي وبيليبين وكوراجين وغيرها، تذكّر بأسماء معروفة جدًا في روسيا. وحين أدخلت في روايتي شخصيات غير تاريخية إلى جانب شخصيات تاريخية، كنت أشعر بضيق في أذني متى أنطقت الكونت روستوبتشين مع أمير أسميته الأمير برونسكي أو رجل أسميته ستيرلسكي، أو مع أمراء أو كونتات لفّقت لهم أسماء بسيطة أو مركَّبة. إن بلكونسكي ودروبتسكوي ليسا فولكونسكي وتروبتسكوي، ولكنَّ

لهذين الاسمين رنينًا مألوفًا وطبيعيًّا في المجتمع الأرستقراطي. ثم إنني ما كنت أستطيع أن أجد لجميع شخصياتي أسماء لا تقع في السمع موقعًا مستهجَنًا، مثل اسم بيزوخوف أو روستوف، ولم أحتل على هذه الصعوبة إلّا بأن آخذ، على غير هدى ومن دون انتقاء، الأسماء التي ألِفَتها الأذن الروسية أكثر من سائر الأسماء، مبدِّلًا بعض أحرفها. ولسوف يؤسفني كثيرًا أن يكون التشابه بين هذه الأسماء الوهمية وبين أسماء واقعية مَدْعاة إلى أن يفترض القارئ أنني أصوّر هذا الشخص أو ذاك من الأشخاص الذين وُجدوا في الواقع، لا سيما وأن النوع الأدبي الذي يصف أشخاصًا موجودين الآن، أو كانوا موجودين في الماضي، لا شأن له بالنوع الأدبي الذي أمارسه.

إن ماريا ديمتريفنا آخروسيموفا ودينيسوف هما الشخصيتان الوحيدتان اللتان سمّيتهما باسمين قريبين من اسمَيْ شخصين واقعيين من أشخاص المجتمع في ذلك العصر، من دون أن أريد هذا ومن دون أن أفكّر فيه. وكانت تلك خطيئة ارتكبتها. ولكن الخطيئة اقتصرت على أنني وضعت في روايتي هاتين الشخصيتين اللتين تمتازان بسمات من سمات الطبع خاصّة جدًّا، ولا شك في أن القارئ سيوافق على أن دورهما لا شأن له بالواقع. أما الشخصيات الأخرى فقد ابتكرتها ابتكارًا تامًّا، حتى إنها ليس لها نماذج محددة في ما يرويه الرواة أو في ما اشتمل عليه الواقع.

5 - أريد أن أقول الآن كلمة في أمر الاختلاف بين وصفي لحوادث التاريخ وبين ما يذكره المؤرخون. إن هذا الاختلاف ليس طارئًا عارضًا، وإنما هو أمر لا مفر منه وطبيعي. فالمؤرخ والفنان حين يرسمان صورة لعصر من العصور يستهدفان أمرين مختلفين كل الاختلاف. إن المؤرخ ليخطئ إذا هو أراد أن يصوِّر شخصًا من أشخاص التاريخ تصويرًا تامًّا يتناوله كلَّه ويرسم مجموع علاقاته المعقدة بجميع جوانب الحياة. وكذلك لا يقوم الفنان بمهمته إذا

هو عرض شخصيته في وضعها التاريخي دائمًا. إن كوتوزوف ليس في كل لحظة راكبًا حصانه الأبيض، ممسكًا منظاره المقرِّب، مشيرًا إلى العدو. وإن روستوبتشين ليس في كل لحظة حاملًا المشعل بيده يحرق منزله في فورونزوفو (وذلك ما لم يفعله أبدًا). وإن الإمبراطورة ماريا فيدوروفنا ليست في كل لحظة واقفة بمعطفها المصنوع من فرو القاقم، مستندة بيدها إلى سفر القوانين. ومع ذلك ففي هذه الصورة إنما يتمثّل خيال الشعب هؤلاء الأشخاص.

إن المؤرخ الذي يدرس الدور التاريخي الذي قام به شخص في تحقيق هدف واحد من الأهداف، يقع على أبطال. أما الفنان الذي يدرس أفعال فرد من الأفراد في جميع ظروف الحياة، فإنه لا يمكنه، ولا يجب عليه، أن يرى أبطالًا إنما هو يرى بشرًا.

المؤرّخ مضطّر في بعض الأحيان من أجل تشويه الحقيقة أن يردَّ جميع أفعال شخص تاريخي إلى فكرة وحيدة أضفاها على هذا الشخص. أما الفنان فإنه يرى في كون هذه الفكرة وحيدة أمرًا لا يتفق والمهمة التي يريد أن ينهض بها، وهو يحاول أن يفهم وأن يصوِّر لا صانعًا شهيرًا من صانعي التاريخ، بل إنسانًا من بني البشر.

والاختلاف بين المؤرخ والفنان يكون في وصف الحوادث أشدّ وأعمق.

فأما المؤرخ فإنه يهتم بنتائج حادث من الحوادث، وأما الفنان فإنه يعنى بالحادث نفسه. إذا وصف المؤرخ معركة قال: «إن الجناح الأيسر من جيش كذا قد هجم على قرية كذا، فهزم العدو، لكنه اضطر إلى التراجع، فاندفع سلاح الفرسان في المعركة فدحر العدو». إن المؤرخ لا يستطيع أن يعبّر بغير هذا الأسلوب، ومع ذلك فإن هذه الكلمات كلها ليس لها في نظر الفنان أي معنى، حتى إنها لا تبدو له ذات صلة بالواقعة نفسها. ذلك أن الصورة التي يرسمها الفنان للحادث الذي وقع إنما يستمدّها من تجربته مثلما يستمدّها من الرسائل أو المذكرات أو الروايات التي رجع إليها واعتمد عليها، سواء بسواء. وكثيرًا ما تجيء النتيجة التي سمح المؤرخ لنفسه أن يستخلصها (عن معركة من المعارك) مما قامت به هذه الجيوش أو تلك من أعمال

مخالفة للنتيجة التي ينتهي إليها الفنان. والاختلاف بين المؤرخ والفنان في ما يخلصان إليه من نتائج إنما يرجع إلى اختلاف الينابيع التي متح منها هذا وذاك. فالينابيع الرئيسية التي يستقي منها المؤرخ في ما يتعلّق بالمعركة مثلًا إنما هي تقارير مختلف الضباط والقائد العام.

أما الفنان فإنه لا يستطيع أن يستقي من مثل هذه الينابيع، لأنها لا تقول له شيئًا، حتى إن الفنان يعرض عنها لأنه يقع فيها على كذب لم يكن منه مفَرّ. لا داعي أن نكرر ما هو معلوم من أن كل معركة إنما يصف كل خصم من الخصمين حوادثها وصفًا مختلفًا عن وصف الآخر لها في جميع الأحوال تقريبًا. فكل وصف لمعركة من المعارك يشتمل على كذب حتمًا، وهو كذب مردّه إلى ضرورة الاقتصار على بضع كلمات لوصف الأعمال التي قام بها آلاف من الناس منتشرون على عدة كيلومترات، يعانون كلهم حالة عنيفة من فرط الاهتياج تحت تأثير الخوف والشعور بالعار والإحساس بالموت.

يقال لنا عادة في وصف المعارك إن قطعة من قطعات الجيش هي قطعة كذا، قد أرسلت للهجوم على موقع كذا، ثم صدر إليها أمر بالانسحاب، إلخ، فكأنهم يسلمون بأن ذلك النظام نفسه الذي يُخضع ألوف الأفراد لإرادة قائد واحد على أرض المناورات، سيفعل هذا الفعل نفسه على أرض أخرى يكون الأمر فيها أمر حياة أو موت. إن كل رجل ذهب إلى الحرب يعلم مدى الخطأ في هذا التصوّر. ومع ذلك فعلى افتراض من هذا النوع إنما تُبنى التقارير الرسمية التي تستعمل بعد ذلك أساسًا للأوصاف التي يكتبها المؤرخون[1].

طفْ على جميع القطعات بعد انتهاء معركة على الفور، أو بعد انتهائها بيوم أو يومين، قبل أن يكون أي تقرير قد كُتب، وأسأل أي جندي أو أي

(1) بعد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب ووصف معركة شونغرابن، نقل بعضهم إليّ رأي نيقولا نيقولايفتش موارفييف كارسكي في هذا الوصف للمعركة، فكان من شأن أقواله أن عززت اقتناعي. لقد صرح ن. ن. مورافييف، وهو قائد عام، بأنه لم يقرأ في حياته وصفًا لمعركة من المعارك أكثر أمانة، وبأن تجربته الشخصية قد أقنعته بأن تنفيذ أوامر القائد العام تنفيذًا حرفيًا أمر مستحيل.

ضابط صف أو أي ضابط كيف جرى الأمر. لسوف تشعر، بعد أن يقصّوا عليك ما يقصّون، شعورًا شاقًا مبهما غامضًا بشيء ضخم معقّد متنوع إلى غير نهاية. ولكنك لن تعلم من أحد، ولا من القائد الأعلى، كيف جرى الأمر في جملته. ثم تبدأ التقارير بالوصول بعد يومين أو ثلاثة أيام، ويأخذ المهذارون يروون للناس كيف جرى هذا الذي لم يروه، ثم يتم تلفيق التقرير العام، ووفقًا لهذا التقرير العام إنما يتكون رأي الجيش. إن كل واحد من المشتركين في المعركة ليواسيه ويعزّيه أن يبادل الآخرين شبهاته وما يدور في ذهنه من شكوك في صدق هذه الصورة التي هي صورة زائفة لكنها واضحة عدا أنها تتملّق النفس بما تشتمل عليه من فخار. فاسأل بعد انقضاء شهر أو شهرين واحدًا من أولئك الذين شاركوا في المعركة. إنك لن تحسَّ في ما يرويه لك عندئذ شيئًا من تلك البساطة وتلك الحياة الفوارة التي أحسستها في ما رواه لك من قبل، لأن ما يرويه لك الآن مستمَدّ من التقرير الذي اطّلع عليه. لقد أصبح منذ الآن لا يتكلّم إلّا وفقًا للنص المكتوب. هكذا كانت الأقاصيص التي حكاها لي عن معركة بورودينو كثير من رجال أذكياء شاركوا في تلك المعركة. لقد قصّوا عليَّ جميعًا شيئًا واحدًا، وكانت قصص الجميع مستمَدة من الوصف الخاطئ الذي أورده ميخائيلوفسكي – داينلوفسكي، وأورده جلنكا، وآخرون. حتى التفاصيل التي ذكروها لي كانت واحدة، رغم أنهم كانت تفصل بعضهم عن بعض في ساحة القتال فراسخ.

بعد الاستيلاء على سيباستوبول أرسل إليَّ قائد المدفعية كريانوفسكي، تقارير ضباط المدفعية في جميع المواقع المحصَّنة، ورجاني أن أكثّف في تقرير واحد، تلك التقارير التي يبلغ عددها زهاء عشرين تقريرًا. يؤسفني أنني لم أنسخ تلك التقارير. إنها أجمل نماذج لذلك النوع الساذج من الكذب العسكري الذي لا بد منه، والذي عليه يعتمد كل وصف. إني لعلى يقين بأن كثيرًا من رفاقي الذين كتبوا تلك التقارير سيضحكون مخلصين حين يقرأون هذه الأسطر فيتذكرون ذلك الذي كتبوه تنفيذًا للأوامر عن أمور كان يستحيل عليهم أن يعرفوها. إن جميع الذين خاضوا حربًا يعرفون مدى قدرة

الروسي على حُسن البلاء في القتال، ومدى عجزه كذلك عن وصف أعماله مع ما يوجبه ذلك الوصف من فخار وكذب. وجميع الناس يعلمون على كل حال أن مهمة كتابة التقارير في جيوشنا إنما يعهد بها خاصة إلى رجال أجانب.

هذا كله إنما أقوله لأبيّن أن الكذب شيء محتوم في الأوصاف الحربية التي يستعملها المؤرخون الحربيون كمواد حربية، ولأبيِّن إذًا أن الاختلاف بين الفنان والمؤرخ في فهم حوادث التاريخ كثيرًا ما يكون أمرًا محتومًا. ولكن عدا هذا الاضطرار إلى الكذب في عرض الحوادث التاريخية، رأيت لدى مؤرّخي العصر الذي اهتممت به - وربما كان مرد ذلك إلى عادة جمع الوقائع وعرضها موجزة وجعلها مطابقة لما تتصف به الحوادث من طابع المأساة - رأيت طريقة خاصة في القصص لا يفسد فيها الكذب والتشويه الوقائع ذاتها فحسب، وإنما يفسدان كذلك دلالة الوقائع ومعناها. كثيرًا ما تساءلت وأنا أدرس كتابَيْ المؤرخين الرئيسيين اللذين أرَّخا ذلك العصر، وهما تيير وميخائيلوفسكي - داينلوفسكي، كثيرًا ما تساءلت متحيرًا كيف أمكن أن تُطبع أمثال هذه الكتب وأن تجد قراءً يقرأونها. دعك من أنهما يعرضان حوادث واحدة عرضَيْن متناقضين تناقضًا كاملًا بلهجة تشتمل على أكبر الجد وتوهم بأعظم النفاذ مع الاستناد إلى مراجع كثيرة والاعتماد على مصادر غزيرة، لقد وجدت لدى هذين المؤرخين عدا ذلك أوصافًا للحوادث لا أدري هل يجب عليَّ أن أضحك أو أن أبكي حين أتذكر أن هذين الكتابين هما أعظم الكتب التي تؤرخ ذلك العصر، وأن لهما من القراء آلافًا. سأروي لكم مثالًا واحدًا مستمدًا من كتاب المؤرخ الشهير تيير، فهو بعد أن يحكي أن نابوليون جاء إلى روسيا بأوراق مالية مزيفة، يقول: «لقد عدل نابوليون عن استعمال هذه الوسائل مدفوعًا إلى ذلك بدافع البر الذي يجدر به ويجدر بالجيش الفرنسي، وأخذ يوزع معونات على المصابين بأضرار الحرائق. ولكن لما كانت المؤونات أثمن من أن تظل توهب زمنًا

طويلًا لأجانب أكثرهم أعداء، فقد آثر نابوليون أن يقدم إليهم أموالًا، فوزع عليهم روبلات ورقية[1]».

إنك إذا نظرت إلى هذه الفقرة معزولة عن مجموع الكِتَاب بدت لك سخيفة سخفًا رهيبًا، ولا أقول بدت لك منافية للأخلاق منافاة شديدة. ولكنها إذا وُضعت في مكانها من مجموع الكتاب لم تفاجئك ولم تدهشك لأنها تتفق كل الاتفاق مع النسق العام في سرد الحوادث، يمتلئ تنفخًا وأبهة ويخلو من المعنى الدقيق والدلالة المحددة.

هكذا تكون مهمة المؤرخ ومهمة الفنان مختلفتين كل الاختلاف، فما ينبغي أن يندهش أحد مما يراه في كتابي من خلاف بيني وبين المؤرخين في وصف الحوادث ورسم صور الأشخاص.

ولكن الفنان يجب ألّا يغيب عن باله أن الفكرة التي يكوِّنها الشعب لنفسه عن الشخصيات والحوادث ليست من نتاج الخيال، وإنما هي مستمدة من طريقة المؤرخين في تجميع الوثائق. لذلك يجب على الفنان أن يستهدي بالوثائق التاريخية كما يستهدي بها المؤرخ سواء بسواء، وإن كان يفهم هذه الشخصيات وهذه الحوادث فهما مختلفان عن فهم المؤرخ كل الاختلاف. **فحيثما تَرَوا في كتابي أشخاصًا من التاريخ يتكلّمون ويعملون فاعلموا أنني ههنا لم أخترع شيئًا من الأشياء اختراعًا وإنما اعتمدت على المواد التي وقعت عليها والتي تشكّلت منها أثناء عملي مكتبة كاملة. وإذا كنت لا أستحسن أن أذكر هنا عناوين الكتب التي رجعت إليها، فإن بإمكاني أن أذكرها في كل حين.**

6 – هناك أمر أخير أعدّه أخطر الأمور شأنًا، هو اعتقادي بأن من يسمَّون عظماء الرجال ليس لهم كبير شأن في الحوادث التاريخية.

إن دراسة عصر يبلغ ذلك المبلغ من المأساوية، ويبلغ ذلك المبلغ من الغنى بضخامة الحوادث، ويبلغ ذلك المبلغ من قربه منا، ويبلغ ذلك المبلغ من بقاء ما يروى عنه حيًّا هذه الحياة كلها ومتنوّعًا ذلك التنوّع كله، أقول إن

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

دراسة عصر كهذا العصر قد رسَّخت في نفسي قناعة تصل إلى حد البداهة، هي أن عقلنا عاجز عن معرفة أسباب الحوادث التي تجري. فأن ندَّعي، وذلك أمر يبدو بسيطًا جدًّا لجميع الناس، أن حوادث سنة 1812 إنما سببها حب الغزو عند نابوليون وصلابة الوطنية عند ألسكندر بافلوفيتش، فذلك في نظري رأي سخيف كسخافة قول من قد يقول إن سقوط الإمبراطورية الرومانية إنما يرجع إلى أن فلانًا الهمجي قاد شعوبه ضدَّ الغرب، أو إلى أن هذا الإمبراطور الروماني أو ذاك قد أساء تصريف شؤون الحكم في ولاياته، أو كسخافة قول من قد يقول إن الجبل الضخم الذي كان يُنقب إنما انهار لأن العامل الأخير قد هوى عليه بضربة من فأسه.

إن حادثًا احترب فيه ملايين البشر، وقُتل فيه نصف مليون من الرجال، لا يمكن أن تكون إرادة فرد هي سببه. فكما لا يستطيع عامل من العمال أن يقوِّض وحده جبلًا، كذلك لا يستطيع رجل وحده أن يجبر خمسمائة ألف شخص على أن يموتوا. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فأين هي الأسباب؟ إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الأسباب هي روح الغزو لدى الفرنسيين، وحب الوطن لدى الروس. ويتكلّم مؤرّخون آخرون عن الأفكار الديموقراطية التي نشرتها جيوش نابوليون وعن اضطرار روسيا إلى الدخول في الاتفاق الأوروبي، وما إلى ذلك. ولكن لماذا تحارَبَ ملايين البشر وقتل بعضهم بعضًا، في حين أن كل واحد منهم كان لا يأمل أن تؤدي به الحرب إلى حال أحسن من الحال التي هو عليها، وكانوا جميعًا مهدَّدين من الحرب بالوصول إلى حال أسوأ من الحال التي كانوا فيها؟ من ذا الذي أمرهم بهذا؟ لماذا فعلوا هذا الذي فعلوه؟ ذلكم هو السؤال الذي يبدو أنه يطرح نفسه على كل فرد طرحًا واضحًا. وفي وسع المرء أن يفترض افتراضات لا نهاية لها عن أسباب هذا الحدث العجيب السخيف، بنظرة إلى الوراء، ولقد افترضت افتراضات لا نهاية لها فعلًا، ولكن ضخامة عدد هذه الافتراضات أو هذه الاستنتاجات التي تهدف إلى غاية واحدة تدل هي نفسها على أن ثمة أسبابًا لا نهاية لها، وأنه ما من سبب من هذه الأسباب يمكن أن يعَدَّ هو السبب الحقيقي.

لماذا اقتتل ملايين البشر وقتل بعضهم بعضًا بينما يعلم كل واحد منهم، منذ أن كان العالم عالمًا، أن هذا الاقتتال وهذا القتل شرّ، روحًا وجسمًا؟

لقد اقتتلوا وقتلوا لأن الاقتتال والقتل أمران لا مفرَّ منهما، فكانوا حين يقتتلون ويقتلون إنما يخضعون لذلك القانون الأوّلي، القانون الذي يخضع له عالم الحيوان، القانون الذي يخضع له النحل حين يقتل بعضه بعضًا في الخريف، ويخضع له ذكور الحيوان حين يفني بعضهم بعضًا. ليس هناك جواب آخر نجيب به عن ذلك السؤال الرهيب.

تلك حقيقة ليست بديهية فحسب، بل هي فطرة أيضًا في كل فرد؛ وما كنا لنحتاج إلى البرهان عليها لولا أن في الإنسان شعورًا آخر هو إحساسه بأنه حر في كل لحظة يقوم فيها بعمل من الأعمال.

إننا إذا ألقينا على التاريخ نظرة عامة شاملة اقتنعنا بأن هناك قانونًا أبديًا يحكم الحوادث. ولكننا حين ننظر إلى التاريخ نظرة شخصية نقتنع بنقيض ذلك.

إن الإنسان الذي يقتل شبيهه الإنسان، ونابوليون الذي يصدر أمره بعبور نيمن، وأنت وأنا اللذان نقدم طلبًا للحصول على وظيفة، واللذان نرفع ذراعنا ونخفضها، نحن جميعًا موقنون يقينًا مطلقًا بأن كل فعل من أفعالنا هذه قائم على أسباب معقولة، وقائم على حرية الإرادة، أي أن تصرفنا على هذا النحو أو على ذلك النحو الآخر إنما هو رهن بنا ومتوقف علينا وخاضع لمشيئتنا. وهذا اليقين أمر طبيعي فينا عزيز على نفوسنا، فلا تستطيع براهين التاريخ ولا إحصاءات الجريمة التي تقنعنا بأن غيرنا محروم من حرية الإرادة، أن تحول بيننا وبين الشعور بأن حرية إرادتنا نحن تشمل جميع ما نقوم به من أعمال.

ذلك تناقض يبدو أن حلَّه مستحيل. إنني حين أقوم بعمل من الأعمال أكون موقنًا بأنني حر الإرادة، وبأنني سيد نفسي. ولكن لو نظرت إلى عملي على أنه مشاركة في مجموع حياة الإنسانية (في دلالته التاريخية) خلصت من ذلك إلى أنه مقدَّر من قبل، وأنه لا يمكن تحاشيه. فما مصدر الخطأ؟

إن الملاحظات السيكولوجية التي تتناول قدرة الإنسان على أن ينسب

بنظرة إلى الخلف في الحال إلى كل فعل تمَّ القيام به سلسلة من الدواعي يزعم أنها حرة (وسوف أفصِّل القول مزيدًا من التفصيل حول هذا الأمر في موضع آخر)، تؤكد أن الافتراض الذي يذهب إلى أن شعور الإنسان بأنه حر عند قيامه ببعض الأعمال إنما هو شعور كاذب. على أن هناك ملاحظات سيكولوجية أخرى تبرهن على أن ثمة أفعالًا لا يكون فيها الشعور بالحرية ناشئًا عن نظرة إلى الوراء، وإنما هو شعور يصاحب الفعل لحظة القيام به، ولا مجال فيه لجدال، ولا سبيل إلى جحوده. فمهما يقل أصحاب النظرية المادية فإنني أستطيع حتمًا أن أفعل أو أن أمسك عن الفعل متى كان الأمر أمري أنا وحدي. إنني أستطيع في هذه اللحظة نفسها، وبإرادتي وحدها، أن أرفع يدي أو أن أخفضها. وأستطيع أن أتوقّف عن الكتابة. وتستطيعون أنتم أيضًا أن تتوقفوا فورًا عن قراءة هذا الذي تقرأونه من كتابتي. وما من شك في أنني أستطيع بإرادتي وحدها، ورغم جميع العوائق، أن أنتقل بفكري الآن إلى أمريكا، أو أن انتقل به إلى مسألة رياضية تهمني. إنني أستطيع، لأجرّب حريتي، أن أرفع ذراعي في الهواء، أو أن أخفضها خفضًا قويًا إلى تحت. ولكن هذا طفل يقف بقربي. وهأناذا أرفع يدي فوقه، وأهم أن أخفضها ذلك الخفض القوي نفسه. إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. وهذا كلب يهجم على الطفل. إنني لا أستطيع أن لا أرفع يدي فأزجر الكلب. وهبْني جنديًا في الرتل، فإنني لا أستطيع إلّا أن أساير حركة الرتل. ولا أستطيع أثناء المعركة أن لا أهجم مع فوجي الهاجم، وأن لا أفر حين يفر جميع من حولي. إنني لا أستطيع، إذا كنت محاميًا يدافع عن متهم أمام محكمة، أن لا أتكلم، وأن لا أعلم سلفًا ما ينبغي لي أن أقوله. وإنني لا أستطيع أن لا أطرف جفنيَّ حين أرى ضربة موجهة إلى عيني.

هناك إذن نوعان من الأفعال. فبعض الأفعال رهن إرادتي، وبعضها مستقل عن إرادتي. والخطأ الذي يولِّد التناقض إنما هو ناشئ عن أن الشعور بالحرية (وهو هنا شعور مشروع) الذي يصاحب كل فعل متصل بذاتي وبأعلى جزء مجرد من كياني، أنقله أنا بغير حق إلى تلك الأفعال التي أقوم بها وتكون متصلة بإرادات أخرى وتكون رهنًا بمساهمة إرادات

أخرى غير إرادتي. إنه لمن العسير جدًّا أن نعيِّن حدود مجال الإرادة ومجال الضرورة، وإن تعيين هذه الحدود لهو المشكلة الأساسية في علم النفس. ولكن إذا نحن لاحظنا الحالات التي يظهر فيها أكبر قدر من حريتنا وأكبر قدر من خضوعنا للضرورة، فلا يمكن إلّا أن نرى أن عملنا كلما كان أقرب إلى التجريد كان أملًا بالحرية، وأن عكس هذا صحيح، أي أن عملنا كلما كان مرتبطًا بالآخرين كان حظه من الحرية أضأل.

هناك رابطة تشدنا إلى أقراننا البشر هي أقوى الروابط وأعسرها زوالًا وأثقلها وأبقاها، إنها رابطة السلطة. والسلطة بمعناها الحقيقي ليست إلّا خضوعًا يخضعه المرء لغيره.

ولقد اقتنعت أثناء عملي اقتناعًا عامًا بهذه الحقيقة، سواء أكان هذا الاقتناع خطأ أم كان صوابًا. لذلك فإنني حين وضعت الحوادث التاريخية التي وقعت في سنوات 1805 و1807 و1812 خاصّة، وهي السنوات التي تظهر فيها الحتمية بارزة أكبر بروز، لم أستطع أن أنسب شأنًا كبيرًا إلى الأعمال والإشارات التي قام بها رجال ظنّوا أنهم يوجهون هذه الحوادث ويتحكمون بها، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا أقل سائر العاملين تدخلًا فيها بنشاط إنساني حر. إن نشاطهم لم يهمني إلّا من حيث هو مثال على قانون الحتمية ذاك الذي يحكم التاريخ في نظري، ومن حيث هو مثال على ذلك القانون السيكولوجي الذي يدفع الإنسان حين يقوم بعمل هو أقل الأعمال اتصافًا بالحرية، إلى أن يتخيّل بعد قيامه بهذا العمل سلسلة من الاستدلالات هدفها أن تبرهن له هو نفسه على أنه حر.

ليون تولستوي

الحرب والسّلم

الكتاب الأول

نشر الكتاب الأول من رواية «الحرب والسلم» في مجلة «الرسول الروسي» أول مرة سنتي 1865 – 1866 بعنوان «سنة 1805»*.

---

* جاء في الرواية إشارات كثيرة جدًا إلى حوارات وعبارات وردت بالفرنسية في الأصل. ولأنه تمت ترجمتها فقد حذفنا هذه الإشارات التي تربك القارئ.

الجزء الأول

الفصل الأول

ليست جنوه ولوكا الآن، يا عزيزي الأمير، إلّا إقطاعات لأسرة بونابرت[1]. ما هما الآن إلّا أملاك لها. فإذا زعمت لي أننا لسنا في حرب، وإذا ظللت تبيح لنفسك أن تموِّه هذه الأعمال الشائنة كلها، وأن تخفِّف من أمر هذه الفظائع التي يرتكبها عدو المسيح هذا (ويمينًا إني لأؤمن بذلك)، فاعلم أنني أنكرك عندئذ ولا أعرفك، فلا أنت صديقي، ولا أنت خادمي الأمين، كما تقول حسنًا حسنًا. يومك سعيد. أرى أنني أخفتك. اجلس وحدِّث.

كذلك قالت في شهر تموز (يوليو) من عام 1805، آنا بافلوفنا شيرر، وهي آنسة نبيلة مرموقة من خدينات الإمبراطورة ماريا فيدوروفَنا[2]، بل هي صديقة حميمة لها. قالت هذا الكلام مخاطبة الأمير فاسيلي، وهو شخص خطير الشأن يحتل في الدولة منصبًا عاليًا، وذلك حين وصل إلى سهرتها أول الواصلين. وكانت آنا بافلوفنا تسعل منذ بضعة أيام، وتقول إنها مصابة بإنفلونزة (تلك كلمة كانت في ذلك الأوان جديدة لا تستعملها إلّا قلة نادرة

---

(1) في شهر حزيران من سنة 1805، بعد أن نُصِّب نابليون ملكًا على إيطاليا وميلانو، ضم «الجمهورية الليجورية» (جمهورية جنوه) إلى الامبراطورية الفرنسية، وأزال جمهورية لوكا الصغيرة في توسكانيا، التي كانت منذ سنة 1796 تحت السيطرة الفرنسية أيضًا. ووهب الجمهورية الثانية لأخته ايليز باكتشيوشي التي أصبحت دوقة لوكا وبيومبينو.

(2) هي أرملة بولس الأول، وأم ألكسندر الأول، والامبراطورة ماريا (1759 – 1828) كانت أميرة فورتنبيرج، وقد وصلت إلى روسيا سنة 1776 وتزوّجت فيها، وكانت ترعى وتحمي بيوتًا للأطفال، ومدارس داخلية للبنات.

من الناس). وفي بطاقات الدعوة التي حمَّلتها في الصباح لخادمٍ يرتدي كسوة رسمية حمراء، كتبت تقول للجميع بغير استثناء:

إذا لم يكن لديك ما هو أهم من ذلك يا عزيزي الكونت (أو يا عزيزي الأمير)، وإذا كان لا يروِّعك كثيرًا قضاء السهرة في منزل مريضة مسكينة، فلسوف يسرني أعظم السرور أن أراك عندي بين الساعة السابعة والساعة العاشرة.

آنيت شيرر

أجاب الأمير من غير أن يضطرب أي اضطراب لهذا الاستقبال الذي استقبلته به:

- رباه! يا لها من فورة شديدة!

وكان الأمير فاسيلي يرتدي البزة المزركشة التي يرتديها رجال البلاط، مزدانة بأوسمة. وكان يلبس جوربين من حرير وينتعل خفَّين أنيقين، وكان وجهه المفلطح متألقًا.

وكان يتكلم بتلك اللغة الفرنسية المتأنقة التي كان يتكلم بها أجدادنا، بل كانوا بها يفكِّرون؛ هذا إلى نبرات متعاذبة تنمّ عن معاني الرعاية والحماية التي تُعهد في رجل خطير الشأن دلف إلى الشيخوخة في وسط المجتمع الراقي وفي كنف البلاط الإمبراطوري.

دنا الأمير فاسيلي من آنا بافلوفنا، وقبَّل يديها عارضًا صلعته المعطَّرة الملتمعة، ثم جلس على أريكة من الأرائك جلسة مريحة. وقال بذلك الصوت نفسه، وبلهجة تخفي الوراء الأدب واللطف والمودة، شيئًا من عدم الاكتراث بل شيئًا من السخرية:

- قبل كل شيء، قولي لي كيف صحتك يا صديقتي؟

وأضاف يقول:

- طمأنني صديقك عنك!

فقالت آنا بافلوفنا:

- كيف تتحسّن صحة المرء وهو معذّب النفس؟ هل يستطيع الإنسان

في هذه الأيام أن يحتفظ بهدوئه وطمأنينته إذا كان ذا قلب؟ سوف تبقى طوال السهرة، في ما آمل...

- وحفلة سفير إنجلترا؟ نحن في يوم الأربعاء. ولا مناص لي من إثبات وجودي في الحفلة. وستجيء ابنتي لتصحبني إلى هناك.

- كنت أظن أن هذه الحفلة قد ألغيت. لا أكتمك أن هذه الحفلات جميعها وهذه الأسهم النارية كلها قد غدت تافهة.

أجاب الأمير الذي ألف أن يقول أشياء لا يريد حتى أن يصدقها سامعه، وإنما هو يفعل ذلك بحكم العادة كنوَّاس أحسنت تعبئته:

- لو عرفت أنك ترغبين في إلغاء الحفلة لألغيت.

- لا ترهقني. قل لي: ماذا تقرر بشأن برقية نوفوسلتسوف؟[1] إنك مطلع على كل شيء.

أجاب الأمير بلهجة باردة تفيض ضجرًا:

- ما عسى أقول لك؟ ماذا تقرر؟ تقرر أن بونابرت أحرق سفنه، وأظن أننا بسبيل إحراق سفننا.

كان الأمير فاسيلي يتكلّم دائمًا بتراخ وتوانٍ، كممثل يردّد دورًا طالت معرفته به، وطال تكراره له. ولم تكن كذلك آنا بافلوفنا شيرر، فقد كانت رغم أنها في الأربعين من عمرها تزخر حرارة وجَيَشانًا واندفاعًا.

وقد أصبحت الحماسة وظيفة اجتماعية لها، وبلغت من ذلك أنها حتى حين لا تحرص على هذه الحماسة أحيانًا، لا تملك إلّا أن تصطنعها،

---

(1) نيقولا نوفوسلتسوف (1761 - 1836). قضى عدة سنين من شبابه في إنجلترا، فلما عاد إلى روسيا، أصبح عضوًا في «لجنة الخلاص العام»، أي انتمى إلى تلك الحلقة من أصدقاء ألكسندر الشاب التي كانت تهيأ معه مشاريع الإصلاحات الليبرالية. وقد عين وزيرًا مساعدًا لوزارة العدل سنة 1803، وأرسل عام 1804 إلى إنجلترا ليفاوض في مشروع إقامة تحالف، بل وليبحث كذلك مشروعه الذي تخيّله عن تحقيق سلام عام في أوروبا، وهو مشروع لم يثمر، كما لم يثمر أيضًا مشروعه الخاص بوضع دستور لروسيا تصوَّره سنة 1817، وقد شغل منصبًا بارزًا في بولنده، وبدأ هنالك سياسة معادية لبولنده، وصار رجعيًا شيئًا بعد شيء، وعين رئيسًا لمجلس الوزراء في عهد نيقولا الأول.

من أجل ألا تخيِّب ظنَّ من يعرفونها بخصوص ما يتوقّعونه منها. وكانت الابتسامة المتحفظة التي لا تبرح تتموّج على وجهها، رغم أنها لا تناسب قسماتها الذابلة الذاوية، تدل كما تدل لدى الأطفال المدلّلين، على شعورها الدائم بهذه الشائبة الحلوة التي لا تريد إصلاحها في نفسها، ولا تستطيع، ولا ترى ضرورة لذلك.

وقد اتّقدت حرارة آنا بافلوفنا أثناء الحديث عن الوضع السياسي.

- آ... لا تكلمني عن النمسا! قد أكون جاهلة بهذه الأمور، ولكنني على يقين من أن النمسا لم تشأ الحرب أبدًا ولا تشاؤها. إنها تخوننا. إن على روسيا وحدها أن تنقذ أوروبا. إن مولانا يعرف رسالته السامية، وسيكون وفيًا لها أمينًا عليها[1]. ذلك هو الشيء الوحيد الذي أؤمن به. إن إمبراطورنا الطيب الرائع يقع على عاتقه القيام بأنبل دور في هذا العالم، وهو يبلغ من سمو الفضائلِ وروعة الخصال أن الله لن يتخلّى عنه، فلا بد أن يحقّق رسالته، فيحطِّم أفعوان الثورة الذي يتجلّى اليوم أفظع ما يكون في شخص هذا السفاح، هذا الوغد. وعلينا، علينا وحدنا، إنما يقع عبء الفداء. إنني لأسألك: على من نستطيع أن نعتمد؟... إن إنجلترا بروحها التجارية، لن تفهم ولا تستطيع أن تفهم كل ما تتصف به نفس الإمبراطور الإسكندر من عظمة. لقد رفضت الجلاء عن مالطة[2]. إنها تراوغ، وتتصوّر الوراء أعمالنا نياتٍ مبيتة. ماذا قالوا لنوفوسلتسوف؟... لا شيء. إنهم لم يفهموا ولا يريدون أن يفهموا تفاني إمبراطورنا الذي لا ينشد لنفسه شيئًا، وإنما ينشد كل شي لخير العالم. وبماذا وعدوا؟ لم يعدوا بشيء. وحتى الوعود التي قطعوها على أنفسهم لن يفوا بها. وقد أعلنت بروسيا أن بونابرت لا يُغلب وأن أوروبا كلها لا تقدر عليه ولا تستطيع أن تقف في وجهه. ولست أصدق

---

(1) هو الإمبراطور ألكسندر (1801 - 1825)، ولد سنة 1777، وتتلمذ على الجمهوري السويسري فريدريك دو لاهارب، وزخرت نفسه بميول ليبرالية في بداية حكمه.

(2) إن معاهدة آميانس المعقودة بين إنجلترا وفرنسا كانت توجب على إنجلترا بأن تسلم مالطة إلى «نظام الفرسان»، ولكنها لم تفعل ذلك قط.

كلمة واحدة مما يقوله هاردنبرغ وهوجفتس[1]. ليس هذا الحياد البروسي المزعوم إلّا فخًا[2]. أنا لا أؤمن إلاّ بالله، وبالمصير العظيم الذي كُتب لإمبراطورنا العزيز. لسوف ينقذ أوروبا!...

قالت آنا بافلوفنا هذا كله ثم أمسكت عن الكلام فجأة وهي تبتسم ابتسامة تسخر بها من حماستها نفسها. وقال الأمير مبتسمًا:

- أعتقد أنك لو أُرسلت أنت بدلًا من صاحبنا فنتسنغرود[3] لانتزعت انضمام ملك بروسيا فورًا بما تملكين من قوة الحجة وبلاغة القول. هلا قدمت إليَّ فنجان شاي؟

- حالًا.

ثم أضافت وقد عادت إلى الهدوء:

- بالمناسبة، سيشهد حفلتي الليلة شخصان مهمان جدًا، أولهما الفيكونت مورتمار[4] وهو نسيب آل مونمورنسي عن طريق آل روهان. إنه من ألمع الأسماء في فرنسا. فهو من المهاجرين الأخيار، المهاجرين الصادقين. والثاني هو القس موريو[5]، هل تعرف هذا الرجل الذي يملك

---

(1) وزيران بروسيان، إن الكونت شارل أوغوست هاردنبرغ (1750 - 1822)، وهو خصم لنابوليون، كان وزيرًا للشؤون الخارجية من سنة 1804 إلى سنة 1806، ثم أصبح مستشارًا. وكان الكونت كريستيان أوغوست هوجفتس (1752 – 1831) وزيرًا للشؤون الخارجية من سنة 1802 إلى سنة 1804، وكان يحاول التقارب مع فرنسا، فهو الذي عقد معاهدة صلح مع نابليون بمدينة شونبرون في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1805.

(2) كانت بروسيا، التي يحكمها الملك فريدريك غليوم الثالث (1797 - 1840) تتردد في محاربة نابليون، فكانت خلال سنتي 1804 و1805 تتبع سياسة مراوغة.

(3) هو البارون فرديناند دو فنتسنغرود (1770 - 1818)، أصله من هسن، وقد دخل في خدمة روسيا منذ سنة 1797، وفي عام 1805 أوفد بمهمة إلى ملك بروسيا.

(4) شخصية تخيلها تولستوي تخيلاً، واستوحى ملامحها من شخص الكونت جوزيف دو ميستر الذي عاش في بطرسبورغ من سنة 1802 إلى سنة 1817، سفيرًا لملك ساردينيا.

(5) شخصية إيطالية من صنع خيال المؤلف.

ذكاءً حادًا وفكرًا عميقًا؟ لقد استقبله الإمبراطور. أتعلم ذلك؟

قال الأمير:

- آ... سوف يسرني هذا أعظم السرور.

ثم أضاف يقول بطلاقة خاصة وكأنه لم يتذكّر إلّا في هذه اللحظة ذلك الأمر الذي سيسألها عنه، مع أن هذا الأمر هو الغرض الأساسي من زيارته:

- هل صحيح أن الإمبراطورة الوالدة ترغب في تعيين البارون فونكه سكرتيرًا أول في فيينا؟ إن هذا البارون سيد لا قيمة له في ما يظهر.

كان الأمير فاسيلي يريد أن يعيِّن ابنه لهذا المنصب الذي كان بعضهم يوسِّط الإمبراطورة ماريا فيدوروفنا من أجل الحصول عليه للبارون.

فأغمضت آنا بافلوفنا عينيها تقريبًا، لتشير بذلك إلى أن أحدًا من الناس، لا هي ولا غيرها، يمكن أن يحكم على رغبات الإمبراطورة أو على إرادتها. ولم تزد على أن قالت بلهجة حزينة جافة:

- إن أخت البارون فونكه هي التي أوصت به الإمبراطورة.

وحين نطقت آنا بافلوفنا باسم الإمبراطورة عبَّر وجهها فجأة عن تفانٍ صادقٍ واحترامٍ عظيم يمازجهما شيء من حزن، وهو تعبير يكسو وجهها كلما جاء ذكر إمبراطورتها السامية في أثناء الحديث. وقالت إن صاحبة الجلالة قد تفضّلت فأولت البارون فونكه كثيرًا من الاعتبار. وعادت تغشى نظرتها سحابة من حزن.

سكت الأمير غير مكترث. فأرادت آنا بافلوفنا بما تملكه من براعة وحذق، وما تتصف به من حضور البديهة وسرعة الخاطر كامرأة وكإنسانة ألفت حياة البلاط، أن ترميه بسهم لأنه تجرّأ فقال ذلك القول عن شخص زَكِّي للإمبراطورة، ومن أجل أن تعزيه وتواسيه في الوقت نفسه، فقالت:

- بمناسبة الحديث عن أسرتك، هل تعلم أن ابنتك، منذ أصبحت تظهر في المجتمع، قد غدت بهجة ومسَرّة لجميع الناس؟ إنهم يرونها جميلة كالنهار.

فانحنى الأمير احترامًا وشكرًا. وتابعت آنا بافلوفنا حديثها بعد لحظة صمت، فقالت وهي تقترب من الأمير مبتسمة ابتسامة لطيفة، كأنما لتعبر

له بذلك عن أن الكلام في شؤون السياسة وأخبار المجتمع قد انتهت وأن حديثًا حميمًا يبدأ بينهما الآن:

- كثيرًا ما يخطر ببالي أن الحظ في هذه الحياة موزع توزيعًا فيه كثير من الظلم أحيانًا.

ثم أضافت بلهجة جازمة وهي ترفع حاجبيها:

- لماذا وهبك الله ولدين يبلغان هذا المبلغ كله من اللطف والرقة والروعة (باستثناء صغيرك آناتول، فإنني لا أحبه). إنك آخر من يقدّرهما قدرهما في الواقع، فأنت إذًا لا تستحقّهما.

وابتسمت ابتسامة فيها حماسة. فأجاب الأمير قائلًا:

- ماذا تريدين؟ لو رآني لافاتر[1] لقال إنني محروم من موهبة الأبوة.

- كفى مزاحًا.. فإنما أردت أن أكلمك جادة كل الجد. إنني مستاءة من ابنك الأصغر كما تعلم. وها أنذا الآن أبوح لك بسر (هنا اكتسى وجهها تعبيرًا عن حزن): لقد تحدّثوا عنه لدى صاحبة الجلالة الإمبراطورة، فرثوا لحالك...

فلم يجب الأمير، ولكنها كانت تنتظر جوابه صامتة وهي ترمقه بنظرة ذات دلالة. وقال أخيرًا:

- ما حيلتي؟ تعرفين أنني فعلت من أجل تربيتهم كل ما يستطيع أب أن يفعله، وهما كلاهما أبلهان، لا يختلفان إلّا في أن هيبوليت وادع هادئ، أما آناتول فصاخب وَرِش.

وأضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها، ويحرص على أن يودعها مزيدًا من التعبير، بينما كانت الغضون التي تتكوّن حول فمه تكشف بمزيد من الوضوح عن شيء فظ منفِّر.

- هذا هو الفرق الوحيد.

قالت آنا بافلوفنا وهي ترفع عينيها حالمة مفكّرة:

---

(1) جان غاسبار لافاتر، كاتب ولاهوتي سويسري، نشر سنة كتابًا بعنوان «فن دراسة الهيئة»، وفيه عرض مذهبه في العلاقة بين ملامح الوجه وخصائص النفس، وهو مذهب كسب معجبين متحمّسين، ولكن لم تكن له قيمة علمية.

- لماذا يكون لرجال مثلك أولاد؟ لو لم تكن أبًا لما كان لي عليك أي مأخذ.

- أنا خادمك الوفي، ولك وحدك أستطيع أن أعترف بما في نفسي. إن أولادي هم عراقيل حياتي. إنهم صليبي. هكذا أرى الأمر. ماذا تريدين؟

قال ذلك وصمت لحظة، وعبَّر بحركة من يده عن إذعانه لقَدَره القاسي.

شرد فكر آنا بافلوفنا. ثم قالت تسأله:

- ألم تفكر يومًا في تزويج ابنك المبذّر المتلاف آناتول؟ يقال إن العوانس مصابات بداء التزويج. ولست أعتقد بأن هذا الداء قد أصابني بعد. ولكنني أعرف إنسانة لطيفة تشقى في حياتها مع أبيها، وهي قريبة لنا، أميرة من أسرة بولكونسكي.

لم يجب الأمير فاسيلي، ولكنه بما يملك من فطنة أبناء المجتمع الراقي، عبَّر بحركة من رأسه عن أنه استوعب هذا الاقتراح. ثم قال وقد بان عليه العجز عن كبح مجرى خواطره الحزينة الآسفة:

- هل تعلمين أن أناتول هذا يكلفني أربعين ألف روبل في السنة؟ هذه ميزة أن يكون الرجل أبًا. هل الأميرة التي ذكرتها غنية؟

- الأب واسع الغنى شديد البخل. وهو يعيش في الريف. إنه ذلك الأمير بولكونسكي[1] الذي ترك خدمة الجيش في عهد المرحوم الإمبراطور، والذي خلع عليه لقب «ملك بروسيا». إنه رجل ذكي جدًّا، ولكنْ، له أطوار شاذة وطبعًا صعبًا. وابنته شقية شقاء شديدًا فكأنها صخرة لا إنسانة. ولها أخ هو الذي تزوّج ليزا مانين في الآونة الأخيرة، إنه مرافق كوتوزوف[2]. وسوف يجيء هذا المساء.

---

(1) هنا يستوحي تولستوي شخصية جده لأمه، الأمير نيقولا بولونكسكي الذي ترك الجيش في عهد بطرس الأول.

(2) إن الشاب أندريه بولكونسكي الذي سيضعه المؤلف هو شخصية من صنع الخيال، وقد جعله تولستوي مرافقًا للجنرال ميشيل الياريونوفتش غولنستشيف كوتوزوف (1753 - 1813). وهذا الجنرال قد تميز في حروبه ضد الأتراك، ولا سيما في الاستيلاء على إسماعيل سنة 1790. وقد كان قائدًا للجيش الروسي سنة 1805 في النمسا، وبعد ذلك في تركيا من سنة 1810 إلى سنة 1812، ثم في روسيا سنة 1812.

قال الأمير وهو يتناول يد محدِّثته فجأة ويشدها إلى تحت، لا يدري إلّا الله لماذا:

- اسمعي يا عزيزتي آنيت، دبِّري هذا الأمر فأكونَ خادمك الوفي الأمين أبد الدهر. إنها من أسرة كريمة المحتدّ ثرية. وهذا كل ما أنا في حاجة إليه.

وبحركات طلقة تفيض رشاقة ولطفًا، ومودة وألفة، وهي حركات يتميز بها، تناول يد خدينة الإمبراطورة فقبَّلها، وهزَّها قليلًا وهو يسترخي في أريكته وينظر إلى جانب.

قالت آنا بافلوفنا وقد بان عليها التفكير:

- انتظر، سأكلم الليلة ليزا (زوجة بولكونسكي الشاب)، فقد نفلح في تدبير الأمر حالًا. في أسرتك إنما سأتعلم دور العانس.

الفصل الثاني

امتلأ صالون آنا بافلوفنا شيئًا بعد شيء، فإذا هو يضم كل أبناء المجتمع الراقي ببطرسبورغ. إنهم يتباينون أشد التباين أعمارًا وطباعًا، ولكنهم يتشابهون جميعًا في انتمائهم إلى مجتمع واحد. وقد وصلت كذلك بنت الأمير فاسيلي، هيلين الجميلة، التي جاءت ليصطحبها أبوها إلى حفلة السفير. كانت ترفل في فستان من فساتين حفلات الرقص، يزدان بالأحرف الأولى من اسم الإمبراطورة. وجاءت الأميرة بولكونسكي الصغيرة أيضًا، وهي التي اشتهرت بأنها أفتن امرأة ببطرسبورغ، وقد تزوجت في الشتاء الماضي فكان حبلها يحجبها الآن عن المجتمع، ولكنها لا تزال تحضر الحفلات الحميمة. وجاء أخيرًا الأمير هيبوليت، ابن الأمير فاسيلي، في صحبة مورتمار، فقدَّمه إلى الحضور معرِّفًا به. وكذلك جاء القس موريو، وجاء آخرون كثيرون.

وكانت آنا بافلوفنا تقول لكل قادم من ضيوفها وهي تقوده في كثير من الجد صوب سيدة قصيرة مسنة مزدانة بأشرطة كثيرة قد أقبلت من الغرفة المجاورة منذ أخذ الناس يتوافدون:

- ألم تر عمّتي بعد؟

أو تقول له:

- هل تعرف عمّتي؟

وتنقِّل عينيها ببطء بين الضيف و«عمّتي»، ثم تمضي.

فكان كل ضيف يقوم بواجب تحية هذه العمة التي لم يكن يعرفها أحد، ولا يهم أمرها أحدًا، ولا يحتاج إليها أحد. وكانت آنا بافلوفنا تشهد هذه

التحيات بانتباه فيه حزن وأبّهة معًا، وتشجّعها وتؤيّدها صامتة بغير كلام. وكانت عمتي تحدّث الجميع، بألفاظ واحدة عن صحته وعن صحتها هي وعن صحة صاحبة الجلالة الإمبراطورة التي تحسّنت اليوم والحمد لله. وكان جميع الذين يغادرونها عقب ذلك من دون أن يظهروا تعجُّلًا، وذلك من باب التأدب، يحسّون بشعور التخفّف والارتياح الذي يحسّه المرء بعد فراغه من القيام بواجب ثقيل، ثم لا يهتمون بها ولا يكترثون لها طوال السهرة.

كانت الأميرة بولكونسكي الشابة قد جاءت بشغلها في كيس صغير من القطيفة مطرّز بذهب. وكانت شفتها العليا الجميلة التي يغشاها ظل لطيف من زغب خفيف تنفرج بكثير من اللطف والرقة. وكانت قصيرة بعض القصر في الواقع، حتى إنها حين تنخفض فتطبق على الشفة السفلى ينعم الفم من ذلك ببرطمة تبلغ غاية الروعة. ومهما يكن من أمر فإن هذه الشائبة، أعني قصر الشفة وانفراج الفم، كان يضفي عليها جاذبية خاصة، ويسبغ على جمالها طابعًا فريدًا، كما يحدث هذا لجميع النساء اللواتي يحظين بحسنٍ فتّانٍ حقًّا. وكان جميع الناس يمتلئون بهجة وفرحًا حين يرون هذه الشابة التي ستكون أمًّا بعد حين، هذه الشابة الجميلة، التي تفيض صحة وحياة، وتحتمل حبلها بهذا اليسر كله. حتى إن الشيوخ والشبان الذين تكون نفوسهم كالحة زاخرة بالضجر، ما إن يقضوا في صحبتها بعض الوقت حتى يحسّوا بأنهم صاروا مثلها. وكان الذين يحادثونها، فيرون عند كل كلمة من كلماتها بسمتها الوضاحة ولمعة أسنانها البيض التي تنكشف في كل لحظة، يعتقدون في ذلك المساء بأنهم لطاف محبَّبون إلى النفس أكثر من أي وقت مضى. كان ذلك إحساسًا عامًّا لا يُستثنى منه أحد.

دارت الأميرة الشابة حول المائدة بخطى قصيرة سريعة وهي تتمايل، ثم جلست على أريكة بقرب السماور الفضي وهي تعدل ثوبها جذلى مرحة، فعلت ذلك وكأن الأمر كله لا يعدو أن يكون حفلة مسَرّة وبهجة لها ولكافة من يحيطون بها، وقالت وهي تفتح حقيبة يدها متجهة بكلامها إلى الجميع:

- لقد جئت بشغلي!

واستطردت تقول مخاطبة ربة المنزل:

- حذار يا آنيت. لا تغدري بي. لقد كتبت إليَّ تقولين إنها سهرة صغيرة جدًّا. وأنت ترين مدى ما أنا فيه من تبرّج.

قالت ذلك وباعدت ذراعيها لتبرز ثوبها الرمادي البسيط الأنيق المزدان بالدانتيلا والمحزوم بشريط طويل تحت الثديين قليلًا. فأجابتها آنا بافلوفنا قائلة:

- اطمئني ليز، فسوف تبقين أجمل امرأة.

وعادت الأميرة الشابة تتكلم فقالت تخاطب جنرالًا، بتلك اللهجة نفسها:

- إن زوجي سيتركني، هل تعلم؟ إنه ذاهب إلى الحرب ليُقتل. وأضافت تسأل الأمير فاسيلي:

- قل لي، علامَ هذه الحرب الكريهة؟

ومن دون أن تنتظر جوابًا، التفتت إلى ابنة الأمير، الجميلة هيلين.

قال الأمير لآنا بافلوفنا بصوت خافت:

- ما أعذبها إنسانًا، هذه الأميرة الصغيرة.

ودخل بعد الأميرة بمدة قصيرة شاب ضخم الجسم، قصير شعر الرأس، على أنفيه نظارتان، لباسه بنطلون فاتح على موضة ذلك الزمان، وصدرة عالية وجاكتة بنية. إن هذا الشاب هو ابن غير شرعي لسيد كبير شهير من رجال عهد كاترين، هو الكونت بيزوخوف[1] الذي كان يشارف على الموت بموسكو. والشاب لمّا يمارس بعد أي نشاط، وقد وصل من الخارج منذ مدة قصيرة، وفي الخارج إنما نشأ وتربّى، فهو يظهر الليلة في المجتمع لأول مرة. وقد وجَّهت إليه آنا بافلوفنا التحية التي تخص بها أفرادًا يحتلون أدنى الدرجات في سلَّم مجتمعها. ولكن رغم أنها استقبلته هذا الاستقبال الفاتر، فقد ظهر في وجهها ذلك النوع من القلق أو الفزع الذي يحسّ به

(1) إن اسم بيزوخوف: (ومعناه: بلا أذنين) قد وضعه المؤلف على غرار اسم الكونت بيزبورودكو (ومعناه: بلا ذقن)، الذي كان نائب مستشار في إمبراطورية كاترين الثانية.

امرؤ يرى شيئًا مسرفًا في الضخامة قد نزل في غير محله وداهم بيئة ليست هي البيئة التي تناسبه ويناسبها. والحق أن هذا الفزع، رغم أن بطرس أضخم قليلًا من سائر الحضور، لا يمكن أن يكون سببه إلّا نظرته التي تشعّ ذكاء وخجلًا في آن واحد، وتتصف بأنها قوية الملاحظة، يقظة، وطبيعية معًا، وهي نظرة يتميز بها عن سائر من كانوا في الصالون.

قالت آنا بافلوفنا وهي تبادل عمَّتها نظرة قلقة حين كانت تقوده إليها:

- إنه للطف منك يا سيد بطرس أن تزور امرأة مريضة مسكينة.

فغمغم بطرس ببضع كلمات لا تُفهم، واستمر في تسريح بصره باحثًا عن شيء. وابتسم فرحًا حين حيًّا الأميرة الصغيرة كما يحيي المرء صديقة، وأقبل على العمّة. ولم تكن مخاوف آنا بافلوفنا في غير محلها، لأنه ترك عمتها من دون أن يصغي إلى نهاية كلامها عن صحة صاحبة الجلالة. واستوقفته آنا بافلوفنا مرتاعة قائلة له:

- ألا تعرف الأب موريو؟ إنه رجل مشوّق جدًّا...

فأجابها بقوله:

- سمعت عن مشروعه في إقامة سلام دائم، وهو مشروع ملفت جدًّا، ولكن لا يمكن تحقيقه.

قالت آنا بافلوفنا، لتقول شيئًا ما، ولتستطع أن تعود إلى القيام بواجبات ربة المنزل:

- أتظن ذلك؟

ولكن بطرس ارتكب غلطة منافية للكياسة هي نقيض الغلطة التي ارتكبها منذ هنيهة. فمنذ هنيهة كانت تحدثه سيدة فانصرف عنها قبل أن تتم كلامها، وها هوذا الآن يحتجز أخرى هي في حاجة إلى أن تنصرف عنه، فيأخذ يشرح لآنا بافلوفنا، وقد حنى رأسه وباعد ساقيه الطويلتين، الأسباب التي تدعوه إلى الاعتقاد بأن مشروع الأب موريو وهم وخيال.

قالت آنا بافلوفنا متبسمة:

- سنتكلم في هذا بعد قليل.

حتى إذا تخلّصت من الفتى الذي لا يعرف كيف يعيش، رجعت إلى

النهوض بواجباتها كربَّة منزل، منتبهة ببصرها وسمعها إلى كل شيء، متأهبة لإيقاظ الحديث أنّى يصيبه خمود. فكما يتجول صاحب مصنع من مصانع النسيج في أرجاء مصنعه بعد أن يضع كل عامل من العمال في مكانه، حتى إذا لاحظ توقف أحد الأنوال عن العمل، أو سمع صوتًا غير مألوف، صوتًا فيه صرير أو فيه فرط شدة، هرع إلى النول فأصلح من شأنه، أو أوقفه. كذلك كانت آنا بافلوفنا تجول في صالونها ذاهبة آيبة، فتقبل على جمع صَمَتَ عن الكلام، أو جمع أسرف في الصخب، فإذا هي تعيد إلى ماكينة الكلام حسن سيرها وانتظام عملها، وذلك بكلمة تقولها أو بشخص تنقله من مكان إلى مكان. ولكن كان واضحًا أن تخوفها من بطرس لم يبارحها في غمرة هذه المشاغل. وقد تابعته بنظرة قلقة حين أقبل على الحلقة التي تحيط بمورتمار لينصت إلى ما يقال هناك، ثم اتجه إلى جمع آخر كان يتكلّم فيه الأب موريو. إن هذه السهرة عند آنا بافلوفنا هي بالنسبة إلى بطرس الذي نشأ وتربى في الخارج أول سهرة يشهدها في روسيا. كان يعلم أن المجتمع المثقف في بطرسبورغ محتشد كله هنا، فكانت عيناه تنتقلان من شخص إلى آخر، كعيني طفل في متجر لبيع اللُّعب. وكان يخشى دائمًا أن يفوته حديث مشوّق يمكنه أن يصغي إليه. كان وقد رأى ما في وجوه هؤلاء الأشخاص الذين اجتمعوا هنا من مهابة وثقة يتوقّع في كل لحظة أن يسمع شيئًا فيه ذكاء لامع. وقد بدا له الحديث مشوّقًا، فتوقّف ينتظر فرصة يتاح له فيها أن يعرض وجهة نظره، كما يحب الشبان أن يفعلوا ذلك.

الفصل الثالث

انطلقت سهرة آنا بافلوفنا نشطة حيّة. الأنوال تتحرّك هادرة هديرًا متصلًا مطّردًا. وباستثناء عمّتي التي لم يجالسها أحد سوى سيدة مسنة ذات وجه مهزول أضنته الدموع، والتي تبدو غريبة بعض الشيء عن هذا المجتمع المتألق، كان الضيوف قد انقسموا ثلاث جماعات؛ إحداها كان أكثرها من الرجال، وكان الأب موريو مركزها. والثانية كانت من الشباب وكانت تتألّق فيها الأميرة الجميلة هيلين، ابنة الأمير فاسيلي، والأميرة الصغيرة بولكونسكي، المتورِّدة، الحلوة، على بدانتها بالقياس إلى سنها. والثالثة جماعة مورتمار وآنا بافلوفنا.

إن الفيكونت مورتمار شاب لطيف ناعم القسمات رقيق الإشارات والحركات، يعتقد بأنه من مشاهير الرجال، ولكنه لحسن أدبه وشدة تواضعه يتيح لهذا المجتمع الذي ساقته إليه الظروف، أن ينتفع بوجوده ويستفيد من حضوره. وكان واضحًا أن آنا بافلوفنا إنما تولمه لضيوفها بهجة ومسرة. وكما يعمد مدير المطعم البارع إلى تقديم شريحة من شرائح اللحم على أنها طبق شهي لا يضاهى، مع أن النفس تعافها لو رأتها في مطبخ قذر، كذلك كانت آنا بافلوفنا في ذلك المساء تقدم إلى ضيوفها الفيكونت مورتمار والأب موريو على أنهما ذروة الفكر المرهف. وسرعان ما جرى الحديث في جماعة مورتمار على حادثة اغتيال دوق أنجهين[1]. فقال

(1) إن الشاب لويس أنطوان دو بوربون كونديه، دوق أنجهين، الذي ولد سنة 1772 وهاجر منذ 1789، قد اختطفته شرطة نابليون وقتل رميًا بالرصاص عام 1804، فأثار الاغتيال استياء في روسيا وبروسيا التي عزفت عندئذ عن التحالف الذي كانت تنوي إقامته مع فرنسا.

الفيكونت مورتمار إن الدوق قد هلك ضحية لشهامته ونبل نفسه، وأن حقد بونابرت له أسباب خاصة.

قالت آنا بافلوفنا:

- آ... اقصص علينا هذا يا فيكونت!

وما كان أعظم فرحها إذ شمَّت في جملتها عطرًا يذكِّر بلويس الخامس عشر: اقصص علينا هذا يا فيكونت!

فانحنى الفيكونت ملبيًا، وابتسم في رقّة ولطف. فأهابت آنا بافلوفنا بالجميع أن يصغوا إلى ما سيقّصه، وقامت من حوله حلقة تحيط به.

ودمدمت آنا بافلوفنا تقول لأحدهم:

- كان مونسنيور يعرف الفيكونت معرفة شخصية.

وقالت لآخر:

- إن الفيكونت قصّاص رائع!

وقالت لثالث:

- تعرف قيمة المرء بمعرفة قيمة صحبه.

وهكذا قدَّمت الفيكونت إلى ضيوفها في أبهى صورة، كما تقدَّم شريحة اللحم في طبق ساخن مزدانة ببقدونس.

وتأهّب الفيكونت لسرد قصته وهو يبتسم ابتسامة رقيقة. فقالت آنا بافلوفنا منادية الأميرة الجميلة التي كانت تنتحي جانبًا بقرب جماعة أخرى:

- تعالي إلى هنا يا عزيزتي هيلين.

وكانت هيلين تبتسم، فنهضت وعلى ثغرها تلك الابتسامة نفسها التي لا تتغير، ابتسامة المرأة التي أوتيت جمالًا بارعًا، وهي الابتسامة التي كانت تتألّق على ثغرها حين دخلت الصالون. وبين حفيف ثوبها الأبيض المزدان بلبلاب وطحلب، وتألّق كتفيها البيضاوين، والتماع شعرها ولألاء ماسها، أقبلت على حلقة الرجال الذين تقهقروا أمامها، وجاءت تنضم إلى آنا بافلوفنا منتصبة القامة من دون أن تنظر إلى أحد، ولكنها تبتسم للجميع وكأنها تهب لكل واحد حق الإعجاب بقدِّها الجميل وكتفيها البضّتين ونحرها وظهرها المتعريين في سخاء على موضة ذلك الزمان، وكأنها

تحمل إلى السهرة كلَّ ما تحتاج إليه حفلة راقصة من بهاء وسناء. إن هيلين تبلغ من الجمال أن المرء لا يرى فيها ظلًّا من دلع وغنج، حتى إنه يحس بأنها متضايقة من جمالها هذا الذي لا يمكن جحوده، ومن سلطانها هذا المفرط في القوة والانتصار. وحتى لكأنها تريد أن تخفِّف من تأثير هذا الجمال وهذا السلطان فلا تفلح.

قال أحدهم وهو يراها:

- ما أجملها!

ورفع الفيكونت كتفيه وخفض عينيه كالمبهور، بينما كانت تجلس أمامه، فتضيئه هو أيضًا بنور بسمتها التي لا تفارق ثغرها. قال وهو يبتسم وينحني:

- إنني أخشى أن أرتبكَ ويسقط في يدي أمام مستمعين من هذا النوع!

وأسندت الأميرة ذراعها العارية البضة إلى منضدة، ورأت أن لا داعي إلى إجابته بشيء. وجعلت تنتظر مبتسمة. ولقد ظلت طوال استرساله في كلامه منتصبة الجذع، تنظر بين الفينة والفينة تارة إلى ذراعها الجميلة البضة التي تستند إلى المنضدة استنادًا رفيقًا، وتارة إلى نحرها الذي يفوق ذراعها جمالًا ويزيِّنه نهر من جواهر الماس. وقد عدّلت ثنيات فستانها مرات عدة. فإذا أحدثت القصة في نفوس المستمعين أثرًا التفتت هي إلى آنا بافلوفنا فأسرعت تصطنع ما يعبِّر عنه وجه خدينة الإمبراطورة، ثم عادت تجمد على ابتسامتها المتألقة.

وفي إثر هيلين تركت الأميرة الصغيرة مائدة الشاي وهي تقول:

- انتظريني، سآخذ شغلي.

ثم أضافت تقول مهيبة بالأمير هيبوليت:

- في أي شيء تفكِّر؟ ألا جئتني بحقيبة يدي!

وأبدلت الأميرة مكانها بهمة ونشاط وهي تبتسم للجميع وتكلّم الجميع، حتى إذا جلست راحت تعدل فستانها في فرح. وقالت:

- حسنًا. تستطيعون أن تبدأوا.

واستأنفت شغلها.

مما يخطف البصر أن هيبوليت هذا يشبه أخته الرائعة شبهًا خارقًا، ولكنه

رغم هذا الشبه شديد الدمامة. إن له قسمات أخته، ولكن كل شيء في أخته تضيئه ابتسامتها الدائمة الراضية النضرة الفتية التي يشع منها الفرح بالحياة، ويزيد سناءه وبهاءه هذا القدُّ الجميل الذي يشبه قدود تماثيل اليونان القدامى. أما أخوها فإن وجهه الذي يشبه وجهها قد أسدلت عليه غشاوة من بلادة وغباء، فهو يعبِّر في كل وقت عن مزاج معاند وطبع شرس وغرور طافح، هذا إلى جسم نحيل مهزول؛ إن عينيه وأنفه وفمه وكل قسمة من قسمات وجهه تتقبض جميعًا في جعدة غامضة تنضح تذمرًا وضجرًا، وإن ذراعيه وساقيه تتخذ في جميع الأحيان أوضاعًا مصطنعة متكلّفة ليس فيها شيء من الانطلاق على السجيّة.

قال وهو يجلس بقرب الأميرة، ويسارع إلى وضع نظارة على إحدى عينيه، فكأنه لا يستطيع أن يتكلّم مستغنيًا عن هذه الأداة:

- أهي قصة عن أشباح موتى عائدين؟

فقال القصَّاص وهو يرفع منكبيه مدهوشًا:

- لا يا عزيزي، لا يا عزيزي...

فقال الأمير هيبوليت بلهجة يتضح للسامع منها أنه تكلم قبل أن يفهم معنى ما يقول:

- ذلك أنني أكره قصص أشباح الموتى العائدين؟

ولكنه أطلق قوله بثقة تبلغ من القوة أن أحدًا لم يدرك هل ما يقوله يشتمل على ذكاء كبير، أم هو يدلّ على غباء شديد.

وكان يكسوه فراء أخضر قاتم، فوق سروال كان يسميِّه سروال «فخذ الحورية المذعورة»، وجوربان من حرير، وحذاءان خفيفان.

أخيرًا، حكى الفيكونت، ببراعة وظرف، تلك القصة التي كانت تروج عن رحلة سرية قام بها دوق إنجهين إلى باريس ليرى الآنسة جورج[1]، فإذا هو يرى عندها بونابرت الذي كان يحظى أيضًا بالنِّعَم التي تجود بها تلك الممثّلة الكوميدية الشهيرة. وشاءت المصادفة أن يغمى على بونابرت حين

(1) هي الآنسة مارغريت فايمار، الملقبة بـ«جورج». فنانة شهيرة في فرقة الكوميدي فرانسيز منذ سنة 1803، وقد تركت «مذكّرات» حكت فيها قصة علاقتها بنابوليون.

رأى الدوق، كما كان يحدث له هذا الإغماء أحيانًا، فأصبح بونابرت تحت رحمة خصمه، ولكن الدوق أبى أن ينتهز هذه الفرصة. وبسبب هذا الكرم من الدوق إنما حمل له بونابرت حقدًا شديدًا، وثأر لنفسه بعد ذلك بتدبير اغتيال الدوق.

كانت القصة جميلة جدًّا ومشوّقة جدًّا، ولا سيما في الموضع الذي تعرَّف فيه كل من الخصمين إلى خصمه، وقد انفعلت السيدات عندئذ انفعالًا ظاهرًا.

قالت آنا بافلوفنا وهي تلقي على الأميرة الصغيرة نظرة سائلة:

- رائع، هه؟

فدمدمت الأميرة الصغيرة قائلة وهي تغرز إبرتها في شغلها، كأنما لتعبِّر عن شعورها بأن ما في القصة من فتنة وروعة قد شغلها عن متابعة شغلها:

- رائع!

سُرَّ الفيكونت من هذا التقدير الصامت، وعاد يكمل سرد قصته وهو يبتسم ابتسامة شكر. ولكن آنا بافلوفنا لم تنقطع عن رصد الشاب الذي كان يوقظ في نفسها مخاوف. وقد لمحت في تلك اللحظة أنه كان يكلم الأب موريو بصوتٍ عالٍ وحِدّةٍ عنيفةٍ، فهبت تطير إلى موضع الخطر منجدة مغيثة. كان بطرس قد ورّط الأب موريو في حديث عن التوازن السياسي، وكان الأب موريو الذي أعجب إعجابًا واضحًا بما يراه في الفتى من حرارة ساذجة قد أخذ يشرح له فكرته الأثيرة. وكان الاثنان كلاهما يصغيان، ويتكلّمان بحماسة شديدة، وانطلاق طبيعي، وذلك بعينه ما لم يُرضِ آنا بافلوفنا.

كان الأب موريو يقول:

- إن الوسيلة الوحيدة هي التوازن الأوروبي وحقّ البشر. يكفي أن تسير دولة قوية، مثل روسيا، الموصوفة بأنها همجية، على رأس عصبة من الدول بهدف تحقيق التوازن في أوروبا من دون سعي إلى منفعة خاصة، حتى تنقذ العالم!

وردَّ بطرس:

- وكيف تتصوّر هذا التوازن؟

لكن آنا بافلوفنا وصلت في تلك اللحظة، ونظرت إلى بطرس نظرة قاسية، وسألت الإيطالي عن رأيه في المناخ هنا. فتغير وجه الإيطالي فجأة، واكتسى على الفور تعبيرًا عن رقة وعذوبة تبلغان حد المداهنة والنفاق، ويظهر أنه ألفها في مخاطبة السيدات. وقال يجيبها:

- لقد بلغت من فرط الافتتان بمفاتن الفكر والثقافة في هذا المجتمع، ولا سيما المجتمع النسائي الذي سعدت بوجودي فيه، أن وقتي لمَّا يتسع للتفكير في المناخ.

ولم ترض آنا بافلوفنا بعد ذلك أن تترك الأب موريو ولا بطرس، وإنما قادتهما إلى حلقتها لتستطيع أن تلاحظهما بسهولة أكبر.

وفي تلك اللحظة دخل الصالون شخص جديد هو الأمير الشاب أندريه بولكونسكي، زوج الأميرة الصغيرة. إن الأمير بولكونسكي فتى بارع الجمال، ربع القامة، واضح القسمات، جافّ الهيئة. وكل شيء فيه - من نظرته المكدودة الضجرة إلى مشيته البطيئة الموزونة - يناقض كل المناقضة ما تتصف به زوجته الصغيرة من نشاط وحيوية وحرارة. وكان واضحًا أنه يعرف جميع من في الصالون معرفة تامة، وأن رؤيتهم والاستماع إليهم يورثانه ضجرًا. ولكن يبدو أنه كان يضيق بامرأته أكثر من ضيقه بسائر هؤلاء الذين يضيق بهم ضيقًا شديدًا. حتى لقد أشاح عنها وقد جعَّد وجهه تجعيدًا أفسد بعض جماله. وقبَّل يد آنا بافلوفنا، ثم غضّن عينيه وراح يتفرّس في الحضور.

قالت آنا بافلوفنا تسأله:

- هل تطوّعت للحرب يا أمير؟

فأجابها، وهو يمد المقطع الأخير من اسم كوتوزوف على طريقة النطق الفرنسي:

- الجنرال كوتوزوف أرادني مرافقًا له.

- وامرأتك ليز؟

- تمضي تقيم في الريف.

- كيف، ألا تستحي أن تحرمنا من زوجتك الفاتنة؟

وانبرت زوجته تكلّمه، فقالت له بتلك اللهجة نفسها التي تكلم بها الأجانب، أعني لهجة الغنج والدلال..

- أندريه! ما كان أحلى تلك القصة التي رواها لنا الفيكونت عن الآنسة جورج، وعن بونابرت!

فأغمض الأمير أندريه عينيه وأشاح وجهه. وكان بطرس يلقي عليه منذ وصوله نظرة تفيض بالفرح والصداقة، فها هو ذا الآن يجيء إليه ويمسك يده. ولم يلتفت الأمير أندريه، وجعَّد سحنته ضيقًا بذلك الذي أمسك ذراعه، ولكنه حين رأى وجه بطرس المبتسم، طالعه بابتسامة غير متوقّعة، ابتسامة لطيفة حلوة طيبة. وهتف يقول له:

- هه! أأنت أيضًا في المجتمع الراقي؟

فأجابه بطرس بقوله:

- كنت أعرف أنني سألقاك.

ثم أضاف يقول بصوت مهموس حتى لا يزعج الفيكونت الذي كان يواصل سرد قصته:

- سأجيء إليك فأتعشى عندك. هل أستطيع ذلك؟

فقال الأمير أندريه ضاحكًا وهو يضغط يد بطرس ضغطًا معناه أن هذا السؤال نافل لا داعي إليه:

- لا، لا تستطيع!

وأراد أن يضيف كلامًا آخر. ولكن الأمير فاسيلي وابنته هيلين قاما في تلك اللحظة، فقام الآخرون يفسحون لهما طريقًا.

قال الأمير فاسيلي للرجل الفرنسي وهو يمسك كمَّه إمساك مودة وصداقة ليمنعه من القيام:

- معذرة عزيزي الفيكونت. إن تلك الحفلة التي يقيمها السفير تحرمني من مسرة، وتقطع عليك حديثًا. يؤسفني أنني مضطر إلى ترك هذه السهرة الجميلة.

قال الأمير فاسيلي هذه الجملة الأخيرة مخاطبًا آنا بافلوفنا.

ومرَّت ابنته هيلين بين الكراسي ممسكة ثنيات ثوبها إمساكًا خفيفًا، وكانت الابتسامة تضيء مزيدًا من الإضاءة على وجهها الجميل. ونظر بطرس إلى هذا الجمال الساحر بعينين مأخوذتين، بل مروِّعتين، حين مرت الفتاة أمامه. فقال الأمير أندريه:

- إنها جميلة جدًّا.

وأجابه بطرس:

- نعم. جميلة جدًّا.

وتناول الأمير فاسيلي يد بطرس، والتفت صوب آنا بافلوفنا قائلًا:

- روِّضي لي هذا الدب. إنه يقيم عندي منذ شهر، ثم ألقاه اليوم في المجتمع أول مرة. لا شيء يحتاج إليه الفتى كحاجته إلى مجتمع النساء الذكيات.

الفصل الرابع

ابتسمت آنا بافلوفنا ووعدت بأن تهتم ببطرس الذي تعرف أنه يمتُّ بقرابة من جهة أبيه إلى الأمير فاسيلي.

وأسرعت السيدة المسنّة التي كانت جالسة بقرب «عمتي»، تنهض وتجري الوراء الأمير فاسيلي فأدركته في الدهليز. امَّحى من وجهها كلٌّ ما كانت تصطنعه من مظهر اللياقة الاجتماعية، وأصبح وجهها الذي أضنته الدموع لا يعبر إلّا عن القلق والخشية.

وقالت للأمير وهي تدركه في الدهليز:

- ماذا تستطيع أن تقوله لي عن ابني بوريس يا أمير؟

وقد أطالت حرف الواو من اسم ابنها إطالة خاصة، وأردفت تقول:

- لا يمكنني أن أمكث ببطرسبورغ مدة طويلة. فقل لي: ما الأنباء التي أستطيع أن أنقلها إلى ولدي المسكين؟

رغم أن الأمير فاسيلي قد أصغى إليها على مضض، وبغير أدب تقريبًا، حتى لقد أظهر شيئًا من التململ والتذمّر، فإنها ظلّت تبتسم له ابتسامة فيها لطف مؤثّر، وأمسكت يده لتمنعه من الانصراف عنها. وقالت له:

- ماذا يكلفك من عناء أن تقول للإمبراطور كلمة واحدة، فإذا هو ينقله إلى الحرس رأسًا؟

أجاب الأمير فاسيلي قائلًا:

- ثقي أنني سأفعل كل ما أستطيع يا أميرة، ولكن يصعب عليَّ أن أتشفّع

لدى الإمبراطور. وإني لأنصحك بأن تلتمسي المعونة من رومیانتسیف[1] لا مني، بواسطة الأمير جولتزين[2]، فذلك أجدى.

إن السيدة المسنّة تحمل اسم الأميرة دروبتسكوي[3]، واسم دروبتسكوي لهو من أكبر الأسماء في روسيا، ولكنها كانت فقيرة جدًّا، وقد انقطعت عن الاختلاف إلى المجتمع الراقي منذ مدة طويلة، وفقدت ما كان لها من صلات بعلية القوم. وقد جاءت إلى بطرسبورغ محاولة أن تظفر بنقل ابنها الوحيد إلى الحرس الإمبراطوري. ومن أجل أن ترى الأمير فاسيلي إنما طلبت من آنا بافلوفنا أن تدعوها إلى هذه السهرة، ثم جاءت وأصغت إلى قصة الفيكونت، لا لشيء إلّا لهذا الغرض. وقد روَّعتها كلمات الأمير فاسيلي، حتى إن وجهها الذي كان في الماضي جميلًا قد عبَّر الآن عن شيء من الغيظ والحنق، ولكن ذلك لم يدم إلّا لحظة قصيرة، ثم إذا هي تبتسم من جديد، وتتشبّث بذراع الأمير فاسيلي تشبّثًا أقوى، وتقول:

- اسمع يا أمير، أنا لم أطلب منك شيئًا في يوم من الأيام قط، ولن أطلب منك شيئًا في يوم من الأيام أبدًا؛ ولم أذكِّرك يومًا بالصداقة التي كانت بينك وبين أبي. ولكنني الآن أستحلفك بالله أن تصنع لابني هذا الجميل، فإذا فعلت، عددتك محسنًا إليَّ ومنعمًا عليَّ مدى الحياة.

قالت ذلك متعجّلة. ثم أضافت:

- لا، لا تزعل بل عدني بأنك ستفعل. لقد طلبت هذا من جولتزين ولكنه رفض. كن ذلك الطفل الطيب الذي كنته في الماضي.

---

(1) الكونت نيقولا رومیانتسیف (1754 – 1826): كان وزيرًا للتجارة من سنة 1802 إلى سنة 1808، ثم أصبح وزيرًا للخارجية سنة 1808، وغدا بعد ذلك مستشار الإمبراطورية. هو شخص قوي النفوذ، كان يرعى الأدباء والعلماء، وقد أنشأ في موسكو «المكتبة العامة» التي سميت باسمه في ذلك الحين، واسمها الآن «مكتبة لينين».

(2) الأمير ألكسندر ن. جولتزين (1773 – 1844): كان عضوًا في «لجنة الخلاص العام». التي أنشأها ألكسندر الأول، وأصبح منذ سنة 1805 وكيل المجمع الكنسي، ثم غدا وزيرًا للتعليم العام، واتصف بميوله الرجعية.

(3) شخصية من صنع خيال المؤلف، صنع لها اسمًا على غرار اسم أسرة الأمراء نزبتزكوي.

قالت ذلك وهي تحاول أن تبتسم، غير أن دموعًا كانت تترقرق في عينيها.

وكانت الأميرة هيلين واقفة بقرب الباب، فالتفتت نحو أبيها برأسها فوق كتفين كأنهما كتفا تمثال من تماثيل اليونان القدامى، ونادته قائلة له:

- بابا، سوف نتأخّر عن الحفلة.

غير أن ما يملكه المرء من نفوذ وتأثير في المجتمع العالي ثروة يجب عليه أن يداريها ويحافظ عليها، وإلا تبدّدت شيئًا بعد شيء؛ والأمير فاسيلي يعرف هذه الحقيقة، وقد أدرك أنه إذا توسّط لجميع الذين يلتمسون وساطته فلن يستطيع بعد ذلك أن يطلب شيئًا لنفسه، فلذلك كان لا يستعمل رصيده هذا إلّا في القليل النادر. ولكنه في ما يتعلق بالأميرة دروبتسكوي قد أحس مع ذلك بشيء من عذاب الضمير بعد رجائها الجديد هذا. لقد ذكَّرته بالحقيقة، وهي أنه مدين لأبيها بخطواته الأولى على درب النجاح. وكان عدا ذلك يرى من أسلوبها في التصرف أنها واحدة من تلك السيدات، ومن تلك الأمهات خاصة، اللواتي متى عزمن على شيء فلن يتركنك قبل أن يظفرن بما يريدنه منك، وإلا جئن يصدِّعن رأسك كل يوم وكل لحظة، حتى لقد يشاجرنك، وقد هزَّته هذه الصورة الأخيرة هزًا شديدًا.

قال بصوته الذي يشتمل على الإلفة والضجر المعهودَيْن فيه:

- عزيزتي آنا ميخائيلوفنا. إنه ليكاد يستحيل عليَّ أن أفعل ما ترغبين أن أفعله. ولكنني تقديرًا لما أحمله لك من عاطفة المحبة، وتعبيرًا عمّا أحمله من احترام لأبيك المرحوم، سأفعل المستحيل. لسوف ينقل ابنك إلى الحرس، هذا عهد أقطعه لك على نفسي. هل رضيت؟

- يا عزيزي، إنك أنت المحسن إليَّ.. وما كنت أتوقّع منك أقلّ من هذا. كنت أعرف مدى ما تتصف به نفسك من أريحية وشهامة.

وأراد الأمير فاسيلي أن ينصرف. ولكن الأميرة دروبتسكوي استوقفته قائلة له:

- كلمة أخرى أرجوك: متى تمَّ نقل ابني إلى الحرس...

وتردّدت عن إكمال جملتها، ولكنها لم تلبث أن أردفت تقول:

- إنك تعرف ميشيل إيليا ريونوفتش كوتوزوف معرفة طيبة، فزكِّ له بوريس فيتخذه مرافقًا له، فأطمئنَّ أنا، و...

فابتسم الأمير فاسيلي وقال لها:

- هذا لا أعدك به. إنك لا تعلمين مدى ملاحقة الناس لكوتوزوف منذ أن عيِّن قائدًا عامًّا للحرس. لقد قال لي هو نفسه إن سيدات موسكو كافة قد آلين على أنفسهن أن يفرضن عليه جميع أولادهنّ مرافقين له.

- بل عدني أيها المحسن إليَّ. لن أتركك ما لم تعدني.

وارتفع صوت هيلين تقول لأبيها مرة أخرى:

- بابا، سوف نصل إلى الحفلة متأخرين.

- طيب. إلى اللقاء. استودعك الله؟

- ستكلم الإمبراطور إذًا في الغد؟

- حتمًا. ولكنني لا أعدك بشيء عن تعيين ابنك مرافقًا لكوتوزوف.

- بل عدني، عدني بذلك يا أصيل!

بهذا أجابته آنا ميخائيلوفنا مبتسمة ابتسامة فتاة مغناج، وهي ابتسامة لا بد أنها كانت مألوفة لها معهودة فيها أيام الصبا، ولكنها أصبحت الآن لا تناسب وجهها الذابل الذاوي، بل هي بهذه تظهر دميمة بشعة.

كان واضحًا أنها نسيت سنَّها، فاستعملت بحكم العادة ما كانت تستعمله في صباها من قوى الأنوثة. ولكن وجهها عاد إلى ما كان عليه من برودة وانقباض ما إن خرج الأمير فاسيلي. ورجعت تنضم إلى الحشد الذي كان الفيكونت لا يزال يروي له قصصه، وتظاهرت بالإصغاء من جديد، منتظرة أن تنصرف لأن المهمة التي جاءت من أجلها قد تمت.

قالت آنا بافلوفنا:

- ولكن ما رأيك في تلك المهزلة الأخيرة، مهزلة التتويج في ميلانو؟ وفي تلك المهزلة الجديدة التي مثَّلها أهل جنوه ولوكا إذ جاؤوا يعربون لبونابرت عن تمنيات الشعوب؟ عظيم! هه؟ لا، لا، إن هذا ليفقد الإنسان عقله! لكأن العالم كله قد جنَّ!

ابتسم الأمير أندريه وهو يحدّق إلى عيني آنا بافلوفنا. وقال مرددًا العبارة التي نطق بها بونابرت أثناء وضع التاج على رأسه:

- « الرب وهبه لي، فويل لمن يمسّه»[1]. ثم أردف معلّقًا:
- يقال إنه كان جميلًا جدًا حين نطق بهذه الكلمات؟
وكرر الأمير أندريه هذه الكلمات باللغة الإيطالية.
واستأنفت آنا بافلوفنا كلامها فقالت:
- آمل أخيرًا أن يكون هذا هو القطرة الأخيرة التي تجعل الكيل يطفح. إن الملوك أصبحوا لا يطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدّد كل شيء.
قال الفيكونت وقد لاحت في وجهه معاني الملاطفة وعبَّرت أساريره عن تبدد أوهامه وغلبة اليأس على نفسه:
- الملوك؟ لست أتكلم عن روسيا يا سيدتي. ولكن ماذا فعل الملوك للويس السابع عشر، وماذا فعلوا للملكة، وماذا فعلوا لمدام إليزابيت؟[2].
وتابع كلامه وقد ازدادت حرارة حديثه:
- لا شيء! وصدِّقي أنهم ينالون عقابهم على خيانتهم لقضية آل بوربون. الملوك؟ إنهم يرسلون سفراء لمجاملة المغتصب وخطب ودّه.
قال هذه الكلمات وغيَّر جلسته وهو يتنهد تنهدًا فيه معنى الاحتقار. فلما سمع الأمير هيبوليت ذلك، وكان قد تأمّل الفيكونت مليًّا من خلال نظّارته، التفت نحو الأميرة الصغيرة بجسمه كله على حين فجأة، وطلب منها إبرة، وأخذ يرسم لها على الطاولة شعار النبالة الذي يحمله آل كونديه[3]. وطفق يشرح لها هذا الشعار مهتمًا أشد الاهتمام، كأنها هي التي طلبت منه ذلك.

---

(1) جملة قالها نابوليون بمدينة ميلانو يوم 23 أيار (مايو) 1805 حين كان يتوشح بتاج ملوك بومبارديا الثلاثة.

(2) من المعروف أن ابن لويس السادس عشر الذي ولد سنة 1785 قد أعلنه المهاجرون ملكًا سنة 1793، وسموه لويس السابع عشر، ثم سُجن في «الهيكل»، وعُهد به بعد ذلك إلى حذّاء، ومات مجهولًا سنة 1795؛ أما الملكة ماري أنطوانيت فقد أعدمت بالمقصلة سنة 1793؛ وأما مدام إليزابيت، أخت لويس السادس عشر، فقد أعدمت بالمقصلة سنة 1794.

(3) كان الأمير لويس جوزيف دو كونديه (1736 – 1818) قائد جيش المهاجرين الذي قاتل الثورة منذ سنة 1792؛ وقد قضى مع هذا الجيش أربع سنين في روسيا حتى سنة 1801؛ وكان دوق إنجهين حفيده الوحيد.

- عصا من ميناء أحمر مرصعة بزنبقات من ميناء بلون اللازورد: آل كونديه.

وكانت الأميرة تصغي إليه مبتسمة.

قال الفيكونت مواصلًا حديثه الذي بدأه، كما يفعل شخص لا يسمع ما يقوله الآخرون، ولكنه في مسألة يعرفها أكثر من غيره لا يتابع إلّا مجرى أفكاره.

- إذا بقي بونابرت متربعًا على عرش فرنسا سنة أخرى، فإن المجتمع الفرنسي، أعني المجتمع الفرنسي الراقي، سوف يُباد إلى الأبد، بالتآمر والعنف والنفي والإعدام، وعندئذ...

وباعد الفيكونت ذراعيه معبرًا عن الحزن والأسى. وأراد بطرس أن يقول كلمته، فقد كان الحديث يهمه ويثيره، ولكن آنا بافلوفنا التي كانت ترصده وترقب حركاته وسكناته لم تهب له فرصة الكلام، اذ بادرت تقول بلهجة الحزن تلك التي لا تفارقها أبدًا حين تتكلم عن الأسرة الإمبراطورية:

- لقد أعلن الإمبراطور الإسكندر أنه سيترك للفرنسيين حرية اختيار شكل حكمهم بأنفسهم. وأظن أنه مما لا شك فيه أن الأمة كلها متى تخلّصت من المغتصب، سوف ترتمي في أحضان ملكها الشرعي...

بذلك ختمت آنا بافلوفنا كلامها ملاطفةً لهذا المهاجر من أنصار الملكية.

فقال الأمير أندريه:

- هذا أمر مشكوك فيه. لقد صدق السيد الفيكونت حين قال إن الأمور قد أوغلت بعيدًا، فصارت العودة إلى الالوراء صعبة كما أظن.

وتدخّل بطرس مرة أخرى فقال وقد أحمرّ وجهه:

- إذا صدق ما سمعته فإن جميع النبلاء تقريبًا قد انضموا إلى بونابرت وتحالفوا معه.

فردَّ الفيكونت على بطرس من دون أن ينظر إليه، قائلًا:

- أنصار بونابرت هم الذين يزعمون هذا الزعم. ومن الصعب أن نعرف حقيقة الرأي العام في فرنسا الآن.

فعقَّب الأمير أندريه على هذا الكلام وهو يبتسم (وكان واضحًا أن الأمير

أندريه لا يحب الفيكونت، وأن ما يقوله كان ردًّا على كلام الفيكونت رغم أنه لا ينظر إليه):

- لقد قالها بونابرت...

وصمت لحظة، ثم عاد يستشهد بكلام بونابرت مرة أخرى:

- «دللتهم على طريق المجد، فرفضوه! ثم فتحت لهم حجرات الانتظار في قصري، فهرعوا إليَّ زرافات»... لا أدري هل حقٌّ ما قاله.

فردَّ الفيكونت قائلًا:

- لم يهرع إليه أحد. ومنذ مقتل الدوق، أصبح أنصاره المتحمسون أنفسهم لا يرون فيه بطلًا.

قال ذلك متجهًا بكلامه إلى آنا بافلوفنا. وأضاف:

- مع مصرع الدوق ازداد عدد الشهداء في السماء واحدًا، ونقص عدد الأبطال في الأرض واحدًا.

وما كادت آنا بافلوفنا تؤيد هي والآخرون أقوال الفيكونت بابتسامة استحسان، حتى انبرى بطرس يتكلّم مرة أخرى، فلم تستطع آنا بافلوفنا هذه المرة أن تمنعه من الكلام، على إحساسها بأنه سيقول أمورًا غير لائقة.

قال بطرس:

- إن إعدام دوق إنجهين كان ضرورة للدولة، وإني لأرى العظمة كلّها في أن نابوليون لم يخشَ أن يتحمّل وحده تبعة هذا العمل.

فدمدمت آنا بافلوفنا تقول مرتاعة:

- رباه! رباه!

وقالت الأميرة الصغيرة وهي تبتسم وتشدّ إليها شغلها:

- كيف يمكن، يا سيد بطرس، أن ترى في القتل عَظَمة؟

وارتفعت الأصوات، وقال الأمير هيبوليت باللغة الإنجليزية:

- كلام مهم!

واكتفى الفيكونت بأن هزَّ كتفيه.

وألقى بطرس على محدثيه من خلال نظارتيه نظرة فيها أبّهة وجلال. وتابع كمن يلقي بنفسه في الماء:

- إنما أقول هذا الكلام لأن آل بوربون قد فرّوا أمام الثورة تاركين الشعب للفوضى. واستطاع نابوليون وحده أن يفهم الثورة، وأن ينتصر عليها، فكان لا يسعه أن يتراجع عن التضحية بحياة فرد في سبيل الخير العام.

قالت آنا بافلوفنا:

- ألا تريد أن تنتقل إلى الطاولة الأخرى؟

ولكن بطرس تابع كلامه من دون أن ينظر إليها فقال وهو يزداد حماسة واندفاعًا:

- نعم، إن نابوليون عظيم، لأنه علا فوق الثورة، فقمع غلواءها محتفظًا بكل ما كان فيها من خير: كالمساواة بين المواطنين، وحرية الكلام والصحافة، ومن أجل هذا إنما استلم السلطة.

- نعم، لو أنه حين استلم السلطة قد ردَّها إلى الملك الشرعي من دون أن يستغلها للقتل، لعددته رجلًا عظيمًا.

- إنه لو أراد أن يفعل ذلك لما استطاع. والبلاد لم تترك له السلطة إلّا ليخلّصها من آل بوربون، ولأنها كانت ترى فيه رجلًا عظيمًا. وتابع بطرس بعد لحظة توقّف:

- لقد كانت الثورة شيئًا عظيمًا!

وبهذه الجملة الجسور الزاخرة بالتحدّي، كشف بطرس عن روح الشباب التي تتأجج في نفسه، وعن رغبته في عرض فكره كله بأقصى سرعة.

قالت آنا بافلوفنا:

- الثورة وقتل الملك شيء عظيم؟

وكررت للفيكونت تسأله:

- ألا تريد أن تنتقل إلى الطاولة الأخرى؟

قال الفيكونت وهو يبتسم ابتسامة فيها تسامح:

- «العقد الاجتماعي»[1].

- لست أتكلّم عن قتل الملك. وإنما أنا أبدي أفكارًا.

---

(1) المقصود هو كتاب «العقد الاجتماعي» الشهير الذي كتبه جان جاك روسو سنة 1762 وكان له أثر كبير في الثورة الفرنسية. والإشارة إلى آراء بطرس.

- نعم، كفكرة النهب والسلب، وفكرة سفك الدماء، وفكرة قتل الملك.

بذلك قاطعه صوت ساخر، مرة أخرى. فقال:

- لا شك أن هذا كلّه كان غلوًا. والشيء الأساسي ليس هذا بل هو حقوق الإنسان والتحرّر من الأوهام، والمساواة بين المواطنين. وهذه الأفكار كلها إنما دعمها نابوليون أكبر الدعم، ووهب لها أعظم قوة.

قال الفيكونت باحتقار وقد قرر أخيرًا فيما يبدو أن يبين لهذا الفتى الغر حماقة آرائه وسخافة أقواله:

- الحرية، المساواة، تلك كلمات كبيرة طالما استغلت. من ذا الذي لا يحب الحرية والمساواة؟ إن مخلصنا يسوع المسيح قد بشَّر بالحرية والمساواة. وأسأل، هل ازدادت سعادة الناس بعد الثورة؟ بالعكس. نحن الذين كنا نريد الحرية. وبونابرت هو الذي هدَّمها.

وكان الأمير أندريه يبتسم وهو ينظر تارة إلى بطرس، وتارة إلى الفيكونت، وتارة إلى ربة المنزل. وقد ارتاعت آنا بافلوفنا في أول الأمر من اندفاعة بطرس رغم كل ما ألفته من حياة المجتمع، ولكنها حين لاحظت أن الفيكونت لم تثر ثائرته من أقوال بطرس، على انتهاكها حرمة المقدسات، وحين أيقنت أنه لا سبيل إلى خنق المناقشة، استجمعت قواها، وانحازت إلى الفيكونت، فقالت:

- ولكن يا عزيزي السيد بطرس، بماذا تبرّر أن يعمد رجل عظيم إلى إعدام الدوق، أو فلنقل إلى إعدام إنسان من الناس، من دون أن يصدر في حقه حكم، ومن دون ذنب جنت يداه؟

وقال الفيكونت:

- وأنا أسأل أيضًا بماذا يبرّر السيد ما فعله بونابرت في اليوم الثامن عشر من شهر «بروميرِ»[1]؟ ألم يكن ذلك خداعًا؟ هذه شعوذة لا يعمد إلى مثلها رجل عظيم.

وقالت الأميرة الصغيرة:

(1) هو يوم الانقلاب الذي قام به نابوليون في 9 تشرين الثاني سنة 1799، وأعلن نفسه قنصلًا أول.

- والذين قتلهم أسرى في أفريقيا؟[1] شيء فظيع!
قالت الأميرة الصغيرة ذلك، وحرّكت يدها بإشارة تعبر عن الرعب.
وقال الأمير هيبوليت:
- إنه رجل من السوقة مهما تقل فيه!
لم يعرف بطرس على من يرد ومَنْ يجيب. فطاف ببصره على الجميع مبتسمًا. كانت ابتسامته لا تشبه ابتسامة الآخرين الذين لا تخرجهم ابتسامتهم عما هم فيه من جد، على حين أن ابتسامة بطرس ما كادت تظهر في وجهه حتى زال عن ذلك الوجه ما يعبّر عنه من رصانة تبلغ حدَّ التجهم، وحَل محله تعبير عن طفولة بريئة، طيبة، ساذجة كأنها تطلب العفو والصفح.
واتضح للفيكونت الذي كان يراه الليلة أول مرة، أن هذا اليعقوبي ليس رهيبًا كأقواله. وصمت الجميع.
قال الأمير أندريه:
- كيف تريدون أن يردَّ على الجميع في آن واحد؟ ثم إنني أعتقد أن علينا أن نفرِّق في أفعال رجل الدولة بين أفعال الفرد البسيط، وأفعال قائد الجيشٍ، وأفعال الإمبراطور. ذلك ما يبدو لي.
فعقّب بطرس وقد أسعده هذا الدعم.
- نعم، نعم، طبعًا!
وتابع الأمير أندريه كلامه فقال:
- لا يمكننا أن لا نعترف بهذا. إن نابوليون، من حيث هو إنسان، كان عظيمًا على جسر آركول، وفي مستشفى يافا حيث مدَّ يده إلى المصابين بالطاعون، ولكنْ... ولكنْ، هناك أفعال أخرى يصعب تسويغها.
كان واضحًا أن الأمير أندريه إنما أراد أن يخفّف ما اشتملت عليه أقوال بطرس من خراقة، وها هو ذا ينهض الآن لينصرف، مومئًا لزوجته أن تقوم.
ولكن الأمير هيبوليت وقف على حين فجأة، وأشار بيده طالبًا من الجميع أن يبقوا جالسين، وأخذ يتكلم.

---

(1) تخطئ الأميرة الصغيرة هنا، ففي مدينة يافا من فلسطين، وليس في أفريقيا، إنما أمر بونابرت بقتل أربعة آلاف أسير من الترك، وذلك سنة 1799.

- رويت لي اليوم حكاية موسكوفية رائعة. يجب أن أولمها لكم. معذرة يا فيكونت، فلا بد لي من الكلام بالروسية. وإلا لم يشعر السامعون بحلاوة الحكاية.

وجعل الأمير هيبوليت يتكلّم الروسية باللهجة التي يكتسبها الفرنسيون بعد إقامتهم في روسيا مدة سنة. واتجهت جميع الأبصار إليه من فرط الحماسة والإلحاح اللذين كانت تزخر بهما مطالبته بالإنتباه إلى قصته. قال:

- توجد في موسكو سيدة. سيدة بخيلة جدًّا. كانت في حاجة إلى خادمين يسيران الوراء عربتها على الأقدام، وتكون قامتهما طويلة. ذلك كان ذوقها. وكان لها خادمة قامتها أطول من ذلك أيضًا. قالت...

هنا وقف الأمير ليستجمع شتات فكره في مشقة ظاهرة. ثم أردف:

- قالت... نعم قالت لخادمتها؛ البسي كسوة خادم وتعالي معي الوراء العربة أقوم ببعض الزيارات.

قال الأمير هيبوليت ذلك وانفجر ضاحكًا قبل أن يضحك سامعوه، فكان لضحكه هذا أثر في سامعيه غير مستحَبّ. ومع ذلك ابتسم عدد كبير من هؤلاء السامعين، وكانت السيدة المسنة وآنا بافلوفنا بين المبتسمين. وأكمل الأمير هيبوليت قصته فقال:

- ومضت السيدة. وفجأة هبَّت ريح شديدة. فطارت قبعة الفتاة وانحلّ شعرها.

وهنا أصبح لا يستطيع أن يكظم ضحكه، فانطلق يقهقه قهقهة متقطعة وهو يقول:

- وعرف جميع الناس...

بهذا انتهت الحكاية. ورغم أن السامعين لم يعرفوا لماذا روى الأمير هيبوليت هذه النكتة، ولماذا كان لا بد أن يحكيها باللغة الروسية، فإن آنا بافلوفنا وغيرها قدَّروا في الأمير هيبوليت هذه الكياسة الاجتماعية التي أنهت بالدعابة الظريفة تلك الاندفاعة التي ندَّت عن السيد بطرس، وكانت مزعجة غير محبَّبة. وبعد هذه النكتة التي رواها الأمير هيبولت تبعثر الحديث، فصار مجاملات وثرثرة عن حفلات الرقص، الماضية والمقبلة، وعن المسرحيات، وعن الدعوات القادمة.

الفصل الخامس

شكر الضيوف لآنا بافلوفنا سهرتها الجميلة الرائعة، وأخذوا ينصرفون.

وكان بطرس أخرق لا يحسن التصرف. هو شاب جسيم عريض أطول قامة من متوسط قامات الرجال، له يدان ضخمتان حمراوان يجهل كيف يجب على المرء أن يدخل إلى صالون كما يُقال، ويجهل أكثر من ذلك كيف يخرج المرء من صالون، أي كيف يقول بضع كلمات لطيفة لطفًا خاصًّا قبل أن ينصرف. ناهيك عن أنه كان شديد الذهول. فحين قام لم يتناول قبعته، بل تناول بدلًا منها قلنسوة جنرال مثلثة القرون مزدانة بريش، وأخذ يشد ريشها إلى أن رجاه الجنرال أن يردَّ إليه قلنسوته. ولكن كل ما يتصف به من ذهول، وكل ما يلاحظ فيه من عجز عن حسن الدخول إلى صالون، كان يكفِّر عنهما ما يعبّر عنه وجهه من طيبة وبساطة وتواضع. وقد التفتت إليه آنا بافلوفنا، فقالت له بحلم مسيحي إنها تعفو عن اندفاعته، وحيّته بحركة من رأسها قائلة:

- آمل أن أراك، ولكنني آمل أيضًا أن تغير ما في رأسك من أفكار يا عزيزي السيد بطرس.

لم يجبها بطرس بشيء، واكتفى بالانحناء لها، وابتسم للجميع مرة أخرى ابتسامته تلك التي تقول: «الأفكار هي الأفكار، ولكنكم ترون حق الرؤية أنني فتى طيب شهم». وقد شعر الجميع بذلك، وشعرت به آنا بافلوفنا.

مضى الأمير أندريه إلى الدهليز، وفيما كان يقدِّم كتفيه إلى الخادم الذي يلبسه معطفه، أصغى من دون اكتراث إلى ثرثرة امرأته مع الأمير هيبوليت

الذي تبعهما. كان الأمير هيبوليت يقف قريبًا من الأميرة الجميلة الحبلى ويتفرّس فيها من خلال نظارته تفرسًا ملحًّا.

قالت الأميرة الصغيرة وهي تودِّع آنا بافلوفنا:

- ادخلي، يا آنيت، فإني أخشى أن يصيبك برد.

ثم أضافت تقول بصوت خافت: - اتفقنا.

كانت آنا بافلوفنا قد أتيح لها أن تكلّم ليزا في أمر الزواج الذي ترجو أن يتم بين آناتول وأخت زوج ليزا. فقالت آنا بافلوفنا بصوت خافت أيضًا:

- إنني أعتمد عليك يا صديقتي العزيزة. اكتبي إليها، ثم حدّثيني عن استقبال الأب للأمر. إلى اللقاء.

وتركت آنا بافلوفنا الدهليز عائدة إلى الصالون. فاقترب الأمير هيبوليت من الأميرة الصغيرة، وأدنى وجهه من وجهها كثيرًا وكلمها هامسًا.

وكان خادمان، أحدهما خادم الأميرة والثاني خادمه هو، ينتظران نهاية الحديث، وقد حمل الأول شال الأميرة وحمل الثاني ردنجوت الأمير، وكانا يصغيان إلى كلامهما باللغة الفرنسية التي لا يفهمانها، ولكنهما يصغيان إصغاء من يفهم ما يُقال ولا يريد أن يلاحظ أحد أنه يصغي ولا يفهم.

وكانت الأميرة تتكلّم مبتسمة على عادتها، وتصغي متضاحكة. قال الأمير هيبوليت:

- ما أسعدني إذ لم أذهب إلى حفلة السفير. إنها تضجر إضجارًا لا يطاق... كانت السهرة هنا لطيفة، أليس كذلك؟ ألم تكن لطيفة حقًّا؟

فأجابت الأميرة تقول وهي تقلب شفتها الصغيرة التي يظللها زغب:

- يقال إن حفلة الرقص ستكون جميلة جدًّا. سوف تحضرها جميع نساء المجتمع الجميلات.

فقال الأمير وهو يضحك فرحًا:

- لا، ليس جميعهن، ما دمت لن تحضريها أنت.

قال ذلك وتناول الشال من يدي الخادم، حتى إنه صدمه، وأخذ يلفع به الأميرة الصغيرة. وحين انتهى من تلفيع الأميرة بالشال ترك يديه على كتفيها مدة طويلة، لا تدري أكان ذلك خراقة منه أم كان شيئًا مقصودًا (لا أحد

يستطيع أن يقطع برأي في هذا)، وإنما المهم أنه كان كمن يحتضن المرأة الشابة.

فأسرعت تتنحى بخفّة ورشاقة، ولكنها ظلت مبتسمة، والتفتت تنظر إلى زوجها. فكانت عينا الأمير مغمضتين، فإلى هذا الحد كان يبدو متعَبًا ونعِسًا.

وسأل امرأته وهو يلفها بنظرة:

- أأنت مستعدة؟

فأسرع الأمير هيبوليت يرتدي ردنجوته الذي كان على آخر موضة، فهو طويل يبلغ الكعبين، وهرع يجري على درج الباب متعثر الساقين بطول ردنجوته، إلى أن بلغ الأميرة التي كان الخادم يساعدها في ركوب العربة. وصرخ يقول:

- إلى اللقاء يا أميرة!

فكان لسانه متعثرًا كتعثر ساقيه.

وكانت الأميرة قد رفعت ذيل فستانها قليلًا واستقرّت في ظلمة العربة. وكان زوجها يعدل سيفه استعدادًا للركوب. ولكن الأمير هيبوليت كان يضايق الجميع بحجة أنه يريد خدمتهم. فقال الأمير أندريه باللغة الروسية، وبلهجة جافّة شرسة، قال لهيبوليت الذي كان يقف في طريقه فيحول بينه وبين الركوب:

- اسمح لي يا سيد.

ثم سمع صوت الأمير أندريه نفسه يقول مخاطبًا بطرس بلهجة فيها عاطفة رقيقة ومودة:

- إني منتظرك يا بطرس.

وسار الحوذي بالعربة، فأخذت عجلاتها تقرقع على أرض الشارع. وكان الأمير هيبوليت قد وقف على درج الباب يضحك ضحكًا متقطعًا، وينتظر الفيكونت إذ كان قد وعده بأن يوصله إلى بيته.

قال الفيكونت بعد أن ركب العربة مع هيبوليت:

- هيه يا عزيزي، إن أميرتك الصغيرة حلوة جدًّا. حلوة جدًّا.

قال ذلك وأرسل قبلة من طرف أصابعه. ثم أردف:

- وهي فرنسية تمامًا!

فضحك هيبوليت ضحكًا مخنوقًا. وتابع الفيكونت كلامه فقال:

- هل تعلم أنك رهيب بهيئتك البريئة هذه؟ إنني أرثي لحال الزوج المسكين، هذا الضابط الصغير الذي يصطنع هيئة أمير حاكم.

فضحك هيبوليت ضحكًا مخنوقًا مرة أخرى، وقال من خلال ضحكه:

- وكنت تزعم أن السيدات الروسيات لا يضارعن السيدات الفرنسيات. يجب على المرء أن يعرف كيف يتصرّف.

وصل بطرس إلى منزل الأمير أندريه قبل وصول الأمير، وكان يرتاد هذا المنزل كثيرًا حتى لكأنه من أهله، فمضى إلى مكتب الأمير أندريه، ولم يلبث أن استلقى على الديوان كما اعتاد أن يفعل، وتناول من على الرف أول كتاب وقعت عليه يده فكان الكتاب هو «التعليقات»[1]، واتكأ على كوعه وأخذ يقرأ ما يقع عليه بصره.

ودخل الأمير أندريه وهو يفرك يديه الصغيرتين البيضاوين، وقال له:

- ما هذا الذي فعلته عند الآنسة شيرر؟ لسوف تمرض من ذلك فعلًا!

فالتفت إليه بطرس بجسمه كله، حتى إن الديوان قد أنَّ تحته من عنف التفاتته، فرأى الأمير أندريه وجهه المنتعش، وابتسم بطرس، وحرك يده بإشارة تعني عدم الاكتراث. وقال:

- كان ذلك الأب موريو ممتعًا جدًّا في الواقع... ولكن تفكيره لم يكن صحيحًا... ففي رأيي أن السلام الدائم ممكن، ولكن... لا أدري!... على كل حال لن يتحقق هذا السلام الدائم بالتوازن السياسي...

وكان واضحًا أن هذه المناقشات المجرَّدة لا تهم الأمير أندريه. فقال لصاحبه:

- يا عزيزي، لا يستطيع المرء أن يعلن في كل مكان كلَّ ما يعتقد به. قل لي: هل اتخذت قرارًا؟ هل اخترت بين أن تكون فارسًا في الحرس وبين أن تكون دبلوماسيًّا؟

---

(1) «التعليقات»، كتاب يوليوس قيصر عن حرب بلاد الغول.

فجلس بطرس على الديوان جاعلًا ساقيه تحته. وقال:

- تصوَّر أنني ما زلت لا أعرف ما عساني أقرر. والحق أنني لا يغريني أن أكون لا هذا ولا ذاك.

- ولكن لا بد من اتخاذ قرار. إن أباك ينتظر.

كان بطرس قد أُرسل إلى الخارج في العاشرة من عمره مع قس كان مربّيه. وقد أقام في الخارج حتى بلغ العشرين، فلما عاد إلى موسكو صرف أبوه القس، وقال للفتى: «اذهب الآن إلى بطرسبورغ، فانظر واختر. وأنا موافق على أي شيء. إليك هذه الرسالة للأمير فاسيلي، واليك ما تحتاج إليه من مال. واكتب إليَّ لتطلعني على ما يحدث، وسوف أساعدك في كل شيء». وها هو بطرس يقضي في بطرسبورغ ثلاثة أشهر يحاول أن يختار طريقًا، ثم هو لا يفعل شيئًا. وعن هذا الاختيار إنما كان يكلمه الأمير أندريه الآن.

حكَّ بطرس جبينه، ثم قال وهو يفكر في الأب موريو الذي لقيه في السهرة:

- ولكن لا بد أنه من الماسونيين الأحرار.

فقاطعه الأمير أندريه مرة أخرى قائلًا له:

- هذا كله ترّهات. ألا تحدثنا في أمور جدية! هل ذهبت ترى الحرس الفرسان...؟

- لا، لم أذهب. ولكن إليك ما يساور فكري. كنت أريد أن أحدثك في هذا الأمر. نحن الآن في حرب مع نابوليون. فلو كانت هذه الحرب حربًا في سبيل الحرية لفهمت ولكنت أول من يتطوع للقتال. أما أن ننصر إنجلترا والنمسا على أعظم رجل في العالم... فليس في هذا خير...

لم يزد الأمير أندريه على أن هزَّ كتفيه حين سمع أقوال بطرس هذه التي كانت في نظره أقوال طفل. فعل ذلك كما لو كانت الإجابة على هذه الحماقات مستحيلة. ولكن الواقع أنه لو أراد أن يجيب عن ذلك السؤال الساذج إجابة أخرى لعجز عن ذلك. وها هو ذا يقول:

- لو كان جميع الناس لا يحاربون إلّا بحسب اقتناعاتهم، لانتفت الحروب.

فأجاب بطرس قائلًا:

- وانتفاء الحروب خير الأمور.

فابتسم الأمير أندريه، وقال:

- قد يكون ما تقوله صحيحًا، ولكنه لن يتحقّق أبدًا...

سأله بطرس:

- قل لي، لماذا تحارب؟

- لماذا؟ لا أعرف. ولكن يجب أن أحارب. وعدا ذلك، فإنني...

وأمسك الأمير أندريه عن إتمام جملته، ولكنه لم يلبث أن أردف قائلًا:

- إنني أذهب إلى الحرب لأن الحياة التي أحياها هنا لا تناسبني!

الفصل السادس

سمع حفيف فستان امرأة في الغرفة المجاورة. فانتفض الأمير أندريه انتفاضة من ثاب إلى وعيه، وعاد وجهه يكتسي التعبير الذي كان يغشاه في صالون آنا بافلوفنا. وأنزل بطرس رجليه إلى الأرض. ودخلت الأميرة.

كانت قد غيَّرت زينتها، فلبست فستانًا للمنزل، ولكنه كان لا يقل عن الأول أناقة ولا نضارة وبهاء. ونهض الأمير أندريه يقدم إليها مقعدًا.

قالت متكلمة بالفرنسية على عادتها دائمًا، وهي تجلس على المقعد مسرعة مضطربة:

- إني أتساءل في أكثر الأحيان لماذا لم تتزوج آنيت؟ ما أغباكم، أيها السادة، لأنكم لم تزوّجوها! معذرة، ولكنكم لا تفهمون من أمور النساء شيئًا! يا لك من مشاجر مشاكس يا سيد بطرس!

- حتى مع زوجك أتناقش طوال الوقت. إنني لا أفهم لماذا يريد أن يذهب إلى الحرب.

كذلك قال بطرس متجهًا بكلامه إلى الأميرة من دون أن يشعر بشيء من ذلك الارتباك الذي يشيع كثيرًا في الصلات بين فتى وامرأة شابة.

فانتعشت الأميرة، وكان واضحًا أن أقوال بطرس قد أصابت من نفسها نقطة حساسة. وقالت:

- هذا بعينه ما أقوله أنا. إنني لا أفهم، لا أفهم إطلاقًا، لماذا لا يستطيع الرجال أن يستغنوا عن الحرب! لماذا لا نريد نحن النساء شيئًا، ولا نحتاج إلى شيء؟ كن حَكَمًا بيننا. إنني لا أفتأ أقول له إنه هنا مرافق عمه، وهذا مركز من ألمع المراكز المرموقة، وهنا يعرفه جميع الناس، ويقدّرونه قدرًا كبيرًا.

لقد كنا منذ مدة عند آل آبراكسين[1]، فسمعت سيدة تسأل: «أهذا هو الأمير الشهير أندريه»؟. يمينًا لقد سمعت هذا السؤال. وهو يُستقبل في كل مكان. ومن السهل جدًا أن يعيَّن مرافقًا للإمبراطور. إنك تعلم أن الإمبراطور قد كلمه بكثير من اللطف. وقد تحدّثنا في هذا الأمر أنا وآنيت، فرأينا أن تدبير تعيينه مرافقًا للإمبراطور سهل جدًا. ما رأيك؟

نظر بطرس إلى الأمير أندريه، فلما رأى أن الحديث يضايق صديقه لم يجب بشيء. وسأل صديقه:

- متى تسافر؟

فانبرت الأميرة تقول بتلك اللهجة التي كانت تصطنع لها المرح في الصالون حين كانت تكلم الأمير هيبوليت، والتي كان واضحًا أنها لا تناسب حلقة عائلية يعد بطرس واحدًا من أعضائها:

- آه... لا تذكر لي أمر هذا السفر! لا تذكره لي! لا أريد أن أسمع عنه شيئًا! ما كان أشد حزني حين تصورت اليوم أنني سأقطع جميع تلك العلاقات العزيزة على نفسي...

ثم التفتت إلى زوجها فقالت له وهي تغمز بعينيها غمزة ذات دلالة:

- وهل تعرف عدا ذلك يا أندريه... أنني خائفة... نعم، أنا خائفة...

دمدمت بذلك دمدمة وهي ترتجف.

فنظر إليها زوجها كالمندهش من اكتشافه أن الصالون لا يضمه وحده، بل يضم كذلك امرأته وبطرس. ومع ذلك سأل امرأته بكياسة فاترة:

- ممَّ خوفك يا ليز؟ إنني لا أفهم سبب هذا الخوف.

- هذه أنانية الرجال كافة. إنهم جميعًا أنانيون، جميعًا! لنزوة لا يعلمها إلّا لله، يتركني ويحبسني في الريف وحيدة!

قال الأمير أندريه بصوت خافت:

- بل تكونين مع أبي وأختي. لا تنسي هذا!

---

(1) آل براكسين أسرة روسية كبيرة من أفرادها الجنرال أميرال فيدور الذي خلع بطرس الأكبر عليه لقب كونت سنة 1710.

- هذا لا ينفي أنني سأكون وحيدة... من غير أصدقاء «لي»... ويريد مني بعد ذلك أن لا أخاف.

كانت لهجتها في هذه المرة تنم عن استياء، وارتفعت شفتها العليا، فلم يكتس وجهها تعبيرًا عن فرح كالمعهود فيه. وصمتت كأنها رأت أنه ليس من اللائق أن تجيء على ذكر حبَلها بحضور بطرس، مع أن المسألة كلها هي هذا الحَبَل.

قال الأمير أندريه ببطء من دون أن يحوّل بصره عن امرأته:

- لم أفهم مع ذلك ممَّ أنت خائفة!

فاحمرت الأميرة وحركت يديها بحدة وعنف. وقالت:

- لا، يا أندريه؛ أنا أقول إنك تغيَّرت كثيرًا، كثيرًا جدًّا...

قال الأمير:

طبيبك يأمرك بأن ترقدي في ساعة مبكرة. فهلمّي إلى السرير!...

فلم تقل الأميرة شيئًا، لكن شفتها القصيرة المظللة بالزغب قد أخذت تختلج على حين فجأة. فنهض الأمير أندريه وهو يهز منكبيه، ومشى في الغرفة بضع خطوات.

اضطرب بطرس الذي كان من خلال نظارتيه ينظر تارة إلى الأمير وتارة إلى الأميرة وقد ظهرت على وجهه الدهشة والسذاجة، وهمّ أن يقوم هو أيضًا، ولكنه غيَّر رأيه.

وقالت الأميرة الصغيرة فجأة:

- لا يهمني أن يكون السيد بطرس معنا...

وأردفت وقد تقبض وجهها الجميل باكيًا:

- أريد منذ مدة طويلة أن أسألك يا أندريه، لماذا تغيرت هذا التغير كله تجاهي؟ ماذا صنعت بك؟ هل أسأت إليك؟ تتركني ذاهبًا إلى الجيش من دون أن تأخذك بي شفقة. لماذا؟

- ليز!

اقتصر الأمير أندريه على مناداتها باسمها. ولكن اللهجة التي نطق بها هذا الاسم كانت تشتمل على رجاء وتهديد في آن واحد، وكانت تعني

خاصة أنها ستندم هي نفسها على الأقوال التي تفلت منها الآن.

ومع ذلك أردفت الأميرة الصغيرة تقول بسرعة:

- إنك تعاملني كما تعامَل مريضة أو كما تعامَل طفلة. أنا أرى كل شيء. فهل كنت هكذا قبل ستة أشهر؟

فقال الأمير أندريه بلهجة فيها مزيد من الصرامة والحزم:

- ليزا! أرجوك أن تكفِّي.

وكان بطرس في أثناء تلك المناقشة يزداد اضطرابًا وتزداد أعصابه توترًا، فنهض واقترب من الأميرة. كان يبدو عليه أنه لا يستطيع أن يحتمل منظر الدموع، وأنه يوشك أن يبكي هو نفسه. قال:

- هدئي روعك يا أميرة. هذه فكرة ساورتك، لأنك... أؤكد لك... لقد شعرت أنا نفسي... لماذا... ذلك أن... معذرة... إن وجود شخص ثالث شيء زائد... هدئي نفسك... استودعكما الله...

ولكن الأمير أندريه أمسك ذراعه وقال:

- بل انتظر يا بطرس. فالأميرة أطيب من أن تحرمني لذة قضاء السهرة معك.

فدمدمت الأميرة تقول من خلال دموع الغضب التي لم تستطع أن تحبسها:

- لا فائدة! إنه لا يفكر إلّا في نفسه!

فقال الأمير أندريه بخشونة، رافعًا صوته إلى الحد الذي يعني أنه قد نفد صبره:

- ليزا!

فاضطربت الأميرة اضطرابًا شديدًا، وإذا بهيئتها التي كانت أشبه بهيئة سنجاب غاضب قد أصبحت تعبر عن فزع وهلع يجتذبان المحبة ويوقظان الشعور بالشفقة. ونظرت إلى زوجها من تحت عينيها الجميلتين، واكتسب وجهها ذلك التعبير عن الخجل والشعور بالذنب، الذي نراه في كلب خفض ذيله وجعل يهزه بحركات سريعة قصيرة. وقالت وهي تلم بيدها ثنيات ثوبها، وتدنو من زوجها فتقبل جبينه:

- رباه! رباه!

فقال لها الأمير وهو ينهض ويلثم يدها بأدب كأنه يلثم يد سيدة غريبة عنه:

- عمت مساء، ليزا!

صمت الصديقان. فلا هذا يقول شيئًا، ولا ذاك ينطق بكلمة، وكان بطرس يلقي نظرات على الأمير أندريه، وكان الأمير أندريه يحك بيده الصغيرة جبينه. ثم قال أخيرًا وهو ينهض ويتجه نحو الباب:

- هلمَّ بنا إلى العشاء.

ودخلا غرفة الطعام الأنيقة التي أعدَّت إعدادًا فيه كثير من البذخ وجددت تجديدًا تامًا. إن كل شيء في غرفة الطعام هذه، من الأطباق إلى الفضيَّات، ومن الأواني إلى الكريستاليات، تحمل ذلك الطابع الخاص من الجدة، الذي يراه المرء في بيوت العرائس. وفيما الصديقان يصيبان عشاءهما وضع الأمير أندريه كوعيه على المائدة، وأخذ يتكلَّم كما يتكلَّم امرؤ طال سكوته عن شيء يعتمل في قلبه، فقرر فجأة أن يتخفَّف منه ويفصح عنه، فقال بعصبية لم يسبق لبطرس أن رأى فيه مثلها من قبل قط:

- لا تتزوج أبدًا يا صديقي، أبدًا. هذه نصيحتي إليك. لا تتزوج قبل أن تقول لنفسك إنك فعلت كل ما استطعت، وقبل أن تكون قد كففت عن حب المرأة التي اخترتها، وأصبحت تراها رؤية واضحة. وإلا وقعت في خدعة لا خلاص منها ولا دواء لها. تزوج متى صرت شيخًا، تزوج حين تصبح غير صالح لشيء من الأشياء. وإلا فإن كل ما تضمه نفسك من خير وسموّ سوف يتبدد ويضيع. سوف يتبعثر كل شيء في ترهات وسفاسف. نعم! نعم! لا تنظر إليَّ مدهوشًا هذا الدهش. إذا كنت تتوقع من نفسك شيئًا في المستقبل، فسوف تحسّ في كل لحظة أن كل شيء بالنسبة إليك قد انتهى، وأن كل باب من دونك قد أغلق، إلّا الصالون الذي لن تكون فيه أكثر من مداهن منافق، أو غبي أبله... طبعًا!

قال ذلك ورفع يده بحركة قوية عنيفة.

نزع بطرس نظارتيه، فأضفى ذلك على وجهه مظهرًا جديدًا أبرز طيبته

بمزيد من الوضوح، ونظر إلى صديقه مشدوها.

وتابع الأمير أندريه كلامه فقال:

- إن امرأتي امرأة ممتازة. إنها واحدة من النساء النادرات اللواتي يستطيع المرء أن يطمئن إلى سعادته مع الواحدة منهن. ولكن... ليتني لم أتزوج! إنك الإنسان الأول، الوحيد، الذي أبوح له بهذا، لأنني أحبك كثيرًا.

كان الأمير أندريه، وهو يسوق هذه الأقوال، يقل شبهه، شيئًا بعد شيء، بالأمير بولكونسكي الذي كان مسترخيًا على أريكة في صالون آنا بافلوفنا، يساقط من طرف فمه جملًا فرنسية وهو يغضِّن عينيه. إن ارتعاشات عصبية تهز الآن كل عضلة من عضلات وجهه الجاف، وإن عينيه اللتين كانتا شعلة الحياة منطفئة فيهما منذ حين، تلمعان الآن ببريق متَّقد ساطع. واضح أنه على قدر خمود عاطفته في الأحوال العادية، يكون غليان نفسه في لحظات الاهتياج العصبي.

وتابع الأمير أندريه كلامه فقال:

- إنك لا تدرك لماذا أقول هذا الكلام. فاعلم أن هذه مأساة حياتي.

ومع أن بطرس لم يجئ على ذكر بونابرت، فقد قال:

- تتحدث عن بونابرت ورسالته. تتحدّث عن بونابرت. ولكن حين كان بونابرت يعمل، وكان يمضي إلى غايته خطوة بعد خطوة، كان حرًا طليقًا، ولم يكن يشغل باله شيء غير غايته، فوصل إليها. يكفي أن يرتبط الإنسان بامرأة حتى يفقد كل حرية، ويصبح شأنه كشأن رجل مكبَّل بالأغلال من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. ثم إذا كل ما كانت تزخر به نفسه من آمال وقوى يصبح شيئًا يجثم على صدره، ويملأ ضميره عذابًا. الصالونات، والأقاويل، وحفلات الرقص، وحب الظهور، وأنواع الإسفاف، ذلك هو الوضع البائس الذي لا أستطيع منه خروجًا. إنني مسافر إلى الحرب، إلى أكبر حرب عُرفت حتى الآن، وأنا لا أعرف شيئًا ولا أصلح لشيء. أنا محبَّب إلى النفوس جدًّا، ولاذع اللسان جدًّا. ولذلك يطيب للناس أن ينصتوا إلى كلامي عند آنا بافلوفنا! آه من هذا المجتمع الذي لا تستطيع امرأتي أن تستغني عنه... آه من هاته النساء اللواتي... ليتك تعرف على الأقل قيمة

جميع هؤلاء النسوة الممتازات، وقيمة النساء عامة! إن أبي على حق. ليست النساء إلّا أنانية، وحماقة، وحب ظهور، وتفاهة في كل شيء، إذا هنَّ ظهرن على حقيقتهن. حين يراهنَّ المرء في المجتمع يحسب أن فيهن شيئًا، ولكن الحقيقة غير ذلك. ليس فيهن شيء البتة، البتة، البتة! لا، لا تتزوج يا عزيزي، لا تتزوج.

بذلك ختم الأمير أندريه كلامه. فقال بطرس:

- من المضحك أن أراك أنت، أنت بالذات، تحكم على نفسك بأنك عاجز، وتحسب حياتك حياة فاشلة. إن أمامك كل شيء، كل شيء.. وأنت....

ولم يكمل بطرس التعبير عن فكرته، ولكن لهجته وحدها كانت تدل على مدى ما يحمله لصديقه من تقدير واعتبار، وتدل على أنه يتوقّع منه في المستقبل أشياء كثيرة.

قال بطرس سائلًا نفسه: «كيف يمكنه أن يقول هذا الكلام؟». كان الأمير أندريه في نظره نموذجًا لجميع أنواع الكمال، لأن جميع المزايا التي كان يفتقر إليها بطرس قد تجمعت في الأمير أندريه على أعلى مستوى، ولأن خير ما يوصف به هو أنه قويّ الإرادة. كان بطرس يعجب دائمًا بما وهب للأمير أندريه من قدرة على الاحتفاظ بهدوئه في علاقاته بشتى أنواع الناس، وبما أوتي من ذاكرة خارقة، وما حصَّل من ثقافة عامة (كان الأمير أندريه يقرأ كل شيء، ويعرف كل شيء، وكان له إلمام بكل أمر من الأمور)، وكان بطرس يعجب خاصة وفوق كل شيء بقدرته على العمل الدائب والدرس المتصل. وإذا كان بطرس قد دهش من أن الأمير أندريه لا يميل إلى الاسترسال في الأحلام الفلسفية (وذلك ميل كان قويًا عند بطرس)، فإنه لم ير في هذا نقصًا بل رآه قوة.

إن الثناء والمديح أمران لا غنى عنهما في العلاقات بين الناس، مهما تكن هذه العلاقات قوية ومهما تكن قائمة على الصداقة، ومهما تكن بسيطة. إنهما لا غنى عنهما، كما لا غنى عن التشحيم لحسن سير العجلات.

قال الأمير أندريه:

- أنا انتهيت. فما فائدة الكلام عني.

ثم أضاف بعد صمت وهو يبتسم لخواطر أبعث على شد الأزر وتقوية العزيمة:

- الأوْلى أن نتكلّم عنك أنت.

فسرعان ما انعكست هذه الابتسامة نفسها على وجه بطرس.

قال بطرس وهو يفرج فمه عن ابتسامة فرحة غير مبالية:

- علام تتكلم عني أنا؟ ما أنا؟ أنا ابن زنا!

قال ذلك واحمرّ وجهه احمرارًا شديدًا على حين فجأة. وكان واضحًا أن هذه الكلمة قد كلفته جهدًا كبيرًا. وأردف يقول:

- أنا ليس لي اسم... وليس لي ثروة... في الحقيقة.

ولم يفصح عمَّا يعنيه بقوله: «في الحقيقة». وتابع كلامه فقال:

- إني الآن حر ومسرور. ولكنني لا أفلح في اتخاذ قرار بصدد الدرب الذي يجب عليَّ أن اختاره، والعمل الذي ينبغي لي أن أشرع فيه. وكنت أريد أن أستشيرك جادًا فعسى أن تنصحني.

كان الأمير أندريه ينظر إليه بعينين طيبتين. ولكن شعوره بتفوقه كان مع ذلك يبين في نظرته المفعمة صداقة ومحبة. وقال:

- إنني حريص عليك، لا سيما وأنت الكائن الحي الوحيد في مجتمعنا هذا كله. اختر ما يحلو لك. يستوي أن تختار من الدروب هذا أو ذاك. سوف تصلح لكل شيء تختاره. هناك أمر واحد أحب أن أنهاك عنه: انقطع عن معاشرة آل كوراجين، وعن استرسالك في هذا الطراز من الحياة... ذلك كله لا يناسبك ولا يليق بك؛ هل خلقت أنت لهذه الأنواع من الفجور، وهذه الأوضاع التي يصطنعها الفرسان، وسائر تلك الـ...

فقال بطرس وهو يرفع منكبيه:

- ماذا تريد يا عزيزي؟ النساء يا عزيزي، النساء!

فأجاب الأمير أندريه قائلًا:

- لست أفهم. كان يمكن أن أغضَّ البصر، لو كنَّ نساء محترمات. أما نساء كوراجين، النساء والخمرة، فذلك لا أفهمه!

كان بطرس يسكن عند الأمير فاسيلي كوراجين[1]، ويشارك في حياة الفسق والانحلال التي يعيشها ابنه آناتول، أي ذلك الشاب نفسه الذي يراد تزويجه من أخت الأمير أندريه إصلاحًا لشأنه.

قال بطرس وكأن فكرة موفّقة قد واتته فجأة:

- هل تعلم؟ إنني أقول لنفسي هذا الكلام جادًّا منذ مدة طويلة. وما دمت أعيش هذا الطراز من الحياة، فلن أستطيع أن أقرر شيئًا ولا أن أفكر في شيء. الصداع لا يفارقني، وجيبي خاوٍ. لقد دعاني اليوم فلن ألبي الدعوة. لن أذهب.

- عاهدني عهد الشرف أنك لن تذهب إليه بعد الآن.

- أعاهدك.

لم يترك بطرس صديقه إلّا بعد تمام الساعة الواحدة. كانت الليلة ليلة بيضاء من ليالي حزيران، ليلة من ليالي بطرسبورغ. ركب بطرس عربة وهو ينتوي أن يرجع إلى بيته. ولكنه كان كلما اقترب من البيت مزيدًا من الاقتراب أحس مزيدًا من الإحساس بأنه يستحيل عليه أن ينام في هذا الليل الذي هو أشبه بالغسق أو بالسحر. كان بصره يصل إلى بعيد في الشوارع المقفرة. وتذكر في الطريق أن عصبة المقامرين المألوفة مجتمعة هذا المساء عند آناتول كوراجين، وأن أفرادها يعكفون بعد اللعب على الشراب والسكر، ثم يختمون ليلتهم بتسلية من تلك التسليات التي يحبها.

قال يحدث نفسه: «إنها لمتعة أن أذهب إلى كوراجين». ولكنه سرعان ما تذكّر عهد الشرف الذي قطعه على نفسه للأمير أندريه بأن لا يعاشر كوراجين بعد اليوم.

غير أنه في الوقت نفسه - كما يحدث هذا كثيرًا للأشخاص الذين يوصفون بضعف الإرادة - قد بلغ من فرط اشتهاء التمتع مرة أخرى بهذه الحياة الفاجرة التي يعرفها حق معرفتها، إنه لم يلبث أن قرر الالتحاق بالعصبة. وخطر بباله فورًا أن العهد الذي قطعه على نفسه للأمير أندريه لا

---

(1) الأمير فاسيلي كوراجين: شخصيته من صنع خيال المؤلف جعل لها اسمًا على غرار اسم الأمراء كوراكين.

قيمة له، لأنه قبل أن يعد الأمير أندريه، كان وعد آناتول بأن يجيء إليه. وقال لنفسه أخيرًا إن جميع هذه العهود التي يقطعها المرء على نفسه هي أمور اصطلاحية خالية من أي معنى محدد، لا سيما إذا تصوَّر المرء أنه قد يموت غدًا، أو قد يقع له حادث خارق لا مجال معه للحديث عن الوفاء بعهد الشرف أو الإخلال به. إن هذا النوع من الاستدلالات الفكرية والبراهين العقلية التي تهدم قرارات بطرس وتعدل به عن مشاريعه، كان يتكرّر في ذهن بطرس كثيرًا. وذهب إلى كوراجين.

فلما صار أمام المنزل الكبير الذي يسكنه آناتول بقرب ثكنات الحرس الفرسان، صعد درج المدخل المضاء، ثم ارتقى السلم واجتاز الباب المفتوح. لم يكن في الدهليز أحد. وإنما كانت ملقاةً على أرضه قنانٍ فارغة ومعاطف وواقيات أحذية. وكانت تفوح رائحة الخمر. وكانت تُسمع جلبة أصوات وصرخات من بعيد.

لقد فرغ المدعوون من القمار والعشاء، ولكنهم لم ينصرفوا بعد. خلع بطرس معطفه، ودخل الحجرة الأولى، فرأى فيها بقايا العشاء، ورأى خادمًا يفرغ ثمالات الأقداح في جوفه خلسة وهو لا يعرف أن أحدًا يلاحظه؛ وكانت تصل من الحجرة الثالثة ضوضاء وضحكات، وصرخات أصوات يعرفها بطرس، وقبعات ودب. كان سبعة أو ثمانية من الشبان قد ازدحموا حول نافذة مفتوحة وقد لاحت في وجوههم شدة الاهتمام، وكان ثلاثة آخرون يلهون بدب صغير يجره أحدهم بسلسلة ويتظاهر بإلقائه على آخر.

قال واحد من المزدحمين حول النافذة:

- أراهن على ستفنس بمائة روبل.

وصرخ آخر يقول:

- حذار أن تسنده!

وصاح ثالث قائلًا:

- أما أنا فأراهن على دولوخوف[1]. كن أنت الحكم يا كوراجين.

---

(1) شخصية نموذجية ولكنها خيالية جعل لها المؤلف اسمًا مشابهًا لاسم الجنرال إيفان دوروخوف.

- اتركوا الدب ميشكا. ههنا رهان.
وهتف رابع يقول:
- دفعة واحدة، وإلا خسرت.
وصرخ المضيف نفسه من وسط الجمع يقول:
- ياكوف، هاتِ قنينة، يا ياكوف!
إنه فتى طويل القامة جميل الوجه، كان واقفًا في وسط الغرفة، لا يستر صدره إلّا قميص رقيق محلول الأزرار. قال وهو يتجه إلى بطرس:
- انتظروا يا سادة. هذا بتروشكا، الصديق العزيز.
فصاح صوت آخر هو صوت رجل ليس فارع القامة، له عينان زرقاوان صافيتان، يلفت الانتباه خاصة بلهجته الصاحية بين تلك الأصوات المخمورة جميعها، صاح يقول من النافذة: «تعال هنا، وكن حَكَمًا على الرهان!». إنه دولوخوف، الضابط في فوج سيمينوفسكي[1]، وهو مقامر شهير ومسايف ذائع الصيت. كان يسكن عند آناتول. نظر بطرس في ما حوله فرحًا وهو يبتسم. وقال يسأل:
- لم أفهم شيئًا. ما الأمر؟
فقال آناتول وهو يتناول كأسًا من المائدة ويتقدم إلى بطرس:
- انتظروا. ما هو بسكران.
ثم قال مخاطبًا بطرس:
- إشرب أولًا.
فأخذ بطرس يفرغ كأسًا بعد كأس وهو ينظر إلى الضيوف السكارى الذين أخذوا يتزاحمون حول النافذة من جديد، ويصيخ بسمعه إلى أقوالهم وأحاديثهم. وكان آناتول يسكب له الخمر ويشرح له أن دولوخوف قد راهن الإنجليزي ستفنس، وهو ضابط بحار كان حاضرًا، على أن يشرب قنينة من خمرة الروم وهو جالس على حافة النافذة متدليًا بساقيه إلى خارج.
وقال آناتول وهو يناول بطرس آخر كأس:

---

(1) هو الفوج الثاني من مدفعية الحرس، أنشأه بطرس الأكبر سنة 1687 في قرية سيمينوفسكويه بقرب موسكو.

- هيًّا اشرب القنينة كلها، لن أتركك ما لم تشربها كلّها.

فقال بطرس وهو يدفعه عنه ويقترب من النافذة:

- لا، لا، أريد أن أشرب أكثر مما شربت.

كان دولوخوف ممسكًا يد الإنجليزي بيده، وكان يحدد شروط الرهان بوضوح ودقة، متجهًا بكلامه إلى آناتول وبطرس خاصة.

إن دولوخوف فتى ربع القامة، أعقف الشعر، فاتح زرقة العينين، لعله في الخامسة والعشرين من عمره. وعلى ما جرت به عادة الضباط في سلاح المشاة، لم يكن له شاربان، وكان فمه - وهو أبرز ملامح وجهه - منفرجًا انفراجًا تامًا. إن حدود هذا الفم ترسم منحنيًا رائع الدقة؛ والشفة العليا تهبط في الوسط على الشفة السفلى الثابتة هبوطًا قويًا بزاوية حادة؛ وعند الطرفين لا ينفك يرتسم شيء يشبه أن يكون ضحكتين، واحدة في هذا الطرف وأخرى في ذاك. وجملة الوجه، ولا سيما إذا أضفتها إلى النظرة الثابتة الجريئة الوقحة الذكية، تحدث في النفس أثرًا يبلغ من القوة أن المرء لا يمكن إلّا أن يلاحظ هذا الوجه. ولم يكن دولوخوف غنيًّا، ولا كانت له علاقات بعليّة القوم. ورغم أن آناتول كان ينفق عشرات الألوف من الروبلات، فقد شاطره دولوخوف مسكنه، وعرف كيف يفرض نفسه فرضًا قويًا، حتى كان آناتول نفسه وسائر الذين عرفوه، يحترمونه أكثر مما يحترمون آناتول ذاته. كان دولوخوف يتقن المقامرة في جميع أنواع اللعب بالورق، وكان يربح في جميع الأوقات تقريبًا. وكان لا يفقد صحوه مهما يشرب. وكان كوراجين ودولوخوف في ذلك الزمان من المشاهير في عالم الرؤوس الملتهبة والشباب القاصف ببطرسبورغ.

جيء بقنينة الروم. وكان خادمان قد انكبا على الإطار الذي يعرقل الجلوس على الحافة الخارجية من النافذة، وأخذا يخلعانه مسرعين في عملهما مروَّعين من النصائح والصرخات التي تنهال عليهما ممن يحيطون بهما.

وأقبل آناتول بهيئة الفاتح الغازي، وقد اشتعلت نفسه رغبة في تحطيم شيء ما، فأقصى الخادمين عن النافذة، وشد الإطار محاولًا أن يخلعه، فلما

لم يعن له الإطار، حطّم لوحًا من الزجاج، وهتف يقول لبطرس:

- هلمَّ يا هرقل. حاول أنت!

فأمسك بطرس قوائم النافذة، وشدها شدًّا قويًّا، فإذا بالإطار ينخلع مقرقعًا.

قال دولوخوف:

- اسحبه كله، وإلا ظن أنني أتمسك به أو أستند إليه.

قال آناتول:

- الإنجليزي يفاخر ويباهي، هه؟ أأنت راضٍ؟

- راضٍ.

بهذا أجاب بطرس وهو ينظر إلى دولوخوف الذي كان ممسكًا بيده قنينة الروم، مقبلًا على النافذة التي يُرى منها ضياء السماء، الذي اختلط فيه الغسق والفجر.

ووثب دولوخوف إلى النافذة ممسكًا بالقنينة، وصاح يقول واقفًا على حافة النافذة متجهًا إلى داخل الغرفة:

- اسمعوا!

صمت الجميع. فقال يخاطب الإنجليزي بالفرنسية ليفهم الإنجليزي قوله (وكان هو لا يجيد الفرنسية إجادة كبيرة):

- إنني أراهن بخمسين دينارًا ذهبًا[1]. فهل تحب أن يكون الرهان بمائة؟

فأجابه الإنجليزي:

- بل بخمسين.

- طيب. أراهن بخمسين دينارًا ذهبًا على أن أشرب قنينة الروم كلها دفعة واحدة وأنا جالس على حافة النافذة في هذا الموضع (وانحنى مشيرًا إلى الحافة المنحدرة نحو الخارج)، ومن دون أن أتمسك بأي شيء... مفهوم؟

قال الإنجليزي:

- حسن جدًّا.

---

(1) الدينار الذهبي الذي كان متداولاً في ذلك الزمان تساوي قيمته عشرة روبلات، فالرهان إذًا بخمسمائة روبل.

التفت آناتول إلى الإنجليزي، فأمسك زر ردائه ونظر إليه من أعلى إلى أسفل (كان الإنجليزي قصير القامة) وردَّد على مسمعه شروط الرهان باللغة الإنجليزية.

وصاح دولوخوف قائلًا وهو يضرب النافذة بالقنينة للفت الانتباه:

- اسمع يا كوراجين. اصغوا إليَّ. إذا استطاع أحد أن يفعل ما أفعله أنا، فسوف أعطيه مائة دينار ذهبًا. هل فهمتم؟

فأومأ الإنجليزي بحركة من رأسه تعني أنه فهم، ولكنه لم يوضح هل هو ينوي أن يقبل هذا الرهان الجديد. ولم يتركه آناتول. فرغم أن الإنجليزي أعلمه بالإشارة أنه فهم كل شيء، كان آناتول يترجم له أقوال دولوخوف إلى الإنجليزية. وكان في الغرفة فتى نحيل الجسم ينتمي إلى فرسان الحرس، وقد خسر في القمار أثناء تلك السهرة، فصعد إلى حافة النافذة، ومال برأسه إلى الخارج، ونظر إلى تحت، فصرخ وهو يرى حجارة الرصيف:

- هوه! هوه! هوه!

صاح دولوخوف يقول:

- صمت!

وأمر ضابط الفرسان بالنزول عن النافذة، فوثب الفتى إلى الغرفة وثبة خرقاء متعثرًا بمهمازيه.

ووضع دولوخوف القنينة على متكأ النافذة لتكون في متناول يده، وتسلّق إلى النافذة بطيئًا محاذرًا، ودلّى ساقيه إلى الخارج مستندًا بكلتا يديه إلى كفافها، وتزحزح على الحافة فاختار له مكانًا، ثم ترك كفاف النافذة، ونظر يمنة ويسرة، ثم تناول القنينة. وجاء آناتول بشمعتين فوضعهما على متكأ النافذة رغم أن الصبح طلع. فكان ظهر دولوخوف الذي يستره قميص أبيض وكان رأسه الأعكف الشعر، مضاءَين من الجهتين. واحتشد الجميع حول النافذة. وكان الإنجليزي في الصف الأول بينهم. وكان بطرس يبتسم ولا يقول شيئًا. وكان بين الحضور رجل أكبر سنًا من الآخرين، قد ظهر في وجهه الرعب والاستياء، فاندفع إلى الأمام يريد أن يمسك دولوخوف من قميصه، هاتفًا:

- هذا غباء يا ساده. لسوف يموت!

فأوقفه آناتول. وقال ينهاه عن امساكه:

- لا تلمسه، وإلا أرعبته. سوف يموت، هه؟ ماذا لو مات!

والتفت دولوخوف، وعدل جلسته مستندًا إلى كفاف النافذة، وقال من بين شفتيه الدقيقتين:

- إذا تدخل أحد في شؤوني مرة أخرى، فلألقينَّه من هذه النافذة في الفضاء! هيّا!

قال «هيَّا»، والتفت من جديد، وترك كفاف النافذة وتناول القنينة وحملها إلى شفتيه، مرتدًا برأسه إلى الوراء، رافعًا يده في الهواء محفاظًا على التوازن. وكان أحد الخدم قد أخذ يلم من الأرض حطام الزجاج المكسور، فظل مقعيًّا ينظر إلى النافذة وإلى ظهر دولوخوف ولا يحول بصره عنهما. وكان آناتول منتصب الجذع محملق العينين. وكان الإنجليزي ينظر إلى جانب مبرطم الشفتين. أما الرجل المتعقل الذي أراد أن ينهى دولوخوف عن مجازفته، فقد هرب إلى ركن من الغرفة، واستلقى على ديوان متجهًا بوجهه إلى الحائط.

وأخفى بطرس وجهه،وكانت ابتسامة خفيفة منسيَّة تطوف بقسماته معبِّرة في هذه المرة عن الرعب والفزع. وكان الجميع صامتين. وأزاح بطرس يديه عن عينيه، فرأى دولوخوف لا يزال جالسًا جلسته تلك نفسها، ولكن رأسه قد بلغ من الارتداد إلى الوراء أن شعره المعكوف في قذاله كان يلمس ياقة قميصه، وكانت يده والقنينة ترتفعان مزيدًا من الارتفاع لحظة بعد لحظة، وترتعشان من فرط الجهد. وكانت القنينة تفرغ، وتعلو بمقدار فراغها، فيزداد ارتداد الرأس إلى الالوراء. قال بطرس لنفسه: «لماذا طال الأمر هذا الطول كله؟» لقد بدا له أنه انقضى من الوقت أكثر من نصف ساعة. وفجأة ردَّ دولوخوف ظهره إلى الالوراء بحركة قوية؛ لقد ارتعشت يده ارتعاشة عصبية، فكان هذا الارتعاش كافيًا لزحزحة الجسم كله عن مجلسه على الحافة المائلة. وترجح جسمه كله فعلًا، وارتعش الرأس والذراع ارتعاشًا أشد وأقوى من فرط الجهد. وارتفعت إحدى يدي دولوخوف تريد التشبث

بمتكأ النافذة، ولكنها لم تلبث أن عادت تنخفض قبل أن تلمس المتكأ. وأغمض بطرس عينيه، قائلًا لنفسه أنه لن يفتحهما بعد الآن. وأحس بالجميع يتحركون حوله. فنظر. فإذا هو يرى دولوخوف واقفًا على متكأ النافذة شاحب اللون فرح الهيئة، يقول:

- ها هي ذي فارغة!

ورمى القنينة إلى الإنجليزي، فتلقاها الإنجليزي بحركة بارعة. ووثب دولوخوف من النافذة إلى الأرض. وكانت تفوح منه رائحة الروم قوية.

وارتفعت الصيحات من كل جهة:

- واو! يا للشجاعة! ما هذا الرهان؟ تبًّا لكم!

واستل الإنجليزي كيسه، وأخذ يعدُّ المال المطلوب. وكان دولوخوف مقطبًا عابسًا لا يقول شيئًا. وقفز بطرس إلى متكأ النافذة، وصار ينادي فجأة:

- يا سادة! من يريد أن يراهنّي؟ سأفعل ما فعله دولوخوف. بل لا داعي إلى رهان هاتوا قنينة. سأفعل ما فعل دولوخوف. ناولوني قنينة.

قال دولوخوف مبتسمًا:

- هلمَّ.. هلمَّ!

وارتفعت أصوات في كل جهة تقول:

- أأنت مجنون؟ من ذا الذي يدع لك أن تفعل هذا؟ أنك تدوخ حين تصعد سلمًا!

فصرخ بطرس قائلًا وهو يضرب المائدة ضربة سكران:

- سأفرغها! ائتوني بقنينة روم!

وصعد إلى النافذة.

فأمسك بعضهم ذراعيه، ولكنه كان من القوة بحيث استطاع أن يدفع الذين اقتربوا منه فيلقيهم بعيدًا عنه.

قال آناتول:

- لا، يستحيل ردَّه إلى الصواب بهذا الأسلوب. انتظروا. سأقترح عليه ما يرضيه.

ثم التفت إلى بطرس وقال له:

- اسمع. أنا أقبل مراهنتك، ولكن غدًا، أما الآن فتذهب إلى س...

فهتف بطرس يقول موافقًا:

- حسن، هلموا بنا إلى هناك!... ولنأخذ معنا ميشكا[1]...

قال ذلك وأمسك الدب من وسط جسمه، فحمله وأخذ يدور به في الغرفة.

(1) تصغير ميشيل، ومن المألوف في روسيا أن تسمى الدببة ميشكا.

الفصل السابع

برَّ الأمير فاسيلي بالوعد الذي قطعه على نفسه، في سهرة آنا بافلوفنا، للأميرة درويتسكوي التي توسَّلت إليه في أمر ابنها الوحيد بوريس. فقد حُدِّث الأمير في أمر الفتى، فتمَّ نقله إلى الحرس استثناءً، وسمِّي ملازمًا في فوج سيمينوفسكي. ولكنه لم يُعيَّن مرافقًا لكوتوزوف، ولا ملحقًا به، رغم جميع ما قامت به آنا ميخائيلوفنا من مساعٍ ومكائد. وقد رجعت آنا ميخائيلوفنا إلى موسكو بعد سهرة آنا بافلوفنا، ومضت رأسًا إلى أقربائها الأثرياء آل روستوف[1] الذين تنزل عندهم دائمًا، والذين نشأت في منزلهم منذ طفولتها، وأسكنت عندهم ابنها المعبود بوريس سنين طويلة، حتى عُيِّن ملازمًا في المدة الأخيرة، ثم لم يلبث أن نُقل إلى سلاح الحرس. وقد غادر الحرس بطرسبورغ في اليوم العاشر من شهر آب (أغسطس)، وكان على ابنها، الذي بقي في موسكو لتجهيز نفسه، أن يلتحق بالحرس أثناء الطريق في رادزيفيلوف[2].

كان منزل آل روستوف يحتفل بعيد القديسة ناتاليا، التي تسمّى باسمها الأم وابنتها الصغرى[3]. فكانت مركبات الزائرين الذين يجيئون للإعراب

---

(1) تمثّل هذه الأسرة أسلاف المؤلف بعض الشيء، وقد وضع لها هذا الاسم على غرار اسم تولستوي الذي يلفظ تولستوفا في حالة الإضافة. وقد استعمل لها تولستوي في إحدى المخطوطات المسودات اسم الكونت بروستوي (ومعناه: البسيط).

(2) هي قرية فولهينيا، الواقعة على حدود جاليسيا، وقد سميت رادزيفيلوف لأنها كانت تنتمي إلى أحد الأمراء اللتوانيين رادزيفيل.

(3) يقع عيد القديسة ناتاليا في 26 اغسطس بالتقويم الروسي، الموافق 7 سبتمبر. ومن العادات المألوفة كثيرًا في روسيا أن يسمى الابن باسم أبيه وأن تسمى البنت باسم أمها.

عن تمنياتهم تتوالى منذ الصباح بغير انقطاع أمام قصر الكونتيسة روستوف الذي تعرفه موسكو كلها في شارع بوفارسكايا[1]. وكانت الكونتيسة وابنتها الكبرى، وهي فتاة بارعة الجمال، واقفتين في الصالون تحييان الزائرين الذين يتلاحق وصولهم وانصرافهم أفواجًا متتابعة.

إن الكونتيسة امرأة في نحو الخامسة والأربعين من العمر، لها وجه نحيل شرقي الطابع، كان واضحًا أن ولادتها اثنتي عشرة مرة قد أرهقتها وأضنتها. وكان بطء حركاتها وكلامها، وهو بطء ناشئ عن ضعفها، يضفي عليها مهابة، ويفرض لها احترامًا. وكانت الأميرة آنا ميخائيلوفنا تحضر الحفلة كواحدة من أهل البيت، وتساعد في استقبال الزائرين والاحتفاء بهم وتسليتهم. وكان الشباب قد مضوا إلى الحجرات البعيدة معتبرين أن مشاركتهم في استقبال الزائرين ليست بذات فائدة. وكان الكونت يلاقي الضيوف ويشيّعهم، ويدعوهم جميعًا إلى العودة في المساء للعشاء، قائلًا لكل واحد منهم:

- إنني يا عزيزي أو يا عزيزتي (كان يخاطب بقوله عزيزي أو عزيزتي جميع الناس، من دون استثناء، ومن دون أي تفريق، سواء أكانوا أعلى منه مقامًا أم أدنى)، ممتن أعظم الامتنان، شاكر أجزل الشكر، باسمي واسم من نحتفل بعيدهما. لا تتخلّف عن المجيء في المساء للعشاء. وإلا أزعلتني يا عزيزي. أرجوكِ يا عزيزتي رجاءً مفعمًا بخالص المودة ألا تتخلّفي عن المجيء في المساء للعشاء، أرجوك هذا الرجاء باسمي وباسم الأسرة كلها.

كان يكرر هذه الكلمات نفسها من دون تفريق بين الناس ومن دون تحوير في الألفاظ، يكررها وقد ارتسم على وجهه الممتلئ الذي أحسن حلقه تعبير فرح جذل، ويشفعها بشدٍ قوي على الأيدي وانحناءات صغيرة كثيرة. حتى إذا فرغ من تشييع أحد الزائرين رجع إلى من بقي (أو بقيت) في الصالون، فقرَّب منه مقعدًا بطلاقة رجل يحب الحياة والناس، مباعدًا ساقيه في جسارة،

(1) يقال إن تولستوي يتصوّر هنا ذلك القصر الجميل الذي كانت تملكه أسرة الكونتات سولوجوب في نهاية شارع بوفارسكايا (وهو يسمى اليوم شارع فوروسكي) من حي آربات. وهذا القصر يشغله اليوم اتحاد الكتاب السوفيات.

واضعًا يديه على ركبتيه، مترجحًا بجسمه في وقار ومهابة، وطفق يحدّثه (أو يحدّثها) عن الجو متنبئًا بما سيطرأ عليه من أحوال وتقلبات، ويسأل محدِّثه النصح في أمور صحته؛ وهو يتكلم تارة بالروسية وتارة بفرنسية ركيكة لكنها ملأى بالثقة؛ ثم إذا هو يقوم ثانيةً قومة رجل متعب مكدود لكنه ثابت جَلِد حين يكونٍ عليه أن يقوم بواجب، ليشيّع زائرين آخرين، فيسير معهم إلى الباب وهو يصفِّف شعراته القليلة على رأسه الأصلع، ويكرِّر دعوته إلى العشاء. وربما عرَّج على صالة المرمر الكبرى حين عودته من الدهليز، مارًا إليها من حديقة الشتاء وحجرة الخدمة فيلقي نظرة على المائدة التي تتسع لأربعة وعشرين مدعوًا، ويلاحظ الخدم المنهمكين في نقل الفضيَّات والخزفيات وترتيب المائدة ونشر الأغطية الدمقسية، وينادي ديمتري فسيلفتش، وهو نبيل يُعنى بجميع شؤونه فيقول له:

- هيه! هيه! ميتنكا، احرص على أن يكون كل شيء مرتبًا.

ثم يتأمل المائدة الواسعة ذات الألواح التي تُضم إليها فتزيدها طولًا، فيردف قائلًا:

- عظيم! عظيم! أدوات المائدة هي الشيء الأساسي.

ثم يعود إلى الصالون وهو يتنهّد تنهّد الرضى والسرور.

علا صوت خادم الكونتيسة يقول جهيرًا وهو يظهر في باب الصالون:

- ماريا لفوفنا كاراجين وابنتها[1].

ففكرت الكونتيسة لحظة، ثم تناولت نشقة من علبة صعوط مصنوعة من ذهب ومزدانة بصورة زوجها، وقالت:

- أرهقتني هذه الزيارات. هذه آخر من أستقبل. ما أشد تعاظمها!

ثم قالت للخادم بصوت حزين:

- أدخلها.

وكانت نبرة صوتها الحزين كأنها تعني: «هيَّا. خلِّصني!».

ودخلت إلى الصالون بين حفيف الأثواب سيدة طويلة القامة، متعجرفة

(1) إن هذه الأميرة ماريا لفوفنا كاراجين وابنتها لا علاقة لهما بأسرة كاروجين. فهذان اسمان مختلفان وإن تشابها كثيرًا.

الهيئة، تصحبها ابنتها ذات الوجه المدوَّر المبتسم.

– عزيزتي الكونتيسة، مضى زمن طويل... كانت طريحة الفراش... الطفلة المسكينة... في حفلة الرقص التي أقامها آل رازوموفسكي[1]... والكونتيسة آبراسكين... كنت سعيدة كل السعادة...

هكذا قالت أصوات نساء اندفعن يتكلّمن وتقاطع بعضهن بعضًا، وتختلط كلماتهن بحفيف الأثواب وجلبة تحريك الكراسي. وجرى حديث هو الحديث الذي لا يبدأ إلّا لتتمكن المتحدثة عند أول هدأة أن تنهض قائلة بين حفيف الثوب: «ما أسعدني بهذا اللقاء... صحة ماما... والكونتيسة آبراكسين...»، ثم تخرج إلى الدهليز بين حفيف ثوبها مرة أخرى، فترتدي فراءها أو معطفها وتنصرف. وقد تطرّق الحديث في نهايته إلى النبأ الكبير الذي ذاع في ذلك اليوم. وهو مرض الكونت الشيخ بيزوخوف، الذائع الصيت، الطائل الثراء، الذي كان واحدًا من أجمل الرجال في عهد كاترين؛ وتطرق الحديث كذلك إلى ابنه غير الشرعي بطرس الذي تصرّف تصرّفًا خاليًا من اللياقة كل الخلو في سهرة آنا بافلوفنا شيرر.

قالت الزائرة:

– إنني أرثي لحال الكونت المسكين. صحته متدهورة تدهورًا شديدًا، ثم هو يعاني هذا الألم الذي يسببه له ابنه. لسوف يقتله هذا قتلًا.

قالت الكونتيسة مستفسرةً كأنها تجهل الأمر الذي تشير إليه الزائرة، مع أنها سمعت الناس يتحدّثون عن حزن الكونت بيزوخوف خمس عشرة مرة..

– ما الذي حدث؟

قالت الزائرة مجيبة عن السؤال:

---

(1) رازموفسكي أسرة طائلة الثراء، كان أول رجالها، وهو قوزاقي بسيط، مرتّلاً في البلاط، ثم أصبح زوج كاترين الأولى من دون التمتع بما يترتب على هذا الزواج من حقوق سياسية، وذلك سنة 1772؛ وكان ابن أخيه، الكونت ألكسي كيريلوفتش، يعيش حياة بذخ= =في موسكو، وكان له ابن أخ ثانٍ هو أندريه الذي كان سفيرًا في فيينا وكان يحمي بتهوفن ويرعاه.

- هذه هي التربية في هذا الزمان. إن هذا الفتى قد أرخى له الزمام منذ كان في الخارج، والآن يقال إنه ارتكب في بطرسبورغ من الأعمال المشينة ما اضطر الشرطة إلى طرده.

قالت الكونتيسة:

- أحقًّا ما تقولين؟

وتدخلت آنا ميخائيلوفنا قائلة:

- إنه يعاشر رفاق السوء! يقال إنه هو وابن الأمير فاسيلي، وشابٌّ من آل دولوخوف، قد ارتكبوا أعمالًا لا يعلم إلّا الله ما هي! وقد نال اثنان منهم جزاءهما، فرُدَّ دولوخوف جنديًا، ونُفي ابن بيزوخوف إلى موسكو. أما آناتول كوراجين، فقد خنق أبوه القضية بطريقة من الطرق. ولكن الولد أُقصي مع ذلك من بطرسبورغ.

سألت الكونتيسة:

- ولكن ماذا فعلوا؟

قالت الزائرة:

- فعلوا ما يفعله قطاع الطرق. وكان أفظعهم دولوخوف. إنه ابن ماريا إيفانوفنا دولوخوف، وهي إنسانة محترمة. فهل تتصورين ماذا فعلوا؟ حصلوا هم الثلاثة من مكان ما على دب، فأركبوه عربة، ومضوا به إلى عند ممثلات. فلما هرعت الشرطة تريد أن تردهم إلى الصواب، أمسكوا مفوض شرطة الحي، وشدوه إلى الدب ظهرًا لظهر، ورموا الدب في قناة مويكا[1]، فسبح الدب وعلى ظهره مفوض الشرطة.

صرخ الكونت يقول وهو يكاد يختنق من شدة الضحك:

- لا بد أن هيئة مفوض الشرطة كانت جميلة وهو على ظهر الدب يا عزيزتي!

- آه... يا للهول! هل ثمة ما يبعث على الضحك يا كونت؟

ولكن السيدات أخذن يضحكن هنَّ أيضًا رغم إرادتهن.

---

(1) قناة مويكا إحدى الأقنية التي تجتاز بطرسبورغ.

واستطردت الزائرة تقول:
- ولم يمكن إنقاذ مفوض الشرطة الشقي إلّا بعد كثير من العناء.
ثم أضافت قولها:
- إن ابن الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف هو الذي يتسلَّى هذه التسلية البالغة هذا المبلغ من الذكاء! كان يقال عنه إنه حسن التنشئة ذكي. فانظروا إلى أين وصلت به تلك التربية التي رُبِّيها في الخارج! آمل ألا يستقبله هنا أحد رغم ثرائه الطائل. لقد أراد بعضهم أن يقدِّمه إليَّ، فرفضت رفضًا قاطعًا. إن لي بنات.
- ما الذي يجعلك تقولين إنه طائل الثراء؟
كذلك سألتها الكونتيسة وهي تميل إلى جانب لتحجب البنات وتمنعهن من الإصغاء. فسرعان ما تظاهرن بأنهن لا ينصتن إلى ما يجري من حديث.
وأردفت الكونتيسة تقول:
- إن الكونت كيريل ليس له إلّا أولاد غير شرعيين. وأظن أن... بطرس واحد منهم.
قالت الزائرة وهي تحرك يدها بإشارة ساخرة:
- أتخيل أن له عشرين ولدًا غير شرعي.
وتدخلت آنا ميخائيلوفنا في الحديث، وكان واضحًا أنها تحب أن تباهي بعلاقاتها، وأن تظهر علمها بمسائل المجتمع الراقي. فقالت بصوت خافت، وهيئة تنم عن أنها على معرفة بخفايا الأمور:
- إليكم المسألة! إن سمعة الكونت كيريل فلاديميروفتش معروفة. حتى إنه لا يستطيع أن يحصي عدد أولاده. ولكن بطرس هذا هو الأثير عنده.
قالت الكونتيسة:
- ما كان أجمل هذا الشيخ، حتى في السنة الماضية! لم أرَ في حياتي رجلًا أجمل منه.
قالت آنا ميخائيلوفنا:
- تغيَّر كثيرًا.
ثم تابعت كلامها الأول فقالت:

- كنت أريد أن أقول إن الأمير فاسيلي هو الذي يجب أن يكون، من جهة امرأته، وريث الثروة كلها، ولكن الأب يحب بطرس كثيرًا، وقد عُني بتنشئته، وكتب إلى الإمبراطور في أمره... فإذا مات (وهذا أمر متوقَّع بين لحظة وأخرى، لأن حالته سيئة وقد استُدعيَ لوران[1] من بطرسبورغ)، فليس يدري أحد إلى من تؤول هذه الثروة الطائلة: أتؤول إلى بطرس أم إلى الأمير فاسيلي. إن ثروته تبلغ أربعين ألف نفس[2] وملايين. أنا على معرفة تامة بالأمر، فالأمير فاسيلي نفسه هو الذي حدّثني به وذكره لي. ثم إن كيريل فلاديميروفتش هو من جهة أمي خالٌ لي على طريقة أهل بروتانيا. هذا عدا أنه عرَّاب ابني بوريس.

وقد ذكرت هذا الأمر من دون أن يظهر عليها أنها توليه أيَّ اهتمام. وأكملت:

- إن الأمير فاسيلي هو الآن هنا منذ أمس، جاء إلى موسكو، في رحلة تفتيشية كما يقال.

فقالت الأميرة:

- ولكن الواقع أن التفتيش عذر انتحله انتحالًا، وهو لم يأتِ في الحقيقة إلّا ليرى الكونت كيريل فلاديميروفتش حين علم بتدهور صحته.

قال الكونت روستوف فجأة:

- مهما تقُلي يا عزيزتي فهذه مهزلة لطيفة!

لكنه وقد رأى أن الزائرة لا تصغي إليه، التفت إلى البنات، وقال:

- لا بد أن مفوَّض الشرطة كانت هيئته جميلة!

وأخذ يقلِّد كيف كان مفوَّض الشرطة يحرّك ذراعيه، وانفجر يضحك مرةً أخرى ضحكًا مجلجلًا عميقًا يهزُّ جسمه البدين كله، وهو أضحك أولئك الذين ظلوا طوال حياتهم يأكلون كثيرًا، ويشربون كثيرًا على وجه الخصوص.

- اتفقنا إذًا. ننتظركم في العشاء.

---

(1) طبيب فرنسي واسع الشهرة ذائع الصيت أقام ببطرسبورغ.

(2) أي أراضٍ مع من عليها من أقنان يبلغ عددهم أربعين ألف قن.

الفصل الثامن

ساد صمت. ونظرت الكونتيسة إلى الزائرة وهي تبتسم لها ابتسامة مودة، من دون أن تخفي مع ذلك أنها لن يسوءها الآن أن تراها تنهض وتنصرف. وقد أخذت بنت الزائرة ترتب فستانها وتنظر إلى أمها مستفهمة. وإنهم لكذلك إذا بهم يسمعون ضجة خطوات سريعة في الغرفة المجاورة، خطوات إناث وخطوات ذكور، ويسمعون قرقعة كرسي تقلبها على الأرض صدمة مرور سريع، ثم إذا بفتاة في الثالثة عشرة من العمر تدخل الصالون كالسهم فتقف في وسطه وهي تخفي تحت تنورتها القصيرة شيئًا، ويدهشها إدهاشًا واضحًا أن سرعة جريها قد وصلت بها إلى هنا على غير إرادة منها. وفي تلك اللحظة نفسها ظهر في الباب طالب له ياقة بلون توت العليق، وضابط من الحرس، وفتاة في الخامسة عشرة، وصبي سمين متورد الوجه يلبس سترة طفل.

نهض الكونت بحركة سريعة قوية، وباعد ذراعيه أمام الصبية مترنحًا، وهتف يقول ضاحكًا!

- آ... هي ذي بطلة الحفلة! عزيزتي! هذه من نحتفل بعيدها!

فقالت الكونتيسة للصبية متظاهرة بالقسوة:

- لكل شيء وقته يا عزيزتي!

ثم أضافت تقول مخاطبة زوجها:

- إنك تسرف في تدليلها يا إيلي!

قالت الزائرة:

- يومك سعيد يا عزيزتي. أهنئك!

واستطردت متجهة بكلامها إلى الأم:

- يا لها من طفلة لذيذة!

إن هذه الصبية، ذات العينين السوداوين، والفم الكبير الذي ليس جميلًا ولكنه يفيض حياة، والكتفين اللتين عرَّاهما ركضها السريع، وضفائر الشعر المتداخلة المرتدّة إلى الوراء، والذراعين النحيلتين العاريتين، والساقين الصغيرتين اللتين يكسوهما بنطلون مصنوع من دانتيلا كشف عن قدميها المتعلتين حذاءين خفيفين، أقول إن هذه الصبية كانت في تلك السن الجميلة التي تشب فيها البنت عن طور الطفولة، ولكن الطفلة لمّا تصبح فيها فتاة بعد.

وقد تجنبت أباها وأسرعت إلى أمها تخفي وجهها الجميل المحمر في دانتيلات خمارها من دون أن تلقي بالًا إلى هيئتها المعبّرة عن القسوة، وانفجرت تضحك. كانت تضحك من شيء ما متكلمة بصوت متقطع عن عروسة استلتها من تنورتها الصغيرة.

- هل ترين؟... العروسة... ميمي... انظري...

لم تستطع ناتاشا أن تقول أكثر من هذا. فلقد كان كل شيء يضحكها إضحاكًا شديدًا. ثم ها هي ذي تتهالك على أمها وتنطلق في ضحكة مجنونة جعلت الجميع يضحكون مثلها رغم إرادتهم ومنهم الزائرة المتعاظمة.

قالت الأم وهي تدفعها بغضب مصطنع:

- طيب... طيب... اذهبي أنت وهذه العروسة الكريهة!

ثم قالت تشرح لزائرتها السيدة كاراجين: هذه ابنتي الصغرى.

فأخرجت ناتاشا رأسها لحظة من دانتيلا خمار أمها ونظرت من خلال دموع الضحك إلى السيدة كاراجين من أدنى إلى أعلى، وعادت تخفي وجهها من جديد.

ولاضطرار السيدة كاراجين إلى إظهار الإعجاب بهذا المشهد العائلي، رأت أن عليها أن تشارك فيه، فقالت تسأل ناتاشا:

- قولي لي يا عزيزتي الغالية، ما القرابة التي بينك وبين ميمي؟ هي ابنتك طبعًا، أليس كذلك؟

ولكن ناتاشا لم تعجبها هذه اللهجة المتنازلة التي اصطنعها السيدة كاراجين للهبوط إلى مستوى الصبية، فلم تجب الزائرة بشيء، ونظرت اليها عابسة.

وفي أثناء ذلك كان هذا الجيل الجديد كله: بوريس الضابط، ابن الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي، ونيقولا الطالب، أكبر أبناء الكونت، وصونيا، الفتاة التي تبلغ الخامسة عشرة من العمر، وهي بنت أخت الأمير فاسيلي، وبتروشا[1] أصغر أخوتها، كانوا جميعًا قد استقرّوا في الصالون، يحاولون أن يتقيدوا بالمواصفات الاجتماعية، فيكبحوا ما هم فيه من مرح شديد يشعّ من قسمات كل وجه من وجوههم. واضح أن الحديث الذي كان يجري بينهم هناك، في الحجرات البعيدة التي جاؤوا منها مسرعين هذا الإسراع الكبير، كان أدعى إلى التسلية وأبعث على الضحك من الحديث الذي يدور هنا عن أقاويل المدينة، وحالة الجو، والكونتيسة آبراكسين. فكانوا يتراشقون النظرات بين الفينة والفينة، فلا يستطيعون أن يكظموا ضحكهم إلّا بكثير من العناء.

إن الشابَّين، أعني الطالب والضابط، صديقان من الطفولة، وهما في سن واحدة، وكلاهما جميل، ولكنهما لا يتشابهان. فأما بوريس فهو طويل أشقر متسق القسمات دقيق الملامح، في وجهه الجميل هدوء. وأما نيقولا فليس طويل القامة، وهو أعقف الشعر، منبسط أسارير الوجه، يظلل شفته العليا زغب قليل منذ الآن، ويعبر عن عنف وحماسة. وقد احمرّ وجهه منذ أن دخل الصالون. وكان واضحًا أنه يحاول أن يبحث عن شيء يقوله. ولا كذلك بوريس، فإنه سرعان ما برهن على حضور بديهته، إذ قال بوقار ولهجة جذلى أنه عرف هذه العروسة ميمي وهي فتاة لم يمسس أنفها أذى، وإنها شاخت ودبَّ إليها الهرم أمام بصره في غضون خمس سنين، وإن رأسها قد انشق على طول الجمجمة كلها. قال بوريس ذلك ونظر إلى ناتاشا. فأشاحت ناتاشا وجهها ونظرت إلى أخيها فرأته مغمض العينين

---

(1) بتروشا تصغير اسم بطرس.

تهزه ضحكة خرساء، فلم تطق أن تسيطر على نفسها أكثر من ذلك، فإذا هي تقفز واقفة على قدميها، ثم تركض هاربة بالسرعة التي تمكّنها منها ساقاها الخفيفتان الرشيقتان، ولم يضحك بوريس. وقال مخاطبًا أمه مبتسمًا:

- أظن أنك كنت تريدين أن تخرجي أيضًا يا ماما، أليس كذلك؟ هل أنت في حاجة إلى العربة؟

فقالت الأم تجيبه مبتسمة:

- نعم. نعم، اذهب! مر بكدن الخيل.

فخرج بوريس برصانة يتبع ناتاشا. وأسرع الصبي السمين يلحق بها حانق الهيئة، كأنه غاضب من صرفه عن مشاغله أو مضايقته فيها.

الفصل التاسع

لم يبق في الصالون من الشبيبة، عدا الآنسة كاراجين وابنة الكونتيسة، (ابنتها الكبرى التي تكبر أختها بأربع سنين، وتصطنع منذ الآن سلوك شابة كبيرة) إلّا نيقولا وقريبته صونيا. إن صونيا فتاة سميراء، نحيلة الجسم ضعيفة، لها نظرة رقيقة تظلّلها أهداب طويلة وشعر كثيف ضفر جديلة ثقيلة تلتف على رأسها مرتين، ولون كامد ولا سيما في العنق وفي الذراعين البارزة عضلاتهما، الهزيلتين من دون أن تخلوا من جمال وفتنة. وهي بانسجام حركاتها، وبالرشاقة والمرونة في أعضائها الصغيرة، وبأساليبها التي تدل على شيء من دهاء وتشتمل على تحفّظ، أشبه بقطة صغيرة لم تستكمل نموها بعد، ولكنها تعد بأن تصبح قطة لذيذة. وكان واضحًا أنها رأت أن من المناسب أن تبين بابتسامة على ثغرها أنها مهتمة بالحديث العام. ولكنّ عينيها كانتا تلتفتان تحت أهدابها الكثيفة إلى قريبها رغم إرادتها، أعني إلى نيقولا الذي سيلتحق بالجيش، فتنظر إليه بعاطفة الفتاة التي تحب حب العبادة، وبابتسامة لا يمكن أن يُخدع بها أحد يومًا. وكان واضحًا أن القطة الصغيرة لم تجلس إلّا من أجل أن تثب بمزيد من القوة، فتلعب مع قريبها متى أتيح لهما أن يخرجا من الصالون، كما فعل بوريس وناتاشا.

قال الكونت الشيخ للزائرة السيدة كاراجين، وهو يومئ إلى ابنه نيقولا:

- نعم يا عزيزتي. عُيّن صديقه بوريس ضابطًا، فأصبح يريد أن يكون ضابطًا من باب صداقته له، فترك الجامعة، وتركني أنا الشيخ العجوز، واختار العسكرية يا عزيزتي، مع أن هناك وظيفة شاغرة له في ديوان المحفوظات. أهذه صداقة؟

بذلك ختم الكونت حديثه سائلًا.

قالت الزائرة السيدة كاراجين:

- هل صحيح أن الحرب أُعلنت كما يقال؟

قال الكونت:

- يتحدّث الناس عن هذا منذ مدة طويلة، وسوف يتحدّثون عنه هذه المرة، ثم تبقى الأمور عند هذا الحد. ثم كرر سؤاله:

- أهذه صداقة يا عزيزتي؟ إنه يدخل سلاح الفرسان. فلم تجد الزائرة ما تجيب به عن سؤال الكونت، فاكتفت بأن هزت رأسها.

واحمر وجه نيقولا احمرارًا شديدًا، وردّ يقول مدافعًا عن نفسه كأن الأمر أمر نميمة مشينة:

- أنا لا أفعل هذا بدافع الصداقة. لا أفعله أبدًا بدفع الصداقة. وإنما أفعله لإحساس بأنني خلقت للسلاح.

قال ذلك ونظر إلى قريبته والى الزائرة الشابة. ونظرت الفتاتان كلتاهما بابتسامة تأييد.

قال الكونت وهو يرفع منكبيه، متكلمًا بلهجة المزاح عن مسألة كان واضحًا أنها تسبب له حزنًا كبيرًا:

- علينا أن نعشي شوبرت، الكولونيل في فرسان بافلوغراد[1]. إنه في إجازة هنا. فمتى انتهت إجازته اصطحب ابني المشاغب معه.

تدخل الابن قائلًا:

- سبق أن أعلنت لك يا بابا أنني مستعد للبقاء إذا كنت لا تريد لي أن أسافر. ولكني أعرف أنني لا أصلح لشيء غير مهنة الحرب. إنني لم أخلق لأكون دبلوماسيًّا أو موظفًا.

وواصل كلامه بما في شبابه الغض الجميل من غنج، وهو يلقي نظرات على صونيا والزائرة الشابة:

- أنا لا أستطيع إخفاء عواطفي.

---

(1) من فوج الفرسان الثاني، وقد تميّز بعد ذلك في الحروب التي خاضتها روسيا ضد نابوليون.

وكانت القطة الصغيرة شاخصة البصر إليه، متأهبة في كل لحظة لأن تلعب ولأن تظهر كل ما تضمّه نفسها من طبيعة الهرة.

قال الكونت:

- طيب طيب! حسن! انه يتحمس دائمًا... ذلك كله إنما سببه نابوليون الذي ذهب بعقولهم جميعًا. فهم لا ينفكون يقولون لأنفسهم إن نابوليون كان ملازمًا فأصبح إمبراطورًا. طيب. ليكن. على بركة الله!

أضاف هذه الجملة الأخيرة من دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي طافت بثغر الزائرة.

وأخذ الكبار يتكلّمون عن نابوليون بونابرت. واتجهت جوليا، ابنة السيدة كاراجين، إلى الفتى روستوف قائلة له وهي تبتسم ابتسامة فيها رقة وعاطفة:

- خسارة أنك لم تأتِ يوم الخميس إلى آل آرخاروف(1).

سرَّ الفتى بما قالته الفتاة، فابتسم ابتسامة الشباب التي تشتمل على دلال، وقام من مكانه وجاء يجلس قريبًا من جوليا، وشرع يحدّثها على انفراد، من دون أن يلاحظ أن هذه الابتسامة التي انفرج عنها ثغره على غير إرادة منه كانت تطعن قلب صونيا بخنجر الغيرة، وأن صونيا قد احمرّت احمرارًا شديدًا، لكنها تصطنع التبسّم مكرهة عليه نفسها إكراهًا. وفيما كان نيقولا منهمكًا في الحديث ألقى نظرة على صونيا، فإذا هي ترشقه بنظرة تفيض حقدًا متقدًا، وإذ هي لا تستطيع أن تحبس الدموع في عينيها إلّا بكثير من المشقة، وتقسر نفسها على التبسّم قسرًا، ثم تقوم وتخرج. فما كان من نيقولا إلّا أن ذهبت حماسته كلها، وأخذ ينتظر لحظة صمت، حتى إذا سنحت هذه اللحظة، خرج يسعى إلى صونيا منقلب الوجه.

قالت آنا ميخائيلوفنا:

- إن أسرار هذه الشبيبة مخيطة بخيوط بيضاء. ثم أضافت تضرب مثلًا فرنسيًا، فتقول:

---

(1) نيقولا آرخاروف (1742 – 1814) كان حاكم موسكو من سنة 1782 إلى سنة 1800؛ وقد أقام فيها بعد إحالته على التقاعد.

- «مجاورة القريب للقريب تشعل النار في القلوب».

قالت الكونتيسة منذ غاب شعاع الشمس الذي دخل الصالون مع دخول هذا الجيل الجديد إليه، وكأنها تجيب عن سؤال لا يلقيه عليها أحد ولكنه يشغل بالها دائمًا:

- ما أكثر ما يقاسي المرء الآن من ألوان العذاب والقلق حتى يكونوا قرة نفسه وفرحة قلبه! ومع ذلك فإن هذه الفرحة مشوبة دائمًا بالخوف والخشية. فيظل المرء في عذاب مقيم! هذه هي السن التي تكثر فيها المخاطر على البنات والبنين على حد سواء.

قالت الزائرة السيدة كاراجين:

- كل شيء رهن بالتربية.

- نعم، إنك على حق. الحمد الله على أنني كنت حتى الآن صديقة لأولادي، وأحظى بثقتهم كاملة...

كذلك أضافت الكونتيسة مكررة ذلك الخطأ الذي يرتكبه كثير من الآباء والأمهات إذ يتصورون أن أولادهم ليس لهم أسرار خاصة بهم. وأردفت تقول:

- أنا أعلم أنني سأكون أول من تفضي إليه بناتي بأسرارهن، وأعلم أن نيقولا إذا دفعه طبعه المندفع العارم إلى ارتكاب حماقات (وما من شاب يستطيع أن ينجو من ارتكاب حماقات) فإن حماقاته لن تكون أبدًا كحماقات أولئك السادة الذين ربطوا مفوض الشرطة بالدب في بطرسبورغ!

قال الكونت مؤيّدًا، وهو يحل جميع المسائل الشائكة بأن يصفها بأنها لطيفة:

- نعم، هم أولاد طيبون لطاف. تصوري! يريد أن يلتحق بسلاح الفرسان! ولكن ما حيلتنا يا عزيزتي؟

قالت الزائرة:

- ما أبدع وما أفتن ابنتك الصغرى! إنها شديدة الحيوية متوقّدة النشاط.

- نعم، متوقدة النشاط! تشبهني! وما أروع صوتها يا عزيزتي! سوف أقول الحقيقة وإن تكن ابنتي: لسوف تكون مغنية أوبرا، لسوف تكون سالوموني جديدة! وقد عينّا لها إيطاليًا يعطيها دروسًا في الغناء.

- أليس هذا سابقًا لأوانه؟ يقال إن دراسة الغناء في هذه السن تسيء إلى الصوت.

فأجاب الكونت:

- لا. كيف يكون سابقًا لأوانه؟ ألم تتزوج أمهاتنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر؟

قالت الكونتيسة وهي تبتسم ابتسامة رفيقة وتنظر إلى أم بوريس:

- أرى أنها مولّهة منذ الآن بحب بوريس.

ثم تابعت كلامها تجيب عن الفكرة التي تشغل بالها بغير انقطاع:

- إذا قسوت عليها، فزجرتها... فلا يعلم إلّا الله ماذا قد يفعلان خفية (كانت الكونتيسة تعني أنهما قد يتبادلان قبلة)، أما بالطريقة التي أتّبعها فإنني أعرف كل كلمة يقولانها. إنها تهرع إليَّ في المساء من تلقاء نفسها فتقص عليّ كلِّ شيء. جائز أنني أدلِّلها، ولكنني أعتقد بأن هذا الأسلوب هو الأفضل حقًا. لقد قسوت على الكبرى قسوة شديدة.

قالت ابنتها الكبرى، الكونتيسة الجميلة فيرا، مبتسمة:

- نعم، لقد رُبّيت أنا تربية أخرى.

ولكن هذه الابتسامة لم تجمّل وجه فيرا كما تجمله عادة، وإنما هو اكتسى صورة بعيدة عن طبيعته فهي صورة منفّرة. إن الكبرى فيرا فتاة جميلة، ذكية، حسنة التربية، ولقد كانت في المدرسة تلميذة ممتازة، وكان لها صوت حلو عذب، وما قالته كان صدقًا وكان في محله. ولكن الشيء الغريب أن الجميع، حتى الزائرة والكونتيسة، نظروا إليها نظرة من يتساءل لماذا قالت هذا الكلام، وشعروا من ذلك بضيق وحَرَج.

قالت الزائرة:

- إن المرء يتشدد دائمًا في معاملة ابنته الأولى، لأنه يريد أن يجعل منها شيئًا رائعًا لا مثيل له.

قال الكونت:

- يجب أن أعترف يا عزيزتي، بأن الكونتيسة الغالية قد تشددت كثيرًا مع فيرا.

ولكنه استدرك يقول وهو يغمز ابنته متحببًا متوددًا:

- ولكن التجربة نجحت نجاحا باهرا. فابنتي فيرا لطيفة غاية اللطف.

نهضت الزائرتان وانصرفتا وهما تعدان بأن تجيئا في المساء للعشاء. وقالت الكونتيسة وهي عائدة من تشييعهما:

- ما هذا السلوك؟ هل يجوز لأحد أن يمكث هذه المدة الطويلة كلها؟ كادتا أن تقيما هنا.

الفصل العاشر

حين غادرت ناتاشا الصالون راكضة فإنها لم تذهب إلى أبعد من الغرفة الزجاجية (حديقة الزجاج)، فتوقفت هنالك، وأصاخت بسمعها إلى ضجة الأصوات الصادرة عن الصالون، منتظرة أن يجيء بوريس. فلما أخذ ينفد صبرها، وأخذت تقرع الأرض بقدميها غضبًا وأوشكت أن تبكي لأنه لم يلحق بها فورًا، سمعت وقع خطوات الشاب لا بطيئة ولا سريعة، بل متئدة محتشمة. فارتمت ناتاشا بحركة قوية بين صناديق الأزهار واختبأت.

وقف بوريس في وسط الغرفة، ونظر حوله، ونفض الغبار بيده عن كم بزته الرسمية، ومضى إلى المرآة فوقف أمامها يتأمل وجهه الجميل. فظلت ناتاشا لابدة متربصة في مخبئها، تنتظر أن ترى ما سيفعله. ولبث بوريس أمام المرآة بعض الوقت ثم ابتسم واتجه إلى باب الخروج. فأرادت ناتاشا أن تناديه، ولكنها لم تلبث أن عدلت عن هذا الرأي، قائلة لنفسها: «فليبحث». وما كاد بوريس يخرج حتى دخلت صونيا من باب آخر وقد احمرّ وجهها احمرارًا شديدًا وأخذت تدمدم من خلال دموعها غاضبة حانقة، فكبحت ناتاشا الحركة الأولى التي همَّت بها، وهي أن تهرع إلى صونيا، وبقيت في مكمنها تتجسس على ما يحدث في هذا العالم، وشعرت من ذلك بلذة خاصة، جديدة كل الجدة. كانت صونيا تدمدم ببعض الكلام، وتلقي نظرات على باب الصالون. فإذا بنيقولا يخرج من الصالون، ويركض إلى صونيا قائلًا لها:

- صونيا؟ ما بك؟ هل هذا معقول؟

- ليس بي شيء، ليس بي شيء. دعني! وانفجرت تبكي.

- بل أنا أعلم...
- إذا كنت تعلم فهذا عظيم. فاذهب إذن اليها!...
- صو... نيا! كلمة واحدة! هل يجوز أن تعذّبي نفسك وأن تعذبيني هذا التعذيب بسبب سفاسف؟
كذلك قال لها نيقولا وهو يمسك بيدها.
ولبثت ناتاشا في مخبئها ساكنة لا تتحرك، حابسة أنفاسها، تنظر بعينين ملتمعتين، وتتساءل: «ما عسى يحدث؟».
قال نيقولا:
- صونيا! لست في حاجة إلى أحد في العالم سواك. أنت وحدك كل شيء عندي. وسوف أبرهن لك على ذلك.
- إنني أكره أن أسمعك تقول هذا الكلام.
- طيب. لن أقوله بعد الآن. ألا سامحتيني يا صونيا؟
قال نيقولا ذلك، وجذب صونيا إليه، وقبّلها. فقالت ناتاشا تحدث نفسها: «آه... ما أحلى هذا!». فلما خرج نيقولا وصونيا، تبعتهما ونادت بوريس، فلما جاءها قالت له بلهجة رصينة متعاظمة:
- بوريس، تعال إلى هنا. أريد أن أقول لك شيئًا.
وأضافت تقول له:
- من هنا. من هنا.
وقادته إلى حديقة الشتاء، إلى المكان الذي كانت مختبئة فيه بين صناديق الأزهار. فكان بوريس يتبعها مبتسمًا. وسألها:
- ما الأمر؟
فاضطربت، وألقت نظرة على ما حولها، فلما لمحت العروسة ملقاة على أحد الصناديق، تناولتها بيديها. وقالت لبوريس:
- قبّل العروسة!
فكان بوريس ينظر إلى وجهها المتّقد بعينيه المنتبهتين الزاخرتين بمعاني الصداقة، ولا يجيب بشيء. فقالت مدمدمة وهي ترمي العروسة، وتتوغل مزيدًا من الإيغال بين صناديق الأزهار:

- لا تريد؟ إذن تعال إلى هنا. اقترب أكثر، أكثر.

وأمسكت الضابط من ظهر كمه، وكان في وجهها تعبير عن أبهة وارتياع. ودمدمت تقول له بصوت خافت لا يكاد يسمع، ناظرة إليه وهي خافضة رأسها، مبتسمة شبه باكية في آن واحد:

- وهل تريد أن تقبلني أنا؟

فابتسم بوريس. وقال لها وقد ازداد احمرارًا ومال عليها، ولكنه ظل منتظرًا لا يفعل شيئًا:

- إنك تضحكينني!

فوثبت فجأة على كرسي، حتى صارت أعلى منه، فطوقته بذراعيها النحيلتين العاريتين حتى انضمتا عند قذاله، وردت شعرها بحركة من رأسها إلى الوراء، وقبلته مطبقة شفتيها على شفتيه. ثم أسرعت تتسلل بين أصص الأزهار إلى الطرف الآخر من الغرفة، ووقفت هنالك خافضة رأسها. قال بوريس:

- ناتاشا! أنت تعلمين أنني أحبك، ولكن... فقاطعته ناتاشا سائلة:

- مولَّه بحبي؟

- نعم، موله بحبك. ولكن لا تفعلي هذا بعد الآن أرجوك... بعد أربع سنين، أطلب يدك خاطبًا.

فأطرقت ناتاشا تفكر. ثم أخذت تعدّ على أصابعها الصغيرة:

- ثلاث عشرة سنة، أربع عشرة، خمس عشرة، ست عشرة. طيب. اتفقنا؟

وأشرقت في وجهها الحي ابتسامة جذلى هادئة.

قال بوريس:

- اتفقنا!

- إلى الأبد! حتى الموت؟

وتناولت ذراعه متهللة الأسارير سعيدة، وسارت معه بخطوات وئيدة نحو غرفة التدخين المجاورة.

الفصل الحادي عشر

بلغت الكونتيسة من التعب من الزيارات أنها أصدرت أمرها إلى البواب السويسري بأن لا يستقبل أحدًا بعد الآن، وأن يكتفي بأن يلح في دعوة الذين يجيئون للتهنئة إلى العشاء في المساء. كانت الكونتيسة تريد أن تخلو إلى صديقة طفولتها الأميرة آنا ميخائيلوفنا التي لم تكد تراها منذ عودتها من بطرسبورغ. وها هي ذي آنا ميخائيلوفنا التي أضنت الدموع وجهها اللطيف، تقرّب مقعدها من مقعد الكونتيسة.

قالت الأميرة آنا ميخائيلوفنا:

- سأكون صريحة معك كل الصراحة. لم يبق عددنا كبيرًا نحن معشر الصديقات القديمات! لذلك أحرص على صداقتك أشد الحرص.

ونظرت آنا ميخائيلوفنا إلى جهة فيرا، فأمسكت عن الكلام، وأسرعت الكونتيسة تضغط يد صديقتها. وقالت ابنتها الكبرى التي كان واضحًا أنها ليست منتعشة النفس.

- فيرا! ما بالكم لا تفهمون شيئًا! ألا تحسّين أن وجودك هنا زائد. هيا انضمي إلى أخواتك أو...

فابتسمت فيرا الجميلة باستخفاف دون استياء، وقالت:

- لو أمرتني بهذا قبل الآن يا ماما لانصرفت حالًا.

ومضت إلى غرفتها. ولكنها حين مرت أمام غرفة التدخين لمحت زوجين وزوجين قد جلسوا بقرب النافذة متناظرين. فوقفت، وابتسمت ابتسامة احتقار. كانت صونيا جالسة إلى جانب نيقولا الذي كان ينسخ لها الأشعار الأولى التي نظمها. وكان بوريس وناتاشا جالسين بقرب النافذة الأخرى، وقد صمتا حين دخلت فيرا. ونظرت صونيا وناتاشا إلى فيرا وقد

لاح في وجهيهما الشعور بالذنب والإحساس بالسعادة في آن واحد.

كان منظر الصبيّتين المولَّهتين منظرًا يبعث على الضحك ويؤثر في النفس معًا، ولكنه لم يوقظ في فيرا أي بهجة. فقالت:

- كم مرة طلبت منكم أن لا تأخذوا أشيائي. إن لكم غرفكم الخاصة بكم.

وانتزعت المحبرة من نيقولا. فقال لها نيقولا وهو يغمس ريشته:

- حالًا، حالًا.

فقالت فيرا:

- إنكم لا تفعلون شيئًا إلّا في غير محله. فمنذ قليل دخلتم الصالون دخولًا جعل الجميع يخجلون عنكم.

لم يجبها أحد بشيء رغم صواب رأيها، أو ربما بسبب صواب حكمها، ولم يزد الأربعة على أن أخذوا يتبادلون النظرات. وتلبثت فيرا في الغرفة ممسكة بالمحبرة، ثم قالت تسأل:

- ثم ما هي الأسرار التي يمكن أن تقوم في هذه السن بين ناتاشا وبوريس، وبينكما أنتما. ما هذه كلها إلّا سخافات!

قالت ناتاشا بصوت نحيل عذب فيه معنى الاسترضاء والمصالحة:

- أي أذى نتسبب به لك يا فيرا؟

وكان واضحًا أنها اليوم أكثر بشاشة ولطافة مع الجميع منها في أي يوم مضى.

قالت فيرا:

- هذا كله حمق وغباء. إنني أخجل عنكم. ما هذه الأسرار...؟

فقالت ناتاشا وقد تحمست:

- لكل أمرىء أسراره. نحن لا نضايقكما أنت وبيرج!

قالت فيرا:

- أظن أنكم لا تضايقوننا، لأن ما أفعله لا يمكن أن يكون فيه سوء! ولكنني سأحكي لماما كيف تعاملين بوريس.

قال بوريس:

- إن ناتاليا إيلينشنا تعاملني أحسن معاملة وليس في معاملتها ما أشكو منه.

فقالت ناتاشا وقد أخذ صوتها يرتعش الآن حنقًا:

- اسكت يا بوريس. حقًّا إنك لمسرف في الدبلوماسية. وقد صرت أضيق ذرعًا بهذا. (كانت كلمة الدبلوماسية رائجة الاستعمال بين الأطفال، وكانوا يضفون عليها معنى خاصًا). ما الذي تأخذه عليّ فيرا؟ ولماذا تهاجمني دائمًا؟

وأضافت تقول مخاطبة فيرا:

- إنك لن تفهمي هذا أبدًا، لأنك لم تحبي أحدًا في يوم من الأيام. أنت ليس لك قلب. ما أنت إلّا مدام دو جنلي[1] (كان نيقولا هو الذي خلع على فيرا هذا اللقب الذي كان يعد جارحًا)، وأكبر لذة تشعرين بها هي لذة مضايقة الآخرين. أمضي إلى برج فتدللي ما شئت أن تتدللي...

قالت ناتاشا هذه الجملة الأخيرة بسرعة. فأجابت فيرا:

- على كل حال، لن أركض حتمًا الوراء شاب أمام زائرين.

تدخّل نيقولا فقال:

- ها قد حققت غاياتك، فقلت كلامًا يسوء كلَّ واحد منا، وأفسدت علينا مسرَّتنا. هلموا بنا إلى غرفة الأولاد.

وقام الأربعة قومة عصافير مروِّعة، واتجهوا نحو الباب.

ولاحقتهم فيرا بقولها:

- أنا التي قيل لي كلام يسوؤني، ولم أقل لأحد شيئًا.

وأخذت أصوات ضاحكة تقول الوراء الباب:

- مدام دو جنلي! مدام دو جنلي!

فابتسمت فيرا الجميلة التي تحدث هذا الإزعاج لجميع الناس، واقتربت من المرآة من دون أن يبدو عليها أنها متأثرة مما قيل لها، فرتَّبت شالها وشعرها، وغدت أكثر برودة وأشدَّ هدوءًا حين نظرت في المرآة إلى جمال وجهها.

---

(1) ستيفاني فيليسيتي دو جنلي (1746 - 1830). أديبة فرنسية ألّفت منذ 1779 كتبًا في التربية وروايات وعظية كثيرة، وكانت تشغل وظيفة مفتش المدارس الابتدائية في عهد نابوليون.

وكان الحديث في الصالون يتتابع أثناء ذلك كله.

قالت الكونتيسة:

- آه يا عزيزتي، في حياتي أنا أيضًا، ليس كل شيء وردًا. ألست أرى أننا بالسيرة التي نسيرها ستنفذ ثروتنا بعد مدة غير طويلة! والذنب في هذا كله هو ذنب النادي وذنب قلبه الطيب. حتى في الريف لا نستريح. فهناك المسرحيات، والصيد، وما لا يعلمه إلّا الله أيضًا.

ولكن علام أتكلم عن نفسي؟ قولي: كيف دبرت أمرك. إني لأدهش في كثير من الأحيان حين أراك يا آنيت. كيف تستطيعين، وأنت في هذه السن، أن تجري هذا الجري وحيدة إلى موسكو والى بطرسبورغ، بعربة البريد، فتذهبي إلى جميع الوزراء، وتقابلي جميع الأشخاص البارزين، وتتصرفي مع كل واحد بما يناسبه؟ إنني لمعجبة بك. قولي: كيف دبرت الأمر؟ يجب أن أعترف بأنني لا أحسن ما تحسنين.

فأجابت الأميرة آنا ميخائيلوفنا قائلة:

- آه يا عزيزتي! أسال الله ألا تذوقي أبدًا قسوة ترمّل المرأة بغير سَنَد، مع ابن تحبه حب العبادة!

وتابعت كلامها بشيء من الاعتزاز:

- إن الإنسان مضطر أن يتعلم كل شيء. ولقد علمتني دعواي أمورًا كثيرة. فحين احتاج إلى لقاء أحد من أصحاب المراكز الخطيرة، أكتب كلمة أقول فيها: «الأميرة فلانة تحب مقابلة فلان»، ثم أركب عربة، وأمضي إليه، وأعيد الكرة مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا إلى أن أنال ما أريد، ولا يهمني ما قد يراه فيَّ من رأي.

سألتها الكونتيسة:

- وكيف توسطت لابنك بوريس، ومن ذا توسط له؟ لقد أصبح ابنك ضابطًا في الحرس، على حين أن ابني نيقولا لا يزال مرشحًا. ليس له أحد يقوم بمساع من أجله. إلى من توجهت بالرجاء؟

- إلى الأمير فاسيلي. وقد كان لطيفًا غاية اللطف، فسرعان ما وافق على كل شيء، وكلم الإمبراطور في الأمر.

بذلك أجابت الأميرة آنا ميخائيلوفنا في حماسة، ناسية كل النسيان ألوان المذلة والهوان التي اضطرت أن تتجرَّعها لتحقق غايتها.

سألتها الكونتيسة:

- هل شاخ الأمير فاسيلي؟ إنني لم أره منذ أيام مسرحياتنا عند آل رومیانتزيف. ويخيل إليَّ أنه نسيَني.

ثم أضافت مبتسمة وهي تستحضر هذه الذكرى:

- كان يغازلني.

أجابت آنا ميخائيلوفنا قائلة:

- لا يزال على عهدك به، لطيفًا ودودًا لم تذهب الأمجاد بصوابه. لقد قال لي: «يؤسفني أنني لا أستطيع أن أفعل لك إلّا القليل القليل يا أميرتي العزيزة. ولكن مُريني!». حقًّا إنه لرجل شهم وقريب ممتاز. لعلك تعرفين مدى حبي لابني يا ناتاليا، إنني مستعدة لأن أضحّي بكل شيء في سبيل سعادته.

ثم أضافت آنا ميخائيلوفنا تقول بحزن خافضة صوتها:

- ولكن أحوالي سيئة جدًّا، حتى لقد بلغت من السوء أنني أصبحت الآن في وضع رهيب حقًا. إن دعواي التعيسة تبتلع كل ما أملك ثم لا تتقدم خطوة واحدة. أصبحت لا أملك قرشًا... أقول هذا وأنا أعنيه كلمة كلمة. فتخيَّلي. لا أدري كيف يمكنني أن أجهز بوريس!

قالت ذلك واستلت منديلها وطفقت تبكي، وتابعت حديثها قائلة:

- إنني في حاجة إلى خمسمائة روبل لا أملك منها إلّا ورقة بخمسة وعشرين. فأنا في وضع... إن أملي الوحيد الآن معقود على الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف. فإذا لم يشأ أن يساعد ابنه بالمعمودية (ذلك أنه عرَّاب بوريس) فيخصّصه بمرتّب، فإن جميع المساعي التي قمت بها تكون قد ذهبت سدّى، لأنني لا أملك ما يمكّنني من تجهيز بوريس.

ذرفت الكونتيسة دمعة وفكرت صامتة.

واستطردت الأميرة تقول:

- إنني أقول لنفسي في كثير من الأحيان، ولعل ذلك أن يكون دائمًا، هذا هو الكونت كيريل فلاديميروفتش يعيش وحيدًا... ويملك هذه الثروة

الطائلة.. فلماذا يعيش؟ لقد أصبحت الحياة عبئًا عليه... في حين أن بوريس يستقبل الحياة ويبدأها.

قالت الكونتيسة:

- لا بد أن يوصي له بشيء!

- لا يعلم هذا إلّا الله يا صديقتي العزيزة! إن هؤلاء الأغنياء الذين يملكون ما كان يملكه قارون من أموال، وهؤلاء السادة الكبار، أناس أنانيون جدًّا. ولكنني سأذهب إليه الآن مع بوريس، وسأحدّثه بحالنا حديثًا صريحًا. ليقولوا عني ما يشاؤون! حقًّا إنني لا أكترث لشيء حين يكون الأمر متعلقًا بمستقبل ابني.

ونهضت الأميرة وهي تقول:

- الساعة الآن هي الثانية، وأنتم تتعشون في الرابعة. ففي وقتي متسع للذهاب إليه.

وبسرعة امرأة بطرسبورغية عملية تعرف قيمة الوقت، أرسلت تستدعي ابنها بوريس، فلما جاء خرجت إلى الدهليز في صحبته، وقالت للكونتيسة التي شيّعتها حتى الباب:

- أستودعك الله يا عزيزتي.

وأضافت تقول بدمدمة حتى لا يسمعها ابنها:

- ادعِ لي بالتوفيق.

ووصَل صوت الكونت من صالة الطعام يسألها:

- أأنت ذاهبة إلى الكونت كيريل فلاديميروفتش يا عزيزتي؟

ثم لم يلبث أن جاء ينضم إليهم، وأضاف يقول للأميرة:

- إذا كانت صحته قد تحسّنت فادعي بطرس إلى العشاء باسمي. كان في الماضي يجيء إلينا، ويرقص مع الأولاد. ادعيه. حتمًا يا عزيزتي. لقد وعدني تاراس بأن يتفوّق اليوم على نفسه، فسنرى. قال إن الكونت أورلوف نفسه لم يولم في حياته وليمة كوليمتنا في هذا المساء.

الفصل الثاني عشر

قالت الأميرة آنا ميخائيلوفنا لابنها حين قطعت عربة الكونتيسة روستوف التي ركباها الشارع المغطى بالقش، وولجت الفناء الكبير من قصر الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف، قالت لابنها وهي تضع يدها على يده بحركة فيها رجاء وعاطفة:

- عزيزي بوريس، عزيزي بوريس، كن لطيفًا، كن بشوشًا، كن مداريًا، فالكونت كيريل فلاديميروفتش هو عرَّابك على كل حال، وإن مستقبلك مرهون به. تذكّر هذا يا عزيزي، وكن لطيفًا كما تحسن ذلك.

فأجاب الابن ببرودة:

- لو كنت أعرف أن هذا كله سيثمر شيئًا غير المذلة... ولكنني وعدتك، وسوف أفي بوعدي طاعة لك. ورغم أن البواب السويسري رآهما ينزلان من عربة أسياد، فقد أخذ يتفرّس في الأم والابن (اللذين لم يذكرا له من هما، ولم يطلبا إليه أن يبلغ عنهما، وإنما دخلا رأسًا إلى الدهليز المغطى بالزجاج بين صفين من التماثيل القائمة في كواها) وألقى نظرة على ثياب الأم العتيقة، فسألهما من يقصدان: الأميرات أم الكونت. فلما عرف أنهما آتيان لزيارة الكونت قال إن صاحب السعادة قد ساءت اليوم صحته مزيدًا من السوء، وأن صاحب السعادة لا يستقبل أحدًا.

قال الابن بالفرنسية:

- يمكننا أن ننصرف.

فقالت الأم بصوت ضارع وهي تلمس يده مرة أخرى كأن هذا اللمس يستطيع أن يهدّئه أو أن يحضّه على طاعتها:

- عزيزي!

فصمت بوريس، وألقى على أمه نظرة استفهام، ولم يخلع معطفه.

قالت آنا ميخائيلوفنا للسويسري بصوت رقيق:

- أنا أعلم يا صديقي الطيب أن الكونت كيريل فلاديميروفتش مريض جدًّا... ومن أجل هذا إنما جئت... إنني قريبته... لن أُحدث أي إزعاج يا صديقي الطيب... كل ما أريده هو أن أرى الأمير فاسيلي سرجيفتش، إنني أعلم أنه نزل هنا. فأبلغه عنا، من فضلك.

شد السويسري حبل الجرس عابسًا وأشاح وجهه عنهما، وصاح لخادم يرتدي سترة رسمية وسروالًا قصيرًا وينتعل خفين، وقد هرع هذا الخادم إلى فسحة السلم العليا حين سمع رنين الجرس، ومال ينظر إلى تحت فقال له:

- الأميرة دروبتزسكوي، لزيارة الأمير فاسيلي سَرجيفتش.

رتبت الأم ثنيات ثوبها المصنوع من حرير مصبوغ، ونظرت في المرآة الكبيرة المعلّقة بالحائط (وهي من المرايا التي تُصنع في مدينة البندقية بإيطاليا)، وأخذت تصعد بحذاءيها المهترئين السلم المفروش بسجادة.

وعادت تقول لابنها مرة أخرى، مشجعة إياه بلمسة من يدها:

- وعدتني يا عزيزي!

فكان الابن يتبعها هادئًا خافضًا عينيه.

ودخلا صالونًا كبيرًا يفضي باب منه إلى الغرف المحجوزة للأمير فاسيلي. وحين وصلت الأم وابنها إلى وسط الصالون، وهرع إليهما خادم عجوز، وهمَّت أن تسأله الأم عن الطريق الذي يجب سلوكه، تحرّكت قبضة البرونز في أحد الأبواب، ثم إذا بالباب ينفتح فيظهر الأمير فاسيلي مرتديًا ثيابًا من الثياب التي تُرتدى في المنزل (سترة من مخمل محشو، يزينها وسام واحد)، ومعه فتى أسمر جميل كان الأمير فاسيلي يشيِّعه. إنه لوران، طبيب بطرسبورغ الشهير.

قال الأمير فاسيلي يسأل الطبيب:

- التشخيص إذًا إيجابي؟

فأجابه الطبيب بمثل لاتيني مأثور، لاثغًا بالراء، ناطقًا الكلمات اللاتينية بالنبرة الفرنسية:

- من طبيعة الإنسان أن يخطئ، يا أمير (باللاتينية).

- حسن، حسن...

فلما التفت الأمير فاسيلي فلمح آنا ميخائيلوفنا وابنها، ودَّع الطبيب بانحناءة، وتقدم من الزائرَيْن صامتًا، ولكن هيئته كانت تعبِّر عن معنى التساؤل والاستغراب.

ولاحظ الابن حزنًا عميقًا ينعكس في عينَيْ أمه، فابتسم ابتسامة خفيفة. قالت الأم تخاطب الأمير فاسيلي، وكأنها لم تلاحظ النظرة الباردة الجارحة التي يلقيها عليها:

- يا لها من ظروف حزينة هذه الظروف التي يتاح لنا أن نلتقي فيها ثانية يا أمير... كيف حال مريضنا الغالي؟

فألقى عليها الأمير فاسيلي نظرة تساؤل تشبه أن تكون نظرة دهشة وحيرة، ثم نقل بصره إلى بوريس. فانحنى بوريس يحييه في أدب. ولكن الأمير لم يردَّ على التحية، وعاد يلتفت إلى آنا بافلوفنا، فيجيب عن سؤالها بحركة من الرأس والشفتين تعني أن لا أمل للمريض في شفاء.

هتفت آنا ميخائيلوفنا تقول:

- أهذا ممكن؟ آه... شيء رهيب... شيء فظيع!

ثم أضافت تقول وهي تشير إلى ابنها:

- هذا ابني. لقد حرص على أن يشكر لك جميلك بنفسه.

وانحنى بوريس مرة أخرى يحيي الأمير في أدب. وقالت آنا ميخائيلوفنا:

- صدِّق يا أمير أنه ما من قلب أم يمكن أن ينسى ما صنعته لنا.

- يسعدني أنني سررتك.

بذلك أجابها فاسيلي وهو يعدل صدرته، ويصطنع أمام السيدة التي هو حاميها وراعيها من المهابة وخطورة الشأن، بالحركة والصوت، هنا في موسكو، أكثر مما اصطنع مثلها في بطرسبورغ في حفلة آنيت شيرر. وأضاف يخاطب بوريس، قائلًا له بقسوة:

- حاول أن تقوم بواجبك خير قيام، وأن تبرهن عن جدارتك بما وُهب لك.

ثم قال يسأله بلهجة خشنة:

- أأنت هنا في إجازة؟

- بل أنتظر الأوامر، يا صاحب السعادة، لالتحق بوظيفتي الجديدة.

كذلك أجاب بوريس من دون أن يظهر عليه أي غضب من لهجة الأمير الخشنة، ولا أية رغبة في الحديث، وإنما قال ما قاله بهدوء كبير واحترام عظيم، فلم يسع الأمير إلّا أن ينظر إليه بانتباه واهتمام.

- هل تقيم عند أمك؟

- بل عند الكونتيسة روستوف...

وبنبرة تعظيم أضاف:... يا صاحب السعادة!

قالت آنا ميخائيلوفنا:

- يعني إيليا روستوف[1] الذي تزوج ناتاليا شنشين.

فقال الأمير فاسيلي بصوته الرتيب:

- أعرف، أعرف. إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أتصوّر كيف ارتضت أن تتزوج هذا الدب. إنه شخص غبيّ كل الغباء، مضحك إلى أبعد حد، وهو فوق ذلك مقامر كما يُقال.

فعقبت آنا ميخائيلوفنا وهي تبتسم ابتسامة تحمل معنى العطف، وكأنها تعلم هي أيضًا بأن الكونت روستوف يستحق ما وصف به، وتلتمس الرأفة بالشيخ المسكين، والعطف عليه، ومراعاته:

- لكنه طيب جدًا، يا أمير.

وبعد لحظة صمت، قالت الأميرة سائلة وقد ظهر على وجهها الذي أضنته الدموع حزن عميق مرة أخرى:

- ماذا يقول الأطباء؟

أجاب الأمير بقوله:

- الأمل ضعيف.

- كنت أحرص أشد الحرص على أن أشكر لعمّي مرة أخيرة كل ما شملنا به أنا وبوريس من عطف.

وأضافت تقول:

- إن بوريس هو ابنه بالعمودية.

---

(1) تعكس هذه الشخصية صفات إيليا تولستوي، جد الكاتب.

كأنها كانت تظن أن هذا النبأ لا بد أن يبهج الأمير فاسيلي أعظم البهجة.

ولكن الأمير فاسيلي أطرق مفكرًا، وقطب حاجبيه. فأدركت آنا ميخائيلوفنا أنه يخشى أن يكون لها مطمع في إرث الكونت بيزوخوف. فأسرعت تطمئنه. وقالت:

- إني لم أجئ إلى هنا إلّا بدافع العاطفة والإخلاص «لعمي»....

قالت ذلك مشدّدة على كلمة «عمّي»، مسترسلة في الكلام بثقة وطلاقة وإهمال. وتابعت كلامها تقول:

- إنني أعرف طبعه الذي يتصف بالنبل والاستقامة، وليس بقربه أحد إلّا الأميرات، وهنَّ ما زلن صغيرات...

ومالت برأسها وأضافت تقول بدمدمة خافتة:

- هل قام بآخر واجباته يا أمير؟ ما أثمن هذه اللحظات الأخيرة في حياة الإنسان؟ ليس شيء أخطر منها شأنًا. فيجب إعداده لها إذا كانت صحته متدهورة إلى هذا الحد.

ثم أردفت تقول وهي تبتسم ابتسامة عذبة:

- نحن النساء نعرف دائمًا كيف نحسن التصرف في مثل هذه الحالة. فلا بد أن أراه، مهما يكن هذا مؤلمًا لي. لقد تعوّدت الألم.

كان واضحًا أن الأمير أدرك، كما أدرك ذلك في سهرة آنيت شيرر، أن التخلص من آنا ميخائيلوفنا ليس أمرًا سهلًا. قال:

- أخاف أن يؤلمه هذا اللقاء يا آنا ميخائيلوفنا العزيزة. لننتظر حتى المساء، فالأطباء يتوقّعون حدوث نوبة.

- ولكن لا يجوز الانتظار حتى تلك اللحظات يا أمير. فكّر في الأمر. إن خلاص نفسه رهن بهذا. آه... شيء رهيب، واجبات إنسان مسيحي...

وانفتح باب إحدى الغرف الخاصة، وخرجت منه إحدى الأميرات من بنات أخت الكونت، وهي فتاة عابسة الوجه متجهمة، لها جذع يخطف البصر بفرط طوله قياسًا إلى ساقيها.

التفت الأمير فاسيلي صوبها، وقال يسألها:

- هيه، كيف حاله؟

- لم يحدث أي تغير.

بذلك أجابت الأميرة ثم أردفت تقول وهي تنظر إلى آنا ميخائيلوفنا نظرتها إلى شخص تجهله:

- وكيف تريد أن تتحسن حاله مع هذه الضجة التي...

فما كان من آنا ميخائيلوفنا إلّا أن هتفت تقول وهي تقبل على ابنة أخت الكونت بابتسامة سعيدة وخطو خفيف مرن:

- آ... عزيزتي... لم أتعرّفك في الوهلة الأولى. لقد وصلت منذ هنيهة، وأنا أضع نفسي تحت تصرفكم لمساعدتكم في العناية بعمّي.

وأضافت تقول وهي تحرك عينيها مشفقة:

- إنني أتخيل مدى ما قاسيتم من ألم.

لم تجب الأميرة بشيء، حتى إنها لم تبتسم، ولم تلبث أن خرجت. ولكن آنا ميخائيلوفنا نضت قفازيها عن يديها، وجلست على أحد المقاعد جلستها في مكان تغزوه غزوًا وتحتله احتلالًا، وأهابت بالأمير فاسيلي أن يجلس بقربها. وقالت لابنها وهي تبتسم:

- بوريس! أنا داخلة على الكونت، عمّي، فاذهب أنت في أثناء ذلك إلى بطرس، صديقي، ولا تنسَ أن تبلغه الدعوة التي حمَّلك إياها روستوف. أنهم يدعونه إلى العشاء.

ثم قالت تسأل الأمير:

- أظن أنه لن يذهب، أليس كذلك؟

فأجاب الأمير فاسيلي، وكان واضحًا أنه الآن معتكر المزاج:

- بالعكس. سيسعدني كثيرًا أن تخلّصوني من هذا الفتى. إنه لا يتحرّك من هنا. ولم يطلبه الكونت مرة واحدة.

قال ذلك وهو يرفع منكبيه. وتولى أحد الخدم إنزال بوريس، وقاده على سلم آخر إلى بطرس كيريلوفتش[1].

(1) هو بطرس بيزوخوف، ابن كيريل.

الفصل الثالث عشر

لم يتوصّل بطرس إلى اختيار طريق له في هذه الحياة ببطرسبورغ، وقد نُفيَ فعلًا إلى موسكو بسبب سلوكه المعربد. إن القصة التي رُويت عنه في منزل الكونت روستوف صحيحة، فلقد شارك في ربط مفوَّض الشرطة بظهر الدب. وهو قد وصل إلى موسكو منذ بضعة أيام، ونزل في قصر أبيه على عادته دائمًا. ورغم افتراضه أن قصة حدثت في بطرسبورغ لا بد أن تكون قد عُرفت في موسكو، وأن البيئة النسوية التي تحيط بأبيه والتي لا تحمل له عاطفة طيبة لا بد أن تستغل هذه القصة لتستعدي أباه عليه، فقد جاء إلى جناح أبيه في المنزل يحاول أن يراه، فدخل الصالون الذي اعتادت الأميرات الجلوس فيه، فرأى اثنتين منهن عاكفتين على نولَيهما تطرزان، ورأى الثالثة مسترسلة في القراءة بصوت عال، فحيّاهن. إنهنّ ثلاث. فأما الكبرى فهي فتاة قاسية، شديدة العناية بنفسها، طويلة الجذع بالقياس إلى الساقين. إنها تلك الفتاة نفسها التي رأتها آنا ميخائيلوفنا. فهذه هي التي كانت تقرأ. وأما الأخريان الأصغر منها سنًا، فإنهما لا تمتاز إحداهما عن الأخرى إلّا بشامة حسن فوق شفتها تجمّلها كثيرًا، وهاتان كانتا تطرزان. فلما دخل عليهن بطرس استُقبل كما يستقبل شبح ميت أو كما يُستَقبل رجل مصاب بالطاعون، قطعت كبرى الأميرات قراءتها، وشخصت إليه صامتة بعينين مرتاعين، وعبّر وجه الثانية التي ليس لها شامة حسن فوق شفتها، عن هذا الارتياع نفسه. وأما الصغرى، التي كانت تجمّلها شامة الحسن، وكانت ذات طبع ضاحك مرح، فقد مالت على نولها لتخفي الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها حين تصورت المشهد الذي سيلي ذلك، والذي لا

بد أن يكون باعثًا على الضحك، وشدت خيطًا من الصوف الذي تطرّز به، وانحنت كمن تريد أن تتحقّق من صحة التطريز، كابحة ضحكها بكثير من المشقة أو العناء.

قال بطرس:

- يومك سعيد يا ابنة عمّتي. ألم تعرفيني!

- عرفتك جدًّا، جدًّا جدًّا!

فسأل بطرس بخراقة، على عادته، ولكن من دون أن يضطرب:

- كيف حال الكونت؟ هل أستطيع أن أراه؟

- الكونت يعاني آلامًا جسدية ونفسية. وأظن أنك مكلَّف بأن تورثه مزيدًا من الآلام النفسية!

فكرر بطرس سؤاله:

- هل أستطيع أن أرى الكونت؟

- إذا أردت أن تقتله، إذا أردت أن تجهز عليه إجهازًا، ففي وسعك أن تراه. يا أولغا، اذهبي إلى المطبخ فانظري هل حساء خالنا مهيّأ؟

قالت ذلك ثم أضافت تقول لتفهم بطرس أنهن منشغلات جدًّا، وأنهن منشغلات بالتخفيف عن أبيه، على حين أنه، هو، لا يهمه إلّا أن يزيد أباه تألمًا:

- ذلك أن على الكونت أن يشرب حساءه بعد قليل.

فخرجت أولغا. ولبث بطرس بضع لحظات ينظر إلى الأخوات، ثم قال وهو ينحني:

- إذًا أذهب إلى غرفتي. حتى إذا غدا في إمكاني أن أراه أبلغتني ذلك.

وخرج، فما كاد يغيب حتى انطلقت ضحكة البنت التي لها شامة حسن، انطلقت مجلجلة رغم أنها مخنوقة.

ووصل الأمير فاسيلي في الغد، ونزل في قصر الكونت. واستدعى بطرس وقال له:

- يا عزيزي، إذا كانت سيرتك هنا كسيرتك في بطرسبورغ فسوف تنتهي إلى مصير سيئ جدًّا. هذا كل ما أقوله لك. والكونت مريض جدًّا، فلا حاجة بك إلى رؤيته إطلاقًا.

ومنذ ذلك الحين، تُرك بطرس وشأنه، فكان يقضي جميع أيامه وحيدًا في غرفته فوق.

فلما دخل بوريس، كان بطرس يسير في الغرفة طولًا وعرضًا، ويقف في ركن من الأركان بين الفينة والفينة، فيأخذ يحرك بإشارات تهديد صوب الحائط، كأنه يهاجم عدوًا لا يُرى، ويلقي نظرات قاسية من تحت نظارتيه ثم يستأنف تجواله في الغرفة ناطقًا بكلمات مبهَمة، رافعًا منكبيه، مباعدًا ذراعيه. قال وهو يقطب حاجبيه ويشير بأصبعه إلى أحد ما:

- لقد عاشت إنجلترا. وحُكم على مستر بيت[1]، من حيث هو خائن للأمة، متنكر لحقوق البشر بـ...

ولم يتسع وقته لإتمام النطق بالحكم الصادر على بيت، معتقدًا في تلك اللحظة بأنه هو نابوليون نفسه، متخيلًا أنه قد أتم مع بطله عبور مضيق كاليه، ذلك العبور الخطر، واحتلال لندن[2]؛ ذلك أنه رأى ضابطًا شابًا ممشوق القامة يدخل عليه، فأمسك عن الكلام، ووقف حيث كان.

حين رأى بطرس صاحبنا بوريس آخر مرة، كان فتى في الرابعة عشرة من العمر، فهو الآن لا يتذكره إطلاقًا. ولكنه بما فُطر عليه من بشاشة مد إليه يده مصافحًا، وابتسم له ابتسامة فيها مودّة.

قال بوريس بهدوء وهو يبتسم ابتسامة لطيفة:

- هل تتذكّرني؟ لقد جئنا، أنا وأمي، لنرى الكونت، ولكن أظنِ أن صحته سيئة.

---

(1) وليم بيت الأصغر (1759 - 1806)، رئيس وزراء إنجلترا، أنشأ ثلاثة تكتلات ضد فرنسا، وعقد في 8 نيسان (أبريل) سنة 1805 معاهدة تحالف مع روسيا التي اضطرت أن تدخل الحرب ضد نابوليون مقابل إعانة مالية قدرها خمسون مليون روبل.

(2) فكر نابوليون، سنة 1804 وسنة 1805، في غزو إنجلترا جدّيًا، فحشد لذلك جيشًا كبيرًا في «بولوني على البحر". ولكن إعلان روسيا الحرب اضطره إلى توجيه ذلك الجيش إلى النمسا، وجاء الانتصار الذي حققه نلسون على الأسطول الفرنسي في ترافالغار يوم 21 تشرين الأول (أكتوبر) من سنة 1805، فأودى بمشروع غزو انجلترا إلى الأبد.

فأجاب بطرس وهو يحاول أن يتذكّر من هو هذا الفتى:

- نعم، أظن.

وشعر بوريس بأن بطرس لم يتعرّف إليه، ولكنه لم يستحسن أن يذكر له اسمه، وكان ينظر إليه محدّقًا في عينيه من دون أي ارتباك. ثم قال بعد صمت طويل أربك بطرس:

- إن الكونت روستوف يرجو أن تأتي إلى منزله للعشاء هذا اليوم.

فقال بطرس فرحًا جذلًا:

- آ... الكونت روستوف! أنت إذًا ابنه إيليا! تصوّر أنني لم أتعرف إليك في الوهلة الأولى. هل تتذكّر روحاتنا إلى «جبال العصافير» [1] مع مدام جاكو... منذ مدة طويلة؟

فقال بوريس من دون تعجل وهو يبتسم ابتسامة جسورًا لا تخلو من بعض السخرية:

- إنك تخطئ. أنا بوريس ابن الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي. وروستوف الأب هو الذي يُسمّى إيليا، أما ابنه فاسمه نيقولا. وأنا لم أعرف مدام جاكو...

فحرّك بطرس يديه، وهزّ رأسه، كمن هاجمته أسراب بعوض ونحل.

- أوه! ماذا دهاني؟ إنني أخلط الأمور بعضها ببعض، أقربائي في موسكو كثيرون! أنت إذًا بوريس. حسنًا. اتفقنا. قل لي: ما رأيك في حملة بولوني؟ ستسوء حال الإنجليز إذا قطع نابوليون بحر المانش؟ إنني أعتقد بأن هذه الحملة ممكنة جدًّا. اللهم إلّا أن يرتكب فيلنوف[2] حماقة من الحماقات!...

كان بوريس يجهل كل شيء عن حملة بولوني، فهو لا يقرأ الصحف، وهو يسمع الآن عن فيلنوف لأول مرة. قال بلهجته الهادئة الساخرة:

- نحن هنا في موسكو نهتم بحفلات العشاء وبالنمائم والأقاويل أكثر من اهتمامنا بالسياسة. فلست أعرف شيئًا عن هذا كله، وليس لي فيه رأي.

---

(1) تلال في جنوب غرب موسكو، كانت متنزهًا للمتنزهين وتسمى الآن «جبال لينين».

(2) الأميرال بيير دو فيلنوف (1763 – 1806) قائد الأسطول الفرنسي. انتحر بعد هزيمة ترافالغار.

إن الإشاعات هي ما يهم موسكو خاصة. وفي هذا الوقت يتكلّم الناس عنك وعن الكونت.

ابتسم بطرس ابتسامته الطيبة المعهودة فيه، وكان كمن يخشى أن يقول محدّثه شيئًا قد يندم عليه بعد ذلك. ولكن بوريس كان يطلق كلماته واضحة متميزة جافة وهو يحدّق إلى عيني بطرس. وتابع كلامه يقول:

- نعم، إن أهل موسكو لا يحسنون شيئًا غير النمائم والأقاويل. جميع الناس يتساءلون الآن عمن ستؤول إليهم ثروة الكونت، رغم أن من الجائز أن يدفننا جميعًا، وهذا ما أتمناه له من كل قلبي.

وعاد بطرس يتكلّم فقال:

- نعم، ذلك كله مؤلم. مؤلم جدًّا.

كان لا يزال يخشى أن يندفع هذا الضابط في حديث شائك.

قال بوريس وقد احمرّ وجهه قليلًا، ولكن من دون أن يتغير صوته أو أن تتغير هيئته:

- ثق أنهم جميعًا لا يفكرون إلّا في الحصول على شيء من قارون.

قال بطرس لنفسه: «ها قد وصلنا». وتابع بوريس كلامه فقال:

- إنني أحرص حرصًا شديدًا على أن أقول لك، دفعًا لكل التباس، إنك تخطئ أكبر الخطأ إذا أنت جعلتنا أنا وأمي في عداد هؤلاء الناس. صحيح أننا فقراء جدًّا، ولكنني أعلن لك، في ما يتعلق بي أنا على الأقل، إني لا أعد نفسي واحدًا من أقربائه، وأننا لن نسأله شيئًا بحال من الأحوال، لا أنا ولا أمي، ولن نقبل منه شيئًا.

لبث بطرس مدة طويلة لا يفهم، ولكنه حين فهم وثب عن الديوان فجأة، وأمسك ذراع بوريس بما عُهد فيه من انطلاق على السجية ومن خراقة، واصطبغ وجهه بحمرة أشد كثيرًا من حمرة وجه بوريس، وقال بعاطفة هي مزيج من الخجل والغضب:

- شيء غريب! هل أنا... ومن ذا الذي أمكن أن يظن أن... إنني أعرف حق المعرفة...

ولكن بوريس قاطعه مرة أخرى قائلًا:

- يسرني أنني قلت لك كل شيء.

وأضاف يقول ليطمئن بطرس بدلًا من أن يطمئنه بطرس:

- لعل ما قلته لك قد ساءك قليلًا، فمعذرة. ولكنني أرجو أن لا أكون جرحتك. إن المبدأ الذي ألتزمه هو أن أقول كل شيء بصراحة. والآن قل لي: بماذا يجب أن أجيب؟ هل تأتي إلى روستوف للعشاء؟

وبعد أن تخفف بوريس هذا التخفف من عبء ثقيل، وتخلص من موقف حرج بوضع غيره في هذا الموقف الحرج، استرد طلاقته وحلاوة سلوكه.

قال بطرس وقد أخذ يهدأ:

- اسمع. إنك مدهش. إن ما قلته الآن حسن جدًّا، حسن جدًّا. أنت لا تعرفني طبعًا. فنحن لم نلتقِ منذ مدة طويلة... وكنا في ذلك الأوان أطفالًا. فمن حقك أن تظن أنني... أنا أفهمك، أفهمك كل الفهم. ما كنت لأستطيع أنا أن أتصرف هذا التصرف، ما كنت لأجرؤ أن أتصرّف هذا التصرف. ولكن ما فعلته حسن جدًّا. إنني لسعيد جدًّا بمعرفتك.

وأضاف يقول بعد صمت وهو يبتسم:

- شيء غريب هذا الذي تصوّرت أنني افترضه!

ثم أضاف وقد أخذ يضحك:

- ولكن لا بأس. سنتعارف تعارفًا أكمل. أرجوك أن تتيح لي هذه الفرصة.

وشدّ على يد بوريس. وتابع كلامه:

- هل تعلم أنني لم أر الكونت حتى الآن؟ إنه لم يستدعني... وأنا حزين عليه حزنًا شديدًا. ولكن ما حيلتنا؟

سأله بوريس مبتسمًا:

- أتعتقد إذًا أن نابليون سيستطيع أن يقطع بجيشه بحر المانش؟

فأدرك بطرس أن بوريس يريد تغيير الحديث، وارتضى ذلك، وأخذ يشرح ما في مشروع بولوني من حسنات وسيئات، من مزايا وعيوب.

وجاء خادم يدعو بوريس إلى الأميرة أمه التي تطلبه. ووعده بطرس بأن يجيء إلى العشاء ليزداد معرفة ببوريس، وصافحه مصافحة قوية وهو يحدّق

إلى عينيه من خلال نظارتيه بنظرة تفيض مودة وصداقة.

وبعد أن انصرف بوريس ظل بطرس يتجول في الغرفة مدة طويلة، ولكنه لا يهاجم الآن عدوًا لا يُرى، إنما هو يبتسم لذكرى هذا الشاب الفاتن الذكيّ الصلب.

وكما يحدث للمرء في عهد شبابه الأول، ولا سيما حين يعيش حياة منعزلة، شعر بطرس نحو هذا الشاب بعاطفة ليس لها سبب ظاهر، وآل على نفسه ألا يفوته عقد أواصر الصداقة معه.

شيَّع الأمير فاسيلي الأميرة آنا ميخائيلوفنا. وكانت الأميرة ممسكة منديلها أمام عينيها، وكان وجهها مبلَّلًا بالدموع.

قالت:

- شيء رهيب! شيء رهيب! ولكن سوف أقوم بواجبي مهما يكلفني ذلك من مشقّة. سوف أجيء فأسهر عليه. لا يمكن تركه وهو على هذه الحال. إن كل لحظة لهي ثمينة. لا أدري ماذا تنتظر الأميرات. عسى الله أن يعينني في إيجاد السبيل إلى تهيئته! استودعك الله يا أمير، كان الله في عونك...

وقالت الأم لابنها وهما يركبان العربة:

- إنه في حالة رهيبة، فظيعة. إنه لا يكاد يتعرف أحدًا. فسألها الابن:

- إنني لا أعرف كيف تسير علاقته بابنه يا أمي.

فأجابت الأم:

- ستطلعنا الوصية على كل شيء يا صديقي. وإن مصيرنا نحن رهن بها أيضًا...

- ولكن لماذا تعتقدين بأنه سيوصي لنا بشيء؟...

- يا صديقي، إنه ثري ثراء طائلًا، ونحن فقراء فقرًا مدقعًا...

- ليس هذا سببًا كافيًا يا أمي.

- آه... رباه! ما أشد تدهور صحته!

الفصل الرابع عشر

بعد أن ذهبت آنا ميخائيلوفنا مع ابنها إلى الكونت كيريل فلاديميروفتش بيزوخوف، خلت الكونتيسة روستوف إلى نفسها مدة طويلة، واضعة منديلها على عينيها. وأخيرًا رنّت الجرس، فلما جاءتها الخادمة متأخرة بعض التأخر، قالت لها في حنق وسخط مخاطبة إياها بصيغة الجمع.

- أين أنت يا عزيزتي؟ ألا تريدين أن تعملي؟ إذا كنت لا تريدين أن تعملي ففي وسعي أن أجد لك مكانًا آخر.

وإنما خاطبت الكونتيسة خادمتها بقولها «يا عزيزتي»، لأنها كانت معتكرة المزاج. أما اعتكار مزاجها فمرده إلى ما عرفته عن صديقتها آنا ميخائيلوفنا من حالة الحزن الشديد والفقر المذلّ التي تعانيها.

قالت الخادمة:

- أعتذر لسيدتي.

- اذهبي إلى الكونت وقولي له إنني أرجوه أن يجيء إليَّ.

أقبل الكونت على امرأته مترنحًا، وقد عبر وجهه عن شيء من معنى ارتكاب الذنب، على عادته دائمًا، وقال:

- آ... عزيزتي الكونتيسة ما ألذَّ الدجاج المحمَّر مع خمرة مادير، الذي سيكون على مائدتنا في هذا المساء يا عزيزتي! لقد ذقته. إن الألف روبل التي دفعتها ثمن تاراسكا[1] لا تضيع سدى. إنه يستحقها!

(1) كان من الممكن في ذلك الزمان شراء خدم أقنان من سادتهم. وتاراسكا هو رئيس طهاة الكونت روستوف.

قال الكونت ذلك وجلس بقرب امرأته واضعًا كوعيه على ركبتيه بافتخار وقد تشعّث شعره الرمادي، ثم سأل الكونتيسة قائلًا:

- ماذا تريدين يا عزيزتي الكونتيسة الغالية؟

- اسمع يا صديقي... ولكن ما هذه البقعة؟

سألته هذا السؤال وهي تريه بقعة على صديرته. وأردفت تقول مبتسمة:

- لا شك أنها من مرق الدجاج، حسنًا... اسمع يا كونت، إنني في حاجة إلى شيء من المال.

وبدا في وجهها حزن.

- آ... عزيزتي الكونتيسة اللطيفة...

وتحرك الكونت باحثًا عن محفظة نقوده. فقالت له الكونتيسة:

- إنني محتاجة إلى مبلغ كبير يا كونت، إلى خمسمائة روبل. وتناولت منديلها المصنوع من قماش الباتيستا، فأخذت تحك به صديرة زوجها لإزالة البقعة عنه. قال الكونت:

- حالًا.. حالًا..

وصاح مناديًا بصوت هو صوت الواثقين بأن الناس سيهرعون ملبين النداء:

- هيه! هل من أحد هنا! أرسلوا إليَّ ميتنكا!

ودخل ميتنكا، وهو ابن أسرة نبيلة تربّى في منزل الكونت وأصبح الآن يدير جميع أعماله. دخل بخطو خفيف ليس له وقع، فقال الكونت للشاب المحترم:

- اسمع يا عزيزي. جئني بـ...

وفكَّر لحظة، ثم أضاف:

- نعم، جئني بسبعمائة روبل، نعم... وانتبه! لا أريد أوراقًا ممزقة متسخة كالتي جئتني بها آخر مرة. وإنما أريدها جديدة، فهي للكونتيسة.

قالت الكونتيسة وهي تتنهد تنهّدًا حزينًا:

- نعم يا ميتنكا! لتكن أوراقًا نظيفة.

قال ميتنكا يسأل:

- متى تريدها يا صاحب السعادة! إنك تعلم يا صاحب السعادة أن...

لكنه وقد رأى أن الكونت أخذ يتنفّس تنفسًا سريعًا شاقًا، وهذا عنده علامة غضب وشيك، استدرك يقول:

- هل تريدها فورًا؟

- نعم، نعم، أريدها فورًا. ائتِ بها وأعطها الكونتيسة.

وحين خرج الشاب أضاف الكونت يقول مبتسمًا:

- يا له من كنز ميتنكا هذا! لا شيء عنده مستحيل! أنا أكره المستحيل. كل شيء ممكن.

قالت الكونتيسة:

- آه من المال يا كونت! آه من المال كم يورث الناس في هذا العالم من حزن! لو علمت مدى حاجتي إلى هذا المبلغ...

فقال الكونت:

- إنفاقك الكثير أمر معروف يا عزيزتي الكونتيسة.

ثم قبَّل يد امرأته، وعاد إلى حجرة مكتبه.

فلما عادت آنا ميخائيلوفنا من عند بيزوخوف، كان المبلغ قد أصبح في حوزة الكونتيسة أوراقًا نقدية جديدة، وضعتها على منضدة تحت منديلها. وقد لاحظت آنا ميخائيلوفنا أنها ثائرة الأعصاب.

سألتها الكونتيسة:

- ماذا يا صديقتي؟

- إنه في حالة رهيبة! يراه المرء فينكره ولا يعرفه. تدهورت صحَّته تدهورًا فظيعًا، فظيعًا... لم أبقَ معه إلّا لحظة، ولم أستطع أن أقول كلمتين...

قالت الكونتيسة فجأة وقد اصطبغت بحمرة شديدة تتعارض مع وجهها النحيل الرصين الذي زايله كل أثر من آثار الشباب:

- آنيت! لا ترفضي، ناشدتك الله!

واستلت المبلغ من تحت المنديل ومدَّته إليها.

كانت آنا ميخائيلوفنا قد أدركت الأمر على الفور، ومالت على الكونتيسة لتحتضنها في اللحظة المناسبة احتضانًا لبقًا.

قالت الكونتيسة:

- هذا مني لبوريس، من أجل بزّته الرسمية...

كانت آنا ميخائيلوفنا قد احتضنت الكونتيسة بذراعيها، وأخذت تبكي. وبكت الكونتيسة أيضًا. بكتا لأنهما طيبتان، ولأنهما، وهما صديقتا طفولة، قد اضطرهما الدهر إلى الاهتمام بأمر تافه هذه التفاهة هو أمر المال، ولأن شبابهما قد ولّى... ولكن دموعهما كانت عذبة...

الفصل الخامس عشر

كانت الكونتيسة روستوف واقفة في الصالون مع بناتها وضيوف كثيرين منذ الآن. وكان الكونت قد مضى بالرجال إلى حجرة مكتبه يضع تحت تصرفهم مجموعة غلايينه التركية التي تسمى باسم «شُبُق». وكان يخرج من حين إلى حين فيسأل عن الشخص المنتظر ألم يصل بعد. كان ينتظر وصول ماريا ديمتريفنا آخروسيموفا[1]، التي خلع عليها المجتمع الراقي لقب «التنِّين الرهيب»، وهي سيدة ذائعة الصيت لم تشتهر بثروتها ولا بأمجادها، وإنما اشتهرت بما يتصف به فكرها من استقامة، وما تتسم به أساليبها من بساطة صريحة. حتى لقد كانت تعرفها الأسرة الإمبراطورية، وكانت تعرفها موسكو كلها وبطرسبورغ كلها، وكانت المدينتان، على إعجابهما بها، تتندّران على خشونتها خفية وترويان نكات عنها، ولكن هذا لا ينفي أن الناس جميعًا كانوا يحترمونها ويخشونها.

إن الرجال الذين يجتمعون الآن في غرفة المكتب يتحدّثون عن الحرب التي تمَّ إعلانها منذ قليل في بيان، ويتكلمون عن التجنيد. لم يكن أحد قد قرأ البيان بعد، ولكنهم جميعًا يعرفون أنه صدر.

الكونت جالس على كنبة، والى جانبيه مدخِّنان يتحدثان. كان الكونت لا يدخن هو نفسه ولا يتكلّم، ولكنه يميل برأسه تارة إلى يمين وتارة إلى

---

(1) إن شخصية ماريا ديمتريفنا آخروسيموفا هذه تعكس صفات ماريا ديمتريفنا آفروسيموف، السيدة التي اشتهرت كثيرًا في موسكو بطبعها الخشن ورأيها المستقل؛ وقد استوحاها غريبويدوف حين صور شخصية ماريا خلستوف في مسرحية «كثير من الفكر ضرر» (1823).

شمال، ناظرًا إلى الرجلين المدخّنَيْن، مغتبطًا بذلك اغتباطًا واضحًا، مصغيًا إلى الحديث الذي يدور بين جارَيْه، والذي حرَّضهما هو عليه، وورَّطهما فيه.

إن أحد المتحادثَيْن مدني له وجه نحيل متغضّن أجرد صفراوي، قد دلف إلى الشيخوخة ولكنه يرتدي ثيابًا لا يرتدي مثلها إلّا أكثر الشباب عناية بحسن الهندام وجمال الأناقة. وكان جالسًا على الكنبة وقد جعل ساقيه تحته كما يفعل شخص من روّاد المنزل الذين يتردّدون إليه كثيرًا فكأنّهم من أهله، وكان قد أغطس غليونه المصنوع من خشب العنبر عميقًا في طرف من فمه، وأخذ يتنشق دخانه نشقًا متقطعًا وهو يغضّن عينيه. إنه شنشين[1]، ابن عم الكونتيسة، وهو عازب مسنّ كان يوصف في صالونات موسكو بأنه سليط اللسان. وكان يبدو عليه أنه يتواضع إذ ينزل إلى محدثه ويكلّمه. أما محدثه فهو ضابط من الحرس نضر الهيئة، متورّد الوجه، شديد العناية بهندامه، متمنطق بحزام، معتمر بقلنسوة، كان مطبقًا على غليونه في وسط فمه الجميل، ينشق دخانه نشقًا خفيفًا ثم ينفثه من بين شفتيه المتورّدتين دوائر دوائر. إنه الليوتنانت بيرج، من فوج سيمينوفسكي الذي سيرافقه بوريس للالتحاق بفوجه، والذي كانت ناتاشا تغيظ بذكره فيرا كبرى بنات الكونتيسة، وتسميه خطيبها. إن الكونت جالس بين الرجلين يصغي إلى حديثهما بانتباه. فأحب المشاغل إلى قلب الكونت، باستثناء لعب البوستون الذي كان يهواه هوًى شديدًا، هو أن يصغي إلى مناقشة بين شخصين، ولا سيما إذا كان هو الذي حرّضهما على المناقشة وورطهما فيها، فأوقع بينهما.

قال شنشين مبتسمًا وهو يمزج بين أكثر التعابير الروسية شعبية، وأرقى العبارات الفرنسية تخيرًا (وتلك هي الخاصيّة التي تتميز بها لغته)، قال:

- فأنت إذًا يا عزيزي! يا ألفونس كارلتش المحترم جدًّا تنوي أن تقرض الدولة بفائدة، وأنّ تحصل على إيراد من سريّتك!

- لا يا بطرس نيقولايفتش، وإنما أنا أحرص على أن أبيّن أن سلاح

---

(1) شخصية من صنع خيال المؤلف جعل لها اسمًا على غرار اسم الأسرة النبيلة شانشين التي ينتمي إليها الشاعر فيت، صديق ليون تولستوي.

المشاة أعود على المرء بالنفع من سلاح الفرسان. انظر الآن إلى حالتي أنا يا بطرس نيقولايفتش...

كان بيرج يتكلّم دائمًا بدقة شديدة، وهدوء كبير، وأدب جم.

ولكنه كان لا يتكلّم إلّا عن نفسه، فمتى كان موضوع الحديث لا يتعلّق بشخصه صمت هادئًا لا ينطق بحرف، واستطاع أن يظل صامتًا هذا الصمت ساعات طويلة لا يشعر بأي ضيق، ولا يسبب لغيره أيَّ ضيق أيضًا. حتى إذا عاد الحديث يدور على شخصه راح يتكلم بإسهاب كبير ولذة واضحة.

- انظر في وضعي يا بطرس نيقولايفتش: لو كنت في الفرسان، لما قبضت إلّا مائتي روبل كل ثلاثة أشهر، حتى وأنا في رتبة ليوتنانت. أما الآن فأنا أقبض مائتين وثلاثين.

كذلك قال بيرج وهو يبتسم ابتسامة فرحة لطيفة، وينظر إلى شنشين وإلى الكونت نظرة من يعتقد بداهة بأن ما سيحققه من ضروب النجاح هو ما تنصبّ عليه تمنياتهم. وتابع كلامه:

- وعدا ذلك يا بطرس نيقولايفتش، فإنني بانتقالي إلى الحرس أصبح مرموقًا، كما أن الترقية في الحرس المشاة أسرع كثيرًا. ثم احكم في الأمر بنفسك، كيف استطعت أن أدبِّر شؤوني بمائتين وثلاثين روبلًا. إنني أدَّخر بعضه بل وأبعث بشيء منه إلى أبي.

بهذا ختم بيرج كلامه ونفث دائرة من دخان.

قال شنشين وهو ينقِّل طرف غليونه المصنوع من خشب العنبر بين شفتيه، ويغمز الكونت بعينه:

- ميزان سليم... «الألماني يصنع سهمًا من أي خشب»، كما يقول المثل.

انطلق الكونت يضحك. وحين رأى مدعوون آخرون أن شنشين يقود المحادثة أقبلوا يصغون. ولم يلاحظ بيرج سخرية المستمعين ولا قلة اكتراثهم، فتابع كلامه شارحًا أنه بفضل انتقاله إلى الحرس قد نال رتبة أعلى من رتب رفاقه في المدرسة الحربية، فإذا اتفق أثناء الحرب أن قُتل قائد سرية يمكنه بسهولة، وقد غدا أعلى أفراد السرية رتبة، أن يستلم قيادة

السرية، وذكر أن الجميع في فوجه يحبّونه كثيرًا، وأن أباه راضٍ عنه أكبر الرضى.

كان واضحًا أن بيرج متلذذ تلذذًا عظيمًا برواية هذه الأمور كلّها، وأنه لا يخطر بباله أن هناك آخرين قد تكون لهم شؤون غير شؤونه يهتمون بها. ولكن لهجته في كل ما قاله كانت لطيفة جدًّا، ومعتدلة جدًّا، وكانت سذاجة أنانيته الشابة واضحة كل الوضوح، وذلك كله قد أسقط في يد سامعيه.

وقال له شنشين وهو يربّت على كتفه، وينزل قدميه من تحته إلى الأرض:

- هلمَّ يا عزيزي، لسوف تشقّ طريقك وتصيب النجاح سواء أكنت في المشاة أم كنت في الفرسان.

فابتسم بيرج ابتسامة فرِحة. وانتقل الكونت إلى الصالون يتبعه سائر المدعوين.

كان الوقت هو تلك اللحظة التي تسبق الدخول إلى غرفة الطعام، فالضيوف في هذه اللحظة لا يشرعون في أحاديث طويلة، وإنما هم ينتظرون الدعوة إلى المائدة، محاذرين مع ذلك أن يصمتوا، حتى لا يظن فيهم أنهم يتعجّلون الهجوم على «الزاكوسكي»[1]، وكان أهل الدار يلقون نظرات إلى الباب من حين إلى حين ويتغامزون. وكان الضيوف يحاولون أن يحزروا من رصد تلك النظرات ما الذي ينتظره أصحاب البيت: أهم ينتظرون قريبًا ذا شأن خطير تأخّر وصوله، أم ينتظرون أن يفرغ الخدم من إعداد المائدة.

وقد وصل بطرس في وقتٍ مبكرٍ قليلًا، وجلس بحركات خرقاء على أول مقعد صادفه في وسط الصالون، فكان جلوسه هناك يسد الطريق أمام الجميع. وأرادت الأميرة أن تكلّمه، ولكنه كان ينظر في ما حوله من خلال نظارتيه بسذاجة كبيرة كأنه يبحث عن أحد، فكان لا يجيب عن جميع أسئلتها إلّا بأنصاف كلمات. وقد أحدث وجوده حرجًا عامًّا كان هو الشخص الوحيد الذي لم يلاحظه. إن أكثر المدعوّين الذين كانوا على علم بما فعله بالدب ومفوَّض الشرطة كانوا ينظرون إلى الفتى الضخم الهادئ

---

(1) الزاكوسكي: مقبلات متنوعة توضع وافرة على مائدة مستقلة.

الطيب مستطلعين مستغربين، ويتساءلون كيف أمكن أن يدبِّر هذا الغبي مكيدة كالمكيدة التي دبَّرها لمفوض الشرطة.

سألته الكونتيسة:

- هل وصلت الآن؟

فأجابها وهو ينظر في ما حوله:

- نعم سيدتي.

- ألم ترَ زوجي؟

- لا يا سيدتي.

وابتسم ابتسامة ليس لها مناسبة.

- أظن أنك ذهبت في الآونة الأخيرة إلى باريس، فلا بد أن الرحلة كانت مشوّقة جدًّا:

- جدًّا. أجابها.

وتبادلت الكونتيسة وآنا ميخائيلوفنا نظرة سريعة. فأدركت آنا ميخائيلوفنا أن الكونتيسة تطلب منها أن تهتم بالفتى، فجلست بقربه وأخذت تكلّمه عن أبيه. ولكنه كان لا يجيبها إلّا بأنصاف كلمات، كما كان يجيب الكونتيسة. وانشغل المدعوون بعضهم ببعض. فكانت تسمع كلمات متقطعة صادرة من كل جهة:

- آل رازوموفسكي... كان ذلك رائعًا... إنك طيبة جدًّا...

وتوجّهت الكونتيسة إلى قاعة حفلات الرقص. وسُمع صوتها يهتف:

- ماريا ديمتريفنا!

وسمع الجواب عن سؤالها صوتًا خشنًا هو صوت امرأة تقول:

- هي بعينها!

وما انقضت لحظة حتى كانت ماريا ديمتريفنا تدخل بنفسها.

نهضت جميع الفتيات، وحتى السيدات، إلّا الطاعنات في السن منهن. ووقفت ماريا ديمتريفنا بجسمها الضخم قريبة من الباب، جالت على الحشد بنظرة شاملة، شامخة برأسها الذي تغطيه خصلات شعرها الرمادي،

مادة يدها في الوقت نفسه بغير تعجل لترتب كمَّي فستانها العريضين وكأنها تريد أن تشمرهما.

إن ماريا ديمتريفنا تتكلّم بالروسية دائمًا. وها هي تقول بصوتها الضخم الذي طغى على جميع الضجات الأخرى:

- - عيد سعيد لربة الدار وأولادها.

ثم أضافت تقول متجهة بكلامها إلى الكونت الذي كان يقبِّل يدها:

- وأنت أيها الآثم الكبير، لا بد أنك تشعر في موسكو بضجر وسأم، أليس كذلك؟ لا سبيل هنا إلى كلاب تركّضها. ولكن ما حيلتنا يا عزيزي! حين تكبر هاته الصغيرات (قالت ذلك وهي تومئ إلى البنات)، فلا بد لنا، شئنا أم أبينا، أن نبحث لهن عمن يخطبونهن.

ثم قالت وهي تلاطف بيدها ناتاشا التي اقتربت منها مرحة من دون تهيّب لتقبِّل يدها:

- هيه! كيف حال القوزاقي؟ (كانت ماريا ديمتريفنا تلقب ناتاشا بالقوزاقي). أنا أعلم أنها بنت شيطانة، ولكنها تعجبني!

وأخرجت من حقيبة يدها - وهي حقيبة كبيرة - قرطين للأذنين من الزبرجد على شكل إجاصتين، ومدتهما إلى ناتاشا التي احمرَّ وجهها وأشرق كما يحسن أن يحمرَّ وأن يشرق في يوم عيدها.

ثم أشاحت ماريا ديمتريفنا عن ناتاشا، واتجهت بالكلام إلى بطرس، فقالت له بصوت يصطنع الرقة والعذوبة اصطناعا كاذبًا:

- ها... عزيزي! تعال قليلًا إلى هنا. تعال إلى هنا يا عزيزي!...

وشمّرت كمَّيها، وعبّر وجهها عن التهديد والوعيد.

أقبل عليها بطرس وهو يشخص إليها ببصره من خلال نظارتيه في كثير من السذاجة. فقالت له:

- اقترب، اقترب يا عزيزي. لقد كنت أنا الإنسانة الوحيدة التي كلَّمت أباك عن حقيقته أيام كان ذا قوة وبأس، وإن الله نفسه ليأمرني بأن أصارحك أنت غير متحرّجة.

وأمسكت عن الكلام لحظة، وصمت الجميع ينتظرون التتمة شاعرين

أن ذلك لم يكن إلّا تمهيدًا. ثم استطردت تقول:

- جميل، لا شك أنه جميل! فتى جميل! هذا أمر لا يستطيع أحد إن يجحده!... أبوه تحضره الوفاة وهو يلهو ويتسلّى، يوثق دبًا وشرطيًا إلى بعضهما البعض ويرميهما في الماء. هذا عار يا عزيزي! عار! أليس أولى بك أن تذهب إلى الحرب؟

قالت ذلك، وأشاحت وجهها عن الفتى، ومدَّت ذراعها إلى الكونت الذي كان لا يستطيع أن يكظم ضحكه إلّا في كثير من العناء... وها هي ذي تقول:

- طيّب، لا أظن أنه آن أوان الجلوس إلى المائدة.

افتتح الكونت وماريا ديمتريفنا المسيرة. وتبعتهما الكونتيسة وقد تأبط ذراعها كولونيل الفرسان، وهو رجل مفيد سيلتحق نيقولا بفوجه في صحبته، وكان شنشين متأبطًا ذراع آنا ميخائيلوفنا. وقدَّم بيرج ذراعه إلى فيرا. ومشت جوليا كاراجين إلى المائدة مع نيقولا مبتسمة. وتتالى المدعوّون الآخرون زوجين زوجين على طول الصالة كلها، واختتمت المسيرة بدخول الأولاد والمعلمين والمربيات، واحدًا واحدًا. وهرع الخدم. وعلت ضجة الكراسي وهي تُقرَّب من المائدة.. وفي الشرفة أخذت الأوركسترا الخاصة بالكونت تعزف. وجلس الضيوف. وأعقبت ألحان الموسيقى قرقعة السكاكين والشوَك، وجلبة المحادثات، وخطوات الخدم يسيرون بغير ضجة. وقد احتلت الكونتيسة الطرف الأقصى من المائدة. وجلست إلى يمينها ماريا ديمتريفنا، وإلى يسارها آنا ميخائيلوفنا والسيدات الأخريات. واحتل الكونت الطرف الآخر من المائدة، فكان إلى يمينه كولونيل الفرسان، وإلى يساره شنشين وسائر المدعوّين الرجال. وفي جهة من المائدة الطويلة كان يجلس الشبان: فيرا إلى جانب بيرج، وبطرس إلى جانب بوريس، وفي الجهة الأخرى جلس الأولاد والمعلمون والمربيات. وكان الكونت ينظر إلى امرأته وقبَّعتها العالية ذات الأشرطة الزرقاء، من خلال أواني الكريستال وقناني الخمرة وسلال الفاكهة، ولا ينفك يسكب لجيرانه ما يشربونه، ولا ينسى أن يسكب لنفسه أيضًا. وكانت الكونتيسة، من جهتها، تلقي من

الوراء ثمار الأناناس، نظرات ذات دلالة على زوجها الذي كانت جمجمته ووجهه الأحمران يطغيان على شعره الأبيض مزيدًا من الطغيان شيئًا بعد شيء؛ تفعل ذلك من دون أن تسهو عن القيام بواجباتها نحو من يُحيط بها من الضيوف طبعًا. وكانت ثرثرة تجري متصلة رتيبة في جهة السيدات. أما في جهة الرجال فكانت الأصوات تعلو ثم تعلو، ولا سيما صوت كولونيل الفرسان الذي كان يزداد احمرارًا ويأكل ويشرب كثيرًا، حتى إن الكونت كان يرجو المدعوين الآخرين أن يقتدوا به. وكان بيرج يقول لفيرا وهو يبتسم ابتسامة رقيقة إن الحب عاطفة سماوية وليس عاطفة أرضية. وكان بوريس يسمّي المدعوّين لصديقه الجديد بطرس، ويبادل ناتاشا الجالسة أمامه النظرات. وكان بطرس لا يتكلم إلّا قليلًا، ويتفرّس في هذه الوجوه الجديدة، ويكثر من الأكل. فمن حساء السلحفاة - الذي اختاره من حساءين عُرضا عليه - إلى فطائر السمك، إلى الدجاج المحمَّر، لم يرفض طبقًا واحدًا من الأطباق، لا ولا رفض خمرة من الخمور التي كان رئيس الخدم يستلّها من الوراء كتف جاره في قنينة تلفها منشفة، سائلًا بدمدمة هادئة وقد لاحت في وجهه معاني السر: «خمرة مادير»، أم «شراب توكاي،» أم «نبيذ الراين». فكان يتناول أول قدح تقع عليه يده من أقداح الكريستال الأربعة الموضوعة أمام كل مدعو، والمزدانة باسم الكونت منقوشًا عليها نقشًا مشبكًا، فيشرب متلذذًا وهو يلقي على المدعوين نظرات ما تنفك تزداد لطفًا ورقّة محبَّبة. وكانت ناتاشا، الجالسة قبالته، تنظر إلى بوريس كما تنظر الصبايا في سن الثالثة عشرة إلى الفتى الذي بادلنه منذ قليل أول قبلة، وتولّهن بحبه. وكانت نظرتها هذه تسقط أحيانًا على بطرس، فكان بطرس حين يرى عيني هذه الصبية الضاحكتين المتوقّدتين يشتهي ان يضحك هو أيضًا، ولا يدري لماذا.

وكان نيقولا يجلس بقرب جوليا كاراجين بعيدًا عن صونيا، ويكلّمها مبتسمًا تلك الابتسامة نفسها على غير إرادة منه، فكانت صونيا تبتسم ابتسامة أبّهة. ولكنها كانت في قرارة نفسها تشتعل غيرة. فهي تصفرّ تارة، وتحمرّ تارة أخرى، وتحشد جميع قواها لتسمع ما كان يدور بين نيقولا وجوليا

من حديث. وكانت المربّية تلقي على من حولها نظرات قلقة، كأنها متأهّبة لأن تنقضّ على كل مَن تسوّل له نفسه أن يسيء إلى الأولاد. وكان المعلّم الألماني يحاول أن ينقش في ذاكرته جميع ألوان الطعام وأصناف الحلوى وأنواع الخمور التي كانت تُقدَّم للضيوف، حتى يستطيع أن يصف كل شيء بالتفصيل في رسالة يبعثها إلى أسرته في ألمانيا، وكان يستاء استياءً شديدًا حين يستثنيه رئيس الخدم من ملء قدحه بخمرة القنينة الملفوفة بمنشفة. فكان يقطب حاجبيه، محاولًا مع ذلك أن يتظاهر بأنه لا يحرص على أن يشرب من هذه الخمرة، وإنما هو يضايقه أشد المضايقة أن أحدًا لا يريد أن يفهم أنه ما كان يتمنى أن يشرب منها نَهَمًا إليها، ولا إطفاء لظمأه، وإنما هو يريد أن يتذوّقها لشدة رغبته في التعلم.

الفصل السادس عشر

كان الحديث في جهة الرجال يشتد ويحتد شيئًا بعد شيء. وقد روى الكولونيل أن البيان الذي يحمل إعلان الحرب[1] قد نُشر في بطرسبورغ، وأن نسخة منه رآها بنفسه قد حملها اليوم إلى الحاكم العسكري ساعٍ من السعاة.

قال شنشين:

- ما حاجتنا إلى محاربة نابوليون؟ لقد سبق أن أخرس النمسا إخراسًا، فأخشى أن يكون دورنا قد جاء.

كان الكولونيل ألمانيًا طويل القامة قوي البنية شديد الحمية، وكان واضحًا أنه جندي قديم ووطني مخلص. فأزعجته كلمات شنشين، وردَّ عليه بلكنة أجنبية قائلًا:

- الإمبراطور يعرف ما حاجتنا لمحاربة نابوليون. لقد قال في بيانه إننا لا نستطيع أن نعبأ بالأخطار التي تهدّد روسيا، وأن أمن الإمبراطورية وسلامتها وكرامتها وقداسة «تحالفاتها»....

وقد شدَّد الكولونيل على كلمة «تحالفاتها» هذه، لا ندري لماذا، كأنها مفتاح المسألة كلها.

وبما يتصف به من ذاكرة قوية لا تخطئ، أخذ يردّد الكلمات التي استهلَّ بها البيان فقال متابعًا كلامه: «... وإن رغبة الإمبراطور، في إعادة إقرار

(1) إن ألكسندر الأول هو الذي أصدر بيان إعلان الحرب على نابوليون في 22 آب (أغسطس) سنة 1805.

السلام في أوروبا على أسس راسخة، وذلك هو هدفه الوحيد الثابت، قد جعلته يقرر أن يعبر الحدود في هذا اليوم جزء من جيشنا، وأن يبرم اليوم تحالفًا جديدًا لتحقيق هذه الأهداف». وختم الكولونيل كلامه بأبّهة وجلال، وهو يفرغ قدحًا آخر، وينظر إلى الكونت ملتمسًا تأييده ودعمه، بأن قال:

- تلك هي حاجتنا إلى محاربة نابليون، يا سيد.

فقال شنشين وهو يقطّب حاجبيه ويبتسم في آن واحد:

- هل تعرف المثل القائل: «لئن تبقى في دارك خير من أن تُصفع في منزل جارك». هذا المثل يناسبنا كثيرًا. لقد كان سوفورروف[1] رجلاً باسلاً شجاعًا، ومع ذلك كانت لهم عليه غلبة تامة. وأين هم اليوم أمثال سوفورروف؟ هلَّا تفضّلت عليَّ بجواب عن هذا السؤال؟

بذلك ختم كلامه منتقلًا من الروسية إلى الفرنسية.

قال الكولونيل وهو يضرب المائدة بيده:

- يجب علينا أن نقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا، وأن نموت في سبيل إمبراطورنا، فإذا فعلنا ذلك جرت جميع الأمور خير مجرى. ويجب علينا أن نقلّل التفكير إلى أقصى حد ممكن (قال ذلك وهو يمط كلمة «ممكن»)، نعم إلى أقصى حد ممكن.

كرّر كلامه متجهًا بكلامه إلى الكونت مرة أخرى. ثم استطرد يقول:

- هكذا نرى الأمور نحن معشر الفرسان. ثم التفت إلى نيقولا وأضاف: ما رأيك أنت أيها الشاب، أيها الفارس الشاب؟

وكان نيقولا حين لاحظ أن الحديث يدور على الحرب قد أعرض عن محدّثته وراح ينظر إلى الكولونيل بكل عينيه، وينصت إلى كلامه بكل أذنيه، فقال يجيب الكولونيل وقد احمرّ وجهه، وأخذ يدير طبقه ويحرك أقداحه معبّرًا بوجهه عن شدة الحزم وقوة الجسارة حتى لكأنه يواجه خطرًا كبيرًا:

---

(1) هو المارشال الشهير ألكسندر ف. سوفورروف (1721 - 1800) الذي هزم الترك والبولنديين مرارًا كثيرة، وهزم الفرنسيين سنة 1799، ونال لذلك لقب «أمير إيطاليا الأعظم»، ثم مُني بإخفاق كبير حين انسحابه من سويسرا، وهو الانسحاب الذي أوحى به «المجلس الحربي الأعلى» في فيينا، الذي كان يقود عمليات الحلفاء.

وأضافت تسأل كولونيل الفرسان:

- إني أوافق على رأيك كل الموافقة. إن على الروس أن ينتصروا أو يموتوا.

وقد شعر بعد أن قذف هذه الجملة، كما شعر بذلك الآخرون، أن أقواله أشد اندفاعًا وحماسة، وأكثر تنفّخًا وتعاظمًا مما يوجبه الظرف الراهن، وأنها إذن خرقاء في غير محلها.

قالت جارته جوليا وهي تبتسم:

- إن ما تقوله جميل جدًا.

وكانت صونيا قد أخذت ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وأحمرّت حتى بلغ احمرارها الأذنين وما بعد الأذنين، ووصل إلى العنق والكتفين، بينما كان نيقولا يتكلم.

وقد أصغى بطرس إلى كلام الكولونيل، فكان يهزّ رأسه معبرًا عن تأييده. حتى لقد قال:

- هذا هو الكلام الصحيح!

فصاح الكولونيل يجيبه وهو يضرب المائدة بيده مرة أخرى:

- إنك لفارس حقًا أيها الفتى.

وفجأة علا صوت في الطرف الآخر من المائدة هو صوت ماريا ديمتريفنا الجهير، سائلًا:

- ما يحملكم على هذه الجلبة كلها؟ لماذا تضرب المائدة؟ من أغضبك وأثار حفيظتك؟ أتراك تظن نفسك أمام فرنسيين؟

فأجابها الكولونيل مبتسمًا:

- أنا أقول الحقيقة.

وصاح الكونت يقول لها من آخر المائدة:

- نحن نتحدّث عن الحرب. ذلك أن ابني ذاهب إلى الحرب يا ماريا ديمتريفنا، ابني!

- وأنا؟ أليس لي في الجيش أربعة أبناء؟ فهل رأيتموني أبكي؟ إن كل شيء بيد الله، فرُبَّ رجل يموت في فراشه، وربَّ رجل آخر يحميه الله من الموت في معركة ضارية.

كذلك أجابت ماريا ديمتريفنا التي كان صوتها الجهير يصل من أحد طرفي المائدة إلى طرفها الآخر من دون أي جهد تتكلّفه.

- صحيح، صحيح!

وبعد ذلك، عادت كل فئة من الفئتين إلى حديثها الخاص، الرجال يتكلّمون في طرف من المائدة، والنساء يتحدثن في طرف آخر.

قال لناتاشا أخوها الصغير:

- لا، لن تجسري أن تلقي هذا السؤال. لن تجسري!

فأجابته ناتاشا:

- بل أجسر.

والتهب وجهها فجأة بحمرة شديدة، معبّرًا عن قرار صامت حازم جريء فرح لا يهاب! وأنهضت جذعها، داعية بطرس، الجالس قبالتها، أن يصغي إلى كلامها، ونادت أمها من أحد طرفي المائدة إلى الطرف الآخر بقولها:

- ماما!

فسألتها الكونتيسة مرتاعة:

- ماذا؟

لكن الكونتيسة سرعان ما أدركت من النظر إلى وجه ابنتها أن الأمر أمر «شيطنة»، تهم بها الصبية. لوّحت لها بيدها مهددة، وهزت لها رأسها متوعدة.

فخيَّم صمت.

ولكن صوت ناتاشا الصغير لم يلبث أن عاد ينادي بمزيد من التصميم، ومن دون تفكير.

- ماما! ما الحلوى التي سنأكلها اليوم؟

فأرادت الكونتيسة أن تقطّب حاجبيها ولكنها لم تستطع. ورفعت ماريا ديمتريفنا أصبعها الضخمة تهدد بها البنية، وتقول لها بلهجة قاسية:

- اسكت يا قوزاقي!

ونظر أكثر المدعوّين إلى الأبوَيْن يريدون أن يروا كيف ينهيان الصبية عن هذه الحماقة. لكن الكونتيسة قالت بهدوء:

- انتظري قليلًا.

فعادت ناتاشا تسأل:

- ماما، ما الحلوى التي ستقدّم الآن؟

وكانت نبرتها هذه المرة تشتمل على مزيد من الجسارة، وكثير من المرح، لثقتها سلفًا بأنها لن تُعاقب على هذه النزوة الحمقاء!

وخنقت صونيا ضحكها هي وليتيا الضخم. ودمدمت ناتاشا تقول لأخيها الصغير ولبطرس الذي ألقت عليه نظرة أخرى:

- ها قد ألقيت السؤال!

قالت ماريا ديمتريفنا:

- الحلوى دندرمة، ولكنك لن تذوقيها!

ورأت ناتاشا أن ليس هناك ما تخشاه، ولا خافت من ماريا ديمتريفنا. فقالت تسأل ماريا ديمتريفنا:

- أي نوع من الدندرمة يا ماريا ديمتريفنا؟ ذلك أنني لا أحب الدندرمة بالفانيليا! هيا حقًا، قولي... أي نوع من الدندرمة؟ أريد أن أعرف.

فأخذت ماريا ديمتريفنا والكونتيسة تضحكان، واقتدى بهما في الضحك سائر المدعوّين. كانوا يضحكون لا من جواب ماريا ديمتريفنا، بل كانوا يضحكون للبراعة والجسارة النادرة لدى هذه البنيّة التي عرفت كيف تستعمل هذه البراعة وهذه الجسارة فاستطاعت أن تصمد أمام ماريا ديمتريفنا.

ولم تسكت ناتاشا إلّا حين قيل لها إن الدندرمة ستكون بالآناناس. وقد صُبَّت الشمبانيا قبل تقديم الدندرمة. وعادت الأوركسترا تعزف. وتبادل الكونت والكونتيسة قبلة. وقام المدعوّون يعبّرون عن تمنياتهم للكونتيسة، ويقرعون كؤوسهم بكأس الكونت، وعاد الخدم يتحركون مسرعين، وأخذت الكراسي تتحرك فتُسمع لها قرقعة، ورجع المدعوّون إلى الصالون وإلى مكتب الكونت متتابعين على نظام الدخول نفسه، ولكن وجوههم الآن أشد احمرارًا.

الفصل السابع عشر

نُصبت موائد «البوستون»، وأُعدَّ اللعب، وتوزع المدعوون في الصالونين وغرفة التدخين وحجرة المكتبة.

و كان من عادة الكونت أن يُقيِّل بعد الغداء، فكان وهو ممسك بأوراق اللعب على صورة مروحة، يقاوم هذه العادة، ويضحك لأي شيء.

ومضت الكونتيسة بالشبيبة تتحلّق حول البيانو والهارْبْ. وطلب الجميع إلى جوليا أن تعزف شيئًا؛ فلبّت الدعوة، وكانت أول العازفين. عزفت على الهارْبْ قطعة ذات تنويعات. ثم انضمت إلى سائر الفتيات يتوسلن إلى ناتاشا ونيقولا، وهنَّ يعرفن إجادتهما للعزف والغناء. فكان واضحًا أن ناتاشا التي عاملنها كما يعامل الكبار، فخورة بذلك فخرًا عظيمًا، ولكنها في الوقت نفسه خجلة بعض الخجل. فقالت تسأل:

- ماذا نغني؟

وأجاب نيقولا:

- «الينبوع»[1].

قالت ناتاشا:

- حسنًا. هلمَّ بنا. تعال هنا يا بوريس، ولكن أين صونيا؟

وأجالت بصرها على كل من حولها، فلما ثبت لها غياب صديقتها، أسرعت تبحث عنها.

ذهبت إلى غرفتها فلم تجدها، فهرعت إلى غرفة الأطفال ولم تجدها أيضًا. فأدركت ناتاشا أن صونيا لا بد أن تكون في الممر على الصندوق. إن

---

(1) رومانسية عاطفية روسية لا يعرف مؤلفها.

الصندوق الموضوع في الممر كان هو المكان الذي تفزع إليه صبايا أسرة روستوف، فتسكب عنده شجونها وأحزانها. ولما ذهبت ناتاشا إلى ذلك المكان رأت صونيا راقدة ببطنها على لحاف الخادمة، المخطَّط المتَّسِخ، الذي كان يغطي الصندوق، ورأتها دافنة رأسها في يديها، وقد أخذت تبكي ناشجة، وكانت كتفاها العاريتان تهتزان من ذلك اهتزازًا قويًا. فإذا بوجه ناتاشا الذي كان طوال ذلك اليوم يعبِّر عن الفرحة بالعيد، يتغيّر فجأة؛ فتتجمّد عيناها، ثم يرتعش عنقها العريض، ويهبط طرفا شفتيها.

- صونيا، ما بك؟... ما بك؟ هلا قلت لي ما بك؟ هؤهؤهؤ!...

وأخذت تبكي ناشجة كما تبكي طفلة، من دون أن تعرف لبكائها سببًا غير بكاء صونيا. وأرادت صونيا أن ترفع رأسها وأن تجيب، ولكنها لم تستطع أن تفعل، فأخفت وجهها في يديها مزيدً من الإخفاء. وكانت ناتاشا تبكي جالسة على اللحاف الأزرق، مطوّقة صديقتها بذراعيها. واستجمعت صونيا قواها وشجاعتها، فانتصبت، ومسحت دموعها، وأخذت تتكلم:

- سيسافر نيقولا بعد ثمانية أيام... استلم... بطاقة السفر... قال لي ذلك هو نفسه. وما كان لي أن أبكي لهذا السبب... ولكن...

قالت ذلك وأَرَتْ ناتاشا ورقة كانت تقبض عليها مخبأة في يدها، هي الورقة التي كان نيقولا قد نسخ لها أشعاره عليها. وتابعت كلامها فقالت:

- ... ولكن... ولكنك لا تستطيعين... ولا يستطيع أحد أن يدرك مدى ما تتصف به نفسه من جمال!

وعادت تبكي. ثم استردّت شيئًا من رباطة الجأش فقالت لناتاشا:

- أمرك أنت سهل... لست أحسدك... فانا أحبك، وأحب بوريس أيضًا. إنه لطيف. أنتما ليس أمامكما حواجز وعقبات. أما نيقولا فهو «ابن عمي»... ولا بد أن يوافق رئيس الأساقفة نفسه... وهو لن يستطيع أن يوافق... ثم إذا نحن كاشفنا ماما بالأمر (كانت صونيا تعدُّ الكونتيسة أمها، وتسمِّيها ماما)، فسوف تقول: إنني أدمِّر مستقبل نيقولا، وإنني ليس لي قلب، وإنني عقوق... ولكنني يشهد الله (قالت ذلك وهي ترسم إشارة الصليب)، أحبها كثيرًا، هي أيضًا، وأحبكم جميعًا... وليس هناك إلّا فيرا. لماذا؟ هل أسأت إليها؟ إنني شاكرة لكم أعظم الشكر، مستعدة لأن أضحّي في سبيلكم بكل

شيء راضية مغتبطة، ولكنني لا أملك شيئًا...

لم تستطع صونيا أن تقول أكثر مما قالت، وعادت تدفن رأسها في يديها وفي اللحاف. وأخذت ناتاشا تهدئها، ولكن كان واضحًا في وجهها أنها تدرك خطورة الحزن الذي يصهر قلب صديقتها. ثم إذا هي تقول فجأة وكأنها حزرت السبب الحقيقي للألم الذي تعانيه ابنة عمها:

- صونيا! هل كلّمتك فيرا بعد الغداء؟ كلمتك، أليس كذلك؟

- كلمتني. إن هذه الأشعار قد كتبها لي نيقولا، ونسخت عنها أنا نسخًا أخرى. وقد وجدَتْها فيرا على طاولتي، فقالت إنها ستطلع عليها ماما. وقالت أيضًا إنني عقوق، وإن ماما لن تأذن له أبدًا أن يتزوجني، وإنه سيتزوج جوليا. وقد رأيتِ أنتِ بعينيكِ كيف صحبها طوال النهار... ناتاشا لماذا؟...

وأغرقت في البكاء مزيدًا من الإغراق. فأنهضتها ناتاشا، وطوّقتها بذراعيها، وأخذت تواسيها مبتسمة من خلال الدموع، فقالت لها:

- صونيا، لا تصدِّقيها يا عزيزتي، لا تصدّقيها. تذكري حديثنا نحن الثلاثة مع نيقولا في غرفة التدخين... هل تتذكّرين... في ذات مساء بعد العشاء؟ لقد قررنا كل شيء. نسيت الآن التفاصيل، ولكن كل شيء تمَّ تدبيره، ألا تذكرين؟ ثم إن أخا العم شنشين قد استطاع أن يتزوّج ابنة عمه، ونحن أبناء عمومة. بوريس أيضًا قال إن هذا ممكن. لقد حدّثته بكل شيء. إنه ذكي جدًّا، ولطيف جدًّا. لا تبكي يا صونيا، يا عزيزتي الحبيبة، يا ملاكي.

قالت ناتاشا ذلك وقبَّلت صونيا ضاحكة، وأضافت تقول لها:

- فيرا شريرة. اتركيها. سوف يجري كل شيء خير مجرى. ولن تقول فيرا لماما شيئًا. سيكلّمها في هذا نيقولا نفسه. وهو لم تخطر جوليا بباله في يوم من الأيام.

بذلك ختمت ناتاشا كلامها وقبَّلت رأس صونيا. فانتصبت صونيا، واستردت القطة الصغيرة الحياة، والتمعت عيناها، وبدا كأنها تهمّ أن تلوّح بذيلها، وأن تثب بقوائمها المرنة، وأن تعود إلى معابثة كبكوب الصوف، فتطاوع طبيعتها وتنطلق على سجيتها. فقالت وهي ترتب فستانها وشعرها بهمة وسرعة ونشاط:

- تعتقدين؟ حقًّا؟ هل تحلفين أن ما تقولينه حق؟

فأجابتها ناتاشا وهي تصفِّف خصلة من الشعر متمردة، أفلتت من ضفيرة صديقتها:

- حقًّا! أحلف أن ما قلته هو الحق!

وانفجرت الفتاتان تضحكان.

- والآن هلمِّي بنا لنغني أغنية «الينبوع».

وسارا معًا ضاحكتين. وقالت ناتاشا فجأة وهي تقف عن السير:

- هل تعلمين أن هذا الشاب الضخم بطرس، ذاك الذي كان جالسًا قبالتي، غريب الأطوار مضحك! إنه يضحكني كثيرًا!

ثم جرت في الممر تركض ركضًا.

خبأت صونيا أبيات الشعر في الصدر من فستانها تحت رقبتها ذات الترقوة الناتئة، واندفعت تجري بخطو خفيف فرح، متوقّدة اللون، لاحقة بناتاشا. ولبَّى الشباب طلب المدعوّين فغنوا أغنية الينبوع أربعة أصوات، فأحبها جميع المدعوين كثيرًا. ثم غنى نيقولا أغنية تعلّمها منذ مدة قصيرة:

ما أحلى أن يقول المرء لنفسه
في ضوء القمر، جائش القلب مرتعشًا:
أنا من خصَّني القدر بأحسن حظ.
فهناك من تذكرني طافحة بالحب نفسه.
يدان بيضاوان تضربان على الأوتار
فتخرجان من الهارْبْ لحنًا ما ينفك ينمو ويفيض
إلى أن يبلغني نداؤه فأسكر.
متى نحيا اليوم السعيد
ولكن أترانا نرى ذلك اليوم كلانا؟

وقبل أن ينهي نيقولا غناء الأبيات الأخيرة من القصيدة كانت الشبيبة قد اتخذت أماكنها في الصالة الكبرى للرقص، وكانت حركة الموسيقيين وتنحنحهم يُسمعان صادرين عن الشرفة.

وكان بطرس في الصالون. ولأنه كان عائدًا من الخارج فقد أقحمه

شنشين في حديث سياسي يبعث الضجر في نفسه، وقد انضم إلى الحديث أشخاص آخرون. فلما بدأت الاوركسترا العزف دخلت ناتاشا، وأقبلت نحو بطرس رأسًا، وقالت له وهي تحمرّ وتضحك في آن واحد:

- أمرتني ماما أن أدعوك إلى الرقص.

- أخشى أن أخلط بين الرقصات، ولكن إذا تكرّمتِ كوني أستاذتي...

بذلك أجاب بطرس، وخفض ذراعه الضخمة يقدِّمها إلى البنيَّة النحيلة.

وبينما كان الأزواج يتخذون أماكنهم، وكان الموسيقيون يدوزنون آلاتهم، جلس بطرس مع مراقصته الصغيرة. كانت ناتاشا سعيدة كل السعادة: فهي ستراقص «كبيرًا»، آتيًا من «الخارج»، وهي تحادثه على مرأى من الناس كما يتحادث الكبار. وإذ كانت إحدى الفتيات قد عهدت إليها بمروحتها، فقد اصطنعت الوضع التي تصطنعه السيدات في المجتمع الراقي (الله يعلم من أين ومتى أمكنها أن تتعلّم هذا) وأخذت تحرّكها أمام وجهها، وتنظر من فوقها إلى مراقصها وتحادثه.

الكونتيسة روستوف التي كانت تجتاز الصالة، قالت وهي تشير إلى ناتاشا:

- انظروا، انظروا إلى الصغيرة!

فاحمرّت ناتاشا، وأخذت تضحك، وقالت معترضة على أمها:

- ماذا يا ماما؟ لماذا تحبين أن تسخري مني؟ أين ما يبعث على هذه الدهشة كلها؟

وفيما الرقصة «الأيقوسية» في منتصفها سُمعت ضجة آتية من الصالون، حيث كان الكونت وماريا ديمتريفنا يقامران. إن أكثر المدعوّين المرموقين، وكذلك الأشخاص المسنين، قد أخذوا يتمطّون بعد أن لبثوا جلوسًا مدة طويلة، وشعروا بالحاجة إلى فترة استرخاء وراحة، فقاموا عن كراسيهم وهم يعيدون إلى جيوبهم ما كان بين أيديهم من أكياس النقود، أو محفظات الأوراق، واتجهوا إلى صالة الرقص. افتتحت ماريا ديمتريفنا المسيرة مع الكونت، وقد تهلّل وجهاهما كلاهما بشْرًا. ودوَّر الكونت ذراعه كما يفعل راقص ممتاز من راقصي البالية، ومدَّها إلى مراقصته بكياسة رقيقة وأدب كبير، وأنهض جذعه، وأضاءت وجهه ابتسامة جذلى جسور. فما إن أنهى

الموسيقيون عزفهم لآخر تنويعة من تنويعات الرقصة الأيقوسية، حتى صفق بيديه منبِّهًا الموسيقيين، وصاح يقول متجهًا إلى الشرفة مخاطبًا كبير العازفين على الكمان:

- سيميون! هل تعرف رقصة «دانيلو كوبر»؟

إنها الرقصة التي يحبها الكونت، والتي كان يرقصها في إبان شبابه (وليست رقصة «دانيلو كوبر» في حقيقة أمرها إلّا تنويعة من تنويعات الرقصة «إنجليزية»).

قالت ناتاشا صارخة بأعلى صوتها (ناسية نسيانًا تامًا أنها تراقص كبيرًا)، حانية رأسها الصغير ذا الضفيرة حتى الركبتين، ضاحكة ضحكًا رنّانًا مجلجلًا دوَّى في الصالة كلها:

- انظروا إلى بابا!

فإذا بجميع الحضور ينظرون مبتسمين إلى الشيخ المرح بجانب مراقصته التي تعلوه طولًا برأسها كلّه، وقد طفق يكوِّر ذراعيه، ويساير الوزن ويرفع كتفيه، ويدور حول نفسه، ويقرع الأرض قرعًا خفيفًا بقدميه، ويهيئ المشاهدين بالابتسامة التي كانت تزدهر على وجهه المدوَّر مزيدًا من الازدهار، يهيئهم لما سيلي من رقصة، فما إن دوَّت النغمات المرحة الجارفة من لحن «دانيلو كوبر»، وهي نغمات تشبه كثيرًا نغمات لحن «تيريك الجنّي»، حتى كانت جميع أبواب الصالة قد ازدانت بوجوه الخدم مبتسمة جذلى، فالرجال في جهة والنساء في جهة أخرى، وقد جاؤوا جميعًا ليروا مولاهم لاهيًا متسليًّا.

قالت المربية بصوتٍ عالٍ من أحد الأبواب:

- مولانا! إنه نسر!

كان الكونت يرقص رقصًا رائعًا، ولا يجهل أن رقصه رائع، أما مراقصته فكانت لا تعرف من أمر الرقص شيئًا، ولا يهمها أن تحسن الرقص أو أن لا تحسنه. فكان جسمها الضخم يبقى قائمًا، وكانت ذراعاها الجبارتان متدليتين (لقد عهدت بحقيبة يدها إلى الكونتيسة)، فكان لا يرقص منها إلّا وجهها الذي كان قاسيًا لكنه جميل. إن كل ما كانت تعبِّر عنه قامة الكونت المكوَّرة لم يكن ينعكس لدى ماريا ديمتريفنا إلّا على وجهها الذي يزداد

تبسّمًا، وعلى أنفها الذي أخذ يرتعش. ولكن لئن استطاع الكونت الذي ما ينفك يزداد حماسة، أن يفتن ألباب المشاهدين بما يجريه من وثبات متصالبة وقفزات خفيفة بساقيه المرنتين، فإن أي جهد بسيط تبذله ماريا ديمتريفنا بحركة من كتفيها، أو ذراعيها الربلتين، أثناء انكفائها وقرعها الأرض بكعب حذائها كان يفتن ألباب المشاهدين أيضًا لأنهم يقدّرون قيمته حق قدرها نظرًا إلى ضخامة جسمها، وإلى ما ألفت من قسوة وشدة. وكان الرقص لا ينفك يزداد حمية ونشاطًا. ولم يستطع الراقصون المتقابلون الآخرون، بل لم يخطر ببالهم أيضًا، أن يجذبوا انتباه أحد إليهم. فكان الجميع مستغرقين في تأمل الكونت وماريا ديمتريفنا. وكانت ناتاشا تشد الحضور من الأكمام أو الأثواب مهيبة بهم أن ينظروا إلى أبيها. ولكن الحضور لم يكونوا في حاجة إلى هذا منها، فقد كانت أنظارهم معلّقة بأبيها من تلقاء نفسها. وكان الكونت يتنفّس أثناء الفواصل بمشقة كبيرة، ولكنه يظل يلوّح بيديه للموسيقيين صائحًا طالبًا منهم أن يزيدوا سرعة العزف؛ ويمضي يرقص بمزيد من السرعة ومزيد من القوة، دائرًا حول ماريا ديمتريفنا على رؤوس الأصابع تارة، وعلى الكعبين تارة أخرى، ثم يتّجه بمراقصته أخيرًا إلى مكانها، فيخطو خطوة أخيرة، رافعًا ساقه المرنة إلى الوراء، حانيًا رأسه الناضح عرقًا، مشرق الوجه ابتسامًا، راسمًا بذراعه اليمنى دائرة واسعة، فأثار بذلك عاصفة من التصفيق والضحك اندفع فيهما الحضور كافة، وناتاشا خاصّة. توقف الراقصان وقد انقطعت أنفاسهما، وأخذا يجففان عرقهما بمنديليهما.

وقال الكونت:

- هكذا كنا نرقص في زماننا يا عزيزتي!

فقالت ماريا ديمتريفنا وهي تتنفّس تنفسًا شاقًا طويلًا وتشمّر في الوقت نفسه كمَّيها:

- مرحى، «دانيلو كوبر»!

الفصل الثامن عشر

بينما كان الراقصون في منزل آل روستوف يرقصون «الإنجليزية» السادسة على أنغام أوركسترا أصبحت تعزف خطأً من فرط التعب، وبينما كان الخدم والطبّاخون هناك يهيئون طعام العشاء، أُصيب الكونت بيزوخوف بنوبة سادسة، وأعلن الأطباء أنه لم يبق أي رجاء. وأُجريت مراسم الاعتراف وتناول القربان المقدّس والمريض غائب عن الوعي، وبدأ الاستعداد للمسحة الأخيرة، وكان الاضطراب وقلق الانتظار، المعهودان في مثل هذه اللحظات، يسودان المنزل. وفي خارج المنزل كان متعهدو مواكب الدفن الذين يتوقّعون أن يوصوا بإعداد جنازة فخمة ذات أبهة يزدحمون عند بوابة الفناء، ويختبئون كلما وصلت عربة. وكان الحاكم العسكري لمدينة موسكو يرسل الرسل مستفسرًا عن صحة الكونت من مرافقيه، وقد جاء في هذا المساء بنفسه لوداع السيد العظيم الشهير من سادة عهد كاترين، الكونت بيزوخوف.

صالة الاستقبال الفخمة الباذخة تعج بالناس. وقد نهضوا كلهم إجلالًا حين خرج الحاكم من غرفة الكونت بعد أن خلا إلى المريض قرابة نصف ساعة، ومرَّ بالصالون، فكان يردُّ على التحيات ردًّا خفيفًا، ويستعجل الهروب من نظرات الأطباء والكهنة والأسرة التي كانت محدقة إليه معلّقة به. وكان الأمير فاسيلي الذي نحل جسمه وشحب لونه في هذه الأيام الأخيرة، يرافق الحاكم، ويجيبه عن عدد من الأسئلة كان الحاكم يلقيها عليه.

وشيَّع الأمير فاسيلي الحاكم، وعاد يجلس وحيدًا على كرسي في الصالة، واضعًا، متكئًا بكوعه على ركبته، مخفيًا عينيه بيده. وبعد فترة من الوقت قام من مكانه، ومشى بخطو سريع على غير عادته، ملقيًا نظرات قلقة

حوله، ومضى إلى الممر المفضي إلى الغرف الخاصة، ذاهبًا إلى كبرى الأميرات.

إن الأشخاص المحتشدين في الصالة المضاءة إضاءة ضعيفة يتكلّمون بصوت خافت متردّد، ثم يصمتون، ويشخصون بأبصارهم، الملأى تساؤلًا وانتظارًا، إلى الباب الذي يؤدي إلى غرفة الكونت المحتضر، كلما فُتح هذا الباب فتحًا هادئًا لا يحدث إلّا ضجة خفيفة، فخرج منه أحد أو دخل أحد.

قال كاهن عجوز لسيدة كانت جالسة إلى جانبه تصغي إلى كلامه بسذاجة:

- لكل إنسان أجل لا يمكنه أن يستأخره.

ثم إن السيدة أضفت على صوتها النبرة الكهنوتية التي يتكلّم بها محدِّثها، قالت تسأله كما لو أن لها رأيًا في هذا الشأن:

- تُرى، ألم يفت أوان تناوله الأسرار الأخيرة؟

فأجاب الكاهن وهو يمر بيده على رأسه الأصلع الذي لا تزال تزيّنه بضع خصلات من شعر رمادي أحسن تصفيفه:

- هذا من الشعائر المقدّسة الكبيرة يا ابنتي!

وفي الطرف الآخر من الصالة كان يتحدّث أناس آخرون. فسأل سائل منهم:

- مَن هذا؟ أهو الحاكم العسكري جاء بنفسه! إنه يبدو في ريعان الشباب!...

- ومع ذلك تجاوز الستين! يقال إن الكونت أصبح لا يعرف أحدًا. هل ناولوه الأسرار الأخيرة؟

- أعرف شخصًا ناولوه الأسرار الأخيرة سبع مرات.

وخرجت صغرى الأميرات من عند الكونت. إن المرء يرى أنها بكت. وجاءت تجلس بقرب الدكتور لوران المستند بكوعه إلى طاولة على وضع يفيض رشاقة، تحت صورة كاترين.

قال الطبيب مجيبًا عن سؤال عن الجو:

- جو جميل جدًا، يا أميرة، جميل جدًا. ثم إن المرء في موسكو يحس بأنه في الريف.

فقالت الأميرة وهي تتنهّد:
- قل لي: هل نستطيع أن نسقيه الآن؟
- هل شرب جرعة الدواء؟
- نعم.
فنظر الطبيب في ساعته، وقال:
- خذي كأسًا من الماء المغلي، وضعي فيها قرصة من «كريمور تاتاري»...
قال الطبيب ذلك للأميرة وهو يريها بأصابعه النحيلة ما القرصة.
وقال طبيب ألماني لضابط مرافق:
- لم يحدث أن بقي أحد حيًّا بعد النوبة الثالثة...
فقال الضابط المرافق:
- ما كان أقواه رغم كبر سنه!
وأضاف يسأل هامسًا:
- تُرى إلى مَن ستؤول هذه الثروة الضخمة كلها؟
فأجاب الألماني مبتسمًا:
- الهواة كُثُرٌ!
وشخصت الأبصار مرة أخرى إلى الباب: لقد صرَّ الباب قليلًا، وكانت صغرى الأميرات وقد حضّرت الشراب الذي وصفه لوران، تحمله إلى المريض. واقترب الطبيب الألماني من لوران، وسأله بلغة فرنسية فيها لكنة بارزة:
- تُرى هل يبقى حيًّا إلى الغد؟
فزمَّ لوران شفتيه، وحرَّك إصبعه أمام أنفه معبرًا عن النفي. وقال هامسًا وهو يبتسم ابتسامة تعبِّر عن اعتزازه المحتشم بأنه يجيد تشخيص حالة المريض هذه الإجادة التامة:
- سيموت هذه الليلة، لا بعدها!
وابتعد.
في أثناء ذلك كان الأمير فاسيلي يفتح باب غرفة الأميرة.
إن السراجَيْن اللذين كانا مشتعلين أمام الأيقونات لا يضيئان الغرفة

إلّا إضاءة ضعيفة، فالغرفة تكاد تكون مظلمة، وقد انتشر فيها عبق البخور وشذى الأزهار، وهي مزدحمة بقطع صغيرة من الأثاث: خزائن ذات أدراج، خزائن لتعليق الثياب، مناضد. والوراء حاجز يُرى من السرير العالي غطاؤه الأبيض المحشو بريش. ونبح كلب صغير.

- آ... هذا أنت يا ابن عمي؟

وقامت الأميرة، فملّست شعرها حتى صار المرء يحسبه هو ورأسها شيئًا واحدًا. وسألت قائلة:

- هل حدث شيء؟ لقد أخفتني.

- لا شيء. لم يحدث جديد. وإنما أنا جئت، يا كاتيش[1]، لأكلمك في شؤون عملية.

أجابها الأمير بذلك وهو يتهالك متعب الهيئة على المقعد الذي قامت عنه الأميرة. وأضاف يقول:

- ما أشد الحر في غرفتك! هيًّا، اجلسي، ولنتحدث!

قالت الأميرة:

- ظننت أن أمرًا وقع.

وجلست أمام الأمير متهيئة للإصغاء إليه، وقد لاح في وجهها ما عُهد فيه من تعبير عن قسوة تشبه قسوة الصخر. وقالت:

- أردت أن أنام يا ابن عمي، ولكنني لا أستطيع.

قال الأمير فاسيلي وهو يتناول يد الأميرة ويشدها إلى تحت، على عادته:

- وبعد، يا عزيزتي؟...

كان واضحًا أن كلمته هذه «وبعد» تنصرف إلى أشياء كثيرة فهمها الاثنان من دون أن يسمِّيها أحد.

كانت الأميرة، بجذعها اليابس المنتصب، الطويل طولًا شديدًا بالقياس إلى طول ساقيها، تنظر إلى الأمير وجهًا لوجه، هادئة الهيئة بعينيها الرماديتين البارزتين. وهزَّت رأسها، وألقت على الأيقونات نظرة وهي تتنهد. إن في إمكان المرء أن يفسّر حركتها هذه بأنها تعبير عن حزن وإخلاص، كما أن

---

(1) تصغير اسم كاترين، وهو اسم إحدى الأميرات مامونتوف.

في إمكانه أن يفسّرها بأنها تعبير عن إعياء شديد، وأمل في راحة قريبة. أما الأمير فقد فسرها بأنها علامة تعب. فقال:

- وأنا؟ أتظنين أنني أقلّ عناء؟ إنني أعاني من الضنى ما يعانيه حصان يجر عربة البريد! ولكنني في حاجة إلى أن أكلمك يا كاتيش، وإلى أن أكلمك جادًّا كل الجد.

وصمت الأمير فاسيلي، وجعلت خدّاه تنشدّان تارة إلى يمين وتارة إلى شمال، فتضفيان على وجهه تعبيرًا دميمًا ما رآه أحد عليه في الصالونات. وليست عيناه الآن عينيه المعهودتين فيه، فهما طورًا تنمّان عن وقاحة مستهترة، وطورًا تطوِّفان هنا وهناك معبّرتَيْن عن الخوف والارتياع.

وكانت الأميرة قابضة بيديها الهزيلتين اليابستين على الكلب فوق ركبتيها، تحدّق في عيني الأمير بانتباه شديد. ولكن المرء يلاحظ أنها لن تقطع الصمت بسؤال ولو اضطرت أن تسكت إلى الغد.

قال الأمير فاسيلي كلامه، وقد عزم أمره بعد صراع داخلي على أن يستأنف الحديث:

- يا عزيزتي وابنة عمي الأميرة[1] كاترين سيميونوفنا، إن على الإنسان في لحظات كهذه اللحظات أن يفكر في كل شيء. يجب علينا أن نفكّر في المستقبل... أن نفكر فيك... إنني أحبك كحبي لأولادي، كما تعلمين...

ظلّت الأميرة تتأمّله بتلك النظرة الكابية الثابتة. وواصل الأمير كلامه وهو يدفع عنه منضدة صغيرة كانت أمامه، من دون أن ينظر إلى الأميرة:

- ويجب عليَّ أيضًا أن أفكر في أسرتي. إنك تعلمين، يا كاتيش، أنكن - أنتن الأخوات الثلاث مامونتوف، وامرأتي - الوريثات الوحيدات اللواتي ترثن الأمير رأسًا. أنا أعلم. أعلم مدى ما يحدثه لك التفكير في هذه الأمور والكلام عنها من ألم، وإني لأعاني هذا الألم نفسه. ولكنني يا صديقتي سأبلغ الستين من عمري بعد قليل. فيجب أن أكون متأهبًا لكل شيء. هل

(1) تختلف كلمة الأميرة في اللغة الروسية باختلاف ما تكون المرأة ابنة أمير غير متزوجة فتخاطب بقولهم «كنياجنا»، أو زوجة أمير فتخاطَب بقولهم «كنياجينيا».

تعلمين أنني استدعيت بطرس؟ إن الكونت هو الذي طلب ذلك مومئًا إلى صورته إيماء واضحًا لا لبس فيه.

قال الأمير فاسيلي ذلك ونظر إلى الأميرة مستطلعًا مستفهمًا، ولكنه لم يستطع أن يعرف أهي تفكر في ما قاله لها، أم إنها تنظر إليه لا أكثر...

وقالت الأميرة تجيبه:

- ليس هناك إلّا شيء واحد أطلبه من الرب يا ابن عمي، هو أن يرأف به، وأن يدع روحه الجميلة تبارح بسلام هذا الـ...

فقاطعها الأمير فاسيلي نافد الصبر وقد أخذ يحك جمجمته الصلعاء، ويشد إليه المنضدة مهتاجًا بعد أن أقصاها عنه منذ هنيهة:

- نعم، هذا صحيح... ولكن... أخيرًا... أخيرًا... المسألة هي أن الكونت، في الشتاء الماضي، قد كتب وصية كما تعلمين، وفيها يوصي بثروته كلها لبطرس، ويحرمنا منها نحن الذين تؤول إلينا ثروته رأسًا.

أجابت الأميرة بهدوء:

- ما أكثر ما كتب من وصايا، ولكنه لم يستطع أن يجعل بطرس وريثه. إن بطرس ابن غير شرعي.

فقال الأمير فاسيلي فجأة، وقد اشتعل هيجانه، وازدادت سرعة كلامه، وشدَّ المنضدة الصغيرة إلى صدره:

- عزيزتي، ما قولك إذا كان الكونت قد كتب رسالة إلى الإمبراطور طالبًا موافقته على الاعتراف بأبوته لبطرس؟ إن الإمبراطور سيلبّي طلبه مكافأة له على ما أسلف من خدمات، فيصبح بطرس ابنه الشرعي.

فابتسمت الأميرة كما يبتسم أولئك الذين يعتقدون بأنهم يعرفون من الأمر ما لا يعرفه محدثوهم.

واستأنف الأمير فاسيلي كلامه وهو يمسك يد الأميرة:

- سأقول لك أكثر من هذا. إن الرسالة قد كتبت فعلًا، وإن لم ترسل. والإمبراطور على علم بذلك. وإنما المهم أن نعرف هل أتلفت الرسالة أم لم تتلف. فإذا لم تكن قد أتلفت، فمتى «انتهى كل شيء» (قال الأمير فاسيلي هذه الجملة وهو يتنهّد إفصاحًا عما يعنيه بها)، وفضَّت أوراق الكونت، نقلت الرسالة والوصية إلى الإمبراطور، فلبَّى الإمبراطور طلب الكونت

قطعًا، وورث بطرس كل شيء بصفته ابنًا شرعيًا.

قالت الأميرة تسأل الأمير فاسيلي وهي تبتسم ابتسامة ساخرة كأن كل شيء يمكن أن يحدث إلّا هذا.

- ونصيبينا نحن؟

- إن الأمر واضح وضوح النهار يا عزيزتي المسكينة كاتيش. إن بطرس يصبح هو الوريث الشرعي، فلا يكون لكنَّ نصيب. يجب عليكِ، يا عزيزتي، أن تكتشفي هل كتبت الرسالة والوصية، وهل أتلفتا؟ فإذا اتضح أنهما لسبب من الأسباب قد نُسيتا، كان عليك أن تعرفي أين هما، وأن تعثري عليهما، لأن...

فقاطعته الأميرة وهي تبتسم ابتسامة تهكّم واستهزاء، من دون أن يتغير شيء مما كانت تعبِّر عنه عيناها:

- لم يكن ينقص إلّا هذا! أنا امرأة. وأنتم تظنون أننا معشر النساء جميعًا حمقاوات! ولكن ثق أنني مطّلعة اطلاعًا يكفيني أن أعلم أن الابن لا يرث إلّا إذا كان ابنًا شرعيًا...

وأضافت تقول بالفرنسية ظانة أن هذه الترجمة خليقة بأن تظهر للأمير بطلان مزاعمه، فيقلع عنها إقلاعًا حاسمًا.

- إنه ابن زنا!

- ما بالك لا تفهمين يا كاتيش؟ أنت ذكية جدًا، فكيف لا تستطيعين أن تدركي أنه إذا كان الكونت قد كتب إلى الإمبراطور رسالة يلتمس فيها الموافقة على اعترافه بأبوّة بطرس، فإن بطرس لا يبقى اسمه بطرس، وإنما يصبح اسمه الكونت بيزوخوف، ويؤول إليه الميراث كاملًا في هذه الحالة؟ وإذا لم تكن الرسالة والوصية قد أتلفتا، فلن يبقى لك شيء إلّا التأسّي بأنك كنت فاضلة وهلم جرًا. هذا ثابت مؤكّد.

- أنا أعلم أن الوصية كتبت. لكنني أعلم أيضًا أن لا قيمة لها. وأظن أنك تحسبني غبية كل الغباء يا ابن عمي!

قالت الأميرة ذلك وقد لاح في وجهها ما يلوح في وجه النساء حين يعتقدن أنهن قلن شيئًا فيه فكاهة لاذعة.

فقال الأمير فاسيلي وقد نفد صبره:

– عزيزتي الأميرة كاترين سيميونوفنا! أنا لم أجئ إليك لنتبادل الوخزات، وإنما جئت إليك لأكلّمك في مصالحك أنت، كما يكلّم الإنسان قريبة له، قريبة طيبة ممتازة، قريبة حقيقية. أعود فأقول لك مرة عاشرة: إذا كانت الرسالة الموجهة إلى الإمبراطور والوصية التي توصي لبطرس بالميراث، إذا كانت هاتان الوثيقتان لا تزالان بين أوراق الكونت، فلا أنت، يا عزيزتي الصغيرة، ولا أختاك، سترثن شيئًا البتة. وإذا كنت لا تصدِّقينني فصدِّقي العارفين: لقد بحثت الأمر مع ديمتري أونوفرتش (محامي الأسرة) منذ قليل، فقال ما أقوله لك الآن.

هنا طرأ تغير مفاجئ واضح على تفكير الأميرة. فاصفرّت شفتاها الرقيقتان (أما العينان فلم تتغيرا)، وأصبح لصوتها حين تتكلم انفجارات لا شك أنها لا تتوقعها هي نفسها. قالت:

– سيكون ذلك شيئًا عظيمًا. أنا لم أرد شيئًا في يوم من الأيام، ولا أريد شيئًا الآن.

ودفعت الكلب الصغير عن ركبتيها، وعدلت ثنيات ثوبها. واستأنفت:

– هذا هو اعترافه بالجميل، هذا هو امتنانه من أولئك الذين ضحوا في سبيله بكل شيء! عظيم جدًّا! أنا لست في حاجة إلى شيء يا أمير.

فأجابها الأمير فاسيلي بقوله:

– نعم، ولكنك لست وحيدة. إن لك أختين.

ولكن الأميرة كانت لا تصغي إليه. وأكملت:

– نعم، كنت أعرف منذ مدة طويلة، ولكنني نسيت... كنت أعرف منذ مدة طويلة أن المرء لا يجوز أن يتوقّع من هذا المنزل شيئًا غير الحطة والدناءة، والنفاق والرياء، والحسد والغيرة، والمؤامرات والمكائد، وألا ينتظر إلّا العقوق، إلّا أبشع أنواع العقوق...

سألها الأمير وقد أخذت خداه تنشدّان مزيدًا من الانشداد يمنة ويسرة:

– أتعرفين أين هي تلك الوصية أم لا تعرفين؟

– نعم، كنت غبية حمقاء، كنت أثق بالناس، وكنت أحبهم وأضحّي بنفسي في سبيلهم. ولكن لا ينجح في هذه الحياة إلّا الجبناء الحقيرون. أنا أعرف من دبَّر هذه المؤامرات والمكائد.

وأرادت الأميرة أن تنهض، لكن الأمير فاسيلي أمسك ذراعها ومنعها من القيام. كانت هيئتها هيئة إنسان فقد على حين فجأة جميع ما كان يملأ ذهنه من أخيلة حلوة عن بني البشر قاطبة!... وكانت تنظر إلى محدِّثها غاضبة ساخطة.

قال لها الأمير فاسيلي:

- لم يفت الآوان يا صديقتي. تذكري يا كاتيش أن هذا كله وقع مصادفة في لحظة اندفاع ومرض، ثم نُسِي كله. وإنما يقع على عاتقنا الآن واجب إصلاح الخطأ يا عزيزتي، وأن نلطِّف لحظاته الأخيرة بمنعه من ارتكاب هذا الظلم، وألا ندعه يموت وفي ذهنه أنه أشقى أولئك الذين...

- أولئك الذين ضحوا بكل شيء في سبيله.

كذلك أكملت الأميرة جملة الأمير فاسيلي، وحاولت مرة أخرى أن تنهض، ولكن الأمير منعها من القيام، بينما كانت تتابع هي كلامها قائلة:

- ... وذلك أمر لم يستطع هو أن يقدّره حق قدره في يوم من الأيام.

وأضافت تقول وهي تتنهد:

- لا يا ابن عمي، سأظل أذكر أن على المرء ألا ينتظر في هذا العالم مكافأة على إحسانه، وأن هذا العالم ليس فيه شرف وليس فيه عدالة. إن على الإنسان في هذا العالم أن يكون مرائيًا، وأن يكون شريرًا.

- هدئي روعك. إنني أعرف قلبك الزاخر نبلًا وشهامة.

- بل إن قلبي زاخر خبثًا وشرًّا.

عاد الأمير يكرر قوله:

- إنني أعرف قلبك، وأقدر صداقتك، وأتمنى أن يكون رأيك فيَّ كرأيي فيك. هدّئي روعك، ولنسترشد العقل في ما نقوله ما دام في الوقت متسع. قد يكون أمامنا أربع وعشرون ساعة، وقد يكون أمامنا ساعة واحدة. حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية، وقولي لي خاصة أين هي. لا بد أنك تعرفين أين هي. وسوف نأخذها فورًا إلى الكونت ليراها، ويكون قد نسيها، فلا بد أن يأمر بإتلافها. ها أنت ذي تدركين أن رغبتي الوحيدة هي أن أنفذ إرادته تنفيذًا دقيقًا أمينًا. أنا لم أجئ إليك إلّا لهذا الغرض. وما جئت إلى هذا المنزل إلّا لأساعدكما، أنت وهو.

قالت الأميرة:

- الآن فهمت كل شيء. الآن عرفت مصدر هذه المكائد.

- ليس هذا ما يهمنا الآن يا ابنتي.

- إنها تلك المرأة التي تحميها وترعاها، إنها عزيزتك آنا ميخائيلوفنا التي لو شاءت أن تكون لي خادمة لرفضتها، هذه المرأة الدنيئة، هذه المرأة الخسيسة!

- لا تضيِّعنَّ وقتنا سدى!

- آه... لا تذكرها أمامي. في الشتاء الماضي، تسللت إلى هنا، وروت للكونت عنَّا جميعًا، ولا سيما عن صوفيا، أشياء تبلغ من الهول والفظاعة إنني أستحي أن أردّدها على مسمع أحد، حتى لقد مرض الكونت منها، ولبث خمسة عشر يومًا يرفض أن يرانا. وفي تلك الآونة - أنا أعلم ذلك - إنما كتب تلك الورقة الدنيئة، تلك الورقة الحقيرة. ولكنني كنت أظن أن هذه الورقة لا قيمة لها ولا شأن.

- ها قد وصلنا إلى الجوهر! لماذا لم تذكري لي شيئًا من هذا قبل الآن؟

قالت الأميرة من دون أن تجيبه عن سؤاله:

- الوصية في محفظة الأوراق، المرصَّعة، التي يحتفظ بها تحت مخدته. الآن عرفت...

وأضافت تقول بما يشبه الصراخ وقد تغيرت تغيرًا تامًا:

- نعم، إذا كان هناك إثم ارتكبته، إذا كان هناك إثم كبير ارتكبته، فهو إثم الكره الذي أحمله لهذه المخلوقة الشقية! ولكن صبرًا، لأقولن لها كل شيء. ستحين اللحظة المناسبة.

الفصل التاسع عشر

بينما كانت هذه الأحاديث تدور في صالون الاستقبال وغرفة الأميرة، كانت العربة التي تقل بطرس (الذي استُدعي) وآنا ميخائيلوفنا (التي رأت ضرورة مرافقته) تدخل فناء قصر الكونت بيزوخوف. وحين قرقعت عجلات العربة قرقعة مخنوقة على القش المفروش تحت النوافذ، التفتت آنا ميخائيلوفنا إلى بطرس لتقول له بضع كلمات تواسيه وتشجعه، فوجدته نائمًا في ركنه فأيقظته. فلما صحا بطرس وثاب إليه وعيه نزل من العربة في أثر آنا ميخائيلوفنا، ولم يخطر بباله إلّا في تلك اللحظة أن لقاء ينتظره بينه وبين أبيه المحتضر. وقد لاحظ أن العربة لم تقف أمام الباب الرئيسي، بل أمام باب الخدم. ولمح عند نزوله من العربة رجلين يرتديان ثياب بورجوازيين صغار قد أسرعا يختبئان في ظل الجدار، وحين وقف رأى رجالًا آخرين مثلهما قد لاذوا بالجدران في الجهتين. ولكنه وقد لاحظ أن أحدًا لم يولهم أي انتباه، لا ماريا ميخائيلوفنا ولا الخادم ولا الحوذي، قدَّر أن الأمور لا بد أن تكون على هذا النحو، ومشى يتبع آنا ميخائيلوفنا. وكانت آنا ميخائيلوفنا ترتقي السلم الحجري الضيّق الذي لا يضيئه إلّا نور ضعيف، وتنادي بطرس الذي يسير الوراءها متخلِّفًا عنها، وهو لا يدرك لماذا يجب عليه أن يذهب إلى الكونت، ولماذا يرتقي هذا السلم بدلًا من السلم الرئيسي، لكنه وقد رأى ما يلوح على آنا ميخائيلوفنا من ثقة واستعجال، كان يقدّر بينه وبين نفسه أن ذلك كله ضرورة لا غنى عنها، وقد كادا عند منتصف السلم أن يقلبهما أناس كانوا يحملون سطول ماء ويهبطون راكضين محدثين بأحذيتهم

الطويلة جلبة شديدة. ولكن هؤلاء الأشخاص التصقوا بالجدار ليفسحوا لهما ممرًا، ولم تبدُ عليهم أية دهشة حين رأوهما.

قالت آنا ميخائيلوفنا تسأل واحدًا منهم:

- من هنا غرف الأميرات؟

فأجابها أحد الخدم بصوت قوي جريء، كأن كل شيء أصبح الآن مباحًا:

- نعم سيدتي، الباب الذي على اليسار!

قال بطرس حين بلغ فسحة السلم:

- من الجائز ألا يكون الكونت قد طلبني، فهل أمضي إلى غرفتي!

فتوقّفت آنا ميخائيلوفنا حتى تتيح لبطرس أن يدركها. وقالت له وهي تلمس ذراعه بحركة كالحركة التي لمست بها ذراع ابنها في الصباح:

- آه يا صديقي! ثق أن ألمي لا يقل عن ألمك. ولكن كن رجلًا.

فسألها بطرس وهو ينظر إليها من خلال نظّارتيه برقّة ولطف:

- حقًّا أنا أُفضل أن أذهب إلى غرفتي!

فأجابته آنا ميخائيلوفنا بقولها:

- آه يا صديقي، انسَ الإساءات التي ألحقوها بك، وفكر في أبيك... الذي لعله يحتضر.

وتنهّدت. ثم تابعت كلامها فقالت:

- لقدا أحببتك فورًا كما أحب ابني. ثق بي يا بطرس. لن أهمل مصالحك.

لم يفهم بطرس مما تعنيه شيئًا. ولكنه أحس مرة أخرى بأن الأمور يجب أن تجري على هذا النحو. فسار الوراء آنا ميخائيلوفش طائعًا، وكانت آنا ميخائيلوفتش قد فتحت الباب.

كان الباب يفضي إلى دهليز الغرف التي تقع من المنزل في الخلف. وكان في الدهليز خادم عجوز من خدم الأميرات. لم يكن بطرس قد دخل إلى هذا الجزء من المنزل قبل اليوم، ولا كان يخطر بباله أن يكون في هذا المكان غرف.

ومرت خادمة تحمل بيدها صينية وإبريقًا، فسألتها آنا ميخائيلوفنا عن

صحة الأميرات مخاطبة إياها بقولها: «يا عزيزتي» و«يا ابنتي»؛ وقادت بطرس في الدهليز المبلط. وكان الباب الأول الذي يقع في الدهليز على اليسار، يفضي إلى غرف سكنى الأميرات. وشاءت الظروف أن تكون الخادمة التي تحمل الصينية والإبريق مستعجلة أمرها (كان كل شيء مستعجلًا في المنزل آنذاك)، فنسيت أن تغلق باب الغرفة التي كانت تحمل إليها الصينية والإبريق، فلما مر بطرس وآنا ميخائيلوفنا أمام ذلك الباب، نظرا إلى الغرفة على غير إرادة منهما، فرأيا كبرى الأميرات والأمير فاسيلي جالسَيْن في الغرفة يتحدّثان متقاربَين. فحين رآهما الأمير فاسيلي بدرت منه حركة تدل على الضيق والتململ، وارتد بجسمه إلى الوراء. أما الأميرة فقد نهضت غاضبة بوثبة واحدة فأغلقت الباب إغلاقًا عنيفًا.

إن هذه الحركة التي بدرت من الأميرة لا تتّفق وما عُهد فيها من هدوء، والذعر الذي بان في وجه الأمير فاسيلي لا يتناسب مع ما عرف فيه من رصانة ورزانة، لذلك رأى بطرس نفسه يتوقّف عن السير، وينظر إلى دليله آنا ميخائيلوفنا من خلال نظارتيه مستفهمًا. فلم تبد آنا ميخائيلوفنا أية دهشة، ولم تزد على أن ابتسمت ابتسامة خفيفة وتنهدت كأنما لتبين أنها كانت تتوقّع هذا كله. وقالت تجيب عن نظرة بطرس إليها:

- كن رجلًا يا صديقي، أنا التي سأسهر على مصالحك!

وأسرعت في خطوها بالدهليز مزيدًا من الإسراع.

كان بطرس لا يفهم ما الأمر، ولا يدرك معنى قولها: «سأسهر على مصالحك»، ولكنه أدرك أن الأمور لا بد أن تكون كما تقول ماريا ميخائيلوفنا. ونفذا من الدهليز إلى صالة كبيرة، ملاصقة لصالون الاستقبال من جناح الكونت. إنها غرفة من تلك الغرف الباردة الباذخة التي كان يعرفها بطرس حين يدخل من السلم الكبير. ولكن في وسط هذه الغرفة الآن مغطسًا، وقد انسكب على سجادتها ماء. والتقيا بخادم وقندلفت يحمل مبخرة مرّا سائرين على رؤوس الأصابع من دون أن يلتفتا إليهما. ودخل بطرس وآنا ميخائيلوفنا صالون الاستقبال، وهو صالون مألوف لبطرس، بنافذتيه على الطراز الإيطالي، وبابه الذي يفضي إلى حديقة الشتاء، واللوحة التي تصوّر

كاترين الثانية، وصورة الكونت المعلقة تحت صورة الإمبراطورة العظيمة. وكان أولئك الأشخاص أنفسهم لا يزالون يتكلّمون همسًا لم يكادوا يغيّرون أوضاعهم. فما إن رأوا آنا ميخائيلوفنا وبطرس حتى صمتوا جميعًا، وراحوا ينظرون إلى آنا ميخائيلوفنا ذات الوجه الشاحب الذي أذوته الدموع، والى بطرس الضخم الطويل الذي كان يتبعها.

وارتسم على وجه آنا ميخائيلوفنا شعورها بأن اللحظة الحاسمة قد أزفت. فدخلت بجسارة تفوق حتى جسارتها في الصباح، من دون أن تترك بطرس، مصطنعة أوضاع سيدة بطرسبورغية كبيرة خبيرة في شؤون الأعمال. كانت تحس بأنها ما دامت آتية بمن طلب المحتضر أن يراه، تستطيع أن تكون على ثقة بأنها ستُستقبل أحسن استقبال. وشملت الحضور بنظرة سريعة، فلما رأت الكاهن المعرِّف، مضت إليه بخطوات صغيرة لا منحنية تمامًا، بل جاعلة جسمها يصغر على حين فجأة، فتلقّت بركة الكاهن، ثم تلقّت بركة كاهن آخر كان في الصالون. وقالت لأحدهما:

- الحمد لله على أنه لم يفت الأوان! لشدة ما كنا خائفين، نحن أفراد الأسرة.

وأضافت تقول بصوت أخفت:

- هذا الفتى هو ابن الكونت. يا لها من لحظات رهيبة!

وبعد أن نطقت بهذه الكلمات اتجهت إلى الطبيب، فقالت له:

- عزيزي الدكتور، إن هذا الفتى هو ابن الكونت... هل من أمل؟

فرفع الطبيب عينيه وكتفيه بحركة سريعة من دون أن يتكلم. فرفعت آنا ميخائيلوفنا كتفيها وعينيها بتلك الحركة نفسها، وهي تكاد تغمض عينيها، وتنهّدت، وتركت الطبيب، ورجعت إلى بطرس وقد بان في وجهها احترام كبير وحب عظيم يخالطه حزن. وقالت له:

- لا تقنط من رحمة الله.

وأشارت إلى كنبة صغيرة مهيبة به أن يجلس عليها بانتظار رحمة الله، ثم اتجهت صامتة إلى الباب الذي كان الجميع ينظرون إليه، ففتحته برفق شديد حتى لم يكد يسمع له صرير، وولجت الغرفة مغلقة الوراءها الباب غائبة عن الأنظار.

كان بطرس قد قرّر أن يطيع مرشدته في كل شيء، فاتجه إلى الكنبة التي دلته إليها. وما إن غابت آنا ميخائيلوفنا حتى رأى الأنظار كلها تنصبّ عليه وقد ازداد ما تعبر عنه من استطلاع وتعاطف. ولاحظ أن جميع الأشخاص الحاضرين يتهامسون مشيرين إليه بأعينهم وهم يحسّون نوعًا من الرهبة بل نوعًا من التذلل. إنهم يظهرون له احترامًا لم يعتد على مثله من قبل: فالسيدة التي لا يعرفها والتي كانت تكلم الكهنة قامت تخلي مكانها ليجلس هو فيه، والضابط أسرع يحمل القفاز الذي سقط منه على الأرض فيناوله إياه، والأطباء صمتوا احترامًا حين صار على مقربة منهم، وتنحّوا ليفسحوا له ممرًا. كان بطرس ينوي أن يجلس في مكان آخر حتى لا يضايق السيدة، وقد أراد أن يتناول القفاز من على الأرض بنفسه، وأن يجانب الأطباء الذين لم يكونوا عقبة في طريقه. ولكنه شعر فجأة بأن هذا كله لن يكون لائقًا، وأحس بأنه في هذه الليلة شخص عليه أن يقوم بطقس من الطقوس ينتظره منه الجميع، فعليه إذًا أن يقبل خدمات كل واحد. فأخذ قفازه من يدي الضابط، وجلس في المكان الذي أخلته له السيدة، واضعًا يديه الضخمتين على ركبتيه، جامدًا على وضع ساذج كأنه تمثال من تماثيل قدماء المصريين، وقرر بينه وبين نفسه أن هذا كله يجب أن يجري على هذا النحو، وأن عليه في هذا المساء ألا يتصرّف وفقًا لما يمليه عليه هواه، بل وفقًا لإرادة الذين يقودونه، حتى لا يتورط في ما لا يجوز أن يتورط فيه من حماقات.

وما كادت تنقضي دقيقتان حتى دخل الأمير فاسيلي إلى الغرفة رافعًا رأسه في أبّهة، مزدان الصدر بثلاثة أوسمة. كان يبدو عليه أنه قد نحل في هذا اليوم من الصباح إلى المساء. وكانت عيناه تبدوان أوسع من سعتهما المألوفة حين أجال بصره في الغرفة فرأى بطرس. وها هوذا يمضي إليه، فيتناول يده مصافحًا (وذلك ما لم يفعله قبل اليوم أبدًا)، ويهزّها هزًا قويًا كأنما هو يمتحن قوتها ومقاومتها. ويقول له:

- تشجّع تشجّع يا صديقي. لقد طلب أن يراك...

وأراد أن ينصرف. ولكن بطرس رأى أن عليه أن يسأله:

- كيف هي حالته...

ولكنه لم يكمل جملته، وأمسك عن الكلام مترددًا، فهو لا يدري هل يليق به أن يسمي المحتضر باسم الكونت؛ وكان من جهة أخرى لا يجرؤ أن يسميه «أباه».

فأجابه الأمير فاسيلي قائلًا:

- وافته ضربة جديدة منذ نصف ساعة. اعترته وعكة أخرى. تجمَّل بالشجاعة يا صديقي...

كان فكر بطرس قد بلغ من الاضطراب أنه فهم كلمة الضربة على الحقيقة لا على المجاز. فارتبك ارتباكًا شديدًا، واحتار حيرة قوية، ونظر إلى الأمير فاسيلي، ثم لم يفهم إلّا بعد ذلك أن المقصود بالضربة إنما هو الوعكة. وقال الأمير فاسيلي للطبيب لوران بضع كلمات عابرًا، واجتاز الباب إلى غرفة المحتضر سائرًا على رؤوس الأصابع؛ وكان لا يحسن السير على رؤوس الأصابع، فهو يتواثب تواثبًا أخرق بجسمه كله. وتبعته كبرى الأميرات، فالكهنة، فالقندلفت وصحبه، فالخدم. وقامت جلبة الوراء الباب؛ وأخيرًا خرجت آنا ميخائيلوفنا شاحبة اللون ولكنها رابطة الجأش ثابتة الجنان في القيام بالواجب، وأقبلت على بطرس راكضة، فأمسكت يده وقالت له:

- رحمة الله واسعة. الآن يبدأ الاحتفال بمنح الأسرار الأخيرة. تعال.

فاجتاز بطرس الباب إلى غرفة المحتضر، سائرًا على السجادة السميكة، ولاحظ أن الضابط والمرأة التي لا يعرفها وعددًا من الخدم قد تبعوه، كان الدخول إلى هذه الغرفة أصبح لا يحتاج الآن إلى إذن.

الفصل العشرُون

إن بطرس يعرف جيدًا هذه الغرفة الكبيرة التي تتوسّطها أعمدة وقنطرة فتشطرها شطرين، ويغطي السجاد الفارسي أرضها كلها. فأما الشطر الذي يقع الوراء الأعمدة، والذي يضم في إحدى جهتيه سريرًا عاليًا من خشب الأكاجو ذا ستائر من حرير، ويضم في جهته الأخرى خزانة كبيرة من الزجاج فيها أيقونات، فقد كان غارقًا في نور أحمر، كما تكون الكنائس عند إقامة صلاة المساء. وتحت الأيقونات التي كان تلبيسها يتلألأ في الضوء، كانت قد وضعت أريكة طويلة من طراز فولتير. وعلى هذه الأريكة التي زوِّد ظهرها بوسائد وجوهُها ناصعة البياض لم تتجعد بعد، فلا شك أنها بُدلت منذ قليل، وعلى هذه الأريكة كانت قد اضجعت القامة المهيبة الفخمة، مدثَّرة حتى الحزام بغطاء أخضر زاهٍ، وهي القامة التي يعرفها بطرس معرفة تامة، قامة أبيه، الكونت بيزوخوف، بعرفها الذي يشبه لبدة الأسد شعرًا رماديًا فوق الجبين العريض، وبغضونها الكبيرة، غضون النبالة الزاخرة بمضاء العزيمة وصلابة الإرادة، على وجه جميل يضرب إلى حمرة الآجرّ لونًا. كان راقدًا تحت الأيقونات تمامًا. وكانت يداه الكبيرتان الضخمتان ممتدتين على الغطاء. وقد وضعت بين الإبهام والسبّابة من يده اليمنى المبسوطة شمعة يمسكها خادم عجوز منحن على الأريكة. وحول الأريكة، كان الكهنة، بثيابهم الفخمة الزاهرة، وشعرهم الطويل المتدلِّي على الكتفين، يقومون بشعائر الاحتفال على مهل وفي مهابة، وقد أمسك كل منهم بيده شمعة. والوراءهم، على مسافة قريبة منهم، كانت تقف الأميرتان الصغريان وقد أخفت كل منهما عينيها بمنديل. وأمامهما كانت تقف الأميرة

الكبرى، ماتيش التي كان وجهها يعبِّر عن الشر والتصميم، وكان بصرها معلقًا بالأيقونات لا يتحوّل عنها لحظة، كأنما هي تريد أن تقول للجميع إنها إذا حدث أن التفتت في وقت من الأوقات فلن تكون مسؤولة عن نفسها. وكانت آنا ميخائيلوفنا التي ارتسم على وجهها حزن رقيق وعطف كبير واقفة بقرب الباب هي والسيدة المجهولة. وكان الأمير فاسيلي قد اتخذ له مكانًا أقرب إلى الأريكة في الجهة الأخرى من الباب، على كرسيّ مرصَّع منجّد بمخمل أدار إليه مسنده متكئًا عليه بيده اليسرى التي تحمل الشمعة، وأخذ يرسم إشارة الصليب باليد اليمنى رافعًا أصابعه إلى الجبهة. وكان وجهه يشعّ تقوى هادئة وإذعانًا لمشيئة الرب، وكأنه يقول: «إذا كنتم لا تفهمون هذه العواطف، فلكم ما تريدون!».

الوراءه كان يقف الضابط المرافق، والأطباء، وغيرهم من الذكور. كان الرجال والنساء قد افترقوا كما يفترقون في الكنيسة. وكان الجميع صامتين، وكانوا يرسمون إشارة الصليب. فلا يسمع المرء إلّا الترتيل الملحَّن في غناء مكظوم عميق يصدح به صوت جهير، وإلا ضجة الأقدام وتنهدات الصدور أثناء فواصل الغناء. وها هي ذي آنا ميخائيلوفنا تجتاز الغرفة من أولها إلى آخرها فتمد شمعة إلى بطرس، وقد بدا على وجهها ذلك التعبير الواضح من أنها تعرف ماذا تفعل. فأشعل بطرس الشمعة، وأخذ يرسم إشارة الصليب باليد التي تحمل الشمعة، ذاهلًا عن نفسه بملاحظة الحضور ورصد حركاتهم وسكناتهم.

كانت صغرى الأميرات، وهي صوفيا الضحوك المتورّدة التي تزينها شامة حسن، تنظر إلى بطرس. فابتسمت وأخفت وجهها بمنديلها، ولبثت على هذه الحال مدة لا تزيح عن وجهها المنديل. لكنها وقد نظرت إلى بطرس مرة أخرى أخذت تضحك. كان واضحًا أنها تشعر بالعجز عن رؤيته من دون أن تضحك، ولا تستطيع أن تمنع نفسها من النظر إليه؛ فمن أجل أن تهرب من هذه الغواية، مضت إلى أحد الأعمدة تلوذ به وتختفي الوراءه من دون أن تحدث أية ضجة. وفيما كان الكهنة يقومون بمراسم الاحتفال، إذا بأصواتهم تسكت على حين فجأة، وإذا هم يتبادلون بعض الكلام همسًا،

وإذا بالخادم الشيخ الذي كان يسند يد الكونت ينصب جذعه، ويلتفت إلى السيدات، فتتقدم آنا ميخائيلوفنا، وتميل على المريض، وتومئ من الوراء ظهرها للطبيب لوران مهيبة به أن يجيء. كان الطبيب الفرنسي مستندًا بظهره إلى عمود من الأعمدة، متّخذًا وضع المراعاة والاحترام الذي يتخذه أجنبي مشيرًا به إلى أنه رغم اختلاف ديانته عن ديانة القوم يدرك ما للشعائر التي يقومون بها من شأن وقيمة، بل هو يحبِّذها ويستحسنها، فها هو ذا يستجيب لنداء آنا ميخائيلوفنا الصامت، فيقترب من المريض بخطو لا صوت له، هو خطو رجل في عنفوان قوته، فيتناول بيديه البيضاوين النحيفتين يد المريض الطليقة المبسوطة على الغطاء الأخضر، ويجس نبضه ملتفتًا إلى جانب، مصطنعًا هيئة التفكير. وسقى المريض شرابًا ما، وانهمك الناس حوله، ثم عاد كل واحد إلى مكانه، واستؤنف الاحتفال. وقد لاحظ بطرس أثناء فترة الانقطاع هذه أن الأمير فاسيلي قام عن كرسيَّه، ولكنه بدلًا من أن يدنو من المريض، مرَّ أمامه وقد لاح في وجهه ذلك التعبير نفسه عن أنه يعرف ما يفعل، فإذا لم يفهم الآخرون ما يفعله فلهم شأنهم ومضى إلى كبرى الأميرات، ثم اتجها كلاهما إلى السرير العالي ذي الستائر الحريرية في آخر الغرفة، ثم خرجا من هناك من الباب الثاني، ولكنهما عادا إلى مكانَيْهما قبل انتهاء الاحتفال. إن بطرس لم يول هذا الأمر اهتمامًا ولا كان يولي غيره شيئًا من الاهتمام أيضًا، وكان قرر بينه وبين نفسه أن ما كان يحدث أمامه في ذلك المساء يجب أن يحدث على هذا النحو حتمًا.

وصمت الترتيل الملحَّن، وسُمع صوت كاهن يخاطب المريض بلهجة الاحترام مهنئًا إياه بتلقي الأسرار الأخيرة. وكان المريض لا يزال على سكونه وجموده. وكان كل شيء حوله يضطرب ويتحرك. وسُمع وقع خطى. وهمسات كان يعلوها صوت آنا ميخائيلوفنا جميعًا. وسمعها بطرس تقول:

- يجب نقله إلى سريره حتمًا، فلا يجوز أن يبقى هنا..

فأحاط الأطباء والأميرات والخدم بالمريض إحاطة بلغت من الكثافة أن بطرس أصبح لا يرى ذلك الرأس الضارب لونه إلى حمرة الآجر، المزدان

بعرف كلبدة الأسد، الذي لم يغب عن بصر بطرس لحظة واحدة طوال مدة الاحتفال، رغم أن بطرس كان ينظر إلى سائر الوجوه أيضًا. وحزر من رؤية الحركات المحاذرة التي يقوم بها أولئك الذين احتشدوا حول الأريكة أنهم ينهِضون المحتضر لينقلوه إلى سريره. وسمع أحد الخدم يقول مدمدمًا بلهجة مذعورة:

- استند إلى ذراعي، سوف يسقط منك.

وقالت أصوات أخرى ملحّة:

- من تحت... واحدًا آخر...

واشتد اللهاث وكثر وقع الخطوات على الأرض، كأن الحمل الذي ينقل يفوق ثقله طاقة الحاملين.

ومرَّ الحاملون، ومنهم آنا ميخائيلوفنا، أمام بطرس، فرأى من الوراء الظهور والأعناق، خلال لحظة، ذلك الصدر الممتلئ المكشوف، وذينك المنكبين القويين، منكبَي المريض الذي كان حاملوه يسندونه تحت الإبطين، ورأى ذلك الرأس الذي له عرف كلبدة الأسد، وشعر أبيض معقّف. إن دنو الموت لم يشوِّه هذا الرأس ذا الجبهة العريضة عرضًا كبيرًا، والوجنتين الواسعتين سعة عظيمة، والفم الشهواني والنظرة الباردة المهيبة الفخمة. إن رأس الكونت لا يختلف الآن عن الرأس الذي رآه له قبل ثلاثة أشهر، حين أرسله الكونت إلى بطرسبورغ. مع فارق هو أنه يرتج الآن من تعثر خطى الحاملين عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، ونظرته الباردة التي تنم عن قلة الاكتراث لا تستطيع الآن أن تتجه إلى شيء بعينه فتثبت عليه.

وقام هرج ومرج حول السرير خلال بضع لحظات، ثم انفضّ الحاملون وتفرّقوا. ولمست آنا ميخائيلوفنا ذراع بطرس وقالت له: «تعال». فتبعها بطرس إلى السرير الذي كان المريض قد أضجع فيه على وضع فيه أبهة تتّفق وجلال المراسم الدينية التي قام بها الكهنة. لقد مُدّد مستندًا برأسه عاليًا إلى عدد من الوسائد، ويداه مبسوطتين على الغطاء الحريري الأخضر. فلما دنا بطرس نظر إليه المريض وجهًا لوجه، ولكن نظرته كانت تلك النظرة التي لا يستطيع المرء أن يعرف معناها وأن يدرك دلالتها. فإما أن هذه النظرة لا

تريد أن تقول شيئًا على الإطلاق، إذ إن الإنسان ما دامت عيناه مفتوحتين فلا بد أن تنظرا إلى شيء من الأشياء، وإما أن تلك النظرة كانت مثقلة بالمعاني تريد أن تقول أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة. وقف بطرس وهو لا يعرف ماذا يجب أن يعمل، وألقى نظرة على دليلته آنا ميخائيلوفنا، فأومأت آنا ميخائيلوفنا بحركة سريعة من عينيها إلى يد المريض، ورسمت على شفتيها قبلة. فأدرك بطرس أنها تأمره بأن يقبِّل يد أبيه، فمدَّ عنقه طويلًا حتى لا يشتبك رأسه بالغطاء، وأطبق بشفتيه على اليد السمينة ذات العظام القوية يقبِّلها، ملبيًا طلب آنا ميخائيلوفنا. ولكن لا اليد تحركت أيسر تحرك، ولا اختلجت في الوجه أية عضلة. وألقى بطرس نظرة أخرى على آنا ميخائيلوفنا يسألها بعينيه عما يجب عليه أن يفعله. فدلَّته آنا ميخائيلوفنا بنظرة من عينيها على كرسي بقرب السرير طالبة منه أن يجلس عليه. فجلس بطرس على الكرسي طائعًا، مع بقائه شاخصًا ببصره إلى آنا ميخائيلوفنا يسألها هل فعل ما كان يجب عليه أن يفعله. ثم عاد يجلس جلسته الساذجة التي تذكّر بتماثيل قدماء المصريين، آسفًا أسفًا واضحًا لأن جسمه الضخم احتل مكانًا كبيرًا إلى هذا الحد، جاهدًا أقصى الجهد لجعل جسمه أصغر ما يمكن أن يكون. وكان ينظر إلى الكونت وكان الكونت ينظر إلى المكان الذي كان فيه وجه بطرس حين كان واقفًا قبل أن يجلس. وكان وجه آنا ميخائيلوفنا يعبِّر عن شعورها بما لهذه اللحظات الأخيرة التي يلتقي فيها الأب وابنه من شأن خطير. ودام ذلك دقيقتين أحسَّهما بطرس ساعة كاملة. وفجأة سرت رعشة في العضلات الضخمة والغضون من وجه الكونت. ثم اشتدت الرعشة، والتوى الفم الجميل (في تلك اللحظة إنما أدرك بطرس مدى دنو أبيه من الموت)، وأفلت من الفم الملتوي صوت أجش أبح لا يميز السامع فيه شيئًا. فهبَّت آنا ميخائيلوفنا تنظر إلى عيني المريض محاولة أن تحزر رغبته، فكانت تشير له إلى بطرس تارة، والى الالوراء تارة أخرى، والى الغطاء تارة ثالثة، حتى إنها سمَّت له الأمير فاسيلي بصوت خافت. فكانت عينا المريض وسحنته تعبِّر عن التململ والتبرّم. وبذل جهدًا من أجل أن ينظر إلى الخادم الذي يقف إلى جانب سريره ولا يبارحه لحظة، فدمدم الخادم يقول:

- صاحب السعادة يريد أن يُقلب على الجنب الآخر.

وقام الخادم ليقلب الجسم الثقيل إلى جهة الجدار. وقام بطرس يعاونه.

وفيما كان الكونت يقلب، إذا بإحدى ذراعيه ترتمي هامدة إلى الوراء، فيحاول الكونت جاهدًا أن يردَّها إليه فلا يفلح. ترى ألاحظ الكونت نظرة الذعر التي ألقاها بطرس على تلك الذراع التي فارقتها الحياة، أم إن فكرة أخرى قد برقت في ذهن المريض المحتضر؟ لا أحد يدري. ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن الكونت نظر إلى ذراعه المتمردة، ثم إلى الذعر الذي عبَّر عنه وجه بطرس، ثم إلى ذراعه مرة أخرى، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ألم ضعيفة لا تناسب قسمات وجهه، كأنما هو يسخر بها من عجزه. فما رأى بطرس هذه الابتسامة حتى أحس فجأة بطعنة في صدره، ونخز في أنفه، ثم ضربت الدموع غشاوة على عينيه فأظلم بصره. لقد وضع المريض على الجنب الآخر. وتنهّد.

قالت آنا ميخائيلوفنا وهي ترى إحدى الأميرات مقبلة عليها لتنهضها:

- لقد غفا. لنتركه.

وخرج بطرس.

الفصل الحادي والعشرون

لم يبقَ في صالون الاستقبال إلّا الأمير فاسيلي وكبرى الأميرات، وقد جلسا تحت صورة كاترين يتحدثان بحرارة ونشاط. فما إن رأيا بطرس ومرشدته حتى صمتا عن الكلام. ولاح لبطرس أن الأميرة كان بيدها شيء فأسرعت تخبئه.

وقالت الأميرة للأمير فاسيلي:

- لا أطيق أن أرى هذه المرأة.

فقال الأمير فاسيلي لآنا ميخائيلوفنا:

- إن كاتيش قد أمرت بتقديم شاي للحضور في الصالون الصغير، فاذهبي إلى هناك يا عزيزتي آنا ميخائيلوفنا، وأصيبي شيئًا من الشاي، وإلا فلن تقوي على الاحتمال.

ولم يقل الأمير فاسيلي شيئًا لبطرس، واكتفى بأن شدَّ على ذراعه تحت الكتف بتأثر قوي. ومضى بطرس وآنا ميخائيلوفنا إلى الصالون الصغير.

كان لوران يقول هناك باندفاع مكبوح وهو يشرب الشاي بفنجان من الخزف الصيني غير ذي مقبض:

- لا شيء يجدّد القوى كفنجان من هذا الشاي الروسي الفاخر بعد سهر ليلة كاملة.

كان لوران واقفًا في الصالون الصغير المدور أمام مائدة عليها فناجين شاي وأطباق حساء بارد. وقد احتشد حول المائدة جميع الذين قضوا ليلتهم في منزل الكونت بيزوخوف ليجدّدوا قواهم. إن بطرس يتذكّر هذا الصالون الصغير المدوَّر تذكرًا واضحًا بمراياه ومناضده. لقد كان بطرس، أثناء حفلات الرقص التي كانت تقام في قصر الكونت، يحب أن يلجأ إلى

هذا الصالون لجهله بالرقص، فيلاحظ هناك السيدات اللاتي يلبسن ثياب الرقص، ويرى أكتافهن العارية التي تسيل عليها جداول من ماس ولؤلؤ، حين يمرون بهذه الغرفة فينظرون إلى أنفسهن في المرايا التي تتلألأ من شدة الإضاءة، وتنعكس لهن فيها صور عدة. إن هذه الغرفة لا تكاد تضيئها الآن إلّا شمعتان. وفناجين الشاي وأطباق الحساء قد ألقيت في وسط ظلامها فوضى على واحدة من تلك المناضد. وأشتات من الناس بثياب النهار تتكلّم وتتهامس، دالّة بكل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها على أن أحدًا لم ينسَ ما يحدث الآن في غرفة النوم، وما سوف يحدث أيضًا.

أكل بطرس كثيرًا رغم أنه لم يكن به جوع شديد. وألقى على مرشدته نظرة سائلة، فرآها ترجع إلى صالة الاستقبال سائرة على رؤوس الأصابع، وكان الأمير فاسيلي وكبرى الأميرات قد بقيا هناك. فافترض بطرس أن هذا أيضًا أمر لا مفر منه. ومضى يتبع مرشدته بعد لحظة من تردد. كانت آنا ميخائيلوفنا واقفة أمام كبرى الأميرات، وكانت كلتاهما تتكلمان في آن واحد ودمدمة مضطربة.

قالت الأميرة الشابة التي كان واضحًا أنها الآن مضطربة كاضطرابها حين صفقت باب غرفتها غاضبة:

- اسمحي لي يا أميرة. أظن أنني أعرف ما يليق وما لا يليق.

فأجابتها آنا ميخائيلوفنا بلهجة ثابتة وهي تحجب عنها باب غرفة النوم، وتسدّ طريقها إليه:

- ولكن ألا ترين أيتها الأميرة العزيزة أن ذلك سوف يشقّ على عمي المسكين في هذه اللحظة التي يحتاج فيها إلى الراحة؟ وهل يجوز في مثل هذه اللحظات الحديث في أشياء أرضية بعد أن تأهبت روحه...

كان الأمير فاسيلي جالسًا في مقعد، وقد صالب ساقيه عاليتين. وكانت اهتزازات شديدة تحرّك خدّيه تحريكًا قويًا وقد خسفتا وازداد عرضهما في أسفل. ولكن لم يكن يبدو عليه أنه يولي الحديث الذي يجري بين السيدتين اهتمامًا كبيرًا. وقال مخاطبًا آنا ميخائيلوفنا:

- كفاك يا عزيزتي الطيبة آنا ميخائيلوفنا. دعي لكاتيش أن تتصرّف. إنك تعرفين مدى ما يحمله لها الكونت من حب.

وقالت الأميرة الشابة متّجهة بكلامها إلى الأمير فاسيلي، مظهرة المحفظة المرصعة التي كانت تمسكها بيدها:

- حتى إنني لا أعرف ما تضمّه هذه الورقة. ولكني أعلم أن الوصية الحقيقية موجودة في مكتبه، أما هذه فليست إلّا ورقة منسية..

وأرادت أن تلتف حول آنا ميخائيلوفنا لتصل إلى الباب، ولكن آنا ميخائيلوفنا سدت طريقها إليه بوثبة واحدة من جديد. وقالت وهي تقبض على محفظة الأوراق قبضًا يبلغ من القوة أنه أصبح واضحًا أنها لن تتخلى عنها:

- أعلم يا عزيزتي الأميرة الطيبة. لكنني أرجوك يا عزيزتي الأميرة، بل أضرع إليك أن ترحميه، أن تأخذك به شفقة. أتوسّل اليك!

صمتت الأميرة الشابة. واستمرّ الصراع على المحفظة. كان واضحًا أنها إذا فتحت فاها فسوف تقول أشياء تسوء آنا ميخائيلوفنا. وكانت آنا ميخائيلوفنا متشبّثة بالمحفظة تشبثًا قويًا، ولكن ذلك لم يفقد صوتها عذوبته ورقته. قالت منادية بطرس:

- بطرس، تعال إلى هنا يا صديقي!

ثم أضافت تسأل الأمير:

- أظن أن بطرس ليس غريبًا عن مجلس الأسرة، أليس كذلك يا أمير؟

فإذا بالأميرة الشابة تهتف فجأة بصوت بلغ من العلو أنه سمع في الصالون وأحدث ارتياعًا، فتقول:

- لماذا لا تقول شيئًا يا ابن عمي؟ لماذا تسكت حين يبيح أحد من الناس لنفسه أن يتدخل في أمورنا، وأن يُحدث فضائح على عتبة غرفة إنسان يحتضر؟

ثم دمدمت تقول لآنا ميخائيلوفنا حانقة ساخطة:

- متآمرة!

وشدّت المحفظة شدًّا بلغ من القوة أن آنا ميخائيلوفنا اضطرت أن تتقدّم إلى الأمام بضع خطوات وأن تمسك ذراع الأميرة الشابة حتى لا ترخي المحفظة.

فما كان من الأمير إلّا أن قام وقال بلهجة تعبّر عن الدهشة والتقريع:

- ما هذا السخف؟ اتركا المحفظة!

فأذعنت كاتيش لأمر الأمير وأرخت المحفظة وهي تقول:

- أنت أيضًا!

أما آنا ميخائيلوفنا فلم تطع وبقيت متمسكة بالمحفظة، فقال لها الأمير:

- أقول لك اتركيها. سآخذ كل شيء على عاتقي. سأمضي إليه بنفسي فأساله. إنني... حسبك هذا!

فاعترضت آنا ميخائيلوفنا قائلة:

- ولكن دع له لحظة من راحة بعد تناول السر المقدس الكبير، يا عزيزي الأمير.

ثم التفتت إلى بطرس وقالت تسأله:

- ما رأيك أنت يا بطرس!

كان بطرس قد اقترب منهم، وراح يتأمل في كثير من الدهشة وجه الأميرة الشابة الذي اهتاج اهتياجًا شديدًا وفقد كل احتشام، كما يتأمل خدَّيْ الأمير فاسيلي اللتين ترتعشان ارتعاشًا قويًّا.

فقال الأمير فاسيلي مهددًا آنا ميخائيلوفنا:

- تذكّري أنك ستكونين مسؤولة عن جميع النتائج. إنك لا تدركين ماذا تفعلين.

وصاحت الأميرة الشابة تقول وهي تهجم على آنا ميخائيلوفنا بغتة وتختطف من بين يديها المحفظة:

- امرأة دنيئة!

فخفض الأمير فاسيلي رأسه، وباعد ذراعيه معبرًا بذلك عن عجزه. وإنهم لفي هذا، إذا بذلك الباب، ذلك الباب الرهيب المخيف الذي طالما تأمله بطرس، والذي لم يفتح قبل الآن إلّا بكثير من المحاذرة والرفق، إذا هو يفتح بقوة شديدة حتى ليصدم الحائط فيحدث ضجة قوية، وإذا بصغرى الأميرات تخرج منه راكضة رافعة يديها إلى السماء، وتصيح قائلة لهم:

- ماذا تصنعون؟ أيفارق وتتركوني وحدي؟

فرمت كبرى الأميرات المحفظة. فبادرت ميخائيلوفنا تنحني إلى الأرض فتتناولها، ثم تدخل غرفة النوم مسرعة وهي تقبض على المحفظة

التي احتدم التنازع عليها. ولم يلبث الأمير فاسيلي والأميرة الشابة أن استردا وعيهما وثابا إلى رشدهما فتبعاها. ولم تنقضِ بضع دقائق حتى رجعت كبرى الأميرات شاحبة اللون، متيبسة الوجه، عاضة على شفتها السفلى. فلما رأت بطرس عبّرت قسماتها عن حقد لا سبيل إلى مغالبته، وقالت:

- نعم! ابتهج الآن! هذا ما كنت تتمنّاه!

وانفجرت تبكي ناحبة ناشجة، وأخفت وجهها بمنديلها، وولّت هاربة.

ورجع الأمير فاسيلي هو أيضًا، واتجه مترنح الجسم مهتز الخطو، إلى الديوان الذي كان يجلس عليه بطرس، فتهالك عليه مغطّيًا وجهه بيده. ولاحظ بطرس أنه كان أصفر اللون، وأن فكه الأسفل كان يضطرب ويرتجف كما يحدث للمرء حين تعتريه رعدة حمى.

قال وهو يمسك كوع بطرس:

- آه يا صديقي! ما أكثر الآثام التي نرتكبها! ما أكثر أنواع الخداع التي نسترسل فيها! وعلامَ هذا كله؟ لقد تجاوزت الستين من عمري يا صديقي... وإنني... كل شيء صائر إلى الموت، كل شيء!... الموت رهيب.

كان في صوت الأمير فاسيلي وهو يقول هذا الكلام صدق وانطلاق لم ير مثلهما فيه من قبل.

وطفق الأمير فاسيلي يبكي. وخرجت آنا ميخائيلوفنا من غرفة النوم آخر الخارجين فأقبلت على بطرس بخطوات بطيئة ساكتة، ونادته:

- بطرس!

فنظر إليها بطرس مستفهمًا. فطبعت على جبين الفتى قبلة وبلّلته بدموعها ولبثت صامتة لحظة. ثم قالت:

- فارق...

فشخص بطرس ببصره إليها من خلال نظّارتيه. فقالت له:

- هيا. سأوصلك. حاول أن تبكي. لا شيء يخفّف عن الإنسان كما تخفّف عنه الدموع.

وقادته إلى صالونٍ مظلم، فسرَّ من أن أحدًا لن يرى في هذا الصالون وجهه. وتركته آنا ميخائيلوفنا في الصالون المظلم، فلما رجعت كان قد غرق في نوم عميق، واضعًا رأسه فوق ذراعه.

وفي الغد قالت آنا ميخائيلوفنا لبطرس:

- نعم يا عزيزي، هذه خسارة كبرى لنا جميعًا. لست أقصدك أنت. فأنت سيسندك الله، وأنت شاب، وأصبحت تملك ثروة طائلة في ما آمل. إن الوصية لم تفضّ بعد. وأنا أعرفك معرفة كافية لأعلم أن هذا لن يذهب بصوابك، وإنما هو يفرض عليك واجبات، وينبغي لك أن تكون رجلًا.

وكان بطرس صامتًا. وتابعت آنا ميخائيلوفنا كلامها، فقالت:

- قد أحكي لك في المستقبل يا عزيزي ماذا كان يمكن أن يحدث لولا أني كنت أنا هنا. ولكنني أريد أن أذكر لك الآن أن عمّي قد وعدني أمس الأول بألا ينسى بوريس. ولكن الأجل لم يمهله ليوصي له بشيء. فآمل يا صديقي ألا تهمل تحقيق رغبة أبيك.

كان بطرس لا يفهم، وينظر إلى الأميرة آنا ميخائيلوفنا صامتًا وقد أحمرّ وجهه خجلًا. حتى إذا فرغت من كلامها رجعت إلى منزل آل روستوف ونامت. وحين استيقظت من نومها أطلعت آل روستوف وجميع من تعرفهم على تفاصيل عن موت الكونت بيزوخوف. وقالت إن الكونت مات كما تتمنّى أن تموت هي نفسها، وأن نهايته ليست مؤثّرة فحسب، وإنما هي درس وعبرة أيضًا، أما عن اللقاء الأخير الذي تم بين الأب وابنه فقد قالت عنه إنه يبلغ من قوة التأثير في النفس أنها لا تستطيع أن تتذكّره إلّا وتنسكب الدموع غزيرة من عينيها، وإنها لا تدري أيهما كان أحسن تصرفًا من الآخر في تلك اللحظات الرهيبة: أهو الأب الذي تذكّر الجميع وتذكّر كل شيء في لحظاته الأخيرة، أم هو بطرس الذي كان منظره يدمي القلب شفقة عليه من شدّة تأثّره، ولكنه حاول مع ذلك أن يخفي ألمه حتى لا يفاقم عذاب أبيه المحتضر. «منظر مؤلم، ولكنه مفيد. إنه لمما يسمو في نفس المرء أن يرى رجلًا مثل الكونت الشيخ، وابنه الوقور». كذلك قالت آنا ميخائيلوفنا. وتكلمت أيضًا في السر بصوت خافت عن الأفعال المشينة التي صدرت عن كبرى الأميرات والأمير فاسيلي.

الفصل الثاني والعشرون

في قرية ليسييه جوري[1]، التي يملكها الأمير نيقولا آندريفتش بولكونسكي، كان يُنتظر وصول الأمير أندريه والأميرة من يوم إلى آخر. ولكن الانتظار لم يشوش النظام الدقيق الصارم الذي يحكم الحياة في منزل الأمير الشيخ. إن الجنرال الرئيس، الأمير نيقولا آندريفتش، الملقّب «ملك بروسيا» قد ظل يعيش في قريته ليسييه جوري مع ابنته الأميرة ماري[2] ووصيفتها مدموازيل بوريان[3]، منذ أن نفي إلى أراضيه هذه في عهد بطرس الأول. ورغم أنه قد أجيز له دخول العاصمتين في العهد الجديد، فإنه لبث يحيا في الريف من دون أن يخطر بباله أن يغيب عنه في يوم من الأيام، قائلًا إنه إذا احتاج إليه أحد ففي وسعه أن يقطع إليه المائة والخمسين فرسخًا التي تفصل ليسييه جوري عن موسكو، وإنه من جهته ليس في حاجة إلى شيء ولا إلى أحد. وكان يقول إن الرذائل البشرية ليس لها إلّا منبعان: الفراغ والاعتقاد بالخرافات. وليس هناك إلّا فضيلتان: النشاط والذكاء. وكان يتولى بنفسه تربية ابنته، فمن أجل أن ينمّي فيها هاتين الفضيلتين الكبريين ظل يعطيها حتى العشرين من عمرها دروسًا في الجبر والهندسة،

---

(1) تعني كلمتا ليسييه جوري «الجبال الصلعاء»، وقد أحب المؤلف أن يطلق هذا الاسم مازحًا على قرية ياسنايا بوليانا، التي يملكها آل فولكونسكي.

(2) تعكس الأميرة ماري ملامح وصفات ماري فولكونسكي، أم المؤلف.

(3) يستوحي الكاتب شخصية الآنسة بوريان من شخصية الآنسة هينسيان، وصيفة أمه. أما بوريان فهو اسم سكرتيرة نابوليون.

مع استمراره في توزيع وقته على مشاغل لا تنقطع. كان يشغل نفسه دائمًا إما بكتابة مذكّراته، وإما بحل مسائل في الرياضيات العالية، وإما بخراطة علب تبغ، وإما بالعمل في البساتين والإشراف على المباني التي كانت تُشاد في أراضيه. ولما كان النظام هو الشرط الأول لكل نشاط، فقد جعل النظام في حياته يبلغ أقصى درجة من درجات الدقّة. فكان يجلس إلى المائدة في ظروف ثابتة لا تتغيّر، لا في ساعة معيّنة من الوقت بل في دقيقة معينة لا يستقدمها ولا يستأخرها. وكان الأمير شديد الخشونة دائم التشدد في معاملة بيئته التي تحيط به، من ابنته إلى الخدم، من دون أن يكون مع ذلك قاسيًا. ولكنه كان يوقظ في النفوس من الرهبة والاحترام ما لا يوقظه فيها أقسى القساة. ورغم أنه الآن مُحال على التقاعد وليس له أي نفوذ أو سلطان في شؤون الدولة، فقد كان كل حاكم جديد يأتي إلى المقاطعة التي تقع فيها أطيانه يرى أن من واجبه أن يجيء إليه فيعرّفه بنفسه، فإذا وصل للقيام بهذا الواجب أدخل إلى صالة الاستقبال العالية، ولبث ينتظر إلى أن يحين الوقت الذي يظهر فيه الأمير، شأنه في ذلك شان المهندس أو البستاني أو الأميرة ماريا. وكان كل واحد يشعر في هذه الصالة بذلك الشعور الواحد نفسه، أعني الاحترام وحتى الخشية، متى فُتح الباب الضخم العالي، باب مكتب الأمير، وطلع منه الشيخ بقامته الضئيلة وباروكته المرشوشة بالذرور، ويديه الصغيرتين اليابستين وحاجبيه الأبيضين المشعّثين اللذين إذا قطبهما حجبا بريق عينيه المتلألئتين الفتيتين الذكيتين.

في يوم وصول الزوجين الشابين، دخلت ماريا إلى صالة الاستقبال صباحًا على عادتها، في ساعة تحيات الصباح وهي ترسم إشارة الصليب وتشعر برهبة وخشية، وتردّد في ذهنها دعاء. لقد كانت تدخل صالة الاستقبال هذه كل يوم، وكل يوم كانت تتلو هذا الدعاء سائلة الله أن يمر هذا اللقاء اليومي بسلام.

الخادم العجوز المرشوش شعره بالذرور، قام من دون أن يحدث قيامه ضجة، وقال للأميرة مدمدمًا: «تفضلي ادخلي».

وكان يُسمع من الوراء الباب صوت مطرد منتظم هو صوت خراطة.

فشدت الأميرة الباب وجلة فانفتح الباب في رفق وبغير جهد، ووقفت على العتبة. كان الأمير عاكفًا على عمله في خراطة علبة للتبغ، فلما سمع فتح الباب التفت إلى الالوراء فألقى نظرة عجلى وعاد يتابع عمله.

كانت الحجرة الواسعة ملأى بأشياء يراها المرء فيدرك إدراكًا واضحًا أنها تُستعمل دائمًا: فالطاولة الكبيرة المثقلة بكتب ومخططات، وخزائن الكتب العالية، ذات الألواح الزجاج والمفاتيح المغمورة في أقفالها، والمنضدة المرتفعة التي يكتب عليها المرء واقفًا وفوقها دفتر مفتوح، والمخرطة وما حولها من أدوات شتى ونشارة منشورة، كل ذلك كان يدل على نشاط لا يهدأ، نشاط منوّع ومنظّم في آن واحد. وحركة القدم الصغيرة المنتعلة حذاء تتريًا مطرَّزًا بالفضة، والضغط الشديد الذي تقوم به اليد الجافة ذات العضلات، يكشفان لدى الأمير عن قوة صلبة أحسن الاحتفاظ بها في شيخوخة نضرة.

أدار الأمير العجلة عدة دورات، ثم رفع قدمه عن الدواسة، ومسح المقص، وألقاه في جيب من الجلد مثبت في المخرطة، ثم اقترب من الطاولة ونادى ابنته. إن الأمير لا يبارك أولاده أبدًا. وقد مد لابنته خده الذي لما يحلق شعره المنفوش بعد، واكتفى بأن قال لها بعد أن تفرّس فيها تفرسًا يشتمل على قسوة، ولكنه يشتمل في الوقت نفسه على اهتمام حنون:

- صحتك حسنة!... فاجلسي إذًا!

وتناول دفتر الهندسة المكتوب بخط يده، وقرّب مقعده بركلة من رجله، وقال وهو يقلب صفحات الدفتر بحركة سريعة ثم يشير بظفره القاسي إلى الصفحة التي يجب عليها أن تدرسها:

- هذا للغد!

فمالت الأميرة على الدفتر.

ولكن الشيخ لم يلبث أن قال فجأة وهو يستلّ من جيب مثبت على الطاولة ظرفًا موشى بخط نسوي، ويلقيه على الطاولة!

- انتظري. هذه رسالة لك.

فتخضَّب وجه الأميرة ببقع حمر حين رأت الرسالة، وأسرعت تتناولها وتنحني عليها.

سألها الأمير وهو يبتسم ابتسامة فاترة فيكشف عن أسنان صفر لا تزال قوية:

- من هيلوئيز؟

فأجابته الأميرة وهي تنظر نظرة خجلة، وتبتسم ابتسامة وجلة:

- نعم، من جوليا.

فقال الأمير بلهجة قاسية:

- سوف أمتنع عن قراءة رسالتين أخريين، ولكنني سأقرأ الثالثة. أخشى أن تكون رسائلكم سفاسف وترّهات. سأقرأ الثالثة.

فأجابته الأميرة مادة إليه الرسالة وقد اشتدّت حمرة وجهها:

- اقرأ هذه إن شئت يا أبي.

فصاح الأمير يقول مقتضبًا وهو يدفع عنه الرسالة، ويتكىء بكوعيه على الطاولة، ويجذب إليه الدفتر وأشكاله الهندسية:

- قلت سأقرأ الثالثة.

ثم بدأ الشيخ الدرس:

- والآن يا آنسة...

قال ذلك وهو يميل على الدفتر مقتربًا من ابنته اقترابًا شديدًا، واضعًا يده على مسند المقعد الذي تجلس فيه، فكانت الأميرة تحسّ بأنها محاطة من كل جهة برائحة التبغ وعفونة الشيخوخة التي تعرفها منذ مدة طويلة. ومضى الأمير الشيخ يكمل كلامه:

- ... الآن يا آنسة، هذان المثلثان متساويين: فالزاوية ب ج د، كما ترين...

نظرت الأميرة مرتاعة إلى عيني أبيها الملتمعتين بقربها، وغزت البقع الحمر وجهها. كان واضحًا أنها لا تفهم شيئًا، وأن الخوف سيمنعها من فهم الشروح التي سيقدّمها أبوها مهما تكن هذه الشروح واضحة. كان هذا المشهد يتكرّر كل يوم، سواء أكان الذنب في ذلك ذنب الأستاذ أم ذنب التلميذة، يضطرب بصر الأميرة فلا ترى شيئًا، ولا تسمع شيئًا، ولا تشعر بشيء سوى أن أباها القاسي قريب وجهه من وجهها كل القرب، ولا تحسّ

إلّا بأنفاسه ورائحته، ولا تفكر إلّا في الهروب من حجرته بأقصى سرعة ممكنة لتستطيع أن تفهم المسألة في غرفتها على مهل. وينفد صبر الشيخ فيدفع مقعده ثم يقربه محدثًا ضجة شديدة، ويحاول جاهدًا ألا يغضب، ولكنه ينتهي إلى الغضب والصياح في كل مرة تقريبًا، وربما ألقى بالدفتر إلى الأرض أيضًا.

أجابت الأميرة جوابًا خطأ.

فصرخ الأمير قائلًا وهو يدفع الدفتر، ويشيح عنها بحركة عنيفة:

- هل يمكن أن يكون أحد غبيًا إلى هذا الحد من الغباء؟

ولكنه لم يلبث أن قام، وخطا في الغرفة بضع خطوات، وعاد يلامس بيديه شعر الأميرة ويجلس بقربها، ويقول لها بينما هي تأخذ الدفتر مع واجبات الغد، متأهبة للمغادرة:

- لا يسير الأمر سيرًا حسنًا يا أميرة. إن الرياضيات شيء عظيم. لا أحب لك أن تكوني شبيهة بسيداتنا هؤلاء الحمقاوات التافهات. بالصبر الطويل لا بد أن تحبيها أخيرًا، فتخرج السخافات من رأسك.

قال الأمير لابنته ذلك، ولامس خدها ملاعبًا.

وأرادت الأميرة أن تنصرف، ولكنه استوقفها بإشارة من يده، وتناول من على المنضدة العالية كتابًا جديدًا لم يُقَصّ بعد، وقال لها:

- هذا كتاب بعثته إليك هيلوئيز، وعنوانه: «مفتاح السر». هو كتاب ديني. أنا لا أتدخّل في إيمان أحد من الناس... وقد قلبت صفحات الكتاب. خذيه والآن انصرفي.

قال الأمير الشيخ ذلك وهو يربت على كتف ابنته، ويغلق الباب بنفسه الوراءها.

رجعت الأميرة ماريا إلى غرفتها وفي هيئتها ذلك الحزن وذلك الارتياع اللذان لا يفارقانها إلّا نادرًا، ويزيدان دمامة وجهها الذي يشبه أن يكون وجه مريض، وليس فيه شيء من إغراء.

وجلست إلى مكتبها الذي تتراكم عليه أشتات من كتب ودفاتر وصور، فالأميرة تميل إلى الفوضى على قدر ميل أبيها إلى النظام الدقيق الصارم،

وألقت دفتر الهندسة جانبًا، وأسرعت تفض الرسالة نافدة الصبر. إن الرسالة آتية إليها من أعز صديقات طفولتها، من جوليا كاراجين تلك نفسها التي كانت عند آل روستوف يوم الحفلة.

وقد كتبت لها جوليا:

صديقتي الغالية الممتازة، إن الغياب شيء رهيب مريع! عبثًا أقول لنفسي إن نصف حياتي وسعادتي هو فيك، وإن قلبينا رغم المسافة التي تفصل بيننا متّحدان بروابط لا تنفصم. إن قلبي يثور على القدر، ولا أستطيع، رغم المسرات والتسليات التي تحيط بي، أن أتغلب على شيء من حزن دفين أحسه في قرارة قلبي منذ فراقنا. لماذا لا نكون مجتمعتين في غرفتك الكبيرة على الكنبة الزرقاء، كنبة المسارات كما اجتمعنا في الصيف؟ إذ لا أستطيع كما كنت أستطيع قبل ثلاثة أشهر أن أستمد قوى روحية جديدة من نظرتك العذبة الرقيقة، الهادئة الساجية، العميقة النافذة، تلك النظرة التي أحببتها كثيرًا، والتي أحسبني أراها وأنا أكتب إليك هذه الأسطر.

تنهّدت الأميرة ماريا حين بلغت هذه الفقرة من رسالة صديقتها، ونظرت في المرآة المعلقة بالحائط بين النافذتين على يمينها، فعكست لها المرآة صورة جسمها الهزيل القميء، ووجهها النحيل الدميم. إن عينيها اللتين لا يفارقهما الحزن تنظران الآن إلى المرآة وقد ازداد ما يعبر عنه وجهها من شجن وأسى. وقالت لنفسها وهي تتحوّل عن المرآة وتستأنف القراءة: «إنها تمدحني نفاقًا». ولكن الحق أن جوليا لم تكن تمدح صديقتها نفاقًا: إن عيني الأميرة الواسعتين العميقتين المضيئتين (حتى لكأنهما في بعض اللحظات تشعّان وترسلان حزمًا من نور دافئ) تبلغان من الجمال أنهما في كثير من الأحيان تضيفان على وجهها الدميم جاذبية لا يضفي مثلها الجمال نفسه. ولكن الأميرة لم يتفق لها أن رأت في عينيها هذا التعبير الذي لا يظهر فيهما إلّا حين لا تفكر في نفسها. ذلك أنها كانت، كسائر الناس، لا تنظر إلى نفسها في المرآة إلّا مصطنعة هيئة التجمل على غير إرادة منها، فكان ذلك نفسه يجعل وجهها دميمًا.

وتابعت الأميرة قراءة الرسالة:

موسكو كلها لا تتكلّم إلّا عن الحرب. أحد أخويَّ صار في الخارج، والثاني في الحرس الذي يتحرّك نحو الحدود. إمبراطورنا الغالي ترك بطرسبورغ، وينتوي هو نفسه، في ما يقال أن يعرّض حياته الثمينة لمخاطر الحرب. نسأل الله أن يتم سحق الشيطان الكورسيكي الذي هدم راحة أوروبا، على يد الملاك الذي شاءت رحمة الله العليّ الجبار أن يهبه لنا عاهلًا. ولقد حرمتني هذه الحرب، عدا أخويَّ، من صلة هي من أعز الصلات على قلبي، أقصد الشاب نيقولا روستوف الذي أبت عليه حماسته أن يطيق القعود عن المشاركة، فترك الجامعة ومضى يتجنّد في الجيش. فيا عزيزتي ماري، يجب أن أعترف لك بأن رحيله إلى الجيش قد أورثني حزنًا كبيرًا، رغم أنه صغير السن جدًّا. إن هذا الشاب الذي حدثتك عنه كثيرًا في الصيف يملك من النبالة والفتوة الحقّة ما لا يرى المرء مثله إلّا نادرًا في هذا العصر الذي نعيش فيه بين شيوخ في العشرين من أعمارهم. وهو يملك خاصّة من صراحة النفس ورقّة القلب ومن الصفاء والشاعرية ما جعل صلاتي به، مهما تكن عابرة، بهجة من أحلى مباهج قلبي المسكين الذي طالما عانى من ألوان العذاب. آه يا صديقتي، أنت سعيدة، لأنك لا تعرفين هذه المسرات وهذه الآلام الكاوية! أنت سعيدة لأن الآلام هي الأقوى في العادة. إنني أعرف حق المعرفة أن الكونت نيقولا أصغر سنًا من أن يستطيع في يوم من الأيام أن يكون لي أكثر من صديق. ولكن هذه الصداقة العذبة، وهذه العلاقات الشعرية النقية كانت لتلبي حاجة ماسّة ملحّة. ولكن دعيني من الكلام عن هذا الآن. إن النبأ الكبير الذي يشغل اليوم موسكو كلها هو وفاة الكونت بيزوخوف الشيخ، وميراثه. تصوّري أن الأميرات الثلاث لم يرثن إلّا قدرًا يسيرًا من الثروة، والأمير فاسيلي لم يرث شيئًا البتة، فالسيد بطرس هو الذي ورث كل شيء. وفوق ذلك قد اعترف به ابنًا شرعيًا، فأصبح اسمه الكونت بيزوخوف، وأصبح مالكًا لأكبر ثروة في روسيا. ويقال إن الأمير فاسيلي قد لعب دورًا دنيئًا في هذه القصة كلها، ورجع إلى بطرسبورغ مذهولًا مشدوهًا.

أعترف لك بأن حظي من المعرفة في هذه الشؤون التي تتّصل بالميراث

والوصية حظ ضئيل جدًّا. ولكن الشيء الذي أعلمه هو أن الشاب الذي كنا نعرفه جميعًا باسم السيد بطرس فحسب، أصبح اسمه الكونت بيزوخوف. ومنذ أن أصبح يملك واحدة من أكبر الثروات في روسيا، صرت أتسلّى أنا كثيرًا في ملاحظة تغيّر الأمهات اللواتي يرهقهن أمر تزويج بناتهن، وتغيّر الآنسات أنفسهن لهجة وسلوكًا في معاملة هذا الشخص الذي ما عددته في يوم من الأيام إلّا فتى مسكينًا (أقول هذا مستطردة). ولما كان الناس يتسلّون منذ سنتين بجعلي خطيبة لأشخاص لا أعرفهم في أكثر الأحيان، فإن أخبار الزواج في موسكو تسميني الآن باسم الكونتيسة بيزوخوف. ولكن لا شك أنك تقدّرين أنني لا يهمني البتة أن أصبح كذلك. وبمناسبة الحديث عن الزواج، هل تعلمين أن «عمة الكل»، آنا ميخائيلوفنا قد حدثتني بأمر قالت إنه سر مكتوم، وهو مشروع زواج لك. إنه آناتول، ابن الأمير فاسيلي لا أكثر ولا أقل، يريدون أن يعقلوه بتزويجه من فتاة غنية مرموقة. لا أدري ما عسى يكون رأيك في الأمر. ولكنني رأيت من واجبي أن أعلمك. يقال إن الشاب جميل جدًّا، فاسد جدًّا. هذا كل ما استطعت أن أعرفه عنه.

ولكن حسبي هذا ثرثرة. لقد ملأت ورقتي الثانية كتابة، وأمي تستدعيني لنذهب إلى العشاء عند آل آبراسكين. اقرئي هذا الكتاب الصوفي الذي أرسله إليك، والذي ذاع عندنا ذيوعًا كبيرًا. إن هذا الكتاب رغم ما يشتمل عليه من أمور يصعب على عقلنا البشري أن يفهمها، كتاب رائع، تهدّئ قراءته النفس وتسمو بها. استودعك الله. احترامي للسيد أبيك، وتحيتي للآنسة بوريان. أقبلك وأحبك.

جوليا

حاشية: وافيني بأنباء عن أخيك وزوجته اللطيفة الرائعة.

فكّرت الأميرة، وابتسمت شاردة الذهن، فإذا بوجهها الذي أضاءه إشعاع عينيها يتبدّل تبدلًا كبيرًا، ثم إذا هي تنهض فجأة، فتسير إلى مكتبها بخطو ثقيل، وتتناول ورقًا، وتأخذ يدها تجري بالقلم على الورق سريعة، فتجيب صديقتها بالرسالة التالية:

صديقتي العزيزة الممتازة. إن رسالتك التي كتبتها لي في اليوم الثالث عشر من هذا الشهر قد أفرحتني فرحًا عظيمًا. أنت إذًا لا تزالين تحبينني يا عزيزتي جوليا الشاعرية، ولم يستطع الغياب، أن يُحدِث في نفسك ما يُحدِثه في النفوس عادة من تأثير؟ إنك تشكين من الغياب، فماذا يجب أن أقول أنا - إذا تجرّأت فشكوت - أنا المحرومة من جميع الأعزة في قلبي؟ آه... لولا أن لنا الدين يعزينا، إذًا لكانت الحياة حزينة جدًا. لماذا تتصورين لي نظرة قاسية وأنت تكلمينني عن العاطفة التي تحملينها للشاب؟ ما أنا من هذه الناحية بالمتصلبة المتجمّدة. إنني أفهم هذه العواطف التي يحسّها الآخرون، وإذا كنت لا أستطيع أن أشيد بها لأنني ما أحسستها في يوم من الأيام، فإنني لا أدينها. ولكن يبدو لي أن الحب المسيحي، حب الإنسان لأخيه الإنسان، حب الإنسان لأعدائه، أولى بالاعتبار والتمجيد، وأكثر عذوبة وأعظم جمالًا من العواطف التي يمكن أن يوقظها جمال عينيّ شاب في نفس فتاة شاعرية محبة مثلك.

لقد بلغنا نبأ موت الكونت بيزوخوف قبل وصول رسالتك، وتأثر أبي بهذا النبأ تأثرًا شديدًا، وقال إن الراحل - رحمه الله - هو ثاني اثنين من ممثلي العصر العظيم، وقد جاء الآن دوره هو، ولكنه سيبذل قصارى جهده حتى لا يأتي دوره إلّا متأخرًا أكبر تأخر ممكن. أسال الله أن يحفظنا من مصيبة رهيبة كهذه المصيبة! لا أستطيع أن أشاطرك رأيك في بطرس الذي عرفته طفلًا. لقد رأيت دائمًا أن له قلبًا ممتازًا رائعًا، وهذه هي الخصلة التي أقدرها في الناس فوق كل خصلة أخرى. أما ميراثه والدور الذي لعبه الأمير فاسيلي فيه، فشيء يثير الحزن عليهما كليهما. آه يا صديقتي العزيزة، إن قول مخلّصنا الرب بأن دخول الجمل في سم الخياط أسهل من دخول غني إلى ملكوت الله لهو قول صادق صدقًا رهيبًا. إنني أرثي لحال الأمير فاسيلي، ولكنني أرثي لحال بطرس مزيدًا من الرثاء. ما أكثر الإغراءات والغوايات التي سيتعرض لها ويُمتحن بها وهو شاب يملك هذه الثروة الطائلة؟ لو سُئلت ماذا أتمنى لنفسي أكثر من أي شيء في هذا العالم، لقلت: أن أكون أفقر من أفقر الشحاذين.

ألف شكر لك يا صديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلته إليّ، والذي ذاع عندكم ذيوعًا كبيرًا. ومع ذلك، ما دمت تقولين إنه يشتمل، إلى جانب الأشياء الحسنة الكثيرة، وعلى أشياء أخرى لا يبلغها العقل الإنساني الضعيف، فأنا أرى أنه لا فائدة من العناية بقراءة تعزّ على الفهم فلا يجني منها المرء لذلك أية ثمرة. إنني لم أستطع أن أفهم في يوم من الأيام كيف يستبد ببعض الناس هذا الهوى الجارف الذي يدفعهم إلى إرباك عقولهم بالتعلق بكتب صوفية لا توقظ في نفوسهم إلّا الشكوك ثم هي تلهب خيالهم وتخلق فيهم صفة المبالغة التي تنافي البساطة المسيحية كل المنافاة. فلنقرأ كتب الحواريين والإنجيل. ولا نحاولن أن ننفذ إلى ما تضمّه هذه الكتب من سر، وإلا فكيف نجرؤ، نحن الآثمين الأشقياء، أن نتطلع إلى معرفة الأسرار الرهيبة المقدسة، أسرار العناية الإلهية، ما دمنا نحمل هذا الجثمان الذي يقيم بيننا وبينها حجابًا لا يستطيع البصر أن يتجاوزه؟ فلنكتفي إذًا بدرس المبادئ السامية التي تركها لنا مخلصنا الرباني لنتبعها في هذه الحياة الدنيا، ولنحاول أن نلتزم بها وأن نجعل سلوكنا مطابقًا لها، ولنقنع أنفسنا بأنه كلما لجمنا عقلنا الإنساني الضعيف عن الاندفاع كان ذلك أدعى إلى رضى الرب الذي يرفض كل علم غير صادر عنه، وأننا كلما قللنا محاولة التعمّق في ما شاءت إرادته أن تخفيه عنا، وهب لنا القدرة على اكتشافه بفكره الرباني.

لم يكلمني أبي عن خطيب. ولكنه قال لي إنه تلقى رسالة وإنه ينتظر زيارة الأمير فاسيلي. أما عن مشروع الزواج الذي يتعلّق بي، فإنني أقول لك يا صديقتي العزيزة الممتازة إن الزواج في رأيي نظام إلهي يجب على الإنسان أن يلتزم به. فإذا فرض عليَّ الله، الكلي القدرة، أن أنهض بأعباء زوجة وأم، فإنني، وإن يكن ذلك يحزّ في نفسي، سوف أحاول أن أقوم بهذه الواجبات وفية لها أمينة عليها بمقدار ما أستطيع، لا تهمني معرفة عواطفي نحو الشخص الذي سيجعله الرب زوجًا لي.

تلقيت رسالة من أخي يعلمني فيها أنه واصل إلى ليسييه جوري مع امرأته. سوف يكون في هذا فرصة قصيرة لنا، لأنه يتركنا للمشاركة في

هذه الحرب الشقية التي نجر إليها جرًّا لا يدري إلّا الله كيف ولماذا! إن أحاديث الناس تدور كلها على الحرب لا عندكم في مركز الأعمال المالية والمجتمع الراقي فحسب، فهنا أيضًا، وسط شغل الحقول وهدوء الطبيعة اللذين يتصورهما سكان المدن عن الريف تصورًا، يسمع الناس أحاديث الحرب ويحسونها إحساسًا أليمًا. إن أبي لا يتكلم إلّا عن زحف وتراجع، وكَرٍّ وفَرّ، وهي أمور لا أفهم منها شيئًا. وفي أمس الأول، بينا كنت أقوم بنزهتي المعتادة في شارع القرية رأيت بعيني مشهدًا يمزّق القلب، قافلة من الرجال جُنّدوا عندنا، وأُرسلوا إلى الجيش... يجب على المرء أن يرى حالة أمهات الرجال الراحلين، وحالة زوجاتهم وأولادهم، وأن يسمع هؤلاء وأولئك باكين منتحبين. لكأن الإنسانية نسيت قوانين مخلّصها الرباني الذي دعا إلى المحبة وبشّر بالعفو عن الإساءة، ولكأنها تعد فَنّ قتل البشر بعضهم بعضًا أعظم ميزة وأكبر تفوق.

استودعك الله يا صديقتي العزيزة الطيبة، وأسأل مخلّصنا الرباني وأمه العذراء القدسية أن يظللاك برعايتهما العظيمة المقدسة.

ماري

قالت مدموازيل بوريان البسامة، لاثغة بالراء، مرنّمة صوتها العذب، حاملة إلى الجو الثقيل الحزين الكالح الذي يجثم على صدر الأميرة ماريا عالمًا آخر مختلفًا كل الاختلاف، عالمًا فيه فرح ومرح، وخفة وطيش، وغرور واكتفاء:

- آ... ترسلين بريدك يا أميرة؟ أما أنا فقد أرسلت بريدي وانتهيت. كتبت إلى أمي المسكينة.

ثم أضافت بصوت خافت:

- أميرة. يجب أن أبلغك أن الأمير قد قامت - بينه وبين ميشيل إيفانوف[1] مشاجرة.

(1) هو المهندس المعمار في هذه الأراضي، وسيرد اسمه في ما بعد ميشيل ايفانوفتش.

قالت ذلك لاثغة براء «المشاجرة» لثغًا قويًا متلذّذة بسماع نفسها. وأردفت تكمل كلامها فقالت:

- ... فالأمير معتكر المزاج جدًّا، متجهّم الهيئة كثيرًا... فكوني حذرة...

أجابتها الأميرة ماريا بقولها:

- آه يا صديقتي العزيزة. ألم أتوسل إليك ألا تذكري لي شيئًا عن حالة مزاج أبي. إنني لا أبيح لنفسي أن أحكم عليه وأن أقضي فيه برأي، ولا أحب أن يفعل أحد ذلك.

وألقت الأميرة نظرة سريعة على ساعة الحائط، فلما رأت أنها متأخرة خمس دقائق عن الوقت الذي يجب أن تعزف فيه على البيانو قامت تمضي إلى الصالون مسرعة مرتاعة. فبين الساعة الثانية عشرة ظهرًا والثانية بعد الظهر، وفقًا للبرنامج المرسوم، يستريح الأمير في غرفته، وتعزف الأميرة على البيانو.

الفصل الثالث والعشرون

الخادم الشائب ألمَّ به نعاس فغفا على كرسيه مع استمراره في الإصاخة بسمعه إلى شخير الأمير النائم في مكتبه الواسع. ومن الطرف الآخر في المنزل تصل إليه، عبر الأبواب المغلقة، أصوات الأجزاء الصعبة من سوناتة دوسيك[1]، تكرر الأميرة عزفها عشرين مرة.

وفي ذلك الوقت كانت تقف أمام درج الباب مركبة وعربة صغيرة، فينزل الأمير أندريه من المركبة، ويساعد امرأته اللطيفة في النزول، ثم يسير الوراءها. فقام تيخون العجوز وأطلع من باب حجرة المدخل رأسه المغطى بباروكة، وأبلغ القادمين مدمدمًا أن الأمير نائم، وعاد يغلق الباب بسرعة. كان تيخون يعلم أنه لا وصول ابن الأمير ولا وقوع أي حادث خارق يوجب تشويش النظام اليومي المتَّبَع. وكان واضحًا أن الأمير أندريه يعلم هذا كما يعلمه تيخون. فنظر في ساعته كمن يريد أن يتثبت من أن عادات أبيه لم يطرأ عليها تبدل منذ أن رآه آخر مرة، فلما تحقّق من أن هذه العادات باقية على حالها، التفت إلى امرأته، وقال لها:

- سيقوم بعد عشرين دقيقة. فلنذهب الآن إلى الأميرة ماريا.

قالت ليزا لزوجها وهي تجيل بصرها حول المنزل، ويعبّر وجهها عما يعبّر عنه وجه ضيف حين يريد أن يمدح رب المنزل الذي دعاه إلى حفلة رقص:

- هذا قصر!

وأضافت قائلة:

---

(1) يوهان دوسيك، موسيقي تشيكي (1761 - 1812)، راجت مؤلفاته في ذلك الزمان.

- هيا بنا! أسرع! أسرع!

وفيما هي تنظر حولها ابتسمت لتيخون، ولزوجها، وللخادم الذي قادهما.

وسمعت صوت الموسيقى فقالت:

- أهذه ماري تتمرّن؟ فلنسر إذًا سيرًا هادئًا رقيقًا، فنفاجئها مفاجأة.

وسارت، فكان الأمير أندريه يتبعها مهذّبًا مؤدّبًا، وقد لاح في وجهه حزن.

وقال للشيخ الذي انكبَّ يقبل يده:

- دبت إليك الشيخوخة يا تيخون.

وقبل أن يبلغا الغرفة التي كانت تصدر منها أصوات البيانو، انبجست الفرنسية الحلوة الشقراء من باب في جانب، فكان يبدو عليها حين رأتهما أنها جُنّت فرحًا. إنها الفرنسية الحلوة الشقراء، مدموازيل بوريان. قالت:

- يا لها من سعادة كبيرة للأميرة، أخيرًا وصلتما، يجب أن أبلغها.

فقالت لها الأميرة وهي تقبّلها:

- لا، لا، أرجوك! أنت مدموازيل بوريان! أعرفك من الصداقة التي تحملها لك أخت زوجي. إنها لا تنتظرنا! واقتربا من باب الصالون الذي لا تزال تصدر عنه نغمات ذلك الجزء الصعب نفسه من السوناتة متكررة مرة بعد مرة بعد مرة. ووقف الأمير أندريه مقطّبًا حاجبيه كمن يتوقع شيئًا مزعجًا.

ودخلت الأميرة فانقطع العزف في منتصفه، وسمعت صيحة تنطلق من صدر الأميرة ماريا، وسُمع وقع خطاها الثقيلة، وصوت القبلات.

وحين دخل الأمير أندريه كانت الأميرتان اللتان لم تلتقيا من قبل إلّا لقاء قصيرًا واحدًا يوم الزواج، قد طوّقت كل منهما الأخرى بذراعيها، وتتبادلان القبل. وكانت مدموازيل بوريان واقفة إلى جانب، واضعة يدها على قلبها، مبتسمة في خشوع، إذا رآها راءٍ لم يعرف أهي تهم أن تبكي أم هي تهم أن تضحك. وقطب الأمير أندريه حاجبيه، كما يفعل هواة الموسيقى حين يسمعون لحنًا نشازًا. وأرخت المرأتان أخيرًا أذرعهما. ولكن لم تلبث كل منهما أن أمسكت يدي الأخرى محاولة أن تقبلهما قبل أن تفوّت الفرصة، فلما عارضت كل منهما أن تقبل الأخرى يديها، عادتا تتبادلان القبل على

الوجنات من جديد، ثم إذا هما تجهشان باكيتين، وذلك ما لم يكن يخطر ببال الأمير أندريه أن يقع، ثم تعودان إلى تبادل القبل. وأخذت مدموازيل بوريان تبكي هي أيضًا. وكان واضحًا أن الأمير أندريه قد ضاق ذرعًا بهذا المنظر. ولكنّ المرأتين كانتا تعدان بكاءهما أمرًا طبيعيًّا جدًّا، حتى لكأنهما لا تتصوران أن يتم اللقاء بينهما على غير هذه الصورة.

- آه... عزيزتي!... آه! ماري!...

كذلك قالتا فجأة، وانفرجتا تضحكان.

- حلمت الليلة أن...

- أكنت لا تتوقعين أن... آه ماري... أرى أنك نحلت...

- وأنت استرددت...

وانبرت مدموازيل لوريان تقحم نفسها في الحديث فقالت:

- تعرّفت الأميرة فورًا.

قالت ماريا:

- لم أكن أتصوّر...

ثم صاحت تقول وقد رأت أخاها:

- آه... أندريه! لا تؤاخذني! ما رأيتك!...

فقبل الأمير أندريه أخته وقد تماسكت يداهما، وقال لها إنها لا تزال بكّاءة على عهده بها. وشخصت الأميرة ماريا ببصرها إلى وجه أخيها من خلال الدموع، فكانت نظرتها زاخرة بالعاطفة مفعمة بالحرارة والعذوبة، وكانت عيناها الواسعتين تشعّان، وكانتا في تلك اللحظة رائعتين.

وأخذت الأميرة ليزا تتكلّم بغير انقطاع. فكانت شفتها العليا القصيرة التي يظللها زغب ما تنفك تعلو وتنخفض ملامسة شفتها السفلى القرمزية، وعاد الابتسام يشعّ من أسنانها وعينيها جميعًا. روت الأميرة ليزا الحادث الذي وقع لهما في جبل سباك فتعرضت في مجلسها للخطر. ثم ذكرت أنها تركت جميع فساتينها في بطرسبورغ، وأنها ستلبس هنا ما لا يعلمه إلّا الله، وأن أندريه قد تغيّر تغيّرًا كبيرًا، وأن كيتي أودنتزوف قد تزوّجت شيخًا طاعنًا في السن، وأنهم عثروا للأميرة ماريا على خطيب، ولكنهم سيتحدّثون في هذا الأمر من بعد.

كانت الأميرة ماريا لا تزال تنظر إلى أخيها صامتة، وكانت عيناها الجميلتان تفيضان حبًا وحزنًا. كان واضحًا لمن يراها أن فكرها قد شرد في مجرى آخر من الأفكار لا علاقة له بما كانت تقوله زوجة أخيها. وفيما كانت هذه تصف الحفلة الأخيرة التي شهدتها في بطرسبورغ التفتت ماريا إلى أخيها، وقالت تسأله متنهدة:

- أأنت مصر على الذهاب إلى الحرب؟

فتنهدت ليزا أيضًا. وأجاب الأخ أخته قائلًا:

- من الغد.

وقالت ليزا:

- يتركني هنا لا يعلم إلّا الله لماذا، على حين أنه يمكن أن يحصل على ترقية إذا هو...

لكن الأميرة ماريا لم تتح لها أن تكمل جملتها، وقالت تسألها متابعة مجرى خواطرها وأفكارها، مشيرة لها إلى بطنها بنظرة فيها عاطفة:

- مؤكّد؟

فتغيّر وجه الأميرة ليزا وتنهدت، ثم قالت:

- نعم، مؤكّد. آه... شيء رهيب!

وانخفضت شفتها العليا الجميلة، وقرَّبت وجهها من وجه أخت زوجها، وطفقت تبكي على غير توقع. فقال الأمير وهو يقطب حاجبيه:

- إنها في حاجة إلى راحة. أليس كذلك يا ليزا! اصطحبيها إلى غرفتك يا ماريا، وسأذهب أنا إلى أبينا. كيف حاله الآن؟ ألا يزال كما كان؟

فأجابت الأميرة ماريا بلهجة مرحة:

- كما كان. لا أدري على أية حال ستجده الآن.

فسألها الأمير أندريه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة تدل على أنه رغم ما يحمله لأبيه من محبة واحترام، يعرف نقاط الضعف فيه، قال:

- المواقيت الدقيقة نفسها؟ والنزهات نفسها في الممرات بين الأشجار والعمل نفسه على المخرطة!

- نعم، المواقيت نفسها، والعمل على المخرطة نفسها، إضافة إلى الرياضيات وإلى دروس الهندسة.

قالت الأميرة ماريا كلامها فرحة، كأن دروس الهندسة هذه هي إحدى كبرى مسرّاتها في حياتها.

وحين انقضت عشرون دقيقة، أي حين استيقظ الأمير من نومه، جاء تيخون يبلغ الأمير الشاب أن أباه يدعوه إليه. لقد أخلَّ الأب الشيخ بنظامه تكريمًا لوصول ابنه، فأمر بإدخاله عليه في جناحه أثناء ارتدائه ثيابه تهيؤًا للغداء. وكان الأمير الشيخ لا يزال يتخذ القفطان زيًا له، وكان يزيّن شعره بالذرور على ما كان يفعله أبناء الجيل الماضي. فلما دخل عليه الأمير أندريه في حجرة زينته (لا متجهم الوجه متصنع الحركات كما يفعل حين يدخل الصالونات، بل منتعش الهيئة كما يكون حين يتحدّث مع بطرس)، كان الشيخ جالسًا في مقعد عريض منجّد بالجلد، عاهدًا برأسه إلى يدي تيخون الذي يمشط له شعره.

قال الشيخ وهو يهز رأسه، المرشوش بالذرور، بمقدار ما تتيح له الضفيرة التي كان يجدلها تيخون أن يهزّه:

- آ... مرحبًا بالمحارب! تريد أن تغلب نابليون! عليك إذًا به أنت وغيرك، وإلا أدرجنا قريبًا في عداد رعاياه.

كذلك رحَّب الأمير الشيخ بابنه، ومد إليه وجنته ليقبِّلها.

كان الشيخ رائق المزاج بعد نومه الذي يسبق الغداء. (من مأثور كلامه أن النوم بعد الغداء فضة، وقبل الغداء ذهب). وأجرى على ابنه نظرة فرحة من تحت حاجبيه الكثيفين البارزين.

اقترب الأمير أندريه من أبيه، وقبَّله في الوضع الذي حدده له، ولكنه لم يلتقط الموضوع الأثير لدى أبيه، وهو ذم عسكريي المدرسة الجديدة، وذم بونابرت خاصة.

قال الأمير أندريه وهو يتابع ببصره الممتلئ نشاطًا واحترامًا كل حركة من حركات هيئة أبيه:

- ها أنا أجيئكم بامرأة حامل. كيف صحتك!

فأجابه الأب قائلًا:

- لا يمرض إلّا الأغبياء والدعَّار. وأنت تعرفني. فأنا رجلٌ زاهد، يعمل من الصباح إلى المساء. لذلك صحتي جيدة.

قال الابن متسمًا:

- الحمد لله.

- لا شأن لك بهذا.

قال الأمير الشيخ ذلك، وأردف يقول عائدًا إلى هوسه الثابت:

- هيه! قل لي كيف علمكم الألمان أن تقاتلوا بونابرت وفقًا لعلمكم الحديث الذي يسمّى الإستراتيجية.

قال الأمير أندريه وهو يبتسم ابتسامة زاخرة بالمحبة تدل على أن عيوب الشيخ لا تمنعه من احترامه:

- دع لي أن أتنفس يا أبي. لقد وصلت للتوّ ومعي زوجتي!

صاح الأمير يقول وهو يهز ضفيرته ليتثبّت من متانتها ويمسك ذراع ابنه:

- سخافات! سخافات! إن شقة امرأتك مهيأة. وسوف تقودها الأميرة ماريا إليها، وتريها إياها، وسوف تثرثر معها إلى غير نهاية. النساء لا تجيد إلّا هذا. إنني مسرور بسكناها معنا. اجلس وحدثني. في ما يتعلق بجيش ميكلسون، أفهم. وفي ما يتعلّق بجيش تولستوي أيضًا[1]... إنزال في آن واحد، ولكن ماذا عن جيش الجنوب؟ ما الذي سيفعله جيش الجنوب؟ بروسيا ستبقى محايدة طبعًا... أعلم هذا. والنمسا؟

قال الأمير الشيخ ذلك وقام عن مقعده وأخذ يتجوّل في الغرفة يتبعه تيخون مادًّا إليه ثيابه. وهو يتابع كلامه:

- والسويد؟ كيف يتم اجتياز بوميرانيا؟

فلم يسع الأمير أندريه، تجاه إلحاح أبيه، إلّا أن يشرع في عرض خطة الحملة التي يُنتوى القيام بها، وقد أخذ الأمير أندريه يشرح هذه الخطة على كره منه في البداية، ولكنه أخذ يتحمس شيئًا فشيئًا، وانتقل من الكلام بالروسية إلى الكلام بالفرنسية من دون أن يقصد ذلك. فقال إن جيشًا مؤلفًا

(1) كان الجنرال الشيخ ايفان ميكلسون (1740 - 1807) يقود جيشًا في بروسيا سنة 1805، وكان الجنرال بطرس آ. تولستوي (1769 - 1844)، وهو ابن عم جد الكاتب يقود جيشًا آخر في ألمانيا الشمالية. وقد كان سفيرًا لروسيا في باريس من سنة 1807 إلى سنة 1808..

من تسعين ألف رجل سيهدد بروسيا لإخراجها من حيادها وجرها إلى الحرب، وإن جزءًا من هذا الجيش سوف ينضم إلى الجيش السويدي في سترالسوند[1]، وإن مائتين وعشرين ألفًا من النمسويين سينزلون في نابولي مع مائة ألف من الروس سيقاتلون في إيطاليا وعلى نهر الراين، وإن خمسين ألف إنجليزي سينزلون في نابولي، وإن جيشًا مؤلفًا من خمسمائة ألف مقاتل سيهاجم الفرنسيين من جهات عدة.

لم يظهر الأمير الشيخ أي اهتمام أثناء هذا الشرح، حتى لقد لاح عليه أنه لا يصغي إلى كلام ابنه الأمير أندريه. وفيما كان مستمرًا في ارتداء ثيابه وهو يمشي، قاطع ابنه مرات عدة. ففي المرة الأولى قاطعه لا لشيء إلّا أن يقول: «البيضاء! البيضاء!»، وكان معنى ذلك أن تيخون لا يناوله الصديرة التي يريدها. وفي مرة أخرى وقف ليسأل: «هل الولادة قريبة!». ولم يلبث أن هزَّ رأسه لائمًا، «أف أف... أكمل حديثك، أكمل حديثك!».

وفي المرة الثالثة، بينما كان الأمير أندريه يختم شرحه، أخذ الشيخ يغني بصوت أفسدته الشيخوخة: «مالبروغ مضى يحارب، الله يعلم متى يرجع».

فلم يزد الأمير أندريه على أن ابتسم. وقال:

- أنا لا أقول إن هذه الخطة هي التي أؤيدها، وإنما أنا عرضتها لك عرضًا. ولا شك أن نابليون أيضًا له خطته التي ليست أسوأ من هذه.

- هيا! إنك لم تطلعني على جديد.

بذلك ختم الأمير الشيخ الحديث. ثم قال بينه وبين نفسه: «الله يعلم متى يقود». وأضاف مخاطبًا ابنه:

- اذهب إلى غرفة الطعام.

(1) مرفأ في بوريمانيا البروسية على بحر البلطيق.

الفصل الرابع والعشرون

في الوقت المحدد الثابت، دخل الأمير غرفة الطعام محلوق الذقن مرشوش الشعر، وكان ينتظره هنالك امرأة ابنه، والأميرة ماريا، ومدموازيل بوريان، والمهندس المعمار الذي شاءت نزوة من الأمير أن يأكل مع أعضاء الأسرة، رغم أن هذا الرجل الذي لا قيمة له ما كان له أن يطمع في مثل هذا الشرف بحال من الأحوال. إن الأمير الذي كان في حياته يحرص أشد الحرص على التفريق بين الطبقات، ولا يقبل إن يشاركه مائدته حتى كبار موظفي المقاطعة إلّا في القليل النادر، شاءت نزوة عنّت له فجأة، أن يبرهن بشخص المهندس المعمار ميخائيل إيفانوفتش، الذي كان يمخط خلسة في منديل من نسيج ذي مربعات، على أن البشر جميعًا سواسية، وشرح لابنته مرارًا أن ميخائيل إيفانوفتش ليس دونهم في شيء من الأشياء. وإلى هذا الرجل الصموت إنما كان الأمير يوجّه كلامه حين يكونون جالسين إلى المائدة.

في صالة الطعام الرحبة الواسعة، العالية السقف، كسائر غرف المنزل، كان أهل الدار وخلصاء الأمير ينتظرون وصوله. وكان يقف خادم الوراء كل كرسي، وكان رئيس الخدم يفتش المائدة حاملًا على ذراعه منشفة، مصدرًا إلى الخدم أوامره بنظرات من عينيه، منقّلًا بصره في كل لحظة بين ساعة الجدار وبين الباب الذي سيدخل منه الأمير. وكان الأمير أندريه يتأمل إطارًا ضخمًا مذهّبًا، جديدًا عليه، لم يسبق له أن رآه من قبل، وهو إطار يضم شجرة نسب الأميرة بولكونسكي، ويقابله إطار لا يقل عنه ضخامة يضم صورة لأمير حاكم على رأسه تاجه، يفترض أنه سليل آل روريك ومؤسس

أسرة بولكونسكي[1]. إن الصورة رديئة، ولا بد أنها من بنات أفكار الرسام الذي صنعها.

وقف الأمير أندريه أمام شجرة النسَب يهزّ رأسه ويضحك كما يضحك المرء حين يرى صورة كاريكاتورية. واقتربت منه أخته فقال لها:

- إنني أراه في هذه الصورة!

فنظرت الأميرة ماريا إلى أخيها مدهوشة. إنها لا تفهم لماذا هو يضحك. إن كل ما يفعله أبوها يوقظ في نفسها نوعًا من احترام ديني يستبعد كل انتقاد.

وتابع الأمير أندريه كلامه:

- لكل امرئ عقب كعقب آخيل. يدهشني أن يكون على هذا الجانب العظيم من الذكاء ثم هو ينصرف إلى هذه الأمور المضحكة!

لم تستطع ماريا أن تفهم هذه الجرأة المتمادية في أحكام أخيها، وبينما هي تهم أن ترد عليه إذ سُمع وقع الخطى المنتَظَرة، آتية من مكتب الأمير الشيخ. وما هي إلّا لحظة حتى دخل الأمير مسرعًا فرحًا طلقًا على عادته في السير دائمًا، فكأنه يتعمّد بحركاته النشطة أن يظهر التضادَّ بينها وبين النظام القاسي الذي يلتزمه هذا المنزل. وفي تلك اللحظة دقّت ساعة الحائط الكبيرة مؤذنة بالثانية بعد الظهيرة، وردّت على دقاتها ساعة أخرى نحيلة الصوت في الصالون. ووقف الأمير الشيخ. ومن تحت حاجبيه الكثيفين، طافت عيناه المتوقدتان الملتمعتان القاسيتان بالحضور، وتلبثتا على امرأة ابنه. كانت الكنّة تشعر في تلك اللحظة بتلك العاطفة نفسها التي يشعر بها جلساء القيصر في حضرته، وهو شعور رهبة واحترام يبعثهما هذا الشيخ في نفوس جميع من يحيطون به. وأقبل الأمير على كنته الأميرة فمسّد على شعرها، وبحركة خرقاء ربّت بعد ذلك على كتفها. ونظر إليها مرة أخرى محدقًا في عينيها، وقال لها:

- سعيد جدًّا، سعيد جدًّا.

---

(1) إن آل فولكونسكي ينحدرون من صلب القديس ميخائيل، دوق تيرنيخوف، الذي عذّبه التتر سنة 1246، وأعلن قديسًا. وهم يصعدون بأصولهم إلى القديس فلاديمير وإلى روريك مؤسس السلالة الروسية في نحو سنة 860.

ثم تركها بغتة، وجلس إلى المائدة وهو يقول:
- اجلسوا. اجلس يا ميخائيل إيفانوفيتش.
وأومأ لكنَّته مهيبًا بها أن تجلس إلى جانبه. فقدّم لها خادم كرسيًا.
قال الشيخ وهو ينظر إلى بطنها المكوّر:
- هوه! هوه! تعجلتما! ليس هذا بالمستحسن!
وضحك ضحكة جافة باردة خشنة مزعجة، مثلما يضحك دائمًا بفمه وحده من دون عينيه. وأضاف يقول:
- يجب عليك أن تمشي، أن تمشي، ما وسعك أن تمشي.
فلم تسمعه الأميرة، أو لم تشأ أن تسمعه، فهي قد صمتت وبان عليها الضيق والبرم. وسألها الأمير أنباء عن أبيها فابتسمت وأخذت تتكلّم، وسألها عن أصدقاء للأسرتين، فازدادت انتعاشًا، وطفقت تحكي، فنقلت إليه تحيات، وقصت عليه ما يتداوله الناس في المدينة من أقاويل. قالت وقد اشتدت حماستها:
- الأميرة آبراسكين، المسكينة، مات زوجها، وذرفت عليه كل دموع عينيها.
وعلى قدر انتعاشها واشتداد حماستها في الحديث، كان الأمير ينظر إليها بمزيد من القسوة، ثم إذا هو يشيح وجهه عنها فجأة ويلتفت إلى ميخائيل إيفانوفتش، كأنما هو درسها دراسة كافية، وكوَّن لنفسه عنها فكرة واضحة.
- هيه ميخائيل إيفانوفتش! يظهر أن بونابرت تسوء أحواله. ما أكثر القوى التي تتجمّع ضده وتتألّب عليه في ما يروي الأمير أندريه. وكنا كلانا نعدّه رجلًا تافهًا لا قيمة له.
إن ميخائيل إيفانوفتش يجهل كل الجهل أن يكون الأمير قد حدّثه عن بونابرت هذا الحديث، ولكنه أدرك أن الأمير يتعلّل به ليشرع في المناقشة، فنظر إلى الأمير الشاب مدهوشًا وهو لا يعرف ما عسى ينجم عن هذا الأمر كله.
قال الأمير لابنه مشيرًا إلى المهندس المعمار:
- هو رجل عظيم الخبرة في شؤون التكتيك.

وعاد الحديث يدور على الحرب وعلى بونابرت وعلى الجنرالات، وعلى رجال الدولة اليوم. فكان يبدو على الأمير العجوز أنه مقتنع بأن جميع الرجال الذين يحتلّون المناصب الكبرى إنما هم صبية يجهلون حتى ألفباء فن الحرب، وأن بونابرت فرنسي صغير لا قيمة له، وأن ما يحققه من انتصار ليس له من سبب إلّا عدم وجود رجل مثل بوتمكين أو سوفوروف، بل هو مقتنع كذلك بأن ليس في أوروبا أزمة سياسية، وأن ليس ثمة حرب أيضًا، وإنما هي مهزلة دمى تحرّكها أسلاك، يمثّلها رجال هذا الزمان متظاهرين بأنهم يفعلون شيئًا ذا بال. فكان الأمير أندريه يستقبل تهكّم أبيه على الرجال الجدد ضاحكًا، ويحضه على الكلام بفرح واضح، ويصغي إليه. ثم ها هوذا يقول له:

- كل ما هو من الماضي يبدو في الحاضر حسنًا. ولكن ألم يقع سوفوروف نفسه في الفخ الذي نصبه له مورو، ثم لم يعرف كيف يتخلّص منه؟

صرخ الأمير يسأل:

- من قال لك هذا؟ من؟ سوفوروف!

ورمى الأمير صحنه فتلقفه تيخون بحركة سريعة، وتابع الأمير الشيخ كلامه يقول:

- سوفوروف!... فكر يا أمير أندريه. هما اثنان لا ثالث لهما: فريدريك[1] وسوفوروف[2].. أما مورو[3].. أما مورو فقد كان يمكن أن يؤسر لو أطلقت يد

---

(1) فريدريك الثاني الأكبر (1740 - 1786) ملك بروسيا، وقائد عسكري يملك موهبة كبيرة.

(2) المارشال الشهير ألكسندرف ف. سوفوروف (1721 - 1800) الذي انتصر مرارًا على الترك، وعلى البولنديين، وعلى الفرنسيين سنة 1799، فخلع عليه لقب «أمير إيطاليا صاحب السمو». وقد أخفق إخفاقًا كبيرًا أثناء انسحابه من سويسرا، ذلك الانسحاب الذي فرضه «المجلس الأعلى للحرب» في فيينا، وهو المجلس الذي كان يدير عمليات الحلفاء.

(3) كان الجنرال جان فكتور مورو (1763 - 1813) يقود الجيش الفرنسي في إيطاليا، وقد انتصر عليه سوفوروف. وقد نافس نابوليون وأقحم في قضية الجنرال بيشيجرو فنُفي سنة 1804. والتحق بخدمة روسيا، وقُتل في معركة درسدن.

سوفوروف. ولكن «المجلس الأعلى للنقانق والخمور» كان يوثق ذراعيه. لسوف ترى من هم أعضاء هذا «المجلس الأعلى للنقانق والخمور»[1]، متى صرت هناك! إن سوفوروف لم يستطع أن يتفاهم معهم فكيف يستطيع ذلك ميخائيل كوتوزوف. لا يا صديقي إنكم بجنرالاتكم هؤلاء لن تقدروا أن تصنعوا بنابليون شيئًا. ومن أجل أن تقاتلوه لا بد لكم من «فرنسيين يتنكرون لذويهم، وينقضّون على ذويهم»[2].

وتابع يقول مشيرًا إلى ما عرض على مورو في تلك السنة نفسها من الدخول في خدمة روسيا:

- لقد أرسلوا الألماني بالن[3] إلى «يورك الجديدة» بأمريكا ليأتيهم بالفرنسي مورو. شيء عظيم! هل كان أمثال بوتمكين، وسوفوروف، وأرولوف[4] ألمانًا؟ لا يا صديقي، إما أنكم جننتم وإما أنني خرَّفت. كان الله في عونكم. سوف نرى. إن بونابرت في نظرهم قائد عظيم! هم...

عقب الأمير أندريه على كلام أبيه فقال:

- أنا لا أزعم أن جميع الإجراءات التي اتخذت حسنة، ولكنني لا أفهم كيف يكون رأيك في بونابرت هذا الرأي. اضحك إذا شئت، ولكنّ بونابرت قائد كبير مع ذلك.

فصرخ الأمير الشيخ مناديًا المهندس المعمار الذي كان مشغولًا بشريحة اللحم التي يأكلها، وكان يأمل في أن يكون قد نُسي:

- يا ميخائيل إيفانوفتش! ألم أقل لك حقًّا إن بونابرت خبير كبير في

---

(1) الأمير الشيخ يخلع هذا الاسم على "المجلس الأعلى للحرب في النمسا"، ازدراءً واحتقارًا. وكان هذا المجلس يدير من فيينا عمليات سوفوروف في إيطاليا وسويسرا فيعرقلها.

(2) تعبير مستمد من لغة «وقائع القرون الوسطى الروسية».

(3) هو الكونت تيودور بافلوفتش بالن (1780 - 1863)، الدبلوماسي الذي أصبح بعد ذلك سفيرًا لروسيا في واشنطن، ثم في ريو دو جانيرو.

(4) هو ألكسي أورولوف (1737 – 1808) الذي انتصر على الترك في معركة تشسمي البحرية سنة 1777، فخلع عليه لقب "كونت تشسمنسكي».

التكتيك؟ إليك شخصًا آخر يقول هذا الكلام نفسه.

أجاب المهندس المعمار:

- طبعًا، يا صاحب السعادة.

فانطلق الأمير الشيخ يضحك ضحكه الجاف مرة أخرى.

- إن بونابرت قد واتاه الحظ. هو أولًا يقود جنودًا ممتازين. وهو ثانيًا هاجم الألمان قبل كل شيء. والألمان أناس لم يعجز عن الانتصار عليهم إلّا الكسالى. إن الألمان مغلوبون منذ أن وُجد العالم، ولم يتفق أن غلبوا أحدًا في يوم من الأيام، ولم يقاتلوا إلّا بعضهم بعضًا. وبانتصاره على هؤلاء إنما بنى بونابرت مجده.

وراح الأمير الشيخ يستعرض الأخطاء التي يرى أن بونابرت ارتكبها في جميع حملاته، وحتى في شؤون الدولة. فكان ابنه لا يعترض، ولكن كان واضحًا أنه مهما تكن الحجة التي يقرع بها، لا يستطيع أن يتزحزح عن موقفه، مثلما كان أبوه عاجزًا عن تغيير رأيه.

كان الأمير أندريه يصغي ممتنعًا عن الاعتراض، متسائلًا رغم إرادته كيف يستطيع هذا الشيخ الذي لم يترك الريف منذ أعوام كثيرة أن يعرف الوضع العسكري والسياسي في أوروبا هذه السنين الأخيرة معرفة تبلغ هذا المبلغ من السعة، وأن يبحثه بحثًا يلمّ بهذه التفاصيل كلها، وأن يقضي فيه بآراء تتصف بهذا القدر كله من قوة الذكاء ودقة الإدراك.

وختم الأمير الشيخ حديثه بقوله:

- أتظن أن شيخًا مثلي لا يستطيع أن يدرك الأوضاع الراهنة على حقيقتها؟ إنك إذًا لمخطئ. إن الأوضاع لا تبرح تشغل بالي وتقض مضجعي وتحرمني من النوم. قل لي بالله: بأي شيء تميّز هذا الرجل الذي تصفه بأنه قائد كبير؟

أجاب الابن قائلًا:

- هذا أمر يطول الحديث فيه.

- هيًّا التحق به، صاحبك بونابرت هذا. يا مدموازيل بوريان، هذا معجب آخر بإمبراطوركم الوغد!

كذلك صاح الأمير الشيخ بلغة فرنسية رائعة. فقالت الفتاة:

- تعلمون أنني لست من أنصار بونابرت...

وطفق الأمير الشيخ يدندن بصوت ناشز: «الله يعلم متى يعود».

ثم أخذ يضحك بصوت فيه نشاز أكبر، ونهض عن المائدة.

وقد لزمت الأميرة ليزا الصمت طوال هذه المناقشة، وكانت تلقي نظرات مرتاعة على ماريا تارة، وعلى حميها تارة أخرى. وبعد الغداء، أمسكت ذراع أخت زوجها، وسارت بها إلى الغرفة المجاورة.

قالت ليزا:

- ما أذكى أباك من رجل! لعل هذا هو السبب في أنني أخاف منه.

فأجابتها ماريا قائلة:

- وهو إلى ذلك طيب جدًّا.

الفصل الخامس والعشرون

سيسافر الأمير أندريه في مساء الغد. ولم يخِلّ الأمير الشيخ بنظام حياته فانسحب إلى غرفته بعد الغداء. وكانت الأميرة ليزا عند أخت زوجها.

ها هو ذا الأمير أندريه يهيئ حقائبه بمعاونة خادمه في الجناح الذي خُصَّ به. إنه يرتدي ردنجوت السفر بغير كتفيات. فبعد أن تولى بنفسه تفتيش العربة واطمأن إلى وضع الحقائب فيها، أمر بكدن الخيل.

لم يبق في الغرفة إلّا الأشياء التي يحملها بنفسه دائمًا؛ وهي: علبة يضع فيها النقود، وصندوق كبير من فضة، ومسدسان تركيان، وسيف هو هدية من أبيه جاء بها كلها من أوتشاكوف. كان الأمير أندريه يُعنى بهذه الأشياء عناية كبيرة، ويحافظ عليها محافظة شديدة. إن كل شيء منها جديد نظيف مكسو بأغطية من جوخ تربطها شرائط ربطًا محكمًا.

حين يكون الإنسان على وشك سفر وتغيير في حياته، فإن أفكاره، إذًا هو كان من أولئك الذين يقدرون على تحليل أفعالهم، تجري في العادة مجرى يشتمل على كثير من الجد. ففي تلك اللحظة يستعرض هذا الإنسان ماضيه ويبني لمستقبله مشاريع. ولقد كان وجه الأمير أندريه في أثناء ذلك ينم عن تفكير عميق، ويعبّر عن عاطفة حنون. كان عاقدًا ذراعيه الوراء ظهره، يذرع الغرفة بخطوات سريعة، محدّقًا بنظره إلى الأمام، يهز رأسه مسترسلًا في تفكيره. ترى أكان خائفًا من الذهاب إلى الحرب؟ أكان حزينًا لفراق زوجته؟ لعله كان هذا وذاك في آن واحد. ولكنه كان لا يحب أن يراه أحد على هذه الحال، فما إن سمع وقع خطوات في حجرة المدخل حتى أسبل ذراعيه، ووقف بقرب الطاولة متظاهرًا بأنه يعقد الشريط الذي يربط غلاف

علبة النقود، مستردًا ما عهد في وجهه من تعبير عن الهدوء والغموض. إن الأميرة ماريا هي التي كانت آتية إليه. قالت لاهثة (كان واضحًا أنها ركضت):

- قيل لي إنك أمرت بكدن الخيل. إن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك في خلوة. الله يعلم إلى متى سنبقى مفترقَيْن. أأنتَ مستاء من مجيئي إليك الآن؟

ثم أضافت تقول كأنها تريد أن تشرح سؤالها:

- تغيرت كثيرًا يا آندريوشا.

وابتسمت حين سمته آندريوشا. لا شك أنها تستغرب أن يكون هذا الرجل الجميل القاسي هو آندريوشا نفسه، الصبي النحيل العفريت الذي كان رفيق طفولتها.

سألها من دون أن يجيب عن سؤالها بغير ابتسامة:

- أين ليزا؟

- كانت متعبة جدًّا فنامت على الديوان في غرفتي. آه يا أندريه! إن لك امرأة هي كنز ثمين!

قالت الأميرة ماريا ذلك وهي تجلس على الكنبة أمام أخيها. وأردفت تقول:

- إنها طفلة حقًّا! طفلة لطيفة أكبر اللطف، فرحة أعظم الفرح. ما أكثر ما أحبها!

سكت الأمير أندريه، ولكن الأميرة ماريا لاحظت ما بدا في قسمات وجهه من تعبير عن السخرية والازدراء. فقالت:

- ينبغي للإنسان أن يكون متسامحًا في ما يتصل بالعيوب الصغيرة التي قد يراها في الآخرين. مَنِ المعصوم من الأخطاء يا أندريه؟ مَنِ المبرَّأ من العيوب؟ لا تنسَ أنها نشأت وترعرعت في المجتمع الراقي. ثم إن وضعها الآن ليس وردًا وريحانًا. على المرء أن يضع نفسه في موضع غيره. متى فهم الإنسان كل شيء غُفر كل شيء. فكر في الحالة التي ستصير إليها هذه المسكينة حين يغيب عنها زوجها بعد الحياة التي عاشتها، وتبقى وحيدة في الريف وهي حامل. ذلك أمر شاق.

كان الأمير أندريه يبتسم وهو ينظر إلى أخته، كما نبتسم حين نصغي إلى كلام أناس نعتقد بأننا نعرفهم على ظهر القلب. وقال لأخته:

- ألا تعيشين أنت في الريف؟ فهل تجدين الحياة فيه رهيبة لا تُطاق؟

- شأني أنا شأنٌ آخرُ. لا تتحدّث عني أنا. أنا لا أرغب في حياة أخرى، ولا يمكن أن أرغب في حياة أخرى، لأنني لم أعرف حياة أخرى. ولكن فكر، يا أندريه، في ما تكون عليه حالة امرأة شابة من المجتمع الراقي حين تُدفن في الريف وهي في زهرة العمر وتُترك وحيدة. ذلك أن بابا مشغول دائمًا. أما أنا فإنك تعرف مدى فقري في الأمور التي تهم امرأة ألفت أن تعيش في أرقى مجتمع. مدموازيل بوريان وحدها...

قال الأمير أندريه مقاطعًا أخته:

- لا تعجبني صاحبتك بوريان هذه البتة.

- لماذا؟ إنها فتاة لطيفة جدًّا، طيبة جدًّا وهي فوق ذلك تستحق الشفقة. ليس لها أحد، ليس لها أحد على الإطلاق. الحقّ أنني لست في غير حاجة إليها فحسب، بل إنني أضيق بها أيضًا. أنت تعلم أنني كنت طوال حياتي متوحّشة ميالة إلى الخلوة والعزلة، وأنا الآن أتصف بهذه الصفة أكثر مما كنت أتصف بها في أي وقت مضى. إنني أحب أن أخلو إلى نفسي.. أبي يحبها كثيرًا. إنها وميخائيل إيفانوفتش الشخصان الوحيدان اللذان يعاملهما دائمًا معاملة لطيفة لأنهما كلاهما مدينان له بالفضل. صدق شترن حين قال: «نحن لا نحب الناس بسبب ما صنعوا لنا من خير، بقدرما نحبهم بسبب ما صنعنا لهم من خير». لقد التقطها أبي يتيمة بلا مأوى ولا عمل. وهي طيبة القلب جدًّا. ويحب أبي طريقتها في القراءة، فهي تقرأ له في المساء. إنها تجيد القراءة إجادة رائعة.

قال الأمير أندريه فجأة يسال أخته:

- بصراحة يا ماري، ألا تتألمين أحيانًا من طبع أبينا؟

دُهشت الأميرة ماريا من هذا السؤال في أول الأمر، ثم ارتاعت منه بعد ذلك ارتياعًا. وهتفت تقول:

- أنا!... أنا!... أنا أتألم منه؟...

- إنه لم يكن دمث الطبع لين المعاملة في يوم من أيام حياته، ولا بد أن احتماله اليوم صار أصعب وأشقّ. هذا ما أتخيله.

كذلك قال الأمير أندريه، وكان واضحًا أنه تعمد أن يقول هذا الكلام تعمدًا بغية إرباك أخته أو امتحانها بالتحدث عن أبيها في مثل هذه الخفة.

قالت الأميرة ماريا وهي تتابع مجرى خواطرها أكثر مما تتابع مجرى الحديث بينها وبين أخيها:

- اسمع يا أندريه، إن لك مزايا كثيرة. ولكنك مغترٌّ بذكائك، مزهوّ بآرائك، وذلك إثم كبير. هل يجوز لامرئ أن يحكم على أبيه؟ وهب هذا جائزًا، فهل يوقظ رجل مثل أبي في نفس المرء غير شعور الإجلال؟ واعلم بعد ذلك أنني مبتهجة جدًّا بصحبته، سعيدة جدًّا معه. وكل ما أتمناه هو أن تكونوا كلكم في مثل ما أنا فيه من سعادة.

هز الأمير أندريه رأسه معبرًا بوجهه عن أنه لا يصدق ما تزعمه أخته. فاستطردت الأميرة ماريا:

- سأقول لك الحقيقة يا أندريه. إن الشيء الوحيد الذي يؤلمني ويحزّ في نفسي هو أفكار أبي في شأن الدين. لست أفهم كيف يستطيع إنسان له مثل هذا الذكاء المتوقّد والعقل الكبير أن لا يرى ما هو واضح وضوح النهار، وأن يضل هذا الضلال. ذلك ما يشقيني. ولكن مما يعزّيني ويبعث الأمل في نفسي أنني ألاحظ أنه يحقق بعض التقدم في هذا المجال أيضًا. فسخرياته أصبحت أقل وخزًا، حتى لقد استقبل منذ مدة راهبًا من الرهبان وحادثه طويلًا.

قال الأمير بسخرية، ولكن بعاطفة أيضًا:

- دعيك من هذا يا صديقتي! إنني أخشى أن تكونا أنت والراهب ممن يبذلون جهودهم في غير طائل!

فقالت الأميرة ماريا خجلةً بعد لحظة من صمت:

- يا صديقي، إنني دائمًا أدعو الله، وآمل أن يسمعني. وهناك رجاء كبير أريد أن أتقدم به إليك.

- ما هو يا صديقتي؟

- عدني بأن تلبيه. لن تكلفك تلبية رجائي أي جهد، وليس فيها ما يسيء إلى أنفتك وشممك. ولكنها ستدخل العزاء إلى قلبي أنا. عدني يا آندريوشا...

قالت ذلك وهي تدس يدها في حقيبتها الصغيرة، وتقبض بها على شيء ما ولكنها لا تظهره بعد، وكان واضحًا أن هذا الشيء الذي تقبض عليه بيدها في حقيبتها الصغيرة هو بعينه موضوع رجائها، وأنها لا تستطيع إخراجه قبل أن يقطع أندريه لها على نفسه وعدًا بتلبية الرجاء.

قال الأمير أندريه وقد بدا عليه أنه حزر الأمر:

- سألبّي رجاءك، ولو كلفني كثيرًا...

- قل عني ما شئت. فأنا أعلم أنك مثل أبي. قل ما شئت، ولكن، لبِّ رجائي إكرامًا لي. إن أبا أبي، أعني جدنا، كان يحملها في جميع المعارك التي خاضها. هل تعدني؟

ولم تخرج الأميرة ماريا يدها من الحقيبة.

- طبعًا أعدك.

- أندريه، أريد أن أعلق بعنقك هذه الميدالية فتباركك. عدني بأن لا تنتزعها أبدًا. هل تعدني؟

- أعدك إذا هي لم تكن ثقيلة، ولم تشدد رقبتي... وأفعل ذلك إكرامًا لك.

كذلك قال الأمير أندريه مازحًا، ولكنه ندم فورًا حين رأى الحزن في وجه أخته ردًا على هذه المزاحة. فأسرع يضيف قوله:

- بل إنني لسعيد بها جدًّا، سعيد بها أكبر السعادة حقًّا يا صديقتي.

- لسوف ينقذك الرب رغم إرادتك، ولسوف يغدق عليك نعمته، فيردّك إليه، لأن الحقيقة والسلام هما فيه وحده.

كذلك قالت الأميرة ماريا بصوت مختلج من الانفعال، وقدّمت إلى أخيها بكلتا يديها، في أبّهة وجلال، ميدالية قديمة مسودة، هي صورة للمسيح موضوعة في إطار بيضوي من فضة، ومربوطة بسلسلة فضية دقيقة الصنع.

- أرجوك، أندريه. علّقها بعنقك إكرامًا لي...

وكانت عيناها الواسعتان ترسلان أشعة ذات ضياء خجل مفعم طيبة، وكانت هاتان العينان تضيئان كل وجهها المهزول النحيل، فتضفيان عليه جمالًا. وأراد أخوها أن يأخذ الميدالية. ولكنها أوقفته، فأدرك أندريه ما تريد، فرسم إشارة الصليب، ولثم الأيقونة. وكان متأثرًا، فكان وجهه يعبّر عن حنانٍ وسخرٍ معًا.

قالت الأخت:

- شكرًا يا صديقي!

ثم قبّلت جبينه وعادت تجلس على الديوان. وصمت الاثنان كلاهما فلا يتكلّمان. وتكلمت الأميرة ماريا أخيرًا فقالت لأخيها الأمير أندريه:

- قلت لك يا أندريه إن عليك أن تكون طيبًا سمحًا كما كنت دائمًا، فلا تحكم على ليزا حكمًا قاسيًأ. إنها لطيفة جدًّا، طيبة جدًّا. وهي الآن في حالة صعبة، شاقة وأليمة.

- ما أظن أنني زعمت لك يا ماشا أنني ألوم امرأتي على شيء، أو أنني مستاء منها. فلماذا تقولين لي هذا الكلام؟

ظهرت بقع حمراء على وجه الأميرة، وصمتت كمن ارتكب إثمًا. وأردف الأمير:

- أنا لم أقل لك شيئًا، ولكن «قيل» لك شيء. وإن هذا ليؤلمني.

اشتدت البقع الحمر على جبهة الأميرة وعنقها وخدَّيْها. وأرادت أن تتكلم، ولكنها لم تستطع أن تنطق. لقد صدق أخيها: إن الأميرة ليزا بكت بعد الغداء وقالت إنها تحس بأن مخاضها سيكون عسيرًا، وإنها خائفة. وندبت حظها العاثر، وشكت حماها وزوجها. ثم نامت بعد أن بكت بكاء غزيرًا.

شعر الأمير أندريه بشفقة على أخته. وقال لها:

- اعلمي يا ماشا أنني لا آخذ على امرأتي شيئًا، ولم آخذ عليها شيئًا، ولن آخذ عليها شيئًا. وإنني كذلك لا آخذ على نفسي شيئًا في معاملتي لها. وسأبقى هكذا أيًّا كان الظرف الذي أجد نفسي فيه. ولكن إذا أردت أن

تعرفي الحقيقة، فسألتني هل أنا سعيد؟ قلت لك: لا، وهل هي سعيدة؟ لا، لماذا؟ لا أدري!

قال الأمير أندريه ذلك وقام من مكانه فاقترب من أخته، وطبع على جبينها قبلة. وكانت عيناه الجميلتان تسطعان ببريق غير معهود فيهما، بريق مفعم بالطيبة والحكمة. ولكنّ عينيه كانتا لا تنظران إلى أخته، بل تسرحان في ظلمات الباب المفتوح الوراءها. ثم قال:

- هلمّي بنا إليها. يجب أن أودعها. بل اذهبي وحدك، فأيقظيها ثم أتبعك.

وصاح يقول لخادمه:

- تعال هنا. احمِل هذه الأشياء، وضع هذا على المقعد، وذاك في اليمين.

نهضت الأميرة ماريا، وسارت متجهة إلى الباب. ولكنها لم تلبث أن توقفت وقالت مخاطبة أخاها:

- أندريه، لو كنت مؤمنًا لاتجهت إلى الرب تدعوه أن يهب لك الحب الذي لا تشعر به، ولاستجاب الرب لدعائك.

فقال الأمير أندريه:

- نعم، جائز. هيا يا ماشا. أنا آت حالًا.

وفيما كان الأمير أندريه ذاهبًا إلى أخته التقى، في الرواق الذي يربط شطرَيْ المبنى، بمدموازيل بوريان البسامة. إنه يجدها في طريقه للمرة الثالثة في هذا اليوم، في مواضع خالية، مبتسمة تلك الابتسامة المتحمسة الساذجة.

قالت وهي تحمر وتخفض عينيها لا يدري المرء لماذا:

- آ... كنت أظن أنك في غرفتك.

فرشقها الأمير أندريه بنظرة قاسية، وعبّر وجهه فجأة عن حنق. ولم يقل لها شيئًا ولكنه من دون أن ينظر في عينيها ألقى على جبينها وشعرها نظرة تبلغ من الازدراء أن الفرنسية احمرّت وابتعدت صامتة ولم تقل كلمة واحدة. وحين اقترب من غرفة أخته كانت امرأته قد استيقظت من نومها، وكان صوتها الصغير الفرح أخذ يتدفق كلامًا سمعه الأمير من خلال الباب

المشقوق، مثلها كمثل امرئ سكت زمنًا طويلًا، فهو يريد الآن أن يتدارك ما فاته من وقت.

- لا، ولكن تصوري الكونتيسة العجوز زوبوف[1] بخصلات شعر مستعارة، وفم ممتلئ بأسنان مصطنعة، كأنها تريد أن تتحدّى السنين... ها هأ هأ! ماري!

إن الأمير أندريه يسمع الآن امرأته تقول هذه الجملة بألفاظها نفسها أمام آخرين في حق الكونتيسة زوبوف، وتتبعها بهذه الضحكة ذاتها.

دخل من دون ضجة. كانت الأميرة ليزا الممتلئة المتوردة جالسة في مقعد، ممسكة شغلها بيدها، تتكلم بغير توقف، فتروي ذكرياتها عن بطرسبورغ، وتردّد عبارات سبق للأمير أندريه أن سمعها ترددها بألفاظها نفسها.

دنا الأمير أندريه منها، وداعب شعرها، وسألها إنْ ارتاحت من عناء السفر. فأجابته إجابة مقتضبة وعادت إلى ما كانت فيه من لغو.

إن مركبة تجرها ستة أفراس، تنتظر أمام درج الباب. والمساء مساء مظلم من أماسي الخريف، فلا يستطيع الحوذي أن يرى عريش العربة من شدة العتمة. وعلى درج الباب أفراد منهمكون يحملون مصابيح. وجميع نوافذ المنزل الكبيرة مضاءة إضاءة ساطعة. والخدم يتزاحمون في الدهليز يريدون أن يودّعوا الأمير الشاب. وأهل الدار قد اجتمعوا في الصالون: ميخائيل إيفانوفتش، مدموازيل بوريان، الأميرة ماريا، الأميرة ليزا.

وكان الأمير أندريه عند أبيه في حجرة عمله إذ استدعاه مرة أخرى يريد أن يودعه في خلوة. والجميع ينتظرونه.

حين دخل الأمير أندريه إلى حجرة عمل أبيه كان الأمير الشيخ واضعًا نظارتيه على أنفه، لابسًا ثوب المنزل الأبيض، الذي لا يستقبل به أحدًا إلّا ابنه، جالسًا إلى مكتبه يكتب. فلما دخل عليه الأمير أندريه، التفت نحوه وقال يسأله:

---

(1) هي إليزابت لوبوف (1742 - 1813)، أرملة الكونت ألكسندر، وأم آخر أسير لدى كاترين الثانية، وهو بلاتون زوبوف (1767 - 1822).

- مسافر؟

وعاد يكتب. ثم قال وهو يشير له إلى خده:

- قبّلني هنا. شكرًا، شكرًا.

- لم الشكر؟

- لأنك تلتحق بالجيش في الوقت المحدّد من دون تلكؤ، غير متشبث بفستان امرأة. إن الخدمة أولى بالاهتمام من أي شيء. شكرًا شكرًا.

وتابع الأمير العجوز كتابته، فكانت ريشته التي يسمع لها أثناء الكتابة صريف تبلغ من سرعة الجري أنها تلطخ الورق بالحبر الذي ترشه رشًا.

وقال لأبنه:

- إذا كان لديك ما تريد أن تقوله فتكلّم. إنني أستطيع أن أفعل الأمرين معًا: أكتب وأصغي في آن واحد.

- أريد أن أقول كلمة في موضوع امرأتي... ولكنني أشعر بخجل شديد منك لأنني أتركها عبئًا على ذراعيك.

- ما هذا الكلام السخيف؟ قل ما تريد أن تقوله.

- إذا حان وقت المخاض، فاستدعوا مولّدًا من موسكو... احتياطًا.

وقف الأمير وحدّق بعينيه القاسيتين إلى ابنه كأنه لم يفهم. وأردف الأمير أندريه يقول وقد شعر بحرج واضح:

- أنا أعلم أن أحدًا لا يستطيع شيئًا إذا لم تساعد الطبيعة نفسها بنفسها. وأعترف بأنه لا يقع مكروه إلّا في حالة من مليون حالة. ولكن هذا رأيها ورأيي. لقد شحنوا رأسها بالرهبة، فهي ترى أحلامًا مرعبة، وتشعر بجزع.

قال الأمير مكلمًا نفسه وقد أنهى كتابته:

- هم... هم... ثم أضاف:

- سنفعل.

وذيّل رسالته بتوقيع عريض. ثم التفت إلى ابنه فجأة، وأخذ يضحك مقهقهًا، وقال يسأل:

- مشكلة، هه؟

- ما هي؟

- امرأتك!

كذلك أجاب الأمير الشيخ مقتضبًا، بلهجة تعبّر عن أشياء كثيرة.

قال الأمير أندريه:

- لا أفهم.

فأجابه الأمير:

- وأنكى ما في الأمر يا صديقي أننا لا نملك أن نغير شيئًا. النساء كلهن سواء. ولا يستطيع المرء أن يتحلل من الزواج. لا تخشَ شيئًا. لن أقول هذا لأحد. ولكنك تعرفه أنت نفسك.

وتناول الأمير الشيخ بيده الصغيرة المعروقة يد ابنه فهزها مصافحًا، وحدق إليه بعينيه المتوقدتين اللتين كأنهما تخترقانك اختراقًا وتريان كل ما يعتمل في أعماق نفسك. وعاد يضحك ضحكه البارد من جديد.

تنهد الابن، فكان تنهّده اعترافًا منه بأن أباه قد حزر ما به، وأن ما قاله حق.

واستمر الشيخ في طي رسالته ووضعها في غلافها وختمها بالشمع، مقلبًا بين يديه الشمع والختم والظرف بحركاته النشطة المعهودة فيه. وقال بلهجة متقطعة وهو يختم الظرف بالشمع:

- ما حيلتنا؟ إنها جميلة! سأفعل اللازم!

كان أندريه صامتًا. وقد سرّه وساءه في آن واحد أن أباه فهم وعرف ما به. ونهض الأب، ومد الرسالة إلى ابنه. وقال له:

- اسمع. اطمئن بالًا على امرأتك. ما يمكن عمله سنعمله. والآن إصغ إليّ: سلّم هذه الرسالة إلى ميخائيل ايلياريونوفتش. لقد كتبت إليه طالبًا منه أن يستخدمك في أعمال نافعة، وألا يحتفظ بك مرافقًا مدة طويلة، فهذه وظيفة حقيرة! وقل له إنني أذكره، وإنني أحبه كثيرًا. واكتب إليّ لتخبرني كيف استقبلك. ولا تبق معه إلّا إذا استقبلك استقبالًا لائقًا بك. إن ابن نيقولا آندرئيتش بولكونسكي لا يطلب الحظوة لدى إنسان أيًا كان. والآن تعال إلى هنا.

كان كلامه يبلغ من سرعة التدفق أنه كان لا ينهي نصف كلماته. ولكن ابنه كان قد ألف أن يتابع كلامه السريع وأن يفهمه. وقاد الأمير الشيخ ابنه

إلى مكتبه، ففتح درجه، وأخرج منه دفترًا تغطي صفحاته كتابة الأمير بخطه الكبير المتراص. وقال:

- أغلب الظن أنني سأموت قبلك. فاعلم أن هذا الدفتر يضم مذكرات لي أريد أن تصل إلى الإمبراطور بعد مماتي. والآن إليك رسالة وسندًا على «بنك التسليف» هو جائزة لمن يكتب أحسن كتاب يؤرخ فيه حملات سوفوروف. يجب إيصال الرسالة والسند إلى الأكاديمية. وهذه أخيرًا ملاحظات لي: اقرأها بعد وفاتي، فسوف تجني من قراءتها فائدة.

لم يقل أندريه لأبيه إنه سيعيش سنين طويلة أخرى. لقد أدرك أنه لا يحسن به أن يقول مثل هذا الكلام، بل قال:

- سأفعل كل ما تطلبه مني يا أبت!

- والآن، أستودعك الله!

وترك لابنه أن يقبّل يده، وشد على ذراعيه. وقال له:

- ليكن ماثلًا في ذهنك يا أمير أندريه، أنني سأحزن طبعًا إذا قُتلت... ولكن...

وصمت فجأة ثم تابع كلامه قائلًا بما يشبه الزئير:

- ولكن إذا بلغني أنك سلكت سلوكًا لا يليق بابن نيقولا بولكونسكي، فسوف أشعر بخزي وعار!

قال الابن وهو يبتسم:

- كنت في غنى عن قول هذا، لأنني أدركه من تلقاء نفسي.

فصمت الشيخ... وتابع الأمير أندريه حديثه فقال:

- كنت أريد أن أطلب منك شيئًا آخر: إذا قتلت، ورزقت ابنًا، فاحتفظ به عندك، كما قلت أمس، حتى يكبر ويشب قريبًا منك... أرجوك.

فقال الشيخ الأمير وهو يضحك:

- تعني ألا أتركه لامرأتك؟

ووقفا صامتين متقابلين. فكانت عينا الشيخ الحادّتين غارقتين في عيني ابنه. وسرت في الجزء الأسفل من وجه الأمير الشيخ رعشة. وصرخ فجأة بصوت حانق قوي وهو يفتح لابنه الباب:

- لقد ودَّع كل منا الآخر. فامضِ!...
- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

كذلك سألت الأميرتان حين جاء الأمير أندريه، وكانتا قد لمحتا الشيخ يظهر في الباب لحظة بثوب المنزل، الأبيض، وبغير باروكة على رأسه، وبنظارتين على أنفه.

فتنهد الأمير أندريه ولم يجب بشيء. ثم اتجه بالكلام إلى امرأته فقال بلهجة فيها سخرية فاترة وكأنه يريد أن يقول لها: «والآن استرسلي في ما تريدين أن تسترسلي فيه من تصنّع».

- وبعد!

قالت الأميرة ليزا وقد اصفرّ وجهها ونظرت إلى زوجها في رعب:

- أندريه! أراحل أنت منذ الآن؟

ضمّها بذراعيه. فأطلقت صرخة، وتهادت على صدره مغشيًا عليها. فتخلّص منها متأنيًا محتاطًا، وتفرّس في وجهها، ثم حملها إلى مقعد فأجلسها عليه في رفق. وقال لأخته بصوت خافت:

- استودعك الله يا ماري.

وتبادل الأخ والأخت قبلة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. ثم خرج الأمير أندريه من الغرفة بخطو سريع.

كانت الأميرة ليزا ممدة على المقعد. وكانت مدموازيل بوريان تفرك لها صدغيها. وكانت الأميرة ماريا، مع استمرارها في إسناد زوجة أخيها، تنظر بعينيها الجميلتين الفائضتين بالدموع، إلى الباب الذي خرج منه أندريه وترسم إشارة الصليب.

ومن مكتب الأمير الشيخ كانت تصل ضجة تتكرر كثيرًا، وتدل على أن الأمير الشيخ يتمخّط غاضبًا ساخطًا. وما إن خرج الأمير أندريه حتى فتح باب المكتب بسرعة، وأطلت منه قامة الشيخ القاسية بثوبه الأبيض.

قال الأمير الشيخ وهو ينظر إلى الأميرة ليزا المغشي عليها حانقًا:

- هل سافر؟ عظيم!

وهز رأسه معبّرًا عن لوم وتقريع، ودخل غرفته وهو يصفق الباب غضبًا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) من سنة 1805، كانت القطعات الروسية تحتل قصبات أرشدوقية النمسا ومدنها، وكانت تصل من روسيا أفواج جديدة على نحوٍ مستمر، فتستقر بقرب قلعة براوناو[1]، فيضيق بها السكان ضيقًا شديدًا.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الأول من عام 1805، رابط فوج من أفواج المشاة التي وصلت منذ قليل، على مسافة نصف ميل من المدينة، منتظرًا وصول القائد العام الذي كان يريد أن يستعرضه. ورغم أن منظر الطبيعة وظروف الحياة ليس فيها شيء روسي (البساتين، الحواجز المبنية بحجر، الأسطح المشيَّدة بقرميد، الجبال الممتدة إلى أن تتلاشى في الأقاصي، السكان الأجانب الذين ينظرون إلى الجنود مستطلعين مستغربين) كان مظهر الفوج لا يختلف عن مظهر أي فوج روسي يستعد للاستعراض بمكان من الأمكنة في قلب روسيا.

كان الفوج قد أبلغ مساء أمس، في آخر مرحلة، أن القائد العام سيفتش فوج الميدان. ورغم أن نص برنامج الاستعراض قد بدا لقائد الفوج غامضًا غير واضح، ورغم أن تفسيره كان محل مناقشة، فتساءل الضباط أيحسن أم لا يحسن أن يبقى أفراد الفوج بملابس الميدان، فقد تقرّر في اجتماع لقادة الكتائب، أن يستعرض الفوج مرتديًا بزة الاحتفالات، عملًا بالمبدأ القائل: لئن يجيء عملك زائدًا على المطلوب خير من أن يجيء مقصّرًا

(1) مدينة نمسوية محصّنة على نهر آين تقع على الحدود بين النمسا وبافاريا.

عنه. لذلك لم ينم الجنود لحظة واحدة، بعد مرحلة طالت ثلاثين فرسخًا، بل سهروا ليلتهم كلها يرفأون بزاتهم ويصقلونها، وكان الضباط المرافقون وقادة السرايا يعدّون الرجال ويجمعونهم، فما إن طلع الصبح على هذا الفوج الذي كان بالأمس في الرحلة الأخيرة جمهرة مبعثرة ممتدة، حتى كان كتلة متراصة منظمة قوامها ألفا رجل يعرف كل واحد منهم مكانه ويعرف الأعمال المسندة إليه، وتنظر إلى كل واحد منهم فلا ترى زرًا أو سيرًا وضع في غير مكانه، أو غير مجْلوّ فلا يلمع. ولم ينصب الاهتمام على الثياب الخارجية فحسب، بل تناول الملابس الداخلية أيضًا. فلو بدا للقائد العام أن ينظر في ما تحت البزات لرأى على كل واحد قميصًا نظيفًا، ولو بدا له أن ينظر في الأكياس لرأى في كل كيس جميع الأشياء التي يوجب النظام أن يضمها الكيس، وهي «العدة» كما يسميها الجنود. أمر واحد كان يقلق بال الجميع ولا يدع لهم راحة أو طمأنينة. ذلك هو أمر الأحذية. إن أكثر من نصف الجنود كانت أحذيتهم مهترئة ممزقة. وليس الذنب في هذا ذنب قائد الفوج. فالمعتمدية النمسوية لم تزوّده بشيء رغم مطالباته المتكررة، مع أن الفوج قد قطع ألف فرسخ.

كان قائد الفوج جنرالا[1] مسنًّا قد خط الشيب حاجبيه وعارضيه، بدين الجسم، محمر اللون، عريضًا من الصدر إلى الظهر لا من الكتف إلى الكتف. وكان يرتدي بزة جديدة واضحة الثنيات، وكانت كتفياته المذهبة لا تخفض منكبيه بثقلها بل تبدو كأنها ترفعهما وتعلّيهما. ولو رأيته حينذاك لجعلك تحس أنه يقوم بعمل من أكثر أعمال حياته أبهة وفخامة، وأنه ينجح في القيام بهذا العمل أيما نجاح. كان يتمشى أمام قطعاته مختال الخطو حانيًا ظهره بعض الحني. وكان واضحًا أنه معجب بفوجه، وأنه سعيد به، وأنه نذر له نفسه كلها. ولكن مشيته المتبختررة تدل مع ذلك على أنه إلى جانب اهتماماته العسكرية ليس ممن لا يكترثون بمباهج حياة المجتمع ومفاتن الجنس اللطيف.

(1) يندر أن يكون قائد فوج جنرالاً، ومن الجائز أن يكون تولستوي على خطأ.

قال لقائد كتيبة سرعان ما تقدم منه خطوة وهو يبتسم كابتسامة الجنرال، فكلاهما ظاهر السعادة:

- هيه عزيزي ميخائيل مترتش! أظن أن كلًّا منا يبدو جديرًا برتبته الليلة، هه؟ ولكن مظهر الفوج عظيم أيضًا، هه؟

وقد أدرك قائد الكتيبة ما يحمله قول الجنرال من فرح وسخرية، فضحك وقال:

- ما كنا لنطرد حتى من «ميدان مارس» [1] ونحن على ما نحن عليه من أبّهة!

قال الجنرال: هه؟

وفي تلك اللحظة ظهر فارسان في الطريق الآتي من المدينة، الذي يرصده مراقبون. إن واحدًا من الفارسَيْن ضابط مرافق، والثاني قوزاقي. ولقد جاء الضابط المرافق موفدًا من القائد العام ليوضح لقائد الفوج ما كان مبهَمًا في أوامر الأمس، فقال له إن القائد العام يحب أن يرى أفراد الفوج على الحالة التي كانوا عليها أثناء المسيرة، أي بمعاطفهم ووقاياتهم، من دون أي تهيؤ أو تحضير.

كان كوتوزوف قد استقبل بالأمس عضوًا من أعضاء «المجلس الحربي الأعلى» آتيًا من فيينا، ليقترح عليه وليطلب منه الإنضمام إلى جيش الأرشيدوق فرديناند، والجنرال شارل ماك[2] بأقصى سرعة، فلما كان كوتوزوف يرى أن هذا الانضمام ليس بالمستحسن فقد أراد أن يدعم الحجج الكثيرة الذي ساقها بحجة أخرى، فيطلع الجنرال النمسوي على

---

(1) «ميدان مارس» ميدان كبير على شاطئ نهر نيفا شرق «قصر الشتاء»، فيه كانت تتم التدريبات، وتُجرى الاستعراضات.

(2) إن الأرشيدوق فرديناند هابسبورغ (1781 - 1850)، وهو أخو الإمبراطور فرنسوا الثاني، قد استلم قيادة جيش بافاريا سنة 1805، يعاونه الجنرال شارل ماك (1752 - 1828). وكان الجنرال شارل ماك قد هزم سنة 1797، وبقي أسيرًا في باريس إلى سنة 1800، وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من سنة 1805 حوصر في «أولم» وسلم هذا الموقع إلى الفرنسيين.

حالة القطعات الواصلة من روسيا وهي حالة محزنة. فلهذا السبب إنما أراد أن يقبل على الفوج متفقدًا، فكلما كانت حالة الفوج أسوأ كان ذلك يرضيه رضى أكبر، ويسرّه سرورًا أعظم. ورغم أن الضابط المرافق كان يجهل هذه التفاصيل فقد أبلغ الجنرال أن القائد العام يحرص أشد الحرص على رؤية الجنود بمعاطفهم ووقاياتهم، وأنه سيستاء إذا لم يرهم على هذه الحالة.

سمع الجنرال هذا الكلام فخفض رأسه، ورفع منكبيه صامتًا، وباعد ذراعيه بحركة قوية. ثم قال:

- ما أشد ما لقينا من عناء!

ثم أردف يقول لائمًا قائد الكتيبة:

- قلت لك يا ميخائيل مترتش إن على الجنود أن يكونوا بملابس الميدان ما دمنا في الميدان.

وأضاف متأوهًا:

- آه... فما العمل الآن يا رب!

ثم لم يلبث أن تقدّم إلى الأمام وقد بدا في وجهه معنى العزم والثبات، وصاح مناديًا بصوت مألوف:

- أيها السادة ضباط السرايا! أيها الرقباء!

ولكنه قبل أن يتم نداءه، التفت إلى الضابط المرافق يسأله معبّرًا بوجهه عن معنى الاحترام للشخص الذي يقصده في سؤاله:

- أهو واصل قريبًا؟

فأجابه الضابط المرافق بقوله:

- بعد ساعة على ما أظن.

وعندئذ أكمل الجنرال نداءه فقال سائلًا:

- هل يمكننا تبديل الثياب في ساعة؟

فأجابه أحدهم:

- لا أدري سيدي الجنرال.

فما كان من الجنرال إلّا أن تقدّم بنفسه من الصفوف، مصدرًا أمره بالعودة إلى ارتداء المعاطف. فهرع قادة السرايا كل إلى سريته، وأخذ الرقباء يسعون

ويتحركون هنا وهناك (لم تكن المعاطف في حالة حسنة)، واضطربت التشكيلات المربعة وتفرقت بعد أن كانت منظمة منسَّقة، وأخذت الأصوات تهدر مدمدمة بعد أن كانت ساكنة صامتة. وجعل الجنود يذهبون ويجيئون في كل جهة من الجهات، وطفقت الأيدي تحمل الأكياس وتتناقلها فوق الأكتاف والرؤوس فتخرج منها المعاطف وتنشرها، وراحت الأذرع ترتفع عالية لتُدس في الأكمام. فما انقضى نصف ساعة حتى كان كل شيء قد عاد إلى حاله الأولى، واصطفت التشكيلات مربعة كما كانت، ولكنها أصبحت رمادية بعد أن كانت سوداء. وتقدم الجنرال من فوجه مختال الخطو من جديد، وأخذ يفتشه ناظرًا إليه من بعيد. ثم إذا هو يتوقّف صارخًا على حين فجأة:

- ما هذا أيضًا؟ ما معنى هذا؟ جيئوني بقائد السرية الثالثة.

فارتفعت أصوات في الصفوف تنادي:

- قائد السرية الثالثة يذهب إلى الجنرال! إلى الجنرال قائد السرية الثالثة! قائد السرية الثالثة، الجنرال!

وركض ضابط مرافق يبحث عن قائد السرية الثالثة الذي تأخّر عن المجيء.

وحين وصلت هذه الأصوات إلى المنادى مشوّهة الأوامر، صائحة في بعض الأحيان: «الجنرال، إلى السرية الثالثة»، فإن الضابط المنادى أسرع ينفصل عن سريته، ورغم أنه مسنّ ولم يتعود الركض، فقد طفق يركض متجهًا إلى الجنرال متعثرًا أثناء ركضه برأسي حذاءيه. كان وجه الضابط، وهو برتبة كابتن، يعبر عن قلق أشبه بقلق تلميذ يسأله المعلم في درس لم يحفظه. وتخضّب أنفه الأحمر ببقع قانية (ربما كان مرد احمرار أنفه إلى إفراطه في الشراب)، وأخذ فمه يرتعش ولا يجد سبيلًا إلى استرداد سكونه وهدوئه.

تفرّس الجنرال في الكابتن من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بينما كان يقبل عليه لاهثًا مخففًا سرعة ركضه شيئًا بعد شيء، ثم صرخ يقول له محرّكًا فكه الأسفل، مشيرًا بين صفوف السرية الثالثة إلى جندي كان معطفه زاهي اللون مختلفًا عن معاطف سائر الجنود:

- لم يبقَ إلّا أن تلبس الجنود قفاطين مزركشة! ما هذا؟ أين كنت؟ هه؟... سوف أعلّمك كيف تلبس الجنود صدرات في يوم استعراض! هه؟!...

كانت عينا الكابتن عالقتين برئيسه، وكان يشد أصابعه إلى مقدم خوذته بمزيد من القوة، كأنه لا يتوقع السلامة إلّا من هذه الحركة.

- وبعد! ما لي أراك صامتًا لا تجيب؟ من هذا المتنكر بملابس مَجَرية؟[1]

كذلك سأل قائد الفوج مازحًا بقسوة.

- صاحب السعادة.

- ماذا؟ «صاحب السعادة»، «صاحب السعادة»، ما معنى «صاحب السعادة»؟ هلا تكلمت أخيرًا، فشرحت...

قال الكابتن بصوت خافت:

- صاحب السعادة، هذا دولوخوف، الضابط الذي جُرّد من رتبته وجُعل جنديًا...

- أهو رُقّي إلى رتبة فلدمارشال أم رُدّ جنديًا؟ إن على الجندي أن يرتدي ما يرتديه سائر الجنود وفقًا للنظام.

- صاحب السعادة! أنت أذنت له بهذا أثناء السير!

فقال قائد الفوج وقد هدأ قليلًا:

- أذنت له؟ أذنت له؟ هكذا أنتم دائمًا أيها الشبان! يقال لكم شيء، فإذا أنتم...

وصمت الجنرال لحظة، ثم أردف:

- يقال لكم شيء، فإذا أنتم... ماذا؟

كذلك ردد مرة أخرى وقد عاوده الغضب والحنق، وقال يأمر الكابتن:

- هيا ألبس رجالك لباسًا محتشمًا، من فضلك...

وبعد أن ألقى نظرة على الضابط المرافق مضى يتفقد الفوج متبختر الخطو. كان واضحًا أن غضبه قد أعجبه كثيرًا، وإنه كان بطوافه على الفوج يريد أن يقع على حجّة جديدة للغضب. فبعد أن قرَّع ضابطًا لأن شعاره لم

---

(1) كان الجنود المجريون يرتدون معاطف زرقاء، أما معاطف الجنود الروس فكانت سوداء.

يكن مجلوًا جلاء كافيًا، وبعد أن أنّب ضابطًا آخر لأن اصطفاف جنوده لم يكن مستقيمًا، وصل إلى السرية الثالثة. وصرخ يسأل دولوخوف، مع أنه لا يزال يفصله عنه خمسة جنود:

- ما هذه الوقفة التي تقفها؟ أين ساقك؟ أين هي؟

كان دولوخوف يرتدي معطفًا يضرب لونه إلى زرقة.

صحح دولوخوف وضع ساقه التي كانت شبه مثنية. فعل ذلك بحركة بطيئة، وحدج الجنرال بنظرة صافية وقحة. وقال له الجنرال:

- ما هذا المعطف الأزرق؟ يجب خلعه!

والتفت إلى الرقيب يأمره قائلًا:

- فليغيّر ملبسه، هذا الثا....

ولكن دولوخوف لم يتح له أن يتم النطق بكلمة الشتم التي هم بها، إذ قاطعه قائلًا له:

- جنرال، إنني ملزَم بتنفيذ الأوامر، ولكن لست ملزَمًا بتحمل الـ...

- اسكت!... لا يجوز للجندي أن يتكلّم وهو في الصف، لا يجوز، لا يجوز...

ولكن دولوخوف أكمل كلامه بصوت ثابت قوي:

- لست ملزمًا بتحمّل الشتائم...

والتقت عينا الجنرال بعيني الجندي. فغضب الجنرال وأخذ يشد حمالة سرواله التي كانت تضايقه بضغطها على كتفيه، ولكنه لم يجد ما يجيب به دولوخوف فصمت لا ينطق بكلمة. ثم قال وهو ينصرف عنه:

- غيّر ملبسك، من فضلك... أرجوك!

الفصل الثاني

- وصلوا!

كذلك صاح واحد من الذين كانوا يرصدون الطريق. فاحمر وجه قائد الفوج فجأة، ومضى إلى حصانه ركضًا. أمسك الركاب بيد مرتعشة، ووثب إلى السرج فصار على صهوة الجواد، واستل سيفه من قرابه، وتأهب لإصدار الأوامر بالصراخ وقد لاحت في وجهه معاني السعادة والعزيمة، وفغر فمه في أحد جانبيه. وانتعش الفوج، كطائر هزَّ ريشه ثم جمد لا يتحرك.

صرخ الجنرال بصوت يوقظ الموتى من فرط قوته:

- تهيّـ...أ!

وكانت صرخته تشتمل على فرح في نفسه، وقسوة على فوجه، وترحيب بالرئيس الذي يقبل.

على الطريق الواسعة الممهَّدة التي لا حجارة فيها، والتي تحف بها الأشجار من الجانبين، ظهرت مركبة سامقة فييناوية، زرقاء زرقة وضاحة، من طراز «دي أوموف»، كانت تجري خببًا سريعًا، ولا يُسمع لنوابضها إلّا صريف خفيف[1]. والوراء المركبة ضبّاط الحاشية على صهوات خيولهم ويواكبهم حرس كرواتيون[2].

كان يجلس في المركبة إلى جانب كوتوزوف، جنرال نمسوي يرتدي بزة

(1) هي مركبة تجرها أربعة أحصنة متتالية، ويقودها حوذيان اثنان..

(2) كان شعب كرواتيا السلافي خاضعًا في ذلك الوقت للمجر، وكانت تشكل منه أفواج فرسان ودرك في الجيش النمسوي - المجري.

بيضاء تبدو غريبة غير مألوفة في وسط الروس الذين يرتدون بزات سودًا. توقفت العربة على مقربة من الفوج. وكان كوتوزوف والجنرال النمسوي يتحادثان بصوت خافت. وقد ابتسم كوتوزوف ابتسامة خفيفة حين نزل عن مرقاة المركبة متباطئًا متثاقلًا، كأن هؤلاء الرجال الذين يبلغ عددهم ألفين، والذين يرنون إليه بأبصارهم حابسين أنفاسهم لا وجود لهم، لا هم ولا قائد الفوج.

ودوَّت صيحة تصدر أمرًا جديدًا، فإذا الفوج يتحرّك مقرقعًا بأسلحته.

وفي وسط صمت كصمت الموت سمع صوت القائد العام ضعيفًا واهنًا. وزأر أفراد الفوج محيين: «عاش صاحب السعادة،عاش عاش عاش». ثم عاد كل شيء جامدًا لا حراك فيه. وبعد أن بقي كوتوزوف ساكنًا بينما كان موكب الفوج يمر أمامه، أخذ يطوف بالصفوف ماشيًا إلى جانب الجنرال الأبيض لتفقد الجنود في صحبة حاشيته.

كان واضحًا من طريقة قائد الفوج في تحية الجنرال الأكبر بسيفه شاخص البصر، منتصب القامة، متصلّب الجسم، ومن طريقته في السير الوراء الجنرالين أثناء تفقد الصفوف، مائلًا إلى أمام كابحًا مشيته المتبخترة بجهد وعناء، ومن انتفاضة لدى كل كلمة يقولها القائد العام ولدى كل إشارة يقوم بها، كان واضحًا من ذلك كله أنه يتلذذ بالقيام بواجبات المرؤوسين كتلذذه بالقيام بواجبات الرئيس بل أكثر.

ولقد كان الفوج في حالة حسنة بفضل ما يتصف به قائده من قسوة وهمة ونشاط، بالقياس إلى حالة الأفواج التي كانت تصل في الوقت نفسه إلى براوناو. فلم يكن الفوج كله يضم أكثر من مائتين وسبعة عشر رجلًا بين مريض ومجرور. وكان كل شيء فيه على ما يرام، إلّا الأحذية.

طاف كوتوزوف بالصفوف متوقفًا من حين إلى حين ليقول بضع كلمات لطيفة للضباط الذين يعرفهم منذ حملة تركيا، ولبعض الجنود أحيانًا. وقد هز رأسه عدة مرات حزنًا حين كان يرى الأحذية، وكان يشير للجنرال النمسوي إليها وكأنه يريد أن يقول إنه لا يؤاخذ أحدًا ولكنه لا يستطيع إلّا أن يلاحظ أن الأمر يؤسَف له. وكان قائد الفوج يتقدّم في كل مرة إلى الأمام، خشية

أن تفوته كلمة مما قد يقوله الجنرال الأكبر عن فوجه. والوراء كوتوزوف كانت تسير حاشيته قريبة منه لتسمع كل كلمة يقولها بصوت خافت. وكان عدد أفراد الحاشية نحو عشرين رجلًا. وكان هؤلاء السادة من أفراد الحاشية يكلم بعضهم بعضًا ويضحكون أحيانًا. وكان واحد منهم هو أقربهم إلى القائد العام في السير الوراءه، مرافقًا وسيم الطلعة. إنه الأمير بولكونسكي. وإلى جانبه كان يسير رفيقه نسفتزكي[1]، وهو ضابط طويل القامة بدين الجسم، جميل الوجه، له ابتسامة طيبة وعينان مخضّلتان. وكان نسفتزكي يبذل جهدًا شاقًا من أجل أن يحبس الضحك الذي كان يثيره في نفسه ضابط من سلاح الفرسان أسمر اللون يسير بقربه. كان هذا الضابط ينظر إلى ظهر قائد الفوج برصانة، ويقلّد كل حركة من حركاته من دون أن يضطرب أي اضطراب، ومن دون أن يتغير شيء مما تعبّر عنه عيناه الثابتتان من جد ووقار. فكلما تبختر قائد الفوج ومال إلى الأمام، تبختر بعده ضابط سلاح الفرسان ومال إلى أمام مقلدًا حركاته تقليدًا محكمًا دقيقً. فكان نسفتزكي يضحك ويلكز الآخرين بكوعه ليلفت انتباههم إلى الضابط المزّاح.

كان كوتوزوف يسير الهوينا بخطو متراخ أمام ألوف الأعين التي كانت تخرج من حجابها لتتابعه ببصرها. فلما وصل إلى السرية الثالثة، توقف فجأة. ولم تكن الحاشية تتوقّع هذا التوقف المفاجئ، فتقدمت منه من دون أن تريد ذلك.

قال القائد العام وقد تعرف النقيب ذو الأنف الأحمر الذي كان المعطف الأزرق سببًا في الهجوم عليه منذ قليل:

- آ... تيموخين!

يخيل للمرء أنه لا يمكن أن يتصلب إنسان كما تصلب تيموخين حين كان قائد الفوج يؤنّبه. ولكن حين خاطبه القائد العام فقد بلغ من التصلب حدًّا إذا رآه الرائي أيقن أن الرجل لا يستطيع أن يصمد. ولا شك أن القائد

---

(1) شخصية من ابتداع خيال تولستوي. غير أن هناك أسرة أمراء مطموسة كانت تحمل اسم نسفتزكي. وكان الأمير سرجي ألكسندر تروبتسكوي، ابن أخت جدة تولستوي، متزوجًا بامرأة من أسرة نسفتزكي هذه.

العام كوتوزوف قد أدرك الوضع وكان لا يريد للكابتن إلّا الخير، فأسرع يتحول عنه، وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه الممتلئ المشوَّه بجرح. وقال لقائد الفوج:

- هذا رفيق من أيام إسماعيل[1]. ضابط شجاع. أأنت راض عنه؟

فانتفض قائد الفوج وتصلّب جسمه كتصلب جسم ضابط سلاح الفرسان، حتى لكأنه صورته في مرآة، وقال يجيب القائد العام:

- كل الرضى يا صاحب السعادة!

قال كوتوزوف وهو يترك تيموخين مبتسمًا ويتابع تفقده للفوج:

- إن لكل منا عيوبه، وعيب تيموخين أنه مسرف قليلًا في حب باخوس[2].

فتساءل قائد الفوج بينه وبين نفسه مذعورًا خوف أن يتحمّل هو تبعة هذا، ولم يجرؤ أن يجيب بشيء. وقد لاحظ ضابط سلاح الفرسان وضع الكابتن ذي الأنف الأحمر والبطن الخاسف من فرط التصلب، فقلّده تقليدًا بلغ من قوة الشبه أن نسفتزكي لم يستطع أن يحبس نفسه عن الضحك. فالتفت كوتوزوف ولكن الضابط كان واضح السيطرة على وجهه، فسرعان ما ردّه إلى حاله المألوفة قبل أن يراه كوتوزوف، وأضفى عليه كل علائم الرصانة والاحترام والبراءة التي يمكن أن ترى في وجه أحد من الناس.

وكانت السرية الثالثة هي الأخيرة، وظهرت على وجه كوتوزوف إمارات التفكير، كأنه كان يحاول أن يتذكّر أمرًا من الأمور. فأسرع الأمير أندريه ينفصل عن أفراد الحاشية، وجاء إليه يقول له بصوت خافت باللغة الفرنسية:

- أمرتني أن أذكّرك بحالة دولوخوف الذي جُرِّد من رتبته ورُدّ جنديًا في هذا الفوج.

فقال كوتوزوف يسأل:

- أين دولوخوف؟

وكان دولوخوف الذي يرتدي الآن معطفًا رماديًا وفق النظام، لا يتوقع أن

---

(1) أي منذ الاستيلاء على تلك القلعة من الأتراك في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1790.

(2) باخوس هو إله الخمرة، والإشارة هنا إلى إفراط الكابتن في الشراب.

يُنادى. وخرج من بين الصفوف جندي أشقر ممشوق القامة أزرق العينين. وتقدم من القائد العام، ووقف أمامه وقفة التهيؤ.

سأله كوتوزوف وهو يقطب حاجبيه قليلًا:

- شكوى؟

فقال الأمير أندريه:

- هذا دولوخوف.

فاستدرك كوتوزوف قائلًا:

- آ... أرجو أن يكون في هذا الدرس صلاح لك. قم بواجبك خير قيام. والإمبراطور رؤوف. وأنا أيضًا لن أنساك إذا برهنت على أنك تستحق ذلك.

فكانت العينان الصافيتان ترمقان القائد العام بتلك النظرة الوقحة نفسها التي كانتا تلقيانها منذ قليل على قائد الفوج، كأنهما تريدان بهذا الاستخفاف الذي تعبران عنه أن تمزقا حجاب المواصفات التي تجعل بين القائد العام وبين جندي من الجنود مسافة كبيرة.

قال هادئًا بصوت جهير قوي:

- ليس لي إلّا مطلب واحد يا صاحب السعادة، هو أن تتاح لي فرصة إصلاح خطأي وتقديم البراهين على ولائي للإمبراطور، وإخلاصي للوطن.

تحوّل عنه كوتوزوف. وارتسمت في عينيه تلك الابتسامة نفسها التي ألمّت بشفتيه حين تحوّل عن الكابتن تيموخين، وقد جعد وجهه قليلًا كأنه يريد أن يبين بذلك أن كل ما قاله دولوخوف، وكل ما قد يقوله أيضًا معروف له منذ زمن طويل جدًّا، وأن هذا كله يضجره ويضايقه، وأنه ليس ما ينبغي أن يقال. واستدار على كعبيه، ورجع إلى مركبته.

وتفرّق الفوج سرايا، وأخذ يسير إلى المعسكرات المعيّنة له على مقربة من براوناو، حيث يأمل الحصول على أحذية وملابس بعد أن قطع تلك المراحل الصعبة القاسية كلها.

وحين سارت السرية الثالثة يتقدمها تيموخوف، اقترب قائد الفوج بحصانه من تيموخوف وقال له:

- لست زعلانًا مني يا بروخور أجناتتش، أليس كذلك؟

كان فرح كبير يشعّ من وجه الجنرال في أعقاب هذا الاستعراض الموفق، وأردف يقول:

- إنك تعلم يا بروخور أجنانتش... المرء في خدمة القيصر لا يستطيع إلّا أن... يتفق للمرء أن يفقد صوابه في القطعات، فلا يزن كلماته... ولكنني أعتذر لك، وأنت تعرفني... شكرًا جزيلًا.

قال له ذلك ومدّ إليه يده مصافحًا.

فأجابه الكابتن وقد احمر أنفه مزيدًا من الاحمرار وابتسم كاشفًا عن افتقاده سنَّيْن من أسنانه كسرتهما ضربة هراوة في أيام إسماعيل:

- عفوك سيدي الجنرال! كيف أجرؤ أن أزعل منك!

قال قائد الفوج:

- وقل لدولوخوف إنني لن أنساه، فليطمئن باله. وقل لي، من فضلك... إنني أريد أن ألقي هذا السؤال منذ مدة طويلة: كيف حاله؟ كيف سلوكه؟ قل لي كل شيء...

قال تيموخين:

- هو في الخدمة مثال يُحتذى يا صاحب السعادة... ولكن طبعه...

فقال الجنرال يسأل:

- ما سوء طبعه؟ ما مدى سوء طبعه؟

قال الكابتن:

- تعتريه حالات عجيبة في بعض الأيام يا صاحب السعادة، فطورًا تراه ذكيًا حصيفًا طيبًا، وطورًا يصبح وحشًا كاسرًا. في بولنده، أوشك أن يقتل يهوديًا...

قال قائد الفوج:

- نعم... نعم... ولكن يجب على المرء أن يرثي لحال شاب أصابه هذا الخطب. وأن له علاقات قوية... لذلك يجب عليك أن...

قال تيموخين وهو يبتسم ابتسامة من يريد أن يفهم الجنرال أنه أدرك رغبته:

- أنا رهن أوامرك يا صاحب السعادة.

- نعم... نعم...

وسار قائد الفوج محاذيًا السرية إلى أن بلغ دولوخوف فقال له:

- ستُردّ إليك شاراتك في أول فرصة..

فنظر إليه دولوخوف من دون أن يقول شيئًا، ومن دون أن يتغير شيء مما كان يعبر عنه فمه المبتسم من سخرية.

قال قائد الفوج:

- طيب! عظيم!...

ثم أضاف يقول بصوت عالٍ أراد له أن يسمعه الجنود:

- اسقوا الرجال ربعًا من الفودكا تكريمًا لهم مني. شكرًا للجميع! الحمد الله!...

وتجاوز السرية واقترب من أخرى.

قال تيموخين لضابط مرؤوس كان يسير إلى جانبه:

- هو رجل شهم على كل حال، يستطيع الإنسان أن يخدم تحت إمرته.

فقال الضابط المرؤوس ضاحكًا:

- إنه في طيبة القلب «ملك»... لا كلام!

وكان هذا هو اللقب الذي لقّب به قائد الفوج.

وانتقلت سعادة الرؤساء بعد الاستعراض إلى الجنود. فكانت السرية تسير فرحة جذلى. وأخذ الجنود يتبادلون الأحاديث في كل جهة.

- لماذا قالوا عن بوتوزوف إنه أعور، وإنه ليس له إلّا عين واحدة؟

- هذا صحيح. إنه أعور، ليس له إلّا عين واحدة.

- لا، يا صاحبي إنه يرى خيرًا منك. الأحذية والجوارب رآها. ما فاتته رؤية شيء!

- وحين نظر إلى قدميَّ، يا صاحبي... قلت لنفسي، وبعد؟... هه؟...

- وما قولك في ذلك النمسوي، الذي كان معه... لكأنه قد لُطّخ

بالطباشير. إنه أبيض كالطحين. يخيل إليّ أنهم جلوه وصقلوه كما تُجلى العدّة وتُصقل[1]!.

– قل لي يا فيديا! هل قالوا شيئًا عن الحرب متى تبدأ! كنت أنت أقرب إليهم مني!... يقال إن بونابرت نفسه يرابط في برونوف[2].

– بونابرت! ما هذه السخافات، إنك حقًّا لأبله! حتى هذا لا تعرفه؟

– إن البروسيين هم الذين يشقون عصا الطاعة الآن... فيضربهم النمسويون... فمتى عاد البروسيون إلى صوابهم، بدأت الحرب مع بونابرت. يا للأبله! يقول إن بونابرت في بروتوف! واضح أنه معتوه! لو فتحوا له أذنيه قليلًا...

– ما أحسن محاسبي التجهيزات! لا بد أن السرية الخامسة قد انعطفت متجهة إلى القرية. فتطبخ الحساء ولا نكون نحن قد وصلنا بعد!

– أعطني بسكوته يا حيوان!

– هل أعطيتني أنت بالأمس تبغًا؟ أرأيت يا صاحبي؟ ولكن خذ. سامحك الله.

– ليتنا نقف وقفة لنستريح على الأقل، وإلا فإن علينا أن نسير خمسة فراسخ وبطوننا خاوية.

– لعلك تريد أن يقدم إلينا الألمان عربات فخمة، هه؟ لا شك أن هذا يكون شيئًا جميلًا! نركب ويقودنا الحوذيّون إلى حيث نريد!

– الناس هنا يا بني مختلفون تمامًا. هناك لم يكن إلّا بولنديون، رعايا للتاج الروسي. والآن يا صاحبي، لا يوجد إلّا ألمان...

ودوى صوت يقول أمرًا:

– المغنّون إلى الأمام!

كذلك صرخ الكابتن. فخرج من الصفوف زهاء عشرين رجلًا، وركضوا

---

(1) كان للجيش النمسوي في ذلك العهد سترات بيضاء تُجلى بالطباشير فعلاً، وهو ما كان يجعلها نظيفة دائمًا.

(2) هي مدينة براوناو محرَّفة عبر ألسن الجنود الروس.

يصطفون في طليعة السرية. والتفت كبير الطبالين إلى المغنين، وأجرى إشارة بيده، وأخذ صوته يصدح بطيئًا بأغنية المشي التي مطلعها: «أليس هذا هو الفجر؟ أليس هو الفجر يطلع؟»، والتي ختامها: «ما أعظمه مجدًا، يا أصحابي، مجدنا مع أبينا كامنسكي!»[1]. هي أغنية أُلّفت في تركيا وتُغنّى الآن في النمسا مع فرق واحد هو أن قول المغنين «مع أبينا كامنسكي» يحل محلّه الآن قولهم «مع أبينا كوتوزوف».

فبعد أن أنهى كبير الطبالين - وهو جندي جميل في نحو الأربعين من عمره - هذا الختام بنبرة الفخار كما يفعل المغنّون في الجيش، محرِّكًا يديه تحريك من يلقي شيئًا على الأرض، شمل المغنين بنظرة قاسية، وأغمض عينيه. حتى إذا تأكد له أن جميع الأعين صارت محدقة إليه، بدا كمن يحمل بيديه إلى ما فوق رأسه شيئًا ثمينًا لا يُرى، ولبث على هذه الحال بضع ثوانٍ، ثم إذا هو يندفع مغنيًا بصوت قوي: «أواه يا كوخي، يا كوخي الجديد!».

ورددت الأصوات العشرون: «يا كوخي الجديد». وتقدم العازف على الصنجات إلى أمام، وراح يسير أمام السرية رغم ثقل عدته، هازًا كتفيه ملوحًا بآلته كأنه يهدد بها أحدًا، فكان الجنود يرجّحون أذرعهم على إيقاع الأغنية، ويمشون مشية نشطة، ويزنون خطاهم على السجية بغير إرادة.

وإنهم كذلك إذ سُمعت الوراء السرية قرقعة عجلات، وصرير نوابض، ووقع حوافر خيل. كان كوتوزوف وحاشيته عائدين إلى المدينة. فلوَّح القائد العام للجنود بيده، مهيبًا بهم أن يستمروا في مشيتهم أحرارًا بغير حرج، وظهر في وجهه وفي وجوه ضباط حاشيته ابتهاجهم بسماع الأغنية، ورؤية الجندي الذي يرقص، ومنظر السرية التي تمشي فرحة بخطوات رشيقة. وفي الصف الثاني على الجنب الأيمن، حيث تخطت مركبة القائد العام رتل الجنود، كان يسير جندي تخطف عيناه الزرقاوان البصر. إنه دولوخوف يمشي على إيقاع الأغنية بخطو تميّزه جسارة واضحة ورشاقة بارزة، وينظر

---

(1) إن الفيلدمارشال العجوز، الكونت ميخائيل كامنسكي (1738 - 1809) قد تميز في حروبه ضد الأتراك في عهد كاترين الثانية. وكان خلال مدة قصيرة قائدًا عامًّا للجيش الروسي سنة 1806.

إلى أولئك الذين مروا نظرة من يرثي لحال جميع من لا يمشون مع السرية. وهذا هو ضابط الفرسان الذي ينتمي إلى حاشية كوتوزوف والذي كان يقلّد حركات قائد الفوج، يدع لمركبة القائد العام أن تمر، ويتخلى عن الحاشية ويقترب من دولوخوف.

إن ضابط الفرسان هذا، جوكوف، قد كان في ذات يوم أحد أفراد العصبة المشاغبة التي كان دولوخوف رئيسها في بطرسبورغ، وكان جوكوف قد رأى دولوخوف قبل اليوم في الخارج جنديًا مجرَّدًا من رتبته، فرأى أن ليس من المفيد أن يتعرَّفه، أما الآن، بعد الحديث الذي جرى بين كوتوزوف والضابط المجرَّد من رتبته، فقد أقبل عليه فرحًا فرح صديق قديم، وقال له مسايرًا أصوات الأغنية، جاعلًا خطوات حصانه تماشي خطوات أفراد السرية:

- كيف حالك يا صديقي؟

فأجابه دولوخوف بقوله:

- حالي!! كما ترى!

وكانت الأغنية النشيطة تسبغ دلالة خاصة على لهجة الفرح الطلق في كلام جوكوف، وعلى البرودة المقصودة في أجوبة دولوخوف. قال جوكوف سائلًا:

- كيف علاقتك برؤسائك؟

- لا أشكو من شيء. إنهم رجال طيبون. كيف استطعت أن تتسلّل إلى رئاسة الأركان؟...

- فُرزت لها ضابط اتصال.

وصمت الشابان لحظة.

وكانت الأغنية تقول عندئذ: «وأفرج عن الصقر، فطار من الكم الأيمن»، فكان هذا الكلام يوقظ في النفس فرحًا وحماسة بغير إرادة. فغالب الظن أن الحديث كان سيجري مجرى آخر لولا أنه كان يساير أصوات الأغنية. قال دولوخوف يسأل جوكوف:

- هل صحيح أن النمسويين غُلبوا؟

- يقال هذا. ولكن لا يعلم أحد الحقيقة.
فقال دولوخوف باقتضاب ووضوح، وفق ما تقتضيه الأغنية:
- يسعدني أن يُغلَبوا!
قال جوكوف:
- تعال إلينا في إحدى الأماسي، فنلعب بالورق لعبة «الفرعونية».
- أمعكم إذًا مال كثير؟
- تعال.
- مستحيل. آليت على نفسي أنلا أشرب ولا أقامر قبل أن أستردَّ رتبتي.
- سيتحقق هذا في أول فرصة...
- حينها نرى...
وصمتا من جديد. ثم قال جوكوف:
- تعال إذا احتجت إلى شيء. كل من في الأركان سيساعدك.
فابتسم دولوخوف. وقال:
- لا داعي إلى أن تقلق نفسك. إذا احتجت إلى شيء فلن أطلب من أحد، وإنما سآخذه بنفسي.
- أنت تعلم ما أعني.
- وأنا أعلم ما تعني.
- حسنًا، وداعًا.
- مع السلامة.
واستمرت الأغنية: «... طار عاليًا، إلى بعيد، إلى الوطن الذي ولد فيه».
همز جوكوف حصانه فدار في مكانه عدة دورات، ثم انطلق يعدو خببًا سريعًا فتجاوز السرية وهو لا يزال يساير إيقاع الأغنية.

الفصل الثالث

حين رجع كوتوزوف من الاستعراض في صحبة الجنرال النمسوي، مضى إلى مكتبه، ودعا إليه مرافقه، فأمره بأن يأتيه بأوراق تتعلق بحالة الجيوش التي تصل، وبالرسائل التي بعثها إليه الأرشيدوق فرديناند قائد الطليعة.

دخل الأمير آندرو إلى مكتب القائد العام بالأوراق المطلوبة. فكان كوتوزوف وعضو «المجلس الحربي الأعلى» جالسَيْن أمام خريطة منشورة على الطاولة.

قال كوتوزوف وهو يلفت رأسه إلى بولكونسكي:

- آ....

وكان بهذه الكلمة كمن يدعو مرافقه إلى الانتظار. وتابع أحاديثه مع عضو«المجلس الحربي الأعلى» باللغة الفرنسية.

قال كوتوزوف برشاقة جميلة في التعابير والنبرات، تجعل سامعه يصغي إصغاء شديدًا إلى كل كلمة من كلماته التي يقولها على مهل بغير تعجل:

- لا أملك إلّا أن أقول شيئًا واحدًا.

وكان واضحًا أن كوتوزوف يصغي إلى كلامه. هو نفسه كان مسرورًا به. وتابع حديثه:

- لا أملك أن أقول إلّا شيئًا واحدًا يا جنرال، هو أنه لو كان الأمر رهن إرادتي وحدها لفعلته منذ زمن طويل امتثالًا لرغبة صاحب الجلالة الإمبراطور فرانسوا. لو كان الأمر رهن إرادتي وحدها لانضممت إلى الأرشيدوق منذ زمن طويل. وصدّقني إذا قلت لك مقسمًا بشرفي أن هذا

كان يخفف عني شخصيًا ويريحني كثيرًا، إذ ألقي عبء قيادة الجيش العليا إلى جنرال يفوقني كفاءة وحذقًا - وما أغنى النمسا بأمثال هؤلاء الجنرالات - فأتحرّر بذلك من تبعة ثقيلة ومسؤولية ضخمة. ولكن الظروف تتجاوزنا أحيانًا يا جنرال.

وابتسم كوتوزوف كأنه يريد أن يقول: «من حقك ألا تصدقني، ويستوي عندي أن تصدقني وألا تصدقني. ولكنك لا تملك أي حجّة تسوِّغ لك أن تعلن لي ذلك. وهذا هو الأمر الأساسي».

كان الجنرال النمسوي يبدو مستاء، ولكنه لم يستطع إلّا أن يجيب كوتوزوف مصطنعًا هذا اللطف نفسه. غير أن هيئته الكالحة الحانقة كانت تتعارض مع ما يضمّن كلامه من مداراة ومصانعة، قال:

- بالعكس. إن صاحب الجلالة يقدر مشاركتكم في القضية المشتركة قدرًا عظيمًا. ولكننا نتصوّر أن هذه التأجيلات تحرم الجيوش الروسية المجيدة وقادتها من أكاليل الغار التي اعتادوا أن ينالوها في ساحات القتال.

وكان واضحًا أن هذه الجملة قد أعدها الجنرال النمسوي من قبل.

فانحنى كوتوزوف شاكرًا دون أن تتغير ابتسامته. ثم قال:

- إنني أعتقد - والرسالة الأخيرة التي شرّفني بها صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند تؤيد اعتقادي هذا - بأن الجيوش النمسوية التي يقودها رجل يتمتع بما يتمتع به الجنرال ماك من علم وخبرة، قد حققت انتصارًا حاسمًا، فلم تعد في حاجة إلى مساعدتنا.

فقطب الجنرال النمسوي حاجبيه. ذلك أن جميع القرائن كانت تأتي مصدّقة للإشاعات الرائجة في كل مكان عن هزيمة الجيوش النمسوية، رغم أنه لم يصل حتى ذلك الحين أي نبأ رسمي يؤكد الهزيمة. لهذا كان افتراض كوتوزوف أن الجيوش النمسوية حققت نصرًا، أقرب إلى أن يكون سخرية واستهزاء. ولكن كوتوزوف كان يبتسم ابتسامة هادئة وديعة، وظل وجهه يعبر عن أن من حقه أن يفترض ذلك الافتراض، فالرسالة الأخيرة التي تلقّاها من الجنرال ماك تنقل إليه نبأ انتصار، وتصوِّر له وضع الجيش الاستراتيجي في أحسن حال.

قال كوتوزوف مخاطبًا الأمير أندريه:

- هات الرسالة.

ثم أردف يقول للجنرال النمسوي:

- انظر من فضلك...

وأخذ يقرأ باللغة الألمانية، وقد ظهرت على طرفَيْ فمه ابتسامة ساخرة:

- » إننا نملك قوات مركّزة أكمل تركيز، تبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل. وهذا يمكننا، إذا اجتاز العدو نهر «ليش»[1]، أن نهاجمه وأن نهزمه. ولما كنا مسيطرين على «أولم»[2]، فإننا نملك ميزة كبيرة هي سيطرتنا على ضفتي الدانوب. فإذا لم يشأ العدو أن يقطع الدانوب، كنا نملك في كل لحظة أن نجتاز نحن الدانوب، فندمر خط مواصلاته، ونعود نجتاز الدانوب من أدنى، فنحبط بذلك كل محاولة قد يعمد إليها منتويًا توجيه جميع قواته ضد حليفتنا الوفية. لذلك ننتظر بثقة تامة أن يجهز الجيش الإمبراطوري الروسي تجهيزًا تامًا، فيسهل علينا متعاونين أن نلقي بالعدو إلى المصير الذي يستحقه»[3].

أنهى كوتوزوف قراءة هذه الرسالة الطويلة متنهدًا، ونظر إلى عضو «المجلس الحربي الأعلى» بتودّد وانتباه.

قال الجنرال النمسوي الذي كان واضحًا أنه يريد أن يضع حدًّا لهذه الأمازيح وأن يصل إلى الجد:

- ولكنك تعرف، يا صاحب السعادة، تلك القاعدة الحكيمة التي توصي الإنسان بأن يتوقع أسوأ الاحتمالات.

قال ذلك ونظر إلى جهة المرافق مكفهرَّ الهيئة.

فقاطعه كوتوزوف قائلًا وهو يلتفت إلى جهة الأمير أندريه أيضًا:

- معذرة يا جنرال.

وقال يخاطب الأمير أندريه وهو يمد إليه أوراقًا:

---

(1) نهر يرفد الدانوب الأعلى من الجنوب، ويمر بمدينة أوغسبرغ في بافاريا.

(2) مدينة محصنة في فورتمبرغ، على الدانوب الأعلى.

(3) بالألمانية في الأصل.

- خذ هذه يا عزيزي، واطلب من كوزلوفساكي جميع التقارير التي وردت إلينا من كشّافينا. هاتان رسالتان من الكونت نوستتس، وهذه رسالة صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند، وهذه رسائل أخرى. وعدا ذلك، حرر بوضوح كامل، باللغة الفرنسية، «مذكرة» توضح جميع المعلومات الموفرة لدينا عن عمليات الجيش النمسوي. هل فهمت؟ ثم قدم المذكرة إلى صاحب السعادة.

فأحنى الأمير أندريه رأسه مشيرًا بذلك إلى أنه فهم ما يؤمر به منذ الكلمات الأولى، لا ما قاله كوتوزوف فحسب، بل ما كان يمكن أن يقوله أيضًا. وجمع الأوراق، ثم حيّا، وخرج إلى صالون الاستقبال، بغير ضجة ماشيًا على السجادة.

لقد تغير الأمير أندريه تغيّرًا كبيرًا، رغم أن المدة التي انقضت على تركه روسيا ليست بالمدة الطويلة. لم يبقَ الآن لا في تعبير وجهه، ولا في إشارات يديه، ولا في مشيته، أي أثر تقريبًا لما عُهد فيه من تصنّع وسأم وتراخ. فإذا رأيته أحسست بأنك أمام رجل لا يتسع وقته للتفكير في ما يحدثه في الآخرين من انطباع وأنه منصرف إلى القيام بمهمة تشوقه وتسرّه. إن في وجهه ما يدل على رضى عن نفسه وعمن يحيطون به، فابتسامته ونظرته تشتملان على فرح أكبر. وقد التحق بكوتوزوف في بولندا، فاستقبله كوتوزوف بمودة كبيرة، ووعده بأن لا ينساه. وهو الآن يميّزه عن سائر مرافقيه، ويصطحبه في ذهابه إلى فيينا، ويعهد إليه بأخطر المهمات شأنًا. وقد كتب كوتوزوف من فيينا إلى صديقه القديم والد الأمير أندريه رسالة قال فيها: «إن ابنك يبشّر بأن يغدو ضابطًا لا نظير له لما يملكه من قدرة على العمل، وصلابة في العزم، ودأب واجتهاد. فأنا أعدّ نفسي موفقًا لأنني حظيت بمرؤوس مثله».

وكان للأمير أندريه، في رئاسة أركان كوتوزوف، وبين زملائه، وفي الجيش عامة، سمعتان متعارضتان كل التعارض، كما كانت له هاتان السمعتان في مجتمع بطرسبورغ. فبعض الناس - وهؤلاء أقلية - يعدّونه رجلًا فذًّا، مختلفًا عنهم وعن جميع الآخرين، ويتوقعون له نجاحًا باهرًا، ويسمعون له، ويعجَبون به، ويقلّدونه. وكان هو في معاملة هؤلاء بسيطًا

لطيفًا ممتعًا. وبعضهم الآخر - وهؤلاء هم الأكثرية - لا يحبّونه، ويرون أنه متعجرف وخشن ومزعج. ولكن الأمير أندريه عرف كيف يفرض نفسه على هؤلاء أنفسهم، فهم يكرهونه ولكنهم يحترمونه، بل ويخشونه.

غادر الأمير مكتب كوتوزوف حاملًا أوراقه بيده، ودخل قاعة الانتظار، وتقدم من رفيقه كوزلوفسكي[1]، المرافق المناوب، الذي كان جالسًا قرب النافذة وبيده كتاب.

سأله كوزلوفسكي:

- هيه؟ ماذا يا أمير؟

- كُلّفت بكتابة مذكرة توضح الأسباب التي تجعلنا لا نتقدم.

- وما هي هذه الأسباب؟

هز الأمير أندريه كتفيه. فسأله كوزلوفسكي:

- لا أنباء عن ماك[2].

- لا.

- لو صح أنه هزم لوصل إلينا النبأ.

قال الأمير أندريه وهو يتجه إلى باب الخروج:

- ربما.

ولكنّ جنرالًا نمسويًا طويل القامة، مرتديًا ردنجوتًا، معصوب الرأس بوشاح أسود، مزدان العنق بوسام ماري تيريز، دخل في تلك اللحظة وصفق الباب صفقًا شديدًا. كان واضحًا أنه قد وصل الآن.

وقف الأمير أندريه. فقال الجنرال النمسوي سائلًا بكلام سريع ولهجة ألمانية قوية وهو يجيل بصره في القاعة ثم يتّجه إلى باب مكتب كوتوزوف بغير توقف:

- القائد العام كوتوزوف؟

---

(1) لعله ضابط الحرس نيقولا كوزلوفسكي، ولد سنة 1783 وتوفّي من جراح أصيب بها في معركة بيريزينا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة 1812.

(2) حوصر الجنرال ماك مع جيش قوامه 33 ألف رجل في مدينة «أولم»، واستسلم لنابوليون في 20 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1805.

فأجابه كوزلوفسكي وهو يهبّ متقدمًا منه بحركة سريعة، ويسد عليه الطريق إلى باب المكتب:

- القائد العام مشغول. أبلغه بوصول مَنْ؟

فألقى الجنرال النمسوي على كوزلوفسكي القصير القامة نظرة شزراء تفيض احتقارًا، وكأنه مدهوش من أن أحدًا يمكن أن يجهل من هو.

فردد كوزلوفسكي قوله بهدوء:

- القائد العام مشغول.

فقطّب الجنرال حاجبيه، وتقبضت شفتاه، وأخذتا ترتجفان. واستلّ من جيبه دفترًا صغيرًا، فخط بضع كلمات سريعة بالقلم الرصاص، وانتزع الورقة، وناولها إلى كوزلوفسكي، ثم مضى نحو النافذة بخطوات سريعة فارتمى هنالك على كرسي، وتفرّس في الحضور كأنما يسألهم لماذا ينظرون إليه. ثم رفع رأسه، ومد عنقه كأنه يهم أن يتكلّم ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك، فلم يزد على أن أصدر صوتًا غريبًا كمن أراد أن يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ولكنه عدَلَ وخنق كلامه. وانفتح الباب وطلع كوتوزوف في العتبة. فإذا بالجنرال المعصوب الرأس يهب متقدمًا منه بخطوات سريعة طويلة على ساقيه النحيلتين، وقد انخفض كمن يريد أن يتقي خطرًا داهمه.

قال بصوت يتحطم:

- أنا ماك الشقيّ!

لبث وجه كوتوزوف بضع لحظات ساكنًا سكونًا تامًا وهو واقف أمامه. ثم ألمّ بهذا الوجه غضن سرى فيه سريان موجة، وارتخى جبينه، وإذا بكوتوزوف ينحني بكثير من الاحترام، مغمضًا عينيه صامتًا أمام ماك، وتولى بنفسه إغلاق الباب بعد أن دخل ماك مكتبه.

تبين أن الشائعة التي راجت عن هزيمة النمسويين واستسلام الجيش كله عند «أولم» صادقة. وبعد نصف ساعة كان مرافقو القائد يمضون في اتجاهات مختلفة وهم يحملون أوامر تقول إن القطعات الروسية التي ظلت حتى الآن ساكنة سيكون عليها أن تواجه العدو قريبًا.

وكان الأمير أندريه واحدًا من أولئك الضباط القلائل في هيئة الأركان

العامة، الذين يهتمون بمجرى العمليات الحربية عامة. فبعد أن رأى ماك وعلم بتفاصيل كارثته، أدرك أن الحملة قد تعرّضت لنصف خسارة، وأدرك ما يكتنف وضع الجيوش الروسية من حَرَج وصعوبة، وتصور المصير الذي يتربص بالجيش، والدور الذي عليه أن يقوم به، فكان رغم إرادته يشعر بهيجان وفرح إذ يتصور المذلّة التي لحقت بالنمسا المغرورة، وإذ يتصور أنه بعد ثمانية أيام قد يشهد أول معركة تدور بين الروس والفرنسيين منذ سوفوروف، وأنه قد يشارك في هذه المعركة. ولكنه كان يرهب عبقرية بونابرت التي قد تنتصر على شجاعة الجيوش الروسية، ويظل يستعصي على التسليم بأن بطله يمكن أن ينهزم.

وعلى هذه الحالة من الهيجان والفوارق اللذين تثيرهما هذه الأفكار في نفسه، مضى الأمير أندريه إلى غرفته ليكتب رسالة إلى أبيه كما يفعل كل يوم. وفيما كان يقطع الدهليز ماضيًا إلى غرفته لقي نزفتسكي، رفيقه في الغرفة، والمزّاح جركوف، على عادتهما في كل وقت.

سأله نزفتسكي وقد رأى اصفرار وجهه والتماع عينيه:

- ما لي أراك مربد الوجه؟

فأجابه بولكونسكي:

- لا شيء يدعو إلى المسرة.

وفي اللحظة التي التقى فيها أندريه برفيقه نزفتسكي وصاحبه جركوف في الدهليز، كان جنرال اسمه شتراوخ (وهو جنرال نمسوي ألحق بأركان كوتوزوف لتأمين تموين الجيش الروسي)، وجنرال آخر هو عضو «المجلس الحربي الأعلى»، قد ظهرا في الطرف الآخر من الدهيلز. وكان الدهليز عريضًا عرضًا كافيًا، فيستطيع الجنرالان أن يمرا فيه مع بقاء الضباط الثلاثة في مكانهم. ولكن جركوف دفع نزفتسكي بيده، وقال بصوت لاهث:

- ها هما!... ها هما! تنحّوا! أفسحوا لهما الطريق! أرجوكم! أفسحوا لهما الطريق.

وكان الجنرالان يقتربان وهما راغبان رغبة واضحة في تحاشي مراسم التكريم والتعظيم المزعجة. ولكن ابتسامة جذلى بلهاء ظهرت في وجه

المزّاح جركوف، وكأنه لا يجد إلى كبحها سبيلًا، وتقدم من الجنرال النمسوي قائلًا له باللغة الألمانية:

- يشرفني يا صاحب السعادة أن أعرب عن صادق التهانئ...

قال ذلك وهو يحني رأسه محييًا، ويخبط كعبيه أحدهما بالآخر، مرة من إحدى الجهتين ومرة من الجهة الثانية، كحركات خرقاء لصبية صغار يتعلمون الرقص.

فرشقه الجنرال، عضو «المجلس الحربي الأعلى» بنظرة قاسية، لكنه وقد رأى ما في ابتسامته من صدق وبلاهة، لم يستطع أن يمنع عنه لحظة انتباه، فغضن عينيه إشارة إلى أنه يسمع له. فتابع جركوف كلامه قائلًا:

- يشرفني أن أعرب عن خالص التهنئة، فالجنرال ماك قد وصل سليمًا معافى، اللهم إلّا أن يكون قد أصيب بأذى هنا...

قال جركوف ذلك وهو يضع أصبعه على رأسه، ويستمر في ابتسامه المشرق.

فقطّب الجنرال حاجبيه، وأشاح عنه، وتابع طريقه، وقال حانقًا بعد أن ابتعد بضع خطوات:

- رباه ما هذه السذاجة؟[1]

وعانق نزفتسكي الأمير أندريه وهو يضحك مقهقهًا، ولكن الأمير أندريه بولكونسكي دفعه عنه وقد اشتدت صفرته وارتسم الغضب على وجهه والتفت إلى جركوف. إن حالة الهيجان النفسي والتوفز العصبي التي أحدثتها في نفسه رؤية ماك وأنباء انكساره وفكرة المصير الذي ينتظر الجيش الروسي، قد وجدت لها متنفسًا في غضبه من مزحة جركوف التي لم تكن في محلها. قال له بصوت ثاقب وقد أخذ فكه الأسفل يرتعش قليلًا:

- إذا كنت تحرص، يا سيد، على أن تكون مهرِّجًا، فأنا لا أستطيع أن أمنعك من ذلك أو أن أنهاك عنه. ولكنني أعلن لك أنني سأعلمك كيف يكون سلوكك إذا أنت «تجرّأت» يومًا فهرّجت بحضوري.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بلغت دهشة نزفتسكي وجركوف من غضبة الأمير أندريه بولكونسكي إنهما نظرا إليه صامتين وقد فغرا فاهيهما. ثم قال جركوف:

- ماذا؟ أنا لم أزد على أن هنّأته!

فصرخ بولكونسكي قائلًا:

- لست أمزح. اسكت.

وتأبط ذراع نزفتسكي، وترك الاثنان جركوف في مكانه مفحَمًا لا يجد ما يجيب به. وقال نزفتسكي محاولًا أن يهدئ الأمير أندريه:

- ما بك يا عزيزي؟

فأجابه الأمير وهو يقف عن السير مهتاجًا:

- ما بي؟ أسمع يا نزفتسكي: إما أننا ضباط في خدمة قيصرهم ووطنهم فنفرح بما نحققه من انتصارات مشتركة ونحزن لما نُصاب به من هزائم مشتركة، وإما أننا خدم لا تهمهم شؤون أسيادهم في قليل ولا كثير.

وأضاف يقول بالفرنسية وكأن الكلام بالفرنسية يعزز رأيه مزيدًا من التعزيز:

- أيُذبح أربعون ألف رجل، ويُدمَّر جيش حلفائنا، ثم تضحكون. خليق بصبي كهذا الصبي الذي اتخذته صديقًا لك أن يضحك، أما أنت فهذا الضحك ليس خليقًا بك.

وأردف يقول بالروسية، ناطقًا بكلمة «الصبية» نطقًا فيه لكنة فرنسية، لأنه لاحظ أن جركوف لا يزال يمكن أن يسمعه:

- «الصبية» الصغار وحدهم يلهون هذا اللهو.

وانتظر قليلًا ليرى هل يرد عليه ضابط سلاح الفرسان. ولكن هذا استدار على عقبيه، ومضى لا يلوي على شيء.

الفصل الرابع

كان فوج بافلوغراد[1] من سلاح الفرسان معسكرًا على بعد ميلين من براونلو. وكانت سرية الخيالة التي كان فيها نيقولا روستوف مرشَّحًا، تحتل المدينة الألمانية سالتسينيك. وكان أجمل مسكن في القرية قد خُصّ به قائد السرية، الكابتن دينيسوف، الذي كانت فرقة الخيالة كلها تعرفه باسم فاسكادينيسوف[2]. وكان المرشح روستوف يقيم مع قائد السرية منذ التحق بالفوج في بولنده.

في اليوم الحادي عشر من شهر أكتوبر، في ذلك اليوم نفسه الذي اهتزت فيه القيادة العامة لنبأ الهزيمة التي مني بها ماك، كانت السرية ماضية في حياتها الريفية الهادئة الوادعة. كان دينيسوف قد قضى الليل كله لاعبًا بالورق، ولم يكن قد عاد إلى مسكنه حين رجع روستوف من مهمة توزيع العلف، فوصل إلى مدخل الدار مرتديًا بزَّته الرسمية، هامزًا حصانه، وأنزل ساقه عن صهوة جواده بحركة مرنة رشيقة تفيض شبابًا، وتلبث على الركاب لحظة كأنه لا يترك حصانه إلّا على أسف، ووثب أخيرًا إلى الأرض مناديًا تابعه.

فهرع إليه جندي من سلاح الفرسان. فهتف روستوف يقول له:

---

(1) إن الفوج الثاني من فرسان الجبهة هو الذي تميز وبرز في الحروب التي خاضها الروس ضد الفرنسيين. غير أن أبا تولستوي، نيقولا، لم يخدم في هذا الفوج، بل خدم في فوج فرسان أوكرانيا (الفوج 15)، ولم يخدم في هذا الفوج الأخير نفسه إلّا منذ عام 1812.

(2) إن كابتن الخيالة هذا يتصف ببعض سمات الخيال الشاعر دينيس دافيدون (1784 – 1839)، قائد المقاومة سنة 1812.

- آ... بوندارنكو[1]... صديقي الطيب!

ثم أضاف يقول له بتلك اللهجة الأخوية الحنون الفرحة التي يغدقها الشبان على جميع الناس حين يكونون سعداء:

- نزِّه الحصان قليلًا يا صديقي.

فأجابه الأوكراني وهو يهز رأسه جذلًا:

- أمرك يا صاحب السعادة[2].

وكان جندي آخر من سلاح الفرسان قد هرع إلى الحصان أيضًا. ولكن بوندارنكو كان قد لف الأعنة على ذراعه. كان واضحًا أن المرشح يجزل العطاء، ويغدق «البقاشيش»، فمن يخدمه يستفد منه. ولاعب روستوف عنق الحصان ثم لاعب عرفه، ووقف على درج الباب، قائلًا لنفسه وهو يبتسم: «عظيم! ليكونن حصانًا رائعًا!»، ثم سند سيفه بيده، وراح يصعد درجات الباب أربعًا أربعًا، فيكون لمهمازيه رنين. وظهر الألماني صاحب المسكن عند باب الإسطبل، متسلحًا بالمذراة التي كان يشيل بها الزبل، فما إن رأى روستوف حتى أشرق وجهه، وابتسم فرحًا، وغمز بعينيه، وقال مكررًا: «صباح الخير، صباح الخير»[3]، وكان واضحًا أنه يجد في تحية الشاب مسَرَّة وبهجة.

فقال له روستوف وهو يبتسم تلك الابتسامة الأخوية الفرحة نفسها، التي لا تفارق محياه النشط:

- تعمل منذ الآن؟ عاش النمسويون! عاش الروس! عاش القيصر ألكسندر![4]

وكان روستوف إنما يكرر بذلك الهتافات التي كان يرددها الألماني أحيانًا كثيرة.

---

(1) إن الأسماء التي تنتهي بهذه النهاية: «انكو» هي أسماء أوكرانية.

(2) رغم أن نيقولا روستوف هو يونكر بغير رتبة غير رتبة مرشح، فإن الجندي يخاطبه بقوله «صاحب السعادة»، لأنه يحمل لقب كونت.

(3) بالألمانية في الأصل.

(4) بالألمانية في الأصل.

فأخذ الألماني يضحك، وخرج من الإسطبل، ونزع طاقيته وأخذ يحركها فوق رأسه هاتفًا:

- وعاش العالم كله[1].

فرد عليه روستوف بأن نزع كسكيته ورفعها فوق رأسه، وصاح يقول ضاحكًا: «وعاش العالم كله».

لا الألماني الذي كان ينظّف إسطبله، ولا روستوف الذي كان عائدًا من سخرة ثقيلة تتعلّق بالعلف، لا أحد منهما كان يدعوه أي سبب من الأسباب إلى أن يكون سعيدًا، ومع ذلك نظر كل منهما إلى صاحبه بحماسة فرحة وعاطفة أخوية، وهز كل منهما رأسه معبّرًا لصاحبه عن مودته وصداقته، وانصرف كل منهما عن صاحبه وهو يبتسم ابتسامة جذلى، فمضى الألماني إلى الإسطبل، ودخل روستوف المسكن الذي يقيم فيه مع دينيسوف.

قال روستوف يسأل لافروشكا[2]، الخادم الماكر الذي يعرفه الفوج كله:

- أين مولاك؟

فأجابه لافروشكا قائلًا:

- لم يعد منذ مساء أمس. لا بد أنه خسر. إنني أعرفه. إذا ربح عاد مكبرًا ليتباهى. وإذا طلع الصبح قبل أن يعود فمعنى ذلك أنه خسر. وسوف يعود حانقًا ساخطًا. هل تريد قهوة؟

- هات! هات!

فما هي إلّا دقائق عشر حتى جاء لافروشكا بالقهوة.

ثم، وهو يقدم القهوة إلى روستوف، قال:

- ها هو ذا قد أقبل.

نظر روستوف من النافذة، فرأى دينيسوف عائدًا إلى الدار. إن دينيسوف رجل قصير القامة، أحمر الوجه، عيناه سوداوان ملتمعتان، وشارباه سوداوان مشعّثان، وشعره فاحم منفوش. كانت سترته محلولة الأزرار، وكان سرواله العريض يتهدّل مثنيًا، وكانت طاقيته مجعَّدة مرتدة إلى قذاله.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

(2) تصغير اسم «لافري»، وهو من اليونانية (لاوروس).

صاح يقول بصوت قوي حانق، لاثغًا بالراء:

- لافروشكا، هيا اخلع عني هذا يا أبله!

فأجابه لافروشكا قائلًا:

- أليس هذا ما أفعله؟

وقال دينيسوف مخاطبًا روستوف وهو يدخل عليه:

- أقمت منذ الآن؟

- بل منذ مدة طويلة. جمعت علفًا، ورأيت الآنسة ماتيلد.

فهتف دينيسوف يقول:

- حقًّا! أما أنا فقد نزلت بي المصيبة تلو المصيبة! لا يتصور المرء حظًّا سيئًا هذا السوء! بدأت الرزايا بعد انصرافك فورًا... هيه! هات شايًا!

قال دينيسوف ذلك وهو يصطنع التبسم كاشفًا عن أسنان قصيرة قوية، وينفش - بيديه القصيرة أصابعهما - شعره الأسود الكثيف كغابة.

ثم أضاف وهو يلطم بكفيه جبينه ووجهه:

- حضّني الشيطان على الذهاب إلى الفأر (ذلك كان لقب الضابط). تصوّر: لم أنل ورقة واحدة. لم يعطني ورقة واحدة.

وتناول دينيسوف الغليون المشتعل الذي قُدّم إليه، فشده بقبضة يده، ثم ضرب به الأرض فانتشرت ناره، واستمر هو في صياحه يقول مردّدًا:

- كلما كسب البسيط، خسر البارولي. كلما كسب البسيط خسر البارولي[1]!

نثر نار الغليون كلها، وكسر الغليون ورماه. ولبث صامتًا لحظة، ثم إذا هو ينظر إلى روستوف بعينيه الملتمعتين، نظرة فرحة.

- لو كان هنا نساء على الأقل. ولكن لا، لا شيء إلّا أن نشرب. ليتنا نمضي إلى القتال قريبًا على الأقل.

وصاح يسأل ملتفتًا صوب الباب إذ سمع وقع جزمتين ضخمتين ورنين مهمازين ونحنحة فيها احترام:

---

(1) من مصطلحات لعبة فرعون.

- هيه! من هناك؟

فقال لافروشكا:

- هو الرقيب.

فتجهم وجه دينيسوف مزيدًا من التجهم. وقال وهو يرمي كيسه الذي يضم عددًا من الدنانير الذهبية:

- حظ سيئ! يا روستوف، عزيزي، أعدد كم بقي في الكيس، ثم ضع الكيس تحت المخدة.

وخرج ليرى الزائر.

فتناول روستوف الكيس، وأخذ يسحب منه الدنانير من دون تفكير، ويعدّها جاعلًا القديمة منها في كومة والجديدة في كومة أخرى.

قال صوت دينيسوف في الغرفة المجاورة:

- آ... سلامًا تليانين! ما كان أسوأ حظي في الليلة البارحة؟

- عند من! عند بيكوف؟ عند الفأر؟... كنت أقدر هذا!

بذلك أجاب صوت منغَّم. ثم لم يلبث أن دخل الليوتنانتت تليانين، وهو ضابط قصير القامة من السرية نفسها.

رمى روستوف الكيس تحت المخدة، وصافح اليد الصغيرة الممدودة إليه. إن تليانين هذا كان قبل الحملة قد طرد من الحرس لسبب لا يعرفه أحد. وكان سلوكه في الفوج سلوكًا ممتازًا. ولكن أفراد الفوج لا يحبونه. وكان روستوف خاصة لا يستطيع لا أن يتغلب على الكره الذي يوقظه هذا الضابط في نفسه من دون علة ظاهرة، ولا أن يخفي هذا الكره.

قال تليانين يسأل روستوف:

- هيه أيها الفارس الشاب، هل أنت راض عن غراتشيك!

(إن غراتشيك هو حصان ركوب كان روستوف قد اشتراه من تليانين)

وكان الليوتنانتت لا ينظر أبدًا إلى محدّثه وجهًا لوجه وإنما تنتقل عيناه من شيء إلى آخر. وأضاف يقول لروستوف:

- رأيتك مارًا منذ قليل...

أجابه روستوف بقوله:

- نعم، الحصان جواد.
قال ذلك رغم أن هذا الحصان الذي اشتراه روستوف بسبعمائة روبل لا تساوي قيمته حتى نصف هذا المبلغ.
ثم أضاف روستوف يقول:
- لكنه يعرج الآن بقائمته الخلفية اليسرى.
- لا بد أن السنبك انشقّ! لا قيمة لهذا. سأعلمك كيف تضع برشامًا.
قال روستوف:
- نعم، علمني، أرجوك.
- سأعلمك طبعًا. ليس الأمر سرًّا. وستشكر لي أنني بعتك هذا الحصان.
وكان روستوف راغبًا في التخلص من تليانين، فقال له:
- سآمر بإحضار الحصان.
وخرج.
كان دينيسوف مقرفصًا في الدهليز على عتبة الباب، ممسكًا غليونه بيده، يصغي إلى ما يقوله له الرقيب. فلما رأى روستوف، قطّب، وسدد إبهامه من فوق كتفه صوب الغرفة التي فيها الليوتنانت تليانين، وهز جسمه اشمئزازًا، وقال من دون أن يتحرج في كلامه أمام الرقيب:
- أوه! لشدة ما أكره هذا الشاب!
فرفع روستوف منكبيه كأنه يريد أن يقول: «أنا أيضًا أكرهه، ولكن ما حيلتنا؟». وبعد أن أصدر الأوامر اللازمة، عاد إلى تليانين.
كان تليانين جالسًا جلسته المسترخية نفسها التي تركه عليها روستوف، وكان يفرك يديه الصغيرتين البيضاوين.
قال روستوف محدثًا نفسه: «هناك وجوه لا يملك المرء حين يراها إلّا أن يتقزز».
سأله تليانين وهو ينهض وينظر في ما حوله طلق الهيئة:
- هل أمرت بإحضار الحصان؟
- نعم.
- بل فلنذهب إليه نحن. أنا لم أجئ إلى هنا إلّا لأسأل دينيسوف عن

أوامر الأمس. هل وصلتك الأوامر يا دينيسوف؟

- لا، لما تصلني بعد. إلى أين تذهبان؟

قال تليانين:

- أريد أن أعلِّم هذا الفتى كيف يصلح لحصان حدوته!

وخرجا إلى درج الباب، ومضيا إلى الإسطبل. وقام الليوتنانت تليانين بتعليم روستوف كيف يضع وصلة في حدوة شُقّت. ثم انصرف.

فلما رجع روستوف إلى الغرفة كان على المائدة قنينة فودكا وشيء من نقانق. وكان دينيسوف جالسًا أمام المائدة يكتب على ورقة، فيُسمع لقلمه على الورقة صريف. ونظر إلى روستوف مظلم الوجه، وقال له:

- إليها أكتب.

واتكأ بكوعيه على المائدة والقلم بيده، وأخذ يذكر لروستوف مضمون رسالته، فكان واضحًا أنه سعيد بهذه الفرصة التي تتاح له، وهي أن يسرد، بصوت عال وسرعة أكبر، ما كان يريد أن يكتبه في الرسالة. وقال:

- اسمع يا صديقي، إن الإنسان يظل غافيًا إلى أن يحب. وما البشر إلّا غبار، فمتى أحبوا صاروا آلهة، فإذا هم أطهار كطهارتهم حين خلق الله هذا العالم.

وفيما كان دينيسوف يقول هذا الكلام سمع وقع أقدام فصرخ يقول للافروشكا: من هذا أيضًا؟ أرسله إلى الجحيم! ليس في وقتي متسع. ولكن لافروشكا تقدم منه غير هيّاب وقال له:

- ومن عساه يكون؟ أنت نفسك أمرته أن يجيء، هو الرقيب جاء يلتمس مالًا.

قطّب دينيسوف، وهَمَّ أن يصرخ، لكنه أمسك، وقال يحدث نفسه: «الأمور سيئة». ثم قال يسأل روستوف:

- كم بقي في الكيس من مال؟

أجابه روستوف:

- سبعة دنانير جديدة، وثلاثة دنانير قديمة.

قال دينيسوف:

- آه... الأمور سيئة!

ثم صرخ يقول للافروشكا:

- هيه... ما بالك تقف متسمرًا في مكانك! ألا أرسلت الرقيب؟

قال روستوف ووجهه يحمرّ:

- اسمع يا دينيسوف، إذا كنت في حاجة إلى مال، فإنني أستطيع أن أقرضك. معي ما يكفي.

فأجاب دينيسوف قائلًا:

- لا أحب الاقتراض من أصدقاء، لا أحب هذا!

فعاد روستوف يقول:

- إذا لم تعاملني معاملة رفيق أحزنني ذلك. حقًا إن معي من المال ما يكفي.

قال دينيسوف:

- لا أريد.

وقام إلى السرير يريد أن يأخذ الكيس من تحت المخدة.

- أين وضعت الكيس يا روستوف؟

- تحت المخدة السفلى.

- ولكنني لا أجده.

ورمى دينيسوف المخدات إلى الأرض. فلم يكن هناك كيس. فقال:

- أمر عجيب!

قال روستوف:

- انتظر، لعلك أسقطت الكيس مع المخدات.

وأخذ يرفع المخدات واحدة واحدة ويهزّها، ثم سحب الغطاء وهزه أيضًا. فلم يعثر على الكيس.

قال:

- أتراني نسيت؟ ولكن لا. حتى لقد قلت لنفسي إنك تضع الكيس تحت رأسك دائمًا كأنه كنز.

وقال يسأل لافروشكا:

- وضعت هنا كيسًا، فأين هو؟

أجاب لافروشكا:

- أنا لم أدخل إلى هنا. فلا بد أن تجد الكيس حيث وضعته.

- لا، لا أجده.

- أنت هذا دأبك. ترمي أشياءك في أي مكان ثم تنسى. انظر في جيوبك.

- صحيح. ولكني في هذه المرة أتذكر تذكرًا واضحًا أن تشبيه الكنز قد دار في ذهني وأنا أضع الكيس تحت المخدة. لقد وضعته تحت المخدة، لا يراودني في هذا شك.

ونبش لافروشكا السرير كله، ونظر تحت السرير، ونظر تحت المائدة، ونبش الغرفة كلها، ثم وقف في وسطها مدهوشًا. وكان دينيسوف يتابع حركاته صامتًا، فلما باعد لافروشكا ذراعيه معبرًا عن دهشته، معلنًا أن الكيس لا وجود له في أي مكان، نظر دينيسوف إلى روستوف قائلًا:

- روستوف، دعنا من المزاح...

فحين أحس روستوف بنظرة دينيسوف رفع عينيه، ثم خفضهما في اللحظة ذاتها. إن دمه كله قد اندفع إلى حلقه وازدحم في وجهه وعينيه، وأصبح روستوف كالمختنق لا يستطيع أن يتنفس.

قال لافروشكا:

- لا بد أن الكيس موجود في موضع من المواضع. لم يدخل أحد الغرفة إلّا أنتما والليوتنانت.

فصرخ دينيسوف فجأة وقد احمرّ وجهه احمرارًا شديدًا وهم على تابعه مهددًا:

- تحرك إذًا يا حيوان، وفتش... فتش كل ركن من الأركان. أما أن يعثر على الكيس، وأما أن أظل أجلدك بالسوط إلى أن تموت. لأجلدنّ الجميع حتى الموت.

عقد روستوف أزرار سترته متحاشيًا نظرة دينيسوف، وعلق سيفه بحزامه، ووضع كسكيتته على رأسه.

كان دينيسوف قد أخذ يهز تابعه من كتفيه، ويدقه بالحائط، ويقول له:

- إما أن تجد الكيس، وإما أن...

فقال له روستوف وهو يتّجه نحو الباب من دون أن يرفع عينيه:

- اتركه يا دينيسوف. أنا أعرف من أخذ الكيس.

فتوقّف دينيسوف مفكرًا، ولا شك أنه عرف الشخص الذي يعنيه روستوف، فأمسك ذراع صاحبه، وقال صارخًا بزعيق شد أوردة عنقه وجبينه حتى لكأنها حبال:

- حماقة! أنت مجنون! لن أسمح بشيء من هذا! الكيس هنا. سوف أسلخ جلد هذا الحيوان، فيعثر على الكيس.

عاد روستوف يقول بصوت مختلج:

- أنا أعرف من أخذه.

واتجه نحو الباب.. فأسرع دينيسوف يمسك ذراعه ليصدّه عن الخروج، وصرخ يقول له وهو يحدق إليه تحديقًا قاسيًا:

- إنني أنهاك عن هذا!

غير أن روستوف ملص ذراعه بقوة وعنف، وقال يسأله بصوت متهدج:

- أأنت تفهم ما تقول! لم يكن في الغرفة أحد إلّا أنا، فإذا لم يكن هو الذي أخذ الكيس، كان معنى ذلك أنني أنا الذي...

ولم يستطع روستوف أن يكمل جملته، وولّى راكضًا لا يلوي على شيء.

- شيطان يأخذك أنت والآخرين جميعًا!

كانت تلك هي آخر الكلمات التي سمعها روستوف.

ومضى روستوف إلى بيت الليوتنانت تليانين. فقال له تابعه.

الليوتنانت ليس هنا. لقد ذهب إلى الأركان.

ثم أضاف يسأل وقد أدهشه المرشح بسحنته المنقلبة:

- هل حدث شيء؟

- لا. لم يحدث شيء.

قال التابع:

- لو وصلت قبل برهة قصيرة لوجدته.

إن مقر الأركان يبعد عن سالتسنيك ثلاثة فراسخ. فما كان من روستوف

إلّا أن ركب حصانه، واتجه إلى مقر الأركان من دون أن يعرِّج على بيته. إن في القرية التي جعلت مقرًا للأركان نزلًا يرتاده الضباط. فاتجه روستوف إلى ذلك النزل رأسًا. فما إن وصل إليه حتى رأى حصان تليانين عند بابه.

كان الليوتنانت تليانين جالسًا إلى مائدة في الصالة الثانية، وعلى المائدة طبق نقانق وزجاجة نبيذ. فلما رأى روستوف مقبلًا نحوه، رفع حاجبيه مبتسمًا وقال له بلهجة التعجب:

- آ... أأنت أيضًا هنا أيها الفتى؟

فأجابه روستوف قائلًا بجهد شاق:

- نعم.

وجلس إلى مائدة مجاورة.

صمت الاثنان كلاهما. وكان في الصالة ألمانيان وضابط روسي.

إن الجميع صامتون، فلا تسمع إلّا قرقعة السكاكين على الأطباق، وطقطقة فكَّيْ الليوتنانت. حتى إذا انتهى تليانين من تناول طعامه، استل من جيبه كيسًا مزدوجًا، فزحلق حلقاته بأصابعه الصغيرة المرفوعة تغندرًا، وأخرج من الكيس دينارًا ذهبيًا، ومده إلى الخادم قائلًا له:

- هاتِ الباقي بسرعة.

كان الدينار الذهبي جديدًا. فنهض روستوف، واقترب من تليانين، وقال له بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- اسمح لي بأن أرى كيسك.

فقال تليانين:

- كيس جميل، أليس كذلك؟

وأضاف يقول وقد أصفرّ وجهه فجأة:

- نعم، نعم، انظر أيها الفتى!

فتناول روستوف الكيس، ونظر فيه وفي المال الذي يحتويه، ثم نظر إلى تليانين. وكان الليوتنانت تليانين ينقِّل بصره في ما حوله على عادته، وكأنه صار مرحًا على حين فجأة.

- حين نصير في فيينا، ننفق كل شيء. أما هنا، في هذه الجحور الوسخة،

فلا شيء يستحق الإنفاق. هات كيسي أيها الفتى، فأنا ذاهب.

- لم يجب روستوف.

فتابع تليانين كلامه قائلًا:

- وأنت؟ هل جئت لتناول غدائك؟ الطعام جيّد هنا! هات الكيس.

ومد يده وأمسك الكيس، فأرخاه روستوف، فأخذ تليانين الكيس، ودسّه في جيب سرواله، وارتفع حاجباه بطلاقة، وانفتح فمه كأنما ليقول: «نعم، أضع كيسي في جيبي. الأمر بسيط جدًّا، لا يعني أحدًا غيري!».

ثم قال وهو يتنهد ويحدق إلى عيني روستوف من تحت حاجبيه المرفوعين:

- ماذا يا فتى؟

إن تيارًا سريعًا كسرعة شرارة كهربائية قد أخذ ينتقل من عيني تليانين إلى عيني روستوف، ثم من عيني روستوف إلى عيني تليانين، وهكذا دواليك، في مدى لحظة واحدة، ثم إذا بروستوف يمسك ذراع تليانين ويقول له مدمدمًا في أذنه وهو يكاد يجره إلى النافذة جرًّا:

- تعال هنا. هذه نقود دينيسوف، سرقتها أنت...

فأخذ تليانين يردد مضطربًا:

- ماذا؟ كيف؟ كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام؟ كيف... ولكن هذه الكلمات خرجت من صدره صراخًا كصراخ يائس يستغيث ويضرع ويتوسَّل. فما إن سمع روستوف هذه النبرة حتى تخلّص من وطأة الشك، وأيقن أن تليانين هو سارق الكيس، فشعر بفرح، وفي الوقتِ نفسه أخذته شفقة بهذا الرجل الشقي الواقف أمامه. ولكن كان لا بد من المضي بالأمر إلى نهايته.

دمدم تليانين يقول وهو يتناول كسكيتته ويتجه نحو غرفة صغيرة خالية:

- الله يعلم ما عسى يظن الناس هنا... يجب أن نتفاهم...

قال روستوف:

- إنني أعرف ماذا أقول، وسوف أبرهن لك على صحته.

- أنا...

واصفرّ وجه تليانين اصفرارًا شديدًا، وانتابه رعب قوي، وأخذ جسمه كله يرتعش، وطفق بصره ينتقل من شيء إلى آخر على عادته، ولكنه الآن لا ينظر إلّا إلى تحت، ولا يرتفع لينظر إلى روستوف، ثم إذا هو ينشج نشيجًا مخنوقًا ويقول:

- كونت!... لا تضيّع إنسانًا.... إليك الدنانير فخذها... إن لي أبًا، وأمًا!...

قال ذلك وهو يرمي الكيس على المائدة. فتناول روستوف الكيس، واتجه إلى الباب، متحاشيًا نظرة تليانين، ومتجنبًا أن يقول كلمة واحدة. ولكنه وقف عند عتبة الباب، ثم قفل راجعًا إلى تليانين، وقال له والدموع في عينيه:

- ولكن كيف أمكن أن تفعل هذه الفعلة؟

فلم يزد تليانين على أن اقترب من المرشح وهو يقول له:

- كونت!

فقال له روستوف وهو يبتعد عنه:

- لا تلمسني. وإذا كنت في حاجة إلى هذا المال، فخذه!

قال ذلك ورمى إليه الكيس، ثم خرج من النزل راكضًا.

الفصل الخامس

في مساء ذلك اليوم نفسه نشبت مناقشة حامية عند دينيسوف بين ضباط كتيبة الفرسان.

قال كابتن طويل القامة، أشيب الشعر، متغضن الوجه، بارز القسمات، ضخم الشاربين، قال لروستوف وقد اشتد اهتياجه واحمر احمرارًا قويًّا:

- وأنا أقول لك يا روستوف إن عليك أن تعتذر إلى قائد الفوج Regiment.

كان الكابتن كيرستن قد جُرِّد من رتبته العسكرية واستردها مرتين لأمور تتّصل بالشرف.

هتف روستوف يقول:

- لا أسمح لأحد بأن يدّعي أنني أكذب. لقد قال لي إنني أكذب، فأجبته بأنه هو الذي يكذب. ووقف الأمر عند هذا الحد. إن في وسعه إن يندبني للخدمة في جميع الأيام إذا شاء، وفي وسعه أن يحبسني إذا أراد، ولكن لن يجبرني أحد على أن أعتذر إليه، ذلك أنه إذا كان يتصوّر أنه لا يليق به، وهو برتبة كولونيل، أن يرضيني، فـ...

قاطعه الكابتن بصوته الجهير وهو يملّس شاربه الطويل بهدوء:

- اسمع، اسمع يا عزيزي. اصغ إليَّ. لقد قلت لقائد الفوج أمام ضباط آخرين إن ضابطًا قد سرق...

- - ليس ذنبي أن الحديث دار على هذا الأمر بحضور ضباط آخرين. ربما كان لا ينبغي الكلام على هذا الأمر بحضورهم، ولكنني لست دبلوماسيًا. وإذا كنت قد اخترت أن أدخل في سلاح الفرسان فلأنني كنت

أعتقد أن المرء في سلاح الفرسان لا يحتاج إلى المصانعة والمداهنة. وقد قال لي إنني أكذب... فما عليه إلّا أن يرضيني...

- هذا كله كلام حسن. لا أحد يعدّك جبانًا. ولكن المسألة ليست هنا. اسأل دينيسوف هل يحدث أن يطلب مرشح من كولونيل أن يرضيه؟...

وكان دينيسوف يصغي إلى المناقشة مربدّ الوجه عاضًّا على شاربه. وكان واضحًا أنه لا يحب التدخل في هذه المناقشة. فلما ألقى الكابتن سؤاله، هز رأسه بحركة تعني النفي.

وتابع الكابتن كلامه فقال:

- لقد حدثت الكولونيل عن تلك الفعلة الدنيئة أمام ضباط. فلم يزد بوغدانوفتش على أن ردّك إلى التزام النظام (باسم بوغدانوفتش[1] كانوا يسمون قائد الفوج).

- لم يردَّني إلى التزام النظام، بل نعتني بالكذب.

- - صحيح. ولكنك انطلقت تقول له كلامًا أحمق، فيجب عليك أن تعتذر إليه.

صرخ روستوف يقول:

- مستحيل!

فقال الكابتن بلهجة رصينة قاسية:

- ما كنت أتوقع هذا منك. إنك لا تريد أن تعتذر. ومع ذلك فإنك يا عزيزي لم تخطئ في حقّه وحده، بل أخطأت في حق الفوج كله، في حقنا جميعًا. وليتك فكرت في الأمر، وسألت في هذه القضية نُصحًا.. ولكنك لم تفعل، وإنما أطلقت كلامك صريحًا فجًّا، وفعلت ذلك بحضور ضباط آخرين. فماذا بقي للكولونيل أن يفعل؟ هل كان عليه أن يحيل ضابطًا إلى مجلس حربي، فيلطخ بذلك سمعة الفوج كله؟ أيدنّس شرف الفوج كاملًا بسبب ضابط تافه حقير لا قيمة له؟ أهذا ما كان يجب عليه أن يفعله في رأيك! إن رأينا نحن مختلف عن هذا الرأي. أن نقول: مرحى بوغدانوفتش!

---

(1) الكولونيل كارل بوغدانوفتش شوبرت (ولعل اسم بوغدانوفتش ترجمة للاسم غوتليب) وهو يسمى باسم الأب وحده من باب رفع الكلفة.

لقد كان على حق حين قال لك إنك تكذب. ذلك شيء لا بد أن يسوءك طبعًا. ولكن ما الحيلة يا عزيزي؟ لقد سعيت إلى هذه الإساءة بنفسك. ونحاول نحن الآن أن نخنق القضية، فتدفعك الكبرياء الزائفة إلى رفض الاعتذار عن خطئك، وتصر على أن تروي كل شيء. لقد ضايقك أن تُندب للخدمة، ولكن ماذا يكلفك من عناء أن تعتذر إلى ضابط مسنّ شريف! مهما تكن عيوب بوغدانوفتش، فإنه كولونيل مسنّ شريف شجاع. يضايقك أن تعتذر إليه. إما أن يلطَّخ شرف الفوج كله فأمر لا يهمك البتة، ولا ينالك بأي سوء، ولا يحدث لك أي ضيق!

أخذ صوت الكابتن يختلج، وتابع كلامه يقول:

- يا عزيزي، أنت في هذا الفوج منذ مدة قصيرة جدًّا. واليوم أنت هنا، وغدًا تصبح مرافق قائد في مكان من الأمكنة. فلا يهمك أن يقول الناس: «إن بين ضباط بافلوغراد لصوصًا!». أما نحن فيهمنا هذا كثيرًا. أليس كذلك يا دينيسوف؟ يهمنا هذا كثيرًا.

كان دينيسوف لا يزال صامتًا لا يتكلم، ولا يزال ساكنًا لا يتحرك. وكان ينظر من حين إلى حين إلى روستوف بعينيه السوداوين الملتمعتين.

واصل الكابتن كلامه فقال:

- أنت تحرص على خيلائك الزائفة، فلا تريد أن تعتذر، أما نحن القدماء، فإننا سنموت بمشيئة الله في هذا الفوج كما كبرنا فيه. لذلك نحرص على شرف الفوج، وبوغدانوفتش يعلم ذلك. ما أشد حرصنا على شرف الفوج يا عزيزي! لأقولنَّ الحقيقة صريحة كل الصراحة دائمًا سواء أزعجك هذا أم لم يزعجك! ليس حسنًا ما تفعل.

قال الكابتن ذلك، ونهض من مكانه وأشاح بوجهه عن روستوف، فصاح دينيسوف يقول وقد وثب واقفًا على قدميه:

- هذا حق. هيا يا روستوف، هيا!

فاصفرَّ وجه روستوف ثم احمر، وراح ينقل بصره بين الضابطين. ثم انطلق يقول:

- لا يا سادة... لا... لا يذهبن ظنكم إلى... أني لا أفهم معنى ما يُقال...

إنكم لتخطئون الظن إذا انصرف ذهنكم إلى أنني... أنا... اعلموا أنني أحرص على شرف الفوج وأن شرف الراية في نظري... نعم، هذا حق... أنا مخطئ!...

كانت عينا روستوف قد اغرورقتا بالدمع، وتابع كلامه يقول:

- أنا مخطئ... أنا مخطئ حتمًا... ماذا تريدون فوق هذا؟

صاح الكابتن يقول وهو يلتفت إليه ويربت بيده الضخمة على كتفه:

- هذا حسن يا كونت.

وصاح دينيسوف مخاطبًا الكابتن:

- ألم أقل لك إنه فتى شهم؟

وعاد الكابتن يقول مخاطبًا روستوف بلقب الكونت كأنما ليكافئه على اعترافه بخطأه:

- هذا أفضل يا كونت. اعتذر له يا صاحب السعادة، نعم، اعتذر له.

قال روستوف بصوت ضارع:

- أفعل كل ما تأمرون به يا سادة، ولن أبوح لأحد بشيء... ولكنني لا أستطيع الاعتذار... أحلف لكم أنني لا أستطيع الاعتذار، لا أقدر عليه، لا قبل لي به! افعلوا ما تريدون! كيف أذهب إليه معتذرًا كصبيّ صغير، طالبًا عفوه وصفحه.

فأخذ دينيسوف يضحك. وقال كيرستن:

- لك ما تشاء. ولكن في هذا وبالٌ عليك. إن بوغدانوفتش حقود ولسوف تدفع ثمن عنادك.

- يمينًا ما هذا بعناد! لا أستطيع أن أصف لكم ما أشعر به. إنني لا أقدر أن...

قال الكابتن:

- أنت حر.

وأضاف يسأل دينيسوف:

- أين مضى ذلك الوغد؟

- تظاهر بالمرض، فنُقل محمولًا. وسوف يُمنحُ في الغد إجازة على ضوء التقرير الطبي.

قال الكابتن:

- إنه لمريض حقًّا. هذا مرض حقًّا. لا يمكن تفسير الأمر بغير المرض.

فصرخ دينيسوف بصوت كاسر:

- سواء أكان مرضًا أم لم يكن مرضًا، فإنما المهم ألا يقع تحت يدي، وإلا قتلته.

ودخل جركوف الغرفة. فسأله الضباط:

- ما جاء بك إلى هنا؟

فأجاب!

- أمر بالمسيرة يا سادة! استسلم ماك وجيشه!

- أهذا معقول؟

- رأيته بعيني.

- ماذا؟ رأيت ماك بلحمه وعظمه! بذراعين؟ وبساقين؟

- إلى القتال! إلى القتال! اسقوه قنينة جزاء النبأ الذي جاءنا به! ولكن أنت، ما وجودك هنا؟

- رُددت إلى الفوج من جديد بسبب ماك هذا! شكاني جنرال نمسوي. كنت قد هنّأت الجنرال بوصول ماك... ماذا بك يا روستوف؟ لكأنك خارج من حمام!...

- نحن هنا في ورطة منذ يومين، يا صديقي.

ودخل الضابط الذي يبلّغ الأوامر، فأكد الخبر الذي حمله جركوف. لقد صدر الأمر بالسير غدًا.

- إلى القتال يا سادة!

- الحمد لله! لقد تحجّرنا هنا!

الفصل السادس

كان كوتوزوف قد انكفأ إلى فيينا، وهدَّم في طريقه الجسور المشيَّدة على نهر إينس وفي (براوناو) وعلى نهر تراون[1] (في لينتس) وكانت الجيوش الروسية تعبر نهر إينس[2]. فالقوافل والمدفعية وأرتال القطعات تجتاز مدينة إينس بعد الظهر ممتدة على جانبي الجسر.

الجو جو خريف دافئ ممطر. والنظر الرحيب الذي تطل عليه كتائب المدفعية الروسية من فوق الذروة التي احتلتها حماية للجسر، يتحجَّب تارة على حين فجأة بستارة من مطر خفيف مائل كأنه غلالة، ويتسع تارة أخرى، فإذا بالأشياء تظهر في الأقاصي واضحة في ضوء الشمس كأنها مبرنَقة. وتظهر المدينة الصغيرة بمنازلها البيضاء وأسقفها الحمراء، وكاتدرائيتها، وجسرها الذي تجري سيول القطعات الروسية على جانبيه متزاحمة. وعند عقفة الدانوب تُرى مراكب وجزيرة وقصر له حديقة تحيط بها مياه ملتقى إينس والدانوب، وتُرى الضفة اليسرى الوعرة التي تغطيها غابة من أشجار الصنوبر، وتُرى الوراءها أقاصٍ يلفها السر هي ذرى خضر وشعاب زرقاء. وهذه أبراج دير تنبثق من غابة صنوبر تبدو بكرًا متوحشة. وأمامها في بعيد، على تلة الوراء نهر إينس تبدو دوريات العدو.

وعلى التلة، في مقدمة كتيبة المدفعية، أخذ الجنرال قائد المؤخرة وضابط من حاشية الإمبراطور، يتفحَّصان أرض الموقع بمنظار مقرِّب. والوراءهما

---

(1) إن نهري إين ولينتس رافدان من روافد الدانوب من جهته اليسرى.

(2) هو الرافد التالي من روافد الدانوب بعد نهر تراون.

قليلًا، كان نزفتسكي، مبعوث القائد العام للمؤخرة، جالسا على ركيزة مدفع. وكان القوزاقي الذي يرافقه يمد إليه كيسًا وقارورة، وكان نزفتسكي يقدّم للضباط فطائر صغيرة وخمرة كمّون أصلية. وكان الضباط يحيطون به فرحين، فبعضهم جاثٍ على ركبتيه، وبعض مقرفص فوق الحشيش المبتل على الطريقة التركية.

قال نزفتسكي:

- نعم، لم يكن غبيًا ذلك الأمير النمسوي الذي بنى لنفسه قصرًا هنا. إنه مكان جميل!

فأجابه أحد الضباط مفتتنًا أعظم الافتتان بأنه يكلم عضوًا له مثل هذا الشأن الخطير من أعضاء هيئة أركان الحرب:

- لك أجزل الشكر يا أمير. موقع رائع. لقد لقينا أيلّين حين كنا نقطع الحديقة. وما أفخمه من منزل!

وقال ضابط آخر كان يتمنّى لو ينال فطيرة أخرى، ولكنه كان في حرج من أمره، لذلك كان يتظاهر بأنه يتأمّل المنظر:

- انظر يا أمير، انظر، ها هم أولاد جنودنا المشاة يصلون إلى المكان. هؤلاء ثلاثة منهم في المرج الوراء القرية يجرّون شيئًا.

وأضاف يقول محبذًا تحبيذًا واضحًا:

- سوف ينهبون القصر، فيفرغونه من كل ما فيه.

قال نزفتسكي:

- صحيح، صحيح!

ثم أضاف يقول وهو يمضغ فطيرة بفمه الرطب الجميل:

- ولكن ما كنت أتمناه هو تسلق تلك الرابية.

قال ذلك وهو يشير إلى الدير وأبراجه التي تظهر على الرابية. وابتسم، فتضيّقت عيناه والتمعتا، وأردف يقول:

- ذلك يكون أمرًا مبهجًا حقًا يا سادة.

فأخذ الضباط يضحكون.

- ليتنا نستطيع على الأقل أن نروّع أولئك الراهبات. يظهر أنهنّ إيطاليات،

وبينهن فتيات في ريعان الصبا ونضارة الشباب. إني لأهب خمس سنين من عمري لأظفر بهن!

فعقب على ذلك ضابط أجرأ من غيره، فقال وهو يضحك:

- لا سيما وأنهن يشعرن بضجر ولا شك.

وفي أثناء ذلك كان ضابط الحاشية يدل الجنرال على شيء، فتناول الجنرال المنظار المقرِّب وسرَّح من خلاله بصره. ثم قال حانقًا وهو يخفض المنظار ويهز كتفيه:

- فعلًا، فعلًا، سيسيرون تحت مرمى النار. ما بال رجالنا يتباطأون هذا التباطؤ!

وفي الجهة الأخرى كان يُرى العدو بالعين المجردة، وكانت تُرى إحدى كتائب مدفعيته وقد تصاعد فوقها دخان أبيض بلون اللبن، ثم إذا بانفجار يدوِّي في البعيد، فتغذّ قطعاتنا خطاها مسرعة.

نهض نزفتسكي نافخًا، ودنا من الجنرال وهو يبتسم. وقال يسأله:

- ألا تريد أن تصيب شيئًا من شراب أو طعام يا صاحب السعادة؟

فقال الجنرال من دون أن يجيب عن سؤاله:

- الحال سيئة. رجالنا متأخّرون.

فسأله نزفتسكي:

- أأمضي إليهم يا صاحب السعادة؟

فقال الجنرال مكررًا أوامره التي سبق أن أصدرها مفصَّلة:

- نعم، امضِ إليهم. قل للفرسان أن يكونوا آخر العابرين، وأن يحرقوا الجسر كما أمرت بذلك.. وأن يتحقّقوا من المواد التي لا تشتعل في الجسر.

قال نزفتسكي:

- حسنًا جدًّا.

ونادى مرافقه القوزاقي الذي كان يمسك حصانه، وأمره بوضع الكيس والقارورة في موضعهما، وبحركة خفيفة صار جسمه الثقيل على سرج الجواد.

وقال للضباط الذين كانوا ينظرون إليه مبتسمين:

- سأقوم بجولة على الراهبات حقًّا.

وسار في الطريق الضيّق الذي يهبط متعرجًا.

وقال الجنرال مخاطبًا قائد كتيبة المدفعية:

- هلم يا كابتن! اعبث بمدافعك قليلًا لمخادعة العدو.

فنادى الضابط سدنة المدافع قائلًا:

- السدنة! إلى مدافعكم!

فما هي إلّا لحظة حتى هرع سدنة المدافع يلقمون مدافعهم. وصدر الأمر مدويًا:

- المدفع الأول، أُطلق!

فاندفعت الطلقة الأولى رشيقة سريعة. وهدر المدفع بصوت معدني يصم الآذان، ومرت القنبلة فوق رؤوس رجالنا عند سفح الرابية صافرة، ودلت على مكان سقوطها بدخان ضئيل تصاعد الوراء مواقع العدو، وانفجرت.

فلما سمع جنودنا وضباطنا صوت انفجارها ازدادت وجوههم تهللًا وبشرًا، وقاموا عن أماكنهم جميعًا واستغرقوا يتابعون بأبصارهم حركات قطعاتنا التي يرونها تحت كأنها في راحة كف، ويرون أمامها قطعات العدو تقترب. وفي تلك اللحظة نفسها خرجت الشمس من بين الغيوم تامة، فكان أن امتزج انطلاق القنبلة الجميل وتلألؤ الشمس الساطعة، وانصهرا في إحساس واحد يبعث الفرح، ويثير النشوة.

الفصل السابع

كانت قذيفتان من قذائف العدو قد مرتا فوق الجسر، فاشتد عليه التزاحم. وفي وسط الجسر كان الأمير نزفتسكي قد ترجَّل، وأصبح جسمه الضخم مضغوطًا على الدرابزين. فكان من حين إلى حين يلتفت ضاحكًا نحو صاحبه القوزاقي الذي كان ممسكًا بزمامي الحصانين على مسافة بضع خطوات في الالوراء. وكان الأمير نزفتسكي ما يكاد يحاول أن يستأنف السير حتى تصدّه أرتال الجنود والعربات وتعود تضغطه على درابزين الجسر، فلا يبقى له إلّا أن يبتسم.

قال القوزاقي لجندي يقود عربة نقل، فيصدم المشاة الذين أصبحوا يتكومون حتى تحت عجلات العربة وحوافر خيلها:

- ما هذا يا صديقي؟ أليس في إمكانك أن تنتظر؟ ويجب أن ندع لجنرالي أن يمر...

ولكن الجندي لم يعبأ بلقب الجنرال، وظل يهيب بالرجال الذين يسدون طريقه أن يتنحوا:

- هيه يا رجال تنحوا إلى اليسار! انتظروا!

ولكن الرجال الذين كانت أكتافهم متلاصقة متراصَّة، يتشبثون بحرابهم، ويتقدمون على الجسر كتلة واحدة كثيفة بغير انقطاع. وكان نزفتسكي ينظر من فوق الدرابزين فيرى أمواج نهر إينس، السريعة الصاخبة، يختلط بعضها ببعض، ويرتسم عليها الزّبَد، وتلتف حول أعمدة الجسر، وتتلاحق موجة بعد موجة. وينظر إلى الجسر فيرى أمواجًا من البشر تتلاطم كتلاطم أمواج النهر رتيبة مطردة، ويرى قلنسوات وأشرطة وصررًا وأكياسًا وحرابًا

وبندقيات طويلة، ويرى تحت القلنسوات وجوهًا ناتئة الوجنات، خاسفة الخدود تعبّر عن قلة الاكتراث وشدة التعب، ويرى دَوْس الأقدام في الوحل اللزج الذي يفرش ألواح الخشب في أرض الجسر. وكانبثاق الزبد فوق سطح مياه نهر إينس كان ينبثق في بعض الأحيان ضابط يرتدي معطفًا ويشقّ لنفسه طريقًا بين أمواج الجند المتشابهة، مختلفًا وجهه عن وجوه سائر الرجال. وفي أحيان أخرى يُرى فارس مترجل أو تابع أحد الضباط أو رجل مدني وقد جرفه سيل المشاة كما يجرف تيار النهر قطعة من خشب، أو تُرى عربة ضباط، أو شاحنة جنود، قد غصت بركابها وأسدل عليها غطاء، وجرت على الجسر محاطة بالحشد من كل جهة، فكأنها جذع شجرة يطفو على سطح مياه النهر الدافقة.

قال القوزاقي وقد تثطبت عزيمته:

- كأنه سدٌّ تحطم!... ألا يزال هناك خلق كثير. سيتدفقون هذا التدفق؟

- فأجابه جندي جذل كان يمر بقرب معطفه الممزق.

- مليون إلّا واحدًا!

وغاب الرجل الجذل. وأعقبه جندي آخر، شيخ في هذه المرة، فقال لرفيقه وقد اكفهرّ وجهه:

- حين سيأخذ برشّ الجسر، فلسوف ينسى المرء أن يحك جلده.

(إن الضمير المستتر في فعل «سيأخذ» هو العدو. فكذلك يتخاطب الجنود حين يتكلمون عن العدو. إنهم حين يقولون «هو» إنما يقصدون العدو).

ومر الجندي. والوراءه كان يجيء آخر في عربة. وقال تابع يلحق العربة بخطى سريعة، وهو ينبش مؤخرتها:

- أين تراك وضعت جوربيك؟

ومر هذا أيضًا هو والعربة.

وفي أثره كان يجيء جنود فرحون لا شك بأنهم شربوا خمرة فثملوا. كان واحد منهم يقول جذلًا وهو يجري بيده حركة عريضة وقد رفع ياقة معطفه حتى بلغت أذنيه:

- لو رأيته كيف هوى بعكازته على خصمه فجأة...

فأجاب آخر وهو يقهقه قهقهة مجلجلة:

- حلو! الجامبون مشهور.

ومرّ الجنود، فلم يعرف نزفتسكي من الذي أصابته ضربة العكازة على أسنانه، من هو المقصود بالجامبون.

وقال ضابط صف بلهجة حانقة تعبر عن الاستياء والاستنكار:

- ما أشد استعجالهم! كأن نارًا تلسع أدبارهم! فلأن العدو قذف قنبلة لا هدف لها، تخيلوا أنه سيقتلهم جميعًا.

فأجابه جندي شاب ضخم الفم وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم ضحكته:

- حين مرت القنبلة بجانبي يا صاحبي تسمَّرت في مكاني... حقًّا. أحلف لك. شعرت بخوف هائل. يا له من بؤس.

بذلك ختم الجندي كلامه كمن يتباهى بأنه خاف.

ومرَّ هذا أيضًا. وجاءت بعده عربة نقل لا تشبه أية واحدة من سابقاتها. إنها عربة ألمانية يجرها حصانان، وكأن بيتًا بكامله قد تكدَّس في داخلها. كان يقود العربة رجل ألماني. وقد ربطت بها بقرة مبرقشة كبيرة الضرع. وعلى لحاف من ريش في داخلها كانت تجلس امرأة تحمل بين ذراعيها رضيعًا، وتجلس عجوز هرمة وامرأة ألمانية قوية الجسم محمرّة الوجه. كان واضحًا أن هؤلاء اللاجئين إنما سُمح لهم بالمرور بترخيص خاص. التفتت جميع الأعين إلى النساء، وبينما كانت العربة تمر متقدمة خطوة خطوة لم تتناول ملاحظات الجنود غيرهن، وقد أضاءت جميع الوجوه ابتسامة تكاد تكون واحدة، تنم عن الأفكار الخبيثة التي طافت برؤوس الجنود عنهن.

- انظر إلى هذا المنفوخ. إنه يجر نفسه أيضًا.

- يعني هذه المرأة الطيبة.

كذلك قال جندي آخر مخاطبًا الألماني الذي كان يسير بخطوات واسعة، خافضًا عينيه معبّرًا بهيئته عن الحنق والذعر.

- ما أشد تبرّجها! شيطان يأخذهم!

- ذلك هو الذي سيكون عليك أن تسكن عنده يا فيدوتوف!

- رأينا كثيرًا غيره يا صاحبي!

وكان ضابط من ضباط المشاة يقضم تفاحة وينظر هو أيضًا إلى الفتاة الجميلة مبتسمًا نصف ابتسامة، فقال يسأل:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

فأغمض الألماني عينيه، وعبّر بإشارات عن أنه لا يفهم.

قال الضابط وهو يمد التفاحة إلى الفتاة:

- تريدين منها؟ خذيها!

فابتسمت الفتاة وأخذت التفاحة. وكان نزفتسكي، كسائر الموجودين على الجسر، لا يحوّل بصره عن هؤلاء النساء اللواتي كنَّ يعبرنَ الجسر. حتى إذا غبن عن الأبصار مر جنود آخرون لا يختلفون عن سابقيهم، وكانوا يتبادلون تلك الأحاديث نفسها. وأخيرًا توقف الجميع عن السير. ذلك أنه حدث ما يحدث في كثير من الأحيان، وهو أن خيول عربة من عربات النقل قد توقفت عند آخر الجسر مترددة، فاضطر الجمهور كله أن ينتظرها.

- لماذا يقفون؟ لم يصدر أي أمر! ما بالك تقدَّم؟ هذا لا يعرف الانتظار. ستسوء الحال مزيدًا من السوء حين يحرق الجسر. انظر. هذا ضابط يُحصَر هنا.

هذا ما كان يقال في الحشد المتوقف وقد أخذ أفراده ينظر بعضهم إلى بعض، وكانوا يتزاحمون على الخروج من الجسر.

وفيما كان نزفتسكي يلقي نظرة على الجسر، وعلى مياه نهر إينس، إذا هو يسمع ضجة لا عهد له بمثلها من قبل، كانت تقترب سريعة... إنها ضجة شيء ضخم سقط في الماء محدثًا دويًا شديدًا.

فقال أحد الجنود على مقربة منه وهو يلتفت إلى مصدر الضجة:

- هه! انظر إلى أين يسدد!

فقال جندي آخر بلهجة فيها قلق وخوف:

- هو يفعل هذا ليشجعنا على العبور بسرعة أكبر!

واهتز الجمهور من جديد. وأدرك نزفتسكي أن ما سقط في الماء هو قذيفة مدفع. وصاح ينادي القوزاقي:

- هيه! يا قوزاقي! جئني بحصاني! وأنتم هلموا، تنحّوا، اصطفوا، إفسحوا مجالًا للمرور!

واستطاع أن يبلغ حصانه بجهد كبير، وجعله يتقدم وهو لا يكف، عن الصياح، وتراصّ الجنود ليتيحوا له أن يمر، ومع ذلك صدموه صدمًا بلغ من الشدة أنهم آلموا ساقه إيلامًا شديدًا، ولم يكن القريبون منه هم المسؤولين عن ذلك، لأنهم كانوا هم أنفسهم يُدفعون دفعًا أشد، ويُصدمون صدمًا أقوى.

وفي تلك اللحظة صاح الوراءه صوت أبحُّ يناديه قائلًا:

- نزفتسكي! نزفتسكي! هيه! يا منفوخ!

فالتفت نزفتسكي إلى الالوراء، وعلى مسافة خمس عشرة خطوة منه تملأها كتلة المشاة المتحركة، رأى فاسكا دينيسوف محمر الوجه مشعث الشعر وقد رد كسكيتته إلى الالوراء، وألقى فروته على كتفه بافتخار.

كان دينيسوف قد استبدّ به حنق واضح، وأخذت عيناه السوداوان تقدحان شررًا، وأخذت يده الصغيرة التي كانت بلا قفاز تلوّح بسيفه المغمود في قرابه، فصاح يقول:

- قل لهم، قل لهؤلاء الشياطين، لهؤلاء الأبالسة أن يفسحوا ممرًا...

فأجاب نزفتسكي يقول في فرح:

- هيه! فاسيا؟ ما حدث لك؟

فصرخ دينيسوف يقول بغضب مكشّرًا عن أسنانه البيضاء:

- لا تستطيع السرية أن تمر...

قال دينيسوف ذلك وهو يهمز حصانه الجميل الذي كان اسمه «البدوي»، وهو حصان أصيل أكحل كان يهدل أذنيه حين يصطدم بالحراب، ويحمحم فيخرج من خطمه الزبد، ويقرع ألواح الجسر بحافريه، وكأنه مستعد أن يتخطى الدرابزين وثبًا متى أحس بأن فارسه يسمح له بأن يفعل.

- ما هذا؟ ما معنى هذا؟ أغنام! أغنام حقًا! ارجعوا إلى الالوراء!... إفسحوا ممرًا! قف أنت، هناك! وأنت، صاحب العربة، لأقطعنَّك بسيفي تقطيعًا!

كذلك أخذ يصيح دينيسوف وقد أخرج سيفه من غمده وشهره فعلًا. فكان الجنود يتراصون مرتاعين، واستطاع دينيسوف أن يصل إلى نزفتسكي.

قال نزفتسكي حين اقترب منه دينيسوف:

- كيف لا أراك اليوم سكرانًا؟

فأجاب فاسكا دينيسوف بقوله:

- لا يدعون لك وقتًا لتسكر! ما فتئوا يجرّون الفوج تارة هنا وتارة هناك طول النهار. إذا كانوا يريدون القتال فليقاتلوا. وإلا فما هذا الذي يعملون؟... ما أعجب أمرهم!

قال نزفتسكي وهو يتأمل المعطف الجديد الملقى على كتف دينيسوف، وينظر إلى عدة حصانه:

- ما أشد أناقتك اليوم!

فابتسم دينيسوف، واستل من جعبة سيفه منديلًا يضوع عطرًا، ودسه تحت أنف نزفتسكي، وأضاف يقول:

- يستحيل أن أفعل غير هذا. إنني ماض إلى القتال. لذلك حلقت ذقني، وتدهّنت بالعطر، وغسلت أسناني.

واستطاع نزفتسكي ودينيسوف أن يشقا لنفسيهما ممرًا بين الحشد الكثيف، وأن يبلغا آخر الجسر، بفضل قامة نزفتسكي المهيبة والقوزاقي الذي يرافقه والسيف الذي كان يشهره دينيسوف صائحًا بأعلى صوته. وفي آخر الجسر، وجد نزفتسكي الكولونيل الذي كان يجب عليه أن يبلغه الأوامر، فلما فرغ من القيام بمهمته قفل راجعًا.

وبعد أن شق دينيسوف طريقًا لرجاله، وقف عند مدخل الجسر، وأخذ ينظر إلى سريته مقبلة عليه، كابحًا زمام جواده الذي كان ينخر نافد الصبر شوقًا إلى الانضمام إلى سائر الخيل. ودوت على ألواح الجسر ضجة ذات رنين، كالتي تدوي حين تعدو خيول عدة خببًا، وامتدت السريّة على الجسر وقد اصطفت الخيل أربعًا أربعًا، وأخذت تنتقل إلى الضفة الأخرى من النهر.

فكان جنود سلاح المشاة، الجامدون في أمكنتهم، وقد غاصت أرجلهم

في الوحل، يشعرون بتلك العاطفة الخاصة التي يشعر بها جنود الأسلحة المختلفة بعضهم تجاه بعض، وهي عاطفة الاختلاف والبعد التي تخالطها عداوة وسخرية، كانوا ينظرون إلى الفرسان الذين تبدو عليهم النظافة والأناقة وهم يخطرون أمام أبصارهم على نظام دقيق وترتيب جميل. فقال واحد منهم معلقًا:

- هؤلاء فتية متبخترون، وهم لا يصلحون إلّا للاستعراض في ساحة بودنوفنسكويا[1].

وقال آخر:

- ما نفع هذا! إنهم لا يسيرونهم إلّا للغش والخداع!

وأخذ أحد الأفراس يتراقص فلطَّخ بالوحل أحد جنود المشاة، فقال راكب الفرس مازحًا:

- لا تثر غبارًا، يا جندي سلاح المشاة!

فأجابه جندي سلاح المشاة قائلًا:

- لو جعلوك تسير مرحلتين اثنتين حاملًا على ظهرك كيسك، لرأينا كيف تهترئ اهتراء. ما هذا برجل. ما هو إلا عصفور حط على حصان!

وقال عريف يمازح جنديًا هزيلًا كان ينحني جسمه تحت وطأة كيسه الثقيل:

- ينبغي أن تركب أنت حصانًا يا زيكين! لكم تكون جميلًا لو امتطيت صهوة جواد!

فقاطعه راكب الفرس قائلًا:

- ما عليك إلّا أن تضع بين ساقيك عصا فإذا أنت فارس جميل!

---

(1) هي ميدان للتدريب يقع في شمال موسكو.

الفصل الثامن

كانت أرتال المشاة تعبر الجسر مسرعة، فيتشكّل منها عند مدخله ما يشبه قِمْعًا. وقد مرت العربات كلها فقلّ التزاحم ودخلت الجسر آخر سريّة، ولم يبقَ على الضفة الأخرى في مواجهة العدو إلّا فرسان دينيسوف. وكان العدو لا يزال لا يُرى من الجسر، وإنما يلمح من الرابية المقابلة في البعيد، لأن المجرى الذي يسيل فيه النهر محجوب على مدى نصف فرسخ في أقل تقدير. وكانت دوريات من قوزاقنا تتجوّل في مكان خال هنا وهناك. ثم إذا بقطعات من الجند ذات معاطف زرقاء تظهر في الأمام على حين بغتة مع مدافعها. إنهم الفرنسيون. فتنزل دورية من القوزاق إلى أسفل الضفة خببًا. ويحاول ضباط سرية دينيسوف وجنوده أن يتكلّموا في أمر غير هذا الأمر، وأن ينظروا إلى مكان غير ذلك المكان، وألا يفكروا في ما يجري هناك على الرابية، ولكنهم لا يفلحون، فهم ينعمون النظر في تلك البقع التي تنبجس في الأفق، والتي يعرفون أنها قطعات من جيوش العدو. وكان الوقت هو الأصيل، فالشمس الساطعة تخفّ أشعتها على الدانوب وعلى الجبال الدكناء التي تحيط به، وكان كل شيء هادئًا ساكنًا، لولا أصوات أبواق وصيحات تصل من جهة العدو بين الفينة والفينة. ولم يبق بين السرية وبين العدو إلّا دوريات صغيرة. وأصبح لا يفصل بينهما إلّا مكان خال يبلغ طوله زهاء ستمائة متر. وقد كف العدو عن الرمي. غير أن هذا التوقف عن الرمي إنما عزز وضوح الشعور بذلك الخط الصارم الرهيب المخيف الذي لا يمكن بلوغه ولا يمكن إدراكه، ذلك الخط الذي يفصل بين جيشين عدوَّين.

«تجاوز هذا الخط الذي يذكّر بالخط الفاصل بين الأحياء والأموات،

فاذا أنت قد غدوت في الأفق المجهول، أفق العذاب والموت. ما هناك؟ من هناك؟ بعد ذلك الحقل، بعد تلك الشجرة، بعد ذلك السقف الذي تنصبّ عليه أشعة الشمس؟ لا أحد يعرف ذلك؟ وكل واحد يود أن يعرف. يخشى المرء أن يقطع ذلك الخط، ويريد لو يقطعه. وهو يعرف أنه سيكون عليه أن يقطعه عاجلًا أو آجلًا، فيعلم ماذا يوجد هناك الوراء الخط، كما سيعلم ما بعد الموت. ولكن الرجال يزخرون قوة وصحة وفرحًا ونشاطًا، ويحيط بهم رجال لا يقلّون عنهم صحة ونشاطًا وحماسة». ذلك ما كان يفكر فيه أو قل ما كان يشعر به على الأقل، كل رجل من هؤلاء الرجال إزاء العدو، فكان هذا الشعور أو هذا الإحساس يهب لكل ما يحدث في ذلك الحين بروزًا خاصًا، ويهب للإدراك حدة شديدة وفرحًا قويًّا.

وانتشر في الرابية التي يحتلها العدو دخان طلقة مدفع، ومرت القذيفة فوق رؤوس سرية الفرسان صافرة. فأخذ الضباط يعود كل منهم إلى مركزه بعد أن كانوا مجتمعين. وأخذ الفرسان ينظّمون صفوفهم. وصمت في السرية كل شيء. إن الجميع ينظرون إلى العدو أمامهم، ويلتفتون بأبصارهم إلى قائد السرية ينتظرون أن يأمرهم بشيء. ومرت قذيفة ثانية فثالثة. وكان واضحًا أن العدو يسدد طلقاته إلى الفرسان. غير أن القذائف كانت تمر فوق رؤوسهم صافرة صفيرًا رتيبًا وسريعًا، وتمضي تسقط في مكان الوراءهم. وكان الفرسان لا يديرون رؤوسهم: ولكن السرية كلها، على ما في وجوهها من تنوع كثير تجمعه الوحدة، كانت متى دوت قذيفة من القذائف تنتصب قامات رجالها على الركاب كأنها أمرت بذلك أمرًا، وتحبس أنفاسها أثناء مرور القذيفة فوق رؤوسها، ثم تسقط على السروج متى سقطت القذيفة على الأرض. وكان الجنود ينظر بعضهم إلى بعض بأطراف الأعين من دون أن يحركوا رؤوسهم، وكل واحد منهم يرصد ردود رفيقه باهتمام شديد. وحول الشفتين، وفي كل الوجوه، من وجه دينيسوف إلى وجه نافخ البوق، يظهر الآن تعبير مشترك عن روح التجلد، وتوتر الأعصاب، وتأجج الانفعال. والرقيب يقطب حاجبيه وهو يتفرس في الرجال كأنما هو يهددهم بعقاب. والمرشح ميرونوف ينحني كلما مرت قذيفة. وروستوف الذي يركب على

الجنب الأيسر من حصانه المهيب على ما تعانيه ساقاه من ألم، يبدو سعيدًا سعادة تلميذ سوف يتقدم أمام جمهور غفير إلى امتحان يعرف معرفة اليقين أنه سينجح فيه نجاحًا باهرًا، فهو يجيل على ما حوله نظرة وضّاءة مشعّة، كأنه يُشهِد جميع الناس على ما يبديه من هدوء تحت القذائف. ومع ذلك كان ذلك التغضن القاسي يظهر حول شفتيه هو أيضًا على رغم إرادته.

صاح دينيسوف، وكان لا يستقر في مكان ولا ينفك يدور بحصانه في طليعة السرية:

– من ذا الذي يحييه هناك؟ يا مرشح ميرونوف! ليس هذا حسنًا. إلي أنا إنما يجب أن تنظر.

إن فاسكا دينيسوف، بأنفه الخانس، ووجهه المحاط بشعر أسود، وقامته الصغيرة، ويده المتعضلة القصيرة الشَّعْراء، الممسك قبضة سيفه الذي أخرجه من غمده، هو الآن على عهدنا به، ولا سيما حين يقبل المساء ويكون قد أفرغ في جوفه زجاجتين من الخمرة. وقد صار الآن أشد حمرة. كان رافعًا رأسه الأشعث، كالطيور حين تشرب، وكانت قدماه الصغيرتان تغرسان مهمازيه في جنبي جواده «بدوي» بغير رحمة، فيجري به الجواد خببًا إلى الطرف الآخر من السرية وكأن جسمه يهوي إلى الوراء، ويصيح بصوت أجش آمرًا بتأهيب المسدسات. واقترب من كيرستن، فأقبل عليه الآمر المساعد خطوًا، وكان يركب فرسًا عريضة وديعة، وكان بشاربيه الطويلين رصين الهيئة على العهد به، وكانت عيناه تلتمعان أكثر مما عهد فيهما من التماع. قال يخاطب دينيسوف:

– ما الفائدة من هذا؟ لن نصل إلى حد التلاحم. سوف نتراجع. سترى هذا بعينيك.

فجمجم دينيسوف يجيبه:

– لا يعلم إلّا الشيطان ماذا يفعلون.

ثم هتف ينادي المرشح وقد لاحظ ما يعبّر عنه وجهه من فرح:

– هيه! روستوف! ها أنت قد نلت أخيرًا ما كنت تريد.

وابتسم مستحسنًا محبّذًا. وكان واضحًا أنه مسرور من المرشح. وأحس

روستوف بسعادة كبيرة. وفي تلك اللحظة ظهر القائد على الجسر. فهرع دينيسوف إليه، وقال له:

- صاحب السعادة! اسمح لي بالهجوم. سوف أدحرهم.

فقال القائد بصوت ضجر وهو يجعد وجهه تجعيد من يذب عنه ذبابة مزعجة:

- هذا هو الأمر فعلًا. ما بقاؤكم هنا؟ ها هي ذي الدوريات تنسحب، عودوا بالسرية.

فعبرت السرية الجسر، وخرجت من منطقة النيران من دون أن تفقد من رجالها أحدًا، وتبعتها سرية أخرى كانت مصطفة، وجلا عن هذه الضفة أواخر القوزاق.

وبعد أن أتمت سريتا الفرسان في فوج بافلوغراد عبورهما الجسر، انسحبتا واحدة بعد أخرى إلى الروابي، وانضم الكولونيل كارل بوغدانوفتش شوبرت إلى سرية دينيسوف، فكان حصانه يسير به خطوًا غير بعيد من روستوف من دون أن يلتفت إليه ومن دون أن يوليه انتباهًا، رغم أن هذا اللقاء هو أول لقاء لهما منذ النزاع الذي قام بينهما في أمر تليانين. ولكن روستوف إلذي يحس بأنه في الحرب خاضع لسلطة هذا الرجل الذي يشعر الآن أنه مذنب في حقّه، كان لا يحوّل بصره عن الكولونيل، ولا يني ينظر إلى ظهره القوي، وقذاله الأشقر، ورقبته الحمراء، فتارة يبدو له أن بوغدانوفتش يتظاهر بعدم الاكتراث تظاهرًا، وأن غايته الوحيدة هي الآن أن يختبر شجاعة المرشح، فإذا هو ينصب قامته ويلقي على ما حوله نظرة فرح، وتارة يتصوّر أن بوغدانوفتش يتعمد أن يكون قريبًا منه هذا القرب كله ليظهره على ما يتّصف به هو من بسالة وشجاعة، وتارة يقول لنفسه إن عدوه سيجعل السرية تنخرط في هجوم عنيف عقابًا له هو روستوف، أو يتخيل أيضًا أن الكولونيل سيجيئه بعد الهجوم مصالحًا، مادًّا إليه يده في كرم وسماحة بعد أن أصيب هو بجرح.

وها هو ذا جركوف الذي يعرف خيالة بافلوغراد قامته ذات الكتفين العالبين (وهو لم يترك الفوج إلّا منذ زمن قصير) يقبل على الكولونيل. إن

جركوف، بعد أن طُرد من القيادة العامة، لم يبق في الفوج، وقال إنه ليس غبيًّا فيرضى أن يبقى في صفوف المقاتلين بينما هو يستطيع أن يرتقي ارتقاء أسرع إذا عُيّن في هيئة الأركان. وقد تمكن ببذل المساعي من أن يعين ضابطًا ملحقًا بالأمير باغراتيون. وهو يحمل الآن إلى رئيسه القديم أمرًا من قائد المؤخرة.

قال مخاطبًا عدو روستوف مكفهرَّ الوجه صارم الهيئة وهو يلقي نظرة على رفاقه:

– كولونيل،، إن الأمر هو بالتوقف وإحراق الجسر.

– أمر من؟

كذلك سأله الكولونيل الكالح السحنة. فأجابه جركوف بلهجة رصينة:

– لا أدري حقًّا من أصدر هذا الأمر يا كولونيل. لكن الأمير قال لي: «امض إلى الكولونيل، فابلغه أن تتراجع الخيالة وأن يحرق الجسر».

وبعد جركوف حمل هذا الأمر نفسه إلى كولونيل الخيالة ضابط من ضباط الحاشية تبعه نزفتسكي على ظهر فرس صغير من أفراس القوزاق ينوء بحمله وهو يعدو به خببًا.

صاح نزفتسكي قائلًا حتى قبل أن يقف:

– ما هذا يا كولونيل؟ قلت لكم أن تحرقوا الجسر فلم تفعلوا. إنهم في هيئة الأركان العامة يشدّون شعرهم غضبًا، ولا يفهمون من هذا السلوك شيئًا.

فأوقف الكولونيل فوجه بغير إسراع، وقال متجهًا بكلامه إلى نزفتسكي:

– لقد حدثتني عن مواد مشتعلة، أما عن إحراق الجسر فلم تذكر لي شيئًا.

قال نزفتسكي وقد وقف ونزع كسكيتته وأخذ يملس بيده السمينة على شعره المبتل بالعرق:

– كيف تزعم «يا عزيزي» أنني لم أذكر لك شيئًا عن إحراق الجسر وقد وضعت عليه مواد مشتعلة؟

– لا تخاطبني بقولك «يا عزيزي» أيها السيد الضابط الأعلى. أنت

لم تحدّثني بشيء عن إحراق الجسر! إنني أعرف واجبات خدمتي، وقد تعودت أن أنفذ الأوامر تنفيذًا دقيقًا. لقد قلت إن الجسر قد يحرق، ولكنك لم تشر بكلمة إلى من سيتولى إحراقه، وما كان في وسعي أن أعرف ذلك بوحي من روح القدوس...

فقال نزفتسكي وهو يجري يده بحركة تعبر عن التسليم والإذعان:

- طيّب، طيّب. هي الحكاية نفسها تتكرر دائمًا...

وأضاف يسأل جركوف:

- ما جاء بك إلى هنا؟

- ما جاء بي أنا هو ما جاء بك أنت. ولكنك مبتلّ ابتلالًا شديدًا فهل لي أن أعصرك؟

وتابع الكولونيل كلامه قائلًا بلهجة فيها امتعاض وانزعاج.

- قلت أيها السيد الضابط الأعلى...

ولكن ضابط الحاشية قاطعه بقوله:

- يجب الإسراع يا كولونيل. وإلا قرّب العدو مدافعه إلى حيث نصبح في متناول الرمي.

فنظر الكولونيل إلى ضابط الحاشية صامتًا، ثم نظر إلى الضابط الضخم، وإلى جركوف مقطبًا حاجبيه. وقال بلهجة وقور كأنه يريد أن يعبّر بذلك عن أنه، رغم جميع المضايقات التي يسببونها له، سوف يقوم بواجبه خير قيام:

- سأحرق الجسر.

وهمز حصانه بساقيه الطويلتين المعضلتين كأن الحصان هو سبب كل شيء، وانطلق إلى أمام، وأمر السرية الثانية، وهي السرية التي يعمل فيها روستوف تحت إمرة دينيسوف، بأن ترجع إلى الجسر.

قال روستوف محدثًا نفسه: «لعمري هذا ما قدّرت. إنه يريد أن يمتحنني». وانقبض صدره وازدحم الدم في وجهه. وأضاف يخاطب نفسه: «لسوف يرى إن كنت جبانًا!».

وعاد إلى وجوه رجال السرية، التي كانت فرحة متهلّلة الأسارير، عاد إليها ذلك التعبير نفسه الذي كان يكسوها حين كانت الرؤوس تحت أزيز

القنابل. وكان روستوف لا يحوِّل بصبره عن عدوه الكولونيل، باحثًا في وجهه عن مصداق لظنونه. ولكن الكولونيل لم ينظر إليه مرة واحدة، وكان قاسي السحنة وقور الوجه على العهد به في القتال.

ودوَّى صوت يصدر أمرًا. وقالت عدة أصوات بقرب روستوف:

- بسرعة، بسرعة.

فإذا الفرسان ينزلون عن صهوات خيولهم مسرعين، بين قرقعة المهاميز واشتباك الأسياف بالأعنة، وهم لا يعرفون ما سيجب عليهم أن يفعلوه. ورسموا على أنفسهم إشارة. وكفَّ روستوف عن النظر إلى الكولونيل، فإن وقته غدا لا يتسع لذلك. إنه الآن يشعر بخوف، يشعر بخوف شديد من أن يتخلّف عن الفرسان. كانت يده ترتعش وهو يسلِّم عنان حصانه إلى سائس الخيل، وكان قلبه يخفق خفقانًا شديدًا. ومرَّ دينيسوف أمامه مرتدَّ الجسم إلى الوراء، صائحًا ببعض الكلام. كان روستوف لا يرى شيئًا، ولا يبصر إلّا هؤلاء الفرسان يركضون من حوله، ويتعثرون بمهاميزهم، وتقرقع أسيافهم.

وصاح صوت الوراءه ينادي:

- نقَّالة!

فلم يتساءل روستوف ما معنى طلب النقَّالة. فلقد كان يجري وليس له من هَمٍّ إلّا أن يكون في الطليعة متقدمًا جميع الرجال. ولكنه حين وصل إلى الجسر، وكان لا ينظر إلى موطئ قدميه، انزلق على الوحل اللزج فسقط منكبًّا على يديه، وتجاوزه الآخرون.

وكان الكولونيل قد سبق الرجال، ووقف مع حصانه غير بعيد عن الجسر، فعلا صوته يقول مشرق الوجه متهلل الأسارير:

- من الجهتين يا كابتن!

جفَّف روستوف. يديه المتسختين بسرواله، وأدار وجهه إلى عدوِّه، وأراد أن يستأنف ركضه، قائلًا لنفسه إنه كلما أوغل في الجري فوصل إلى مكان أبعد، كان ذلك أجدر به وأخلق. ولكن بوغدانوفتش وبَّخه صارخًا في حنق من دون أن ينظر إليه ومن دون أن يعرفه:

- من ذا يركض في وسط الجسر؟ إلى اليمين! أيها المرشّح، ارجع إلى الوراء.

والتفت إلى دينيسوف الذي كان يعرض بسالته وجسارته متقدمًا بحصانه على ألواح الجسر، فقال له:

- علام المخاطرة يا كابتن؟ الأفضل أن تنزل عن حصانك.

فأجابه فاسكا دينيسوف وهو يستدير على سرجه:

- القذيفة تهتدي إلى من تريد أن تصيبه.

وفي أثناء ذلك كان نزفتسكي وجركوف وضابط الحاشية يقفون معًا في خارج دائرة الرمي، ويتجهون بأبصارهم تارة إلى تلك الجمهرة من الرجال الذين يرتدون معاطف صفراء وسترات قاتمة الخضرة ذات زخارف برندنبورغية، مع سراويل زرقاء ويتحركون ويضطربون بقرب الجسر؛ وتارة إلى الجهة الأخرى فيرون المعاطف الزرقاء، ويرون جماعات من رجال وخيل تظهر في بعيد، فلا يعسر على المرء أن يعرف أنها سرايا مدفعية.

«أيتمُّ إحراق الجسر أم لا؟ من ذا يصل قبل الآخر؟ أيبلغونه فيحرقوه أم يقترب الفرنسيون فيصبح الآخرون في متناول رميهم فيبيدوهم؟». تلكم هي الأسئلة التي كان كل واحد يلقيها على نفسه مغموم القلب مرتاح النفس رغم إرادته بين أفراد القطعات الكثيرة الذين كانوا يقفون على الروابي المطلة على النهر، وينظرون إلى الضوء الساطع ترسله الشمس الغاربة، ويرون المعاطف الزرقاء مقبلة مع حرابها ومدافعها.

قال نزفتسكي:

- لسوف يُضرب الفرسان ضربة رهيبة. ليسوا الآن بعيدين عن متناول الرمي.

وقال ضابط الحاشية:

- أخطأ إذ اقتاد هذا العدد الكبير من الرجال.

وعقَّب نزفتسكي:

- فعلًا. كان يكفي إرسال رجلين اثنين. الأمران سيان.

فقال جركوف من دون أن يحوِّل بصره عن الفرسان، ولكن بلهجته

الساذجة تلك التي لا تتيح للمرء أن يحزر أهو جاد أم هازل:

- ما هذا الكلام يا صاحب السعادة؟ كيف تريد أن يرسل رجلين اثنين لا أكثر؟ هل يمكن أن نمنح عندئذ وسام «صليب فلاديمير»؟ أما الآن فمن الجائز، لو جاءت الخسائر فادحة، أن تُمنح السرية كلها أوسمةً، وأن يحصل بوغدانوفتش نفسه على وشاح. إن صاحبنا بوغدانوفتش يعرف كيف تجري الأمور.

قال ضابط الحاشية:

- انظروا! سيبدأ الرمي!

قال ذلك وهو يشير إلى المدافع الفرنسية وهي تُسحب من مقدَّم العربات، وتُبعد عنها دوابُّها بسرعة. وانتشر دخان في جهة الفرنسيين حيث ترابط المدافع، ثم دخان ثان فثالث انتشرا في آن واحد تقريبًا، وما إن وصل دويُّ الانفجار الأول إلى الأسماع حتى انتشر دخان رابع. ثم دوَّى انفجاران واحدًا بعد الآخر، ثم دوَّى انفجار ثالث.

قال نزفتسكي في أنين، كأن ألمًا حادًّا قد أصابه، وهو يمسك ذراع ضابط الحاشية:

- أوه! أوه! انظروا! هذه قذيفة تسقط. سقطت! سقطت!

- هما اثنتان في ما أظن!

- لو كنت القيصر، لما خضت حربًا قط!

كذلك قال نزفتسكي مشيحًا وجهه.

وسرعان ما ألقمت المدافع الفرنسية من جديد. وهجمت مدفعية المعاطف الزرقاء على الجسر. وعادت الأدخنة تنتشر موجة بعد موجة على غير نظام، وفرقعت القذائف تضرب الجسر. ولكن نزفتسكي لم يستطع في هذه المرة أن يرى ماذا يحدث. ارتفع من الجسر دخان كثيف. لقد استطاع الفرسان أن يشعلوا النار في الجسر، وأصبحت المدفعية الفرنسية ترميهم لا لتمنعهم من إحراق الجسر، بل لمجرد أن المدافع مسددة وأن ثمة هدفًا تصوِّب إليه.

تمكن الفرنسيون من أن يرموا ثلاث مرات قبل أن يرجع الفرسان إلى

خيولهم، فأخطأوا هدفهم مرتين، وأصابوه في المرة الأخيرة إذ سقطت القذيفة في وسط جماعة من الفرسان فصرعت منهم ثلاثة.

ووقف روستوف بقرب الجسر مشغول البال بعلاقاته ببوغدانوفتش، لا يعرف ماذا يعمل. لم يكن هناك أحد يستطيع أن يضربه بسيفه (إن روستوف لا يتصور معركة من المعارك إلّا ضربًا بالسيوف)، وكان لا يستطيع أيضًا أن يساعد في إحراق الجسر، لأنه لم يحمل حزمة قش كما فعل سائر الجنود. وبينما هو ينظر حوله، إذا بفرقعة تدوِّي على الجسر كأن جوزًا قد تساقط عليه وانتشر فوقه، وإذا بأقرب فارس منه يهوي على الإفريز وهو يئن. فركض روستوف إليه مع الآخرين. وعلا صوت ينادي من جديد:

- نقالة!

وأمسك بالفارس أربعة رجال فأنهضوه. فصرخ الجريح:

- أووه! اتركوني، ناشدتكم الله!

ولكن الرجال أنهضوه وأضجعوه على النقّالة.

أشاح نيقولا روستوف وجهه، وسرح بصره في بعيد كأنه يبحث عن شيء من الأشياء، فنظر إلى ماء الدانوب، وإلى السماء، وإلى الشمس. ما أجمل ما بدت السماء لعينيه! ما كان أشد زرقتها! ما كان أهدأها وأعمقها! ما كان أبدع أشعة الشمس في تلك الساعة من الأصيل! وما كان أروع التماع الماء في الدانوب البعيد! وأجمل من ذلك أيضًا كانت الجبال الزرقاء العالية وراء الدانوب، وكان الدير، وكانت شعاب الجبال الغائصة في السر، وكانت غابات الصنوبر الغارقة في الضباب حتى ذراها... هناك كان الهدوء، هناك كانت السعادة... قال روستوف يحدّث نفسه: «يكفي أن أكون هناك، فلا أرغب في شيء، ولا أطلب شيئًا. ما أعظم السعادة التي في نفسي وفي هذه الشمس!... أما هنا... فالأنين، والعذاب، والخوف، وهذه البلبلة وهذا الاضطراب... ما إن يصيح صائح مرة أخرى بنداء، حتى يركضوا جميعًا متراجعين لا أدري إلى أين، وإذا أنا أركض مع الراكضين، ثم إذا هو الموت أمامي، وفوقي، وحولي... وما هي إلّا لحظة، فإذا أنا لا أرى هذه الشمس وهذه المياه وهذا الوادي بعد ذلك أبدًا..»..

وفي تلك اللحظة أخذت الشمس تحتجب وراء الغيوم. ومرت أمام روستوف نقّالات أخرى. فانصهرت في نفس روستوف مشاعر شتى هي الخوف من الموت ومن هذه النقالات، وهي محبة الشمس، وهي الرغبة في الحياة، فتكوّن من تلك المشاعر كلها إحساس واحد أليم قلق. ودمدم روستوف مناجيًا ربه بينه وبين نفسه: «اللهم يا رب هذه السماء، اللهم أنقذني واغفر لي واحمني».

وعاد الفرسان إلى الخيول يأخذونها من سائسيها، وأمست الأصوات أشد قوة وأكثر هدوءًا. وكانت النقالات قد غابت عن الأبصار.

هتف فاسكا دينيسوف يسأله من فوق أذنه:

- هيه! ها أنت يا عزيزي قد عرفت البارود أول مرة!

قال روستوف يحدّث نفسه: «انتهى كل شيء. ولكنني جبان. نعم أنا جبان». وتناول زمام حصانه من السائس وهو يتنهد تنهّدًا عميقًا، ووضع قدمه في الركاب، ثم قال يسأل دينيسوف:

- ما الرمي هذا؟

فصرخ دينيسوف يقول:

- رمي! لقد أبلينا بلاء حسنًا! ولكن هذا القتال حقير! إن الهجوم شيء جميل. ففي الهجوم يخوض المرء معركة. أما هذا الذي فعلناه فلا يعلم إلّا الشيطان ما معناه! كانوا يسددون إلينا كتسديدهم إلى هدف.

قال دينيسوف ذلك وابتعد متجهًا إلى جماعة كانت تقف غير بعيد من روستوف. كانت الجماعة تضم الكولونيل ونزفتسكي، وجركوف، وضابط الحاشية.

«يبدو لي مع ذلك أن أحدًا لم يلاحظ شيئًا». كذلك قال روستوف لنفسه. وقد صدق ظنه. فما من أحد لاحظ شيئًا بالفعل، لأن كل واحد قد عانى الشعور الذي عاناه المرشح حين مواجهة النيران أول مرة.

قال جركوف:

- هذا ما يستحق أن يُكتب عنه تقرير. من يدري؟ قد أُرقّى أنا أيضًا إلى رتبة ملازمٌ ثانٍ.

فقال الكولونيل بلهجة فيها أبهة ومرح معًا:

- أبلغ الأمير أنني أحرقت الجسر!

- وإذا سألني عن الخسائر؟

أجاب الكولونيل بصوت جهير:

- الخسائر تافهة: جرح فارسان، وسقط ثالث جثة هامدة.

ولم يستطع الكولونيل أن يكظم فرحه، وبلغ من شدة إعجابه بتعبير «جثة هامدة»، أنه أطلقه بصوت رنان وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة مشرقة.

الفصل التاسع

كان الجيش الروسي الذي يتألف من خمسة وثلاثين ألف رجل بقيادة كوتوزوف، ويطارده الجيش الفرنسي المؤلف من مائة ألف رجل بقيادة بونابرت، ويستقبله الأهالي بروح العداء، وقد فقد الثقة بحلفائه وعانى من نقص التموين واضطر أن يقاتل قتالًا ليس فيه شرط من الشروط الذي يمكن التنبؤ بها في الحرب، كان هذا الجيش يتراجع مسرعًا إلى سافلة الدانوب، ويتوقف فيدركه العدو، فيتخلص بأعمال تقوم بها مؤخرته ولا تتعدى ما هو لازم للتمكن من التراجع دون أن يتكبد خسائر في حمولاته. وقد وقعت اشتباكات بقرب لامباش وأمستتن وميلك[1]. ولكن هذه الاشتباكات، رغم ما اتصف به الروس في قتالهم من جسارة وقدرة على تحمل المكاره والشدائد، وذلك ما اعترف به العدو نفسه، لم يكن لها من نتيجة إلّا تعجيل الانسحاب. والقطعات النمسوية التي أفلتت من الأسر في أولم، وانضمت إلى كوتوزوف بقرب بروناو، كانت قد انفصلت الآن عن الجيش الروسي، وتركت كوتوزوف لقواته وحدها منهكة مرهقة، حتى أن أمر الدفاع عن فيينا لم يعد الآن محل بحث، وبدلًا من الحرب الهجومية التي تصورها «المجلس الحربي الأعلى» النمسوي وفقًا لقوانين ذلك العلم الجديد المسمى بالإستراتيجية، والتي سلم خطتها إلى كوتوزوف أثناء إقامته في فيينا، أصبح الهدف الوحيد الذي يمكن أن يسعى إليه كوتوزوف، وهو هدف يكاد يستحيل الوصول إليه، هو أن يحقق اللقاء بالقطعات الوافدة من

(1) قرى نمسوية على الطريق المؤدية من لنتس إلى فيينا.

روسيا، دون أن يخسر جيشه على غرار ما حدث للجنرال ماك في أولم.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، انتقل كوتوزوف بجيشه إلى الضفة اليسرى من نهر الدانوب، فتوقف لأول مرة، بعد أن جعل الدانوب حائلًا بينه وبين القوات الفرنسية الرئيسية. وفي اليوم الثلاثين هاجم فرقة مورتييه[1] التي كانت مرابطة وحدها على الضفة اليسرى فهزمها، وفي هذه المعركة أمكن الحصول على غنائم لأول مرة، راية ومدافع وجنرالين من قادة العدو. ولأول مرة بعد تراجع دام خمسة عشر يومًا، تمكنت القطعات الروسية أن تتوقف، حتى أنها بعد المعركة لم تكتف بالسيطرة على الأرض بل راحت تطارد الفرنسيين فلاذوا بالفرار. ورغم أن القطعات الروسية كانت منهوكة القوى رثة الثياب قد نقص ثلثها بين زاحف وقتيل وجريح ومريض، ورغم أنها تركت في الجهة الأخرى من الدانوب مرضى وجرحى مع رسالة من كوتوزوف يوصي بها العدو خيرًا بهؤلاء المرضى والجرحى مناشدًا إنسانيته، ورغم أن المستشفيات الكبرى والمباني الضخمة التي أحيلت في مدينة كريمس[2] إلى محاجر صحية أصبحت لا تستطيع إيواء جميع المرضى والجرحى، رغم ذلك كله فإن التوقف بقرب كرمس والانتصار على مورتييه قد شدا عزيمة القطعات الروسية، وراحت الإشاعات تسري في الجيش كله وفي القيادة العامة زاعمة أن الأرتال القادمة من روسيا تقترب، وأن النمسويين حققوا انتصارًا، وأن بونابرت ينهزم مروَّعًا.

وكان الأمير أندريه أثناء المعركة قريبًا من الجنرال النمسوي شميدت الذي قتل في تلك المعركة. وقد جرح حصانه تحته، وخدش هو نفسه برصاصة أصابت ذراعه. وأنعم عليه القائد العام إنعامًا خاصًا فأوفده رسولًا يحمل نبأ هذا الانتصار إلى البلاط النمسوي الذي غادر فيينا التي تهددها

(1) آدولف مورتييه (1768 – 1835): جنرال فرنسي، سُمِّي بعد ذلك مارشال ودوق تريفيز.
(2) بلدة على نهر الدانوب، تبعد عن فيينا 60 كيلو مترًا إلى الغرب.

الجيوش الفرنسية وانتقل إلى برون[1]. وكان الأمير أندريه في ليلة المعركة قد وصل إلى كرمس يحمل تقريرًا من دوختوروف[2] إلى كوتوزوف، وكان مهتاج النفس ولكنه غير متعب الجسم. (إن الأمير أندريه، رغم ما يبدو في الظاهر من أنه ضعيف البنية، كان أقدر على احتمال تعب الجسم من أقوى الأقوياء بنية)، فلم يلبث أن بعث في تلك الليلة نفسها رسولًا إلى برون، فكانت هذه المهمة التي كُلِّف بها تعني أنه سينال في القريب ترقية هامة، عدا ما تعنيه من تمييزه على غيره.

كانت الليلة حالكة الظلام ساطعة النجوم. وكان الطريق يبرز أسود اللون في وسط الثلج الأبيض الذي هبط بالأمس يومًا قبل المعركة. وكان الأمير أندريه يجري على الطريق في عربة من عربات البريد، فتارة يتخيل الأثر الذي سيحدثه نبأ الانتصار فيمتلئ فرحًا، وتارة يتذكر تحيات الوداع التي شيَّعه بها القائد العام ورفاقه، وهو في الحالين يشعر شعور من سيبلغ السعادة المنشودة بعد انتظار طال أمده. وكان متى أغمض عينيه يسمع دويَّ طلقات البنادق والمدافع يترجَّع في أذنيه مختلطًا بقرقعة العجلات وفرحة النصر. أو كان يتخيَّل أن الروس اندحروا، وأنه هو نفسه قُتل، فإذا هو يستيقظ منتفضًا، سعيدًا بأن الأمر ليس كذلك، وبأن الفرنسيين هم الذين انهزموا وفرُّوا. وكان يأخذ يتذكر جميع تفاصيل الانتصار من جديد، ويتذكر ما أظهره هو نفسه من شجاعة هادئة وجأش رابط أثناء المعركة، حتى إذا اطمأن باله وسكنت نفسه عاد يغفو. وبعد الليلة الدامسة الظلام المتلألئة النجوم، طلع النهار صافيًا رائعًا فرحًا. وأخذ الثلج يذوب تحت أشعة الشمس، وطفقت الخيل تعدو خببًا نشيطًا سريعًا، فتجتاز حقولًا وغابات وقرى جديدة على اليمين والشمال.

---

(1) عاصمة مورافيا (ينطق اسمها باللغة التشيكية: برنو)، وفيها إنما كان ألكسندر الأول حينذاك.

(2) ديمتري دوختوروف (1756 - 1816): جنرال منذ 1797، كان قائد جيش في أوسترلتس ثم في بورودينو.

وفي إحدى المحطات أدرك الأمير أندريه ركبًا من الجرحى الروس. فكان الضابط الذي يقود الركب، وهو مسترخ في العربة التي تتقدم القافلة، يشتم أحد الجنود شتمًا مقذعًا. وكان في كل عربة عن عربات النقل الألمانية ستة جرحى أو أكثر، يهتزون ويترجحون على الطريق الحجيرة الوعرة صفر الوجوه، متسخين، تغطي الأضمدة أجسامهم. وكان بعضهم يتكلمون (سمع الأمير أندريه كلمات روسية)، وبعضهم يأكلون خبزًا، أما الذين كانت إصابتهم فادحة فقد نظروا إلى عربة البريد التي تخطتهم، باهتمام يملؤه ما يملأ اهتمام طفل من صبر جميل وألم كظيم.

استوقف الأمير أندريه عربتهم، وسأل أحدهم في أية معركة جرحوا. فأجابه الجندي بقوله:

- أمس الأول، على الدانوب.

فاستل الأمير أندريه كيسه ونفحه ثلاثة روبلات ذهبًا. وأضاف يقول مخاطبًا الضابط الذي كان قد اقترب:

- لتوزيعها على الجرحى كافة.

وأردف يخاطب ا لجنود:

- أبلُّوا من جراحكم يا شباب، فما تزال هناك أعمال كثيرة يجب أن نقوم بها.

سأله الضابط وكان واضحا أنه يريد أن يجري حديثًا:

- ما الأنباء يا سيادة المرافق؟

- طيبة!

بذلك أجابه ثم صرخ للحوذي: - سر.

وتابع طريقه.

كان الليل قد خيم تمامًا حين وصل الأمير أندريه إلى برون فرأى نفسه محاطًا بالمباني العالية وأضواء الدكاكين ونوافذ المنازل ومصابيح الشوارع والمركبات الجميلة، كل ذلك الجو الذي تتميز به مدينة كبيرة كثيرة الحركة والنشاط، عظيمة الفتنة والإغراء للعسكري دائمًا حين يخرج من المعسكر. فكان، رغم رحلته المتعبة ورغم سهر الليل، يشعر، وهو يقترب

من القصر، بهمة تربو على ما شعر به أمس من همة. وكانت عيناه تسطعان بريقًا محمومًا، وكانت خواطره تتعاقب في ذهنه بسرعة شديدة ووضوح كبير. فرأى بخياله تفاصيل المعركة رؤية خلت الآن من الغموض والإبهام وغدت نوعًا من عرض دقيق يتصور أنه يقدمه للإمبراطور فرانسوا، حتى لقد كان يتخيل الأسئلة التي يمكن أن تُلقى عليه والأجوبة التي سيجيب بها عن تلك الأسئلة. وكان يظن أنه سيدخل على الإمبراطور حالًا. ولكن موظفًا هرع إلى لقائه عند المدخل الرئيسي للقصر، فلما علم أنه مبعوث يحمل رسالة قاده إلى مدخل آخر، وقال له:

- امش، يا صاحب النبالة العالية[1]، في الممر الأيمن، فتلقى هنالك المرافق المناوب، فيدخلك على وزير الحرب.

استقبل مرافق هيئة الأركان الأمير أندريه، فرجاه أن ينتظر لحظة، ودخل على وزير الحرب يسأله أوامره. ثم عاد إلى الأمير أندريه بعد خمس دقائق، فدعاه أن يتقدمه وهو ينحني له انحناء فيه أقصى المجاملة، وقاده عبر دهليز إلى المكتب الذي يعمل فيه الوزير. وكان يبدو على المرافق أنه بتأدبه الشديد هذا مع الأمير أندريه إنما كان يريد أن يقطع الطريق على أي محاولة لرفع الكلفة من جانب المرافق الروسي. فكان شعور الفرح الذي يحسه الأمير أندريه يضعف ضعفًا شديدا أثناء تقدمه من غرفة وزير الحرب. حتى لقد أحس بمهانة، واستحال الشعور بالمهانة في لحظة واحدة على غير علم منه إلى غضب واحتقار لا مسوِّغ لهما، ولكن فكره البارع لم يلبث أن أمدَّه بالحجج التي تسوِّغ ازدراء المرافق والوزير كليهما، فكان يقول لنفسه: «لا بد لأناس لم يشموا رائحة البارود أن يتصوروا أن تحقيق الانتصارات أمر سهل». وتغضنَّت عيناه معبرَّتين عن الاحتقار، ودخل على الوزير بطيء الخطو بطئًا واضحًا. ثم اشتد شعوره بالاحتقار حين رأى الوزير، الجالس إلى مكتب كبير، يغفل القادم دقيقتين لا يوليه أثناءهما أيَّ انتباه، إذ كان الوزير مكبًا على مكتبه برأسه الأصلع الذي ابيضَّ شعر صدغيه، عاكفًا على

(1) بالألمانية في الأصل.

أوراق يقرؤها ويؤشر عليها بالقلم الرصاص بين شعلتي شمع؛ وقد ظل يقرأ دون أن يرفع رأسه حين فتح الباب وسمع وقع أقدام.

قال لمرافقه وهو يمدُّ إليه أوراقًا دون أن يلتفت حتى الآن إلى الموفد القادم عليه:

- خذ هذه الأوراق وسلِّمها.

أَحس، الأمير أندريه بأن العمليات التي يقوم بها كوتوزوف هي آخر ما يشغل بال الوزير، أو أن الوزير يريد أن يُشعِر مبعوث كوتوزوف بذلك. قال الأمير أندريه محدثًا نفسه: «فيم يهمني هذا على كل حال!». وأخذ الوزير يجمع الأوراق الأخرى ويرتبها بعضًا فوق بعض، ثم رفع رأسه. إن وجهه يدل على ذكاء وينبئ بأنه رجل صلب الإرادة، ولكن هذا الوجه الذي يعبِّر عن الذكاء والصلابة سرعان ما تبدل بحكم عادة لا شك في أنها واعية، فإذا بابتسامة بلهاء منافقة ترتسم علي وجهه جامدة ثابتة، هي ابتسامة مسؤول يستقبل عددًا كبيرًا من المتوسلين والمتشفعين واحدًا بعد آخر. وقال يسأل الأمير أندريه:

- موفد من الفيلدمارشال كوتوزوف؟ آمل أن تكون الأنباء طيبة. حدث اشتباك مع مورتييه، أليس كذلك؟ وانتصرتم، هه؟ آن الأوان!

وتناول الرسالة التي تحمل اسمه، وأخذ يقرأ حزين الهيئة.

ثم هتف يقول بالألمانية:

- آه! رباه! شميدت! يا لها من فاجعة! يا لها من مصيبة!

تصفّح الرسالة بسرعة، ثم وضعها على المكتب، ونظر إلى الأمير أندريه شارد اللب حالمًا.

- آه! يا لها من فاجعة! تقول إن المعركة حاسمة؟ ومع ذلك لم يؤسر مورتييه.

وفكَّر لحظة ثم أضاف يقول:

- يسعدني ما تحمله إليَّ من أنباء طيبة، وإن يكن موت شميدت ثمنًا غاليًا لهذا النصر. لا شك أن صاحب الجلالة يريد أن يراك، ولكن ليس

اليوم. شكرًا لك. امض الآن لتصيب شيئًا من الراحة، وتعال غدًا بعد العرض العسكري. سأنبئك على كل حال.

وكانت الابتسامة البلهاء قد بارحت وجه وزير الحرب أثناء الحديث، فها هي ذي تعاوده الآن، وها هو يردد حانيًا رأسه:

- إلى اللقاء. ألف شكر. لا شك أن الإمبراطور سيحب أن يراك.

حين غادر الأمير أندريه القصر أحسَّ بأنه ترك عند هذين الرجلين اللذين لا يباليان شيئًا ولا يكترثان بأمر، أعني وزير الحرب والمرافق المتأدب، ترك كل ما كان يجيش في نفسه من اهتمام بالنصر، وكل ما كان يزخر به قلبه من سعادة بالنصر. وسرعان ما تبدّلت نظرته كلها إلى الأمور، فإذا المعركة لا تزيد الآن على أن تكون في ذهنه ذكرى قديمة، ذكرى بعيدة العهد جدًّا.

الفصل العاشر

نزل الأمير أندريه في برون عند دبلوماسي من أصدقائه اسمه بيليبين.

- آ... أميري العزيز... ما من أحد كان يمكن أن يسرني لقاؤه كما يسرني لقاؤك.

بهذه الكلمات استقبله، ثم أضاف يقول مخاطبًا خادمه الذي أدخل عليه الأمير أندريه بولكونسكي:

- فرانتس، احمل أمتعة الأمير إلى غرفتي.

وعاد يكلم الأمير أندريه فقال يسأله:

- جئت رسولًا يحمل نبأ النصر؟ عظيم! أما أنا فمريض كما ترى.

وبعد أن عني الأمير أندريه بزينته وارتدى ثيابه، دخل الغرفة الفاخرة التي كان يتخذها الدبلوماسي مكتبا له، وجلس إلى مائدة العشاء التي كانت تنتظره. وجلس بيليبين بقرب المدفأة مسترخيًا مستريحًا.

كان الأمير أندريه أثناء رحلته وأثناء الحملة محرومًا من جميع ملذات الرخاء والترف، ومن جميع مباهج الحياة الناعمة الرقيقة، فشعر بارتياح لذيذ في هذا الجو من الرفاه الذي ألفه منذ طفولته. هذا عدا أنه بعد الاستقبال الذي لقيه عند النمسويين كان يطيب له أن يكلّم أحدًا من أهل وطنه (وإن لم يكلمه بالروسية فقد جرى الحديث بينهما بالفرنسية). أحدًا يشاركه ما افترض أنه يشاركه إياه من كره كان الروس عامة يحملونه للنمسويين قويًا قوة خاصة في ذلك الحين.

كان بيليبين في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، وكان عازبًا وينتمي إلى المجتمع نفسه الذي ينتمي إليه الأمير أندريه. وكان الاثنان يعرف كل منهما

الآخر منذ كانا في بطرسبورغ، ولكنّ أواصر الصداقة بينهما قد اشتدت أثناء إقامة الأمير أندريه الأخيرة في فيينا مع كوتوزوف. وإذا كان الأمير أندريه شابًا يبشّر بمستقبل لامع في الحياة العسكرية فقد كان بيليبين يبشّر بمستقبل لامع في الحياة الدبلوماسية كالأمير أندريه أو يزيد. فهو لا يزال شابًا، ولكنه دبلوماسي محنَّك منذ الآن، لأنه دخل السلك الدبلوماسي وهو في السادسة عشرة من العمر، فكان في باريس، ثم كان في كوبنهاغن، وهو يحتل الآن في فيينا منصبًا هامًا. وكان سفيرنا يقدر مزاياه، وكذلك مستشار الإمبراطورية. إذ لم يكن من أولئك الدبلوماسيين الكثر الذين يظنون أنهم يكفيهم، من أجل أن يلمعوا في مهنتهم، أن يتمتّعوا بمزايا سلبية، أي أن يمتنعوا عن أمور معينة، وأن يحسنوا الكلام باللغة الفرنسية. وإنما كان واحدًا من أولئك الذين يجيدون العمل ويحبونه، وربما قضى ليالي كاملة جالسًا إلى مكتبه. وكان ينجز المهمة التي توكل إليه على أحسن وجه، أيًا كانت تلك المهمة، لا يعنيه أن يتساءل «لماذا» و«كيف»، ولا يهمه أن يعرف ما الدبلوماسية، ولكنه إذا كتب تعميمًا أو مذكرة أو تقريرًا، جاء ما يكتبه غاية في حسن الصنعة وسلامة الذوق ورشاقة الأسلوب، ووجد هو في عكوفه على الكتابة لذة عظيمة. وكان، عدا موهبته هذه في الكتابة، يحظى بالتقدير والاعتبار لحسن أدبه ولباقة تصرّفه في علاقاته بالدوائر العليا.

وكان بيليبين يحب الحديث كما يحب العمل، بشرط أن يكون في الحديث رشاقة وفكاهة. فكان في المجتمع يترقّب الفرصة لإبداء ملاحظة تلفت الانتباه وتخطف الأبصار، ولا يتدخل في الحديث إلّا إذا سنحت فرصة كهذه الفرصة. وكانت كلماته منمَّقة فيها أصالة وطرافة، وكان يصوغ جمله الموجزة صياغة محكمة دقيقة جميلة، ويحرص على أن تتضمّن أقواله أمورًا تهمُّ الناس عامة. فكانت الجمل التي يقولها كأنها تهيأ وتنضج في مختبره الداخلي عن عمد لتكون من الجمل التي يمكن حملها من مكان إلى مكان، فيستطيع هؤلاء المساكين من أبناء المجتمع أن يحفظوها بسهولة، فيتناقلها الناس من صالون إلى صالون من دون عناء. و«كانت كلمات بيليبين تتجوّل في صالونات فيينا تجولًا» على حد تعبير بعضهم،

وكانت في كثير من الأحيان تؤثر في أمور تعدُّ هامة خطيرة.

إن وجهه النحيل الهزيل الشاحب تخدِّده غضون كبيرة تبدو منظفة أحسن تنظيف كأطراف الأصابع بعد الحمام؛ وكانت حركة هذه الغضون هي الحركة الرئيسية في هيئته، فتارة يتغطى جبينه بتجاعيد كبيرة حين يرتفع حاجباه، وتارة ينخفض الحاجبان فتظهر ثنيات ضخمة على خديه. وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان غورًا عميقًا ترسلان نظرات مباشرة بغير التواء، مرحة على الدوام.

قال يخاطب الأمير أندريه:

- هيه! هات حدثنا الآن عن أعمالك الباهرة!

فحدَّثه الأمير أندريه، بتواضع كبير، ومن غير أن يشير إلى نفسه البتة، عن المعركة التي نشبت وعن الاستقبال الذي استقبله به وزير الحرب. وختم حديثه بقوله:

- استقبلوني أنا والنبأ الذي حملته إليهم كما يُستقبل كلب في لعبة الأوتاد.

فابتسم بيليبين، وبسط غضون جلده. ثم قال وهو يحدّق إلى ظفره:

- مع ذلك يا عزيزي، رغم تقديري العظيم «للجيش الأرثوذكسي الروسي»، لا بد من الاعتراف بأن انتصاركم ليس من الانتصارات الباهرة.

وتابع كلامه بالفرنسية على هذا النحو، لا يقول بالروسية إلّا الكلمات التي يريد أن يهب لها نبرة استخفاف خاصة. قال متابعًا حديثه:

- طبعًا. إنكم بجموعكم قد وقعتم على مورتييه المسكين الذي لا يملك إلّا فرقة واحدة، ثم استطاع مورتييه هذا أن يهرب منسلًّا من بين أيديكم. فأين النصر؟

فأجابه الأمير أندريه بقوله:

- مع ذلك نستطيع إذا أردنا أن نتكلم جادّين أن نقول بغير مباهاة ولا افتخار إن هذا كان أحسن قليلًا مما حدث في أولم.

- لماذا لم تأسروا مارشالًا واحدًا، مارشالًا واحدًا لا أكثر؟

- لأنه لا شيء يحدث دائمًا على نحو ما نقدّر ونتوقع ونتنبأ، ولا شيء يحدث دائمًا على نحو منتظم كما يحدث في استعراض. لقد كنا نقدر، كما قلت لك، أن نصل إلى مؤخرة العدو في الساعة السابعة من الصباح، فلم نستطع أن نبلغها حتى في الساعة الخامسة من المساء.

قال بيليبين مبتسمًا:

- ولماذا لم تبلغوها في الساعة السابعة من الصباح؟ كان يجب عليكم أن تبلغوها في الساعة السابعة من الصباح، كان ينبغي أن تكونوا هناك في ذلك الوقت.

فأجابه الأمير أندريه متكلمًا بتلك اللهجة نفسها:

- ولماذا لم تستطيعوا بالطريق الدبلوماسي أن تقنعوا بونابرت بأنه كان من الأفضل له أن يترك جنوه؟

فقاطعه بيليبين قائلًا:

- أعلم أنك تريد أن تقول إنه لأمر سهل على من كان جالسًا يستدفئ بقرب موقد أن يأسر مارشالات. هذا ما تريد أن تقوله، أليس كذلك؟ وإنك لعلى حق. ولكن لماذا لم تأسروه مع ذلك؟ لا يدهشنك ألا يكون وزير الحرب ولا الإمبراطور المعظم، الملك فرانسوا، سعيدين بنصركم سعادة كبرى. أنا أيضًا، السكرتير البسيط في سفارة روسيا، لا أشعر بأي فرح خاص...

قال بيليبين ذلك وهو يبسط غضون جبينه محدقًا إلى عيني الأمير أندريه.

فقال الأمير أندريه بولكونسكي:

- يا عزيزي، اسمح لي أنا أيضًا أن ألقي عليك «لماذا». إن الفذلكات الدبلوماسية تفوق قدرتي على الفهم في الواقع. ولكنْ، هناك شيء لا أظفر بإدراكه، ماك يفقد جيشًا كاملًا، والأرشيدوق فرديناند[1] والأرشيدوق

---

(1) الأرشيدوق فرديناند دو هابسبورغ (1781 - 1850)، هو أخو الإمبراطور فرانسوا، استلم قيادة الجيش في بافاريا سنة 1805 يساعده الجنرال شارل ماك.

شارل[1] لا يحركان ساكنًا، ويرتكبان الخطأ تلو الخطأ، ثم يحقق كوتوزوف وحده انتصارًا حقًّا ويحطم فتنة الفرنسيين، فلا يحرص وزير الحرب حتى على أن يعرف التفاصيل!

- هذا هو الأمير بعينه يا صديقي! اسمع يا عزيزي: مرحى للقيصر، مرحى لروسيا، مرحى للإيمان! هذا كله جميل. ولكن ما قيمة انتصاراتكم في نظرنا نحن، أقصد في نظر بلاط النمسا؟ جيئونا بالنبأ السعيد الذي يقول إن الأرشيدوق شارل أو فرديناند، ولا فرق بين أرشيدوق وأرشيدوق كما تعلم، قد انتصر ولو على سرية إطفائيين من جيش بونابرت، فتروا منا غير ما ترون الآن، ويكون النبأ نبأ مختلفًا نعلنه بإطلاق نيران المدافع. أما نجاحكم أنتم فكأنكم لم تحققوه إلّا لإغاظتنا عمدًا. الأرشيدوق شارل لا يفعل شيئًا، والأرشيدوق فرديناند يجلله الخزي والعار. وأنتم تتركون فيينا، وتكفّون عن الدفاع عنها، فكأنكم تقولون لنا: إن الله معنا يرعانا ويحمينا، ولا شأن لنا بعاصمتكم. ولقد كان لنا جنرال كنا نحبه جميعًا هو شميدت، فعرّضتموه لرصاص العدو، ثم طفقتم تهنئون أنفسكم بنصر!.. اعترف بأن المرء لا يمكن أن يتصور نبأ أدعى إلى الغيظ والحنق من هذا النبأ الذي تحمله. لكأنكم تعمّدتم هذا تعمدًا. وفوق ذلك، هبكم انتصرتم انتصارًا باهرًا حقًّا، بل هب أن الأرشيدوق شارل انتصر أيضًا، فهل يغير ذلك كله المجرى العام الذي تجريه الحوادث؟ لقد فات الأوان بعد أن أصبح الجيش الفرنسي يحتل فيينا.

- كيف؟ هل احتُلت فيينا؟

- لم تُحتل فحسب، بل إن بونابرت هو الآن في شونبرون، والكونت، عزيزنا الكونت فربنا[2]، سيأتمر بأمره.

---

(1) شارل دو هابسبورغ (1771 - 1847)، هو الأخ الأصغر للإمبراطور فرانسوا الثاني، قائد جيش الراين منذ 1796، وعيِّن سنة 1801 رئيسًا «للمجلس الحربي الأعلى»، وأصبح قائد جيش سنة 1805؛ جنرال بارع، انتصر على نابوليون سنة 1809 في آسبرن، ولكنه انهزم في فاغرام.

(2) رودولف فربنا (1761 - 1823)، وزير نمسوي.

أحس بولكونسكي بأن التعب، ومشاعر الرحلة، والاستقبال الذي لقيه، والعشاء خاصة.. ذلك كله يحول بينه وبين أن يفهم كل الدلالة الكبيرة التي يحملها هذا الكلام الذي يسمعه.

وتابع بيليبين حديثه فقال:

- كان الكونت ليشتنفلس هنا هذا الصباح، فأراني رسالة تصف موكب القطعات الفرنسية في فيينا وصفًا مفصلًا... الأمير مورا وكل شيء... فهأنت ترى أن انتصارنا ليس نبأ سعيدًا جدًّا، وأنك لا يمكن أن تُستقبل استقبال منقذ...

فقال الأمير أندريه وقد بدأ يدرك أن النبأ الذي حمله عن معركة كريس ليس له كبير أثر حقًّا بالقياس إلى حوادث جليلة كالاستيلاء على عاصمة النمسا:

- حقًّا أصبحت الأمور في نظري سواء! كيف أمكن الاستيلاء على فيينا؟ والجسر؟ ورأس الجسر الذي طالما تكلموا عنه، والأمير آورسبرغ؟ كان يقال عندنا أن الأمير آورسبرغ[1] يدافع عن فيينا.

- الأمير آورسبرغ في هذه الجهة من النهر، في جهتنا نحن، يحمينا. وأظن أنه لا يحمينا حماية حسنة، ولكنه يحمينا على كل حال. أما فيينا في الجهة الأخرى، والجسر لم يتم الاستيلاء عليه بعد، وآمل ألا يحدث هذا، إن الجسر ملغوم، وقد صدر الأمر بنسفه. ولو استولوا عليه، لكنا منذ مدة طويلة في جبال بوهيميا، ولقضيت أنت وجيشك خمس عشرة دقيقة سيئات بين نارين.

قال الأمير أندريه:

- ولكن هذا لا يعني مع ذلك أن الحملة انتهت.

- أنا أعتقد بأنها انتهت. وهذا ما يعتقد به الكبار هنا، لكنهم لا يجرؤون أن يقولوه. سيحدث ما كنت أقوله في بداية الحملة: إن مناوشة دورنشتاين لن تبدل من الأمر شيئًا، وعلى وجه العموم، ليس البارود هو الذي سيكون

---

(1) جوزيف آورسبرغ فون ماترن (1740 - 1822)، فيلدمارشال نمسوي.

له القول الفصل، وإنما القول الفصل لأولئك الذين اخترعوا البارود.

كذلك قال بيليبين، مردّدًا إحدى جمله، بينما كان يبسط تغضّنات جبينه ليتوقف عن الكلام لحظة. ثم أردف:

- المهم أن نعرف النتيجة التي سيسفر عنها لقاء برلين بين الإمبراطور ألكسندر وملك بروسيا[1]. فإذا دخلت بروسيا في الحلف ضغط على النمسا، واستؤنفت الحرب. أما إذا لم تدخل بروسيا الحلف، فلن يبقى إلّا الاتفاق على اختيار المكان الذي تكتب فيه البنود التمهيدية لمعاهدة جديدة من طراز معاهدة «كامبو - فورميو»[2].

هتف الأمير أندريه فجأة يقول وهو يقلّص يده الصغيرة ويضرب المائدة:

- ولكن ما هذه العبقرية الخارقة؟ وما هذا الحظ الذي أوتيه هذا الرجل؟

فقال بيليبين سائلًا:

- مَنْ بوونابرت؟

وعاد يكرر نطق الاسم مشددًا على الواو الزائدة:

- بوونابرت؟

ثم تابع كلامه فقال:

- إنني أعتقد حقًّا بأنه الآن من شونبرون يحكم النمسا. ويجب أن نعفيه من هذه الواو الزائدة. لقد عزمت أمري على أن أقوم بتجديد فاسميه بونابرت فحسب.

قال الأمير أندريه:

- دعنا من المزاح قليلًا. هل تعتقد حقًّا بأن الحملة انتهت؟

- إليك ما أعتقده. إن النمسا هي الضحية، وهي لم تألف ذلك ولم

---

(1) أثناء مرور ألكسندر الأول ببرلين اجتمع في 25 تشرين الأول سنة 1805 مع الملك فريدريك - غليوم الثالث. وأمام ضريح فريدريك الثاني في بوتسدام، وبحضور الملكة لويز، تعاهدا بالإيمان على صداقة أبدية لا تفصم عراها الأيام. ومع ذلك لم تدخل بروسيا الحرب حينذاك.

(2) في هذه المدينة الصغيرة من مدن إيطاليا عقدت معاهدة الصلح بين فرنسا والنمسا سنة 1797، ومُنحت «الجمهورية» ميزات كبيرة.

تعتده، فلسوف تريد أن تثأر لنفسها. وإذا كانت هي الضحية فلأن أقاليمها قد خُرّبت وأتلفت (يقال إن الجيش الأرثوذكسي رهيب في السلب والنهب)، ولأن جيشها هُزم، ولأن عاصمتها احتُلّت، وذلك كله من أجل جمال عيني صاحب جلالة ملك سردينيا[1]. لهذا يا عزيزي، أحس - وإني لأفضي لك بهذا سرًا بيننا - بأنهم يخدعوننا، وبأن هناك مباحثات مع فرنسا، وأن هناك مشاريع صلح، صلح في السر يبرمونه منفردين.

قال الأمير أندريه:

- غير ممكن. إن فعلًا كهذا لهو أحقر وأكثر دناءة من أن يقع.

فقال بيليبين وهو يبسط تجعّدات جبينه من جديد ليدل على أن المحادثة انتهت:

- من يعش يرَ!

وحين انسحب الأمير أندريه إلى الغرفة التي أعدّت له، ولبس ملابس داخلية نظيفة، واستلقى على سرير من ريش ووسائد معطرة مدفّأة، أحس بأن المعركة التي حمل نبأها هي الآن بعيدة عنه، بعيدة جدًا. وكان ما يملأ ذهنه هو التحالف مع بروسيا، وخيانة النمسا، والانتصار الجديد الذي حققه بونابرت، والاستعراض في الغد، واجتماعه مع الإمبراطور في قصره بعد الاستعراض.

وأغمض عينيه، فإذا بهدير المدافع، وطقطقة الرصاص وقرقعة عجلات عربته، إذا بذلك كله يترجع في أذنيه مدويًا، وإذا هو يرى الرماة بالبنادق يهبطون من الجبال منتشرين، وإذا الفرنسيين يطلقون نيرانهم، فيشعر بقلبه يخفق خفقانًا قويًا، ويتقدم مقتربًا من شميدت، فيئز الرصاص سريعًا من حوله، فيحس بفرحة الحياة تشتد اشتدادًا عظيمًا لم يشعر بمثله منذ طفولته.

ويستيقظ من غفوته...

فيقول وهو يبتسم لنفسه ابتسامة سعيدة كابتسامة طفل: «نعم حدث هذا كله»، ثم ينام نومًا عميقًا كما ينام شاب في ريعان الصبا.

---

(1) كان ملك سردينيا فيكتور إيمانويل الخامس (1802 - 1817)، الذي أخذت منه مقاطعة بييمون ومقاطعة سافوا يؤمّل في نصر على يد الائتلاف يردُّ إليه مقاطعتيه.

الفصل الحادي عشر

واستيقظ في الغد ضحى. فلما استعرض مشاعره تذكَّر قبل كل شيء أنه سيقدَّم اليوم إلى الإمبراطور فرانسوا، وفكَّر في وزير الحرب، وفي المرافق النمسوي المتأدب، وفي بيليبين والحديث الذي أُجري بينهما البارحة. وارتدى للقصر لباس الاحتفالات الذي لم يلبسه منذ مدة طويلة، ودخل إلى مكتب بيليبين زاخرًا بالنشاط والصحة رغم أن ذراعه معصوبة. فوجد في المكتب أربعة من أعضاء السلك الدبلوماسي كان يعرف منهم الأمير هيبوليت كوراجين الذي يحتل منصب سكرتير سفارة، وعرَّفه بيليبين بالثلاثة الآخرين.

إن الذين يتردّدون على بيليبين، وهم شباب أثرياء مرحون من المجتمع الراقي، كانوا يؤلفون، في فيينا وهنا على السواء، حلقة مستقلة كان بيليبين، وهو رئيسها، يسميها الصحب. وكان واضحًا أن هذه الحلقة التي لا تضم إلّا دبلوماسيين تقريبًا، لها اهتماماتها الخاصة التي لا شأن لها بالحرب والسياسة، وإنما هي تتناول المجتمع الراقي والعلاقات ببعض النساء، وتتناول الجانب البيروقراطي من الدبلوماسية. وقد استقبل هؤلاء السادة الأمير أندريه في حلقتهم راضين مسرورين كأنه واحد منهم (وذلك شرف لا يخلعونه إلّا على قلة من الأفراد)؛ ومن باب الملاطفة والمجاملة، وعلى سبيل الدخول في الحديث، ألقوا عليه أسئلة عن الجيش والمعركة، ثم عاد الكلام يتبعثر في مساحات مشتتة فكهة ونمائم مفككة مرحة.

قال أحدهم راويًا خيبة أمل واحد من رفاقه:

– أجمل ما في الأمر أن المستشار أكَّد له أن تعيينه في لندن هو ترقية له،

وأن عليه أن يعدَّ هذا التعيين ترقية. فليتكم رأيتم وجهه حين كان يسمع هذا الكلامِ الخَدّاع!

فعقّب ثان بقوله:

- لا بل الأفدح من هذا سلوك كوراجين في مثل هذه الحالة. عليكم بكوراجين يا سادة: إن الشخص المذكور تصيبه المصيبة، ومن المصيبة إنما يستفيد هذا الدون جوان، هذا الرجل الرهيب!

كان الأمير هيبوليت كوراجين مسترخيًا على أريكة من طراز فولتير، مادًّا ساقيه من فوق المتكأ، فأخذ يضحك، وقال:

- حدثني عن هذا!

فتعالت أصوات تهتف:

- آ... دون جوان أمّه... أفعوان!

قال بيليبين مخاطبًا الأمير أندريه:

- إنك لا تعلم يا بولكونسكي أن جميع الفظائع التي يرتكبها الجيش الفرنسي (كدت أقول الجيش الروسي) لا تعد شيئًا مذكورًا بالقياس إلى التخريب الذي يحدثه هذا الرجل في النساء.

قال الأمير هيبوليت:

- المرأة رفيقة الرجل.

وأخذ يتأمّل ساقيه مرفوعتين، من وراء نظارته.

وانفجر «الصحب» يضحكون محدِّقين إلى عيني هيبوليت. ولاحظ الأمير أندريه أن هيبوليت هذا الذي كان هو يكاد يغار منه بسبب امرأته (يجب الاعتراف بهذا) إنما يقوم بدور المهرِّج في هذه الجماعة.

همس بيليبين يقول للأمير أندريه في أذنه:

- يجب حقًّا أن أسلِّيك بكوراجين. إنه فتَّان حين يتكلّم في السياسة. ما أبدع هيئة العظمة التي يتخذها حينذاك.

وجلس بيليبين بقرب هيبوليت، وغضَّن جبينه، وبدأ يحادثه في السياسة، وأحاط بهما الأمير أندريه والآخرون.

قال هيبوليت وهو ينظر إلى الجميع نظرة مفهومة:

- إن مجلس وزراء برلين لا يمكن أن يفصح عن عاطفة تحالف... من دون إفصاح... فهمتم... فهمتم... ثم إن صاحب الجلالة الإمبراطور لا ينقض مبدأ تحالفنا...

ثم أضاف يقول وهو يمسك ذراع الأمير أندريه:

- انتظر... ما أنهيت كلامي. أنا افترض أن التدخل سيكون أقوى من عدم التدخل، و...

قال ذلك وصمت لحظة، ثم أردف:

- ولن يستطيعوا بعد الآن أن يتنصّلوا من المسؤولية بادّعاء أنهم لم يتلقّوا رسالتنا المستعجلة التي بعثناها في اليوم الثامن والعشرين... على هذا النحو إنما ستنتهي الأمور كلها.

وأرخى ذراع بولكونسكي ليدل على أنه في هذه المرة قد أحسن الختام.

قال بيليبين الذي تحرّكت كتلة شعره كلها على رأسه من السرور والحبور:

- ديموستين، قد عرفتك من الحصى التي خبأتها في فمك الذهبي!

فضحك الجميع، وضحك هيبوليت ضحكًا أشد من ضحكهم كلهم، وكان واضحًا أنه يتألم، وأنه يختنق، لكنه لا يستطيع أن يكظم هذا الضحك الشديد الذي يبسط أسارير وجهه الساكن الجامد في العادة.

قال بيليبين:

- يا سادة، إن بولكونسكي ضيفي، فأريد أن أذيقه جميع مباهج الحياة في هذه المدينة. ولو كنا نقيم في فيينا لكان الأمر سهلًا، أما في هذا الركن المورافي الصغير التافه، فالأمر أصعب، لذلك أطلب معاونتكم ومساهمتكم جميعًا. ينبغي أن نعرِّفه بمفاخر مدينة برون. فتوّلوا أنتم أمر المسرح، وأتولى أنا أمر المجتمع الراقي، أما هيبوليت فيتولى طبعًا أمر النساء.

- يجب أن نريه آميليا! إنها أخَّاذة!

كذلك قال أحد «الصحب» وهو يلثم أطراف أصابعه تعبيرًا عن إعجابه بفتنة آميليا. فقال بيليبين:

- يجب علينا إجمالًا أن نردَّ هذا الضابط الدموي إلى عواطف أكثر إنسانية.

قال بولكونسكي:

- أشك يا سادتي في أن أستطيع الانتفاع بكرم ضيافتكم. ثم أضاف وهو ينظر في ساعته:

- وقد آن لي أن أنصرف.

- إلى أين تذهب؟

- إلى الإمبراطور.

- أوه! أوه! أوه!

فتعالت أصوات تقول:

- طيب. إلى اللقاء يا بولكونسكي، إلى اللقاء يا أمير! تعال إلى الغداء مبكرًا. سنتولى أمرك.

وقال بيليبين للأمير أندريه وهو يشيِّعه إلى الدهليز:

- حاول وأنت تكلم الإمبراطور أن تشيد أكبر إشادة ممكنة بالدائرة العسكرية وبمصلحة المحطات.

فأجابه بولكونسكي وهو يبتسم:

- أتمنى أن أفعل ذلك، لكنني لا أستطيعه في ما أعلم.

- طيب. أسهب في الكلام ما أمكنك الإسهاب على كل حال. إنه يهوى المقابلات هوى قويًا، لكنه لا يحب هو أن يتكلم ولا يقدر أن يتكلم. سوف ترى.

الفصل الثاني عشر

اكتفى الإمبراطور فرانسوا بعد الاستعراض بأن ينظر إلى الأمير أندريه بانتباه وأن يحييه بحركة من رأسه الطويل، وكان الأمير أندريه في مكانه الذي عيِّن له بين الضباط النمسويين؛ ولكن المرافق الذي استقبله بالأمس لم يلبث أن أبلغه بكثير من التأدب أن الإمبراطور يرغب في أن يلقاه. وقد استقبله الإمبراطور فرانسوا واقفًا في وسط الغرفة؛ ومما خطف بصر الأمير أندريه وأثار دهشته أنه رأى الإمبراطور مرتبكًا قبل بدء الحديث، فهو لا يعرف ماذا يقول، حتى لقد احمرّ وجهه. وها هو ذا يسأله متعجلًا:

- قل لي: متى بدأت المعركة؟

فأجابه الأمير أندريه. وأعقبت هذا السؤال أسئلة أخرى مبتذلة مثله: «هل صحة كوتوزوف حسنة؟ متى غادر كرمس؟»، إلخ. وكان الإمبراطور يتكلم كما لو كانت غايته الوحيدة هي أن يلقي عددًا من الأسئلة. ولكن كان واضحًا كل الوضوح أن الأجوبة عن هذه الأسئلة لا تهمّه كثيرًا ولا قليلًا.

قال يسأل:

- متى بدأت المعركة؟.

- لا أستطيع أن أحدد لجلالتكم الساعة التي نشب فيها القتال في جبهة القطعات، ولكن الهجوم في دورشتاين التي كنت فيها قد بدأ في الساعة السادسة من الصباح.

بذلك أجاب الأمير أندريه بولكونسكي وقد انتعشت حماسته، واعتقد أنه سيفلح في هذه المناسبة بأن يصف وصفًا كاملًا كلَّ ما كان يعرفه وما كان رآه، وهو ماثل في ذهنه الآن. ولكن الإمبراطور ابتسم وقاطعه سائلًا:

- كم ألف؟
- من أين والى أين يا صاحب الجلالة؟
- من دورنشتاين إلى كرمس.
- ثلاثة آلاف ونصف يا صاحب الجلالة.
- هل جلا الفرنسيون عن الضفة اليسرى.
- تقول تقارير كشافينا أن أواخرهم قطعوا النهر في الليل على أطواف.
- هل يتوافر في كرمس علف كاف؟
- لم نزوَّد بالعلف بمقدار...

ولم يستطع الأمير أندريه أن يتمَّ جملته لأن الإمبراطور قاطعه سائلًا:

- في أيّ ساعة قتل الجنرال شميدت؟

فأجابه:

- الساعة السابعة في ما أظن.
- الساعة السابعة؟ شيء محزن جدًّا! شيء محزن جدًّا!

وشكره الإمبراطور وانحنى له. فخرج الأمير أندريه، وسرعان ما أحاط به رجال البلاط، فكانت الأعين الملاطفة تنظر إليه من كل جهة، وكانت كلمات التحبب والمجاملة تنهال عليه انهيالًا. وعاتبه المرافق الذي استقبله أمس على أنه لم ينزل في القصر، وعرض عليه ضيافته. وتقدم منه وزير الحرب يهنئه بوسام القديسة تيريزا من الدرجة الثالثة، الذي أنعم به عليه الإمبراطور. ودعاه حاجب الإمبراطور باسم صاحبة الجلالة الإمبراطورة. وكانت الأرشيدوقة تحب أيضًا أن تراه. فكان لا يعرف من يجيب، ولبث بضع ثوانٍ يستجمع شتات فكره. وأمسكه سفير روسيا من ذراعه، ومضى به نحو إحدى النوافذ وأخذ يكلمه.

على نقيض ما تنبأ به بيليبين، استُقبل النبأ الذي حمله الأمير أندريه بالفرح. وأُمر بإقامة صلاة الشكر. ومنح كوتوزوف صليب ماري تيريز الأكبر. وأعطي الجيش كله أوسمة ووجِّهت دعوات إلى بولكونسكي من كل جهة. فقضى النهار كله في زيارات لكبار الموظفين النمسويين. حتى إذا

فرغ من هذه الزيارات في نحو الساعة الخامسة من المساء، رجع إلى منزل بيليبين وهو ينشئ في ذهنه الرسالة التي سيكتبها لأبيه عن المعركة وعن رحلته إلى برون. فلما وصل إلى منزل بيليبين كانت تقف أمام درج الباب عربة قد حمِّل نصفها بالأمتعة ورأى فرانتس، خادم بيليبين يظهر في الباب وهو يجر حقيبة بكثير من الجهد. (كان الأمير أندريه قد عرَّج على إحدى المكتبات قبل عودته إلى منزل بيليبين ليتزود بكتب يقرأها في الريف فتأخر في المكتبة بعض التأخر).

قال بولكونسكي يسأل الخادم:

- ماذا هنالك؟

فأجابه فرانتس بالألمانية وهو يرفع الحقيبة إلى العربة بكثير من العناء:

- آه يا صاحب السعادة! ننتقل مرة أخرى. إن الوغد يطاردنا من جديد.

فسأله الأمير أندريه:

- ماذا هنالك؟ ماذا حدث؟

وأقبل عليه بيليبين. فكان وجهه الهادئ دائمًا يعبر الآن عن اهتياج وقال:

- لا، لا، اعترف بأنها حكاية ظريفة، حكاية جسر تالور (أحد جسور فيينا). لقد عبروه بلا مقاومة، ولا قتال[1].

فلم يفهم الأمير أندريه من هذا الكلام شيئًا. فقال بيليبين يسأله:

- فأين كنت إذًا لتجهل ما أصبح يعرفه جميع الحوذيين في المدينة؟

- عند الأرشيدوقة. لم أسمع هنالك شيئًا عن هذا الأمر.

- ولم ترَ أيضًا في كل مكان أناسًا يحزمون أمتعتهم ويتأهبون للرحيل؟

فقال الأمير أندريه:

- لا...

وأضاف يسأل نافد الصبر:

- ولكن ما الذي حدث؟

- ما الذي حدث؟ حدث أن الفرنسيين عبروا الجسر الذي كان يحميه

---

(1) وقع هذا في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1805.

آورسبرغ، ولم يُنسف الجسر، فأصبح مورا يجري الآن على طريق برون، وسيكون هنا اليوم أو غدًا.

- هنا؟ ولكن لماذا لم ينسفوا الجسر وقد كان ملغَّمًا؟

- هذا ما أسالك أنت عنه. هذا أمر لا يعرفه أحد، ولا يعرفه بونابرت نفسه.

رفع بولكونسكي كتفيه. وقال:

- ولكن إذا عبروا الجسر فقد ضاع الجيش لأنه سيعزل.

قال بيليبين:

- هذه هي المسألة. اسمع. دخل الفرنسيون فيينا كما قلت لك أمس. حسنًا. وفي اليوم التالي، أي أمس، ركب السادة المارشالات مورا ولان وبليار[1] أفراسهم واتجهوا نحو الجسر (لاحظ أنهم جميعًا من غاسكونيا). قال أحدهم: «أنتم تعلمون يا سادة أن جسر تابور ملغوم وملغوم لغمًا معاكسًا، وأنه يتقدمه «رأس جسر» رهيب وخمسة عشر ألف رجل أُمروا بنسفه وبأن لا يدعونا نمر. ولكن سوف يسر إمبراطورنا نابوليون أن نستولي عليه».

فقال الآخران: «هيَّا بنا إليه»، ومضوا إلى الجسر فاستولوا عليه وعبروه، وهم الآن، في هذه الجهة من نهر الدانوب، يتقدمون منا ومنكم ومن مواصلاتكم بجيش كامل.

قال الأمير أندريه بحزن ورصانة:

- كفى أمازيح!

لقد أحزنه هذا النبأ وسره في آن واحد. فمنذ أن عرف أن الجيش الروسي أصبح في حالة يائسة إلى هذا الحد، خطر بباله أنه هو بعينه الرجل الذي هيأته الأقدار لإخراج الجيش الروسي من المأزق الصعب. هذه «تولون»

---

(1) يواكيم مورا (1767 - 1815)، جنرال من سلاح الفرسان، أصبح بعد ملك نابولي؛ جان لان (1769 - 1809): مارشال فرنسا، دوق مونتبلو؛ أوغوست بليار (1769 - 1832): جنرال سبق أن برز في معركة آركول سنة 1796، رئيس أركان حرب جيش مورا من سنة 1805 إلى سنة 1808.

التي ستبرزه من بين صفوف الضباط النكرات وتضعه على طريق التفوق والمجد! كان وهو يصغي إلى بيليبين يتصور نفسه منذ الآن، وقد رجع إلى الجيش، يعرض على القيادة العامة خطته التي ستنقذ وحدها الجيش والتي سيكلف بوضعها موضع التنفيذ.

قال مكررًا:

- كفى أمازيح!

فعاد بيليبين يقول:

- لست أمزح. لا شيء أصدق من كلامي ولا شيء أدعى منه إلى الحزن. وصل هؤلاء السادة وحدهم إلى الجسر، ولوَّحوا بمناديل بيضاء، وأكدوا أن هدنة قد أبرمت، وأنهم - هم المارشالات - إنما جاءوا ليفاوضوا الأمير آورسبرغ. وقد سمح لهم الضابط المناوب أن يدخلوا على «رأس الجسر»، إذ قصّوا عليه ألف أكذوبة من الأكاذيب الغاسكونية: قالوا له إن الحرب انتهت، وإن الإمبراطور فرانسوا حدّد موعدًا لمقابلة نابوليون، وإنهم يريدون أن يلقوا الأمير آورسبرغ، إلخ. فبعث الضابط رسولًا يستدعي آورسبرغ. وأخذ المارشالات يقبّلون الضباط، وطفقوا يمزحون، وجلسوا على المدفع. وفي أثناء ذلك دخلت كتيبة فرنسية الجسر خفية، وألقت في الماء أكياس مواد قابلة للاشتعال، وتقدمت من «رأس الجسر». وأخيرًا جاء الجنرال بنفسه، عزيزنا الأمير آورسبرغ فون ماورتن. فهتف المارشالات يرحبون به قائلين: «أيها العدو العزيز؛ يا زهرة الجيش النمسوي يا بطل حروب الترك! لقد انتهى القتال، فنستطيع أن يمد بعضنا إلى بعض يده مصافحًا. وإن الإمبراطور نابوليون ليتحرّق شوقًا إلى معرفة الأمير آورسبرغ». الخلاصة أنه ليس عبثًا أن هؤلاء السادة غاسكونيون. لقد أغرقوا آورسبرغ بالكلام المعسول إغراقًا، وشعر هو بفرح من قيام علاقات مودة حميمة سريعة بينه وبين مارشالات، وبهره منظر معطف مورا ومنظر ريش النعام الذي يتزين به بهرًا بلغ من القوة أنه لم ير في ذلك كله إلّا نارًا يخطف بريقها الأبصار، ناسيًا النار التي كان ينبغي أن يصبّها على العدو. (لم يغفل بيليبين رغم تدفقه في الكلام أن يتوقف لحظة بعد النطق بهذه الجملة ليدع

لصاحبها فرصة الإعجاب بها). ودخلت الكتيبة الفرنسية «رأس الجسر» ركضًا، وسمّرت المدافع، وتم استيلاؤها على الجسر.

تابع بيليبين كلامه، فقال وقد هدأ انفعاله بفضل ارتياحه لجمال قصصه وحسن وصفه:

- ولكن أجمل ما في الأمر هو أن المرشح الذي كان يجب أن يطلق مدفعه إشارة إشعال النار في الألغام ونسف الجسر قد أراد أن يشعل النار فعلًا في ذلك الحين، ولكن لأن أوقف ذراعه، فتقدم هذا المرشَّح - الذي لا شك في أنه أذكى من جنراله - تقدم من آورسبرغ وقال له: «إنهم يخدعونك يا أمير، ها هم أولاء الفرنسيون!». ورأى مورا أن حيلته تخفق إذا ترك للمرشح أن يتكلم، فقال مخاطبًا آورسبرغ وهو يتظاهر بالدهشة (إلا أنه لغاسكوني حق)! «أين الانضباط النمسوي الذي يمتدحه ويشيد به العالم كله؟ أتدع لمرؤوس أن يخاطبك بهذا الأسلوب وأن يقول لك كلامًا كهذا الكلام؟». حيلة عبقرية. اهتزت نخوة آورسبرغ وثارت عزته وكبرياؤه، فأمر بسجن المرشح. لا، لا، اعترف بأن هذه الحكاية كلها ظريفة، حكاية جسر تابور. ليس هذا لا غباء ولا جبنًا...

قال الأمير أندريه وهو يتخيل المعاطف الرمادية، والجراح، ودخان البارود، وطقطقة الرصاص، والمجد الذي ينتظره:

- لعل في الأمر خيانة.

فأستأنف بيليبين كلامه:

- لا ما هو أيضًا بخيانة. إن هذا يضع البلاط في ظرف سيئ جدًّا. ما هو بخيانة، ولا هو بجبانة، ولا هو بغباء. هو عين ما حدث في أولم.

وبدا بيليبين كمن يفكّر باحثًا عن تعبير، ثم قال:

- هذا شبيه بما فعله ماك.

وأضاف يقول وقد شعر بأنه اهتدى إلى جملة، جملة جديدة كل الجدة، جملة يمكن أن تجري بها الألسن، وأن يكررها الناس:

- لقد «تماككنا» (أي أصبحنا مثل ماك).

وإذا بالغضون التي كانت حتى ذلك الحين متجمّعة على جبهته، تمَّحي

إمحاء سريعًا، دالة بذلك على رضاه عن نفسه، وابتهاجه بما قاله، وإذا بابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه، وإذا هو يأخذ يتأمل أظافره.

وقال للأمير أندريه فجأة حين رآه ينهض ليمضي إلى غرفته:

- إلى أين؟

- أنا ذاهب.

- إلى أين؟

- ألتحق بالجيش.

- ولكنك كنت تريد أن تمكث يومين.

- والآن أريد أن أرحل فورًا.

ومضى الأمير أندريه إلى غرفته بعد أن أصدر أوامره بإعداد رحيله.

قال له بيليبين وهو يدخل عليه:

- اسمع يا عزيزي. لقد فكرت في وضعك. لماذا تريد أن ترحل؟

ومن أجل أن يبرهن على أن هذه الحجة لا يمكن دحضها، امَّحت عن وجهه تجاعيده كلها.

نظر إليه الأمير أندريه نظرة استفهام، ولم يجبه بشيء.

- لماذا تذهب إلى هناك؟ أنا أعلم ما يدور في ذهنك. إنك تعتقد بأن من واجبك أن تسرع إلى الجيش لأنه في خطر. إنني أفهم هذا يا عزيزي. هو بطولة.

قال الأمير أندريه:

- ليس الأمر كذلك البتة.

- ولكنك فيلسوف، فكن فيلسوفًا إلى النهاية، وانظر إلى الأمور من زاوية أخرى، فترى أن الواجب الذي يقع على عاتقك هو نقيض ما عقدت النية عليه، أي هو ألا تعرِّض نفسك للموت. دع هذا لأولئك الذين لا يصلحون لشيء غيره... إنك لم تتلقَّ أمرًا بالالتحاق، ولا جعلت هنا في حل من البقاء. في وسعك إذًا أن تبقى، وأن تتبعنا إلى حيث يقودنا حظنا

العاثر. يقال إننا ذاهبون إلى بلدة أولموتس[1]. وإن أولموتس لمدينة لطيفة جدًّا. وسوف نسافر معًا في عربتِيْ سفرًا هادئًا مريحًا.

قال بولكونسكي:

- كفى مزاحًا يا بيليبين.

فأجابه بيليبين:

- بل إنني أكلمك صادقًا مخلصًا كما يكلّم صديق صديقه. فكِّر. أين عساك تذهب الآن؟ وما سفرك مع أن في وسعك أن تبقى هنا؟ إن ما ينتظرك هو أحد شيئين لا ثالث لهما (قال ذلك وهو يجمِّع جلده فوق صدغه الأيسر): فإما ألا تلتحق بالجيش إلّا ويكون الصلح قد أبرم، وإما أن تشارك جيش كوتوزوف كله الهزيمة والعار.

وبسط بيليبين غضون جبينه، شاعرًا بأن ما قاله من أن هناك أمرين لا ثالث لهما رأي لا يمكن دحضه.

قال الأمير أندريه بهدوء بارد:

- لست أنا من يحكم في الأمر.

وحدث نفسه بقوله: «إنني ذاهب لإنقاذ الجيش».

وقال بيليبين:

- أنت يا عزيزي بطل.

---

(1) واسمها بالتشيكية أولوموك، وهي مدينة من مورافيا تقع في شمال شرقي برون.

الفصل الثالث عشر

في تلك الليلة نفسها استأذن بولكونسكي وزير الحرب بالسفر، ورحل باحثًا عن الجيش وهو لا يعرف أين يجده، خائفًا أن يأسره الفرنسيون في طريقه إلى كريمس.

وكان جميع رجال البلاط في برون، يهيئون حقائبهم، حتى لقد أرسلوا أمتعتهم الكبيرة منذ ذلك الحين إلى أولموتس. وأدرك الأمير أندريه، بقرب مدينة اتسلسدورف، الطريق التي كان يسلكها الجيش الروسي متعجّلًا أشد التعجل، بالغًا ذروة البلبلة والفوضى. كانت الطريق قد بلغت من شدة الازدحام بعربات النقل أنه كان يستحيل على المرء أن يشق بمركبته ممرًا له. فاستعار الأمير أندريه من أحد رؤساء القوزاق حصانًا ورجلًا من رجاله، ومضى يجتاز القوافل جائعًا مكدودًا، يبحث عن القائد العام ومركبته. فكانت أشأم الإشاعات تصل إلى مسمعه في أثناء الطريق عن حالة الجيش، وكانت رؤية القطعات وهي تفرُّ تأتي مصدِّقة لتلك الإشاعات.

وعادت إلى ذاكرته الكلمات التي خاطب بها نابوليون جيوشه قبل بدء الحملة: «هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب إنجلترا إلى أقاصي العالم، لسوف نجعله يلقى ذلك المصير نفسه (مصير جيش أولم)»، فإذا بهذه الكلمات توقظ في نفسه عاطفة هي مزيج من إعجاب بالرجل العبقري، وإحساس بالكرامة الجريحة، وأمل في الحصول على المجد. وقال لنفسه: «فماذا إذا لم يبق لي إلّا أن أموت؟». وسرعان ما أجاب بقوله: «لا ضير في الموت إذا وجب الموت. سأحتمل الموت كما يحتمله غيري».

ونظر الأمير أندريه باحتقار إلى هذا العدد الذي لا يُحصى من الوحدات

المتداخلة، والشاحنات والآليات والمدافع، وإلى هذه العربات والعربات والعربات التي لا يتخيّل المرء أنواعها الكثيرة والتي ما تنفك تتسابق تسابقًا، فإذا هي تملأ الطريق الموحلة صفوفًا ثلاثة وصفوفًا أربعة. ومن جميع الجهات في الأمام وفي الخلف، ومن أبعد مكان يمكن أن تصل أصواته إلى أذن المرء، كانت تترامى قرقعة عجلات، وكان يتوالى صرير الصناديق في العربات، وكان يتعالى اصطفاق السياط، وكانت تتعاقب الصرخات والشتائم يطلقها الجنود وخدم الضباط والضباط. وعلى حافتَيْ الطريق ما تنفك تُرى أفراس سقطت على الأرض مكشوطة أو سليمة، وتُرى عربات نقل محطمة جلس بقربها جنود منعزلون ينتظرون ولا يعلم إلّا الله ماذا ينتظرون، وجنود آخرون تاهوا عن وحدتهم فهم يتجهون جماعات إلى القرى المجاورة، أو يجرّون دجاجات وخرافًا وعلفًا وأكياسًا ملأى. وكان الازدحام في المسالك الصاعدة والمسالك الهابطة يشتد كثافة، وكان خليط من الأصوات يملأ الفضاء متصلًا غير منقطع. وكان الجنود يرفعون المدافع والمقطورات غائصين في الوحل إلى الركب، وكانت السياط تصطفق، وحوافر الخيل تنزلق، ومجرات العربات تتكسَّر، والصيحات تمزق الصدور تمزيقًا. وكان الضباط الذين يديرون الحركة يسعون بين القوافل ذاهبين آيبين، فتضيع أصواتهم في غمرة الصخب الشامل، ويرى المرء في ما تعبِّر عنه وجوههم أنهم يائسون من القدرة على وقف هذه الفوضى.

قال بولكونسكي محدثًا نفسه وهو يتذكر كلمات بيليبين: «هذا هو الجيش الأرثوذكسي العزيز!».

واقترب من القوافل يريد أن يسأل أحد هؤلاء الرجال عن مكان القائد العام. فإذا بمركبة عجيبة يجرّها حصان واحد تمر أمامه. لا شك هذه المركبة قد صنعها جنود من أشياء وقعوا عليها مصادفة، فهي لا تنتمي إلى نوع معين من العربات، وإنما هي خليط من عدة أنواع، وكان يقود المركبة جندي من الجنود، وكانت تقبع تحت غطائها الجلدي امرأة متلفّعة بشال متدثِّرة بواقٍ. اقترب الأمير أندريه من المركبة وهمَّ أن يلقي سؤاله عن مكان القائد العام، فإذا هو يفاجأ بصرخات حادة تطلقها المرأة. ذلك أن

الضابط المسؤول عن القوافل أخذ يضرب بسوطه الجندي الذي كان يقود هذه العربة الصغيرة لأن الجندي حاول أن يسبق العربات الأخرى، فتهاوت ضربات على الواقي الذي يدثّر المرأة، فطفقت المرأة تطلق صيحات حادة. فلما رأت الأمير أندريه انبجست من تحت الواقي، وراحت تحرِّك ذراعيها الهزيلتين خارج الشال وهتفت تقول:

- يا مرافق! سيدي المرافق! ناشدتك الله أن تحميني... ما عسى يحدث؟... أنا امرأة الطبيب الميجر في الفوج السابع من أفواج القناصة[1]. إنهم لا يدعون لي أن أمر. لقد تخلّفنا فتهنا عن ذوينا.

تقدم الأمير أندريه من الضابط وقال له:

- دع لهذه العربة أن تمر، من فضلك. ألا ترى أن فيها امرأة؟

فرشقه الضابط بنظرة سريعة، وعاد يلتفت إلى الجندي من دون أن يجيبه. وقال يخاطب الجندي:

- سأتقدمك... ارجع إلى الوراء!

فكرر الأمير أندريه قوله وهو يكز أسنانه:

- قلت لك دعه يمر!

فإذا بالضابط يصرخ قائلًا وقد أسكره الغضب:

- وأنت، من أنت؟ من أنت؟ هل أنت الرئيس؟

وقد خاطبه بصيغة المفرد احتقارًا، وهو يلحُّ على كلمة «أنت» إلحاحًا خاصًا. وتابع يقول:

- أنا القائد هنا لا أنت.

وكرر يخاطب الجندي:

- تخلَّف أنت، وإلا سطحتك كما تُسطح بسكويتة!

وكان واضحًا أن هذا التعبير في التهـديد قد راق له كثيرًا وأعجبه إعجابًا كبيرًا.

قال صوت خلفهما:

---

(1) كان للجيش الروسي في ذلك الأوان عدد من أفواج القناصة المطاردين، وكان هؤلاء يسمون «ياغر» (من الكلمة الألمانية ييغر).

- أنِّب المرافق الصغير فأحسن تأنيبه!

وأدرك الأمير أندريه أن الضابط قد اعترته نوبة مسكرة من ذلك الحنق المسعور الذي يصبح المرء فيه لا يعرف ماذا يقول. وأدرك أن تدخله لنجدة امرأة الطبيب تجعله على حافة الوقوع في وضع يخشاه أكثر مما يخشى أي شيء في هذه الحياة وهو أن يكون مضحكًا. ولكن الغلبة كانت لغريزته لا لعقله، فما كاد الضابط ينتهي من النطق بكلماته الأخيرة حتى كان الأمير أندريه يتقدم منه شاهرًا سوطه وقد انقلبت سحنته من فرط الغضب، وقال له:

- دع... هذه... المرأة... تمر!...

فحرَّك الضابط يده بإشارة تعبِّر عن الغضب، وأسرع يبتعد مجمجمًا بقوله:

- من هؤلاء، من رجال الأركان العامة، إنما تجيء الفوضى كلها. افعلوا ما تشاؤون.

وترك الأمير أندريه امرأة الطبيب التي كانت تسمّيه منقذها، تركها مسرعًا من دون أن يرفع بصره، وتابع طريقه وهو يستعرض بخياله تفاصيل هذا المشهد كله مشمئزًا، واتجه إلى القرية التي قيل له إن القائد العام موجود فيها.

فلما وصل إلى القرية، نزل عن ظهر حصانه، وسار إلى أول منزل منتويًا أن يستريح ولو لحظة قصيرة، وأن يصيب شيئًا من طعام، وأن يرتِّب قليلًا هذه الأفكار الكثيرة الأليمة التي تدور في رأسه وتعذّبه تعذيبًا. وكان يقول لنفسه وهو يقبل على أول منزل: «ما هذا بجيش، بل هو حشد أوغاد». وفيما هو يقول لنفسه هذا الكلام إذا بصوت مألوف يناديه باسمه صارخًا:

- بولكونسكي! بولكونسكي! ألا تسمع؟ تعال حالًا!

فلما دخل الأمير أندريه المنزل وجد نزفتسكي ومرافقًا آخر يأكلان، فسرعان ما سألاه إن كان يعرف شيئًا جديدًا. وقرأ الأمير أندريه في وجهيهما اللذين يعرفهما معرفة جيدة أنهما قلقان خائفان. وكان هذا الخوف وهذا القلق واضحين وضوحًا خاصًا في وجه نزفتسكي الذي عُرف بأنه وجه ضاحك دائمًا.

قال الأمير أندريه سائلًا:

- أين القائد العام؟

فأجابه المرافق:

- هنا في منزل آخر.

وسأله نزفتسكي:

- هل صحيح أنه الصلح والاستسلام؟

- أنا الذي ألقي عليك هذا السؤال. إنني لا أعرف شيئًا عدا أنني لقيت عناء كبيرًا في الوصول إليكم والالتحاق بكم.

قال نزفتسكي:

- لو تعرف ما يجري عندنا يا عزيزي! شيء رهيب. أعترف لك بأننا نتهكّم على ماك، ولكن حالنا أشد نكرًا وسوءًا. ألا جلست فأكلت شيئًا!

وعقب المرافق الآخر فقال:

- لن تجد الآن لا عربة ولا شيئًا يا أمير. أما صاحبك بطرس فالله وحده يعلم أين هو.

- أين القيادة العامة؟

- إننا نبيت في تسناييم[1].

وقال نزفتسكي:

- وأنا حمَّلت حصانين كل ما أحتاج إليه. لقد صنعت لي بردعات ممتازة تمكنني من الهروب عبر جبال بوهيميا. الحال سيئة يا صديقي. ولكن ما بالك ترتعد هذا الارتعاد؟ لا بد أنك مريض.

كذلك سأل نزفتسكي حين رأى الأمير ينتفض انتفاضًا قويًّا. قال الأمير أندريه:

- لا، لا شيء!

كان الأمير أندريه قد تذكر لقاءه الأخير مع امرأة الطبيب وضابط السير.

وقال يسأل:

(1) مدينة من مدن مورافيا بين فيينا وبرنو، وينطق اسمها بالتشيكية تسنويمو.

- ماذا يعمل القائد العام هنا؟

فأجاب نزفتسكي:

- لا أفهم من هذا الأمر شيئًا.

قال الأمير أندريه:

- وأنا لا أفهم إلّا شيئًا واحدًا هو أن هذا كله بشع، بشع، بشع.

واتجه إلى المنزل الذي كان يقيم فيه القائد العام، ودخل الدهليز بعد أن مر بعربة كوتوزف، ورأى الأفراس المُنهكة التي يركبها الحرس والقوزاق، وسمع هؤلاء يتكلمون بأصوات عالية..

قيل له إن كوتوزوف مجتمع بالأمير باغراتيون[1] والجنرال فايروتهر. إن فايروتهر هو الجنرال النمسوي الذي حل محل شميدت بعد مقتله. وكان كوزلوفسكي القصير مقعيًا في الدهليز أمام سكرتير. وكان السكرتير يكتب بسرعة على برميل مقلوب، شامرًا كمَّيْ بزته. وكان كوزلوفسكي يبدو متعبًا أكبر التعب مرهَقًا أشد الإرهاق، وكان واضحًا أنه هو أيضًا لم يغمض له جفن طوال الليل. وقد نظر إلى الأمير أندريه نظرة ذاهلة ولم يحيه حتى بهزّ رأسه هزة خفيفة. وقال متابعًا إملاءه على السكرتير:

- في الخط الثاني... هل تكتب؟ أما فوج كييف من رماة القنابل، وكذلك فوج بولوديا...

قال السكرتير متذمّرًا حانقًا وهو ينظر إلى كوزلوفسكي شزرًا ويكلمه بلهجة ليس فيها احترام:

- لا أستطيع أن أجاريك يا صاحب السيادة...

ومن خلال الباب كان يُسمع صوت كوتوزوف مستاءً عاليًا يقاطعه صوت آخر مجهول. وأحس الأمير أندريه من نبرة هذه الأصوات، ومن ذهول النظرة التي ألقاها عليه كوزلوفسكي، ومن اللهجة التي تكلّم بها السكرتير

---

(1) الأمير بطرس باغراتيون (1765 - 1812): سليل ملوك جورجيا، دخل في خدمة الجيش الروسي سنة 1782، وبرز في إيطاليا تحت قيادة سوزوروف، وقاد جيشًا في أوسترليتز، وقتل في معركة بورودينو.

المكدود المُنهك خالية من التوقير والاحترام، ومن كون الرجلين مقرفصين في الدهليز على هذه المسافة القريبة جدًّا من كوتوزوف، منهمكَيْن في الكتابة على برميل مقلوب، ومن منظر القوزاق الذين يحرسون الأفراس وهم يضحكون هذا الضحك المقهقه تحت نافذة القائد العام، أحس الأمير أندريه من هذا كله بأن شيئًا خطيرًا مشؤومًا لا بد أن يكون قد حدث.

فسأل كوزلوفسكي ملحًّا، فقال له كوزلوفسكي:

- سأجيبك حالًا يا أمير. هذه نصوص خطة للأمير باغراتيون.

- والاستسلام؟

- لا استسلام. وقد صدرت الأوامر بالاستعداد للمعركة.

اتجه الأمير أندريه إلى الباب الذي كانت تصل منه الأصوات. ولكن الأصوات صمتت لحظة أراد أن يفتحه، ثم إذا بالباب يُفتح فيظهر كوتوزوف في العتبة بأنفه الأقنى في وجهه العريض، وإذا بالأمير أندريه يجد نفسه واقفًا أمامه. ولكن كان واضحًا مما تعبّر عنه العين الوحيدة السليمة من عيني القائد العام أن أفكاره وهمومه كانت تشغل باله إلى حد يجعل بصره غامض الرؤية، فقد نظر إلى مرافقه الأمير أندريه فلم يتعرّفه. وقال يسأل كوزلوفسكي:

- هيه! أنهيت؟

فأجابه كوزلوفسكي:

- لحظة يا صاحب السعادة.

وظهر باغراتيون وراء القائد العام، وهو رجل قصير القامة خشن الجلد، لا يزال شابًا، له وجه ثابت، ساكن، جامد، شرقيّ الملامح.

قال الأمير أندريه مكررًا كلامه بصوت قوي وهو يمد إلى كوتوزف ظرفًا:

- يشرفني أن أقدّم نفسي.

فقال كوتوزوف:

- آ... هذا من فيينا؟ طيب. لحظة... لحظة!

وخرج يشيّع باغراتيون إلى درج الباب، وقال له:

- هيًّا يا أمير. في حراسة الله. إنني أباركك وأرجو لك عملًا كبيرًا يبهر الأبصار.

ورقّ وجه كوتوزوف فجأة، وترقرقت دموع في عينيه، وجذب إليه باغراتيون بيده اليسرى، ورسم عليه إشارة الصليب باليد اليمنى التي يزيّنها خاتم، وكان واضحًا أن هذه الحركة مألوفة له معهودة فيه، ومد لباغراتيون خده الممتلئ، ولكن باغراتيون قبّل عنقه بدلًا من أن يقبل خده.

وقال كوتوزوف مكررًا دعاءه:

- في حراسة الله.

ثم اتجه إلى عربته، وقال للأمير أندريه بولكونسكي:

- اركب معي.

فقال له الأمير أندريه:

- صاحب السعادة، إنني أتمنى أن أكون نافعًا هنا. فاسمح لي أن أبقى في مفرزة الأمير باغراتيون.

فأجابه كوتوزوف قائلًا:

- اركب.

ثم أضاف، يقول وقد رأى الأمير أندريه متردّدًا:

- أنا أيضًا في حاجة إلى ضباط ممتازين.

وركبا العربة، وسارت بهما العربة بضع لحظات وهما صامتان لا يتكلمان.

وكأن كوتوزوف حزر ما يعتلج في نفس الفتى ببصيرة الشيخ النافذة:

- ستحدث أمور أخرى كثيرة، كثيرة.

وأضاف يقول كمن يحدث نفسه:

- إذا عاد من مفرزته عشرها غدًا، فسأحمد الله حمدًا عظيمًا.

رفع الأمير أندريه عينيه إليه، فإذا بالأخاديد المغسولة من الندبة التي تدمغ صدغ كوتوزوف في الموضع الذي أصابته رصاصة إبان معركة إسماعيل، تلفت انتباه الأمير أندريه على غير إرادة منه، وإذا بالعين الميتة في وجه كوتوزوف تخطف بصره رغم إرادته. فقال محدثًا نفسه: «نعم، من

حقه أن يتكلم عن موت هؤلاء الرجال بمثل هذا الهدوء كله». وقال مخاطبًا كوتوزوف:

- من أجل ذلك إنما أطلب أن أُلحق بهذه المفرزة.

فلم يجبه كوتوزوف، وغرق في أفكاره، وكأنه نسي ما قاله. وبعد خمس دقائق، التفت إلى الأمير أندريه، والنوابض المرنة في العربة ترجّحه ترجيحًا رخوًا. إن وجهه الآن لا يعبر عن أي انفعال. وأخذ يسأل الأمير أندريه بسخرية ناعمة عن تفاصيل مقابلته للإمبراطور، وعن التعليقات التي سمعها في البلاط على معركة كريمس، وعن سيدات يعرفانهن كلاهما.

الفصل الرابع عشر

كان كوتوزوف قد علم من أحد كشّافيه في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) نبأ يضع الجيش الذي يقوده في مأزق لا يكاد يكون له منه مخرج. لقد أبلغه الكشاف أن الفرنسيين بقواتهم الضخمة أصبحوا بعد عبور جسر فيينا يهددون طريق اتصاله بالجيوش القادمة من روسيا. فإذا قرر كوتوزوف أن يبقى في كريمس، استطاع جيش نابوليون الذي يبلغ عدده مائة وخمسين ألف رجل أن يقطع عليه جميع مواصلاته، وحاصر جيشه المُنهَك الذي يتألف من أربعين ألف رجل، فإذا بوضعه يشبه وضع ماك في أولم. وإذا قرر أن يترك طريق الاتصال بالجيوش القادمة من روسيا، كان عليه أن يسلك طرقًا في منطقة مجهولة بجبال بوهيميا، مقاتلًا عدوًا يفوقه عددًا، وكان عليه أن يهجر كل أمل في الاتصال بينه وبين بوكسهوفدن[1]. وإذا قرر أن يقاتل متقهقرًا على الطريق المؤدي من كريمس إلى أولموتس ليلتقي بالجيوش القادمة من روسيا، فقد يسبقه الفرنسيون إلى هذه الطريق بعد أن عبروا جسر فيينا، فيكون في هذه الحال مضطرًا إلى قبول القتال سائرًا مثقلًا بحمولاته ورحاله كلها، محاطًا من الجهتين بعدو يفوقه ثلاث مرات عددًا.

وقد وقع اختيار كوتوزوف على الحل الثالث.

وإذا صدق ما قاله الكشّاف، فإن الفرنسيين يتجهون الآن بخطى حثيثة

(1) البارون البلطيقي تيودور بوكسهوفدن (1750 - 1811)، جنرال روسي، منح لقب كونت منذ سنة 1797، قاد الجناح الأيسر في أوسترليتز، عُيّن قائدًا عامًا للجيش في فنلندة من سنة 1808 إلى سنة 1809.

نحو تسنابيم التي تقع على طريق انسحاب كوتوزوف، وأنهم يسبقونه مسافة مائة وثلاثين فرسخًا، فإذا هو استطاع أن يبلغ تسنابيم قبلهم كان أمله في إنقاذ جيشه كبيرًا. أما إذا بلغوها قبله، فقد تعرَّض جيشه كله لعار كالعار الذي لحق بجيش ماك في أولم، أو أبيد جيشه بأسره إبادة تامة. ولكن سبق الفرنسيين بالجيش كله مستحيل. وطريق الفرنسيين من فيينا إلى تسنابيم أقصر وأفضل من طريق الروس من كريمس إلى تسنابيم.

لذلك بادر كوتوزوف، ليلة تلقّي هذا النبأ، إلى إرسال طليعة مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقيادة باغراتيون، تعبر الجبال يمنة، من طريق كريمس - تسنابيم إلى طريق فيينا - تسنابيم. لقد كان على باغراتيون أن يقطع هذه المرحلة من دون توقف، وان يرابط على ذلك الطريق متجهًا بوجهه إلى فيينا، مديرًا ظهره لتسنابيم، فإذا استطاع أن يصل قبل الفرنسيين، أخذ يناوشهم، فأخّرهم أطول مدة ممكنة. وفي الوقت ذاته، سار كوتوزوف نفسه متجهًا إلى تسنابيم بحمولاته كلها.

مشى باغراتيون بجنوده الجياع الحفاة في ليلة عاصفة، مسافة خمسة وأربعين فرسخًا في جبال لا طرق فيها، ففقد من رجاله ثلثهم تخلفوا زاحفين، ولكنه بلغ الطريق المؤدية من فيينا إلى تسنابيم قبل الفرنسيين ببضع ساعات، إذ كان الفرنسيون يقتربون من هولابرون قادمين من فيينا. وكان كوتوزوف وقوافله في حاجة إلى السير أربعًا وعشرين ساعة أخرى ليبلغوا تسنابيم. لذلك كان على باغراتيون، من أجل إنقاذ الجيش، أن يستطيع بجنوده المنهوكين الجياع الذين لا يتجاوز عددهم أربعة آلاف، أن يؤخر كلَّ جيش العدو أربعًا وعشرين ساعة حين التقى به في هولابرون. ومن الواضح أن هذا أمر مستحيل. غير أن نزوة من نزوات الحظ جعلت المستحيل غير مستحيل. ذلك أن نجاح الخدعة التي مكّنت الفرنسيين من الاستيلاء على جسر فيينا بغير قتال، قد حضّ مورا على محاولة تلك الخدعة نفسها مع كوتوزوف، لأنه حين لقي مفرزة باغراتيون الضعيفة على طريق تسنابيم، ظن أنه يواجه كل جيش كوتوزوف؛ فمن أجل أن يسحق هذا الجيش كله سحقًا محققًا، كان ينتظر اكتمال القطعات الفرنسية التي كان

يتلاحق وصولها من فيينا، فعرض هدنة مدتها ثلاثة أيام، بشرط أن تبقى قطعات الطرفين في أماكنها لا تتحرك منها. وأكّد مورا أن مباحثات صلح قد بدأت، وأنه إذا كان يقترح هذه الهدنة فإنما يهدف إلى تجنب سفك الدماء هدرًا. وقد أخذ الجنرال النمسوي، الكونت نوستتس الذي كان على رأس الطلائع الأمامية، بالتأكيدات التي حملها إليه مبعوث مورا، وانسحب من مواقعه كاشفًا مفرزة باغراتيون. ومضى مبعوث آخر إلى المواقع الروسية يبلغها نبأ مباحثات الصلح، ويعرض عليها هدنة مدتها ثلاثة أيام. فأجاب باغراتيون بأنه لا يستطيع لا أن يقبل الهدنة ولا أن يرفضها، وأرسل مرافقه إلى كوتوزوف يحمل تقريرًا عن الاقتراح الذي قدّمه مورا.

وكانت الهدنة في نظر كوتوزوف هي الوسيلة الوحيدة التي تمكّنه من كسب الوقت وتتيح لمفرزة باغراتيون المُنهكة أن تصيب شيئًا من الراحة، وتسمح للقوافل والحمولات (التي أخفيت حركاتها عن الفرنسيين) أن تتقدّم نحو تسنابيم ولو مرحلة واحدة. إن اقتراح الهدنة هذا يهيئ فرصة وحيدة فريدة لإنقاذ الجيش، فرصة لم تكن في الحسبان. فما إن وصل هذا النبأ إلى كوتوزوف حتى أرسل إلى معسكر العدو مرافقه العام فنتسنغرود[1]، وأمره بأن لا يقبل الهدنة فحسب، بل أن يبحث شروط الاستسلام أيضًا. وفي أثناء ذلك الوقت كلَّف كوتوزوف مرافقيه بان يعجِّلوا انتقال الجيش كله إلى طريق كريمس أكبر تعجيل ممكن. وكان على مفرزة باغراتيون المضناة الجائعة، أن تحجب حركة القوافل وأكثر الجيش، بوقوفها وحيدة ساكنة أمام عدو يفوقها ثماني مرات عددًا.

وتحققت نبوءات كوتوزوف. فالعرض الذي تقدم به عن الاستسلام، وهو عرض لا يلزم بشيء، قد أتاح لجزء من القوافل أن تمر؛ ومن جهة أخرى لم تلبث غلطة مورا أن انكشفت. كان نابوليون في شونبرون على مسافة خمسة وعشرين فرسخًا، فما إن وصله تقرير مورا حاملًا إليه مشروع

---

(1) البارون فرديناندو فنتسنغرود (1770 - 1818)، من مواليد هيس، دخل في خدمة الجيش الروسي منذ سنة 1797، وأصبح جنرال فرسان، وبعث سنة 1805 رسولًا إلى ملك بروسيا.

الهدنة فالاستسلام، حتى كشف الخدعة، وكتب إلى مورا الرسالة التالية:

إلى الأمير مورا

شونبرون، 25 برومر، سنة 1805 الساعة الثامنة من الصباح.

إنني عاجز عن الاهتداء إلى كلمات تعبّر لك عن استيائي. أنت لا تقود إلّا طليعة جيشي وليس من حقك أن تعقد هدنة بغير أمر أصدره إليك. إنك تضيِّع عليَّ ثمرة حملة. اقطع الهدنة فورًا وسر إلى العدو. وأبلغه أن الجنرال الذي يوقّع هذا الاستسلام ليس من حقه أن يوقّعه، وأنه لا أحد يملك هذا الحق إلّا إمبراطور روسيا.

وإذا أبرم إمبراطور روسيا هذا الاتفاق المزعوم فسوف أبرمه، ولكن الأمر كله خدعة. فهاجم الجيش الروسي ودمّره تدميرًا...

إنك في وضع لا يؤهّلك لأخذ حمولاته والاستيلاء على مدافعه.

إن مرافق إمبراطور روسيا رجل...! ولا قيمة للضباط حين لا تكون لهم سلطات. وهذا الضابط لم يخوَّل أية سلطة... لقد خدعت النمسويين حين أتاحوا لك عبور جسر فيينا، وها أنت يخدعك ضابط مرافق للإمبراطور.

نابوليون

أرخى مرافق نابوليون العنان لحصانه، ومضى يحمل الرسالة الرهيبة إلى مورا. وكان بونابرت نفسه لا يتّكل على جنرالاته، فاتجه بحرسه كله إلى ساحة المعركة، خشية أن تفلت منه الضحية، بينما كان الأربعة آلاف من الرجال الذين تتألف منهم مفرزة باغراتيون يشعلون نيران المعسكر فرحين، ويجففون ثيابهم، ويتدفأون، ويهيئون حساءهم، لأول مرة منذ ثلاثة أيام، من دون أن يعلم أحد منهم بما ينتظرهم، بل من دون أن يخطر لهم ذلك على بال.

الفصل الخامس عشر

ظفر الأمير أندريه بموافقة كوتوزوف بعد إلحاح؛ وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وصل إلى غرونت وقدَّم نفسه إلى باغراتيون. ولم يكن مرافق نابوليون قد بلغ مورا، ولم تكن المعركة قد بدأت. وفي مفرزة باغراتيون لم يكن أحد على علم بالمجرى العام للعمليات، وكان الجنود يتحدّثون عن الصلح، ولكن من دون أن يصدِّقوا أنه ممكن. وكانوا يتحدّثون أيضًا عن المعركة، ولكن من دون أن يصدِّقوا كذلك أنها وشيكة.

كان باغراتيون يعلم أن بولكونسكي هو المرافق المفضَّل الأثير لدى كوتوزوف، والمرافق الذي يحظى بثقة كوتوزوف، فاستقبله استقبالًا فيه كثير من المراعاة والمداراة والبشاشة، وشرح له أن المعركة ستنشب في أغلب الظن اليوم أو غدًا، وترك له حرية البقاء بقربه أثناء المعركة أو المكوث في المؤخرة ليضمن حسن التقيد بالنظام عند الانسحاب، «وذلك أمر له شأنه الكبير وخطره العظيم أيضًا». وأضاف يقول كأنما ليطمئن الأمير أندريه:

- على كل حال، أغلب الظن أنه لن يقع اليوم اشتباك.

وحدَّث باغراتيون نفسه بقوله: «إذا كان واحدًا من أولئك الفتيان الطائشين في هيئة الأركان يرسلونه من أجل أن يحصل على وسام، فسوف يحصل على هذا الوسام في المؤخرة أيضًا؛ وإذا أراد أن يبقى معي... فليكن له ما يريد، إنه يمكن أن يكون نافعًا إذا كان ضابطًا شجاعًا».

لم يجبه الأمير أندريه بشيء بل طلب أن يؤذن له بزيارة المواقع، والاطلاع على ترتيب القطعات، بغية أن يعلم أين ينبغي أن يذهب حين

يكلَّف بمهمة. فإذا بضابط من الأركان العامة، وهو فتى وسيم أنيق الهندام، يزدان خنصره بخاتم من ماس، يتقدم لإرشاده.

كان يرى في جميع الجهات ضباط مبلَّلو الثياب حزانى الوجوه كأنهم يبحثون عن شيء فلا يجدونه، وكان يرى جنود يجرون من القرية أبوابًا ودككًا وأوتاد أسيجة.

قال ضابط هيئة الأركان وهو يشير إليهم:

- هؤلاء يا أمير، أناس يستحيل التخلص منهم. إن الرؤساء لا يسيطرون عليهم.

ثم دلَّ بيده على خيمة نصبها قيّم الكانتين، وأردف يقول:

- وهنا إنما يتجمعون ويقضون وقتهم. لقد طردتهم جميعًا في هذا الصباح، فانظر كيف امتلأ بهم المكان من جديد. يجب أن نذهب إليهم، يا أمير، فنخيفهم. ولن يأخذ هذا من وقتنا إلّا دقيقة واحدة.

قال الأمير، ولم يكن وقته قد اتسع لتناول شيء من طعام:

- هلمَّ بنا إلى هناك، وسأُطعم في الوقت نفسه شيئًا من جبن وخبز.

- لماذا لم تقل هذا يا أمير؟ كان يمكن أن أمضي بك إلى بيتي أولًا، فتصيب ما تحب من طعام.

ونزل الضابطان عن حصانيهما، ودخلا خيمة قيِّم الكانتين. فكان في الخيمة عدة ضباط جلسوا إلى موائد يأكلون ويشربون وقد احمرّت وجوههم.

قال الضابط بلهجة التأنيب كمن سبق له أن كرّر هذا الشيء مرارًا:

- ما معنى هذا يا سادة! حقًّا ليس لكم أن تغيبوا هذا الغياب.

وأضاف يقول لضابط صغير من ضباط المدفعية، وسخ هزيل كان قد خلع جزمتيه وعهد بهما إلى قيِّم الكانتين لتجفيفهما ولم يبقَ في قدميه إلّا على جوربيه، وكان وقف يستقبل القادمين مبتسمًا ابتسامة غير طبيعية:

- أمر الأمير بألا يبقى هنا أحد.

ثم أردف:

- ما هذا يا كابتن توشين؟ ألا تستحي؟ كان ينبغي لك أن تكون قدوة

وأنت ضابط مدفعية. فكيف تكون حافي القدمين، ما أحلاك حين يدقّ النفير فتكون من دون جزمتين!

قال الضابط ذلك وابتسم. ثم أضاف يخاطب سائر الضباط بلهجة الأمر:

- ارجعوا جميعًا إلى مراكزكم يا سادة، جميعًا، جميعًا!

ابتسم الأمير أندريه على غير إرادة منه وهو ينظر إلى الكابتن توشين. كان الكابتن توشين يتواثب من قدم إلى قدم حافيًا، مبتسمًا لا يتكلم، مصوِّبًا بعينيه الطيبتَيْن نظرات استفهام، تارة إلى الأمير أندريه وتارة إلى ضابط الأركان العامة. ثم قال مبتسمًا خجلًا، راغبًا رغبة واضحة في أن يخرج من هذا المأزق المربك بالمزاح:

- يقول الجنود إن المرء يكون أكثر ارتياحًا حين يخلع جزمتيه ويبقى حافي القدمين!

ولكنه ما كاد ينهي جملته حتى أحسَّ بأن مزحته لم تؤتِ ثمارها، فاشتد اضطرابه.

وقال ضابط الأركان العامة محاولًا أن يحتفظ بجده ووقاره:

- هيَّا غادروا هذا المكان!

وألقى الأمير أندريه نظرة أخرى على تلك القامة الضئيلة، قامة ضابط المدفعية. إن فيها شيئًا خاصًّا، ليس عسكريًّا، شيئًا مضحكًا هزليًا بعض الشيء، ولكن الرجل لطيف الهيئة محبَّب إلى القلب.

وركب الأمير أندريه والضابط حصانيهما، وتابعا سيرهما.

فلما خرجا من القرية كانا لا ينفكان يتجاوزان، ويقابلان جنود مشاة وضباطًا من شتى الأسلحة، وشاهدا إلى يسارهما مباني حمراء تُبنى بصلصال يُستخرج من الأرض. كان المكان يزخر بزمر من الجنود خلعوا ستراتهم فلا تحميهم من الريح الباردة إلّا قمصانهم، حتى لكأنهم من كثرتهم جموع نمل أبيض. وكانت مجارف من صلصال ما تنفك تنبجس من الوراء حاجز بغير انقطاع، ترميها يد لا تُرى.

اقترب الضابطان من أشغال البناء، وتأملاها مليًّا، ثم تابعا سيرهما. فما إن قطعا مسافة قصيرة حتى لقيا عدة عشرات من الجنود يتناوبون العمل

بلا توقف، دالفين في تلعة من الأرض بسرعة. فاضطر الضابطان أن يسدا أنفيهما وأن يستحثا حصانيهما فرارًا من هذا الجو الموبوء.

قال الضابط المرافق:

- هذه بهجة المعسكرات يا سيدي الأمير.

وبلغا الرابية التي كانت تنتصب أمامهما، وكان يمكن رؤية الفرنسيين من على هذه الرابية، فوقف الأمير وأخذ يراقب.

قال الضابط وهو يشير إلى أعلى نقطة:

- هنا ترابط إحدى سرايا مدفعيتنا. إنها سرية ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي رأيناه حافي القدمين منذ قليل. ومن تلك النقطة يُرى كل شيء، فهلمَّ بنا إليها يا أمير.

قال الأمير راغبًا في التخلص منه:

- شكرًا. سأمضي إلى هناك وحدي، لا تزعج نفسك، أرجوك...

فلم يصرَّ الضابط على مصاحبته، ومضى الأمير أندريه وحده.

فكان كلما اقترب من العدو يلاحظ في صفوفنا مزيدًا من النظام، ومزيدًا من البشر والمرَح. إنه حين رأى القافلة التي تجاوزها هذا الصباح قبيل تسنابيم والتي كانت على مسافة عشرة فراسخ من الفرنسيين، إنما لاحظ الفوضى في أشد صورها، ولاحظ الوهن والخور والانهيار. وفي غرونت أيضًا، يحس المرء نوعًا من قلق، وشيئًا من هَمٍّ غامضٍ وخوف مبهم. ولكن كلما اقترب المرء من الخطوط الفرنسية شعر بمزيد من الثقة والطمأنينة في صفوف قطعاتنا. كان جنود مرتدون معاطفهم قد اصطفوا أمام رقيب وكابتن يحصيان عدد الرجال، وقد غرس الرقيب إصبعه في صدر آخر جندي من الصف مهيبًا به أن يرفع ذراعه. وكان جنود آخرون قد انتشروا هنا وهناك يجيئون بحطب وأغصان، ويبنون أكواخًا وهم يضحكون ويكلم بعضهم بعضًا في مرح. وكان رجال بعضهم يرتدي ثيابه وبعضه خلع ملابسه قد جلسوا بقرب النار يجففون قمصانهم وجواربهم أو يرقّعون أحذيتهم البالية ومعاطفهم المهترئة، وكان رجال غيرهم يتزاحمون حول قدور الطهاة. وكان الحساء في إحدى السرايا قد نضج، فالجنود ينظرون بشراهة إلى

القدور التي يتصاعد منها البخار، منتظرين أن يقوم الرقيب المحاسب فيملأ بالحساء قصعة من خشب، ويمضي بها إلى الضابط الجالس على جذع شجرة أمام كوخه، ليذوق الضابط الحساء.

وفي سرية أخرى أحسن حظًا من الأولى - لأن الفودكا لم تكن متوفرة لجميع الرجال - كان الجنود متجمعين حول رقيب مجدور الوجه عريض المنكبين قد مال على برميل الفودكا وأخذ يملأ الأقداح الممدودة إليه واحدة بعد أخرى. فكان الجنود يحملون الأقداح إلى شفاهم كالخاشعين، ويفرغونها في أجوافهم، ويمسحون أفواههم بألسنتهم، وينشّفونها بأكمام معاطفهم، ثم يمضون فرحين مبتهجين. كانت الوجوه كلها هادئة، لا تدل على شيء من الاكتراث فكأنّ هؤلاء الرجال ليسوا على مسافة قصيرة من عدو رهيب في عشية معركة سيبقى على أرضها نصفهم في أقل تقدير، وإنما هم معسكرون في مكان هادئ من وطنهم. وبعد أن تجاوز الأمير أندريه فوجًا من القنَّاصة رأى بين صفوف رماة قنابل كييف[1]، فتية بواسل كانوا يقومون بأعمال من أعمال السلم أيضًا، على مقربة من تخشيبة عالية تمتاز على سائر التخشيبات، هي تخشيبة قائد الفوج، ورأى مفرزة من رماة القنابل قد استلقى أمامها رجل عارٍ كان جنديان يمسكانه، وكان جنديان آخران يشهران عصيًّا طريّة ويهويان بها على ظهره العاري ضربات متعاقبة موزونة. وكان الجاني يطلق صرخات لا تخلو من التصنّع والافتعال. وكان ميجر بدين يذهب ويجيء أمام الرجال، ويقول من دون أن يولي الصرخات انتباهًا:

- عار على جندي أن يسرق. يجب أن يكون الجندي شريفًا نبيلًا شهمًا. وقد سرق هذا رفيقًا له، ففقد بذلك شرفه. إنه رجل حقير. مزيدًا من الضرب! مزيدًا من الضرب!

فاستمرت العصي تهوي على جسمه صافرة، واستمرت الصرخات تنطلق من صدره حادة لكنها مصطنعة. وكان الميجر لا يزال يردد قوله:

---

(1) كان للجيش الروسي حتى سنة 1918 ستة عشر فوجًا من رماة القنابل هم في الجيش صفوة ممتازة.

- مزيدًا، مزيدًا!

ابتعد عن الجاني ضابط شاب كان وجهه يعبر عن ارتباك وحيرة، وحزن وألم، وألقى نظرات استفهام على المرافق الذي مرَّ في ذلك الوقت.

وحين وصل الأمير أندريه إلى المراكز الأمامية، سار متابعًا خط الجبهة. كان خطنا في الجانبين بعيدًا عن خط العدو بعدًا كبيرًا. ولكنه في الوسط، أي في المكان الذي مروا منه في الصباح، قريبًا من خط العدو قربًا شديدًا حتى ليمكن أن يرى الرجال بعضهم بعضًا وأن يكلم بعضهم بعضًا من جهة إلى جهة. وعدا الجنود الذي كانوا يحمون الخطوط الأولى، كانت تحتشد في الجانبين جمهرة من المستطلعين الفضوليين يتفرّسون ضاحكين في هؤلاء الأعداء العجيبين الذين لم يسبق لهو أن رأوهم يومًا.

ومنذ الصباح الباكر، ورغم حظر الاقتراب من المراكز الأمامية لم يفلح الضباط في دفع سيل هؤلاء الفضوليين. وقد أصبح خفراء المراكز الأمامية أشبه بأناس يقومون بشيء نادر، فهم لا ينظرون إلى الفرنسيين وإنما يبدون ملاحظات عن هؤلاء المتسكعين، وينتظرون أن يحين وقت تبديلهم ضجرين. ووقف الأمير أندريه ليرى الفرنسيين.

قال جندي لرفيقه وهو يشير إلى جندي روسي يحمل بندقية وقد اقترب من المخافر الأمامية مع أحد الضباط، وطفق يكلّم واحدًا من رماة القنابل الفرنسيين متدفقًا في الحديث متحمسًا:

- انظر، انظر! انظر ما أسرعه في الكلام! إن الفرنسي نفسه لا يستطيع أن يتابع حديثه من فرط سرعته. جاء دورك يا سيدوروف.

فأجابه سيدوروف الذي كان يعَدّ بين الجنود قديرًا في اللغة الفرنسية:

- بل دعني أصغي. حقًا إنه يحسن الكلام.

وكان الجندي الذي يشير إليه الضاحكون هو دولوخوف. فعرفه الأمير أندريه، وأخذ ينصت إلى الحديث. كان دولوخوف وقائد سريته قد جاءا إلى الخطوط الأمامية من الجانب الأيسر الذي كان يرابط فيه فوجهما.

قال الكابتن وهو يميل إلى أمام محاولًا ألا تفوته كلمة من الحديث الذي لا يفهمه:

- هيَّا، استمر! استمر! أرجوك!

أسرع، مزيدًا من الإسراع. ماذا يقول؟

لم يجب دولوخوف عن سؤال الكابتن. فقد كان منخرطًا في مناقشة حامية مع رامي القنابل الفرنسي، وكانا يتكلمان عن الحرب طبعًا. كان الفرنسي يخلط بين النمسويين والروس، فيزعم أن الروس استسلموا وفرّوا منذ معركة أولم، وكان دولوخوف يرد عليه بأن الروس لم يستسلموا، وأنهم قاتلوا الفرنسيين وهزموهم.

وأضاف يقول: لقد صدرت إلينا الأوامر بطردكم من هنا، ولسوف نطردكم.

فأجابه الفرنسي، رامي القنابل اليدوية بقوله:

- حاولوا ألا تؤسَروا أنتم وقوزاقكم كافة! فانفجر المستمعون الفرنسيون يضحكون ضحكًا مجلجلًا.

قال دولوخوف:

- لنجعلنكم ترقصون، كما رقصتم في أيام سوفوروف.

فقال فرنسي يسأل:

- عمَّ يتكلم هذا الأخرق؟

وقال فرنسي آخر وقد حزر أن دولوخوف يتكلم عن حرب سابقة:

- تاريخ قديم. لسوف يعرف الإمبراطور كيف يرى صاحبكم سوفارا، وغيره...

فانبرى دولوخوف يقول:

- بونابرت...

ولكن الفرنسي قاطعه صارخًا في حنق:

- لا تقل بونابرت... بل الإمبراطور! اسم مقدس.

فأجابه دولوخوف:

- شيطان يأخذه، إمبراطوركم هذا.

وقذف دولوخوف باللغة الروسية شتيمة بذيئة من الشتائم التي يقذفها الجنود، وسوّى بندقيته على كتفه، ومضى وهو يقول للكابتن:

- تعال يا ايفان لوكتش.

قال جنود المخافر الأمامية:

- هذه لغة فرنسية! هيّا يا سيدوروف!

فطرف سيدوروف بعينه، وأخذ يدمدم كلمات لا معنى لها، محاولًا أن يجعل صوته معبرًا عن أشياء ذات معنى:

- كاري، مالا، تافا، موتر، كاسكا.

فأخذ الجنود يضحكون ضحكًا مدوّيًا بلغ من الصراحة والانطلاق والمرح أن عدواه سرت إلى الفرنسيين فأخذوا هم أيضًا يضحكون. فإذا رأى المرء مشهد الضحك هذا تراءى له أنه لم يبق إلّا أن يفرغ الجنود بنادقهم من رصاصها، وأن يفجّروا ذخائرهم ويرجع كل منهم إلى بيته بأقصى سرعة.

ولكن البنادق بقيت ملقومة، والكوى الذي فُتحت في جدران المنازل ظلت على حالها وخلفها جنود جاهزون لاستئناف إطلاق الرصاص، والخنادق التي حُفرت تهيّوءًا لاستئناف القتال ما برحت في مكانها غاصّة بالرجال، والمدافع المنتصبة على قوائمها لا تزال مصوَّبة بعضها إلى بعض.

الفصل السادس عشر

اجتاز الأمير أندريه خطوطنا من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، ثم صعد إلى سرية المدفعية التي أخبره الضابط المرافق إن موقعها يطل على الساحة كلها، فنزل هنالك عن صهوة حصانه، ووقف بقرب المدفع الأخير من المدافع التي سُحبت من قوائمها، وكان أحد الرماة يحرس المدافع، فأقبل على الأمير أندريه ليحييه ويريه الأسلحة، ولكن الأمير أومأ له أن يعفيه من ذلك، فعاد يمشي مشيته الرتيبة المملة.

صَدَقَ الضابط المرافق، إن موقع سرية المدفعية يطل فعلًا على جميع المواقع الروسية، ويطل كذلك على جزء كبير من مواقع العدو. وفي مواجهة هذا المكان، على ذروة رابية من الروابي، كانت تصطف منازل قرية شونغرابن[1]. وعلى الشمال واليمين يستطيع الناظر أن يميِّز في ثلاثة مواضع، وسط دخان المخيَّمات، كتل الجنود الفرنسيين الذين كان أكثرهم يرابط في القرية نفسها وعلى السفح الآخر من الرابية. وعلى يسار القرية يلمح الناظر من خلال الدخان شيئًا لا بد أن يكون سرية مدفعية، ولكن المرء لا يستطيع أن يميزها بالعين المجردة تمييزًا واضحًا. وكان الجنب الأيمن من قواتنا قد تمركز على تلة عالية وعرة تتحكّم بالموقع الفرنسي.

---

(1) في يومَيْ 15 و16 تشرين الثاني (نوفمبر)، دافعت مفرزة باغراتيون عن نفسها في هذه القرية دفاعًا باسلًا ضد قوات مورا وأودينو، وانسحبت في مساء اليوم الثاني من دون أن تترك وراءها إلّا اثني عشر مدفعًا مخرّبًا. وتُعرف هذه المعركة أيضًا باسم معركة هولابرون (شمال فيينا).

كان مشاتنا يملأون التلة، وكان الفرسان يرابطون في آخرها. وكان أسهل منحَدر يقع في الوسط، وهو المكان الذي استقرت فيه سرية توشين، والذي منه نظر الأمير أندريه إلى أرض الساحة مدقّقًا، والذي يؤدي رأسًا إلى جدول الماء الفاصل بيننا وبين شونغرابن. وفي الشمال كان جنودنا يتمركزون في غابة تتصاعد منها نيران سرية مدفعيتنا التي كان أفرادها يحطّبون. وكانت الخطوط الفرنسية تطل على خطوطنا، فكان واضحًا أن الفرنسيين يستطيعون أن يطوقونا بسهولة. وكان وراء مواقعنا وادٍ وعر عميق يصعب على رجال المدفعية والفرسان أن يسلكوه إذا هم أرادوا أن ينكفئوا منسحبين.

اتكأ الأمير أندريه بكوعه على أحد المدافع واستلَّ دفتره وأخذ يرسم فيه ترتيب الجند. وقد سجل بالقلم الرصاص في موضعين من مواضع هذه الخريطة ملاحظات ينوي أن يكلّم فيها باغراتيون. فهو يريد أولًا أن يجمع المدفعية كلها في الوسط، ويريد ثانيًا أن يردّ الفرسان إلى الخلف في الجهة الأخرى من الوادي. لقد اعتاد الأمير أندريه بسبب مرافقته المستمرة للقائد العام، ولأنه مُكلَّف بتأريخ المعارك، أن يعنى خاصة بمتابعة التحركات الكبرى والتوجيهات العامة، فكان طبيعيًّا ألا ينظر في هذه المعركة إلّا إلى الخطوط العريضة من العمليات المقبلة. فكان يعرض في فكره الاحتمالات الهامة. كان يقول لنفسه: «إذا هجم العدو على الجانب الأيمن كان ينبغي لرماة القنابل (كتيبة كييف) ولحملة البنادق (كتيبة بولوديا)، أن يصمدوا في أماكنهم إلى حين وصول القوى الاحتياطية من الوسط. وفي هذه الحالة يستطيع الفرسان مهاجمة جنب العدو فيدحروه. أما إذا وقع الهجوم على الوسط، وضعنا سرية مدفعية الوسط على هذه الأكمة، وسحبنا الجانب الأيسر محتمين بقصف المدفعية، وتقهقرنا إلى الوادي شيئًا فشيئًا.

وكان منذ أن صار في السرية بقرب المدفع لا ينفك يسمع - كما يحدث دائمًا - أصوات الضباط في الكوخ، ولكنه كان لا يفهم كلمة مما يقولون. وإنه لكذلك إذ سمع صوتًا له نبرة تخطف الانتباه وتؤثر في النفس، فأصاخ بسمعه رغم إرادته.

كان ذلك الصوت العذب المؤثر الذي خيَّل إليه أنه يعرفه:

- لا يا عزيزي. لو كان ممكنًا أن يعرف المرء ما بعد الموت، لما خشي أحد أن يموت. ذلك هو الأمر يا عزيزي.

فقاطعه صوت أفتى يقول:

- لا مهرب للإنسان من الموت، سواء كان يخشاه أم كان لا يخشاه.

وقال صوت ثالث أفحل ذكورة، مقاطعًا الصوتين الأولين:

- ولكن الإنسان يخاف دائمًا. طوبى للعلماء! إنكم يا رجال المدفعية، إذا كنتم على هذا القدر الكبير من العلم، فلأنكم تستطيعون دائما أن تحملوا ما به تشربون كأسًا. وتأكلون لقمة.

فأخذ صاحب الصوت الفحل يضحك، وكان ظاهرًا أنه ضابط مشاة.

واستأنف الصوت الأول كلامه فقال:

- إن المرء يخاف الموت دائمًا. ومن المجهول إنما هو يخاف. ذلك هو الأمر. مهما يقل الناس إن الروح تصعد إلى السماء، فنحن نعلم أن ليس ثمة سماء بل فضاء لا أكثر.

فقاطع الصوت الفحل ضابط المدفعية مرة أخرى بقوله:

- هيًّا يا توشين! ألا سقيتنا شيئًا من خمرتك!

قال الأمير أندريه لنفسه: «آ... هذا هو الكابتن الذي كان خالعًا جزمتيه عند قيّم الكانتين»، وقد سره أن يتعرّف هذا الصوت الحلو الذي كان يتفلسف.

قال توشين:

- أما الخمرة فلكم منها ما تشاؤون، وأما فهم الحياة الآخرة...

ولم يكمل توشين جملته. ذلك أن أزيزًا ملأ الفضاء في تلك اللحظة، وما انفكّ يقترب ويقترب، وما انفكّ يُسرِع ويسرع، وما انفكّ يتضح ويتضح، ثم إذا بالقذيفة تغوص في الأرض حانقة على مقربة من الكوخ، وإذا بالتراب والطين يتبعثر هنا وهناك في كل جهة من الجهات. وبدا كأن الأرض تئنّ من هذه الضربة الرهيبة أنينًا.

وفي تلك اللحظة نفسها خرج توشين القصير من الكوخ أول الخارجين، كازًا بأسنانه على الغليون في طرف فمه. وكان وجهه الجميل الذكي شاحبًا بعض الشحوب. ووراءه ظهر صاحب الصوت الفحل، وهو ضابط من سلاح المشاة تلوح في حركته إمارة الجسارة والبسالة وقد ركض يلحق سريته وهو يعقد أزراره بسرعة.

الفصل السابع عشر

وقف الأمير أندريه راكبًا حصانه، ونظر إلى دخان المدفع الذي انطلقت منه القذيفة. كانت عيناه لا تعرفان كيف تثبتان على موضع من ذلك الفضاء الواسع. ولكنه رأى أن كتل الفرنسيين التي كانت ساكنة جامدة إلى ذلك الحين قد أخذت تتحرك، ولاحظ أن في الشمال سرية مدفعية فعلًا، والدخان لما يتبدد من فوقها بعد. وكان اثنان من الفرنسيين، وهما في أغلب الظن مرافقان، قد أخذا يصعدان الرابية. واستطاع الأمير أندريه أن يميز في سفح الرابية رتلًا صغيرًا كان يتقدّم، فلا شك أن هذا الرتل كان يتقدم لتعزيز الخطوط الأمامية. وما كاد يتبدد دخان القذيفة الأولى حتى علا دخان آخر أعقبه انفجار جديد. لقد بدأت المعركة.

استدار الأمير أندريه بحصانه، وقفل راجعًا على طريق غرونت، يعدو بالحصان قماصًا، ليلقى الأمير باغراتيون. فكان يسمع قصف المدافع يشتد دويه وراءه مزيدًا من الاشتداد لحظة بعد لحظة. وكان واضحًا أن جندنا قد أخذوا يردّون. وانطلق أزيز رصاص البنادق تحت، في الموضع الذي مر منه.

كان لومارو[1] قد وصل إلى مورا منذ قليل، حاملاً إليه رسالة نابوليون الرهيبة، فشعر مورا بخزي وعار، وأراد أن يصلح غلطته، فأسرع يصدر أوامره بمهاجمة وسطنا وتطويق جنبينا آملًا أن يفرغ من سحق مفرزتنا المسكينة قبل حلول المساء ووصول الإمبراطور.

---

(1) جنرال فرنسي كان مرافق نابوليون.

حدَّث الأمير أندريه نفسه بقوله: «بدأت، هذه هي المعركة»، وشعر بالدم يزدحم في قلبه بمزيد من السرعة، وقال يسأل نفسه: «ترى أين وكيف تعرض لي فرصة كفرصة تولون»[1].

وحين مرَّ أمام السرايا التي كانت قبل ربع ساعة تأكل حساءها وتشرب الفودكا، رأى في كل مكان تلك الحركات السريعة نفسها التي يقوم بها الجنود حين يشكلون صفوفهم ويتناولون بندقياتهم، ورأى في جميع الوجوه ذلك الاهتياج الذي يحسّه هو نفسه. وكان وجه كل جندي وكل ضابط كأنه يقول: «بدأ الأمر. هذه هي المعركة. شيء رهيب ومضحك في آن واحد».

وقبل أن يصل الأمير أندريه إلى أشغال البناء، شاهد في غسق تلك الليلة الكالحة من ليالي الخريف كوكبة من الفرسان مقبلة عليه. يتقدّمها فارس يضع على كتفيه دثارًا فضفاضًا، ويعتمر كسكيتة من لبَّاد يزينها فراء استراكان. كان هذا الفارس يركب حصانًا أبيض. إنه الأمير باغراتيون.

وقف الأمير أندريه ينتظره، ووقف باغراتيون أيضًا، فلما عرفه باغراتيون حيّاه بحركة من رأسه، وأخذ يصغي إلى ما يذكره له الأمير أندريه، مستمرًا في النظر إلى ساحة القتال.

وكان هذا الخاطر: «بدأ الأمر. تلك هي المعركة!». كان هذا الخاطر يُقرأ حتى في وجه الأمير باغراتيون، وهو وجه خشن المظهر ملوَّح اللون، وكانت عيناه أشبه بالمغمضتين حتى لكأنهما عينان ألمَّ بهما نعاس. تفرَّس الأمير أندريه في هذا الوجه الجامد مستطلعًا، مستغربًا، قلقًا، وتساءل: هل يفكر هذا الرجل في شيء؟ وهل يحسّ بشيء في هذه اللحظة؟ وما عسى يكون ما يفكر فيه وما يحسّ به؟ كان الأمير أندريه يتساءل وهو ينظر إلى وجه الأمير باغراتيون: «هل وراء هذا الوجه المغلق شيء؟». وحنى الأمير باغراتيون رأسه معبرًا عن موافقته على أقوال الأمير أندريه، وقال: «حسنًا»،

---

(1) لقد بدأ مجد بونابرت سنة 1793، حين جلى أثناء محاصرة تولون وهو ضابط مدفعية. والأمير أندريه يحلم لنفسه هنا بفرصة كالفرصة التي منحت لنابوليون في مدينة تولون.

كأن ما يجري وكلَّ ما يذكر له هو بعينه ما كان ينتظره ويتوقّعه. وكان الأمير أندريه يلهث من سرعة جريه، ويتكلم بسرعة. أمّا الأمير باغراتيون، فكان ينطق كل كلمة من كلماته بطيئة بلهجتها الشرقية، كأنما ليدل على أنه لا داعي إلى العجلة. ولكنه استحثّ حصانه خببًا، ليصل إلى سرية توشين. وانضم الأمير أندريه إلى خفره الذي كان يتألف من: ضابط ينتمي إلى حاشية صاحب الجلالة؛ ومرافق جيركوف الشخصي، وجيركوف ومرافقه، وضابط من هيئة الأركان كان يمتطي صهوة حصان جميل مهجَّن، وموظف مدني، ومستمع[1] كان قد طلب أن يؤذن له بمصاحبة الحملة من باب حب الاطلاع. وكان هذا المستمع، وهو رجل بدين ممتلئ الوجه، ينظر إلى ما حوله مبتسمًا ابتسامة فرح ساذج، متنطّطًا على حصانه. كان غريب المظهر بشملته وسرج فرسه في وسط الفرسان والقوزاق والضباط المرافقين.

قال جيركوف للأمير أندريه بولكونسكي وهو يشير إلى المستمع:

- يريد هذا السيد أن يرى المعركة، ولكنه يعاني من مغص في معدته منذ الآن.

فعقَّب المستمع وهو يبستم ابتسامة مشرقة ساذجة وماكرة في آن واحد، كأنما أرضى غروره أن يمازحه جيركوف، فراحَ يحاول عامدًا أن يبدو أغبى مما هو في الواقع:

- هيَّا! كفى!

قال ضابط الأركان العامة وقد تذكّر أن لقب الأمير يخاطب به الأمير في اللغة الفرنسية بطريقة خاصة، ولكنه لم يفلح في تذكّر تلك الطريقة الخاصة:

- شيء مضحك سيدي الأمير.

وكانوا في تلك اللحظة قد اقتربوا جميعًا من سرية توشين، فسقطت أمامهم قذيفة. فقال المستمع سائلًا وهو يبتسم بسذاجة:

- ما هذا الذي سقط!

فأجابه جيركوف:

---

(1) موظف في المحكمة العسكرية.

- بسكويت فرنسي.

فقال المستمع:

- أهذا هو إذًا ما يرمونه؟ يا للهول!

وتهللت أساريره لذة. وما كاد ينهي جملته حتى سمع دوي رهيب جديد انتهى فجأة بسقوط شيء رخو، فإذا بالقوزاقي الذي كان الوراء المستمع قليلًا، على يمينه، يُصرَع هو وحصانه. فانبطح جيركوف والضابط على سرجيهما، وأدارا حصانيهما راجعين. ووقف المستمع أمام القوزاقي يتفرّس فيه مستطلعًا متعجبًا، وكان القوزاقي قد مات، ولكن حصانه لا يزال يتخبّط.

التفت الأمير باغراتيون مغضِّنًا عينيه، فلما رأى سبب هذه البلبلة، أشاح بوجهه غير مكترث، وكأن هيئته تقول: «هل تستحق هذه الترَّهات أن يشغل بها المرء نفسه؟». واستوقف حصانه بحركة لا يجيدها إلّا فارس مغوار، ومال قليلًا ليسل سيفه الذي اشتبك بدثاره. إنه سيف قديم يختلف عن الأسياف التي كانت تُحمل في ذلك العهد. فتذكّر الأمير أندريه أنه كان يحكى أن سوفوروف قد أهدى سيفه إلى باغراتيون في إيطاليا، فسرَّه كثيرًا أن تخطر له تلك الذكرى في تلك اللحظة.

واقتربوا من سرية المدفعية التي كان الأمير أندريه قد وقف عندها ليتأمل ساحة المعركة. فقال الأمير باغراتيون يسأل الحرَّاق الذي كان يحرس صناديق الذخيرة:

- من هو قائد السرية؟

ألقى الأمير باغراتيون هذا السؤال: «من هو قائد السرية؟». ولكنه في الواقع إنما كان يريد أن يقول: «أتراك خائفًا هنا؟». وقد فهم الحرَّاق سؤاله على هذا الوجه فعلًا، وهو فتى قويّ الجسم أحمر اللون، أنمش الوجه. قال صائحًا بصوت مجلجل وهو يقف الوقفة العسكرية:

- هو الكابتن توشين يا صاحب السعادة.

فقال باغراتيون ذاهل الهيئة غارقًا في أفكاره وهو يمر أمام قوائم المدافع متجهًا صوب آخر مدفع:

- طيب. طيب.

وفيما كان يقترب من المدفع الأخير. إذا بطلقة تخرج منه، فتصم آذان باغراتيون وحاشيته، وبانَ الرماة من خلال الدخان الذي لفَّع المدفع يمسكون المدفع، ويدحرجونه جاهدين، ويردّونه إلى مكانه. وهبَّ السادن الأول، الذي كان مباعدًا ما بين ساقيه، ممسكًا طمار المدفع بيديه، هبَّ يثب إلى الجهة الأخرى من العجلة؛ وبادر السادن الثاني إلى لقم فوهة المدفع بقذيفة أخرى مرتعش اليد. وانبرى رجل قصير القامة، محدودب الظهر قليلًا، يركض متعثرًا بركيزة المدفع، من دون أن يلاحظ الجنرال. إنه الضابط توشين، طفق يلاحظ ويراقب ويرصد، واضعًا يده الصغيرة أمام عينيه ستارة. وصرخ يقول بصوت نحيل يحاول أن يبثّ فيه قوة وشدة لا يتفقان مع شخصيته:

- أضف خَطّيْن آخرين، فتصيب الهدف.

وأردف قائلًا:

- المدفع الثاني! أطلق النار! دمَّرهم يا مدفديث!

فنادى باغراتيون الضابط، فتقدم توشين منه رافعًا إلى حافة قبعته ثلاث أصابع، بحركة وجلى خرقاء ليست هي الحركة العسكرية التي يحيي بها العسكريون قادتهم، وإنما هي الحركة التي يبارك بها رجال الدين رعاياهم.

كانت مهمة سرية المدفعية التي يقودها توشين هي أن تغطي الوادي بالنيران، ولكن توشين كان يأمر بإطلاق القذائف على قرية شونغرابن التي يراها الناظر أمامه، والتي كانت تزحف منها جموع غفيرة من الفرنسيين.

لم يكن أحد قد أصدر إلى توشين أية أوامر، لا في ما يتعلق بالهدف الذي يجب أن يصوِّب إليه، ولا في ما يتعلق بنوع القذائف. ولكنه استشار الرقيب زاخارتشنكو، وكان يقدِّره قدرًا عظيمًا، فاستقر رأيه أخيرًا على أن من الخير أن يحرق القرية.

قال باغراتيون بعد أن سمع ما ذكره له الضابط: «حسن»؛ وجعل يسرِّح طرفه ملاحظًا ساحة المعركة التي يطل عليها إطلالًا تامًا فيراها كلها، فكان كأنه يهيئ خطة من الخطط. وكانت الجهة اليمنى هي التي تقدّم فيها

الفرنسيون أكبر تقدّم. وفي أسفل الرابية التي كان يحتلها فوج كييف، أي في الوادي الذي يجري فيه النهر، كان إطلاق النار يشتد اشتدادًا مسعورًا، وكان أزيز الرصاص يُقبض القلب ويثقل على الصدر. وهذا ضابط الحاشية يشير لباغراتيون إلى رتل فرنسي قد أخذ يطوِّق أقصى جناحنا الأيمن وراء الفرسان. وكانت على اليسار غابة قريبة تسد الأفق. فاصدر باغراتيون أمره إلى كتيبتين من الوسط بأن يهبوا إلى تعزيز الجناح الأيمن. فسمح ضابط الحاشية لنفسه بان ينبِّه باغراتيون إلى أن انسحاب هاتين الكتيبتين سيجعل سرية المدفعية بلا غطاء. فالتفت باغراتيون نحوه، ونظر إليه بعينيه الكابيتين من دون أن يجيبه. ورأى الأمير أندريه أن رأي ضابط الحاشية رأيٍ سديد، وان ملاحظته صائبة لا يمكن الاعتراض عليها. ولكن ضابطًا مرافقًا قد جاء في تلك اللحظة مسرعًا ليقول إن كولونيل الفوج الذي يقاتل في الوادي يبلغ الأمير باغراتيون أن كتلًا ضخمة من الفرنسيين تتقدّم في الوادي، وأن الفوج قد دبَّت فيه الفوضى، وإن عليه أن ينسحب متجهًا إلى حيث يوجد قاذفو القنابل اليدوية من فوج كييف. فهزَّ باغراتيون رأسه موافقًا على هذا الرأي، وسار بخطى موزونة إلى اليمين، فأرسل المرافق إلى الفرسان يأمرهم بأن يهاجموا الفرنسيين. ولكن المرافق رجع بعد نصف ساعة يقول إن قائد الفرسان قد استقبلته نيران شديدة، وفقد كثيرًا من الرجال بغير جدوى، فانسحب من الضفة الأخرى للوادي، وأسرع ينشر في الغابة مناوشين من القناصة.

قال باغراتيون:

- طيب!

ولحظة غادر باغراتيون سرية المدفعية، انطلق أزيز الرصاص كثيفًا على اليسار في الغابة أيضًا، ولما كان الجانب الأيسر أبعد من أن يستطيع الوصول إليه بنفسه في الوقت المناسب، فقد أرسل جيركوف ليبلغ الجنرال الذي يقود الجانب الأيسر، وهو ذلك الجنرال نفسه الذي قدَّم فوجه إلى كوتوزوف في براوناو، إن عليه أن ينسحب إلى ما الوراء الوادي على جناح السرعة، لأن الجانب الأيمن لن يكون في غالب الظن قادرًا على أن يكبح

العدو زمنًا طويلًا. أما الكتيبة التي كانت تحمي سرية توشين فقد نُسيت ولم تخطر بالبال. وكان الأمير أندريه يصغي بانتباه شديد إلى محادثات الأمير باغراتيون مع القادة، وإلى الأوامر التي كان يصدرها، فما كانت أشد دهشته حين لاحظ أنه ليس هناك حقًّا أي أمر صدر، وأن الأمير باغراتيون لا يزيد على أن يحاول أن يوهم بأن كل ما كان يتم، لضرورة أو بمصادفة أو بمبادرة من قادة القطعات، إنما كان يجري وفقًا لنياته على الأقل، إن لم يكن بناء على أوامره. ولاحظ الأمير أندريه أن باغراتيون، بفضل ما أظهره من حنكة وحسن حيلة، كان بوجوده وحده يحصل على نتائج حسنة، رغم أن الحوادث تجري على ما تشاء لها المصادفة، وليست رهنًا بإرادة القائد أبدًا. كان القادة الذين يجيئون إلى باغراتيون منقلبي السحنة، يرجعون من عنده هادئين، وكان الجنود والضباط إذا رأوه حيُّوه فرحين هاتفين، وسرَّهم أن يظهروا شجاعتهم وجسارتهم أكبر السرور.

الفصل الثامن عشر

بعد أن وصل الأمير باغراتيون وخفره إلى أعلى مكان من جانبنا الأيمن، أخذوا يهبطون المنحدر الذي كان يدوي في أسفله أزيز الرصاص، وكان الدخان يحجب فيه الرؤية، فلا يبصر الناظر شيئًا، فكانوا كلما تقدموا في الوادي مزيدًا من التقدم ضعفت رؤيتهم أكثر، ولكن ازداد إحساسهم بأنهم يقتربون من ساحة القتال الحقيقية ويشارفون على بلوغها. ولم يلبثوا أن أصبحوا يلتقون بجرحى. فهذا جريح حاسر الرأس نازف الدم يسنده جنديان بأذرعهما. إنه يحشرج ويبصق. ولا بد أن الرصاصة قد نفذت في فمه وبلغت حلقه. وهذا جريح آخر يمشي وحيدًا بغير بندقية ويئنّ أنينًا عاليًا، ويحرك ذراعه متألمًا من جرح لا يزال طريًا كل الطراوة، والدم يسيل من ذراعه على معطفه كأنه ينسكب انسكابًا من زجاجة. إن وجه هذا الجريح يعبّر عن الخوف أكثر مما يعبر عن الألم. لقد جُرح منذ هنيهة.

اجتاز باغراتيون وصحبه الطريق وأخذوا يهبطون هبوطًا عموديًا، فرأوا عددًا من الرجال متمدّدين على الأرض قتلى، والتقوا جماعة من الجنود كان بينهم رجال غير جرحى. كان الجنود يصعدون الرابية لاهثين مرهَقين، ويتكلمون بصوت عال ويحرّكون أيديهم بإشارات كثيرة من دون أن يلقوا إلى الجنرال بالًا. وبعد ذلك رأى باغراتيون وصحبه في الدخان صفوفًا من المعاطف الرمادية، ورآه ضابط من الضباط فإذا بالضابط يركض صارخًا الوراء جنود كانوا يفرّون جمهرة كبيرة، ويأمرهم بأن يرجعوا.

اقترب باغراتيون من الصفوف التي كانت تنطلق منها النيران مقرقعة، فيحول أزيز رصاصها من دون سماع الأصوات والأوامر. كان الهواء مشبعًا

بالدخان. وكانت وجوه الجنود شديدة الاهتياج قد صبغها البارود بالسواد. إن بعض الجنود يدخلون في بنادقهم عصيًّا، وبعضهم يسكبون فيها بارودًا، وبعضهم يتناولون من أكياسهم ذخيرة، وبعضهم يرمون. ولكن على مَنْ يرمون؟ لا يستطيع أحد أن يرى الهدف الذي يرمونه وسط ذلك الدخان الذي لم تهب ريح فتبدّده. وكثيرًا ما يسمع المرء دندنة وصفيرًا لهما في السمع وقع ممتع.

قال الأمير أندريه مسائلًا نفسه وهو يقترب من هذه الجمهرة من الجنود: «ما هذا؟ لا يمكن أن يكونوا قد انتشروا حزامًا مهاجمًا فهم متجمّعون. ولا يمكن أن يكونوا مربعًا، فما هذا ترتيبهم».

اتجه قائد الفوج بحصانه نحو الأمير باغراتيون (إن قائد الفوج هذا شيخ قصير نحيل، هزيل المظهر، لطيف الابتسامة، تضفي أجفانه، المغمضة نصف إغماض، على هيئته حلاوة وعذوبة)، واستقبله كما يستقبل رب الدار ضيفًا مرموقًا، وأبلغه أن سلاح الفرسان الفرنسي قد شن هجومًا على فوجه، وأن هذا الهجوم أمكن صدّه، ولكن الفوج فقد أكثر من نصف رجاله. قال: «إن الهجوم قد أمكن صدَّه»، مستعملًا ذلك التعبير العسكري لوصف ما جرى في فوجه. ولكن الواقع هو أنه كان يجهل ماذا حدث، أثناء نصف الساعة ذاك، للجند الذين عُهد إليه بهم، وكان لا يمكنه أن يقول على وجه الدقة هل صَدَّ الهجوم أم تفككك فوجه. كل ما يعلمه هو أن قذائف وقنابل يدوية قد أخذت في أول الأمر تنهمر انهمارًا غزيرًا من جميع الجهات فتحصد الرجال، وأن أحدًا قال بعد ذلك: «الفرسان!.» وأن رجالنا أخذوا يطلقون النيران، وظلّوا يطلقون، ولكنهم أصبحوا لا يطلقون على الفرسان بل على المشاة الفرنسيين الذين ظهروا في الوادي وأخذوا يُرَدّون.

حنى الأمير باغراتيون رأسه كأنما ليقول إن هذا بعينه هو ما كان يرغب فيه ويتنبأ به. واتجه بالكلام إلى المرافق فأمره بأن يجيء من الرابية بكتيبتَيْ فوج القناصة السادس، وهما الكتيبتان اللتان مر بهما منذ قليل. وما كان أشد دهشة الأمير أندريه في تلك اللحظة، حين رأى ذلك التغير الكبير المفاجئ الذي طرأ على تعابير وجه الأمير باغراتيون. إن وجه القائد يعبر الآن عن

ذلك العزم الراسخ السعيد الذي يشعر به إنسان ظل يهم أن يلقي نفسه في الماء في يوم قائظ، ثم إذا هو يحزم أمره فيثب إلى الماء فجأة. زالت تلك النظرة الكئيبة النعسانة، واختفت تلك الهيئة التي تصطنع العمق اصطناعًا. إن عينيه المدوَّرتين الثابتتين كعيني نسر تنظران الآن إلى الأمام بحماسة شديدة يمازجها شيء من الازدراء، وإن تكن حركاته قد ظلّت بطيئة موزونة.

تضرَّع الكولونيل إلى الأمير باغراتيون أن ينسحب من هذا المكان لأنه مكان شديد الخطر، قائلًا له وهو يتفحّص نظرة التأييد والتحبيذ في عيني ضابط الحاشية الذي أشاح وجهه متحاشيًا أن يلتقي بصره ببصر باغراتيون: «رحماك يا صاحب السعادة، ناشدتك الله!». وأخذ يلفت انتباه باغراتيون إلى الرصاص الذي لا ينفك يئز حولهما ويدوّي ويصفر، قائلًا له: «انظر! أرأيت». وكان يتكلّم بلهجة الرجاء واللوم تلك التي يتكلّم بها نجّار البناء حين يقول لرب العمل إذا هو أمسك البلطة: «ليس هذا شأنك. نحن قد اعتدنا هذا العمل وألفناه، أما أنت فلن تجني منه إلّا تورّمات في يدك»، فكأن هذا الرصاص كان لا يمكن أن يقتله هو، وكانت عيناه المغمضتان نصف إغماض تضفي على كلماته مزيدًا من نبرة الصدق وقوة الحجّة. وضم ضابط الحاشية ضراعاته إلى ضراعات الكولونيل. ولكن الأمير باغراتيون لم يجبهما. وكان كل ما فعله هو أن أمر بوقف إطلاق النار ليتاح للكتيبتين اللتين ستصلان أن ترابطا في أمكنتهما. وفيما كان يتكلم، إذا بريح تهب فتطرد ستارة الدخان التي كانت تحجب الوادي، كأن يدًا لا تُرى قد شدت هذه الستارة من يمين إلى شمال، وإذا الرابية المقابلة قد غطتها جموع الفرنسيين سائرين، وإذا الأبصار كلها تحدِّق، على غير إرادة، إلى هذا الرتل الفرنسي يتقدم متموّجًا متّبعًا تضاريس الأرض وتعرجات المسالك، حتى لقد أصبحت طاقيات الجنود، ذات الريش، تُرى. بل صار يمكن التمييز بين الضباط والجند، والراية تتموّج على طول السارية.

قال واحد من حاشية باغراتيون:

- إنهم يحسنون المشي!

ووصلت طليعة الرتل إلى أول الوادي، وكان ينبغي أن يحدث الصدام على السفح الذي نحن فيه.

أسرعت بقايا فوجنا تتجمع منسحبة إلى اليمين. ووراءها كانت تتقدم كتيبتا الفوج السادس منظَّمة الصفوف، طاردة أمامها المتخلفين. وقبل أن تصلا إلى مستوى باغراتيون، أخذت تُسمع خطاهم الثقيلة الموزونة تضرب الأرض بأقدام هذه الكتلة الكبيرة كلها من الرجال. وكان يسير في جنبهما الأيسر قائد سرية اقترب من باغراتيون أكثر من كل من عداه، وكان رجلًا جميل الطلعة مدوّر الوجه غبي الهيئة، سعيد المنظر، هو ذلك الرجل نفسه الذي سبق أن رأيناه يندفع خارجًا من الكوخ. كان واضحًا أنه في تلك اللحظة لا يفكر في شيء إلّا أن يراه القائد في هذا الاستعراض فيعجب به ويرى فيه فتى باسلًا مقدامًا. إنه عسكري بالمهنة، فهو يمتاز على غيره بالهيئة التي يمتاز بها أمثاله، فكان يقدم ساقيه المعضلتين بخطو خفيف كأنه يسبح سباحة، ثم يعود إلى الانتصاب من دون أي جهد يبذله، فكان بهذه المشية الخفيفة يتميز عن سائر الجنود الذين يسيرون إلى جانبه بخطى موزونة لكنها ثقيلة. وكان متمنطقًا بسيف غير ذي غمد، سيف رقيق ضيّق مقوَّس لا يشبه أن يكون سلاحًا، وكان ينظر تارة إلى القائد وتارة إلى الخلف، من دون أن يختل وزن خطاه، وكان يستدير بكل جسمه القوي مرنًا أشد المرونة. لكأن قوى نفسه كله كانت متجهة إلى إتقان السير في الموكب، وقد أحسّ بأنه مفلح في ذلك، فكان يشعر بسعادة كبيرة. وكان كأنه يردد في داخله عند كل خطوتين قوله: «شمال... شمال... شمال...». وعلى هذا الوزن نفسه، كان هذا السور من الجند، الذين تختلف وجوههم شدة وصرامة، وتثقل على ظهورهم أكياسهم وبندقياتهم، يتقدّم في سيره وكأن كل واحد من هذه المئات من الرجال يردد في ذهنه عند كل خطوتين قوله: «شمال... شمال... شمال...». وهذا ميجر سمين لاهث، ينقطع عن السير الموزون، ويدور حول دغل في طريقه. وهذا متخلّف يدركِ سريته على ظهر حصانه. ثم إذا بقذيفة تشق الهواء، وتمر فوق رأس الأمير باغراتيون ورؤوس حاشيته، وتسقط فوق الرتل من دون أن يختل وزن الخطى مع ذلك:

«شمال... شمال». فصاح الصوت الجريء القوي، صوت قائد السرية، الكابتن الوسيم، مناديًا: «نظموا صفوفكم». فإذا بالجنود ينثنون قوسًا حول الموضع الذي أصابته القذيفة. وإذا واحد من السائرين في الجانب، وهو شيخ برتبة صف ضابط، يزدان صدره بوسام، يتلبث قليلًا بقرب الموتى، ثم يلحق بصفّه، ويتواثب ليساير المشي الموزون في إيقاعه، ويلقي على ما حوله نظرة تستقر حنقًا. وفي وسط ذلك الصمت الذي يلفه التهديد بالخطر، وفي وسط تلك الضجة الرتيبة التي يحدثها وقع الخطى الموزونة قارعة الأرض في آن واحد معًا، كان يبدو للمرء أنه يسمع: «شمال... شمال... شمال...».

قال الأمير باغراتيون:

- هلموا يا أولادي! كونوا شجعانًا.

فإذا بصيحات تسري في الصفوف كلها: «سوف نبذل كل ما في طاقتنا يا صاحب السعادة». وكان أحد الجنود يسير في اليسار مقطب الوجه عابس الأسارير، فالتفت إلى باغراتيون صارخًا كأنما ليقول: «نعرف هذا». ومرَّ جندي آخر صاح من دون أن يلتفت، خشية أن يصيبه ذهول، وكان فاغر الفم.

قال باغراتيون بصوت قوي:

- بمعونة الله.

والتفت لحظة إلى الجند، وبخطو أخرق معهود في الفرسان، سار في الطريق الوعرة جاهدًا، مرجِّحًا ذراعيه قليلًا.

شعر الأمير أندريه بقوة لا سبيل إلى مغالبتها تجره إلى أمام، وأحس بسعادة عظيمة[1].

وكان الفرنسيون على أتم الاستعداد منذ ذلك الحين. وكان الأمير

---

(1) هذا هو الهجوم الذي قال عنه تيير: «كان في سلوك الروس بسالة. لقد شوهدت كتلتان من المشاة تسير كل منها إلى الأخرى بحزم وعزم، ولا تنثني أية منهما قبل المواجهة، وذلك أمر نادر في الحرب». وعن هذا الهجوم قال نابوليون في سانت هيلانة: «أظهر عدد من الكتائب الروسية شجاعة» (حاشية المؤلف).

أندريه الذي يسير إلى جانب باغراتيون يرى حمالات السلاح، والكتفيات الحمراء، وحتى الوجوه، رؤية واضحة (وقد أبصر ضابطًا عجوزًا يهبط المنحدر في عناء، وقد تقوست ساقاه الملفوفتان بغمدين من جلد، ومضى يحتمي بالأدغال). وكان الأمير باغراتيون لا يصدر أوامر أخرى، ولا يزال يتقدم الصفوف صامتًا. وفجأة قرقعت بين الفرنسيين طلقة رصاص، ثم طلقة ثانية فثالثة... وأخذ الرصاص يهدر في جميع الصفوف المنتشرة التي يتألف منها جند العدو والتي غلّفها الدخان. فسقط عدد من رجالنا بينهم الضابط المدوَّر الوجه الذي كان يسير بكثير من الاختيال والاجتهاد. ولكن باغراتيون التفت منذ أن دوت أول طلقة، وصاح يقول «هورررا». فإذا بنداء «هورررا» هذا يسري في صفوفنا كلها، وإذا برجالنا الذين امتلأوا نشاطًا واشتعلت نفوسهم حماسة، يهبطون المنحدر فوضى، ويهجمون على الفرنسيين يطاردونهم ويفرِّقون صفوفهم.

الفصل التاسع عشر

استطاع الهجوم الذي قام به قنّاصة الفوج السادس أن يكفل انسحاب الجناح الأيمن. وفي الوسط، استطاع عمل سرية المدفعية المنسية التي يقودها توشين، والتي ظفرت بإحراق شونغرابن أن يوقف تقدم الفرنسيين. فقد أخذ الفرنسيون يطفئون النيران التي كانت الريح تزيد انتشارها، فأتاحوا للروس ما هم في حاجة إليه من وقت للانسحاب. وقد تم انسحاب الوسط خلال الوادي بسرعة وصخب. ومع ذلك لم يشتّت الجند صفوفهم وهم ينسحبون. ولكن الجانب الأيسر الذي كان يتألف من مشاة آزوف وبولوديا ومن فوج فرسان بافلوغراد، قد هاجمته القوات الفرنسية المتفوقة بقيادة لان، واستطاعت أن تحاصره، فكان في فوضى شديدة، وسرعان ما بادر باغراتيون إلى إرسال جيركوف يبلغ الجنرال الذي يقود ذلك الفوج ضرورة الانسحاب فورًا.

وضع جركوف يده على خوذته محييًا مطيعًا، وهمز حصانه ومضى. لكنه ما إن ترك باغراتيون حتى خانته قواه، إذ اعتراه خوف لا سبيل إلى مغالبته، فلم يستطع أن يذهب إلى حيث كان الخطر.

لقد مضى متجهًا إلى قوات الجانب الأيسر، ولكنه بدلًا من أن يتقدم إلى أمام، حيث كان الرصاص يئز أزيزًا شديدًا، أخذ يبحث عن الجنرال والقادة في أمكنة لا يمكن أن يجدهم فيها، فلم يقم إذًا بالمهمة التي عُهد بها إليه، وهي إبلاغ الجنرال أمر باغراتيون بضرورة الانسحاب فورًا.

وكانت قيادة الجانب تابعة، بحكم القِدَم، للجنرال قائد الفوج الذي قدم إلى كوتوزوف بقرب براوناو، والذي كان يعمل فيه دولوخوف جنديًا بسيطًا.

ولكن قيادة أقصى اليسار كانت تابعة للكولونيل قائد فوج فرسان بافلوغراد الذي يعمل فيه روستوف. وقد أدى هذا إلى سوء تفاهم. كان هذان القائدان متباغضين، يحقد كل منهما على الآخر؛ ففيما كان القتال قد بدأ في الجانب الأيمن منذ مدة طويلة، وكان الفرنسيون قد انتقلوا إلى الهجوم، اندفع هذان القائدان في مباحثات لم يكن لها من هدف إلّا التراشق بالإهانات. لم يكن أحد في الفوجين، من الجندي إلى الجنرال، يتوقّع نشوب معركة، وكان الجميع منصرفين انصرافًا هادئًا إلى أعمال من أعمال السلام: ففي سلاح الفرسان يطعم الجند خيولهم، وفي سلاح المشاة يحملون حطبًا من الغابة.

قال كولونيل الفرسان، وهو ألماني، يخاطب مرافق الجنرال الذي لحق به، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

- ألأنه أعلى مني رتبة، يجب عليَّ أن أتركه يفعل ما يريد؟ أنا لن أضحي بفرساني. يا نافخ البوق! أعلن الانسحاب!

ولكن الأمر أصبح ملحًّا يتطلّب الإسراع. فقصف المدافع وأزيز الرصاص يختلطان ويهدران في اليمين والوسط، والمعاطف الفرنسية التي يرتديها القناصة الفرنسيون بقيادة لان تجتاز سدَّ الطاحونة وتنظِّم صفوفها في هذه الجهة على مسافة غير بعيدة. فمضى جنرال المشاة إلى حصانه بخطاه المتواثبة، وقفز إلى ظهره، واتجه إلى فوج بافلوغراد، فالتقى القائدان، وحيَّا كل منهما صاحبه بكياسة ولباقة وهو يضمر له حقدًا وكرهًا.

قال الجنرال:

- أعود فأقول لك مرة أخرى يا كولونيل، إنني لا أستطيع أن أدع نصف رجالي في الغابة، فأرجوك ثم أرجوك أن تحتل الموقع وأن تتهيأ للهجوم.

فأجابه الكولونيل وقد غلت نفسه غضبًا:

- وأنا أرجوك ألا تتدخّل في ما لا يعنيك. لو كنت فارسًا..

- إن لم أكن فارسًا يا كولونيل، فأنا جنرال روسي. وإذا كنت لا تعلم...

صاح الكولونيل يقاطعه فجأة، وقد همز حصانه، وصار وجهه كالأرجوان احمرارًا:

- بل أعلم حق العلم يا صاحب السعادة... تعال معي إلى الخط الأول

إذا شئت، فتعرف أن «هذا» الموقع لا ينفع في شيء. إنني لا أحب لنصف فوجي أن يباد من أجل مسرتك.

- إنك لا تراقب لسانك يا كولونيل. أنا لا أبحث عن مسرَّة، ولا أسمح بأن يقال عني هذا...

ولأن الكولونيل قد همز حصانه، فقد قبل الجنرال التحدي، فنصب جذعه وقطب حاجبيه، واتجه الرجلان كلاهما إلى سرية الخطوط الأولى، كأن خلافهما إنما يجب أن يحلَّ هناك تحت وابل الرصاص. وفيما كانا يقتربان من المخافر الأمامية، مرت فوق رأسيهما رصاصات، فتوقفا من دون أن يقولا شيئًا. ولم يقدّم لهما فحص المكان شيئًا جديدًا، فمن النقطة التي كانوا ينظرون منها قبل ذلك، كان واضحًا أن سلاح الفرسان لا يستطيع أن يقوم بهجوم في هذه الأدغال وهذه الوديان، وأن الفرنسيين كانوا يتقدّمون بحركة التفاف على الجناح الأيسر. وظل الجنرال والكولونيل يرشق كل منهما صاحبه بنظرات قاسية، عابس الوجه، مكفهر الأسارير، حتى لكأنهما ديكان يستعدان للقتال، فكل واحد منهما ينتظر من الآخر أن تظهر عليه علائم ضعف وجبن، ولكنه لا يظفر بما يريد. وقد صمدا كلاهما. وإذ لم يجد كلّ منهما ما يقوله للآخر، وإذ لم يشأ كلّ منهما أن يعطي خصمه حجة عليه، فيقول خصمه في حقه إنه كان أول من غادر منطقة النيران، فقد كان يمكن أن يمكثا في هذا المكان مدة طويلة يمتحنان شجاعتهما، لولا أن رميا كثيفًا قويًا مصحوبًا بجلبة شديدة قد اندلع في الغابة على حين فجأة، وراءهما تقريبًا. لقد هجم الفرنسيون على جنود لنا كانوا يجمعون حطبًا من الغابة. فأصبح الفرسان منذ هذا الوقت لا يستطيعون أن ينسحبوا مع المشاة، لأن العدو قد احتل خط انسحابهم في اليسار، فهم مضطرون أن يقاتلوا ليشقّوا لأنفسهم طريقًا على هذه الأرض الصعبة.

أسرع فرسان الكتيبة التي ينتمي إليها روستوف يمتطون ظهور خيولهم، ويقفون أمام العدو. وكما حدث في إينس، لم يبق شيء يفصل بين العدوين، اللهم إلّا هذا الخط الرهيب، خط الغيب المجهول والرعب الرهيب، الذي يشبه الخط الفاصل بين الأحياء والأموات أكبر الشبه. فكان كل فرد يحس

بوجود ذلك الخط، ويتساءل قلقًا خائفًا هل كُتب عليه أن يعبر هذا الخط، وكيف تراه يعبره.

هرع الكولونيل، وأخذ يجيب عن أسئلة الضباط غاضبًا، وأصدر أمرًا غامضًا، كما يفعل رجل مصرٌّ على رأيه إصرارًا لا يمكن أن ينثني عنه. وسرت إشاعة بين الصفوف تقول إن الهجوم سيبدأ وشيكًا، رغم أن أحدًا لم يؤكد ذلك تأكيدًا واضحًا. ودوَّى أمر بتنظيم الصفوف، وقرقعت السيوف وهي تُستَلّ من أغمادها. ولكن أحدًا لمَّا يتحرك بعد. وشعر جند الجانب الأيسر، المشاة منهم والفرسان، أن القادة أنفسهم لا يعرفون كثيرًا ما عساهم صانعين، فسرت عدوى هذا التردد وهذه البلبلة إلى الجنود أنفسهم.

أحس روستوف بأن اللحظة التي سيشعر فيها بلذة الهجوم، والتي طالما حدثه عنها رفاقه، قد أزفت، فقال لنفسه: «بسرعة، فليقع الهجوم بسرعة».

وصاح صوت دينيسوف يقول:

- الله معكم يا رجال؛ خببًا، سر!

فتموجت أعراف الخيل في الصف الأول، وشدَّ غراتشيك الأعنّة، وسار من تلقاء نفسه.

كان روستوف يرى على اليمين صفوف الفرسان الأولى، وكان يبصر وراءها خطًا قاتمًا لا يستطيع أن يميّزه، ولكنه يعتقد أنه هو العدو. ودوَّى أمر يهيب بالجنود أن يزيدوا سرعة خببهم:

- مزيدًا من السرعة!

فأحسّ روستوف بأن غراتشيك قد اندفع يسرع مزيدًا من الإسراع.

كان روستوف يحزر جميع حركات حصانه، وكان يشعر بفرح يشتد لحظة بعد لحظة. ورأى أمامه شجرة منعزلة. كانت هذه الشجرة تنتصب أول الأمر في وسط ذلك الخط الذي يبدو رهيبًا هائلًا. ولكن ها هم أولاء قد اجتازوا الخط، فلم يبق شيء يرهب ويهول، حتى لقد أخذ الفرح يزداد، وأخذت الحماسة تشتد، وأخذت العزيمة تقوى. فكان روستوف يقول لنفسه وهو يشد بيده على قبضة سيفه: «ما أكثر ما سأطعن!».

وتعالت أصوات تقول صارخة:

- هورررا!

فقال روستوف محدثًا نفسه وهو يهمز غراتشيك ويسبق الآخرين: «فليقع أحد تحت يديَّ الآن»، ووصل إلى المقدمة. وأصبح العدو في مرمى البصر؛ فإذا بشيء يهوي على الفرسان كأنه ضربات سياط تلسعهم لسعًا. فشهر روستوف سيفه يهُّم أن يضرب، ولكن الجندي نيكيتنكو الذي كان يتقدمه، انفصل في تلك اللحظة عنه، فشعر روستوف، كما لو كان في حلم، إنه لا يزال مندفعًا إلى أمام بسرعة خارقة، وأنه مع ذلك باق في مكانه لا يتحرّك. ووصل إليه الفارس بوندراتشوك الذي كان روستوف يعرفه، وصل إليه من خلف، وألقى عليه نظرة فيها حنق. وقد شبَّ حصان بوندراتشوك، ثم مضى.

قال روستوف مسائلًا نفسه: «ما معنى هذا؟ ألا أتقدم؟ وأجاب عن سؤالَيْه في الوقت نفسه: «سقطت! قتلت!». إنه الآن وحيد في وسط الساحة، لا يرى الخيول المسرعة، ولا ظهور الفرسان، وإنما يرى من حوله الأرض الساكنة والقش الذي يغطيها. وكان تحته دم فاتر. قال لنفسه: «لا بل أنا جرحت، وغراتشيك قُتل». ونهض غراتشيك على ساعدَيْه، ولكنه لم يلبث أن سقط ثانية، فأصاب بسقوطه ذراع الفارس، فأحدث فيها رضًا قويًّا. كان الدم يسيل من رأس الحصان. وكان يتخبط ولا يقدر أن ينهض. وأراد روستوف أن يقوم، فعاد يسقط هو أيضًا: كانت جعبة سيفه قد علقت بالسرج. أين رجالنا؟ أين الفرنسيون؟ لم يستطع روستوف أن يجيب عن هذين السؤالين. لم يكن حوله أحد.

واستطاع أن يخلّص ساقه فقام. وجعل يسأل نفسه من دون أن يستطيع الإجابة: «أين، في أيّ جهة، يوجد الآن ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين فصلًا واضحًا أكبر الوضوح؟ ترى ألم يحدث لي سوء؟ ألم يصبني أذى؟ ذلك يقع، فما الذي يجب عمله في مثل هذه الحالة؟». ألقى على نفسه هذا السؤال وهو ينهض. فشعر في تلك اللحظة كأن شيئًا ثقيلًا كان معلقًا بذراعه اليسرى المتخدّرة. وبدا له أن قبضة يده ليست منه. فأنعم النظر في ذراعه عسى أن يقع بصره على دم، ولكنه لم ير دمًا. قال لنفسه

فرحًا وقد أبصر عدة أشخاص يهرعون إليه: «هلمَّ! هؤلاء رجال يقبلون عليك. سوف يساعدونك!». وكان يركض في طليعة هؤلاء الرجال رجل أسمر اللون، ملوّح الوجه، أقنى الأنف، يرتدي معطفًا أزرق ويضع على رأسه عمرة غريبة، ويتبعه اثنان آخران يليهما عدد كبير من الأفراد قال أحدهم كلامًا عجيبًا ليس روسيا. وكان وراءهم فارس روسي في وسط أولئك الرجال أنفسهم الذين يرتدون تلك المعاطف نفسها. وكانوا يجرّون حصانه من لجامه.

قال روستوف لنفسه: «لا بد أنه فارس من فرساننا أسير... نعم... ترى هل يقبضون عليَّ أنا أيضًا، ويأخذونني أسيرًا؟ من هؤلاء الناس؟». كذلك ظل يتساءل روستوف وهو لا يصدِّق عينيه. «هل يمكن أن يكونوا فرنسيين؟». وأخذ ينظر إلى الفرنسيين الذين كانوا مقبلين عليه. إنه منذ قليل كان لا يجري بحصانه عدوًا سريعًا إلّا ليبلغ هؤلاء الفرنسيين ويطعنهم بسيفه، فإذا هو الآن يشعر من اقترابهم برعب يبلغ من الشدة أنه يكذّب ما تراه عيناه. «من هم؟ لماذا يركضون ركضًا؟ أهم يركضون إليَّ أنا؟ هل جائز أن أكون أنا من يركضون إليه؟ ولماذا؟ ليقتلوني؟ ليقتلوني أنا الذي يحبني جميع الناس أكبر الحب؟». وخطرت بباله عاطفة الحب التي تحملها له أمه وأسرته وأصدقاؤه، فبدا له أنه لا يعقل أن تكون نية العدو هي أن يقتله. «ولكن من الممكن أنهم يركضون إليَّ فعلًا ليقتلوني!». لبث أكثر من عشر ثوانٍ ساكنًا جامدًا لا يدرك وضعه. والفرنسي الذي كان يتقدّمهم، وكان أقنى الأنف، بلغ من القرب أن ما يعبر عنه وجهه أصبح يُرى واضحًا. فلما رأى روستوف هذا الوجه الغريب المتوقد، ورأى الرجل هارعًا إليه وهو يحمل حربة حادة مسنونة، ويحبس أنفاسه، أحسَّ بخوف شديد. فأمسك مسدَّسه، ولكنه بدلًا من أن يطلق نار المسدس رمى المسدس على رأس الفرنسي، واندفع هاربًا في الأدغال بسرعة شديدة. كان لا يركض الآن ركضه على جسر إينس، راغبًا في صراع يمازجه شك، وإنما هو يركض الآن ركض أرنب تطارده كلاب. لقد استبد بكيانه كله شعور وحيد، هو الخوف على حياته الفتية السعيدة. فكان يقفز فوق الحفر خفيفًا رشيقًا، ويوغل في

الحقول إيغالًا سريعًا عارمًا كما كان يفعل في حلبة سباق، ملتفتًا برأسه من حين إلى حين، وقد شحب وجهه الجميل الشاب شحوبًا قويًّا. وكانت رعدة الخوف تسري في ظهره كأنها الصقيع برودة. قال لنفسه: «لا بل الأفضل ألا أنظر». ولكنه حين وصل إلى الأدغال، التفت مرة أخرى: كان الفرنسيون قد بقوا في الخلف؛ حتى إن الرجل الذي يتقدمهم كان يهرول مسرعًا، ناظرًا إلى الجهة الأخرى، مناديًا أحد رفاقه بصوت قوي. توقف روستوف، وقال لنفسه: «لا بد أنني أخطأت. فمن المستحيل أن يكونوا قد أرادوا قتلي». وكانت ذراعه اليسرى ثقيلة ثقلًا رهيبًا، فكأن عشرة أرطال قد علِّقت بها، وأصبح لا يستطيع الركض. توقف الفرنسي أيضًا، وسدَّد إليه. ومرَّت بقربه رصاصة تصفر صفيرًا، ثم تبعتها رصاصة أخرى، فاستجمع قواه، وتناول ذراعه اليسرى بيده، وركض إلى الأدغال. وكان في الأدغال قنّاصة روس.

الفصل العشرون

كانت أفواج المشاة، وقد أُخذت على حين غفلة، قد أخذت تهرب. وكانت السرايا، وقد اختلط بعضها ببعض، تفرّ جموعها فوضى. إن جنديًا ممسوسًا مسعورًا من الفزع قد نطق بتلك الكلمة الرهيبة المرعبة الغبية التي لا تجوز في الحرب: «شطرونا». فانتشرت هذه الكلمة في الجموع كلها وانتشر معها شعور بالهلع عمَّ أفراد الجيش قاطبة. فكان الهاربون يصرخون قائلين: «نحن مطوَّقون، نحن مشطورون! هلكنا».

وأدرك قائد الفوج حين سمع طلقات الرصاص والصيحات تدوّي خلفه، أن شيئًا فظيعًا وقع لفوجه. فاضطرب أشد الاضطراب إذ تصور أنه، هو الضابط الذي يُضرَب به المثل ويُعتبر قدوة، والذي قضى في الخدمة بالجيش سنين كثيرة، يمكن أن يعَدّ مسؤولًا عن إهمال أو تقاعس أو عجز عن المبادرة، مع أنه ليس مسؤولًا عن شيء من هذا البتة. وبلغ من الاضطراب أنه لم يلبث أن نسي كولونيل المدفعية الذي عصى أمره، ونسي في الوقت نفسه مهابته الشخصية كجنرال، ونسي على وجه الخصوص نسيانًا تامًا ما يعرض له نفسه من خطر، ونسي غريزة المحافظة على البقاء، ومضى نحو فوجه على ظهر حصانه، متشبثًا بقربوس السرج، هامزًا جانب الفرس، مندفعًا تحت وابل من الرصاص الذي شاء حسن حظه ألا يصيبه منه شيء. كان لا يبغي إلّا شيئًا واحدًا: هو أن يعرف ماذا جرى، وأن ينقذ الموقف بأي ثمن، وأن يصلح الخطأ المرتكَب إذا كان هذا الخطأ يعزى إليه، حتى لا يكون مذنبًا، هو الضابط الذي يُضرَب به المثل ويُتّخَذ قدوة،

والذي لم يوجَّه إليه اللوم مرة واحدة أثناء خدمته التي امتدت حتى الآن اثنتين وعشرين سنة.

استطاع أن يمر بين الفرنسيين من دون أن يصيبه أذى أو أن يلحق به ضرر، ووصل إلى حافّة الغابة، حيث كان جندنا يهبطون المنحدر وقد أصمّوا آذانهم عن سماع الأوامر. هذه هي اللحظة الخطيرة التي فيها تقرّر البلبلة النفسية مصير المعركة: تُرى أتسمع هذه الجموع المفكّكة صوت قائدها، أم تلقي عليه نظرة خالية من الاكتراث وتتابع فرارها؟ إن ما حدث هو أن الجنود ظلوا يركضون ويتفادون ويطلقون رصاصًا في الهواء، ولا يلقون بالًا إلى الأوامر، رغم الصيحات المحتدة التي يصدرها قائد الفوج والتي طالما كان يرهبها الجنود، ورغم وجهه الحانق المصطبغ بحمرة شديدة، ورغم سحنته التي انقلبت فلا تكاد من شدة تغيّرها أن تُعرف، ورغم السيف الذي كان يشهره ويلوِّح به. كان واضحًا أن البلبلة النفسية التي تحدّد مصير المعارك قد مالت بالجنود إلى الذعر العام والهلع الشامل.

وأصيب الجنرال بسعال من شدة صراخه في وسط دخان البارود وتوقف يائسًا مكروبًا أشد الكرب. كان يبدو أن كل شيء قد ضاع. ولكن حدث في تلك اللحظة أن الفرنسيين الذين كانوا يتعقّبون جنودنا قد تقهقروا إلى الوراء فجأة بدون سبب ظاهر، تاركين حافة الغابة، ثم إذا بقناصة روس يظهرون. إنها سرية تيموخين، حافظت وحدها على نظامها واختبأت في خندق، ثم هجمت على الفرنسيين حين غرّة. لقد هجم تيموخين على الفرنسيين بكل ما يملكه السكّير من جراة مجنونة، مسلَّحًا بسيفه الصغير وحده، مطلقًا صرخات بلغت من الهول أن الفرنسيين ألقوا بنادقهم على الأرض، وأخذوا يفرّون، من دون أن يتّسع وقتهم لاسترداد سيطرتهم على أنفسهم ولاستعادة قدرتهم على تقدير الموقف. وكان دولوخوف يركض إلى جانب تيموخين، فقتل فرنسيًا من مسافة قصيرة، وكان أول من أمسك بياقة ضابط استسلم للأسر. فلما رأى الهاربون من جنودنا هذا كله، عادوا أدراجهم، ونظّموا صفوف سراياهم من جديد، واستطاعوا أن يدحروا الفرنسيين بعد أن كان

هؤلاء قد شطروا جناحنا الأيسر شطرين. واستطاع جنود الاحتياط أن يلتقوا، وتوقف الهاربون عن الهرب.

كان قائد الفوج واقفًا بقرب الجسر في صحبة الميجر إيخونوموف، يستعرض السرايا المنكفئة، فإذا بجندي يقترب من حصانه، فيمسك ركابه، حتى ليكاد يتوكأ عليه. كان هذا الرجل الذي يرتدي معطفًا مصنوعًا من جوخ غريب الرسم، ضارب اللون إلى زرقة، لا يحمل كيسًا ولا يعتمر خوذة؛ وكان رأسه معصوبًا، وقد علقت بكتفه جعبة فرنسية. وكان يمسك بيده سيف ضابط. وكان شاحب اللون، وكانت عيناه الزرقاوان تنظران إلى رئيسه بوقاحة، وتبتسمان. فلم يستطع الجنرال، على شدة انشغاله بإصدار الأوامر إلى الميجر إيخونوموف، إلّا أن يخطف هذا الجندي بصره وأن يجذب إليه انتباهه، وأن يشد إليه اهتمامه.

قال دولوخوف بصوت لاهث وهو يبدي السيف والجعبة:

- هاتان غنيمتان يا صاحب السعادة. لقد أسرت ضابطًا. وبفضلي إنما استطاعت السرية أن تصمد.

كان دولوخوف يتنفّس بكثير من المشقة بسبب التعب والإرهاق. وكان كلامه متقطعًا. وأردف يقول:

- السرية كلها يمكن أن تشهد بذلك. أرجوك أن تتذكّر هذا يا صاحب السعادة.

قال الجنرال:

- طيب، طيب!

والتفت إلى الميجر إيخونوموف.

ولكن دولوخوف لم ينصرف. وعمد إلى ضماده ففكه وانتزعه ورأى الجنرال دمه المتخثر في شعره، وقال له:

- هذه طعنة حربة. لقد بقيت في الصفوف. تذكّر هذا يا صاحب السعادة!

***

كانت سرية مدفعية توشين قد نُسيت. وفي نهاية المعركة، حين لاحظ الأمير باغراتيون أن قصف المدفعية لا يزال مستمرًا في الوسط، أرسل ضابط

الأركان العامة ثم الأمير أندريه على جناح السرعة ليأمر الكابتن بالانسحاب على عجل. كانت سرية المدفعية لا تزال ترمي، رغم أن غطاءها قد انسحب أثناء القتال بأمر لا يدري أحد مَن أصدره. وإذا كان الفرنسيون لم يستولوا على هذه السرية، فما ذلك لأن العدو ما كان ليستطيع أن يفترض أن أربعة مدافع غير محمية يمكنها أن تواصل الرمي وتستمر في القصف. حتى لقد استخلص العدو من القتال الضاري الذي تخوضه هذه السرية، أن القوات الروسية الرئيسية إنما تتمركز هنا في الوسط. وقد حاول العدو مرتين أن يهاجم هذه النقطة، ولكن رمي المدافع الأربعة المرابطة وحدها على تلك الرابية صدَّت هجومه في المرَّتَيْن.

كان توشين قد استطاع بعد رحيل الأمير باغراتيون بزمن قصير أن يحرق شونغرابن. فكان سدنة المدافع يصيحون قائلين:

- اضطرب حبلهم! هذه ألسنة النيران تتصاعد! ما أكثفه من دخان! عظيم! رائع! ما أكثر الدخان! ما أكثر الدخان!

وكانت المدافع كلها ترمي في اتجاه الحريق من دون تلقّي أمر بذلك. وكان الرجال يشفعون كل رمية بصيحات تقول: «عظيم! هذه رمية! عليك بهم! رائع!»، كأنهم يريدون بذلك أن يشجّعوا الرمية ويشدّوا أزرها ويحرضوها مزيدًا من التحريض ويمدوها بمزيد من القوة. وكانت الريح تزيد النار ضرامًا، فتنشرها نشرًا سريعًا. وتراجعت الأرتال الفرنسية التي كانت تنطلق من القرية. ولكن العدو نصب عشرة مدافع على يمين القرية، وفتح النيران على توشين كأنما ليثأر لإخفاقه.

وفي غمرة الفرح الطفولي الذي كان يثيره الحريق في نفوس رجالنا، وفي غمرة النشوة العارمة من حسن الرمي على الفرنسيين، لم يلاحظ رماتنا سرية المدفعية تلك التي نصبها الفرنسيون إلّا بعد أن سقطت في وسط مدافعهم الأربعة قذيفتان، ثم سقطت أربع قذائف أخرى، فقتلت إحداها حصانَيْن وبترت أخرى ساق سائق إحدى عربات الذخيرة. ومع ذلك لم تضعف الحماسة التي كانت اشتعلت في نفوس رجالها، غير أنها تبدلت تبدّلًا طفيفًا على حين فجأة.

بادر جنودنا إلى إحلال أفراس من الاحتياط محل الأفراس التي قُتلت، ونقلوا الجرحى، واتجهت المدافع الأربعة صوب السرية التي تتألف من عشرة مدافع. وكان ضابط هو من رفاق توشيت قد قُتل في بداية المعركة. وفي مدى ساعة واحدة فإن سبعة عشر رجلًا من السدنة الأربعين الذين يخدمون المدافع قد أصبحوا عاجزين عن العمل وخرجوا من المعركة، ولكن الرماة لا يزالون على ما كانوا عليه من مرح ونشاط. وقد رأوا الفرنسيين يظهرون مرتين تحت، فرَشّوهم بوابل من قذائفهم.

وكان الرجل القصير ذو الحركات المترددة الخرقاء ما ينفك يصيح أمرًا تابعه بقوله: «غليونًا آخر»[1]، من باب المكافأة على حد تعبيره، ثم ينفث الدخان، ويركض ينظر إلى الفرنسيين واضعًا يده الصغيرة ستارة فوق عينيه. وكان يمسك عجلات المدافع بنفسه، ويُحكم شدّ براغيها، وهو يهتف قائلًا:

- هاجموا يا شباب! دمّروا يا شجعان!

أمّا توشين، الذي أعماه الدخان وأصمَّته الانفجارات المتتالية التي كانت تجعله ينتفض في كل لحظة، فقد كان يركض من مدفع إلى مدفع، من دون أن يترك غليونه القصير، فتارة يسدّد، وتارة يحصي الطلقات، وتارة يُحِلّ محلَّ الخيول الميتة أو الجريحة خيولًا غيرها، وما ينفك يصدر الأوامر تلو الأوامر بصوته النحيل الضعيف الرقيق المتردّد. وكان وجهه يزداد تعبيرًا عن النشاط والحرارة والحماسة لحظة بعد لحظة. وكان لا يقطب حاجبيه عابسًا إلّا حين يُقتَلُ رجال أو يُجرحون، فيشيح وجهه عن الميت، وتثور ثائرته على الآخرين الذين يتأخرون في حمل الجريح أو رفع الجثة كما يحدث دائمًا. وكان الجنود، ومعظمهم شبان يمتازون بالجسم الفارع العريض والوجه الوسيم الجميل (تلك هي القاعدة في سلاح المدفعية، فالجنود أطول قامة من ضباطهم بهامتين، وأعرض منهم مرتين)، كانوا ينظرون جميعًا إلى رئيسهم نظرة أطفال استبد بهم الارتباك، ويحاكون بتعابير وجوههم ما يقرأونه في وجهه هو من تعبير.

(1) بالفرنسية بالأصل.

وبفضل الصخب الرهيب، وكذلك بفضل الاضطرار إلى مواجهة كل شيء، ظل توشين موصد النفس من دون الخوف، فكانت فكرة أن يموت أو أن يُجرح جرحًا بالغًا لا تخامر ذهنه ولا تخطر له على بال. حتى إنه كان ما ينفك يزداد مَرَحًا. كان يبدو له أن اللحظة التي رأى فيها العدو، فرماه بأول قذيفة، هي لحظة بعيدة موغلة في البعد، حتى لكأنها يرجع صداها إلى أمس، وأن هذه الرقعة من الأرض التي يوجد فيها مألوفة له، معروفة عنده منذ زمن طويل. ورغم أنه تذكّر كل شيء، وحسب حساب كل شيء، وفعل خير ما يمكن أن يفعله أحسن الضباط في مثل هذا الظرف، فقد كان في حالة قريبة من حالة الهذيان أو السكر.

كانت الضجة المصمَّة التي تتعالى من كل جهة من جهات السرية، وكان صفير قذائف العدو وسقوطها، وكان منظر سدنة المدافع الذين ينضحون عرقًا وقد احمرَّت وجوههم احمرارًا شديدًا وأخذوا يسعون ويتحركون حول المدافع، وكان منظر الدم الذي يسيل من الرجال والخيول، ومنظر الأدخنة التي تتصاعد من مدافع العدو في الجهة الأخرى، ويعقبها في كل مرة وصول قذيفة تضرب الأرض أو رجلًا أو حصانًا أو مدفعًا، كان هذا كله قد أنشأ في رأس توشين عالمًا خياليًا خاصًا به يجد فيه ملذاتٍ ومباهج. لم تكن مدافع العدو في خياله مدافع بل غلايين ينفث منها مدخِّن مجهول نفثات دخان من حين إلى حين. فكان توشين يدمدم بينه وبين نفسه عندما تنبجس من على الرابية سحابة دخان تجرّها الريح شمالًا:

- هه! ها هو ذا يدخِّن أيضًا. فلننتظر الآن الكرة حتى نردَّها!

سأله ضابط كان يقف غير بعيد عنه وقد سمعه يجمجم بكلام:

- ما الذي يجب أن نردَّه يا حضرة الضابط؟

فأجابه توشين:

- لا شيء... قنبلة.

وأضاف يقول بينه وبين نفسه: «الآن دورك، ماتفايفنا!».

كان اسم ماتفايفنا في خياله اسم المدفع الكبير المنصوب في الطرف، وهو مدفع يرجع عهده إلى زمن قديم. وكان الفرنسيون المحتشدون حول

مدافعهم يظهرون له جماعات من نمل. وكان السادن الأول من سدنة المدفع الثاني، وهو فتى جميل سكّير، يسمى في عالمه باسم «العم»، وكان توشين ينظر إليه أكثر مما ينظر إلى سائر سدنة المدافع، ويسرُّ لكل حركة من حركاته. أما أزيز الرصاص الذي ينطفئ تارة وينطلق بشدّة تارة أخرى في سفح الرابية فقد كان في نظره أنفاس كائن حي، فكان توشين يصيخ بسمعه إلى هذه الضجات حين تسكن وحين تشتد، فيقول لنفسه: «ها هوذا يتنفس من جديد، ها هو ذا يتنفس».

كان يتصوّر نفسه رجلًا جبارًا ضخم الجسم يلقي على الفرنسيين قذائف بكلتا يديه.

وبينما هو يخاطب المدفع وقد أدار له ظهره: «هيه ماتفايفنا! لا تتركنا يا صديقي القديم»، إذ ناداه من فوق رأسه صوت غريب مجهول يقول:

- كابتن توشين، كابتن!

فالتفت توشين مرتاعًا.

كان ذلك الصوت هو صوت الضابط المرافق الذي طرده من غرونت. وكان يصيح به قائلًا بصوت لاهث:

- أأنت مجنون؟ لقد صدرت إليك الأوامر مرتين بالانسحاب، وأنت...

فقال توشين محدِّثًا نفسه وهو ينظر إلى الضابط الذي يعلوه رتبة: «عجيب! ماذا يريدون مني؟ لماذا يتجنّون عليَّ؟»، وقال يجيب الضابط متلعثمًا وهو يحييه برفع أصبعين من أصابعه إلى حافة خوذته، ويشعر بارتياع:

- أنا... لم...

ولكن الكولونيل لم يكمل القيام بالمهمة التي عُهد بها إليه، ذلك أن قذيفة أوشكت أن تمسّه فغطس على ظهر حصانه وصمت، ثم ما إن همَّ أن يستأنف كلامه حتى أخرسته قذيفة أخرى. وأدار لجام حصانه، وولّى مسرعًا. ثم صرخ يقول من بعيد:

- تراجعوا! تراجعوا جميعًا!

فانفجر الجنود يضحكون. وما هي إلّا دقيقة حتى جاء مرافق يحمل ذلك الأمر نفسه.

إن المرافق المبعوث هذه المرة هو الأمير أندريه. فكان أول ما رآه الأمير أندريه وهو يدخل منطقة المدافع حصانًا سقط عنه سرجه، وانكسرت ساقه، وجعل يصهل بقرب أحصنة أخرى مسرَجة.

وكان الدم يسيل منه كأنه يسيل من ينبوع. وبين حاملي المدافع كان يتناثر على الأرض قتلى. وكانت تمرُّ فوق رأسه قذائف تتوالى واحدة بعد أخرى أثناء اقترابه، فشعر برعدة تسري في ظهره. ولكن ما إن خطر بباله أنه خائف حتى جعله ذلك يسترد رباطة جأشه وهدوء أعصابه، قائلًا لنفسه: «أنا لا يمكن أن أخاف»، ونزل عن ظهر حصانه ببطء بين المدافع، وأبلغ الأوامر التي عُهد إليه بإبلاغها، وبقي في السرية لم يتركها. لقد قرر أن يشهد انتزاع المدافع من مكانها، والتراجع بها إلى الوراء. فأخذا هو وتوشين يتخطيان الجثث، ويشرفان على سحب المدافع.

قال أحد رماة المدفعية للأمير أندريه:

- منذ قليل جاء إلينا رئيس، ثم لم يلبث أن ولَّى هاربًا. إنه ليس كحضرتك!

لم يتبادل الأمير أندريه وتوشين كلمة واحدة. لقد بلغا من الإنكباب على العمل والانشغال به أنهما كانا كمن لا يرى أحدهما صاحبه. وقد اضطرا إلى ترك مدفع محطَّمٍ ومدفع حصار؛ حتى إذا جعل المدفعان الآخران على مجرَيْهما، سار الجمع يهبط الرابية، ودفع الأمير أندريه حصانه مقبلًا على توشين، فقال له وهو يصافحه:

- هيّا! إلى اللقاء!

فأجابه توشين:

- إلى اللقاء يا عزيزي، يا صديقي الشهم!

وأضاف يقول وقد أحسّ بالدموع تترقرق في عينيه من دون أن يدري لماذا..

- أستودعك الله يا عزيزي!

الفصل الحادي والعشرون

كانت الريح قد هبَّت، وكانت غيوم سوداء قد أخذت تنزل منخفضة على ساحة المعركة فتختلط عند الأفق بدخان البارود. وكان الظلام يهبط فيزيد توهج الحريق في مكانين. وكان قصف المدفعية قد ضعُفَ، ولكن الرصاص لا يزال يئز في الخلف واليمين، وما ينفك يقترب وما ينفك يشتد. وما إن مرَّ توشين مع مدافعه بين الجرحى، وخرج من منطقة النيران ونزل الوادي، حتى لقي قادته والضباط المرافقين، ومنهم ضابط الأركان العامة وجيركوف. لقد أرسل جيركوف إلى سرية المدفعية مرتين، ولكنه لم يبلغها مرة واحدة. كان الجميع يقاطع بعضهم بعضًا في الكلام، ويصدرون وينقلون أوامر عن الاتجاه الذي يجب السير فيه، ويتراشقون بوابل من الملامات والملاحظات. فكان توشين يسير الوراء موكب مدافعه، لا يتدخل في شيء، ولا ينطق بحرف، حتى لقد كان يخشى أن يفتح فمه، إذ كان يحس أنه سينفجر باكيًا وسيغرق في دموعه إذا هو قال كلمة واحدة. ورغم أن الأوامر كانت قد صدرت بترك الجرحى، فقد كان عدد كبير من هؤلاء الجرحى يزحفون وراء القطعات، سائلين أن يُحملوا على المدافع. وكان ذلك الضابط الجميل من ضباط سلاح المشاة، ذلك الضابط الذي اندفع خارجًا قبل المعركة من كوخ توشين، مسجًّى على مسند المدفع ماتفايفنا وفي بطنه رصاصة. وفي سفح الرابية، أخذ مرشَّح من سلاح الفرسان (يونكر)، شديد الشحوب، يسند إحدى ذراعيه بالأخرى، يضرع إلى توشين أن يسمح له بالجلوس على حامل المدفع. فقال خجلًا وجلًا:

- كابتن، ناشدتك الله، لقد أصبت برضٍّ في ذراعي. وأصبحت لا أستطيع أن أمشي. ناشدتك الله!

وكان واضحًا من الصوت المتردّد المؤثّر الذي يضرع به هذا الفتى، أن ضراعته قد رفضت قبل هذه المرة مرارًا.

- دعني أجلس، أبتهل إليك!

قال توشين:

- اركب، اركب!

وأضاف يأمر الرامي الأثير عنده:

- افرش أنت معطفًا، يا عم.

ثم أردف يسأل:

- ولكن أين الضابط الجريح؟

فأجاب أحدهم:

- أنزلناه. مات.

- ليركب هذا المرشح. اركب يا عزيزي، اركب. افرش معطفك يا أنطونوف.

كان ذلك المرشح هو روستوف. كان حاملًا ذراعه بيده. وكان شاحبًا، وتسري في فكه الأسفل رعدة حمى. أركبوه على ماتفايفنا، المدفع الذي أنزل عنه الضابط ميتًا. وكان على المعطف الممدود دم، فتلطّخ بالدم سروال روستوف وتلطّخت به يداه.

قال توشين يسأله وهو يقترب من المدفع الذي جلس عليه:

- أأنت جريح يا عزيزي؟

- بل مرضوض.

فسأله توشين:

- فمن أين هذا الدم الذي أراه؟

فأجاب الرامي وهو يمسح الدم بكمِّ معطفه كالمعتذر عن هذه الوساخة في حامل المدفع:

- هو الضابط نزف دمه يا سيدي!

وأمكن إصعاد المدافع إلى أعلى الرابية في كثير من الجهد والعناء بمساعدة المشاة، حتى إذا وصلوا إلى قرية غوتترسدورف توقفوا. وقد بلغ الظلام الآن من شدة الحلكة أن العين لا تستطيع أن ترى بزات الجنود على بعد عشر خطوات، وهدأ أزيز الرصاص بعض الهدوء. ولكن ها هي ذي صرخات عالية وطلقات رصاص تُسمع فجأة في اليمين على مسافة قصيرة. وأخذت أضواء طلقات الرصاص تشقّ الظلام شَقًّا منذ الآن. إنه هجوم أخير يقوم به الفرنسيون، فيردُّ عليه الجنود المتحصّنون بالمنازل. فإذا بالجميع يهرعون مغادرين القرية من جديد. ولكن مدافع توشين لا تستطيع أن تتقدّم. فأخذ توشين ورماة المدفعية والمرشح ينظر بعضهم إلى بعض صامتين، منتظرين أن يتقرر مصيرهم. ولكن إطلاق الرصاص أخذ يهدأ شيئًا بعد شيء. وخرجت إلى الشارع العام من شارع جانبي جمهرة من الجنود تتحادث بحرارة.

قال أحدهم سائلًا:

– سليم معافى، يا بتروف؟

وقال آخر:

– أذقناهم المرَّ! لن يعودوا إليها بعد الآن!

– لم يكن يُرى شيء. ما أكثر ما صوَّب بعضهم إلى بعض على عماوة. لم يكن يُرى شيء. كان الظلام دامسًا. أما من شراب نسقاه يا شباب؟

كان الفرنسيون قد صُدُّوا صدًا نهائيًا. وفي ظلام شامل، استأنفت مدافع توشين سيرها، يحفّ بها المشاة الذين تدمدم أصواتهم بلا انقطاع.

كان الركب يجري في هذا الظلام جريان نهر قاتم لا يُرى، مدندنًا بأصوات بشر، ووقع حوافر، وصرير عجلات. وكانت أنَّات الجرحى تعلو جميع هذه الضجّات المبهمة. فكأنها وحدها تملأ هذه الظلمات وتتحد بها اتحادًا، فهما شيء واحد. وحدث اضطراب في هذا الجمهور السائر، بعد لحظة. إن رجلًا يمتطي حصانًا ويتبعه حرس قد مرَّ بالركب ونطق ببعض الأقوال، فسرعان ما تعالت الأصوات من كل جهة تسأل نهمة: «ماذا قال؟ هل مدَحَنا؟ أين نحن ذاهبون الآن؟ هل نبقى هنا؟». ثم حدث تصادم.

لقد توقفت الصفوف الأمامية، وسرت شائعة تقول إن الأمر صدر بذلك. فتوقف الجميع عندئذ في وسط الطريق الموحلة.

وتلألأت نيران، وأصبحت الأصوات أوضح. وبعد أن اتخذ توشين الإجراءات اللازمة للمبيت، وأرسل أحد رجاله بحثًا عن عربة إسعاف أو عن طبيب يعالج المرشَّح المرضوضة ذراعه، جلس بقرب نار أوقدها جنده على حافة الطريق. وجرَّ روستوف نفسه أيضًا إلى حيث تحلّق الرجال حول النار، وكانت رعدة حمَّى تهز جسمه كله من أثر الألم والبرد والرطوبة. واعتراه نعاس شديد لا سبيل إلى مغالبته، غير أن ألمًا قويًّا في ذراعه التي لا تستقر على وضع وتؤلمها أي حركة، قد حال بينه وبين النوم. فكان تارة يغمض عينيه، وتارة ينظر إلى النار التي تبدو له حمراء قانية أو ينظر إلى قامة توشين الهزيلة المقرفصة بقربه على الطريقة التركية. وكانت عينا توشين، الطيبتان الذكيتان، تلقيان عليه نظرات زاخرة بالمودة والشفقة. فكان روستوف يرى أن توشين يود من أعماق قلبه أن ينجده ويسعفه ولكنه لا يملك أن يصنع له شيئًا.

ومن جميع الجهات كان يُسمع وقع أقدام القطعات التي تمر، وكذلك أصوات جنود المشاة الذين يقفون ويستقرون. وكانت ضجة هذه الأصوات ووقع هذه الأقدام ودوس الخيل في الوحل وطقطقة الخشب قريبًا وبعيدًا، كان ذلك كله يتحد في جلبة واحدة متحركة.

أصبح النهر الذي لا يُرى لا يجري الآن في الظلمات، وإنما هو الآن أشبه ببحر متجهّم لا يزال هائجًا متلاطم الأمواج بعد العاصفة ولكنه أخذ يهدأ قليلًا. وكان روستوف ينظر ويصغي إلى ما يجري حوله ولكنه لا يدرك شيئًا. واقترب أحد جنود سلاح المشاة من النار، وجثا على ركبتيه ومد يديه إلى اللهب مشيحًا وجهه، وقال مخاطبًا توشين بهيئة متسائلة:

– هل تسمح سيادتك؟ لقد فقدت سريتي يا سيادة الضابط، ولكنني لا أعرف أين فقدتها. هذا شقاء.

وبعد الجندي، تقدّم من النار ضابط مشاة، معصوب الخد، ورجا توشين أن يأمر بإبعاد مدافعه قليلًا إلى الوراء، حتى تستطيع عربة نقل أن تمر. وفي

أثر قائد السرية هرع إلى النار جنديان كانا يتشاتمان تشاتمًا مقذعًا، ويتنازعان جزمة يشدها كل واحد منهما إليه.

صرخ أحدهما يقول بصوت أبح:

- عثرت عليها؟ يا سلام! انظروا إلى هذا الرجل ما أمكره!

وجاء بعدهما جندي هزيل، شاحب اللون، يلفع رقبته جورب ملوث بالدم، وطلب من رجال المدفعية بصوت غاضب حانق أن يعطوه ماء.

- ماذا؟ هل يجب على المرء أن يفطس مثلما يفطس كلب؟

فأمر توشين بإعطائه ماءً. ثم هرع جندي مرح يسأل شيئًا من نار للمشاة.

- نارًا حامية للمشاة! أتمنى لكم البهجة والسرور يا أهل بلادي! شكرًا كثيرًا لما أعطيتمونا من نار. سنردها لكم مع الفوائد...

كذلك قال وهو يحمل جمرات متوقدة إلى مكان ما في ذلك الظلام.

وبعده، مر أمام النار أربعة جنود يحملون شيئًا ثقيلًا في معطف. وتعثّرت قدم أحدهم، فجمجم يقول:

- يا لهؤلاء الشياطين! وضعوا حطبهم في الطريق.

وقال آخر:

- لماذا تحملونه وقد مات؟

- اخرس...

وغابوا مع حملهم في الظلمات.

قال توشين يسأل روستوف:

- هيه! أما تزال موجوعًا؟

- نعم.

وقال حراق وهو يتقدم من توشين:

- الجنرال يطلبك يا صاحب السيادة. إنه مقيم هنا في منزل.

- أنا ذاهب إليه يا صديقي.

قال توشين ذلك، ونهض وهو يعقد أزرار معطفه ويعدل ثيابه، وابتعد عن النار...

كان الأمير باغراتيون يتعشى في منزل من منازل الفلاحين أعد له غير

بعيد من معسكر رماة المدفعية، متحدثًا مع عدد من قادة القطعات اجتمعوا إلى مائدته، بينهم ذلك الشيخ ذو العينين المغمضتين نصف إغماض (وكان يمص عظمة خروف بشراهة ونهم). وبينهم جنرال في الثانية والعشرين من عمره، حسن الهندام عظيم الأناقة قد لوّن العشاء وكأس من الفودكا وجهه. وبينهم ذلك الضابط الذي يزيّن أصبعه خاتم مزدان بالرقم الإمبراطوري. وبينهم جيركوف الذي كان يلقي على الجميع نظرات قلقة. وبينهم الأمير أندريه وقد شحب لونه، واكتنزت شفتاه، وسطعت عيناه ببريق محموم.

وكانت راية فرنسية مستلبة من العدو مسْنَدة إلى جدار في ركن، وكان «المستمع» ذو الوجه الساذج يحس قماشها ويهز رأسه متحيرًا. ربما لأن منظر الراية كان يشوقه حقًّا، وربما لأنه، وهو جائع، كان يشق على نفسه أن يرى العشاء من دون أن يكون له فيه نصيب. وفي الغرفة المجاورة كان يوجد كولونيل فرنسي أسره الخيَّالة، وكان ضباطنا يتفرسون فيه متزاحمين عليه.

كان الأمير باغراتيون يشكر قادة مختلف القطعات، ويسألهم عن تفاصيل المعركة وعن خسائرهم فكان قائد الفوج الذي قدم إليه في براوناو يحكي للأمير أنه أجلى الغابة منذ بداية القتال، وجمع الجنود الذين كانوا يحطّبون، وترك الفرنسيين يمرّون، ثم انقضّ عليهم بالحراب بكتيبتين، فدحرهم. قال:

- حين رأيت كتيبتي الأولى في اضطراب وبلبلة، يا صاحب السمو، وقفت على الطريق وقلت لنفسي: «لندعهم يمرون ثم فلنمطرهم بنار متصلة». وذلك ما فعلته يا صاح السمو.

كانت تنتاب قائد الفوج الرغبة في أن يكون قد فعل ذلك، والحسرة والأسف على أنه لم يفلح في فعله. فكان يبدو له أن هذا كله قد حدث فعلًا. وربما كان هذا قد وقع حقًا. هل يستطيع المرء في وسط هذا الاضطراب الذي اختلط فيه الحابل بالنابل أن يفرِّق بين ما حدث وما لم يحدث؟

وتابع قائد الفوج كلامه وقد تذكَّر الحادثة بين كوتوزوف ودولوخوف، ولقاءه الأخير مع دولوخوف، فقال:

- يجب أن أذكر في هذه المناسبة يا صاحب السمو أن الضابط السابق دولوخوف قد أسر ضابطًا فرنسيًا على مرأى مني، وأبلى بلاء عظيمًا.

فانبرى جيركوف يتدخل في الحديث، فقال وهو يلقي على ما حوله نظرات قلقة، ولم يكن قد رأى في ذلك اليوم أي رجل من سلاح الفرسان، ولكنه كان قد سمع من ضابط مشاة عما قام به الفرسان:

- وفي ذلك الحين إنما رأيت هجوم فوج بافلوغراد، يا صاحب السعادة. رأيت الفرسان يُحْدِثون بلبلة في مربعين.

ضحك بعضهم لأقوال جيركوف متوقّعين على عادتهم أن يقول مزحة من مزاحاته. لكنهم وقد رأوا أن أقواله تضيف جديدًا إلى مجد أسلحتنا وعظمة الموقعة، اتخذت هيئاتهم مظهر الجد، رغم أن كثيرين منهم قد علموا حق العلم أن ما قاله جيركوف كان كذبًا ليس فيه أي أساس من الصحة.

- قال الأمير باغراتيون متجهًا بالكلام إلى الكولونيل الشيخ:

- شكرًا لكم يا سادة. لقد تجلت البطولة في ما قامت به جميع الأسلحة: المشاة والفرسان والمدفعية. ولكن كيف حدث أن تُرِك مدفعان في الوسط؟

ألقى هذا السؤال وهو يبحث بعينيه عن أحد. (لم يسأل الأمير باغراتيون عن مدافع الجانب الأيسر، فقد كان يعلم أن جميع المدافع قد تركت منذ بداية الموقعة). وأضاف يقول لضابط الخدمة:

- أظن أنني طلبت منك الاهتمام بهذا الأمر.

فأجابه ضابط الأركان قائلًا:

- المدفع الأول أصيب. أما الثاني فلا أفهم من أمره شيئًا. لقد بقيت أنا إلى آخر لحظة، وقمت بواجبي كله، ولكن ما أن انصرفت حتى...

وأردف يقول في تواضع:

- الحق أن الوطيس كان يحمى...

قال أحدهم إن الكابتن توشين معسكر هنا على مسافة قريبة جدًّا من القرية وأن أحدًا مضى إليه يستدعيه.

قال الأمير باغراتيون مخاطبًا الأمير أندريه:

- ولكنك كنت أنت هناك... وشهِدت ما حدث.

فقال ضابط الأركان العامة وهو يبتسم للأمير أندريه بولكونسكي ابتسامة رقيقة:

- طبعًا، وقد تقابلنا...

فقال الأمير أندريه بلهجة جافة وصوت متقطع:

- بل لم يحدث أن سعدت بلقائك.

وخيَّم صمت.

وظهر توشين في العتبة، وتسلل الوراء ظهور الجنراات تسلّلًا خجولًا. وفيما كان يدور حولهم في الغرفة الضيقة مضطربًا على عادته حين يرى رؤساءه، لم يلاحظ سارية الراية فتعثّرت قدمه بها. فأخذ بعضهم يضحك مقهقهًا.

قال الأمير باغراتيون يسأل مقطّبًا حاجبيه، ناظرًا لا إلى توشين بل إلى الضاحكين الذين كان صوت جيركوف يطغى على أصواتهم:

- كيف حدث أن تُرِكَ المدفع؟

في تلك اللحظة، حين رأى توشين رئيسه الرهيب، إنما ظهر له هول ذنبه وظهرت له فظاعة عاره لأنه فقد مدفعين ولا يزال إلى الآن حيًّا. لقد بلغ من الاضطراب إلى ذلك الحين أن وقته لم يتسع التفكير في هذا الأمر. وقد فاقم ضحك الضباط ارتباكه وتشوّشه. فكان واقفًا أمام باغراتيون وقد أخذ فكه الأسفل يرتعش ارتعاشًا واضحًا، ولم يكد يستطيع أن ينطق بالألفاظ القليلة التالية إلّا في كثير من الجهد والعناء:

- لا أدري... يا صاحب السعادة. نقص الرجال يا صاحب السعادة.

- كان يمكنك أن تأخذ رجالًا من بين جنود الغطاء!

لم يقل توشين إنه لم يكن ثمة غطاء، رغم أن هذا صحيح جدًّا. كان يخشى أن يسيء إلى ضابط آخر، فلم يزد على أن نظر إلى باغراتيون صامتًا جامد العينين، كتلميذ مرتبك يحدّق إلى عينَي المعلم أثناء امتحان.

ودام الصمت مدة طويلة. وكان واضحًا أن الأمير باغراتيون لا يريد أن يُظهر قسوة، فلم يجد شيئًا يقوله. ولم يجرؤ الآخرون أن يتدخلوا في الأمر. وكان الأمير أندريه ينظر إلى توشين خلسة، وكانت أصابعه تتحرك تحرّكًا عصبيًا. ثم إذا هو يقطع الصمت، وينبري يقول بصوته القاطع الجازم:

- صاحب السعادة، لقد أرسلتني إلى سرية مدفعية الكابتن توشين، فذهبت اليها، فرأيت أن الرجال والخيول قد قُتل ثلثاهم، وأن المدفعَيْن قد دُمِّرا، وأنه لم يكن هناك أي غطاء من الجند.

فكان الأمير باغراتيون والكابتن توشين يحدّقان الآن كلاهما إلى الأمير أندريه بولكونسكي الذي كان يتكلّم باهتياج مكظوم.

وتابع الأمير أندريه كلامه فقال:

- وإذا أذنت لي بأن أبدي رأيي يا صاحب السعادة، قلت إننا بفضل سرية المدفعية هذه إنما حققنا اليوم ما حققناه من نجاح، وكذلك بفضل الصمود البطولي الذي برهن عليه الكابتن توشين ورجاله، ومن دون أن ينتظر الأمير أندريه جوابًا، وقف على الفور وقام عن المائدة.

نظر الأمير باغراتيون إلى توشين. وكان واضحًا أنه لا يحب أن يظهر شكًّا في صحة هذا الحكم الجازم الذي يطلقه بولكونسكي، ولا يريد في الوقت نفسه أن يصدّق هذا الحكم تصديقًا تامًّا، فحنى رأسه وقال لتوشين إن في إمكانه أن يخرج. فخرج توشين، وخرج بعده الأمير أندريه.

قال توشين للأمير أندريه:

- شكرًا لك يا صديقي! لقد أنقذتني.

فشمله الأمير أندريه بنظرة، وانصرف من دون أن يجيبه بكلمة. كان يحس بحزن، وكان يشعر بانقباض في صدره وثقل في قلبه. كان هذا كله يبدو له غريبًا ليس بينه وبين ما كان يتوقّعه شَبَه.

«مَنْ هؤلاء الناس؟ ماذا يفعلون هنا؟ ماذا يريدون؟ ومتى ينتهي هذا كله؟». كذلك كان يفكر روستوف وهو ينظر إلى الظلال التي تخطر أمامه. وكان ألم ذراعه يشتد. وكان النعاس يستبد به ويغلبه على أمره. وأخذت تتراقص أمام عينيه دوائر حمراء. واختلطت هذه الأصوات وهذه الوجوه وذلك الشعور بالوحدة والعزلة، اختلط ذلك كله في إحساس واحد بالألم. وكانوا هم، هؤلاء الجنود، الجرحى منهم وغير الجرحى، هم الذين يسحقونه سحقًا، ويرهقونه من أمره عسرًا، ويعقفون عضلاته ويلوونها، ويحرقون لحم ذراعه المحطم وكتفه المكسور حرقًا. فمن أجل أن يفلت منهم، أغمض عينيه.

غفا روستوف لحظة، ولكنه في خلال هذه البرهة القصيرة من فقدان الشعور، رأى في الحلم عددًا من الصور لا يُحصى: رأى أمه ويدها الكبيرة البيضاء، ورأى كتفَيْ صونيا النحيلتين، ورأى عيني ناتاشا وضحكتها،

ورأى دينيسوف بصوته وشاربه، ورأى تليانين، ورأى كل قصته مع تليانين وبوغدانوفتش. واختلطت هذه القصة كلها بذلك الجندي ذي الصوت الحاد، وكانت هذه القصة كلها وذلك الجندي يمسكان ذراعه إمساكًا أليمًا موجعًا بلا هوادة ولا رفق، ويثقلان عليه، وما ينفكان يشدانه في ذلك الاتجاه نفسه. ولسوف يزول عذابه ويشفى ألمه إذا هما لم يشدا كتفه هذا الشد. ولكن كان يستحيل عليه أن يتخلّص منهما.

فتح عينيه ونظر في الفضاء. كان حجاب الليل الأسود يهبط إلى مسافة ثلاث أقدام فوق ضوء جمرات النار. وفي هذا الضوء كانت تتطاير سبائخ ثلج. وتوشين لم يرجع. والطبيب لم يصل. وهو وحيد. ليس أمامه الآن إلا جندي خلع ثيابه وجلس إلى الجهة الأخرى من النار يدفئ جسده الهزيل الأصفر.

قال روستوف يحدّث نفسه: «لا أحد يهتم بي. لا أحد يمكن أن يساعدني ولا أن يشفق علي ويرثي لحالي. ولقد كنت مع ذلك في منزل ذات يوم، قويًا، مرحًا، محبوبًا». وتنهّد. وحين تنهّد خرج من صدره أنين رغم إرادته.

سأله الجندي وهو يحرك قميصه فوق النار:

- هل تعاني من ألم في موضع بجسمك؟ ما أكثر الذين تشوهوا هذا اليوم! يا للشقاء!

لم يكن روستوف يصغي إلى الجندي. بل كان ينظر إلى سبائخ الثلج تتطاير فوق النار، فتذكّره بالشتاء الروسي، والمنزل الدافئ المضيء، والفروة الطريّة، والزلاجة السريعة، وجسمه السليم المعافى، وكل ما كانت تحيطه به أسرته من ألوان الحب وفنون العناية والرعاية. قال يحدث نفسه: «ماذا صنعت بنفسي؟ ما كان أغباها من فكرة أن جئت إلى هنا؟».

لم يجدّد الفرنسيون هجومهم في الغد. والتحقت بقايا مفرزة باغراتيون بجيش كوتوزوف.

الجزء الثالث

الفصل الأول

إن الأمير فاسيلي لا يضع خططه سلفًا، ولا يخطر بباله أن يؤذي الناس ليجني من ذلك نفعًا. ما هو إلّا رجل من المجتمع الراقي استطاع أن ينجح في هذا المجتمع، فصار هذا النجاح عنده عادة. كانت المشاريع والخطط ما تنفك تولد في ذهنه وفقًا لظروفه ووفقًا لما له من علاقات، من دون أن يحسّ هو بذلك، رغم أن هذه المشاريع وهذه الخطط هي أهمُّ ما يشغله ويثير اهتمامه في حياته. وكان لا يسعى في مشروع واحد أو مشروعين، ولا يمضي في خطة واحدة أو خطتين، وإنما كانت مشاريعه وخططه تُعَدُّ بالعشرات، فبعضها ينبت في ذهنه في هذه اللحظة، وبعضها يكون في سبيل التنفيذ، وبعضها يكون قد هُجر. كان لا يقول لنفسه مثلًا: «هذا رجل له الآن قيمة، فيجب أن أكسب ثقته وصداقته، وأن أحصل بواسطته على مساعدة مالية»، أو: «إن بطرس هو الآن على جانب عظيم من الثراء، فيجب أن أزوِّجه ابنتي وأن اقترض منه مبلغ الأربعين ألف روبل التي أنا في حاجة إليها». ولكن يكفي أن يوجد في طريقه رجل غنيّ حتى توحي إليه غريزته على الفور أن هذا الرجل يمكن أن ينفعه، فإذا بالأمير فاسيلي يعقد بينه وبينه صلة، ثم إذا هو يمتدحه ويتملّقه عند أول فرصة من دون تصميم سابق، وإذا هو ينطلق في حديثه معه على السجيّة من دون كلفة فيقول له ما يجب أن يقول له.

وإذا كان بطرس بين يديه في موسكو، فقد استطاع أن يسمّيه نبيلًا في

البلاط[1]، وهو مركز يعادل رتبة مستشار دولة[2]، وقد ألحّ على الشاب أن يرافقه إلى بطرسبورغ وأن ينزل عنده. كان الأمير فاسيلي يفعل كل ما يجب فعله من أجل أن يزوّج بطرس إلى ابنته، من دون أن يبدو عليه شيء من ذلك، ولكنه كان مقتنعًا اقتناعًا مطلقًا بأن الأمر سوف يتم. فلو أنه وضع خططه سلفًا، لما كان في حركاته وسكناته كل ذلك الانطلاق على السجيّة الذي يجري طبيعيًّا لا تكلّف فيه ولا اصطناع، ولما كان في علاقاته بجميع الناس كل تلك البساطة التي ترفع الكلفة وتقوم على المودة والألفة، سواء أكان هؤلاء الناس أعلى منه منزلة أم أدنى منه مرتبة. وكان شيء ما يجذبه دائمًا إلى من هم أقوى منه سلطة وأعظم منه ثراء، وكان يملك تلك الغريزة النادرة التي تجعل صاحبها يعرف اللحظة المناسبة التي ينبغي عليه ويستطيع فيها أن يستخدمهم وينتفع بهم.

ولقد أصبح بطرس بين عشية وضحاها هو الكونت الثري بيزوخوف. وبعد أن عاش في المدة الأخيرة حياة اعتزال واستخفاف، فإذا هو يجد نفسه محاطًا بعدد كبير من الناس، مشغولًا بعدد كبير من الأعمال، فلا يستطيع أن يخلو إلى نفسه إلّا حين يأوي إلى فراشه. أصبح مضطرًا إلى أن يوقّع أوراقًا، وأن يعامل إدارات لم يكن في ذهنه عنها إلّا فكرة غامضة، وأن يلقي أسئلة على مدير أعماله، وأن يذهب إلى أراضيه التي تقع في ضواحي موسكو، وأن يستقبل جمهورًا من الناس كانوا إلى ذلك الحين يريدون أن يجهلوا وجوده، لكنهم صاروا الآن يُجرَحون ويتألمون إذا رفض أن يلقاهم. أصبح جميع هؤلاء الناس الأشتات من رجال الأعمال والأقارب والمعارف مجمعين على حب الوارث الشاب، وكان أمرًا واضحًا لا شك فيه أنهم مقتنعون بما يمتاز به من صفات عالية. فكان لا ينفك يسمع أحدًا يقول له: «بقلبك الممتاز...»، أو: «إن لك نفْسًا نقية طاهرة يا كونت»، أو أيضًا: «لو كان له ذكاء كذكائك»،

---

(1) أولى درجات الشرف في بلاط الإمبراطور.

(2) ليس مستشار الدولة عضوًا في مجلس الدولة، وإنما هو وفقًا لجدول الرتب الصادر سنة 1714 موظف مدني من الدرجة الخامسة، وهذه رتبة تعادل رتبة العميد في الجيش.

إلخ، حتى أخذ بطرس يؤمن صادقًا بأنه طيّب طيّبة نادرة، وأن له ذكاءً نادرًا، لا سيما وأنه كان طول حياته يتصور في الواقع أنه طيّب جدًّا وأنه ذكي جِدًّا. حتى الأشخاص الذين أساءوا معاملته من قبل وناصبوه العداء صريحًا، أصبحوا الآن يحبونه ويحترمونه. فكبرى الأميرات مثلًا، أعني تلك التي كان لها جذع مسرف في الطول، وكان لها شعر سبط كشعر لعبة، والتي كانت شرسة حتى ذلك الحين قد جاءت إلى غرفته بعد الجنازة خافضة العينين دائمة الاحمرار تبدي له أسفها على سوء التفاهم الذي وقع بينهما، وتقول له إنها أصبحت لا تحسّ بأن من حقها أن تطالب بشيء اللهم إلّا أن يأذن لها، بعد الكارثة التي نزلت بها، أن تعيش بضعة أسابيع أخرى في منزل طالما أحبته كثيرًا، وطالما ارتضت أن تضحي فيه كثيرًا. ولم تستطع أن تسيطر على نفسها فانفجرت تبكي بدموع غزيرة حين قالت هذه الكلمات. فتأثر بطرس كثيرًا من رؤية هذه السيدة التي كانت صلبة عديمة الإحساس كتمثال من حجر، فتناول يدها واستغفرها وهو لا يدري عمّ يستغفرها. ومن ذلك الوقت أخذت الأميرة تحيك له وشاحًا مخططًا، وتبدّلت معاملتها له كل التبدّل.

قال له الأمير فاسيلي ذات يوم:

- افعل لها هذا، يا عزيزي، فلطالما تعذّبت بسبب الفقيد الراحل على كل حال.

قال له الأمير فاسيلي ذلك، وجعله يوقّع على سند للأميرة بمبلغ ثلاثين ألف روبل.

كان الأمير فاسيلي قد قرّر أن يرمي إلى الأميرة المسكينة بهذه القطعة من العظم فتتسلّى بقضمها، حتى لا يخطر ببالها أن تتحدّث يومًا عن ضلوعه في قضية المحفظة المرصَّعة. وقد وقّع بطرس على السند، وأصبحت الأميرة منذ ذلك الحين تبدي له مزيدًا من العاطفة والمحبة. وأصبحت أختاها كذلك أكثر مداراة وبشاشة ورقّة مع بطرس، ولا سيما الصغرى، أي تلك التي كانت على حظٍّ من الجمال، وكانت لها شامة حسن، فهي الآن كثيرًا ما توقع بطرس في حالة من الارتباك بابتساماتها وبالخجل الذي يظهر عليها حين تراه.

وكان أمرًا طبيعيًا جِدًّا في نظر بطرس أن يحبه جميع الناس، وكان أمرًا شاذًا في نظره ألا يحبوه، لذلك لم يخامره شك في صدق هؤلاء الناس الذين يحيطون به. هذا عدا أنه كان لا يملك من الوقت ما يمكّنه من التساؤل عن صدق هؤلاء الناس أو عن نِفاقهم. كان بطرس لا يملك شيئًا من وقت أبدًا، وكان يعيش في حالة من نشوة دائمة عذبة فرحة. وكان يحس بأنه مركز حركة عامة خطيرة. كان يحس بأنه يُنتظر منه شيء ما بغير انقطاع، وأنه إن لم يفعل هذا الشيء، فسوف يُحْزِنُ كثيرًا من الناس، وسوف يحرمهم مما كانوا ينتظرون، وأنه إن فعل هذا الشيء، فلسوف ينتج عن ذلك خير عميم. فكان يعمل ما يُطلب منه، ولكن ذلك الخير العميم لا يحدث.

وما من أحد في تلك الفترة عُني ببطرس عناية الأمير فاسيلي به، ولا رعى مصالحه رعايته لها. فقد أصبح منذ وفاة الكونت بيزوخوف لا يتركه. وكان الأمير فاسيلي يبدو إنسانًا مرهقًا بكثرة الأعمال، متعَبًا، مكدودًا، ولكنه من عطفه على بطرس، لا يرضى له ضميره أن يترك هذا الشاب الذي لا يملك عن نفسه دفاعًا، والذي هو ابن صديقه على كل حال، والذي أصبح يملك ثروة طائلة. أقول لا يرضى له ضميره أن يتركه للحظ يعبث به كما يشاء، وللأوغاد يطمعون فيه ويخدعونه عن نفسه. فكان في الأيام القليلة التي قضاها في موسكو بعد موت الكونت بيزوخوف يستدعي إليه بطرس، أو يمضي هو إليه، لينصحه بما يجب عليه أن يعمله، وذلك بلهجة فيها من الإعياء والتعب، وفيها من الثقة والتأكيد ما يجعله يبدو كمن يضيف إلى كلامه في كل مرة هذه الجملة: «إنك لتعرف أنني مرهق بأعمال كثيرة، وأنني لا أهتم بك هذا الاهتمام كله إلّا بدافع العطف والإحسان، ثم إنك تعلم حق العلم أن ما أقترحه عليك هو الشيء الوحيد الذي يمكن عمله».

وقال له ذات يوم وهو يغمض عينيه ويربّت على كوعه كأن الأمر قد تم الاتفاق عليه بينهما منذ مدة طويلة، ولا يمكن إلّا أن يكون الاتفاق عليه قد تم:

- سنسافر في الغد يا صديقي. وإذا سافرنا في الغد لا نكون قد تعجّلنا السفر. نعم، سنسافر في الغد. تركب في عربتي. يسعدني هذا أكبر السعادة.

أنهينا هنا جميع الأمور المهمة. كان عليَّ أن أسافر منذ مدة طويلة. إليك الرد الذي وصلني من المستشار: لقد سُمّيت نبيلًا في البلاط وملحقًا بالسلك السياسي، وتلبية لطلبي أصبح باب السلك الدبلوماسي مفتوحًا لك.

كان بطرس قد فكر كثيرًا في الطريق التي سيسلكها في حياته فأراد أن يعترض، رغم كل ما اشتملت عليه لهجة الإعياء والثقة التي قيلت بها كلمات الأمير فاسيلي من قوة الإقناع، ولكن الأمير فاسيلي أوقفه عن الكلام بتلك النبرة الخفيضة الساجعة التي تنفي كل احتمال للاعتراض، وهي نبرة كان لا يعمد إلى استعمالها إلّا في الحالات القصوى. قال:

- لكنني يا عزيزي إنما فعلت هذا لك إرضاء لضميري، فلا داعي إلى أن تشكر لي صنيعي. ما من أحد ساءه يومًا أن يُحبّ كثيرًا، ثم إنك حر تستطيع أن تهجر كل شيء منذ الغد. سوف ترى هذا متى وصلنا بطرسبورغ. وقد آن لك أن تترك هذه الذكريات الرهيبة كلها.

وتنهد الأمير فاسيلي، ثم تابع كلامه:

- هكذا يا صديقي العزيز، ويركب خادمي عربتك.

وأضاف مسرعًا يقول:

- آ... كدت أنسى. لقد كان بيننا، أنا والكونت، حساب. لذلك قبضت مبلغًا عن إيرادات أراضي ريازان. ولست في حاجة إليها، فسوف أحتفظ بها، ثم نتحاسب.

إن ما كان الأمير فاسيلي يسميه «مبلغًا» إنما هو بضعة آلاف من الروبلات من إكارة أراضٍ، احتفظ بها لنفسه.

وأحيط بطرس في بطرسبورغ بمثل ما أحيط به في موسكو من جو زاخر بالعاطفة والمودّة. ولم يستطع أن يرفض المنصب الذي سماه الأمير فاسيلي له، أو قل المنزلة الكريمة التي حصل له عليها (ذلك أن بطرس لن يقوم بعمل) وصارت له علاقات واسعة، وصار يُدعى إلى ولائم كثيرة، وترتّبت عليه واجبات اجتماعية بلغت من الإلحاح أنه أحس بأن الزوبعة التي يدور في إعصارها الآن أقوى منها في موسكو، وهي الزوبعة التي تبشّره بسعادة قريبة لكنها تبتعد.

وكان عدد كبير من رفاق لهوه القدامى غائبين عن بطرسبورغ. فالحرس في حملة، ودولوخوف جُرِّد من رتبته العسكرية، وآناتول في الجيش، والأمير أندريه في الخارج، فلم يعد في إمكان بطرس أن يقضي لياليه كما كان يجب أن يقضيها في الماضي، ولا أن يسترسل من حين إلى حين في أحاديث ودّية مع صديقه الذي يكبره سنًّا ويحترمه كثيرًا. أصبح وقته كله ينقضي في مآدب عشاء، وحفلات رقص. وعند الأمير فاسيلي أكثر الأحيان، في صحبة امرأته الأميرة السمينة، وهيلين الجميلة.

وكما فعل سائر الناس، قدّمت له آنا بافلوفنا شيرر براهين على تغيّر رأيها فيه.

كان بطرس، قبل ذلك، يشعر في حضرتها دائمًا بأن ما يقوله ليس في محله، وأنه يفتقر إلى الكياسة، وأنه ليس لديه ما يُقال، وأن جميع الأقوال التي تبدو له مشتملة على شيء من الحس السليم والرأي السديد أثناء نطقه بها في خياله، تصبح غبية حمقاء متى نطقها جهارًا، على حين أن أسخف الأقوال التي يسوقها هيبوليت تبدو ذكية ظريفة. أما الآن فإن كل ما يقوله يوصف له بأنه ظريف. وهب آنا بافلوفنا لم تعلن ذلك، فلقد كان بطرس يلاحظ أنها تبدو أنها تَوَدّ لو تقوله، ولا تمسك عن قوله إلّا مراعاة لتواضعه.

وفي مطلع شتاء سنة 1805 – 1806، تلقى بطرس من آنا بافلوفنا بطاقتها الوردية المألوفة التي تدعوه فيها إلى حفلتها، مضيفة إلى نصّها هذه العبارة: «وستجد عندي هيلين الجميلة التي لا يمل المرء من النظر إليها».

فلما قرأ بطرس هذه العبارة شعر أول مرة بأن نوعًا من رابطة يعرفها الآخرون قد نشأت بينه وبين هيلين، فهالته هذه الفكرة كما لو كان يُفرض عليه واجب لا يقدر على القيام به، ولكنها في الوقت نفسه راقت له افتراضًا مسليًّا يبعث على الضحك.

وكانت سهرة آنا بافلوفنا مماثلة لحفلتها الأولى كل المماثلة، مع فرق واحد هو أن الشيء الطريف الذي أتحفت به ضيوفها في هذه المرة ليس حضور مورتمار، بل حضور دبلوماسي وصل من برلين حاملًا منها آخر التفاصيل عن إقامة ألكسندر في بوتسدام، وعن التحالف الذي لا انفصام

له الذي تعاهد عليه العاهلان الصديقان دفاعًا عن القضية العادلة ضد عدو النوع البشري. وقد استقبلت آنا بافلوفنا صاحبنا بطرس وعلى وجهها مسحة من حزن كان واضحًا أن مردّها إلى فقد الشاب لأبيه، أي إلى موت الكونت بيزوخوف (كان جميع الناس يشعرون بأنهم مضطرون إلى أن يؤكّدوا لبطرس أنهم حزانى جِدًّا لوفاة والده، الذي لم يكن بطرس قد عرفه تقريبًا)، وهو حزن يشبه كل الشبه ذلك الحزن السامي الذي كانت تُظهره كلما ذُكر اسم الإمبراطورة الأم، ماري فيدوروفنا. وقد تعرف بطرس إلى هذه المراعاة وهذا التملّق. واستطاعت آنا بافلوفنا بفنّها المعهود فيها أن تؤلف في صالونها حلقات. فكانت الحلقة الرئيسية التي اشترك فيها الأمير فاسيلي والجنرالات، وهي التي انتفعت بوجود الدبلوماسي الوافد من برلين. واجتمعت حلقة أخرى حول مائدة الشاي. وقد أراد بطرس أن ينضم إلى الحلقة الأولى، ولكن آنا بافلوفنا التي كانت في حالة عصبية شبيهة بالحالة العصبية التي يكون فيها قائد في ساحة المعركة حين تنبجس في ذهنه ألف فكرة جديدة بارعة لا يكاد يتسع وقته لوضعها موضع التنفيذ، رأت بطرس وهو يهم أن ينضم إلى الحلقة الأولى، فلمست كوعه بيدها وقالت له:

- انتظر. عندي لك في هذا المساء مشاريع.

ونظرت إلى هيلين وابتسمت لها قائلة:

- عزيزتي هيلين الطيّبة، يجب عليك أن تشفقي على عمتي المسكينة التي تحبّك حب العبادة وأن تحسني إليها، فتجالسيها عشر دقائق. ومن أجل ألا يعتريك ضجر فإليك الكونت العزيز الذي لن يرفض أن يصحبك.

مضت هيلين الجميلة إلى العمة. ولكن آنا بافلوفنا أخّرت بطرس متظاهرة بأن عندها توصية أخيرة لا غنى لها عن إسدائها إليه.

فقالت وهي تومئ إلى الجميلة الرائعة التي كانت ذاهبة إلى العمة:

- فاتنة، أليس كذلك؟ وما أعظم أدبها! فتاة في ريعان الصبا تملك هذه الكياسة كلها، وتحسن التصرف هذا الإحسان كله! ذلك يصدر عن القلب! ما أسعد من ستكون له! إن الرجل الذي سيتزوجها يضمن أن يحتل في

المجتمع الراقي ألمع منزلة ولو كان أقل الناس معرفة بهذا المجتمع. أليس كذلك؟ كل ما أردته هو أن أعرف رأيك.

وأخلت آنا بافلوفنا سبيل بطرس.

أجاب بطرس عن سؤال آنا بافلوفنا بالموافقة صادقًا على رأيها في ما تملكه هيلين من فن الكياسة وحسن التصرف. فكان إذا اتفق له أن فكر في هيلين، إنما ينصرف ذهنه إلى هذا الجمال، وإلى هذه الموهبة الخارقة التي تملكها، أعني قدرتها على أن تتخذ في المجتمع وضع الهدوء الساجي والوقار الصموت.

استقبلت العمة الشابَّين في ركنها، ولكن لم يظهر عليها الحب الشديد الذي تحمله لهيلين مثلما ظهرت الخشية الكبيرة التي تبعثها في نفسها آنا بافلوفنا. وألقت نظرة طويلة على ابنة أختها كأنها تسألها عن السلوك الذي يجب أن تلتزمه. وحين تركتهم آنا بافلوفنا لمست كُمّ بطرس بأصبعها مرة أخرى وقالت له:

- آمل ألا تقول بعد الآن إن المرء يشعر عندي بضجر.

ونظرت إلى هيلين.

فابتسمت هيلين ابتسامة من تريد أن تقول إنها لا تتصور أن يراها أحد ثم لا يفتتن بها. وسعلت العمة، وبلعت ريقها، وقالت بالفرنسية إنها سُرَّت أعظم السرور برؤية هيلين. ثم التفتت إلى بطرس بهذه الهيئة نفسها، وردّدت له كلمات الترحيب نفسها. وفي أثناء الحديث المضجر الممل المتعثر الذي جرى بعد ذلك، نظرت هيلين إلى بطرس وابتسمت له تلك الابتسامة الجميلة المضيئة نفسها التي كانت توجّهها إلى الناس كافّة. وكان بطرس قد بلغ من التعوّد على هذه الابتسامة، وكانت هذه الابتسامة قد بلغت من قلة الدلالة في نظره، أنه لم يلق إليها بالًا، ولم يولها انتباهًا. وكانت العمة تتكلّم في تلك اللحظة عن مجموعة علب التبغ التي كان يملكها المرحوم أبو بطرس، الكونت بيزوخوف، ثم أرت بطرس علبتها هي. فطلبت الأميرة هيلين أن ترى صورة زوج العمة، وهي الصورة التي تزدان بها علبة التبغ.

قال بطرس مسميًا اسم رسام من رسّامي الصور المنمنمة:

- لا بد أن صانع هذه الصورة هو الرسام فينيس.

ومال على الطاولة يتناول علبة التبغ بيديه، مصيخًا بسمعه في الوقت نفسه إلى الحديث الذي كان يجري حول الطاولة المجاورة.

وأراد أن يقوم ليجول جولة، ولكن العمة مدت إليه علبة التبغ من وراء ظهر هيلين، وانحنت هيلين إلى أمام لتسهّل هذه الحركة، والتفتت إلى بطرس متبسّمة، وكانت على عادتها في السهرات، ترتدي فستانًا عريض العري في الصدر والظهر، وفقًا للموضة السائدة في ذلك الوقت. فإذا بجذعها الذي كان يبدو لبطرس دائمًا أنه مقدود من مرمر، قد بلغ من الدنو من عينيه أنه استطاع ببصره الحسير أن يميّز، رغم إرادته، ما في كتفيها وجيدها من فتنة حية، وإذا بجذعها يبلغ من الدنو من شفتيه أيضًا أنه كان يكفيه أن ينحني قليلًا حتى يلامس هذين الكتفين وهذا الجيد. وأحس بدفء جسدها، وتنسَّم ضوع عطرها، وأصبح يسمع طقطقة مشدّها إذا هي تحركت. إن ما يراه الآن ليس جمالها المرمري الذي يتّحد بثوبها فكأنهما شيء واحد، وإنما هو يرى الآن ويحسّ كل فتنة جسدها الذي لا تستره إلّا ملابسها. وبعد أن رأى ذلك أصبح لا يستطيع أن يراها في غير هذه الصورة، كما لا يمكن أن يقع المرء في خطأ بعد أن زالت عن عينيه الغشاوة.

«ألم تلاحظ إذًا حتى الآن روعة ما أملك من جمال؟ ألم تلاحظ أنني امرأة؟ نعم، أنا امرأة يمكن أن أكون لأي رجل، وأن أكون لك أنت أيضًا».

كذلك قالت نظرة هيلين. وأحسّ بطرس في تلك اللحظة نفسها أن هيلين لا يمكن أن تكون زوجته فحسب، بل يجب أن تكون زوجته، ولا يمكن إلّا أن تصبح زوجته.

وبلغ من ثقته بذلك أنه أحسّ منذ تلك اللحظة أنه واقف معها في الكنيسة أمام الهيكل يزوجهما الكاهن. أما كيف يتم هذا؟ ومتى يتم؟ فقد كان بطرس يجهل ذلك، حتى إنه يجهل هل يكون في هذا خير (بل كان يحسّ إحساسًا لا يعرف مصدره أنه لن يكون في هذا خير)، ولكنه يعلم أنه سيتم.

خفض بطرس عينيه، ثم رفعهما يريد أن يراها جمالًا كالذي كان يراه قبل ذلك كل يوم، أعني جمالًا بعيدًا كما كان، غريبًا عنه كما كان، ولكنه أصبح

لا يستطيع ذلك. أصبح لا يستطيعه، مثله كمثل من رأى في الضباب قشّة فحسبها شجرة، فأصبح لا يستطيع إذا انكشف له خطأه أن يراها مرة أخرى شجرة. إنها الآن قريبة منه قربًا رهيبًا. إن لها عليه منذ الآن سلطانًا قويًّا. ولم يبق بينهما الآن من عوائق إلّا عوائق إرادته هو.

قال صوت آنا بافلوفنا:

- حسنًا. سأترككم في ركنكم الصغير، فإنني أرى أنكم فيه مرتاحون كل الارتياح.

تساءل بطرس مرتاعًا ألم يرتكب شيئًا يلام عليه، وأجال بصره حوله محمرّ الوجه. كان يبدو له أن جميع الناس يعرفون ما وقع له مثلما يعرفه هو نفسه.

وحين التحق بالحلقة الرئيسية بعد برهة من الوقت، قالت له آنا بافلوفنا:

- يقال إنك تجمِّل منزلك في بطرسبورغ.

وكان هذا صحيحًا. فإن بطرس قد استجاب للرأي القاطع الذي أبداه المهندس المعماري، فأمر بإصلاح حال المنزل الضخم الذي يملكه في بطرسبورغ.

فقالت آنا بافلوفنا:

- حسنٌ هذا، ولكن لا تترك منزل الأمير فاسيلي. إنه لمن الخير للمرء أن يكون له صديق كالأمير.

قالت ذلك وهي تبتسم للأمير فاسيلي. وأردفت:

- أنا أعرف من الأمر شيئًا، أليس كذلك؟ إنك لا تزال في ريعان الصبا، فأنت في حاجة إلى نصائح. لا تزعل مني إذا أنا استعملت ما لامرأة عجوز من حقوق.

وصمتت كما تصمت النساء اللواتي ينتظرن اعتراضًا على ما قلنه عن سنّهن. ثم عقّبت:

- أما إذا تزوجت، فيختلف الأمر.

قالت ذلك وهي تشمل بطرس وهيلين بنظرة واحدة، وكان بطرس لا ينظر إلى هيلين، وكانت هيلين لا تنظر إلى بطرس. لكن هيلين لا تزال قريبة

منه قربًا رهيبًا. وجمجم ببضع كلمات واحمرَّ وجهه.

رجع بطرس إلى البيت، فظلّ مدة طويلة لا يستطيع أن ينام، مفكِّرًا في ما حدث له. ولكن ما الذي حدث له؟ لا شيء. كل ما هنالك أنه أدرك أن المرأة التي عرفها وهي طفلة، والتي كان يقول عنها في ذهول حين كانوا يحدّثونه عن جمال هيلين: «نعم، هي جميلة»، أدرك أن هذه المرأة يمكن أن تكون له.

«ولكنها غبيّة. أنا نفسي كنت أقول إنها غبيّة. إن في العاطفة التي أثارتها في نفسي لشيئًا دنيئًا. شيئًا محرّمًا. لقد قيل لي إن أخاها آناتول كان مغرمًا بها، وإنها كانت مغرمة به، وإن قصة بكاملها قد حدثت، وأن هذا هو السبب الذي حملهم على ترحيل آناتول. وأخوها الثاني هو هيبوليت... وأبوها هو الأمير فاسيلي... ذلك كله ليس خيرًا»، بذلك حدّث الأمير بطرس نفسه. وفيما كان يفكر هذا التفكير (وقد وقف تفكيره عند الحد ولم يكتمل)، فاجأ نفسه مبتسمًا، وأدرك أن تفكيرًا آخر كان ينبجس وراء التفكير الأول، وأنه أثناء تصوّره تفاهة هيلين كان يحلم بأنها ستكون امرأته، وأنها يمكن أن تحبّه، وأنها ربما كانت شيئًا آخر، وأن كل ما خطر بباله وكل ما قيل عنها ربما كان زورًا. ومرة أخرى أصبح لا يرى ابنة الأمير فاسيلي، وإنما يرى جسدها الذي لا يكاد يغطّيه فستانها الأشهب. وقال متسائلًا: «لكن كيف أمكن ألا تخامرني هذه الفكرة في يوم من الأيام حتى الآن؟». وعاد يقول لنفسه إن الأمر مستحيل، وإن في هذا الزواج شيئًا دنيئًا، شيئًا مخالفًا للطبيعة، شيئًا منافيًا للشّرف في ما يبدو له. وتذكر أقوال هيلين، وتذكّر نظراتها، وتذكّر أيضًا أقوال ونظرات أولئك الذين كانوا يرونهما معًا. تذكّر ما كان يعبّر عنه وجه آنا بافلوفنا، وتذكَّر نظراتها، بينما كانت تحدّثه عن منزله، وتذكّر ألف إلماعة مشابهة صدرت عن الأمير فاسيلي وعن آخرين، فما كان أشد الارتياع الذي اعتراه إذ تصور أنه لعله أصبح، بطريقة أو بأخرى، ملزَمًا بتحقيق ذلك الفعل الذي لا شك في أنه فعل دنيء، وأن عليه أن يمتنع عنه. ولكن في ذلك الوقت نفسه الذي كان يُصدر فيه هذا القرار كانت صورتها تنبجس من ركن آخر في نفسه، متألقة بكل ما تملكه من جمال المرأة.

الفصل الثاني

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1805، كان على الأمير فاسيلي أن يقوم برحلة تفتيشية إلى أربعة أقاليم. وكان قد التمس تكليفه بهذه المهمة ليستطيع أن يزور أراضيه التي ساءت حالها وكانت تقلقه، وليمرَّ كذلك بابنه آناتول (في المدينة التي ترابط فيها حاميته) فيصطحبه في زيارة للأمير نيقولا آندريفتش بولكونسكي بغية أن يزوجه ابنة هذا الشيخ الذي يملك ثروة طائلة. ولكنه قبل أن يسافر وقبل أن يشرع في هذه الأعمال الجديدة، كان عليه أن يفرغ من قضية بطرس الذي كان في الآونة الأخيرة أصبح يقضي في المنزل أيامًا كاملة، وكان بحضور هيلين يتصرّف تصرفات مضحكة فيها انفعال وارتباك وغباء (شأن كل عاشق موله)، مع أنه لم يعزم أمره إلى الآن، ولا استطاع أن يتخذ قرارًا.

قال الأمير فاسيلي لنفسه ذات صباح: «هذا كله حسن، ولكن لا بد أن ينتهي الأمر»، قال لنفسه ذلك وهو يتنهّد حزينًا، لاعتقاده بأن بطرس الذي يدين له بأشياء كثيرة (سامحه الله!) لا يتصرّف في هذه القضية تصرفًا سليمًا كل السلامة. وقال لنفسه متلذذًا بالإحساس بمدى طيّبته: «هو الشباب... والاستهتار... غفر الله له، ولكن لا بد أن ينتهي الأمر إلى نتيجة. بعد غد عيد ليوليا[1]. سأدعو عددًا من الضيوف. فإذا لم يدرك ما يجب عليه أن يعمله، كان عليَّ أنا أن أتصرّف. نعم، أن أتصرف. فأنا الأب!».

وكان بطرس، بعد انقضاء ستة أسابيع على سهرة آنا بافلوفنا، والليلة

(1) تصغير اسم هيلين تدليلاً.

المضّطربة التي تلتها وكانت ليلة مؤرقة مسهدة قرر فيها أن الزواج سيكون مصيبة، وأن عليه أن يتحاشى هيلين وأن يسافر، لكنه ظل مقيمًا في منزل الأمير فاسيلي كوراجين رغم اتخاذه هذا القرار. وكان يحس مرتاعًا بأنه يزداد التزامًا بها في نظر الناس يومًا بعد يوم، وأنه أصبح لا يستطيع أن يراها بالعين التي كان يراها بها من قبل، وأنه أصبح لا يستطيع انتزاع نفسه منها، وأن ربط مصيره بمصيرها شيء رهيب، ولكن لا بد له منه. ولعله كان لا يزال يستطيع أن يمتنع، ولكن كان لا يمضي يوم إلّا ويقيم الأمير فاسيلي.. (وهو قلما يستقبل الناس) سهرة لا مفرّ لبطرس من حضورها إذا كان لا يريد أن يفسد على الناس مسرّتهم وألا يخيّب ظنّهم. وكان الأمير فاسيلي، في الأوقات القليلة التي يقضيها في المنزل، يمد إليه خده المغضنة المحلوقة ذاهلًا ويقول له: «إلى الغد» أو «لا تغب عن العشاء، وإلا فلن أراك»، أو أيضًا: «من أجلك إنما أبقى»، إلخ. ورغم أنه حين يبقى في المنزل من أجل بطرس (كما يقول) لا يبادله كلمتين، فقد كان بطرس لا يجرؤ أن يخالف رغبته، أو أن يعصى أمره، أو أن يخيّب ظنه. وكان يقول لنفسه كلامًا يردّده كل يوم: «يجب عليَّ أخيرًا أن أفهمها، وأن أعرف ما هي. أكنت من قبلُ مخطئًا أم أنا الآن مخطئ». وكان يقول لنفسه في بعض الأحيان: «لا، ما هي بالحمقاء. إنها فتاة ممتازة. لم تخطئ يومًا في شيء، ولا نطقت مرة بسخافة. هي قليلة الكلام، ولكن ما تقوله يتّصف دائمًاا بالبساطة والوضوح. فما هي إذًا غبية. إنها لم تضطرب في يوم من الأيام، ولا هي تضطرب أبدًا. معنى هذا أنها امرأة ممتازة!» وكثيرًا ما كان يسترسل معها في حديث من الأحاديث مفكّرًا بصوتٍ عالٍ كما يُقال، فكانت في كل مرة تجيبه إما بملاحظة موجزة لكنها في محلها، دالة بذلك على قلة اهتمامها بهذه الأمور، وإما بابتسامة صامتة ونظرة هادئة تجعلانه يشعر بتفوّقها عليه. إنها لعلى حق: ما قيمة البراهين كلها بالقياس إلى هذه الابتسامة؟

وكانت تكلّمه دائمًا وهي تبتسم تلك الابتسامة الجذلة الواثقة التي تخصّه بها وحده من دون غيره، وتشتمل على أكثر مما تشتمل عليه ابتسامتها الجامدة التي تضيء وجهها دائمًا. كان بطرس يعلم أن جميع

الناس لا يتوقّعون منه إلّا شيئًا واحدًا، هو أن يقول في آخر الأمر كلمة، أن يجتاز حاجزًا، وكان يعلم أنه سيجتاز هذا الحاجز عاجلًا أو آجلًا. ولكنّ ذعرًا لا يمكن فهمه كان يعتريه حين يتصوّر أنه سيخطو تلك الخطوة. ألف مرة قال لنفسه في تلك الأسابيع الستة التي كان يشعر أثناءها أنه يوغل في هذه الهاوية مزيدًا من الإيغال: «ما بالي؟ إن الأمر لا يحتاج إلى عزيمة؟ أأكون خاليًا من العزيمة؟».

كان يريد أن يعزم أمره، ولكنه كان يحس مرتاعًا أنه يفتقر في هذه الحالة إلى تلك العزيمة التي كان يظنّها في نفسه وكان يملكها في الواقع. إن بطرس واحد من أولئك الناس الذين لا يكونون أقوياء إلّا حين يحسّون بأنهم أطهار طهارة مطلقة. وهو منذ اليوم الذي شبت في نفسه الشهوة حين كان ينظر إلى علبة التبغ في منزل آنا بافلوفنا شلّ إرادته وعطّل عزيمته إحساس لا شعوري بإثم تلك الشهوة.

وفي يوم عيد هيلين، دُعيَ إلى العشاء في منزل الأمير فاسيلي عدد صغير من الخلصاء الأقربين، كما قالت الأميرة، هم أقرباء وأصدقاء، وقد أُفهموا جميعًا أن مصير الفتاة التي يُحتفل بعيدها إنما سيتقرّر في ذلك اليوم. وكانت تتصدر المائدة امرأة جسيمة مهيبة يدل مظهرها على أنها كانت في الماضي جميلة، هي الأميرة كوراجين. وكان يحيط بها أعلى المدعوين قدرًا: جنرال شيخ، وامرأته، وآنا بافلوفنا شيرر. وفي آخر المائدة كان يجلس المدعوون الأصغر سنًا والأقل شأنًا، وكان بين هؤلاء سكان المنزل، ومنهم بطرس وهيلين متجاورَين. وكان الأمير فاسيلي لا يشارك في العشاء، وإنما هو يدور حول المائدة، فيجلس بقرب هذا المدعو تارة وبقرب ذلك المدعو الآخر تارة. وكان يقول لكل واحد بضع كلمات لطيفة، باستثناء بطرس وهيلين اللذين كان كمن لا يلاحظ وجودهما. وكانت الشموع تتوهج توهجًا قويًا، وأدوات المائدة الفضية والبلورية تلتمع التماعًا برّاقًا. وكانت حلى النساء والذهب والفضة في الكتفيات تتألق تألقًا باهرًا. وكان الخدم المرتدون أزياءهم الرسمية الحمراء يسعون حول المائدة منهمكين، في حين تختلط قرقعة السكاكين والأقداح والأطباق بجلبة الأحاديث النشطة الصاخبة. وفي

طرف من المائدة كان يُسمع صوت حاجب شيخ من حجّاب البلاط يعلن لبارونة عجوز عن حبّه الحار، فتضحك البارونة ردًّا على تصريحه لها بالغرام المشبوب. وفي الطرف الآخر من المائدة كانت تُروى قصة عن خيبة الأمل التي أصيبت بها فتاة اسمها ماريا فكتوروفنا. وفي الوسط كان الأمير فاسيلي مركز الانتباه ومحَطّ الأنظار. فهو يقص على السيدات، وهو يبتسم ابتسامة فرحة، ما جرى في آخر جلسة عقدها «مجلس الإمبراطورية» يوم الأربعاء، فيروي كيف قرأ سرجي كوزفتش فيازمينيتوف[1]، الحاكم العسكري الجديد لبطرسبورغ، الأمر العالي الذي أرسله الإمبراطور ألكسندر من الجيش، وفيه يخاطب سرجي كوزمتش قائلًا له إنه يتلقى من جميع الجهات ما يشهد بالإخلاص له والتفاني في حبه، وأن ما وصله من بطرسبورغ قد سرّه سرورًا خاصًّا، وأنه فخور بأن يكون قائد أمة كهذه الأمة، وإنه يحاول أن يكون جديرًا بها. لقد كان الأمر العالي الصادر عن الإمبراطور يبدأ بهذه العبارة: «سرجي كوزمتش، من جميع الأنحاء تصلني أصداء»، إلخ...

قالت إحدى السيدات تسأل:

- هل صحيح أنه لم يستطع أن يقرأ إلّا كلمتَيْ سرجي كوزمتش؟

فأجاب الأمير فاسيلي قائلًا:

- لم يزد عليهما حرفًا... «سرجي كوزمتش... من جميع الأنحاء، من جميع الأنحاء، سرجي كوزمتش....» لم يفلح فيازمينيتوف المسكين في أن يتقدّم أكثر من ذلك. لقد أعاد القراءة عدة مرات، ولكنه ما يكاد يقول «سرجي» حتى يبكي ناشجًا. ثم ما يكاد يقول « كوز... متش » حتى تهطل دموعه... وما يكاد يقول: «من جميع الأنحاء» حتى يخنقه النشيج، فلا يستطيع أن يواصل القراءة. ويعود يكفكف دموعه بمنديله. ويستأنف القراءة، فما إن يقول «سرجي كوزمتش، من جميع الأنحاء» حتى تنسكب الدموع غزيرة من جديد. فما كان من الحضور إلّا أن طلبوا من شخص آخر أن يقرأ نيابة عنه.

---

(1) سرجي كوزمتش فيازمينينوف (1749 - 1819): وزير الحرب منذ سنة 1802، ثم حاكم عام لمدينة سان بطرسبورغ سنة 1805.

قال أحدهم مرددًا وهو يضحك:

- كوزمتش... من جميع الأنحاء.

فقالت آنا بافلوفنا من الطرف الآخر من المائدة، وهي تهدد بأصبعها:

- لا تكونوا أشرارًا... إنه رجل شهم ممتاز، صاحبنا الطيّب فيازمينيتوف...

وساد الضحك حتى بلغ أقصى المائدة، وكانت تبعث عليه أسباب شتى متنوّعة في الواقع، وكان بطرس وهيلين وحدهما صامتين في ركنهما لا يضحكان. كانا كلاهما يكظمان ابتسامة وضّاءة ليس لها أية علاقة بسرجي كوزمتش، إنها ابتسامة حياء من عواطفها. ابتسامة خفر. ولقد تكلم الآخرون كثيرًا، وضحكوا كثيرًا، وتمازحوا كثيرًا، وأكلوا اللحم المقلي بشراهة، وشربوا خمرة الراين بنهم، وتحاشوا النظر إلى الشابين ما استطاعوا أن يتحاشوه، وتظاهروا بأنهم لا يولونهما أي انتباه، ولكن المرء يحسّ من النظرات التي يلقونها عليهما من حين إلى حين أن الحكاية الفكهة التي تروى عن سرجي كوزمتش والضحكات ووجبة الطعام، أن ذلك كله لم يكن إلّا تظاهرًا وأن انتباه الحفل كله كان متركزًا على هذين الشابَّيْن، بطرس وهيلين. كان الأمير فاسيلي يقلّد نشيج سرجي كوزمتش، ويلف ابنته في الوقت نفسه بنظرة سريعة. وفيما كان يضحك كانت ملامح وجهه تقول: «هكذا، هكذا، كل شيء يجري مجرى حسنًا. اليوم سيتقرر كل شيء». وكانت آنا بافلوفنا تهدّده بأصبعها دفاعًا عن صاحبنا الطيّب فيازمينيتوف، فيقرأ الأمير فاسيلي في عينيها اللتين ترشقان بطرس في تلك اللحظة بنظرة خاطفة مختلسة، أنها تهنئه بهذا الصهر، وتغبطه على سعادة ابنته. وكانت الأميرة الأم، وهي تقدّم لجارتها الخمرة تتنهّد تنهدًا حزينًا، وتلقي على ابنتها نظرة زاخرة بالحسرة، كانت كمن تريد أن تقول بهذا التنهد: «نعم، لم يبق علينا الآن إلّا أن نشرب النبيذ الحلو يا ابنتي. جاء دور الشبيبة تعرض على الناس سعادة جريئة هذه الجَرَّاة كلها!». وقال دبلوماسي وهو ينظر إلى وجهَيْ العاشقين السعيدين: «ما أسخف كل ما أحكيه. لكأنَّ هذا الذي أقوله يهمني في قليل أو كثير! السعادة هذه هي!».

وفي وسط هذه المشاغل التافهة المصطنَعة التي كانت تجمع هذا الحفل، كانت تتسلّل عاطفة طبيعية قوامها التجاذب بين الشاب والشابة، الجميلَيْن السليمَيْن. وكانت هذه العاطفة الإنسانية تسيطر على كل شيء، وتحلّق فوق كل تلك الثرثرات المفتعلة. الأمازيح لم تكن مرحة، والأقاصيص كانت لا تثير اهتمامًا، والنشاط كله كان ظاهر الاصطناع. ولم يكن الضيوف وحدهم يشعرون بهذا، بل أيضًا الخدم الذين يسعون حول المائدة، حتى لقد كانوا يغفلون أحيانًا عن ضرورات الخدمة وهم يتأملون هيلين الجميلة بمحيّاها الوضّاء المتألّق، ويتأملون بطرس، الممتلئ الوجه، المحمرّ اللون، السعيد والقلق في آن واحد. لكأن شعل الشموع نفسها كانت لا تتجه إلّا إلى هذين الوجهين السعيدين.

كان بطرس يحس بأنه مركز هذا كله، فكان ذلك يملأ نفسه فرحًا وحرجًا. كانت حالته حالة إنسان مستغرق في أمر من الأمور. فهو لا يرى ولا يفهم ولا يسمع شيئًا من الأشياء على نحو واضح. في بعض اللحظات فقط، كانت نتف من أفكار ومشاعر تردّه إلى الواقع.

قال يحدّث نفسه: «الأمر إذًا تم! ولكن كيف حدث هذا كله؟ أبهذه السرعة الهائلة؟ أنا أعلم الآن أن «الأمر» أصبح لا بد أن يتم لا من أجلها وحدها، ولا من أجلي وحدي، بل من أجلهم كلهم أيضًا. لقد بلغوا من الثقة بأن الأمر سيتم أنني أصبحت لا أستطيع، ولا أريد حقًا، أن أخيّب ظنّهم. كيف سيتم الأمر؟ لا أدري، ولكنه سيتم، سيتم حتمًا!». وألقى نظرات على الكتفين المتألقتين قرب عينيه.

ثم شعر فجأة بخجل. لقد أحرجه وأربكه أن يحتكر وحده انتباه الجميع، وأن يُعَدّ رجلًا سعيدًا، وأن يكون بوجهه الذي لا جمال فيه أشبه ببطل الأسطورة اليونانية «باريس» الذي استولى على الجميلة هيلين. ثم قال لنفسه يواسيها ويعزّيها: «ولكن أغلب الظن أن الأمور تجري على هذا النحو دائمًا، ولا بد أن تجري على هذا النحو. ثم ما الذي فعلته أنا من أجل هذا؟ متى بدأ هذا؟ لقد غادرت موسكو مع الأمير فاسيلي. ولم يكن هناك شيء بعد. فما الذي كان يمنعني أن أنزل عنده؟ ثم لعبت معها بالورق،

وناولتها حقيبة يدها التي سقطت على الأرض، واشتركنا في نزهة بالعربة. فمتى بدأ الأمر؟ متى تم هذا كله؟». وها هو ذا الآن يجلس إلى جانبها خطيّبا. إنه يسمعها، ويراها، ويحسّ بوجودها، ويشعر بأنفاسها، ويبصر حركاتها، ويرى جمالها. ثم يبدو له فجأة أنها ليست هي الجميلة جمالًا خارقًا، بل هو، وأن هذا هو السبب في أن جميع الناس ينظرون إليه على هذا النحو، فيسعده هذا الإعجاب العام به، فيقبِّب صدره، ويرفع رأسه، ويبتهج بسعادته فخورًا. وإنه لكذلك إذا بصوت يقول له شيئًا للمرة الثانية، وهو صوت شخص يعرفه بطرس. ولكنه بطرس قد بلغ من الاستغراق في أفكاره أنه لا يفهم ما يقال له.

ردّد صوت الأمير فاسيلي يسأله مرة ثالثة:

- أسألك متى وصلتك آخر رسالة من بولكونسكي؟ ما أشد ذهولك يا عزيزي!

وابتسم الأمير فاسيلي. ولاحظ بطرس أن الحضور جميعًا يبتسمون لهما، هو وهيلين. قال لنفسه: «لا بأس، ما دمتم جميعًا تعرفون. ثم إن الأمر حق»، وابتسم هو أيضًا ابتسامته تلك التي تشبه ابتسامة طفل وابتسمت كذلك هيلين.

وكرر الأمير فاسيلي سؤاله الذي يبدو أنه كان في حاجة إلى جواب عنه إنهاء لمناقشة:

- متى وصلتك آخر رسالة من بولكونسكي؟ هل وصلتك من أولموتس؟

فقال بطرس لنفسه: «هل يمكن أن يفكر المرء في مثل هذه الترّهات؟ أن يفكر فيها، وأن تخطر بباله؟،» ثم أجاب وهو يتنهد:

- نعم، من أولموتس.

وبعد العشاء اقتاد بطرس هيلين إلى الصالون في أثر الآخرين. وأخذ الضيوف ينسحبون، وكان بعضهم ينسحب من دون أن يودّع هيلين. كانوا كأنهم لا يريدون أن يصرفوها عن شاغل مهم، فهم يقتربون منها لحظة ثم يبتعدون مسرعين، مصرّين عليها ألا تشيّعهم. وغادر الدبلوماسي الصالون صامتًا صمتًا حزينًا. لقد لاح له كل ما في حياته الديبلوماسيّة من بطلان

وغرور بالقياس إلى سعادة بطرس. وحين بادرت امرأة الجنرال الشيخ وسألته عن حالة ساقه، لم يردّ. لكنه قال لنفسه مستهزئًا بها: «يا للعجوز الحمقاء! هيلين فاسيليفنا ستظل جميلة حتى في الخمسين من عمرها».

ودمدمت آنا بافلوفنا تقول للأميرة وهي تقبّلها تقبيلًا شديدًا:

- أظن أن في وسعي أن أهنئك. لولا أنني أعاني من صداع لبقيت.

فلم تجب الأميرة بشيء. كانت تحسد ابنتها على سعادتها.

وفيما كان الضيوف يُشيَّعون، خلا بطرس إلى هيلين مدة طويلة في الصالون الصغير الذي جلسا فيه. لقد سبق أن اتفق له، أثناء هذه الأسابيع الستة، أن خلا إليها وانفرد بها، ولكنه لم يحدّثها في الحب يومًا من الأيام. وهو يحس الآن بأنه لا بد من كلام في الحب، لكنه لا يستطيع أن يعزم أمره على القيام بهذه الخطوة. كان يشعر بخجل. كان يبدو له أنه بجلوسه هنا قرب هيلين إنما يحتل مكان شخص آخر. كان صوت في قرارة نفسه يقول له: «هذه السعادة ليست لك. هذه السعادة هي لأولئك الذين ليس في نفوسهم ما في نفسك أنت». ولكن كان لا بد له أن يقول شيئًا. فها هو ذا يقطع الصمت فيسألها إن كانت قد سُرَّت بهذه السهرة، فتجيبه بالبساطة المعهودة فيها أن عيدها اليوم كان من أمتع أعيادها وأبهجها.

وبقي عدد من أقرب الأقرباء جالسون في الصالون الكبير. وها هو ذا الأمير فاسيلي يقبل على بطرس بخطى متراخية. فينهض بطرس ويقول إن الوقت تقدّم، والسهرة طالت. فنظر إليه الأمير فاسيلي بهيئة قاسية مستفهمة مستغربة، كان الكلام الذي سمعه من بطرس أعجب وأغرب من أن يُسمع. ولكنّ تعبير وجهه عن القسوة لم يلبث أن زال، ثم إذا هو يشد بطرس من ذراعه، ويُجلسه، ويبتسم له ابتسامة فيها عاطفة ومحبة.

وسرعان ما اتجه إلى ابنته فقال لها بلهجة الحنان المألوف المهمل، التي يتكلّم بها من الآباء من ألفوا تدليل أولادهم منذ طفولتهم، ولكن الأمير فاسيلي لم يتمثّلها إلّا بتقليد الآخرين، قال:

- هذه، ليوليا؟

وعاد يلتفت إلى بطرس. وقال وهو يحل أعلى صدرته:

- سرجي كوزمتش، من جميع الأنحاء.

فابتسم بطرس، ولكن المرء يرى من ابتسامته أن النكتة التي تروى عن سرجي كوزمتش ليست هي التي تهم الأمير فاسيلي في هذه اللحظة. وأدرك الأمير فاسيلي أن بطرس يعرف هذه الحقيقة. فجمجم فجأة ببعض الكلام وخرج. فأحس بطرس بأن الأمير فاسيلي نفسه يشعر بحرج وارتباك. وأثَّر في نفسه أن يرى هذا الشيخ من شيوخ المجتمع على هذه الحال من الحرج والارتباك. ونظر إلى هيلين فلاحظ أنها هي أيضًا مرتبكة محرَجه، وكانت نظرتها تقول: «هذه غلطتك».

قال بطرس محدِّثًا نفسه: «لا بد أن أخطو هذه الخطوة قفزة واحدة»، ثم عاد يتكلّم عن شيء آخر. تكلم عن سرجي كوزمتش وسأل عن الحكاية التي رُويت عنه، ما هي على وجه الدقّة لأنه لم يفهمها فهمًا واضحًا. فأجابته هيلين، وهي تبتسم، بأنها هي أيضًا لم تفهم من تلك الحكاية شيئًا.

وحين عاد الأمير فاسيلي إلى الصالون كانت الأميرة تتحادث مع سيدة مسنّة عن بطرس بصوت خافت. قالت هيلين:

- طبعًا، هو خطيّب ممتاز، ولكن السعادة يا عزيزتي...

فأجابت السيدة المسنّة بقولها:

- الزيجات تتم في السماوات.

مضى الأمير فاسيلي يجلس في ركن بعيد على ديوان، من دون أن يظهر عليه أنه سمع هذه المحادثة. وأغمض عينيه، وبدا أنه يغفو، إذ سقط رأسه على صدره، ثم لم يلبث أن صحا.

قال لزوجته:

- آلين، اذهبي فانظري ماذا يعملان!

فقامت الأميرة ومرَّت أمام باب الصالون برصانة وقلة اكتراث، وألقت نظرة على داخل الصالون.

كان بطرس وهيلين لا يزالان يتكلمان كما كانا يتكلمان من قبل.

فعادت الأميرة تقول لزوجها:

- لم يتغيّر شيء.

فقطب الأمير فاسيلي حاجبيه، وانعقف طرف فمه، وصار خداه يرتعشان فيضفيان على وجهه ذلك التعبير المقيت الغليظ الذي اختص به. ثم نهض مهتزًا، وردَّ رأسه إلى وراء، ودخل إلى الصالون بخطو حازم أمام السيدات. فكان في وجهه من الأبّهة والفخامة والجلال، ما جعل بطرس يقوم حين رآه.

قال الأمير فاسيلي:

- الحمد الله! قالت لي زوجتي كل شيء.

وخاصر بطرس بذراعيه، وخاصر بالذراع الأخرى ابنته. وأردف يقول:

- صديقتي ليوليا! أنا سعيد جِدًّا، جدًا! واختلج صوته.

وواصل كلامه مخاطبًا بطرس:

- كنت أحب أباك... ولسوف تكون لك زوجة طيّبة... ألا فليبارككما الله!...

وعانق ابنته، ثم عانق بطرس وقبّله بفمه، فم الشيخ. واغرورقت عيناه بدموع. وهتف ينادي امرأته:

- أميرة! تعالي إلى هنا.

فدخلت الأميرة، وطفقت تبكي، وأخذت السيدة المسنّة تمسح عينيها بمنديلها أيضًا. وراحوا يقبّلون بطرس. وقبَّل هو يد هيلين الجميلة مرات. وبعد برهة من الزمن، تركوهما لخلوتهما من جديد.

قال بطرس لنفسه: «هذا كله كان يجب أن يجري هذا المجرى، وكان لا يمكن إلّا أن يجري هذا المجرى. فلا فائدة من التساؤل أهو خير أم هو شر. وهو خير، لأن فيه وضوحًا، ولأن الشك القديم المرهق المعذِّب قد زال».

كان يمسك يد خطيّبته صامتًا، وينظر إلى عنقها الجميل يعلو ويهبط.

قال بصوت عال:

- هيلين!

ثم أمسك عن الكلام.

لقد قال لنفسه: «في مثل هذه الأحوال تُقال أشياء خاصة». ولكنه لم يفلح في تذكّر ما يقال تذكرًا واضحًا. ونظر إليها وجهًا لوجه. فاقتربت منه، وتخضّب خداها بحمرة. وقالت له:

- انزع هاتين.. انزعهما... أرجوك!
وأشارت إلى نظارتَيْه.
فخلع بطرس نظارتَيْه، فبدا في عينيه، عدا ما يبدو في عيني كل من يخلع نظارتيه من تعبير غريب، بدا شيء من التساؤل والارتياع في النظرة. وأراد أن يميل على يدها يقبِّلها. ولكنها بحركة سريعة مباغتة اتجهت إلى شفتيه وألقت عليهما شفتيها، فما كان أشد الدهشة التي شعر بها بطرس من الارتباك والحيرة في سحنتها التي تغيّرت تغيّرا كبيرًا.
قال يحدث نفسه: «فات الأوان. انتهى كل شيء. ثم إنني أحبها».
ثم قال لها وقد تذكّر ما يجب أن يقال في مثل هذه الأحوال:
- أحبّكِ.
ولكن هذه الكلمة قيلت بصوت فيه من الضعف والفقر ما جعل بطرس يستحي من نفسه.
وتمَّ الزواج بعد ستة أسابيع. وكما يفعل رجل سعيد يملك امرأة جميلة وثروة تعد بالملايين، كما يُقال، أقام بطرس في بطرسبورغ في المنزل الفخم الذي يملكه كونتات بيزوخوف، بعد أن عمل على إصلاحه وتزيينه، فصار جديدًا.

الفصل الثالث

في شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة 1805، تلقى الأمير الشيخ نيقولا آندريفتش بولكونسكي رسالة من الأمير فاسيلي يبلغه فيها أنه سيزوره مصطحبًا ابنه. وقد ورد في الرسالة قوله: «إنني مسافر في رحلة تفتيشية، ولن يرهقني أن تزيد المسافة مائة فرسخ حين يكون الهدف أن أزورك، أيها المحسن إليَّ، المعظَّم جِدًّا. وسيصحبني ابني قبل أن يلتحق بالجيش. فآمل أن تسمح له بأن يعبِّر لك بنفسه عن الاحترام العميق نفسه الذي يحمله لك أبوه».

فلما سمعت الأميرة الصغيرة بذلك، قالت متعجّلة غير متبصّرة بالعواقب:

- لا حاجة إذًا إلى اقتيادها إلى المجتمع، فالراغبون في خطبتها يأتون إلينا من تلقاء أنفسهم.

فقطب الأمير نيقولا آندريفتش حاجبَيْه ولم يقل شيئًا.

وفي ذات مساء، بعد انقضاء خمسة عشر يومًا على تلقي الرسالة، وصل رجال الأمير فاسيلي أولًا، ثم وصل هو نفسه مع ابنه في اليوم التالي.

إن الشيخ بولكونسكي لم يكن رأيه في طبع الأمير فاسيلي حسنًا في يوم من الأيام، وقد ازداد سوء رأيه فيه هذه الآونة الأخيرة، حين أوغل الأمير فاسيلي في طريق الرتب والأمجاد في العهدَين الجديدين، عهد بولس وألكسندر. وسرعان ما أدرك هدف الزيارة، من إشارات الرسالة وتلميحات الأميرة الصغيرة، فإذا بسوء رأيه في الأمير فاسيلي ينقلب في نفسه إلى عاطفة احتقار وشعور عداء، وإذا هو لا يجيء على ذكره إلّا ويصدر أصواتًا

تعبّر عن الازدراء. وفي اليوم الذي كان يُنتظر فيه وصول الأمير فاسيلي كان الأمير نيقولا آندريفتش مستاء استياء خاصًا، وكان معتكر المزاج. ترى أكان معتكر المزاج بسبب وصول الأمير فاسيلي، أم كان ممتعضًا ذلك الامتعاض الشديد من وصول الأمير فاسيلي لأنه كان معتكر المزاج؟ المهم أنه كان معتكر المزاج؛ ولذلك نصح تيخون، منذ الصباح، المهندس المعماري، بأن لا يقدّم للأمير تقريره. قال وهو يلفت انتباه المهندس المعماري إلى وقع خطى الأمير على الأرض:

– اسمع كيف يمشي! انه يُسقِط كعبيه على الأرض إسقاطًا. ونحن نعرف ما معنى هذا.

ومع ذلك خرج الأمير في نحو الساعة التاسعة يقوم بنزهته المعتادة، مرتديًا معطفًا من مخمل له ياقة من فراء الزبلين، ومغطيًا رأسه بقلنسوة تناسب المعطف. كان الثلج قد هطل بالأمس، ولكن الممر الذي اعتاد الأمير نيقولا آندريفتش أن يسلكه للوصول إلى أحواض الزرع المغطاة بالزجاج كان مكنوسًا؛ وكانت تُرى على الثلج آثار مكنسة، وكانت ترى مجرفة غرست في التلّة الهشة التي تحف بالممر.

طاف الأمير نيقولا آندريفتش بالأحواض التي تضم غروس البرتقال، ومرَّ بمواضع الخدمة، ورأى المباني التي تُشاد، وكان مربدَّ الوجه، مقطب الأسارير، متجهم الوجه، صامتًا لا يتكلّم. ثم قال يسأل الوكيل، وهو رجل جسيم كان يرافقه إلى القصر، وكان بوجهه وسلوكه يشبه مولاه:

– هل تستطيع العربات الزلاجة أن تمر؟

– طبقة الثلج عميقة يا صاحب السعادة. لكنني أمرت بكنس الطريق.

هزَّ الأمير رأسه مؤيدًا، ودنا من درج الباب. فقال الوكيل محدّثًا نفسه: «الحمد الله! لم تنفجر العاصفة!». وأضاف يقول للأمير نيقولا آندريفتش:

– لولا أن كنسنا الطريق لكان يصعب المرور. يقال إن وزيرًا سيزور سعادتك.

فالتفت الأمير إلى وكيله يرشقه بنظرة عابسة، ويقول له بصوته الحادّ الخشن:

- ماذا؟ وزير؟ أي وزير؟ من أصدر إليك أوامر! من أجل الأميرة ابنتي لا تكنسون، أما من أجل وزير!... لا وزراء عندي!

قال الوكيل:

- كنت أظن يا صاحب السعادة...

فصرخ الأمير يقول بمزيد من السرعة واضطراب الكلام:

- ماذا كنت تظن... يا للصوص! يا للأوغاد! يا للأوباش! لأعلمنَّك كيف تظن...

قال ذلك ورفع عصاه على وكيله آلبانتش، وكان يمكن أن تسقط على الرجل ضربة العصا لولا أنه تنحى فتحاشاها. وظل الأمير يصرخ مسرعًا في الكلام:

- كنت تظن... أوغاد! أوباش!

ولكن رغم أن آلبانتش قد ارتاع من تجاسره على التنحّي تحاشيًا للضربة، عاد يقترب من الأمير حانيًا أمامه رأسه الأصلع بخضوع ومذَلّة، وربما بسبب أنه فعل ذلك، فإن الأمير لم يرفع عصاه مرة أخرى، ودخل إلى المنزل مسرعًا وهو لا يزال يردّد صياحه: «أوغاد، أوباش... أعيدوا الثلج إلى الطريق... راكموا الثلج في الطريق!».

وفي ساعة الغداء، كانت الأميرة ماريا ومادوموازيل بوريين تعرفان أن الأمير معتكر المزاج، فكانتا تنتظرانه واقفتَيْن. فأما مادوموازيل بوريين، فكان وجهها المشرق كأنه يقول: «لست أدري شيئًا. أنا ما أنا دائمًا». وأما ماريا فكانت شاحبة الوجه، مرتاعة الهيئة، خافضة عينيها. وكان آلم ما يؤلم الأميرة ماريا هو أنها تعلم أن عليها في مثل هذه الأحوال أن تصطنع وضع مادوموازيل بوريين، ولكنها كانت عاجزة عن ذلك. كانت تقول لنفسها: «لو تظاهرت بأنني لا ألاحظ شيئًا، لظن أنني لا أعبأ به، ولو تظاهرت بأنني أنا أيضًا معتكرة المزاج فتجهمت أساريري، لقال لي مرة أخرى، كما يحدث ذلك، إن لي وجهًا طوله ذراع!».

نظر الأمير إلى وجه ابنته المستطيل ذعرًا، فغمغم: «إما أنها تعرف مكانتها أو بلهاء».

ولاحظ غياب الأميرة الصغيرة عن غرفة الطعام فحدّث نفسه قائلًا: «وتلك التي غابت عن الأنظار. لا بد أنهم قالوا لها الأقاويل!».

وقال يسأل:

- أين الأميرة؟ أهي مختبئة؟

فأجابت مادوموازيل بوريين وهي تبتسم:

- إنها تعاني بعض الآلام. لن تجيء. هذا مفهوم في مثل وضعها.

فأصدر الأمير هذه الأصوات:

- همْ... همْ... خي! خي!

وجلس إلى المائدة. فبدا له أن الطبق ليس نظيفًا نظافة تامّة، فأشار إلى البقعة التي لاحت له فيه، ورماه، فتناوله تيخون ونقله إلى كبير الخدم.

الحق أن الأميرة الصغيرة لم تكن تعاني آلامًا. ولكنها كانت خائفة من الأمير خوفًا لا سبيل إلى مغالبته، فلما علمت أنه معتكر المزاج قررت ألا تظهر. وقالت لمادوموازيل بوريين:

- أخشى على الطفل. لا يعلم إلّا الله ما عسى يحدث في أعقاب رعب.

وكانت الأميرة الصغيرة تعيش في قرية ليسييه جوري في حالة رعب دائم، وتشعر بنفور من الأمير، وكانت لا تعي هذا النفور لأن الرعب هو الشعور الذي كان مسيطرًا على نفسها. وكان الأمير من جهته يشعر بنفور منها أيضًا، ولكن نفوره يسيطر عليه ازدراء. ومنذ أن ألفت الأميرة ليسييه جوري، أحبَّت مادوموازيل بوريين، فكانت تقضي معها أيامًا كاملة، وتطلب منها أن تنام بقربها، وكثيرًا ما تكلمها عن حميّها ناقدة إيّاه.

قالت مادوموازيل بوريين وهي تفضّ بأصابعها الوردية فوطتها البيضاء:

- سيأتينا زوار يا أمير. صاحب السعادة الأمير كوراجين وابنه كما نُميَ إليّ.

فأجابها الأمير بلهجة فيها استياء وتأذٍّ:

- همْ... صاحب السعادة هذا صبيٌّ تافه. أنا الذي أدخلته الوزارة. أما ابنه فلا أدري ما مجيئه. لعل الأميرة إليزابت كارلوفنا والأميرة ماريا تعرفان. أنا أجهل لماذا يجيء إلى هنا بابنه. ما أنا في حاجة إليه.

قال الأمير ذلك، ونظر إلى ابنته التي احمرّ وجهها فجأة، وسألها:
- أتراك مريضة؟ ربما خوفًا من الوزير، كما لقّبه ذلك الغبي آلبانتش بهذا اللقب؟
- لا يا أبي.

ورغم أن مادوموازيل بوريين، باختيار هذا الأمر موضوعًا للحديث، كانت خرقاء لا تحسن التصرف، فإنها لم تُغلَب على أمرها، فأخذت تتحدّث عن أحواض الزرع الزجاجية، وعن جمال زهرة تفتحت أكمامها منذ برهة وجيزة؛ فلما انتهى الأمير من حسو حسائه كان قد هدأ.

حتى إذا فرغ من الغداء ذهب إلى كنّته.

كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمام طاولة ذات ثلاث قوائم، تثرثر مع خادمتها ماشا. فلما رأت حماها شحب لونها.

لقد تغيّرت الأميرة الصغيرة تغيّرا كبيرًا. هي الآن أقرب إلى الدمامة منها إلى الجمال. لقد خسف خداها، وانكشرت شفتيها، وظهرت جيوب تحت عينيها.

قالت تجيب الأمير الذي سألها عن صحتها:
- نعم، أحسّ بثقل.
- ألست في حاجة إلى شيء؟
- لا، شكرًا يا أبي.
- طيّب. حسنًا.

وخرج، واجتاز حجرة الانتظار. فرأى فيها آلبانتش خافضًا رأسه.
- هل أرجعتم الثلج إلى الطريق؟
- نعم يا صاحب السعادة. سامحني ناشدتك الله. لم يكن ذلك مني إلاّ غباء.

فقاطعه الأمير، وجعل يضحك ضحكه الذي يحمل نفسه عليه حملًا، وقال له:
- طيّب، طيّب.

ومدَّ، إلى آلبانتش يده، فقبّلها، ورجع الأمير إلى مكتبه.

وصل الأمير فاسيلي في المساء. فاستقبله في الشارع حوذيّون وخدم جعلوا يصرخون وهم يقودون زلاجته وعربة النقل التي تصحبه على الطريق الذي رُكم فيه الثلج عمدًا، إلى أن بلغوا به الجناح الذي أعدَّ لإقامته في المنزل.

كانت قد هُيِّئت للأمير فاسيلي وابنه آناتول غرف منفصلة.

هذا آناتول قد خلع جاكتته، وجلس إلى طاولة واضعًا يديه على خصريه، يحدّق بعينيه النجلاوين الجميلتين إلى ركن من الطاولة ذاهلًا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة. إن آناتول ينظر إلى حياته نظرته إلى عيد متصل زاخر باللهو، تعهّد أحد بإعداده له، لا يدري إلّا الله لماذا! وعلى هذا النحو إنما كان ينظر إلى زيارته للشيخ الشرس والفتاة الغنية الدميمة الوارثة. كان يعتقد بأن الأمور يمكن أن تجري مجرى حسنًا جِدًّا، وأن تجري مجرًى مسلّيًا مضحكًا. وكان يقول لنفسه: «وعلام لا أتزوجها ما دامت على جانب عظيم من الغنى والثراء».

وحلق ذقنه وتعطّر بعناية وتدقيق أصبحا فيه عادة راسخة، ثم دخل على أبيه وقد رفع رأسه الجميل عاليًا، واصطنع هيئة فيها ثقة الغازي وطيّبة الطفل على عادته. وكان خادمان يسعيان حول الأمير فاسيلي يساعدانه في ارتداء ثيابه. وكان الأمير فاسيلي يلقي على ما حوله نظرات ملأى بالحياة والنشاط، فلما رأى ابنه داخلًا عليه هز له رأسه مبتسمًا كأنه يريد أن يقول له: «مرحى، مرحى، في هذه الصورة إنما أريد أن أراك».

سأل الابن أباه بالفرنسية وكأنه يستأنف حديثًا كرره غير مرة أثناء الرحلة:

- قل لي جادًا يا أبي: أهي شديدة الدمامة حَقًّا؟

فأجابه الأمير فاسيلي بقوله:

- دعك من هذه السخافات كلها! وحاول خاصة أن تُبدي للشيخ احترامًا، وأن يراك عاقلًا.

قال آناتول:

- إذا طفق يعظني فلسوف أنصرف. إنني لا أطيق هؤلاء الشيوخ. هه؟

- تذكّر أن مستقبلك كله مرهون بما أقوله لك.

وفي أثناء ذلك كانت الخادمات في غرفتهن لا يعرفن أن الوزير وابنه قد وصلا فحسب، بل كن يصفن هيئة كل واحد منهما تفصيلًا. وكانت الأميرة ماريا وحيدة في غرفتها تحاول عبثًا أن تلجم ما قام في نفسها من اضطراب شديد، وتتساءل وهي تنظر إلى وجهها في المرآة: «لماذا كتبا؟ لماذا كلمتني ليزا في هذا الأمر؟ هذا لا يمكن أن يكون، ماذا يجب أن أعمل لأظهر في الصالون؟ حتى لو أعجبني، لن أستطيع بعد الآن أن أكون معه ما أنا!».

وكانت متى تصوّرت النظرة التي سيلقيها عليها أبوها تمتلئ نفسها رعبًا.

وكانت الأميرة الصغيرة ومادوموازيل بوريين قد حصلتا من الخادمة ماشا على جميع المعلومات اللازمة، فعرفتا أن ابن الوزير فتى جميل نضر الوجه أسود الحاجبين؛ وأن أباه لقي عناء في صعود السلَّم. أما هو فقد اندفع وراء أبيه كالنسر يتخطّى الدرجات ثلاثًا ثلاثًا في كل وثبة. فما إن تزوَّدت الأميرة الصغيرة ومادوموازيل بوريين بهذه المعلومات حتى دخلتا على الأميرة ماريا، وكان صوتهما يسمع نشيطًا حارًّا منذ أن صارتا في الممر الذي يفضي إلى غرفة الأميرة ماريا.

قالت الأميرة الصغيرة وهي ترجِّح بطنها الثقيل، وتتهالك على مقعد:

- وصلوا يا ماري، هل تعلمين ذلك؟

وكانت الأميرة الصغيرة قد خلعت البلوزة التي كانت ترتديها في الصباح، ولبست فستانًا من أجمل فساتينها، كما عنيت بتصفيف شعرها عناية كبيرة. وكان وجهها يعبر عن حماسة شديدة. ولكن ذلك كله لا يفلح في إخفاء انخساف خدَّيْها وذبول وجهها، وما أصابها به الحمل من دمامة. إن هذه الزينة التي كانت تتزين بها حين تحضر حفلات المجتمع الراقي في بطرسبورغ لا تزيد الآن على أن تبرز مدى ما اعترى وجهها من دمامة مزيدًا من الإبراز. وكانت مادوموازيل بوريين قد أدخلت على زينتها، هي أيضًا، تحسينات خفية طفيفة جعلت وجهها الجميل النضر أشد فتنة وأعظم إغراء.

قالت تسأل الأميرة ماريا:

- هيه! أتبقين كما أنت يا أميرتي العزيزة! سيجيء الآن من يعلن أن

السيدين ينتظران في الصالون، وسيكون عليك أن تنزلي إليهما، فما بالك لا تتزينين قليلًا؟

ونهضت الأميرة الصغيرة فقرعت الجرس تنادي الخادمة. وشرعت تؤلف زينة للأميرة ماريا وهي تشعر بحماسة شديدة وفرح كبير، وتسرع في عملها سرعة محمومة. وكانت الأميرة ماريا تحس بجرح في كرامتها من الاهتياج الذي أثاره في نفسها وصول شاب يريد أن يخطبها. وكانت تحس بهذا الجرح في كرامتها مضاعفًا من رؤية صديقتَيْها هاتَين لا تفترضان حتى أن يجري الأمر غير هذا المجرى. فلو قالت لهما إنها تشعر بخجل عنهما وعن نفسها لكانت تفضح ما يملأ نفسها من اهتياج؛ ولو رفضت التزيّن الذي تقترحانه عليها لأدى ذلك إلى إلحاحات، ولأثار مزاحات لا نهاية لها. فاحمرّ وجهها، وانطفأت عيناها الحلوتان، وغشيت وجهها بقع، واستسلمت لأيدي مادوموازيل بوريين وليزا، وعلى وجهها ذلك التعبير الذي كثيرًا ما كان يجمد عليه فيزيده دمامة، وهو التعبير عن إذعان الضحية لمشيئة الجلاد. كانت المرأتان حريصتين حرصًا صادقًا على أن تجعلاها جميلة. إنها من الدمامة بحيث لا تخطر فكرة المنافسة على بال أية واحدة منهما. لذلك أخذتا تلبسانها صادقتين كل الصدق مخلصتين كل الإخلاص، مقتنعتين ذلك الاقتناع الجازم الساذج الذي نلاحظه في النساء، أعني الاقتناع بأن الزينة يمكن أن تجعل وجهًا من الوجوه جميلًا.

قالت ليزا وهي تنظر إلى الأميرة من جانب، على مسافة منها، بعين فاحصة:

- لا، هذا الفستان لا يناسبك حَقًّا، يا صديقتي العزيزة، مري بفستان آخر. إن عندك فستانًا «مسكيًا»[1]. حَقًّا. لعل مصيرك هو الذي يتقرر الآن. هذا الفستان فاتح اللون جِدًّا. غير مناسب. لا. غير مناسب!

إن ما لم يكن مناسبًا ليس الفستان بل وجه الأميرة، وقامتها كلها. ولكن لا مادوموازيل بوريين ولا الأميرة الصغيرة أدركتا ذلك. كانتا تتخيلان

---

(1) بلون الباذنجان، وهو لون كانت موضته رائجة جدًا في مطلع القرن التاسع عشر.

أنهما إذا غرستا شريطًا أزرق في شعرها بعد أن ترفعاه كثيرًا، وإذا وشَّحتا فستانها البني بوشاح أزرق، إلى آخر ما هنالك، حسُنت الأميرة ماريا، واكتمل جمالها. ونسيتا أنهما لا تستطيعان تبديل الوجه المذعور والقامة عامة. لذلك لم ينفع كل ما بذلتاه من جهد في سبيل تغيير زينة هذا الوجه، فظل الوجه نفسه دميمًا يُرثى لحاله. وبعد محاولتين أو ثلاث محاولات خضعت لهما الأميرة ماريا طيِّعة مذعنة، فرُفع شعرها عاليًا (وتلك تسريحة تبدل وجهها تبديلًا كبيرًا، وتشنِّعه تشنيعًا شديدًا)، وأُلبست الفستان البني وأسدل على كتفيها الوشاح الأزرق الأنيق. دارت الأميرة الصغيرة حولها مرتين، فسوَّت بيدها الصغيرة ثنية في الفستان هنا، وشدت الوشاح قليلًا هناك، وأخذت تنظر مائلة برأسها تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال، ثم إذا هي تقول جازمة وقد ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى:

– لا، مستحيل! لا يا ماري! لا يناسبك هذا قطعًا. أوثر أن أراك بفستانك الرمادي الصغير الذي تلبسينه كل يوم. لا. أرجوك. البسي ذلك الفستان. مراعاة لي، ومجاراة لرأيي.

وأردفت تقول للخادمة:

– كاتيا، هاتي للأميرة ثوبها الرمادي!

ثم التفتت إلى مادوموازيل بوريين، فقالت لها وهي تبتسم متلذذة منذ الآن بفرحة ما أوتيت من موهبة الفنانة:

– وسترين يا مادوموازيل بوريين كيف سأرتب الأمر.

ولكن حين جاءت كاتيا بالفستان المطلوب، بقيت الأميرة ماريا جالسة جامدة أمام المرآة، تنظر إلى وجهها، فرأت في المرآة أن عينيها تفيضان دموعًا، وأن شفتيها ترتجفان، وأنها توشك أن تنفجر باكية ناشجة.

قالت مادوموازيل بوريين:

– ما بالك يا أميرتي العزيزة. قليلًا من الجهد أيضًا.

وتناولت الأميرة الصغيرة الفستان من يدي الخادمة، وتقدّمت من الأميرة ماريا، وقالت بلطف ومودة:

– لا، في هذه المرة سنعمد إلى البساطة.

واختلط صوتها وصوت مادوموازيل بوريين وصوت كاتيا التي كانت تضحك لسبب من الأسباب، اختلطت هذه الأصوات كلها في زقزقة خفيفة فرحة.

قالت الأميرة ماري:

- بل اتركنني!

كان صوتها مثقلًا برصانة تبلغ من القوة وألم يبلغ من الشدة أن زقزقة العصافير لم تلبث أن صمتت حالًا. ونظرت النساء الثلاث إلى العينين الواسعتين الجميلتين اللتين امتلأتا دموعًا وأفكارًا، وألقت عليهن نظرة فيها توسّل وضراعة، فأدركن أن الإلحاح عقيم لا يجدي، بل إنه قاس ومؤلم.

قالت الأميرة الصغيرة:

- غيِّري تسريحة الشعر على الأقل.

وأردفت تقول لمادوموازيل بوريين لائمة:

- قلت لك إن وجه ماري هو من تلك الوجوه التي لا تناسبها هذه التسريحة البتة! البتة، البتة! غيِّري هذه التسريحة، رحماك!

فأجاب صوت الأميرة ماريا التي كانت لا تستطيع أن تحبس دموعها إلّا في كثير من المشقة:

- اتركنني! اتركنني! هذه الأمور كلها سواء عندي!

واضطرت مادوموازيل بوريين والأميرة الصغيرة أن تعترفا لنفسيهما بأن الأميرة ماريا دميمة، وأنها في هذه الصورة أكثر دمامة مما عُهد فيها من دمامة. ولكن الأوان قد فات. وكانت تنظر إليهما معبِّرة بوجهها تعبيرًا تعرفانه فيه هو التعبير عن الوجوم والحزن. ولم يوقظ هذا التعبير في نفسيهما خوفًا (كانت الأميرة ماريا لا توقظ هذا الشعور في نفس أحد). ولكنهما كانتا تعرفان أنها حين يظهر في وجهها هذا التعبير، تصمت فلا تتكلم، وتصر على قراراتها فلا تتزحزح عنها.

قالت ليزا تسألها:

- ستبدلينها، أليس كذلك؟

فلما لم تظفر من الأميرة ماريا بجواب، فخرجت.

خلت الأميرة ماريا إلى نفسها. ولم تفعل ما طلبت منها الأميرة الصغيرة. لم تغيّر تسريحة شعرها. حتى إنها لم تلق نظرة على نفسها في المرآة. وظلت جالسة، صامتة، خافضة العينين، جامدة الذراعين، تفكِّر. تتصوّر زوجها رجلًا قوي الجسم، صاحب سيطرة وسطوة، وصاحب قدرة على الإغواء لا تُفهم، يحملها فجأة إلى عالم خاص به، عالم مختلف عن هذا العالم كل الاختلاف، عالم سعيد أعظم السعادة؛ وتتخيَّل على صدرها طفلًا «لها هي». كطفل ابنة مربيتها، الذي رأته بالأمس. لقد كان الأب ينظر إلى الأم والابن كليهما نظرة مفعمة بالحب والحنان.

ثم قالت لنفسها: «ولكن لا، هذا مستحيل. أنا دميمة دمامة كبيرة».

وسمعت صوت الخادمة يقول من وراء الباب:

- هُيِّء الشاي، والأمير واصل حالًا.

فثاب إليها شعورها، وروَّعتها هذه الأفكار التي كانت مسترسلة فيها. وقبل أن تنزل إلى الصالون قامت إلى مصلّاها، فشخصت بعينيها إلى الصفحة السوداء من أيقونة كبيرة تمثل المخلِّص ويضيئها سراج، ولبثت أمام الأيقونة بضع لحظات ضامّة يديها إحداهما إلى الأخرى. كان يعذّبها شك يخامر ضميرها. هل يمكنها هي أن تنعم بأفراح الحب، الحب الأرضي الذي ينعم به الإنسان في هذه الحياة الدنيا؟ إنها حين فكرت في الزواج، كانت تحلم بالسعادة العائلية، وبالأولاد، ولكن حلمها الرئيسي، حلمها الأقوى، حلمها الأخفى، إنما كان هو الحب الأرضي. وكان هذا الحلم قويًا عاتيًا بمقدار ما كانت تحاول أن تخفيه عن الآخرين وعن نفسها. قالت تناجي الرب: «اللهم كيف يمكنني أن أخنق في قلبي هذه الأفكار لأحقق إرادتك بسلام؟». فما إن ألقت هذا السؤال حتى كان الرب يجيبها في قلبها: «لا تشتهي شيئًا لنفسك أنت، لا تبحثي ولا تسعي، لا تضطربي ولا تهتزّي، لا تحسدي أحَدًا على شيء. يجب أن تبقي جاهلة بمستقبل البشر وبما كُتب لك من مصير. ولكن عيشي عيشة من هو مستعد لكل شيء. فإذا شاءت إرادة الله أن تمتحنك بواجبات الزواج، فكوني متهيئة للعمل بإرادته والخضوع لمشيئته».

وتنهّدت الأميرة ماريا وهي تسمع في قرارة قلبها صوت هذه المعاني التي تشد الأزر وتقوّي العزيمة وتعزّي النفس (ولكنها ظلّت تأمل بأن يكتب لحلمها الأرضي المحرَّم أن يتحقق)، ورسمت على نفسها إشارة الصليب من دون أن يخطر ببالها فستانها ومن دون أن تفكّر في تسريحتها، ومن دون أن تتساءل عن الطريقة التي ستدخل بها على الضيوف، ولا عن الكلام الذي ستقوله. ما عسى يكون وزن هذا كله بالقياس إلى أهداف الرب الذي لا تسقط شعرة من رأس إنسان بغير إرادته؟

الفصل الرابع

حين دخلت الأميرة ماريا، كان الأمير فاسيلي وابنه ينتظران في الصالون، ويتحدّثان مع الأميرة الصغيرة ومادوموازيل بوريين. فلما أقبلت بخطوها الثقيل سائرة على الكعبين نهض الرجلان ومادوموازيل بوريين، وقالت الأميرة الصغيرة للرجلين وهي تومئ إلى ماري: «هذه ماري!». رأتهم الأميرة جميعًا. رأتهم تفصيلًا. رأت الأمير فاسيلي الذي ما إن أبصرها حتى تجمّد وجهه معبرًا عن الجد، ثم سرعان ما ابتسم. ورأت وجه الأميرة الصغيرة التي كانت تحاول بفضول شديد أن تقرأ في ملامح الزائرين الأثر الذي تحدّثه رؤية ماري. ورأت كذلك مادوموازيل بوريين بشريطها ووجهها الجميل ونظرتها التي ازدادت توقّدًا وهي تحدِّق «إليه». ولكن ماريا لم تستطع أن تراه «هو»، وإنما كانت ترى شيئًا عظيمًا، متألّقًا، جميلًا، تقدّم نحوها خطوة حين دخلت. وكان الأمير فاسيلي أول من أقبل عليها يحييها، فطبعت قبلة على رأسه الأصلع الذي مال على يدها، وأجابته عن سؤال ألقاه عليها بأنها تتذكّره تذكّرًا واضحًا كل الوضوح على خلاف ما خطر بباله. ثم جاء دور آناتول. إنها لا تزال لا تراه. ولكنها أحست يدًا ناعمة تتناول يدها بقوة، ولامست بشفتيها، ملامسة خفيفة، جبينًا أبيض يعلوه شعر جميل مدهّن مطيّب. وحين نظرت إليه أذهلها جماله. كان آناتول واضعًا إبهام يده في عروة من عرى بزته، محدِّبًا صدره مقوسًا ظهره، يهز ساقًا أبعدها عن أختها، وينظر إلى الأميرة صامتًا مصطنعًا هيئة الفرح وقد حنى رأسه قليلًا. وكان واضحًا أنه لا يفكّر فيها أي تفكير. لم يكن آناتول يملك

حضور البديهة ولا حرارة الحركة، ولم يكن متحدّثا فصيحًا بليغًا، ولكنه في مقابل ذلك قد أوتي موهبة ثمينة في المجتمع الراقي هي الهدوء، وثقة لا يمكن أن يزعزعها شيء. لئن يلقى الخجول أحَدًا أول مرة، فتعوزه الثقة بنفسه فيصمت ويدع للآخر أن يلاحظ أنه يدرك أن صمته غير لائق، وأنه يتمنّى أن يعثر على ما يقوله، فذلك أمر مزعج. ولكن آناتول يصمت من دون أن يشعر بأي حَرَج. ها هو يصمت الآن مرجّحًا ساقه، ناظرًا إلى تسريحة شعر الأميرة نظرة فاحصة. ويلاحظ المرء أنه يستطيع أن يلزم الصمت زمنًا طويلًا جِدًّا مع احتفاظه بهذا الهدوء نفسه، وكأن هيئته كلها تقول: «إذا كان هذا الصمت يضايقك، فتكلّم أنت، أما أنا فما بي رغبة في كلام». ثم إن آناتول يتخذ من النساء وضع التعالي والازدراء، ومن شأن هذا أن يوقظ في نفوسهن حبّ الاطّلاع، وقوة الانفعال، وحتى الحبّ. لكأنه بأوضاعه هذه يقول لهن: «أعرفكنّ، أعرفكنّ، فعلام أسرف على نفسي من أجلكن. لو فعلت لسركنَّ هذا سرورًا عظيمًا!». وهبه لا يفكر في شيء من ذلك البتة - وهذا جائز جِدًّا، لأن التفكير ليس من أبرز خصائصه - فإن هيئته وحركاته توهم بذلك. وقد أحسّت ماري بذلك، فمن أجل أن تفهمه أنها لا تحرص على احتكاره، شرعت تتحدّث مع الأمير الشيخ، ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح عامًا يشترك فيه الحضور جميعًا، ولم يلبث أن نشط وحمي بفضل ثرثرة ليزا التي كانت شفتها ذات الزغب الخفيف ما تنفكّ تكشف عن أسنانها البيضاء. كانت تصطنع في مخاطبة الأمير فاسيلي تلك اللهجة المازحة التي يُكثر من استعمالها أولئك الناس المرحون الثرثارون، وقوامها الإيهام أن بينهم وبين محادثيهم ذكريات بهيجة لا يعرفها أحد غيرهم، ولكنها في الواقع من صنع الخيال. وقد استجاب الأمير لهذه اللعبة مسرورًا. فطفقت الأميرة تلفّق حوادث مضحكة تصوّرها على أنها وقائع، وتقحم فيها آناتول الذي لا تكاد تعرفه. وأدخلت مادوموازيل بوريين نفسها في هذه الذكريات المزعومة، وسَرَّ ماري نفسها أن تنجرف في هذه التذكارات الفرحة.

قالت ليزا، بالفرنسية طبعًا:

- هنا نستطيع على الأقل يا أمير أن نستمتع بحضورك استمتاعًا كاملًا.

فليس شأننا هنا كشأننا في سهراتنا عند آنيت، التي كنت تفرُّ منها دائمًا، هل تتذكر آنيت العزيزة تلك؟

- ولكن لا تحمليني على الكلام في السياسة مثل آنيت!

- ومائدة الشاي التي كنا نجلس إليها؟

- آ... نعم...

وقالت الأميرة الصغيرة تسأل آناتول:

- لماذا كنت لا تُرى عند آنيت أبدًا.

وأضافت وهي تغمز بعينها:

- أنا أعلم. لقد روى لي أخوك هيبوليت مغامراتك.

ورفعت أصبعها تهدِّده قائلة:

- إنني أعرف حتى جهالاتك الباريسية.

فقال الأمير فاسيلي سائلًا ابنه، ممسكًا يد الأميرة كما لو كانت تريد أن تهرب فهو يحتجزها قبل أن تفرَّ:

- ولكن ألم يروِ لك هيبوليت شيئًا؟ لا شك كتم عنك كيف كان يحترق هو نفسه ولها بأميرتنا العزيزة، وكيف طردته؟

وأضاف يقول متجهًا بكلامه إلى الأميرة ماريا:

- هي لؤلؤة النساء يا أميرة!

ولم تدع مادوموازيل بوريين فرصة المشاركة في الحديث تفلت منها حين سمعت الكلام عن باريس. فسمحت لنفسها بأن تسأل آناتول هل غادر باريس منذ مدة طويلة، وهل أعجبته باريس. فسرَّ آناتول بأن يجيب الفتاة الفرنسية وأن يحادثها عن وطنها وهو ينظر إليها مبتسمًا. كان قد قال لنفسه حين رأى بوريين الجميلة إنه حتى هنا، في ليسييه جوري، لن يضجر. وحين نظر إليها بعين فاحصة، قال يحدّث نفسه: «إنها جميلة، جميلة فِعلًا، هذه الوصيفة. آمل أن تصطحبها معها إذا تزوجتني. فتاة لطيفة».

كان الأمير الشيخ يرتدي ثيابه في حجرته غير متعجّل، مقطبًا حاجبيه، مفكرًا في ما يجب عليه أن يفعله. لقد أثارت هذه الزيارة حنقه وسخطه. «ما حاجتي إلى الأمير فاسيلي وطرحه؟ دعيٌّ متبجِّح، أجوف فارغ، ولا بد أن

الابن من هذه الطينة الشريفة!». كذلك كان يدمدم بينه وبين نفسه. والشيء الذي كان يثير حنقه وسخطه هو أن هذه الزيارة تطرح على فكره مسألة لم يحلّها، وكان يكبتها دائمًا. مسألة كان لا ينفك يكذب على نفسه فيها، هذه المسألة هي: هل يعزم أمره في يوم من الأيام على الانفصال عن الأميرة ماريا بتزويجها. كان الأمير لا يجرؤ أن يلقي على نفسه هذا السؤال صريحًا، بل كان يتحاشاه مخاتلًا، لعلمه بأنه إن أجاب عنه فلا بد أن يجيب بما يوجبه العدل والإنصاف، والعدل والإنصاف لا يناقضان عواطفه الحميمة فحسب، بل يناقضان كذلك شروط حياته نفسها. لقد كان الأمير نيقولا آندريفتش لا يتصور الحياة من دون الأميرة ماريا، رغم ما كان يبديه لها من فتور يصطنعه اصطناعًا، ورغم ما كان يظهره من أنه لا يحرص عليها هذا الحرص كله. كان يقول لنفسه: «علام تتزوج؟ لا شك أنها بالزواج ستشقى. هذه ليزا قد تزوجت أندريه (ويبدو أنه يصعب في هذا الزمان أن يوجد زوج خير من هذا الزوج)، فهل هي راضية بنصيبها، سعيدة بحظها؟ ومن ذا الذي يتزوج ماريا بدافع الحب، انها دميمة وخرقاء. وإذا أقدم رجل على الزواج بها، فإنما هو يفعل ذلك لانتفاع بما لها من علاقات، وبما تملك من ثراء. هل يستحيل على فتاة أن تحيا عازبة؟ ألا إن العزوبة أدعى إلى السعادة!». كانت هذه المعاني تجول في ذهن الأمير نيقولا آندريفتش وهو يرتدي ثيابه. ولكن السؤال الذي كان يؤجله دائمًا يطلب جوابًا في الحال. واضح أن الأمير فاسيلي قد اصطحب ابنه ليخطب ماريا، ولا بد أنه سيطلب جوابًا في هذا اليوم أو في الغد. إن الاسم والرتبة مناسبان. «لا اعتراض لي من هذه الجهة. ولكن يجب أن يكون الشاب جديرًا بها كفءًا لها. وهذا ما سنراه». كذلك قال الأمير الشيخ لنفسه.

ودخل الصالون بخطى رشيقة خفيفة على عادته، فشمل الجميع بنظرة سريعة. لاحظ تغيّر زينة الأميرة الصغيرة، ولاحظ شريط مادوموازيل بوريين، ولاحظ تسريحة شعر الأميرة ماريا وهي تسريحة بشعة، ولاحظ الابتسامات التي كان يتبادلها آناتول ومادوموازيل بوريين، ولاحظ عزلة أميرته في وسط هذا الحديث الذي يجري بين الحضور. قال لنفسه وهو

يلقي على ابنته نظرة غيظ وحنق: «تزينت تزيّن حمقاء. ليس فيها خفر أو حياء. ولكنه لا يحفل بها ولا ينظر إليها!».

ومضى إلى الأمير فاسيلي:

- صباح الخير، صباح الخير، سعيد برؤيتك.

قال الأمير فاسيلي بسرعة وثقة ودون كلفة، كما هي عادته:

- ليس تطويل المسافة سبعة فراسخ بأمر ذي قيمة إذا كان الهدف أن يرى المرء صديقًا عزيزًا. هذا ابني الأصغر. إنني أوصي به، وأحب أن يستحق رعايتك.

فألقى الأمير نيقولا آندريفتش على آناتول نظرة متفرسة، وقال:

- شاب شجاع! شاب شجاع!

وأضاف وهو يمد إليه خدَّه:

- تعال قبِّلني!

قبَّل آناتول الشيخ، ونظر إليه مستغربًا بعض الاستغراب، هادئًا كل الهدوء، متسائلًا هل تراه يعاني بعد قليل من شذوذ هذا الرجل التي حدثه عنها أبوه.

جلس الأمير نيقولا آندريفتش في مكانه المعتاد على ركن من الديوان، وجذب إليه مقعدًا للأمير فاسيلي مومئًا له أن يجلس عليه، وطفق يسأله عن الحوادث السياسية وآخر الأنباء. فكان يبدو عليه أنه يصغي إليه، ولكنه كان في الواقع لا يكف عن اختلاس النظر إلى الأميرة ماريا.

قال مرددًا آخر كلمات الأمير فاسيلي:

- إذن يكتبون منذ الآن عن بوتسدام.

ثم نهض فجأة، ومضى إلى ابنته، فقال لها:

- أمن أجل الزوار تزينت هذا التزين؟ أنت جميلة، جميلة جِدًّا. ذلك أمر لا شك فيه ولا اعتراض عليه. وإذا جاء زوار سرّحت شعرك تسريحة جديدة. فهأنا ذا أقول لكِ على مرأى ومسمع منهم جميعًا إنني أحظر عليك في المستقبل أن تغيّري زينتك من دون استئذاني.

فتدخلت الأميرة الصغيرة تقول:

- هذه غلطتي يا أبي!

فردَّ الأمير نيقولا على كنته وهو يقرع الأرض بكعبيه غضبًا:

- أنت حرّة في ما تفعلين بنفسك. أما هي فليست في حاجة إلى أن تزيد دمامتها. هي دميمة دمامة كافية بغير هذا الذي فعلته بنفسها.

وعاد يجلس من دون أن يلقي بالًا بعد ذلك إلى ابنته التي أبكاها.

قال الأمير فاسيلي:

- بالعكس: هذه التسريحة تناسب الأميرة جِدًّا.

فقال الأمير نيقولا متجهًا بالكلام إلى آناتول:

- هيه يا بني، أيها الأمير الصغير! ما اسمه؟ تعال إلى هنا؛ فلنتعارف.

قال الأمير آناتول لنفسه: «بدأت الملهاة»، وجلس بقرب الأمير الشيخ وهو يبتسم.

- قيل لي يا عزيزي إنك نشأت في الخارج فلست إذن مثلنا، أنا وأبيك، اللذين تولّى تعليمنا القراءة قندلفت. قل لي يا عزيزي: أنت تخدم الآن في الحرس فارسًا؟

كذلك قال الشيخ يسأل آناتول وهو يحدِّق إليه من قرب. فأجاب آناتول يقول وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم ضحكه:

- بل انتقلت إلى الجيش.

- ها... حسن جِدًّا. فأنت تريد إذن أن تخدم القيصر والوطن؟ ونحن الآن في حرب. وخليق بفتى شجاع مثلك أن يقوم بواجبه. إذن أنت ذاهب إلى الجبهة؟

- لا يا أمير. إن فوجنا يحارب. أما أنا فإنني ملحق بـ... بماذا أنا ملحق يا أبي؟

كذلك سأل آناتول أباه وهو يضحك.

فقال الأمير نيقولا وهو ينفجر مقهقهًا:

- هذا اسمه جندي! بماذا أنا ملحق؟ قه قه قه!

وأضاف يقول لآناتول:

- حسن. اذهب.

فمضى أناتول ينضم إلى السيدات مبتسمًا.

سأل الأمير الشيخ الأمير فاسيلي:

- نشَّأتهم في الخارج يا أمير فاسيلي، هه؟

- فعلت ما استطعت، ولا بد أن أقول لك إن التربية هناك أعلى مستوى من التربية في بلادنا.

- نعم، تغيّر اليوم كل شيء. أصبح كل شيء خاضعًا للموضة الجديدة. شاب شجاع. لا شك في ذلك. شاب باسل! لنذهب الآن إلى غرفتي.

قال الأمير نيقولا آندريفتش ذلك، وأمسك ذراع الأمير فاسيلي، وقاده إلى مكتبه.

فما إن خلا الأمير فاسيلي إلى الأمير نيقولا آندريفتش حتى أطلعه على رغبته وآماله.

فقال الأمير بحدة:

- أتراك تظن أنني احتجزها؟ أو أنني لا أطيق الانفصال عنها؟ تلك أخيلة يا عزيزي!... خذوها منذ الغد، فليس لي على ذلك اعتراض. ولكنني أريد أن أزيد معرفتي بصهري. إنك تعلم مبادئي، يجب أن يكون كل شيء واضحًا أشد الوضوح، صريحًا كل الصراحة! سألقي عليها السؤال غدًا أمامك. فإذا هي قبلت، فليبق هو هنا قليلًا. ليبق هنا، فنرى ما يكون من الأمر.

وشخر الأمير. ثم أضاف يقول صارخًا بذلك الصوت الحاد الذي ودَّع به ابنه:

- فليتزوجها، فليتزوجها. ليس لي اعتراض.

فقال الأمير فاسيلي بلهجة طلقة يصطنعها الرجال الماكرون حين يرون أنه لا جدوى من المكر في مخاطبة رجل ثاقب البصيرة:

- سأكلمك بصراحة. إنك تنفذ ببصيرتك إلى أعماق الرجال. ليس آناتول بالعبقري. ولكنه شاب طيّب القلب، شريف النفس، وهو إلى ذلك ابن ممتاز، وقريبٌ بارّ.

- حسن. حسن. سوف نرى.

كما يحدث للنساء اللواتي طالت عزلتهن، وطال حرمانهن من صحبة

الرجال، شعرت نساء منزل الأمير نيقولا آندريفتش الثلاث، منذ وصول آناتول، أن حياتهن حتى ذلك الحين لم تكن حياة. وتضاعفت لديهن القدرة على التفكير، وعلى الإحساس، وعلى الملاحظة فورًا، فكأن حياتهن قد انقضت حتى ذلك الحين في ظلمات دامسة، فإذا هي الآن يغمرها الضوء وتزخر بالمعنى.

أصبحت الأميرة ماريا لا تفكر البتة في وجهها وفي تسريحتها، فقد نسيتهما، وأصبح الوجه الجميل الطلق، وجه الرجل الذي قد يصبح زوجها، يحتكر انتباهها ويصرفها عن كل ما عداه. بدا لها الشاب طيّبًا، شجاعًا، حازمًا، كريمًا، يفيض رجولة وفحولة. أصبحت مقتنعة بهذا. فكان ينشأ في خيالها ألف حلم عن الحياة الزوجية بغير انقطاع، وهي ما تنفك تطرد هذه الأحلام وتحاول أن تخفيها.

وكانت تتساءل: «ولكن ألست أسرف في الفتور معه؟ إنني أحاول أن أكظم ما بقلبي وأن أسيطر على نفسي، لأنني في أعماق أعماقي أحس منذ الآن بأنني قريبة منه قربًا شديدًا. ولكنه لا يعرف ما يدور في خاطري عنه، ولا يعرف ما أرى فيه من رأي، فقد يتخيل أنه لا يحظى بإعجابي».

وتحاول الأميرة ماريا أن تلاطف الضيف فلا تفلح.

ويقول آناتول لنفسه: «مسكينة هذه الفتاة. إنها دميمة دمامة شيطانية!».

وقد سحرت مادوموازيل بوريين هي أيضًا بوصول آناتول، ولكن أفكارًا أخرى كانت تتحرك في رأسها. إن هذه الفتاة الجميلة التي ليس لها مركز محدد في العالم، وليس لها أهل ولا أصدقاء حتى ولا وطن، كانت لا تفكر طبعًا في أن تقف حياتها كلها على خدمة الأمير نيقولا آندريفتش، والقراءة له، وعلى صداقتها مع الأميرة ماريا. إن مادوموازيل بوريين تنتظر منذ مدة طويلة الأمير الروسي الذي قد يدرك فجأة تفوّقها على أميرات روسيّات دميمات لا يحسنَّ أناقة اللباس ولا كياسة التصرف، فيتوله بحبها ويختطفها. وها هو ذا الأمير الروسي يجيء أخيرًا. كانت مادوموازيل بوريين تحب أن تروي لنفسها قصة روتها لها عمتها، وأكملتها هي من عندها. وهي قصة فتاة أغواها رجل فأخذت أمها المسكينة تلومها على أنها استسلمت لرجل

من دون زواج. وكثيرًا ما كانت مادوموازيل بوريين تذرف دموعًا غزيرة وهي تروي هذه القصة في خيالها «له»، أي لمن سوف يغويها. وها «هو» ذا الآن. إنه أمير روسي أصيل سوف يختطفها، ثم تأتي أمها المسكينة، فيتزوجها. هكذا كانت تؤلف مادوموازيل بوريين قصتها في خيالها حين كانت مسترسلة في الحديث مع آناتول عن باريس. لم يكن يقودها حساب (إنها لم تفكر لحظة في ما كان يجب عليها أن تعمله)، ولكن هذا كله كان مهيأً في خيالها منذ مدة طويلة، فليس عليه الآن إلّا أن يتجمع حول آناتول الذي تأمل أن تعجبه، وتعمل ما في وسعها لكي تظفر بإعجابه.

وكفرس من أفراس المعارك يرتعش حين يسمع صوت البوق، كانت ليزا. فقد نسيت حالتها الصحية، وراحت تتهيأ لركض الغنج، على غير شعور منها، ومن دون أي هدف يخامر نفسها، وإنما هي مدفوعة إلى ذلك بخفة بريئة ساذجة فرحة.

ورغم أن من عادة آناتول أن يصطنع في مجتمع الناس وضع رجل تكاثرت عليه مطاردانهن، فقد أحس ببهجة كبيرة وغرور عظيم حين رأى ما أحدثه في هذه النسوة الثلاث من أثر. ثم إنه عدا ذلك أخذ يشعر نحو بوريين الجميلة المستفزة بشهوة حيوانية استبدت به بسرعة، وأخذت تدفعه إلى أعمال فيها كثير من الجسارة والعنف والمغامرة.

انتقل الجميع بعد احتساء الشاي إلى الصالون الصغير، وطُلب إلى الأميرة ماريا أن تعزف على البيانو. وقد توكأ آناتول على كوعيه أمامها بقرب مادوموازيل بوريين، وشخص بعينيه الضاحكتين الفرحتين إلى الأميرة ماريا وبدا أنه ثبّتهما عليها. فكانت الأميرة ماريا تحس نظرته إليها بانفعال هو مزيج من قلق وفرح. ونقلتها سوناتتها المفضَّلة إلى عالم سرّي شعري كانت تلك النظرة تزيده شعرًا. ولكن الحقيقة أن نظرة آناتول، رغم أنها ثابتة عليها، لم تكن موجهة إليها بل إلى حركات تلك القدم الصغيرة، قدم مادوموازيل بوريين التي كانت قدم آناتول تلامسها في ذلك الأوان تحت البيانو. وكانت مادوموازيل بوريين تنظر هي أيضًا إلى الأميرة ماريا، وكانت عيناها الجميلتان تعبران كذلك عن فرح قلق وأمل مشرق لم تعهدهما

الأميرة ماريا فيهما من قبل يومًا. فكانت الأميرة ماريا تقول لنفسها: «ما أعظم ما تحبني! ما أسعدني الآن، وما أكبر ما يمكن أن تكون سعادتي مع مثل هذه الصديقة ومثل هذا الزوج! أيكون زوجي؟ أهذا ممكن»، كذلك تساءلت الأميرة ماريا وهي لا تجرؤ أن ترفع عينيها إلى وجهه، وما تزال تحس بنظرته موجّهة إليها ثابتة عليها.

وحين افترقوا في المساء بعد العشاء قبَّل آناتول يد الأميرة ماريا فاقترب وجهه من عينيها الحسيرتين، فنظرت إلى الوجه الجميل مدهوشة هي نفسها من جَرَّاتها. ثم قبَّل آناتول يد مادوموازيل بوريين (ذلك أمر غير لائق، ولكن كان كل ما يفعله آناتول يتم ببساطة وثقة)، فاحمرت مادوموازيل بوربين احمرارًا شديدًا، وألقت على الأميرة نظرة مرتاعة.

قالت الأميرة ماريا لنفسها: «ما أرهف إحساسها! هل يمكن أن تتخيل آميلي (وذلك هو اسم مادوموازيل بوريين) أن أغار منها، وأن لا أقدّر عاطفتها نحوي واخلاصها لي حق قدرهما؟». وتقدّمت من مادوموازيل بوريين وقبلتها تقبيلًا شديدا. واتجه آناتول إلى الأميرة الصغيرة، ليزا. فصدَّته قائلة له:

- حين يكتب لي أبوك أن سلوكك تحسّن، أعطيك يدي لتقبلها. أما قبل ذلك فلا.

ورفعت أصبعها تهدده، ثم خرجت تتألّق ابتسامًا.

الفصل الخامس

افترق الجمع كله، ولبثوا زمنا طويلًا لا يعرفون إلى النوم سبيلًا في تلك الليلة. إلّا آناتول، فقد نام فورًا.

وكانت الأميرة ماريا تتساءل: «أيمكن أن يصبح هذا زوجي، هذا الأجنبي بعينه، هذا الرجل الجميل. الطيّب. الطيّب خاصة؟». واعتراها رعب لم تكد تشعر بمثله في حياتها قط. أصبحت لا تجرؤ أن تلفت رأسها. كان يخيل إليها أن شخصًا واقفًا هناك، وراء الحاجز، في الركن المظلم، وأن هذا الشخص هو في آن واحد، الشيطان وذلك الرجل ذو الجبهة البيضاء والحاجبين الأسودين، والشفتين القرمزيتين.

فقرعت الجرس لخادمتها، وطلبت منها أن تنام بقربها.

وفي ذلك المساء تنزهت مادوموازيل بوريين مدة طويلة في حديقة الشتاء، منتظرة في غير طائل أن يوافيها أحد. وكانت تارة تبتسم للرجل الذي تنتظر أن يوافيها، وتارة تذرف الدموع غزيرة من شدة الانفعال الذي تثيره في نفسها الكلمات التي ينسبها خيالها إلى أمها المسكينة التي تلومها على سقطتها. وكانت الأميرة الصغيرة ليزا تقرِّع خادمتها لأنها وجدت أن سريرها لم يرتَّب ترتيبًا حسنًا. فالأميرة الصغيرة لا تستطيع أن ترقد لا على جنبها ولا على بطنها. كان بطنها يضايقها. كان يضايقها أكثر مما ضايقها في أي وقت مضى. كان يضايقها في هذا اليوم بذاته، لأن وجود آناتول قد ردَّها إلى عهد آخر، عهد لم تكن فيه على هذه الحال، عهد كان كل شيء فيه سهلًا فرحًا. كانت جالسة على مقعد بقميص النوم وطاقية الليل، تنظر إلى كاتيا التي اختلطت ضفائرها، وأثقل النعاس عينيها، وأخذت تخبط وتقلب سريرها

الثقيل المحشو الريش، متذمّرة متبرّمة، لأنها تفعل ذلك للمرة الثالثة.

قالت الأميرة الصغيرة مردِّدة:

- سبق أن قلت لك إنه مليء بالحدبات والحفر. لشد ما يسرني أن استطيع النوم، فليس الذنب ذنبي...

وأخذ صوتها يختلج، كصوت طفل يهم أن يبكي.

والأمير الشيخ لم ينم أيضًا. كان تيخون، وهو نائم، يسمعه سائرًا بحنق، ناخرًا بغضب وسخط. كان يبدو للأمير الشيخ أنه أهين في شخص ابنته. وكان يعدّ تلك الإهانة أقسى الإهانات، لأنها لا تتناوله هو، بل تتناول إنسانًا آخر هو ابنته التي يحبها أكثر مما يحب نفسه. كان قد قال لنفسه إنه سيفكر في هذه القضية كلها، وإنه سيجد الحل العادل، وانه سيهتدي إلى ما يجب عليه أن يفعله. ولكنه لا يزيد الآن على أن يزيد نار غيظه وحنقه، قائلًا لنفسه: «يظهر أول قادم، فإذا هي تنسى أباها، وتنسى كل شيء، وتسرع فترفع شعرها. وإذا هي ترتعش ارتعاشًا وتختلج اختلاجًا، فينكرها المرء ولا يعرفها! إنها سعيدة بترك أبيها! وكانت تعلم أنني سألاحظ هذا كله. فرررر! فرررر! ألست أرى أن هذا الأحمق لا ينظر إلّا إلى بوريين (يجب طرد بوريين هذه!). كيف لا تلاحظ ماريا مكرهما وتآمرهما؟ أيمكن أن يبلغ المرء من فقدان الكرامة حدّ العماوة، فلا يرى هذا! اذا لم يكن لها هي كرامة، فلتراع كرامتي أنا على الأقل. يجب أن أريها أن هذا الأحمق لا يفكر فيها ولا تخطر بباله، وأنه لا يطمع إلّا في بوريين. إنها لا كرامة لها، ولكن عليَّ أنا أن أفتح عينيها...».

واطمأن بال الأمير الشيخ وهدأت نفسه حين تصور أنه متى قال لابنته إنها مخدوعة وأن آناتول ينوي أن يغازل مادوموازيل بوريين فسوف يجرح كبرياء ابنته، فيربح القضية ويحقق هدفه، وهو أن لا ينفصل عن ابنته.

عندئذ نادى تيخون، وأخذ يخلع ثيابه.

وفيما كان تيخون يلبس جسمه الجاف العجوز المغطى صدره بزغب أشيب، كان يقول لنفسه: «أي شيطان جاء بهما؟ هل كان لا بد أن يجيئا؟ أنا ما دعوتهما. لقد جاءا يقلبان حياتي رأسا على عقب. ولم يبق من حياتي إلّا القليل»...

وصرخ يقول وما يزال رأسه مشتبكًا بالقميص:

- فليأخذهم الشيطان جميعًا!

كان تيخون يعرف عادة الأمير في التعبير عن خواطر فكره بصوت عال. لذلك واجه النظرة المستفهمة الغاضبة التي ظهرت من تحت القميص، واجهها هادئًا لا يبدو على وجهه شيء من قلق.

سأله الأمير قائلًا:

- هل ناموا!

كان تيخون يعرف بغريزته مجرى أفكار مولاه، شأنه في ذلك شأن كل خادم حاذق. فأدرك أن مولاه إنما يسأله عن الأمير فاسيلي وابنه.

- رقدوا وأطفأوا النور يا صاحب السعادة.

- كنت في حاجة إليهم...

كذلك قال الأمير ثم أسرع يقول مستدركًا وهو يدسّ قدميه في خفيه، ويدس ذراعيه في كمَّيْ ثوب المنزل.

- ولكن لا داعي، لا داعي...

ومضى إلى الديوان فاضطجع عليه.

رغم أن آناتول ومادوموازيل بوريين لم يتبادلا كلامًا تفاهما تفاهمًا تامًا على الجزء الأول من الرواية التي كان يتصورها خيالها، أي على الجزء الذي يسبق ظهورِ الأم المسكينة. كانا قد أدركا أن هناك أشياء كثيرة يجب أن يقولاها في السر. لذلك ما إن طلع صباح الغد حتى بحثا عن فرصة تتيح لهما خلوة. وفي اللحظة التي كانت الأميرة ماريا قد اعتادت أن تذهب فيها إلى أبيها، كان آناتول ومادوموازيل بوريين في حديقة الشتاء.

كانت الأميرة ماريا في ذلك اليوم تتقدّم من باب غرفة أبيها مرتعشة ارتعاشًا أشد من ارتعاشها المألوف حين تقبل على أبيها في الصباح. كان يبدو لها أن جميع الناس يعلمون أن مصيرها سيتقرر هذا اليوم، بل كان يبدو لها أيضًا أنهم يعرفون رأيها في الأمر. قرأت هذا في وجه تيخون، وقرأته في وجه خادم غرفة الأمير فاسيلي الذي لقيته في الممر يحمل ماء ساخنًا، فحيَّاها بانحناء شديد.

استقبل الأمير الشيخ ابنته في ذلك الصباح بلطف وبشاشة لا يبشّران بخير. إن ماريا تعرف هذا بالتجربة. لقد كان في وجهه ذلك التعبير المركَّز نفسه الذي يكتسبه أثناء إعطائها دروسًا في الرياضيات، فإذا أحنقه أن رآها تستعصي على فهم شروحه، شدَّ قبضتي يديه، ونهض من مكانه، وابتعد عنها، وأخذ يردد شروحه نفسها عدة مرات بصوت مختنق غيظًا.

وها هو يسارع إلى الدخول في الموضوع على الفور، مخاطبًا ابنته بصيغة الجمع. قال وهو يبتسم ابتسامة يُكرِه نفسه عليها إكراهًا:

- عرضوا عليَّ بشأنك أمرًا. وما أظن إلّا أنكِ أدركت أن الأمير فاسيلي قد جاء إلى هنا مصطحبًا ربيبه حبًا بجمال عينيَّ (لا يعلم إلّا الله لماذا خلع الأمير نيقولا آندريفتش على آناتول اسم الربيب). عرضوا عليَّ بشأنك أمس أمرًا. واني أضع هذا الأمر بين يديك، وأدع اتخاذ القرار فيه لك، عملًا بمبادئي التي تعرفينها.

تمتمت الأميرة ماريا تقول وهي تصفَرّ ثم تحمَرّ ثم تصفَرّ:

- ما الذي يجب أن أفهمه من كلامك يا أبي؟

فصاح الأمير يقول غاضبًا:

- ما الذي يجب أن تفهميه؟ إن الأمير قد راق له أن يكون حماك، فخطبك مني زوجًا لربيبه. هذا ما يجب أن تفهميه. وأنا أضع الأمر بين يديك، وأسألك رأيك، فأنت التي يجب عليك أن تجيبي.

قالت الأميرة مدمدمة:

- لا أعرف ما تراه أنت من رأي يا أبي.

- أنا؟ أنا؟ ما شأني أنا في هذا الأمر؟ لا تقحميني فيه! لست أنا الذي أتزوج. ما رأيك «أنت»؟ هذا ما أريد أن أعرفه.

أدركت الأميرة ماريا أن أباها غير راض عن زواجها، ولكنها أدركت في الوقت نفسه أن هذه الدقيقة هي التي ستقرر مصيرها. فخفضت عينيها تحاشيًا للنظرة التي أحست أنها تجعلها عاجزة عن التفكير، وتحملها في العادة على الإذعان والخضوع، ثم قالت:

- أنا لا أرغب إلّا في شيء واحد هو أن أحقق إرادتك، ولكن إذا كان عليَّ أن أقول ما هو شعوري...

ولم تستطع أن تكمل جملتها، لأن الأمير قاطعها صارخًا:

- عظيم! سيأخذك أنت ومهرك، وسيصطحب مادوموازيل بوريين بهذه المناسبة، فتكون هي امرأته، أما أنت...

وأمسك الأمير عن إكمال كلامه، لقد لاحظ الأثر الذي أحدثته هذه الاقوال في نفس ابنته. لاحظ أنها خفضت عينيها تهمُّ أن تبكي. فأضاف:

- انسي هذا الكلام، انسيه. إنني أمزح. وتذكري يا أميرة، تذكري أن مبدئي هو أن للفتاة حق الاختيار كاملًا غير منقوص. فأنا أدعك إذن حرة. لكن لا تنسي أنه على قرارك هذا تتوقف سعادة حياتك كلها. أما أنا فلا تحسبي حسابي.

- ولكنني لا أعلم... يا أبي.

- لا تحسبي حسابي أنا! أما هو فإنه يؤمر بأن يتزوجك فيخضع، ولو أُمر بأن يتزوج أية فتاة أخرى لخضع أيضًا. وأنت حرة تختارين ما تشائين. اذهبي إلى غرفتك، وفكرَّي مليًا، ثم تعالي لتقولي، بحضوره، نعم أو لا. أنا أعلم أنك ستصلّين. لا بأس. صلِّي. ولكن التفكير في هذه الحالة أجدى من الصلاة، اذهبي.

وحين كانت الأميرة قد خرجت من غرفته مترنّحة وكأنها في ضباب، كان هو ما يزال يصيح قائلًا:

- نعم أو لا؛ نعم أو لا.

لقد تقرر مصيرها، وتقرر على النحو الذي ترضى وتحب. ولكن ما قاله أبوها عن مادوموازيل بوريين شيء رهيب. إن هذه التلميحة فظيعة. صحيح أن تصور أبيها خطأ. ولكن هذا لا ينفي أن الأمر رهيب، فلا تستطيع أن لا تفكر فيه.

وبينما هي تجتاز حديقة الشتاء قدمًا لا تلوي على شيء، ولا ترى شيئًا، ولا تسمع شيئًا، إذ أيقظها من ذهولها على حين فجأة همس مألوف عندها هو همس مادوموازيل بوريين. فرفعت بصرها، فإذا، هي ترى آناتول محتضنًا

الفرنسية بذراعيه على بعد خطوتين. والتفت آناتول إلى الأميرة ماريا وقد اكتسى وجهه الجميل تعبيرًا مريعًا، ولكنه في الوهلة الأولى لم يرخ جسم مادوموازيل بوريين التي لم تكن قد رأت الأميرة ماريا.

ونظرت إليهما الأميرة ماريا صامتة. كانت لا تستطيع أن تفهم ما هذا. وأخيرًا أطلقت مادوموازيل بوريين صرخة حادة، وولّت هاربة. وانحنى آناتول أمام الأميرة ماريا وهو يبتسم ابتسامة مرحة كأنه يدعوها إلى أن تضحك من هذا الحادث الغريب، ثم رفع منكبيه واجتاز الباب المؤدي إلى الجناح الذي يقيم به من القصر.

وبعد ساعة جاء تيخون يستدعي الأميرة ماريا، وقال لها إن الأمير أباها ينتظرها، وأضاف إلى ذلك أن الأمير فاسيلي معه.

حين دخل تيخون على الأميرة كانت جالسة على الديوان تحتضن بذراعيها مادوموازيل بوريين التي كانت تبكي. وكانت الأميرة ماريا تلاعب شعر مادوموازيل بوريين في رفق ولطف. وكانت عيناها الجميلتان اللتان لم ينقص ما تتصفان به دائمًا من هدوء وإشراق تنظران إلى وجه مادوموازيل بوريين الجميل نظرة تفيض حنانًا وعاطفة.

قالت مادوموازيل بوريين:

- لا يا أميرة، لقد زلت من قلبك إلى الأبد.

فأجابتها الأميرة ماريا قائلة:

- لماذا؟ إنني أحبك أكثر مما أحببتك في أي وقت مضى، وسأحاول أن افعل كل ما أستطيع أن افعله في سبيل سعادتك.

- ولكنك تحتقرينني. إنك، وأنت الطاهرة هذا الطهر كله، لن تتفهمي أبدًا ضلال الهوى هذا. آه... أمي المسكينة وحدها...

أجابت الأميرة وهي تبتسم ابتسامة حزينة:

- بل أفهم كل شيء. هدّئي نفسك يا صديقتي. أنا ذاهبة إلى أبي.

وخرجت.

حين دخلت الأميرة ماريا غرفة أبيها كان الأمير فاسيلي مصالبًا ساقيه عاليتين، ممسكًا علبة تبغ بيده، وكانت هيئته تدل على أنه منفعل انفعالًا

شديدًا، وأنه في الوقت نفسه مستهزىء من هذا الانفعال، وكانت على شفتيه ابتسامة تصطنع رقة العاطفة. فما إن دخلت الأميرة ماريا حتى أسرع ينشق نشقة من تبغ في أنفه، وقال وهو يقوم لها ويمسك يديها:

- آ... عزيزتي الطيّبة! عزيزتي الطيّبة!

وتنهّد ثم أضاف يقول:

- مصير ابني بين يديكِ. فاعزمي أمرك يا عزيزتي ماري، يا عزيزتي ماري الرقيقة التي أحببتها دائمًا كما يحب أب ابنته.

وتنحّى. وبدت في عينيه دمعة حَقًّا.

فصاح الأمير الشيخ فجأة يقول:

- إن الأمير يخطبك لربيبه... لابنه. فهل تريدين أن تكوني زوجة الأمير آناتول كوراجين! نعم أم لا؟ أجيبي إما بنعم وإما بلا. وأحتفظ لنفسي بإبداء رأيي بعد ذلك.

ثم أضاف مخاطبًا الأمير فاسيلي، مجيبًا عما ظهر في وجهه من تعبير عن الضراعة:

- نعم، رأيي، رأيي فقط.

ثم عاد يسأل ابنته:

- نعم أم لا؟

- رغبتي يا أبي هي أن لا أتركك أبدًا، هي أن لا أفصل حياتي عن حياتك.

وأضافت تعلن بلهجة جازمة وهي ترمق بعينيها الجميلتين أباها والأمير فاسيلي:

- لا أريد أن أتزوج.

فصاح الأمير نيقولا آندريفتش وهو يقطب حاجبيه:

- ترهات! حماقات! سفاسف! سفاسف! سفاسف!

وتناول يد الفتاة، وجذبها إليه، لكنه بدلًا من أن يقبّلها، قرّب جبينه من جبينها ولم يزد على أن لامسه ملامسة، وشدَّ على يدها شدًا بلغ من القوة أن جعدة ظهرت في وجهه، وصرخة انطلقت من صدرها.

نهض الأمير فاسيلي، وقال:

- أحب أن أقول لك يا عزيزتي إن هذه لحظة لن أنساها أبدًا. ولكن ألا تهبين لنا، يا عزيزتي الطيّبة، قليلًا من الأمل في أن يلين قلبك الذي يتصف بأكبر النبل وأعظم كرم. قولي ربما فالمستقبل واسع. قولي ربما.

- لقد قلت كل ما أشعر به يا أمير. أشكر لك ما تغمرني به من شرف خطبتي لابنك. ولكنني لن أكون لابنك زوجة في يوم من الأيام أبدًا.

فأخذ الأمير الشيخ يردِّد مودعًا الأمير فاسيلي مقبِّلًا إياه:

- طيّب! انتهى الأمر يا عزيزي. لقد سعدت برؤيتك، سعدت برؤيتك.

وأضاف يخاطب ابنته:

- اذهبي إلى غرفتك يا أميرة. اذهبي.

وعاد يقول للأمير فاسيلي:

- سعدت برؤيتك، سعدت برؤيتك.

وكانت الأميرة ماريا تقول لنفسها: «رسالتي رسالة أخرى. رسالتي أن أكون سعيدة سعادة أخرى هي سعادة المحبة والتضحية. وسأصنع سعادة آميليا المسكينة مهما يكلفني ذلك. إنها تحبّه حبًّا مشبوبًا جارفًا. وهي نادمة ندمًا شديدًا عنيفًا. سأفعل كل شيء لأتمَّ، زواجها به. إذا لم يكن غنيًا زوَّدتها بمهر أطلبه من بابا، وأطلبه من أندريه. لسوف أسعد أعظم السعادة إذا هي أصبحت امرأته. إنها شقية شقاء كبيرًا. إنها أجنبية، ليس لها أحد، ليس لها سند! رباه! ما أشد تولّهها بحبه ما دامت قد ذهلت عن نفسها هذا الذهول، فانجرفت هذا الانجَرَّاف! لو كنت في مكانها، لكان جائزًا أن أفعل ما فعلت!»...

الفصل السادس

انقطعت أنباء نيقولا عن أسرة روستوف مدة طويلة. وفي منتصف الشتاء تسلّم الكونت رسالة عرف من عنوانها أن الخط خط ابنه. فركض إلى غرفة مكتبه على رؤوس الأصابع، وأغلق بابها، وأخذ يقرأ الرسالة. لقد أهاجه تلقّي هذه الرسالة كثيرًا، وأحب أن لا يلاحظ أحد أنه تلقاها، فلذلك أسرع يحبس نفسه لينفرد بقراءتها متعجّلًا. فلما علمت آنا ميخائيلوفنا بالنبأ (وهي تعلم بكل ما يحدث في المنزل) دخلت إلى الكونت، فرأت الرسالة في يده، ورأت الكونت يبكي ناشجًا ويضحك مقهقهًا في آن واحد.

إن آنا ميخائيلوفنا ما تزال تعيش في منزل آل روستوف رغم تحسّن حالها.

قالت بلهجة تساؤل حزين، متأهبة لأن تشارك في كل شيء:

- صديقي الطيّب؟

- صغيرنا نيقولا... رسالة... جريح... كان جريحًا... عزيزتي... جريح... بنيّ الغالي... الكونتيسة... رُقّي ضابطًا... الحمد لله... كيف أنبئ الكونتيسة بهذا؟

جلست آنا ميخائيلوفنا بقربه، ومسحت بمنديلها دموع عينيه ومسحت الرسالة التي تقاطرت عليها الدموع، وجففت دموعها هي، وقرأت الرسالة، وشدت عزيمة الأمير، وقالت إنها ستهيء الكونتيسة لتلقي النبأ قبل الغداء والشاي، ثم تنقله إليها بعد الفراغ من احتساء الشاي، بمعونة الله.

بقيت آنا ميخائيلوفنا طوال مدة الغداء تتكلم على الشائعات التي تروج بين الناس عن العمليات العسكرية، وتتكلم على نيقولا. وسألت مرتين متى

وصلت رسالته الأخيرة، رغم أنها كانت تعلم متى وصلت تلك الرسالة، وقالت إن من الجائز جِدًّا أن تصل رسالة أخرى منه في هذا اليوم نفسه. فكلما قلقت الكونتيسة من هذه التلميحات ونظرت خائفة مغمومة إلى الكونت تارة، والى آنا ميخائيلوفنا تارة أخرى، أسرعت آنا ميخائيلوفنا فصرفت الحديث إلى أمور تافهة، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت من قلق الكونتيسة شيئًا. فتنقل الحديث إلى الشؤون التافهة من تلقاء نفسها ببراءة تامة وسذاجة كاملة. وكانت ناتاشا، وهي أشد أفراد الأسرة إحساسًا بالتغيّرات الطفيفة في نبرات الصوت ونظرات الأعين وتعبير الوجوه، قد أصاخت بسمعها إلى الحديث منذ بداية الوجبة، فأدركت أن ثمة سرًا بين أبيها وبين آنا ميخائيلوفنا، وأن هذا السر يتعلق بأخيها، وأن آنا ميخائيلوفنا تهيء الجو لإذاعة السر. ولكنها رغم كل ما تتصف به من جَرَّاة (وقد كانت تعرف أن كل ما يتعلق بأخبار نيقولا يهز أمها هزًا قويًا) لم تجسر أن تلقي أي سؤال أثناء الغداء، حتى أنها من شدة قلقها لم تأكل شيئًا، وكانت لا تزيد على أن تتأود على كرسيها دون أن تلقي إلى ملاحظات الخادمة بالًا. حتى إذا انتهى الغداء ركضت في أثر آنا ميخائيلوفنا مسرعة، فلما أدركتها في غرفة التدخين وثبت إلى عنقها، وقالت تسألها:

– عمتي الحبيبة، عزيزتي، قولي، ماذا جرى؟

– لا شيء عزيزتي.

– بلى يا عمتي الحبيبة، بلى يا عمتي الغالية، يا ملاكي. لن أتركك. أنا أعلم أنك تعلمين.

فهزت آنا ميخائيلوفنا رأسها، وقالت:

– أنت يا ابنتي نحلة مرهفة الإحساس!

– رسالة من نيقولا؟

ثم هتفت تضيف وقد قرأت في وجه آنا ميخائيلوفنا ما يأتي مصدقًا لتخمينها:

– هي رسالة حتمًا.

قالت آنا ميخائيلوفنا:

- ولكن كوني حذرة، ناشدتك الله. إنك لتعلمين أن هذا يُحدِث في نفس أمك اضطرابًا شديدًا.

- سأكون حذرة، سأكون حذرة. ولكن احكِ لي. ألا تريدين أن تحكي لي؟ إذا لم تقصّي عليَّ كل شيء، ذهبت إليها فذكرت لها النبأ فورًا.

فأوجزت آنا ميخائيلوفنا. مضمون الرسالة لناتاشا، واشترطت عليها أن لا تذكر لأحد شيئًا مما قالته لها.

فأجابتها ناتاشا وهي ترسم إشارة الصليب:

- أقسم لك بشرفي لن أحدِّث أحَدًا بشيء.

وأسرعت تركض إلى صونيا، وقالت لها بلهجة فيها أبَّهة وفرح:

- نيقولا... جُرح... وصلت رسالة.

فلم تزِدْ صونيا على أن شحب وجهها شحوبًا شديدًا، ورددت:

- نيقولا!

فلما رأت ناتاشا ما أحدثه نبأ جرح أخيها من أثر شديد في نفس صونيا، أحست لأول مرة بكل ما يشتمل عليه هذا الخبر من إثارة للحزن. فارتمت عليها، واحتضنتها وأخذت تبكي. وقالت من خلال دموعها:

- جُرح جرحًا طفيفًا، ولكنه رُقِّي ضابطًا. صحته الآن حسنة. هو الذي كتب يقول ذلك.

قال بيتيا وكان يسير في الغرفة بخطى كبيرة ثابتة:

- واضح أنكنَّ، معشر النساء، بكَّاءات في غير داع إلى البكاء.

أنا من جهتي مغتبط أكبر الاغتباط، مغتبط أكبر الاغتباط حَقًّا بأن أخي تميَّز هذا التميز. أنكن لا تكففن عن البكاء في غير داع إلى البكاء! أنكن لا تفهمن شيئًا.

ابتسمت ناتاشا من خلال الدموع. فسألتها صونيا:

- ألم تقرئي الرسالة؟

- لا ولكنها قالت إن الجرح شُفيَ، وأنه رقي ضابطًا.

قالت صونيا وهي ترسم إشارة الصليب:

- الحمد لله! ولكن لعلها لم تقل الحقيقة. هلمّي بنا إلى ماما.

وكان بيتيا يذرَع أرض الغرفة طولًا وعرضًا، وهو صامت لا يتكلم، فقال:

- لو كنت في مكان نيقولا، لقتلت من الفرنسيين عددًا أكبر، من شدة ما أمقتهم وأكرههم! لو كنت في مكانه لذبحت منهم عددًا كبيرًا. كومة ضخمة.

- اسكت يا بيتيا! يا لك من أحمق!

قال بيتيا:

- لست أنا الغبي، بل الغبيات أولئك اللواتي يبكين لسخافات!

قالت ناتاشا تسأل صونيا على حين فجأة:

- هل تذكرينه؟

- هل أتذكر نيقولا؟

قالت ناتاشا وهي تحرك يدها بإشارة خاصة، محاولة بكل ما تملك من قوة أن تضفي على أقوالها أكبر الجد والرصانة:

- ما هذا الذي قصدته يا صونيا. أقصد هل تتذكرينه تذكرًا واضحًا فتتذكري كل شيء؟ أنا أيضًا أتذكر نيقولا، أتذكره تذكرًا واضحًا. ولكنني لا أتذكر بوريس، البتة...

فسألتها صونيا مدهوشة:

- كيف؟ لا تتذكرين بوريس؟

- لا أعني أنني لا أتذكره. إنني أعرف كيف هو. لكنني لا أتذكره كما أتذكر نيقولا. نيقولا أراه إذا أغمض عيني، أما بوريس فإذا أغمضت عينيَّ لم أره.

وأغمضت عينيها وأردفت تقول:

- إذا أغمضت عيني هكذا، فلا يتراءى لي، لا أره.

قالت صونيا وهي تنظر إلى صديقتها بهيئة فيها جد وحماسة، وكأنها، لاعتقادها بأن صديقتها غير جديرة بأن تسمع ما تقوله، تتجه بكلامها إلى شخص آخر لا مزاح معه:

- آه.. ناتاشا... إنني أحب أخاك، ومهما يحدث لنا، أنا وهو، فلن أكفَّ عن حبه ما حييت.

كانت ناتاشا تنظر إلى صونيا بعينين مدهوشتين، تفيضان استطلاعًا

واستغرابًا، وكانت صامتة لا تقول شيئًا. كانت تحس أن ما تقوله صادق، وأن الحب الذي تتكلم عنه قائم في نفسها. ولكنها لم يسبق لها أن شعرت بشيء من هذا حتى الآن. كانت تسلم بأن هذا كله يمكن أن يوجد، ولكنها لا تفهمه.

- هل ستكتبين إليه:

سرحت صونيا طرفها مفكرة شاردة الذهن. كيف تكتب إلى نيقولا وهل يجب أن تكتب إليه؟ تلك مسألة تعذّبها تعذيبًا. الآن وقد صار ضابطًا، الآن وقد أصبح بطلًا جريحًا، هل يجمل بها أن تذكّره بنفسها، وبالوعد الذي قطعه على نفسه بشأنها؟

قالت تجيب وقد احمرَّ وجهها:

- لا أدري. أظن أنني سأكتب إليه، ما دام يكتب هو نفسه.

- ولن تشعري بخجل من الكتابة إليه؟

فابتسمت صونيا. ثم قالت:

- لا.

- أما أنا فأخجل أن أكتب إلى بوريس.

- لم الخجل؟

- هكذا! لا أدري! يحرجني ويخجلني أن أكتب إليه.

قال بيتيا وقد أخزته الملاحظة الأخيرة التي ساقتها أخته:

- أنا أعلم لماذا يخجلها أن تكتب إليه. يخجلها أن تكتب اليه لأنها كانت مولّهة بحب ذلك السمين الذي يضع على أنفه نظارتين (هكذا كان بيتيا يسمّي سميه بطرس الذي أصبح اسمه الكونت بيزوخوف). وهي الآن مولهة بحب هذا المغنّي (يقصد الإيطالي الذي كان أستاذ لناتاشا يعلمها الغناء). لذلك تخجل.

قالت ناتاشا.

- بيتيا، أنت غبي!

فقال بيتيا بلهجة شيّخ مجرّب، هو الذي يبلغ من العمر تسع سنين:

- لست أغبى منك!

كانت الكونتيسة قد هُيِّئت أثناء الغداء لتلقي النبأ بتلميحات آنا ميخائيلوفنا. فلما مضت إلى غرفتها جلست على مقعد وأخذت تتفرَّس في صورة ابنها الصغيرة التي كانت تزيّن علبة تبغها، وترقرقت الدموع في عينيها. وجاءت آنا ميخائيلوفنا إلى باب غرفة الكونتيسة سائرة على رؤوس الأصابع والرسالة بيدها، ووقفت على الباب.

وقالت للكونت الشيخ الذي تبعها:

- لا تدخل الآن. ادخل بعد قليل.

ودخلت وأغلقت الباب وراءها.

وضع الكونت أذنه على قفل الباب وأخذ يُنصِت.

فلم يسمع في أول الأمر إلّا ضوضاء محادثة لا شأن لها بالموضوع، ثم سمع صوت آنا ميخائيلوفنا وحده يلقي خطابًا طويلًا، ثم سمع صرخة أعقبها صمت. ثم عاد الصوتان يتكلمان كلاهما بنبرات فرحة. وسمع أخيرًا وقع خطوات، وفتحت له آنا ميخائيلوفنا الباب. كان وجهها أشبه بوجه طبيب جَرَّاح فرغ من إجَرَّاء عملية بتر، ثم أدخل الجمهور ليتيح له أن يعجب بفنه.

قالت للكونت وهي تُشير إلى الكونتيسة بحركة فيها أبّهة:

- تمَّ الأمر!

كانت الكونتيسة تمسك بإحدى يديها علبة تبغها التي تزينها صورة ابنها، وتمسك باليد الأخرى الرسالة، وتضع شفتيها تارة على الصورة وتارة على الرسالة.

فلما رأت الكونت مدت إليه كلتا يديها، وأحاطت رأسه الأصلع بذراعيها، ثم نظرت إلى الرسالة والصورة من فوق الرأس الأصلع. وحتى تستطيع أن تحملهما إلى شفتيها من جديد، دفعت عنها الرأس دفعًا خفيفًا. ودخل أهل الدار، فيرا وناتاشا وصونيا وبيتيا، وبدأت قراءة الرسالة. إن الرسالة تصف الحملة والمعركتين اللتين شارك فيهما نيقولا وصفًا موجزًا، وتذكر ترقية نيقولا إلى رتبة ضابط. ثم يقول نيقولا في رسالته إنه يقبّل يدي ماما ويدي بابا، طالبًا منهما أن يباركاه، ويقبل فيرا وناتاشا وبيتيا، ويبعث

بتحياته إلى السيد شلنج، والى السيدة شوس، ويحيّي مربّيته، ثم يطلب أن يقبّلوا عنه عزيزته صونيا التي ما يزال يحبها كما كان يحبها، وما يزال يفكر فيها دائمًا. فلما سمعت صونيا هذا الكلام احمرَّ وجهها حتى صار بلون الأرجوان، وترقرقت الدموع في عينيها، وعجزت عن تحمل النظرات التي انصبَّت عليها، فهرعت إلى الصالون الكبير، وأخذت تدور حول نفسها كأنها ترقص، فلما انتفخ ثوبها من هذا الدوران حتى صار أشبه بمنطاد، جلست على الأرض، مشرقة الابتسام محمرَّة الوجه.

وكانت الكونتيسة تبكي.

قالت فيرا تسألها:

- لماذا تبكين يا ماما! في رأيي إن ما جاء في رسالته يجب أن يفرحنا لا أن يبكينا.

إنها ملاحظة صحيحة كل الصحة. ومع ذلك نظر الكونت والكونتيسة وناتاشا جميعًا إلى فيرا عاتبين لائمين، وقالت الأم تسأل نفسها: «ممن ورثت هذه البنت طبعها؟».

وقُرئت رسالة نيقولا مرات. وكان على الذين يعدّون أنفسهم جديرين بسماح نصها أن يجيئوا إلى الكونتيسة التي أبقتها بين يديها لا تتركها. هكذا جاء المعلّمون والمربيات وميتنكا وأشخاص آخرون من معارف الأسرة، فكانت الكونتيسة تعيد قراءة الرسالة كل مرة متلذذة تلذذًا جديدًا، وفي كل مرة كانت تكتشف في ابنها مزايا جديدة. وكان يبدو لها أمرًا عجيبًا أشد العجب، خارقًا إلى أبعد حد، باعثًا على أكبر العزاء والسلوى، أن يكون ابنها ذاك الذي أحست بجسمه يتحرك في رحمها قبل عشرين عامًا، والذي طالما شاجرت أباه الكونت أنه كان يسرف في تدليله، أن يكون ابنها ذاك الذي تعلم أن ينطق بكلمة «خو.. خة» وكلمة سيـَّ.. دة » قبل أن ينطق بكلمة «بابا»، أن يكون ابنها هذا موجودًا الآن هناك، في بلاد أجنبية، وفي بيئة غريبة عنه، رجلًا وجنديًا يقوم بالمهمة التي تقع على عاتق رجل، يقوم بها وحده دون مساعدة ودون نصيحة. إن كل التجربة الإنسانية الشاملة التي تضرب

جذورها في أعماق التاريخ، والتي تعرف كل إنسان بأن الأطفال يبدأون حياتهم في المهد ثم يكبرون يومًا بعد يوم إلى أن يصبحوا رجالًا، إن هذه التجربة كلها لا وجود لها الآن في ذهن الكونتيسة. لقد نسيت أن ملايين وملايين من الأفراد قد انتقلوا من الطفولة إلى الرجولة، فهي ترفض أن تسلم بأن صبيّها الصغير قد أصبح الآن رجلًا. قبل عشرين عامًا، حين كانت تحمل هذا الكائن الصغير في رحمها، كانت لا تتصور إنه سيرضع ثديها بعد مدة، وأنه سيأخذ يتكلم. والآن أيضًا لا تتصور أن ذلك الكائن الصغير نفسه قد أصبح حَقًّا، كما يتضح من رسالته، رجلًا قويًا شجاعًا، جديرًا بأن يقتدي به جميع الأبناء، في الجنس البشري كله.

وكانت تقول لنفسها وهي تعيد قراءة الأجزاء التي تشتمل على سرد بعض الحوادث في رسالته:

- يا له من أسلوب جميل! ويا له من قلب كبير! عن مآثره لا يقول كلمة واحدة، لا يقول كلمة واحدة. إنه لا يتكلم إلّا عن واحد اسمه دينيسوف. وإني لعلى ثقة مع ذلك بأنه أشجعهم جميعًا. عن الآلام التي قاساها لا يقول كذلك كلمة واحدة. ما أعظم هذا القلب! هذا هو ابني. إنني أعرفه ولشد ما حرص على إرسال تحياته إلى الجميع لم ينس منهم أحَدًا. ما أعظم قلبه! لطالما قلت هذا، حتى حين كان طوله هكذا...

نعم، لطالما قلت هذا. كنت دائما أقوله...

وخلال ثمانية أيام شغل المنزل كله بشيء واحد، هو كتابة مسوّدات رسائل إلى نيقولا، ثم نسخها بخط جميل.

وبعناية الكونت وإشراف الكونتيسة هُيّء له كل ما يحتاج إليه تجهيز ضابط جديد من متاع ومال. وكانت آنا ميخائيلوفنا، المرأة العملية، قد استطاعت أن تضمن لنفسها ولابنها سندًا في الجيش حتى من أجل تبادل الرسائل بينها وبينه، فكان في إمكانها أن تبعث رسائلها بفضل الدوق الأكبر قسطنطين بافلوفتش الذي كان قائد الحرس. وكان آل روستوف يفترضون أن هذه الجملة: «الحرس الروسي في الخارج» هي عنوان كاف كل الكفاية،

وأن الرسالة متى وصلت إلى الدوق الأكبر قائد الحرس، فليس هناك سبب يمنع وصولها إلى فوج بافلوجَرَّاد الذي لا بد أن يكون معسكرًا هناك على مقربة من الحرس. لذلك تقرر إرسال الرسائل والمال إلى بوريس بواسطة بريد الدوق الأكبر، ثم يتولى بوريس تسليمها إلى نيقولا.

وضُمَّت إلى رسائل الكونت والكونتيسة وبيتيا وفيرا وناتاشا وصونيا، عشرة آلاف روبل نفقات تجهيز، وأشياء شتى أرسلها الكونت إلى ابنه.

الفصل السابع

في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر، كان جيش كوتوزوف المقاتل الذي يعسكر بقرب أولموتس يستعد للاستعراض الذي سيتم في الغد ليشهده الإمبراطوران، إمبراطور روسيا وإمبراطور النمسا. وكان الحرس الذي وصل من روسيا منذ فترة وجيزة يبيت ليلته على مسافة خمسة عشر فرسخًا من أولموتس، وكان يُتوقّع وصوله إليها في الساعة العاشرة من صباح الغد فيدخل ساحة المناورات.

ولقد تلقى نيقولا روستوف في ذلك اليوم رسالة موجزة من بوريس يعلمه فيها أن فوج إسماعيلوفسكي يعسكر على مسافة خمسة عشر فرسخًا بعد أولموتس، وأنه ينتظره ليسلم إليه رسالة ومالًا وصلا إليه من أهله.

وكان روستوف في حاجة ماسة إلى المال في ذلك الوقت الذي رجعت فيه القطعات من الحملة وعسكرت بقرب أولموتس، وأصبح أصحاب الكانتينات الزاخرة واليهود النمسويون يحاصرون المعسكر ويعرضون على الجند جميع أنواع المغريات. وكانت الولائم تتلو الولائم عند ضباط بافلوجَرَّاد، احتفالًا بالأوسمة التي نالوها أثناء الحملة، وكذلك زياراتهم أولموتس، ترددًا على امرأة اسمها كارولين الهنغارية التي وصلت أولموتس منذ وهلة قصيرة، وافتتحت فيها حانة عُمّالها نساء. وكان روستوف الذي احتفل في الآونة الأخيرة بترقيته إلى رتبة ضابط قد اشترى «بدوي»، حصان دينيسوف، وغرق في الديون إلى العنق مقترضًا من رفاقه ومن أصحاب الكانتينات. فلما تلقى رسالة بوريس، مضى مع رفيق له إلى أولموتس، فتغديًا هناك، وشربا زجاجة من نبيذ، ثم ذهب هو منفردًا إلى معسكر

الحرس باحثًا عن رفيق طفولته. لم يكن قد استطاع أن يجهز نفسه بعد، فهو يرتدي دراعة مرشَّح يزينها وسام جندي، ويلبس سروالًا للركوب مرقَّعًا بقطع مهترئة من الجلد، ويحمل سيفًا ذا عَلّاقة من سيوف الضباط، ويعتمر قلنسوة مسطّحة تمامًا وضعها على رأسه مرتدّة إلى الوراء مائلة إلى الجنب افتخارًا. وكان الحصان الذي يركبه حصانًا من منطقة نهر الدون اشتُري من قوزاقي أثناء الحملة. فلما أقبل على معسكر فوج إسماعيلوفسكي، خطر بباله ما سيُحدثه بمظهر الفارس الجسور المحارب من أثر في نفس بوريس ونفوس رفاق بوريس من جند الحرس.

وكان الحرس قد التحقوا بالجيش كالذاهبين إلى نزهة، معتزّين أشد الاعتزاز بحسن نظامهم وأناقة بزاتهم. وكانت المراحل الذي قطعوها قصيرة، وأكياسهم تحملها مقطورات. وكانت السلطات النمسوية تقدّم للضباط في جميع المحطات وجبات فاخرة. كانت الأفواج تدخل المدن وتخرج منها وفي مقدمتها الموسيقى، وأثناء جميع المسيرات (وذلك أمر كان الحرس يعتزون به)، كان الجند يمشون مشية عسكرية بأمر من الدوق الأكبر، وكان الضباط مترجلين يمشي كل منهم في مكانه من الصفوف. وكان بوريس قد سار المسافة كلها، وسكن في كل مرحلة من مراحل الطريق مع بيرج الذي صار قائد سرية. وبفضل دقته في المواعيد وتقيده بالنظام، كان يتمتع بثقة رؤسائه كاملة، وينعم بمزايا مادية لا يُهمل شأنها. وكان بوريس، من جهته، قد أنشأ علاقات مفيدة، ولا سيما علاقته بالأمير أندريه بولكونسكي الذي أوصاه به بطرس بيزوخوف خيرًا، فكان بوريس يعوِّل على حمايته ورعايته من أجل أن يلتحق بهيئة أركان القائد العام.

ها هما بيرج وبوريس، وقد تأنّقا في ملبسهما أشد التأنق، وارتاحا من مسيرة المرحلة الأخيرة في ذلك اليوم، قد جلسا يلعبان الشطرنج حول طاولة مستديرة في المسكن المريح الذي خُصّا به. إن بيرج يقبض بين ركبتيه على غليون مشتعل. وبوريس، على عادته في الاجتهاد، ينشئ أهرامات من البنادق مع استمراره في ملاحظة مُلاعبه الذي كان الدور في اللعب دوره،

والذي كان وفقًا لمبدئه لا يفعل إلّا شيئًا وأحَدًا في آن واحد، مستغرقًا في اللعب استغراقًا كاملًا.

قال له بوريس:

- هيه! كيف عساك تخرج من هذا المأزق؟

فأجابه بيرج وهو يمسك بيدقًا ثم ما يلبث أن يتركه فورًا:

- سأفعل ما يمكنني أن أفعله. سابذل كل ما أملك من جهد.

في تلك اللحظة فُتح الباب.

وهتف روستوف يقول:

- ها هو ذا أخيرًا... هه! هذا بيرج أيضًا!

وأضاف يقول مردّدًا جملة مبتذلة كانت خادمتهما العجوز تكررها في الماضي على مسمعَيْهما هو وبوريس، فكانا يضحكان منها ضحكًا شديدًا:

- هلموا إلى السرير فناموا يا صغار!

قال بوريس:

- رباه! لشد ما تغيّرت!

ونهض بوريس يستقبل روستوف، لكنه لم ينسَ، وهو ينهض أن يثبت قطع الشطرنج حتى لا تسقط، وأن يتناول البيادق التي سقطت فيعيدها إلى مكانها، وأراد أن يقبّل صديقه، ولكن نيقولا تنحّى. ذلك أن نيقولا كان يتمنى حين يلقى صديقه، وشأنه في هذا شأن سائر الشبان الذين يكرهون الطرق الممهَّدة المألوفة، ويريدون أن يعبّروا عن عواطفهم بأسلوب جديد خاص بهم لا يقلدون فيه أحَدًا ولا يقتبسونه من أحد، كان يتمنى أن يقرص صديقه، وأن يصدمه وأن يفعل أي شيء. أما أن يقبله كما يفعل سائر الناس، فلا... ثم لا! ولكن بوريس احتضنه بهدوء ومودة وصداقه، وقبَّله ثلاث قبلات.

إنهما لم يلتقيا منذ قرابة ثلاثة أشهر. وفي هذه السن التي يخطو فيها الشبان خطواتهم الأولى على طريق الحياة، يجد كل واحد منهم لدى صاحبه تغيّرات كبيرة مردّها في الواقع إلى تأثير البيئات المختلفة التي خطوا فيها تلك الخطوات الأولى. لقد تغيّرا كلاهما تغيّرا كبيرًا منذ آخر لقاء لهما، وأسرع كل منهما يقول لصاحبه إنه لا يجده الآن على عهده به في الماضي.

وبصوته الجديد الذي لم يعرفه فيه بوريس، وهو الآن صوت باريتون، بالطلاقة والاستهتار اللذين يلاحظان في الجند وهو يشير إلى سرواله الملطخ بالوحل، قال روستوف:

- يا للشباب المتغندر! ما أشد نظافتكم، وما أعظم نضارتكم! لكأنكم عائدون من نزهة! لستم مثلنا نحن معشر الجند المساكين الأشقياء!

لما سمعت المرأة الألمانية التي يقيم عندها الضابطان صيحات روستوف أطلت برأسها من الباب المشقوق، فقال روستوف وهو يغمز بعينه:

- جميلة! هه!

قال بوريس:

- لا تصرخ هذا الصراخ، وإلا روّعتهم!

ثم أضاف يقول:

- ما كنت أتوقع مجيئك اليوم. إنني لم أرسل إليك رسالتي االقصيرة إلّا أمس، أرسلتها مع مرافق أعرفه من مرافقي كوتوزوف هو الأمير بولكونسكي. ما كنت أظن أنه سيوصلها إليك بهذه السرعة... هيه؟ كيف حالك؟ إذن قاتلت؟

فلم يجب روستوف بكلمة، بل حرَّك وسام صليب القديس جورج على زخارف دراعته، وكشف عن ذراعه المعصوبة، ونظر إلى بيرج مبتسمًا، ثم قال:

- كما ترى!

فقال بوريس وهو يبتسم:

- نعم نعم، فِعلًا! نحن أيضًا خضنا غمار حملة جميلة. تعلم أن صاحب السمو قد ظل يرافق فوجنا، فكنا ننعم طوال الوقت بكل الرخاء وبجميع المزايا الممكنة. ما أكثر الاستقبالات التي أقيمت في بولندا، وما أحفل ولائم العشاء، وما أجمل حفلات الرقص. يستحيل عليَّ أن أصف لك كل شيء. وقد كان صاحب السمو القيصرفتش[1] لطيفًا أعظم اللطف في

---

(1) إن اسم قيصرفتش هو اللقب الرسمي لأكبر أبناء القيصر في روسيا، أي ابنه الذي سوف يخلفه على العرش وينطق الاسم بالروسية تسيزارفتش، وتختصره العامة فتقول تسارفتش.

معاملتنا نحن الضباط كافة.

وأخذ الصديقان يحدّث كل منهما الآخر بما حدث له، فواحد يروي مغامراته فارسًا وحياته مقاتلًا، والثاني يصف المباهج والمزايا التي تهيئها الخدمة في إمرة شخصيات عالية المقام.

قال روستوف:

- - آ... الحرس. ولكن هلا أرسلت أحَدًا يأتينا بخمرة! فجعد بوريس وجهه، ثم قال:

- إذا كنت تحرص على ذلك، فليكن...

ثم مضى إلى سريره، فاستلّ كيسه من تحت الوسائد النظيفة، وبعث من يشتري له خمرة. ثم أضاف:

- صحيح... سأسلمك أيضًا مالك ورسائلك.

أخذ روستوف الرسائل، وألقى بالمال على الديوان، وأسند كوعيه إلى الطاولة، وأخذ يقرأ. وما إن قرأ بضعة أسطر حتى رشق بيرج بنظرة حانقة، فلما التقى بصره ببصره خبّأ وجهه بالرسالة التي كان يقرأها.

قال بيرج وهو ينظر إلى الكيس الذي غطس من فرط ثقله في الديوان:

- أرسلوا إليك مبلغًا كبيرًا من المال على كل حال. أما نحن، يا كونت، فنكتفي بالمرتّب الذي نتقاضاه. وأحب أن أضيف، في ما يتعلق بي أنا...

فقاطعه روستوف قائلًا له:

- اسمع يا بيرج، يا عزيزي!... لو أنك تلقيت رسالة من أهلك، والتقيت بصديق حميم لك تريد أن تلقي عليه أسئلة كثيرة، لتركتكما أنا فورًا حتى لا أضايقكما ولا أحرجكما. فهيّا انصرف...

ولم يلبث أن صرخ قائلًا:

- هيا انصرف إلى الشيطان!...

ولكنه سرعان ما أمسك كتفه، ونظر في عينيه بلطف ومودة، تخفيفًا لقسوة كلامه، وأضاف يقول له:

- لا تزعل يا عزيزي بيرج، يا صديقي الطيّب. أنت تعلم أنني أكلّمك

بصراحة تامّة كالصراحة التي نكلّم بها رجلًا نعرفه منذ مدة طويلة.

فنهض بيرج وقال بصوت لا يكاد يخرج من حلقه:

- آ... نعم... طبعًا يا كونت... أنا أعلم و...

فعقّب بوريس غامزًا:

- اذهب إلى أصحاب الدار... لقد دعوك إلى زيارتهم.

فارتدى بيرج ردنجوتًا نظيفًا لا تلطّخه بقعة، ولا ذرّة غبار، ووقف أمام المرآة فرفع شعره على الصدغَيْن، على طريقة الإمبراطور ألكسندر، حتى إذا اقتنع من النظرة التي ألقاها عليه روستوف أنه بلغ بهندامه غاية الحسن والأناقة، خرج من الغرفة وهو يبتسم ابتسامة بهيجة.

هتف روستوف قائلًا وهو يقرأ الرسالة:

- آهه... ما كان أغباني!

فسأله بوريس:

- ماذا هنالك؟

- ما كان أغباني من حيوان! لم أكتب إليهم مرة واحدة، ثم روَّعتهم ذلك الترويع! آه... حيوان أنا!

كذلك ردّد وقد احمرَّ وجهه على حين فجأة. وأردف يقول:

- هيا أرسل جافريلو ليجيئنا بخمرة. يجب أن نشرب كاسًا...

وكانت رسائل الأسرة قد ضُمت إليها رسالة توصية إلى الأمير باجَرَّاتيون حصلت عليها الكونتيسة العجوز عملًا بنصيحة من آنا ميخائيليوفنا، فهي ترسلها إلى ابنها ضارعة إليه أن يجني منها كل ما يستطيع أن يجنيه من نفع.

قال روستوف وهو يرمي الرسالة تحت الطاولة:

- سخافة! ما حاجتي إلى مثل هذا!

فسأله بوريس:

- لماذا ترمي هذا؟

- هي رسالة توصية! سخف! لست أعبأ بمثل هذه الأمور.

فقال بوريس وقد تناول الرسالة وقرأ عنوانها:

- لا تعبأ بمثل هذه الأمور؟ هذه رسالة يمكن أن تنفع كثيرًا.
- بل هي لا تنفع في شيء البتة. لن أكون مرافقًا لأحد في حياتي.
- لماذا؟
- هذه مهنة خادم.
قال بوريس وهو يهز رأسه:
- أرى أنك ما زلت ذلك الحالم الذي أعرفه.
- وأنت ما زلت ذلك «الديبلوماسي» نفسه. ولكن دعنا من هذا الآن، وقل لي: ما أحوالك؟
- كما ترى. حتى الآن لا يزال كل شيء حسنًا. ولكنني أعترف لك بأنني أوثر أن أحصل على منصب ضابط مرافق على أن أبقى في صف الجند.
- لماذا؟
- لأن على المرء، متى اختار العسكرية طريقًا له، أن يحاول التألّق فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.
قال روستوف وكان واضحًا أن ذهنه منصرف إلى شيء آخر:
- نعم، فِعلًا.
كان روستوف ينظر في عينَي صديقه مستفهمًا، كأنه يلتمس جوابًا عن سؤال فلا يفلح.
وجاء جافريلو العجوز بالخمرة.
قال بوريس:
- ما رأيك في أن ندعو آلفونس كارلتش بيرج أن يعود؟ إذا عاد شربتما مَعًا، أما أنا فلست بقادر على أن أشرب.
قال روستوف وهو يبتسم ابتسامة فيها احتقار:
- طيّب، طيّب! قل لي: كيف تجد هذا الألماني الصغير؟
- شابٌّ شهمٌ جِدًّا، جِدًا، وهو فتى شريف حلو المعاشرة.
فنظر روستوف في عينيه مرة أخرى نظرة ثابتة، وتنهّد. وعاد بيرج، وكان للخمرة أثرها، فحميت المناقشة بين الضباط الثلاثة. حكى ضابطا الحرس

لروستوف عن رحلتهم، وكيف احتُفل بهم في روسيا، وفي بولنده[1]، وفي الخارج. وحدّثاه عن رئيسهم الدوق الأكبر[2]، ما وقع له وما بدر منه، ورَوَيا له نكات عما يتّصف به من طيّبة القلب وحِدّة الطبع. وكان بيرج يلزم الصمت على عادته حين لا يدور الحديث عن شخصه، ولكنه بصدد النكات التي رويت عن اندفاعات الدوق الأكبر، طاب له أن يحكي متلذذًا تلذذًا واضحًا أنه قد أتيح له في غاليسيا أن يتحدّث مع الدوق الأكبر حين كان يفتش الأفواج فيغضب غضبًا شديدًا من أن الحركات غير منتظمة. وقال بيرج وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لطيفة أن الدوق الأكبر بلغ مبلغًا كبيرًا من الحنق في لحظة من اللحظات، فاندفع بحصانه نحوه صارخًا بصوت حاد: «كومة من أرناؤوط!»[3] (هذه هي الشتيمة التي يفضلها القيصرفتش إذا هو غضب)، وطلب حضور قائد السرية حالًا.

وعلّق بيرج على ذلك قائلًا:

– أقسم لك يا كونت أنني لم أخَفْ، لأنني كنت أعلم أنني لم أرتكب خطأً، ولا أذنبت ذنبًا. لا أحب أن أفاخر وأتباهى يا كونت، لكنني أستطيع أن أؤكد لك أنني أحفظ أمر اليوم على ظهر القلب، وأنني أعرف النظام كما يعرفه «الأب». لذلك لم يحدث أي إهمال في سريّتي يومًا. وأنا لهذا السبب مرتاح الضمير دائمًا. تقدّمت من القيصرفتش وعرَّفته بنفسي (هنا قام بيرج، ومثّل كيف تقدّم من صاحب السمو رافعًا يده بالتحية إلى حافة كسكيتته،

---

(1) كانت بولندا مقسَّمة منذ عام 1795 بين روسيا والنمسا. وفي عام 1805 كان جزء كبير من طبقة النبلاء فيها يأمل، بوحي من الأمير آدم كزارتورينسكى، أن يحرّرها ألكسندر الأول من الألمان، وأن يعيد بناء مملكتها. لذلك احتُفِيَ به فيها حين مر مع جيشه بهذه الأرض «الألمانية» في شهر سبتمبر 1805، ولكن آمال بولندا هدمها «عهد بوتسدام»، فاتجهت بولندا إلى نابوليون.

(2) الدوق الأكبر قسطنطين بافلوفتش (1779 – 1831)، أخو ألكسندر الأول. كان يحمل لقب «تسيساسيرفتش» أو «تسارفتش» (قيصر فتش) بصفته وريث العرش. وكان قائدًا للحرس الإمبراطوري.

(3) هو الاسم الذي كان الأتراك يطلقونه على الألبانيين الذين كانوا يشكّلون في جيشهم قطعات غير نظامية يلقب جندها «باشبُزُق».

والحق أنه يصعب على المرء أن يتصور وضعًا فيه مزيد من الاحترام والإجلال، وفيه مزيد من الرضى عن النفس أيضًا). فإذا هو يأخذ يشتمني أقذع الشتم كما يُقال، إذا هو يغسلني بالسب غسلًا كما يقال. صبَّ عليَّ جميع أنواع الشتائم: «شياطين»، «أرناؤوط»، «باشبُزُق»، «تستحقون النفي إلى سيبيريا».

واعترف بيرج وهو يبتسم ابتسامة ناعمة بأن صاحب السمو لم يدع شيئًا من هاجر الكلام إلّا قاله. وأردف بيرج يقول:

- ولثقتي بأنني لم أرتكب ذنبًا سكتّ لا أنطق بكلمة. ألم أحسن صنعًا يا كونت؟

فإذا هو يصيح قائلًا: «أتراك أخرس؟ أتراك أبكم؟». فلزمت الصمت ولم أفتح فمي بحرف. فماذا كان يا كونت؟ صدّقني أو لا تصدقني: ولكن جاء التقرير في الغد لا يشتمل على شيء: هذه رباطة الجأش فلا يطيش لب المرء ولا يذهب صوابه. هكذا، يا كونت... بهذا ختم بيرج كلامه وهو ينشق نفسًا من غليونه ثم ينفث دخانه في الهواء دوائر دوائر.

قال روستوف مبتسمًا:

- نعم، هذا ممتاز!

ولكن بوريس، وقد لاحظ أن روستوف سوف يأخذ بالتهكم على بيرج، غيَّر مجرى الحديث ببراعة وحذق. فسأله أن يروي لهما أين ومتى جُرح. ولم يكن من شأن هذا إلّا أن يطيّب لروستوف، وأن يروق له، فحدّثهما عن موقعة شونغرابن كما يفعل في العادة أولئك الذين شاركوا في معركة، فهم يقصّون ما كانوا يتمنّون أن يجري، ويروون ما سمعوه من آخرين، ويذكرون ما من شأنه أن يجمّل ما يحكونه، أما الأمور كما حدثت في الواقع فلا يستطيعون أن يصفوها أبدًا. إن روستوف شاب صادق، وما كان له أن يكذب عامدًا بحال من الأحوال. ولقد بدأ كلامه متنويًا أن يروي كل ما حدث رواية تتصف بالصدق ومطابقة الواقع، ولكنه لم يلبث، رغم إرادته، وبغير شعور منه، أن انقاد لخياله انقيادًا لا مناص منه. لو أنه روى الحقيقة لسامعيه الذين سمعوا مثله وصف معركة من المعارك ألف مرة، والذين تكوَّنت في أذهانهم

فكرة واضحة كل الوضوح عن الهجوم كيف يكون، والذين يتوقّعون منه أن يحكي لهم ما سبق أن سمعوه مرارًا، لما صدَّقوا كلامه، أو لظنوا (وهذا أسوأ) أنه إذا لم يكن قد حدث له ما يحدث عادة لأولئك الذين يصفون هجومًا قام به فرسان، فالذنب في ذلك ذنبه. كان روستوف لا يستطيع أن يقتصر على أن يقول لهم ببساطة إنهم جميعًا قد جروا بأفراسهم خببًا، وإنه سقط عن حصانه، وأن ذراعه انخلعت، وأنه ولى هاربًا إلى الغابة بأقصى سرعة ليفلت من قبضة الفرنسيين. ثم إن المرء إذا أراد أن يروي كل شيء كما حدث يحتاج إلى جهدٍ يبذله ضد نفسه، فما يقص إلّا ما حدث. إن رواية الحقيقة أمر صعب وشاقّ. والشبان قلّما يقدرون عليه. كان بوريس وبيرج ينتظران منه أن يقول لهما إنه كان يغلي حماسة، وأنه فقد رشده، فانقضّ على مربَّع من الفرنسيين انقضاض إعصار، وشق لنفسه طريقًا بينهم بالطعن ذات اليمين وذات الشمال، وأن سيفه أصبح يعرف لحم البشر، وأنه سقط أخيرًا من فرط الإعياء، وهلم جَرًّا... لقد قال لهما هذه الأشياء كلها.

وبينما كان يروي ما يروي، وكان يقول: «لا تستطيع أن تتصور ذلك الإحساس الغريب بالحنق المسعور الذي يحسه المرء أثناء هجوم»، إذ دخل الأمير أندريه بولكونسكي الذي كان بوريس ينتظر وصوله إليه. كان الأمير أندريه يحب أن يرعى الشبان وأن يكون لهم حاميًا، وقد أرضى إعجابه بنفسه أن يسأله أحد معونته ومساندته. وأحب بوريس الذي استطاع أن ينال إعجابه بالأمس، فكان يريد أن يفي بالوعد الذي قطعه للفتى على نفسه. فلما كلفه كوتوزوف بأن يحمل أوراقًا إلى القيصرفتش، جاء إلى بوريس آملًا بأن يراه وحده. فلما رأى عنده ضابطًا يُحدّث عن مغامراته في الحرب (وهذا صنف من الناس كان الأمير أندريه لا يطيقه)، ابتسم لبوريس ابتسامة لطيفة فيها مودّة، ثم صعَّر وجهه ونظر إلى روستوف مغضنًا عينيه، وبعد أن حيا تحية خفيفة جلس على الديوان وقد بدا في وجهه التعب والملل والضجر. لقد ضايقه أن يجد نفسه مع أناس لا تسرّه صحبتهم. وقد أدرك روستوف ما يدور في نفسه فاحمرَّ وجهه. ولكن ما قيمة هذا عنده؟ إن الأمير أندريه هو بالنسبة اليه رجل غريب عنه، لا علاقة له به. غير أنه

ألقى نظرة على بوريس فلاحظ أنه هو أيضًا يبدو كالخجلان من وجود هذا الفارس وحديثه. شعر روستوف، بأن الوضع الذي اتخذه الأمير أندريه، وضع مزعج فيه استهزاء وتهكّم. ورغم أن روستوف كان يحتقر، من وجهة نظره كمحارب في الجيش، جميع المرافقين الذين يعملون في هيئة الأركان الذين كان واضحًا أن هذا القادم واحدًا منهم، فقد شعر رغم ذلك كله بحرج شديد، واحمر وجهه، وصمت.

واتجه بوريس بالكلام إلى الأمير أندريه فسأله عن أنباء الأركان العامة، وطلب منه أن يحدّثه بما يقال عن مشاريعنا إذا لم يكن في هذا ما يعد إفشاء لأسرار.

فأجابه الأمير أندريه بولكونسكي بإيجاز، وكان واضحًا أنه لا يريد الإفاضة أكثر من ذلك بحضور أشخاص آخرين:

- غالب الظن أننا سوف نتقدّم إلى أمام.

فانتهز بيرج الفرصة فسأل بتأدب شديد، هل صحيح ما يقال من أنه سيوزَّع على قادة السرايا قدر مضاعف من العلف؟ فأجاب الأمير أندريه وهو يبتسم بأنه لا يستطيع أن يقول شيئًا عن شأن من شؤون الدولة تبلغ هذا المبلغ من الخطورة.

فضحك بيرج فرحًا.

وقال الأمير أندريه وهو يلتفت إلى بوريس ثانية، ويلقي على روستوف نظرة أخرى:

- أما موضوعك فسوف نبحثه في ما بعد. تعال إليَّ بعد الاستعراض، وسوف نفعل كل ما يمكننا أن نفعله.

وأجال بصره في الغرفة، ثم التفت إلى روستوف فقال يسأله وهو لا يتنازل فيلاحظ ما كان عليه روستوف من اضطراب كاضطراب الأطفال انقلب إلى غضب:

- أظن أنك كنت تقصّ موقعة شونغرابن. هل كنت فيها؟

فقال روستوف حانقًا كأنه يريد أن يهين المرافق:

- نعم، كنت فيها.

فلاحظ بولكونسكي ما اعترى الفارس من غضب، فوجد ذلك داعيًا إلى الضحك، فابتسم ابتسامة احتقار خفيفة. وقال:

- نعم، تُحكى عن تلك الموقعة أشياء كثيرة.

فقال روستوف بصوت قوي وهو يلقي تارة على بوريس وتارة على بولكونسكي نظرات أصبحت حانقة مسعورة على حين فجأة:

- فِعلًا! تُحكى أشياء كثيرة. ولكن حكاياتنا نحن هي حكايات أولئك الذين كان تنصبّ عليهم نيران العدو، فهي حكايات لها قيمتها، لا كحكايات أولئك الشجعان من شبان هيئة الأركان الذين يجنون الأوسمة بغير حق من دون أن يفعلوا شيئًا.

- والذين تفترض أنني واحد منهم؟

كذلك أجابه الأمير أندريه وهو يبتسم هادئًا لطيفًا كل اللطف.

فما إن رأى روستوف هذا الهدوء في هذا الرجل حتى أصبح غيظه منه يمازجه احترام له. فقال:

- لست أتكلم عنك، فانا لا أعرفك، ولا أكتمك أنني لا أرغب في أن أعرفك. وإنما أنا أتكلم عن هيئة الأركان العامة.

فقاطعه الأمير أندريه قائلًا بصوت فيه ثبات وهدوء:

- أما أنا فإليك ما سأقوله لك: إنك تنوي أن تهينني. وإني لأسلّم لك بأن هذا ليس صعبًا عليك إذا أنت فقدت احترامك لنفسك. ولكن اعترف بأنك لم تحسن اختيار الزمان والمكان. فبعد بضعة أيام سننخرط جميعًا في مبارزة كبرى مع العدو، مبارزة لها من خطورة الشأن ما ليس لمبارزة بين شخصين. ثم إن دروبتسكوي الذي يقول إنك صديق قديم له لا ذنب له إذا شاء سوء الحظ ألا تعجبك هيئتي.

وأضاف يقول وهو ينهض:

- أنت تعرف اسمي على كل حال، وتعرف أين يمكن أن تجدني. ولكن لا تنسى أنني لا أعتبر أن إهانة قد لحقت بي، ولا أن إهانة نالتك، فأنصحك بصفتي أكبر منك سنًّا بأن تغفل هذا الأمر فلا تكون له عواقب.

ثم اتجه إلى دروبتسكوي فقال له:

- اتفقنا إذًا. انتظرك يوم الجمعة، بعد الاستعراض.

وختم الأمير أندريه كلامه بقوله:

- إلى اللقاء.

وخرج بعد أن حيّا الشابَّيْن كليهما.

لم يهتدِ روستوف إلى ما كان ينبغي أن يرد به على كلام الأمير أندريه، إلّا بعد أن كان الأمير أندريه قد خرج. ففاقم ذلك غضبه، وزاد شدة حنقه. وسرعان ما أمر بإحضار حصانه، ومضى عائدًا إلى معسكره بعد أن ودّع بوريس وداعًا جافًا. أيجب عليه أن يذهب غدًا إلى القيادة العامة فيدعو إلى المبارزة هذا المرافق المتغطرس، أم يجب عليه حَقًّا أن يدع هذا الأمر بغير عواقب؟ ذلكم هو السؤال الذي ظل يعذّبه طوال الطريق. فتارة كان يستبد به الغضب فيحلم باللذة التي ستهيئها له رؤية الخوف عند هذا الشاب الضئيل الصلف المزهو بنفسه حين يسدد إليه مسدسه، وتارة يحسّ مدهوشًا بأنه ليس بين جميع الذين يعرفهم رجل واحد يتمنى أن يتخذه صديقًا كهذا المرافق الشرس اللعين.

الفصل الثامن

في غداة اللقاء بين بوريس وروستوف جرى استعراض للجيوش، النمسوية والروسية، سواء منها القطعات التي وصلت حديثًا من روسيا، أوالقطعات التي عادت من القتال مع كوتوزوف. فاستعرض الإمبراطوران، إمبراطور روسيا يصحبه القيصرفيتش، وإمبراطور النمسا يصحبه الأرشيدوق، جيشًا حليفًا عدده ثمانون ألف رجل.

منذ الصباح، أخذت القطعات وقد عنيت بنظافة ثيابها وحسن هندامها أكبر العناية، تسير لتصطف على أرض الاستعراض أمام القلعة. فتارة ترى ألوفًا من الأقدام والحراب تتقدّم ناشرة راياتها، أو يأمرها الضباط فتقف ثم تنحرف ثم تندس في الفواصل بين كتل أخرى من جند المشاة ترتدي بزات مختلفة. وتارة تسمع وقع حوافر الخيل موزونة الخطى، وتسمع قرقعة السيوف فتعرف أنهم الفرسان الأنيقون قد أقبلوا بأرديتهم الزرقاء والحمراء والخضراء يتقدّمهم الموسيقيون المزركشون ويركبون خيولًا كحلاء وشقراء وصهباء. وتارة ترى المدفعية تتحرّك بين المشاة والفرسان، وتحتل أماكنها المحددة لها وقد أخذت المدافع الملمَّعة البرّاقة ترن رنين النحاس، وتتهزهز على حواملها، وتنتشر منها رائحة فتيل الإشعال. لم يكن الجنرالات وحدهم، بثياب الاستعراض وأوسمتهم كافة وقاماتهم المشدودة بالأحزمة شدًّا قويًّا، سمينة كانت أو نحيلة، وبأعناقهم التي احتقنت واحمرت من ضيق ياقاتها العالية تلفّها الأوشحة. ولم يكن الضباط وحدهم، بهندامهم الأنيق وروائحهم الفواحة، بل كان كل جندي، بوجهه النضير المغسول المحلوق، وعدّته البراقة. وكان كل حصان بشعره الذي

يلمع لمعان قماش الساتان، وبعرفه المملَّس حتى لكأنه صُفِّف شعرة شعرة.

كان هؤلاء جميعًا يشعِرون المرء إذا رآهم بأن أمرًا خطيرًا عظيم الشأن ذا مهابة وأبَّهة هو بسبيل أن يتحقق. وكان كل فرد، من أكبر جنرال إلى أصغر جندي، يحسّ بأنه لا قيمة له وحده، ويشعر بأنه ليس إلّا ذرّة رمل في هذا البحر من البشر، ولكنه يعلم في الوقت نفسه أنه قوي جَبّار بكونه جزءًا من هذا الجمع الكبير.

كان الضجيج المحموم قد بدأ منذ الفجر، فما إن أزفّت الساعة العاشرة حتى كان الاستعداد كله قد اكتمل. انتظمت الصفوف في الساحة الواسعة، وامتد الجيش كله على ثلاثة خطوط، فالفرسان في أمام، والمدفعية في الوسط، وفي الخلف المشاة.

وكان بين كل صفَّيْن من صفوف القطعات ما يشبه ممرًا بين أشجار. وكان كل عنصر من العناصر الثلاثة التي يتألف منها هذا الجيش منفصلًا عن العنصرَيْن الآخرين: جيش كوتوزوف المقاتل (الذي كان فوق بافلوغرّاد يشغل جنبه الأيمن في المستوى الأول)، وأفواج الجيش والحرس الآتية من روسيا، والجيش النمسوي. ولكنّ الجند كلهم مصطفّون على خط واحد في تشكيل واحد تحت قيادة واحدة.

وهذه همهمة فيها انفعال تسري في الصفوف كما تسري الريح بين أوراق الأشجار: «وصلا! وصلا!». فإذا بأصوات مهتاجة تتعالى، وإذا بالصفوف تضطرب من أولها إلى آخرها كموجة من أمواج البحر.

كان جمع يقبل على أولموتس، فيظهر عند أبوابها. وفي الوقت نفسه هبّت نسمة خفيفة على الجيش كله، رغم هدوء الجو، فاهتزت شعل الحراب، وتموَّجت الرايات المنشورة على طول سواريها. فكأن الجيش نفسه يعبّر بهذا الاهتزاز والتموّج عن فرحته بإقبال العاهلَيْن. وسمع صوت يصرخ قائلًا: «تأهّب»، فإذا بأصوات ترجعه في جميع الجهات، كما تفعل الديكة في الفجر. ثم يسكت كل شيء، فلا يسمع المرء في وسط هذا الصمت الذي يشبه صوت الموت إلّا وقع حوافر الخيل. إنها حاشية الإمبراطورَيْن. ويقترب العاهلان من جنب القطعات، فتدوي أبواق الفوج الأول من أفواج

الفرسان تدق النفير العام. لكأن الأبواق ليست هي التي تدق، وإنما الجيش كلّه هو الذي يصدر هذه الأصوات من تلقاء نفسه سعيدًا بمقدم الإمبراطور. وفي وسط هذه الضجات يسمع المرء صوتًا واضحًا متميّزًا شابًّا محببًا هو صوت الإمبراطور ألكسندر. إنه يحيّي الجند. فإذا بالفوج الأول يزأر قائلًا: «هورررا!»، فيبلغ زئيره من فرط الشدة وقوة الفرح وطول المدة أن الرجال أنفسهم روّعهم ما لهذه الكتلة التي يؤلفونها من وفرة العدد وقوة الجبروت.

وكان روستوف في الصفوف الأولى من جيش كوتوزوف الذي اتجه إليه الإمبراطور أول ما اتجه، فكان يشعر بتلك العاطفة نفسها التي شعر بها كل رجل من رجال هذا الجيش. وهي عاطفة نكران الذات والإحساس بالقوة والتعلّق المشبوب بالرجل الذي هو سبب هذه العظمة وعِلّة هذه الأبّهة.

شعر روستوف بأن كلمة واحدة ينطق بها هذا الرجل يمكن أن تجعل هذه الكتلة الحية كلها (وأن تجعله هو أيضًا، وما هو بارتباطه بها إلّا ذرة رمل صغيرة)، تلقي نفسها في النار، أو الماء، وأن تمضي إلى الموت أو الجريمة أو أكبر بطولة، ومن أجل هذا إنما كان لا يمكنه إلّا أن يرتعش وأن ينهار عند إقبال الرجل الذي يستطيع أن ينطق بتلك الكلمة.

ورعدت الأصوات في جميع الجهات هاتفة:

- هورررا! هورررا! هورررا!

وأخذت الأفواج تستقبل الإمبراطور، فوجًا بعد فوج، بأصوات النفير العام أولًا، ثم بهتافات «هورررا!»... تعقبها أصوات النفير العام مرة أخرى، ثم هتافات «هورررا»، ثم أصوات النفير العام، وهكذا دواليك، واتّحدت الأصوات والهتافات في هدير واحد تصم الآذان قوّته.

وكان كل فوج، قبل اقتراب الإمبراطور، يبدو بصمته وجموده كأنه جسم بلا حياة، فما إن يصل الإمبراطور إليه حتى ينطق وينفجر، ضامًّا هتافاته إلى زئير كل الصف الذي اجتازه الإمبراطور. وبين جلبة هذه الأصوات التي تصم الآذان، في وسط تلك الكتلة من القطعات الساكنة التي تكاد تكون في مربّعاتها مجمَّدة مسمَّرة، كان مئات الفرسان من أفراد الحاشية يتقدّمون بغير اكتراث، ولكن بانتظام وتناظر، وبيسر وسهولة خاصة، ويسير في

مقدّمتهم رجلان هما الإمبراطوران، وعلى هذين الرجلين ينصبّ الانتباه بلا تحفظ، زاخرًا بهوى مشبوب مكظوم يضطرم في نفوس هذه الكتلة كلها من الرجال.

كان الإمبراطور الشاب الجميل، ألكسندر، يرتدي زي الحرس الفرسان، ويعتمر بقلنسوة مثلثة الأطراف تميل قليلًا على أذنه، وكان يأسر الانتباه كله بوجهه الحلو وصوته الرنان على تحفّظٍ وروية.

وقد استطاع روستوف من موقعه بقرب الأبواق أن يتعرّف الإمبراطور بعينيه الحادّتين، فكان يتابع سيره وتقدّمه. حتى إذا أصبح الإمبراطور لا يبعد عن روستوف إلّا قرابة عشرين خطوة، فرأى روستوف، رؤية واضحة، أدقّ تفاصيل هذا الوجه الفتي الوسيم السعيد، شعر بعاطفة حب وحماسة لم يشعر بمثلها يومًا في حياته. كان كل شيء في الإمبراطور يفتن لبه، كانت كل قسمة من قسماته وكل إشارة من إشاراته تخطف بصره وتأسر قلبه.

وحين وقف الإمبراطور أمام فوج بافلوغرّاد، قال بالفرنسية بضع كلمات لإمبراطور النمسا، وابتسم. ولما رأى روستوف هذه الابتسامة وجد نفسه يبتسم هو أيضًا من دون إرادة منه. وشعر بعاطفة الحب التي يحملها قلبه لعاهله يزداد دفقها قوّة وعرامة. وتمنى لو يبرهن له على حبه بوسيلة من الوسائل، وكان يعلم أن ذلك مستحيل، فاشتهى أن يبكي. واستدعى الإمبراطور قائد الفوج وقال له بضع كلمات.

حدَّث روستوف نفسه قائلًا: «رباه! ما عسى يقع لي لو كلمني أنا. لا أظن إلّا أنني أموت عندئذ من فرط السعادة!».

وخاطب الإمبراطور الضباط أيضًا فقال لهم:

- أشكركم جميعًا أيها السادة من أعماق القلب.

فكان روستوف يسمع كل كلمة من هذه الكلمات كأنها موسيقى سماوية.

ما أعظم ما تكون سعادة روستوف لو استطاع أن يموت في سبيل قيصره في هذه اللحظة!

- استحققتم رايات سان جورج[1]، ولسوف تبرهنون على أنكم بها جديرون.

قال روستوف لنفسه: «أموت في سبيله! ليتني أستطيع على الأقل أن أموت في سبيله!».

ونطق الإمبراطور بكلمات أخرى لم يسمعها روستوف، وانطلق الجنود يصيحون: «هورررا»، حتى تكاد تنشقّ صدورهم من شدة الصياح.

وكان روستوف مائلًا على سرجه يصيح هو أيضًا بكل ما أوتي من قوة، وتمنى أن يناله من هذا الصياح أذًى في حلقه وصدره ليعبّر بذلك عما يثيره الإمبراطور في نفسه من حماسة دافقة.

وقف الإمبراطور أمام الفرسان بضع ثوانٍ وكأنه متردّد. فقال روستوف يسأل نفسه: «كيف يمكن أن يكون الإمبراطور متردِّدًا؟.» ثم بدا له هذا التردّد نفسه مشتملًا على فخامة وجلال، وبدا له شيئًا ساحرًا فاتنًا، ككل ما يصدر عن الإمبراطور.

ولم يدم هذا التردّد إلّا لحظة. فها هو الإمبراطور، بجزمته المدبَّبة الرأس التي كانت تُنتعل في ذلك الأوان، يلمس بجنب الحصان الكميت الذي كان يركبه، وها هي يده المغمودة في قفاز أبيض تجمع أعنّة الحصان، ثم يستأنف سيره ووراءه سيل من المرافقين يتحرّكون بفوضى. وأخذ الإمبراطور ينأى لحظة بعد لحظة، فيقف أمام أفواج أخرى، ثم أصبح روستوف لا يرى إلّا الريش الأبيض من قبعته، يعلو هامات الحرس الذين يحيطون بالإمبراطورَيْن.

لاحظ روستوف، بين أفراد الحاشية، الأمير أندريه بولكونسكي الذي كان يجلس على سرجه جلسة فيها تراخٍ وإهمال. فتذكر المشاجرة التي قامت بينهما أمس، وتساءل أيليق أم لا يليقَ أن يدعوه إلى المبارزة. وسرعان ما رأى نفسه يجيب الآن عن هذا السؤال إجابة حاسمة قاطعة: «طبعًا لا

---

(1) كانت تُمنح أفواج الجيش التي قامت بأعمال فيها جسارة وبسالة، رايات عليها الصليب الأبيض والأشرطة السوداء والذهبية التي يتألف منها وسام سان جورج.

يليق... هل يجوز التفكير في هذا الأمر في ساعة كهذه الساعة؟ هل يستحقّ هذا الأمر من الإنسان أن يتكلّم عنه في وقت كهذا الوقت؟ ما قيمة جميع مشاجرتنا وإهاناتنا في لحظة حبّ وحماسة ونسيان للذات، كهذه اللحظة؟ إنني الآن أحب الناس جميعًا، وأغفر لهم كلّهم قاطبة!».

وحين فرغ الإمبراطور من الطواف على جميع الأفواج تقريبًا، مرّت القطعات أمامه تخطو خطو الاستعراض، ومر روستوف راكبًا حصانه «بدوي» الذي اشتراه في الآونة الأخيرة من دينيسوف. مرَّ في ذيل سريته، أي مر وحيدًا يستطيع الإمبراطور أن يلاحظه وأن يتلبث عليه ببصره. حتى إذا صار على مرأى من الإمبراطور همز حصانه «بدوي» همزتين، (وكان روستوف فارسًا ممتازًا)، فاستطاع أن يحمل الحصان على أن يمشي تلك المشية الحانقة التي يمشيها حين تتّقد حماسته، فكان فمه المزبد مائلًا على لبانه، وكان ذيله منتصبًا، وكان يرفع قوائمه عالية رشيقة اثنتين بعد اثنتين، وكأنه يحس بنظرة الإمبراطور منصبة عليه هو أيضًا، فمرّ في الاستعراض مرورًا فيه كثير من الروعة والجلال.

وكان روستوف نفسه قد ردّ ساقيه وخسف بطنه شاعرًا بأنه متّحد بحصانه اتحادًا، وكان مقطب الحاجبين ولكنه مبتهج الهيئة، فمر أمام الإمبراطور مرور «شيطان مارد» على حد تعبير دينيسوف.

قال الإمبراطور:

- مرحى فرسان بافلوغرَاد!

فقال روستوف في نفسه: «رباه! لكم كان يسعدني أن يصدر إليَّ الآن أمره بإلقاء نفسي في النار!». حتى إذا انتهى الاستعراض أخذ ضباطنا، ضباط كوتوزوف وضباط الجيش الوافد على السواء، يلتقون جماعات جماعات، وراحت تدور بينهم الأحاديث. فهم يتكلّمون عن الأوسمة التي يتوقعون أن تمنح، ويتكلمون عن النمسويين وبزاتهم العسكرية، وعن بونابرت الذي يعتقدون أن أموره ستجري الآن مجرى سيّئًا، ولا سيما بعد أن يصل جيش ايسن، وتنضم بروسيا إلى صفوفنا.

ولكن الحديث في جميع الحلقات إنما كان يدور خاصة على الإمبراطور ألكسندر، فهم يعلّقون على كل كلمة من كلماته، وكل إشارة من إشاراته، فما تنفك حماستهم في تأجج.

كانوا كلهم لا يرغبون إلّا في شيء واحد: هو أن يسيروا إلى العدو في أقرب وقت وراء الإمبراطور. فإذا كان هو الذي يصدر الأوامر، فلا يمكن إلّا أن يتحقّق النصر على أي عدو. كذلك كان يفكر روستوف وأكثر الضباط بعد الاستعراض.

كانوا جميعًا، بعد الاستعراض، مؤمنين بالنصر أكثر مما يمكن أن يؤمنوا به بعد الانتصار في معركتَيْن.

الفصل التاسع

في غداة يوم الاستعراض ارتدى بوريس أجمل بزة، وسافر إلى أولموتس تشيّعه تمنيات رفيقه بيرج، وذلك سعيًا إلى لقاء الأمير أندريه، لأنه يريد الانتفاع ببشاشته وكرمه وسماحته ليضمن لنفسه أحسن منصب ممكن، ولا سيما منصب ضابط مرافق عند شخصية كبيرة. وهذا هو المنصب الذي كان يعدّه خير منصب يتطلع إليه المرء في الجيش. كان يحدّث نفسه: «يحق لروستوف الذي يرسل إليه أبوه عشرة آلاف روبل دفعة واحدة أن يدَّعي أنه لا يريد الانحناء لأحد، وأنه لا يريد أن يكون لأحد خادمًا، أما أنا الذي لا أملك شيئًا آخر غير دماغي، فيجب أن أشقَّ لنفسي طريقًا، وأن لا أدع الفرص تمرّ فلا أنتهزها ولا أستفيد منها».

ولم يجد الأمير أندريه في أولموتس ذلك اليوم، ولكن مظهر أولموتس التي كانت مقر القيادة العامة ومقر الهيئة الديبلوماسيّة والإمبراطورَيْن وحاشيتيهما من جلساء وخلصاء، لم يزد رغبته في الانتماء إلى هذا المجتمع الأعلى إلّا قوة وتأججًا.

كان لا يعرف أحَدًا. ورغم البزة الأنيقة التي كان يرتديها، وهي بزة ضابط من سلاح الحرس، فإن هذه الشخصيات العالية من جلساء الإمبراطور ورجال الجيش، بريش قبعاتهم وأوسمة صدورهم وأشرطة أكتافهم، كانت تبدو له متفوقة عليه هو الضابط الصغير من ضباط الحرس، وهي تطوف الشوارع بعربات فخمة، تفوقًا يبلغ حد أنها لا تريد بل ولا تستطيع أن تلاحظه. وقد سأل عن بولكونسكي في مقر هيئة أركان كوتوزوف، فكان أولئك الضباط المرافقون، وحتى التابعون، ينظرون إليه نظرة من يريد أن

يُفهمه أن ضباطًا كثيرين مثله يقفون هنا على الأبواب طويلًا، وأن الجميع سئموا منهم وضاقوا بهم. ورغم ذلك، أو قل بسبب ذلك، رجع بوريس إلى أولموتس في اليوم التالي (أي يوم 14) بعد الغداء، ودخل المنزل الذي كان يشغله كوتوزوف وطلب بولكونسكي. وكان الأمير أندريه بولكونسكي هناك، فأدخلوا بوريس إلى صالة كبيرة لا بد أنها كانت من قبل صالة للرقص، ثم أصبحت تضم الآن خمسة أسرّة وأثاثًا متفرقًا: طاولة، وكراسٍ، وبيانو.

وكان بقرب الباب ضابط مرافق يلبس ثوبًا للمنزل فارسيًا، وقد جلس إلى الطاولة يكتب رسالة. وكان ضابط آخر، أحمر اللون بدين الجسم، هو نزفتسكي، راقدًا على سرير، واضعًا يديه تحت رأسه، يضحك مع ضابط جالس بقربه. وكان ضابط ثالث يعزف على البيانو لحنًا من فيينا لرقص الفالس، بينما كان ضابط رابع مسترخيًا على البيانو يرافق العزف بدندنة. ولم يكن بولكونسكي في تلك الصالة ولم يغيّر أحد من هؤلاء السادة وضعه حين رأى بوريس. وقد اتجه بوريس إلى الضابط الذي كان يكتب فسأله عن بولكونسكي، فالتفت إليه الضابط متبرّمًا وقال له إن بولكونسكي يعمل، فإذا كان في حاجة إلى لقائه فسوف يجده في صالة الاستقبال التي يقع بابها إلى اليسار. فشكر له بوريس جوابه، ومضى إلى صالة الاستقبال التي دلّه عليها. فكان في صالة الاستقبال عشرة ضباط وجنرالات ينتظرون.

حين دخل بوريس صالة الاستقبال كان الأمير أندريه يطرف بعينيه احتقارًا (وقد ظهر في وجهه ذلك النوع من الكلل المهذب الذي يشبه أن يقول للناس إنكم لولا وظائفكم لما أضعت دقيقة واحدة في الكلام معكم) ويصغي إلى جنرال روسي شيخ تغطي الأوسمة صدره، وقد وقف أمامه وقفة التهيؤ العسكرية على رؤوس الأصابع تقريبًا، وعبّر وجهه المحمرّ عن تذلّل جندي، لا عن كِبرياء جنرال، وبدا أنه يشرح للأمير أندريه أمرًا، أو يقدم له تقريرًا. فقال له الأمير أندريه بالروسية مصطنعًا تلك اللهجة الفرنسية التي يصطنعها حين يريد إظهار ازدرائه:

- حسن جِدًّا، انتظر من فضلك!

فلما لمح بوريس كف عن الانتباه إلى الجنرال الذي أخذ يركض وراءه

ضارعًا إليه أن يسمع بقية كلامه، والتفت نحو بوريس يحييه بحركة من رأسه مع ابتسامة مرحة.

فأدرك بوريس عندئذ إدراكًا واضحًا ما سبق أن أحسّه من قبل إحساسًا، وهو أن في الجيش، عدا التبعية والانضباط اللذين تعرفهما الأفواج ويعرفهما هو نفسه، نوعًا من التبعية أهم شأنًا، هو تلك التبعية التي تجبر الجنرال ذا الوجه القرمزي والبزّة المحزومة أن يخضع للأمير أندريه، وينصاع لأمره ويحترم إرادته فينتظر لأن الأمير أندريه يجد متعة أكبر في التحدّث مع الملازم دروبتسكوي. فلما أدرك بوريس هذه الحقيقة ذلك الإدراك الواضح قرّر أكثر من أي وقت مضى أن يخضع بعد الآن في عمله بالجيش لهذه التبعية غير المكتوبة، لا لتلك التبعية المنصوص عليها في الأنظمة المدوَّنة. وأحس بأن كون الأمير أندريه موصى به قد جعل منزلته على الفور فوق منزلة ذلك الجنرال الذي يستطيع في ظروف غير هذه الظروف، أن يسحقه سحَقًا وأن يعدمه إعدامًا، هو الملازم في الحرس.

مضى الأمير أندريه إلى بوريس فصافحه وقال له:

- يؤسفني أنك لم تجدني أمس. لقد توليت أمر الألمان طول النهار. ذهبنا مع فايروتهر[1] نتأكد من الترتيب. إن هؤلاء الألمان يسرفون في التدقيق، فلا ينتهون.

فابتسم بوريس ابتسامة من أدرك ما يلمّح إليه الأمير أندريه من شيء يعرفه الناس كافة. ولكنه كان يسمع لأول مرة اسم فايروتهر وحتى كلمة «ترتيب».

وقال الأمير أندريه يسأله:

- يا عزيزي! ألا تزال تحبّ أن تكون ضابطًا مرافقًا؟. لقد ظللت أفكر فيك منذ ذلك اليوم.

فأجابه بوريس وقد احمرّ وجهه رغم إرادته:

---

(1) كان الجنرال فايروتهر (1754 – 1807) رئيس الأركان النمسوية منذ معركة ريفولي المنكودة سنة 1797، وقد وضع لمعركة أوسترلتز خطة معقدة هي التي أدت إلى الكارثة.

- نعم. وقد فكّرت في تقديم طلب إلى القائد العام الذي وصلته رسالة من الأمير كوراجين توصيه بي خيرًا.

ثم أضاف يقول كالمعتذر:

- ولم أشأ أن أقدّم هذا الطلب إلّا لخوفي من ألّا يشترك الحرس في القتال.

قال الأمير أندريه:

- طيّب، طيّب. سنتكلّم في هذا كلّه. دعني أبلغ القائد العام عن رغبة هذا السيد في مقابلته، ثم أعود فأفرغ لك.

وأثناء غياب الأمير أندريه الذي ذهب يبلغ القائد العام رغبة الجنرال ذي الوجه القرمزي في مقابلته، أخذ الجنرال الذي لا شك في أنه لا يشاطر بوريس آراءه في التبعية غير المنصوص عنها في النظام، يحدق تحديقًا عنيدًا إلى الملازم الوقح الذي حال بينه وبين إكمال حديثه مع الضابط المرافق، حتى لقد بلغ من عناد التحديق أن بوريس أحسّ بضيق وحرج، فأشاح بوجهه ولبث ينتظر عودة الأمير أندريه نافد الصبر.

قال له الأمير أندريه وهو يقوده إلى الصالة الكبرى التي فيها البيانو:

- اسمع يا عزيزي! إليك الفكرة التي وافتني في شأنك. لا داعي إلى أن تقابل القائد العام، فسوف يقول لك أشياء كثيرة لطيفة، وسوف يدعوك إلى الغداء (هنا قال بوريس لنفسه: ليس هذا أمرًا سيّئًا بمقياس التبعية الأخرى)، ثم يقف الأمر عند هذا الحد ولا يتعداه. سنكون بعد قليل كتيبة كاملة من الضباط المرافقين والتابعين. ولكن إليك ما سوف نفعله: لي صديق من خيرة أصدقائي هو الأمير دولغوروكوف[1]. إنه شاب ممتاز، وضابط مرافق برتبة جنرال.

ربما كنت تجهل ما سأقوله لك، ولكن الحقيقة هي أن كوتوزوف نفسه وهيئة أركانه ونحن جميعًا لم يبق لنا من شأن. فكل شيء قد تركز الآن بين يدي الإمبراطور. فلنذهب إلى دولغوروكوف. وأنا في حاجة إلى أن ألقاه.

---

(1) فاسيلي يوريفتش دولغوروكوف (1776 - 1810)، جنرال شاب كان مرافق ألكسندر الأول.

وقد سبق أن كلمته عنك. فاصحبني إليه، فنرى ألا يستطيع أن يعيّنك قريبًا منه، أو أن يجد لك مكانًا هناك بقرب الشمس.

إن الأمير أندريه يتحمّس دائمًا حين يكون عليه أن يوجّه شابًا وأن يساعده على النجاح. وبحجة أن يقدّم لشخص آخر هذه المساعدة التي ما كان له أن يرضاها لنفسه من شدة كبريائه، إنما كان يقترب من البيئة التي تكفل النجاح والتي كانت تجتذبه وتستهويه. لذلك سرَّه أن يتولّى أمر بوريس، واقتاده إلى الأمير دولغوروكوف.

كان المساء قد تقدّم حين دخل الشابان قصر أولموتس، الذي يقيم فيه الإمبراطوران، وخلصاؤهما. وفي ذلك اليوم نفسه كان قد عُقد مجلس حرب اشترك فيه جميع أعضاء «المجلس الحربي الأعلى» والإمبراطوران. وقد تقرر في ذلك الاجتماع، على خلاف آراء الشيخين، كوتوزوف وشفارتزنبرغ[1]، أن يُشنَّ الهجوم فورًا، وأن يواجَه نابوليون بمعركة شاملة.

كان الاجتماع قد انتهى منذ برهة قصيرة حين وصل الأمير أندريه إلى القصر في صحبة بوريس سعيًا إلى الأمير دولغوروكوف. وكان جميع ضباط الأركان العليا لا يزالون مفتونين بسحر ذلك الاجتماع الذي انتصر فيه جانب الشباب على جانب الشيوخ. إن أصوات المتريّثين الذين كانوا ينصحون بانتظار شيء لا يعلم إلّا الله ما هو، قبل الانتقال إلى الهجوم، قد أخرسها إجماع كامل، ودُحضت اعتراضاتها بحجج تبلغ من الاستعصاء على النقض في ما يتعلق بفوائد الهجوم ومزاياه. إن موضوع المناقشات، أعني المعركة القريبة والنصر المؤزَّر، أصبحا لا يبدوان من الحوادث التي ستقع في المستقبل، بل من الحوادث الواقعة منذ الآن.

اعتبرت جميع المزايا متوفّرة لنا نحن، فقواتنا الضخمة التي لا شك أنها تفوق قوات العدو متمركزة، وقطعاتنا ملتهبة حماسة بوجود العاهلَيْن، ومحترقة شوقًا إلى القتال، والوضع الإستراتيجي التي يجب التحرك في

(1) شارل فيليب شفارتسبرغ (1771 – 1820): جنرال نمسوي أصبح بعد ذلك فيلدمارشالًا. قاد القوات الحليفة سنة 1813 وسنة 1814. والحق أنه لم يكن «شيخًا» سنة 1805 حين عارض خطة فايروتهر.

إطاره يعرف الجنرال النمسوي الذي سيقود توزيع الجيوش، وهو الجنرال فايروتهر، أدقَّ تفاصيله (لقد شاء حسن المصادفة أن كانت القطعات النمسوية تُجري في العام الماضي مناورات على الأرض التي سيتم فيها الهجوم على الفرنسيين)؛ والمنطقة معروفة معرفة دقيقة بجميع أجزائها وقد حُدِّدت هذه الأجزاء على الخريطة تحديدًا كاملًا، ولا شك أن بونابرت الذي ضعف ضعفًا واضحًا ظاهرًا لن يستطيع أن يفعل شيئًا.

إن دولغوروكوف، وكان من أشد الضباط حماسة للهجوم، قد عاد من اجتماعِ المجلس منذ برهة قصيرة منهوك القوى مكدودًا، ولكنه يفيض حماسةً واعتزازًا بالنصر الذي تحقّق.

قدَّم إليه الأمير أندريه صاحبه بوريس الذي يريد أن يتوسّط له، ولكن دولغوروكوف الذي صافح الأمير أندريه بأدب وحرارة لم يخاطب بوريس بكلمة، وإنما اتجه بالكلام إلى الأمير أندريه بالفرنسية، وكان واضحًا أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإفصاح عن الأفكار التي كانت تشغل باله في تلك اللحظة أكثر من أي شيء آخر.

- آه يا عزيزي... ليتك رأيت المعركة الضارية التي خضناها! ولكننا نسأل الله أن تكون المعركة التي ستسفر عنها هذه المعركة مظفَّرة منتصرة هي أيضًا.

واصل كلامه يقول بنبرة حية متقطّعة:

- هل تعلم يا عزيزي؟ يجب عليَّ أن أعترف بأخطائي في حق النمسويين، ولا سيما في حق فايروتهر. ما أعظم هذه الدقة، وهذا الضبط، وما أوسع هذه المعرفة بالأرض، وما أبعد هذا التنبؤ بجميع الاحتمالات، وبجميع الظروف، وبأيسر التفاصيل شأنًا! حَقًّا يا عزيزي، لا يستطيع المرء أن يتخيل ظروفًا أكثر مواتاة للهجوم من الظروف التي نحن فيها. التحالف بين الدقة النمسوية والشجاعة الروسية، ماذا تريد أكثر من هذا؟

سأله بولكونسكي:

- هل اتُخذ إذًا قرار حاسم بالهجوم؟

فأجاب دولغوروكوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

– ويبدو لي يا عزيزي أن بونابرت لا يفقه من الأمر شيئًا. هل تعلم أن الإمبراطور تلقّى اليوم رسالة منه؟

– حَقًّا؟ ماذا قال في الرسالة؟

– ما عساه يقول؟ خلط ملط!... كل ما يريده هو كسب الوقت. أقول لك إننا الآن قابضون عليه متحكّمون به. لا شك في هذا.

وأضاف دولغوروكوف يقول ضاحكًا ببراءة وطيبة:

– لكن أظرف ما في الأمر أن أحَدًا لم يعرف كيف يجب أن يبعث إليه الرد، وما هي الصفة التي ينبغي أن يُخاطب بها. ولما كان لا يجوز أن يلقَّب بالقنصل، ولا بالإمبراطور طبعًا، فقد كان رأيي أن يصدَّر الجواب بهذه الجملة: إلى الجنرال بونابرت.

قال بولكونسكي:

– في الإمكان ألا يُعترف به إمبراطورًا، ولكن شتان بين هذا وبين أن يُسَمّى الجنرال بونابرت...

فسرعان ما قاطعه دولغوروكوف قائلًا وهو يضحك:

– تمامًا. وهذا ما جعل الأمر مضحكًا. هل تعرف بيليبين؟ إنه شاب ذكي جِدًّا. وقد اقترح أن يخاطَب نابوليون كما يلي: «إلى المغتصب وعدو النوع الإنساني».

– فقط؟

– ولكن بيليبين هو الذي وجد مع ذلك صيغة لا يتصوَّر المرء صيغة أخرى تفوقها في الجد. إنه فتى يحب المزاح ولكنه في الوقت نفسه على حد كبير من الذكاء.

– ما الصيغة التي وجدها؟

قال دولغوروكوف بلهجة تنمّ عن الجد والارتياح:

– إلى رئيس الحكومة الفرنسية.

قال بولكونسكي:

– نعم، ولكن هذه المخاطبة ستسوؤه كثيرًا.

– طبعًا. ستسوؤه جِدًّا. إن أخي يعرفه حق معرفته، هذا الإمبراطور

المرتجَل. تغدَّى معه في باريس غير مرة، فهو يقول عنه إنه لم يلقَ في حياته ديبلوماسيًا يضارعه دهاء وحذَقًا. مزيج من الحذق الفرنسي والتظارف الإيطالي. هل تعرف النكات التي تروج عن علاقاته بالكونت موركوف؟ يجب أن نشير هنا إلى أن الكونت موركوف هو الرجل الوحيد الذي عرف كيف يعامله. هل تعرف حكاية المنديل، مثلًا؟ حكاية رائعة...

وأخذ دولغوروكوف المكثار، وهو يتجه بالحديث تارة إلى بوريس وتارة إلى الأمير أندريه، يروي أن بونابرت أراد أن يمتحن سفيرنا موركوف[1]، فتعمّدَ أن يُسقط منديله أمامه على الأرض، وتوقف عن الكلام ناظرًا إلى المنديل آملًا بأن يناوله إياه موركوف. فما كان من موركوف إلّا أن أسرع يُسقط منديله بقرب منديل نابوليون، ثم انحنى يتناوله من دون أن يمس منديل بونابرت.

قال بولكونسكي:

- رائع! ولكنني أريد أن أحدّثك في أمر يا أمير؛ لقد جئت إليك وسيطًا لهذا الفتى. إنه...

ولكن ضابطًا مرافقًا وصل يستدعي دولغوروكوف إلى الإمبراطور، قبل أن ينهي الأمير أندريه جملته. فقال دولغوروكوف وهو ينهض مسرعًا ويصافح الأمير أندريه وبوريس:

- يؤسفني أن أستُدعى وأنت هنا. ولكنك تعلم إنه سيسعدني جِدًّا أن أفعل كل ما يمكنني من أجلك ومن أجل هذا الشاب اللطيف.

وصافح بوريس مرة أخرى وقد لاح في وجهه تعبير عن الطيّبة، زاخر بالصدق والحماسة لكنه سطحي، وأضاف يقول:

- فإلى مرة أخرى!

ما كان أشد انفعال بوريس إذ أحسَّ في تلك اللحظة بأنه قريب من السلطة العليا هذا القرب كله. لقد شعر بأنه هنا على اتصال بالنوابض المحرِّكة لتلك الكتل الضخمة التي يحس في فوجه أنه ليس منها إلّا جزءًا صغيرًا تافهًا!

---

(1) الدبلوماسي آركادي موركوف (1747 – 1827)، خُلع عليه لقب كونت سنة 1796، وعُيّن سفيرًا لروسيا في باريس من سنة 1801 إلى سنة 1803.

وسار الأمير أندريه وبوريس في الدهليز خلف الأمير دولغوروكوف، فرأيا هنالك رجلًا بثياب مدنية خارجًا من عند الإمبراطور، (من الباب الذي دخله دولغوروكوف)، قصير القامة، ذكيَّ الوجه، له فك ناتئ حادّ يهب لهيئته قدرة على الحركة السريعة في التعبير. وقد حيًّا هذا الرجل القصير صاحبنا دولغوروكوف بحركة من رأسه كما يحيي صديق حميم صديقًا حميمًا، وألقى على الأمير أندريه نظرة ثابتة باردة، وتقدّم نحوه وهو يعتقد في أغلب الظن أن الأمير أندريه سيحيّيه وسيتنحّى عن طريقه. ولكن الأمير أندريه لم يفعل لا هذا ولا ذاك. فعبَّر وجه الشاب عن غضب، وأشاح رأسه، وابتعد في الدهليز.

قال بوريس يسأل:

- من هذا؟

- رجل من أبرز الرجال، ولكنه من أبغضهم إلى نفسي. إنه وزير الشؤون الخارجية الأمير كزارتوريسكي[1].

وأضاف بولكونسكي وهو يتنهد تنهدًا لم يستطع أن يكبحه وهما يخرجان من القصر:

- أمثال هؤلاء الناس يقررون مصير الشعوب!

وفي الغد تحركت القطعات. وإذ لم يستطع بوريس قبل معركه أوسترلتس أن يرى الأمير أندريه بولكونسكي ولا الأمير دولغوروكوف، فقد بقي في فوج إسماعيلوفسكي.

---

(1) الأمير آدم كزارتوريسكي، أمير بولندي طائل الثراء (1770 - 1861) جاء إلى بطرسبورغ سنة 1795 وأصبح فيها الصديق الحميم لألكسندر الأول، وعينه ألكسندر وزيرًا للشؤون الخارجية من سنة 1802 إلى سنة 1805، وكان من أنصار السلافية، وكانت له آمال سلافية عريضة، فكان يقول بثورة الصرب على تركيا ويحلم بإعادة بناء بولنده تحت صولجان ألكسندر الأول.. فلما خيّبت ظنه سياسة ألكسندر المصادقة لبروسيا، أحال نفسه على التقاعد، وأصبح قيّمًا على جامعة فيلنا. وفي عام 1831 انضم إلى ثورة بولنده على نيقولا الأول، وانتُخب رئيسًا للحكومة المؤقتة. ثم هاجر إلى باريس، وظل سنين طويلة يدير العمل الدبلوماسي للهجرة البولندية.

الفصل العاشر

في فجر اليوم السادس عشر تحرّكت كتيبة دينيسوف التي كان فيها نيقولا روستوف والتي كانت جزءًا من مفرزة الأمير باغراتيون، فتركت مخيماتها إلى القتال، أو ذلك ما كان يدَّعي على الأقل. ولكنها ما إن قطعت قرابة فرسخ واحد وراء سائر الأرتال حتى توقفت على الطريق الكبير. ورأى روستوف مرور القوزاق، ومرور السرية الأولى والسرية الثانية من سرايا الفرسان، وكتائب المشاة مع المدفعية، ثم رأى مرور الجنرال باغراتيون والجنرال دولغوروكوف مع مرافقيهما. كان روستوف، وقد شعر بالخوف يجتاحه في هذه المرة أيضًا، قد قام بجهود كبيرة للتغلب على هذا الخوف. وفي هذه المرة أيضًا كان قد حلم بأن يكون سلوكه سلوك بطل، سلوك فارس حَقًّا. فإذا بذلك كله يتبدد، لأن كتيبته قد جُعلت كتيبة احتياط. فقضى روستوف نهاره كله في ضجر وحزن.

وفي الساعة التاسعة من الصباح سمع طلقات رصاص وصيحات «هوررررا» أمامه، ورأى جرحى يُحملون إلى خلف (وكان عددهم قليلًا)، ورأى في النهاية كوكبة كاملة من الفرسان الفرنسيين تمر بين سرية قوزاق. واضح إذن أن معركة قد انتهت، وهي معركة ليست ضخمة لكنها موَّفقة. ولقد كان الجنود والضباط الذين عادوا منها يتحدّثون عن انتصار باهر، وعن احتلال مدينة فيشاو،[1] وعن أسر سرية كاملة من الفرنسيين.

كان الجو صافيًا مشمسًا بعد التجلد الشديد الذي كان في الليل؛ فكان

---

(1) تسمى بالتشيكية فيسنيوفا، وهي مدينة صغيرة على الطريق من زنويمو إلى برنو.

الضياء الفرح في ذلك اليوم من أيام الخريف يتفق والنصر الجديد الذي كانت تؤكده لا روايات أولئك الذين شاركوا فيه فحسب، بل يؤكده كذلك ما يلوح من آيات الابتهاج والاغتباط في وجوه الجنود والضباط والجنرالات والضباط المرافقين، الذين كانوا يمرون بروستوف في الاتجاهين. فكان من شأن ذلك أن قلب نيقولا روستوف الذي عنَّاه، في غير طائل، ما يسبق المعركة من خوف وقلق والذي كان قد قضى النهار كله عاطلًا عن العمل، قد ازداد انقباضًا أليمًا.

صاح دينيسوف يناديه وهو جالس على حافة الطريق أمام قارورة وأطعمة:

- روستوف، تعال هنا. فلنشرب لنغرِق حزننا!

تحلق الضباط يأكلون ويثرثرون.

وقال واحد منهم وهو يشير إلى خيَّال فرنسي أسير كان يسير على قدميه ويخفره اثنان من القوزاق:

- وهذا واحد آخر يقتادونه!

وكان أحد القوزاق يجرّ حصانًا فرنسيًا ضخمًا جميلًا انتزعه من الأسير.

صاح دينيسوف يقول للقوزاقي:

- بِعني هذا الحصان!

- إذا شئت يا صاحب السعادة!

فقام الضباط وأحاطوا بالقوزاق والأسير. إن الخيَّال الفرنسي فتى ألزاسي يتكلم اللغة الفرنسية بلهجة ألمانية. وكان يلهث من شدة الانفعال، وكان شديد الاحمرار، فلما سمع كلامًا بالفرنسية أخذ يشرح للضباط، متدفقًا في الكلام، متجهًا إلى هذا تارة والى ذاك تارة أخرى، إنه ما كان ليؤسر كما أُسر لولا «الكابورال»، فالغلطة ليست غلطته إن هو أسر، بل هي غلطة الكابورال الذي بعثه في طلب أغطية، وأنه قال للكابورال إن الروس بلغوا هذا المكان، فليس من الحكمة في شيء أن يرسله في طلب أغطية. وكان يضيف في كل مرة: لا تسيئوا إلى حصاني العزيز. يقول ذلك وهو يلامس بيديه حصانه ملاطفًا. وكان يعتذر في بعض الأحيان عن أنه استسلم

للأسر، ويتصور في أحيان أخرى أنه أمام رؤسائه فيأخذ يؤكد أنه كان جنديًا متحمّسًا أشد الحماسة، مندفعًا في القتال أكبر الاندفاع. بفضل هذا الخيَّال الأسير استطاعت مؤخّرة جيشنا أن تعرف كل ما يشيع في جو الجيش الفرنسي من نضارة لم تكن تتخيلها.

باع القوزاقيان حصان الفرنسي بدينارين. باعاه لروستوف، أغنى ضباطنا منذ أن وصل إليه المال من أهله.

وكرّر الإلزاسي لروستوف وهو يتسلم الحصان:

- لا يسيئن أحد إلى حصاني العزيز.

فطمأن روستوف الخيَّال الفرنسي مبتسمًا، ونفحه مالًا.

قال القوزاقي وهو يمسك ذراع الأسير ليحمله على متابعة السير:

- امشِ، امشِ!

وتعالى صياح بين الفرسان على حين فجأة:

- الإمبراطور! الإمبراطور!

فاضطرب كل شيء، وركض جميع الجند، ورأى روستوف وراءه على الطريق بضعة فرسان مقبلين، ورأى قنزعات بيضاء على القبَّعات. فما هي إلَا لحظة حتى صار كل رجل في مكانه من الصفوف ينتظر.

وكان روستوف قد رجع إلى مكانه راكضًا وهو لا يعرف ماذا يفعل، وزايله أسفه على أنه لم يشارك في القتال، وزايله الضجر الذي كان يشعر به بين هذه الوجوه التي يعرفها كثيرًا، ذهب ذلك كله في طرفة عين، وغاب عن ذهنه كل ما يشغل باله، إذ غمره وأغرقه سيل السعادة التي أيقظها في نفسه إقبال الإمبراطور. كان هذا الحضور وحده يعوّضه كل الخسارة التي مني بها ذلك النهار الذي ضاع في غير طائل. كان سعيدًا سعادة عاشق ظفر أخيرًا بالموعد الذي طالما انتظره. وكان لا يجرؤ أن يدير رأسه وهو في مكانه من الصفوف، ولكنه كان دون أن يدير رأسه يحس إقبال الإمبراطور بغريزته فتشتعل نفسه حماسة. ولئن كان يحس اقتراب الإمبراطور، فليس سبب ذلك ما يحدثه دنوّ الموكب من ضجة ما تنفكّ تقوى فحسب، بل أيضًا أن كل شيء حوله كان يصبح أشد ضياء، وأعظم فرحًا، وأبلغ دلالة، وأحقّ

بمعنى العيد. كانت الشمس، (أي الإمبراطور في نظر روستوف) تقترب مزيدًا من الاقتراب، فتنشر حولها أشعة ضياء لطيف مهيب جليل، فهذا هو روستوف يشعر بتلك الأشعة تغمره، وها هو ذا يسمع صوت الإمبراطور، ذلك الصوت الودود، الهادئ، الذي يتصف بالشموخ ولكنه يتصف في الوقت نفسه بأعظم البساطة.

وكما كان يتوقع روستوف فقد خيّم صمت كصمت الموت، وسمع صوت الإمبراطور وسط هذا الصمت يقول سائلًا:

- أفرسان بافلوجَرَّاد؟

فأجابه صوت من أصوات البشر بعد صوته الذي يفوق أصوات البشر: «أفرسان بافلوجَرَّاد؟» أجابه يقول:

- هو الاحتياط يا سيدي.

ووصل الإمبراطور إلى مستوى روستوف وتوقف. كان وجه الإمبراطور أعظم جمالًا وأروع فتنة مما كان يوم الاستعراض قبل ثلاثة أيام. كان يشعّ فرحًا عظيمًا وكان يفيض شبابًا، شبابًا يمتاز بأعظم البراء ويذكّر ببساطة فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره وكان هذا الوجه نفسه مع ذلك وجه إمبراطور مهيب فخم جليل. وفيما كان يجيل طرفه عرضًا على السرية وقعت عيناه على عيني روستوف، فتلبثتا عليهما ثانيتين لا أكثر. هل أدرك الإمبراطور ما كان يحدث في نفس روستوف؟ لقد بدا لروستوف أن الإمبراطور أدرك كل ما كان يجيش في نفسه؟ نظر إليه بعينيه الزرقاوين لثانيتَيْن كانتا تشعان هدوءًا ساجيًا وضياء رقيقًا. وفجأة رفع الإمبراطور حاجبيه، وهمز حصانه بحركة مفاجئة من ساقه اليسرى، وأسرع يعدو عدوًا.

كأنّ الإمبراطور لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يشهد المعركة، فرغم ما صوَّره له رجاله وحاشيته، انفصل عن الرتل الثالث الذي كان يتبعه، فما كان الظهر حتى وصل الطليعة، وما إن بلغ الفرسان حتى أنبأه الضباط المرافقون بالنتيجة الموفَّقة التي انتهت إليها المعركة.

إن تلك المعركة التي لم تسفر في حقيقة الأمر إلّا عن أسر سرية فرنسية، قد صوَّرها الضباط المرافقون على أنها نصر باهر. لذلك اعتقد الإمبراطور،

لا سيما وأن دخان البارود لم يكن قد تبدد من فوق ساحة المعركة، إن الفرنسيين قد هُزموا وأنهم يتراجعون مندحرين. وبعد بضعة لحظات من مرور الإمبراطور صدر الأمر بالتقدّم إلى الفرقة التي تنتمي إلى فوج بافلوجَرَّاد. وقد أتيح لروستوف أن يرى الإمبراطور مرة أخرى في مدينة فيشاو. وفي ميدان المدينة الذي جرى فيه تبادل كثيف لإطلاق النار قبل وصول الإمبراطور وكان يرقد على الأرض عدد من الموتى والجرحى لما يتسع الوقت لنقلهم بعد. كان الإمبراطور هذه المرة يركب حصانًا هجينًا، غير الحصان الذي ركبه في الاستعراض، فمال إلى جانب وقد أحاطت به حاشيته من العسكريين والمدنيين حاملًا، بحركة تفيض رشاقة، نظارة من ذهب، ونظر إلى جندي كان راقدًا مكبًّا بوجهه على الأرض غارقًا في الدماء لا يغطيه معطف، وكان ذلك الجندي يبلغ من الوساخة والدمامة ومن الغلظة أن وجوده على مقربة من الإمبراطور قد ساء روستوف. ورأى روستوف كتفَيْ الإمبراطور المقوَّستَيْن قليلًا ترتعشان كأنما سرت فيهما رعدة، ورأى قدمه اليسرى تحرّك المهماز ضاربةً بطن الحصان ضربًا فيه تشنج، ولكن الحصان الذي كان منتصب القامة ينظر في ما حوله بغير اكتراث دون أن يتحرك، ظل واقفًا في مكانه لا يتقدّم. هنا نزل ضابط مرافق عن حصانه فحمل الجندي من تحت إبطيه وأخذه يسجيه على محفة جيء بها. كان الجندي يئن أنينًا موجعًا. قال الإمبراطور الذي كان واضحًا أنه يتألم أكثر من الجندي المحتضر:

- برفق، برفق، ألا يمكن حمله برفق أكبر؟

ومضى إلى أمام.

ورأى روستوف الدموع تملأ عيني الإمبراطور، وسمعه يقول بالفرنسية وهو يمضي:

- الحرب شيء فظيع! الحرب شيء فظيع!

كانت قطعات الطليعة قد رابطت أمام فيشاو، يراها العدو الذي ظل طوال النهار يتراجع كلما أطلقنا عليه شيئًا من نيران بنادقنا. وعبّر الإمبراطور للطليعة عن شكره وتقديره، ووُعد الجند بمكافآت، ووُزّع على

كل فرد من الأفراد ضعف ما يوزَّع عليه عادة من فودكا. وكانت طقطقة نيران المعسكرات، وأصوات أغاني الجنود تنطلق أشد فرحًا وأعظم تهليلًا من الليلة البارحة. واحتفل دينيسوف تلك الليلة بترقيته إلى رتبة ميجر. وفي ختام الحفلة نهض روستوف، وكان قد أسرف في الشراب قليلًا، فحمل كأسه إلى شفتيه وهو يقول: «نخب الإمبراطور» وأضاف يقول: «ليس نخب صاحب الجلالة الإمبراطور التي يشربه الناس في الولائم، بل نخب صحة عاهل طيّب عظيم يأخذ بمجامع القلوب. فلنشرب نخب صحته، ونخب انتصاره المحقَّق على الفرنسيين!».

ثم أضاف:

- إذا كنا قاتلنا حتى الآن ولم نخف من الفرنسيين كما في شونجَرَّابن؟ فما عسى تكون الحال الآن وهو على رأسنا؟ لنموتنَّ جميعًا، لنموتنَّ جميعًا فرحين في سبيله. أليس كذلك يا سادة؟ لعلّي لا أحسن التعبير، فقد أسرفت في الشراب. ولكن هذا هو ما أشعر به، وما تشعرون به أنتم أيضًا. نخب ألكسندر الأول. هورررا!...

فرددت أصوات الضباط متحمسة تهتف:

- هورررا!...

وكان الكابتن الشيخ كيرستن يهتف بحماسة وصدق لا يقلّان عن حماسة وصدق روستوف الشاب الذي عمره عشرون عامًا.

وحين أفرغ الضباط كؤوسهم وحطموها، ملأ كيرستن كؤوسًا أخرى. وحمل كأسه يُلوِّح بها بحركة عريضة، واستدار إلى معسكر الجنود يستره قميصه ذو الكمين وسرواله، سروال الفارس. ووقف أمام الجنود وقفة مهيبة جليلة، وقد برز صدره الشائب الذي كان يُرى من خلال تجويف قميصه المفتوح، وبرز شارباه الطويلان الأشيبان في ضوء النيران، وقال:

- هيا أيها الأولاد الشجعان! لنشرب نخب صحة صاحب الجلالة الإمبراطور، ولنشرب نخب النصر على العدو.

وصرخ هاتفًا بصوته الجهير الذي يظهر فيه أنه صوت فارس شيخ له قيمته:

- هوررررا!

فأحاط به الفرسان، وأخذوا يحيونه بهتافات صاخبة مجلجلة يطلقونها صوتًا وأحَدًا.

وفي ساعة متأخرة من الليل، حين انسحب جميع الضباط، ربّت دينيسوف بيده الصغيرة القصيرة على كتف صاحبه الأثير روستوف، وقال له:

- لا يجد المرء هنا من يعشقه ويتولّه بحبه، فيهيم بحب الإمبراطور!

فصاح روستوف يقول:

- لا تمزح في هذا. هذه عاطفة تبلغ غاية السمو، وغاية الجمال، وغاية...

فقاطعه دينيسوف يقول له:

- أصدّقك، أصدّقك يا صديقي الصغير، وإني لأشاطرك هذه العاطفة وأحبّذها وأؤيدها...

- بل أنت لا تفهم!

ونهض روستوف، ومضى يطوف بين نيران المعسكر، حالمًا بالسعادة العظيمة التي ستغمره لا إن هو مات لا إنقاذًا لحياة الإمبراطور (فهو لا يجرؤ حتى أن يحلم بهذا)، بل إن هو مات على مرأى من الإمبراطور. كان مولَّهًا بحب القيصر فِعلًا، مؤمنًا بمجد الجيوش الروسية، ولا يراوده شك في أن النصر قريب. ولم يكن وحده يشعر بهذه العواطف في تلك الأيام المذكورة التي سبقت معركة أوسترلتس[1]، بل كانت تسعة أعشار الجيش الروسي في ذلك الأوان هائمة في حب قيصرها، موقنة بمجد الجيوش الروسية، ولو بحماسة لا تضارع حماسة روستوف في حرارتها وحمياها.

---

(1) وتسمى بالتشيكية سلافكوف، وهي قرية تقع على مسافة 13 كم من برنو شرقًا. في ذلك المكان إنما قامت المعركة المشهودة، معركة اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر)، وهو يوم 20 تشرين الثاني (نوفمبر) بحسب التقويم الروسي.

الفصل الحادي عشر

في الغد استقر الإمبراطور بمدينة فيشاو. وقد استُدعى إليه طبيب البلاط فيلييه[1] عدة مرات في ذلك اليوم. وانتشر في القيادة العامة وبين أقرب القطعات أن الإمبراطور مريض. وقال المقرَّبون منه إنه لم يصب طعامًا، ولم ينم في تلك الليلة. وكان سبب هذا المرض ما أحدثه منظر الجرحى والموتى من أثر في نفس الإمبراطور الحساسة.

وفي فجر اليوم السابع عشر[2]، تقدّم نحو طلائعنا ضابط فرنسي يحمل الراية البيضاء التي يحملها المفاوضون، وطلب أن يقابل ملك روسيا، فاقتيد إلى فيشاو. كان هذا الضابط هو سافاري[3] وكان الإمبراطور قد نام منذ مدة قصيرة، فاضطرّ سافاري أن ينتظر. حتى إذا كان الظهر أُدخل على الإمبراطور، وبعد ساعة عاد متجهًا إلى المخافر الأمامية من الجيش الفرنسي يصحبه الأمير دولغوروكوف.

وراحت إشاعة تقول إن الغرض من مجيء سافاري هو أن يقترح لقاء بين الإمبراطور ألكسندر ونابوليون. وقد رفض ألكسندر أن يتم لقاء شخصي، ففرح الجيش كله بذلك واعتز به. ومضى دولغوروكوف، منتصر

(1) جيمس فيلييه (1765 - 1854)، بارون صغير أيقوسي كان في روسيا منذ سنة 1790، وقد أصبح الطبيب الأثير عند ألكسندر الأول، وهو الذي أنشأ الأكاديمية الطبية في سان بطرسبورغ.

(2) أي في فجر 29 تشرين الثاني (نوفمبر).

(3) رونيه سافاري (1774 – 1823)، جنرال فرنسي، كان وزير الشرطة في عهد نابوليون.

فيشاو، يصحب سافاري، نائبًا عن الإمبراطور، للباحث نابوليون، إذا صح أن نابوليون يريد السلم حَقًّا، على خلاف ما يُتوقَّع منه.

وعاد دولغوروكوف في المساء، ومضى إلى الإمبراطور رأسًا، وخلا إليه زمنًا طويلًا.

وفي اليومين الثامن عشر والتاسع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تقدّمت القطعات مرحلتين أخريين، وانسحبت طلائع العدو بعد تبادل إطلاق الرصاص قليلًا. وابتداء من ظهر اليوم التاسع عشر شب فوران كبير في الدوائر العليا من الجيش دام حتى صباح اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني، وهو اليوم الذي نشبت فيه معركة أوسترلتس التي لا تُنسى ذكراها.

حتى ظهر اليوم التاسع عشر كان الغليان والأحاديث الحامية والذهاب والإياب وإرسال الضباط المرافقين، مقتصرًا على المقر العام للإمبراطورَيْن. حتى إذا كان الظهر من ذلك اليوم نفسه سرت هذه الحركة إلى مقر القيادة العامة التي يرأسها كوتوزوف، وإلى هيئات الأركان لرؤساء الجيوش. وفي المساء امتدت هذه الحركة بواسطة ضباط مرافقين إلى الجيش كله، من أوله إلى آخره. وفي الليلة التي تصل اليوم التاسع عشر باليوم العشرين كانت كتلة العشرين ألفًا من الرجال الذين يتألف جيش الحلفاء قد خرجت من المعسكرات، وامتلأت بصخب الأصوات، وتحركت جبهة ضخمة هائلة مسافة تسعة فراسخ.

إن الحركة المركَّزة التي انطلقت في الصباح من مقر الأباطرة، وولّدت تلك الاندفاعة العامة، تشبه الحركة الأولى التي ينطلق بها الدولاب المحرك لمجموع دواليب ساعة ضخمة من ساعات الحائط. فيتحرك أحد الدواليب ببطء، ثم يتحرك دولاب آخر، فدولاب ثالث، ثم بسرعة ما تنفك تزداد، تتحرك المسننات والبكرات والدواليب الصغيرة المتشابكة، ثم يرن الجرس حين يجب أن يرن، وتظهر الدمى في الوقت الذي ينبغي أن تظهر فيه متعاقبة متتالية، وتتقدّم عقارب الساعة تقدّمًا منتظمًا، مشيرة إلى ثمرة الحركة.

إن الآلة الحربية كجهاز ساعة ضخمة من ساعات الحائط، متى انطلقت

فيها الحركة مضت إلى النهاية مضيًا لا سبيل إلى مقاومته، وبقي كل جزء من أجزاء الجهاز الذي لم يحن حينه بعد، ساكنًا إلى أن تبلغه الحركة فيتحرك. إن الدواليب تصر فوق محاورها وتتشابك أسنانها، وإن الدوران يجعل المسننات تئن، ولكن الدولاب المجاور يبقى ساكنًا جامدًا حتى لكأنه مستعد أن يبقى على هذا السكون والجمود مئات السنين. ولكن حين يحين الحين، إذا بجزء من أجزاء الجهاز يمسك به، وإذا هو ينخرط في مجموع الحركة، فيأخذ يدور صارًّا، وإذا هو يندمج في فعل واحد لا يفهم نهايته ولا يفهم الهدف منه.

وكما أن تلك الحركة المعقَّدة في الدواليب التي لا نهاية لعددها في الساعة الضخمة ليس لها من نتيجة إلّا تحريك عقرب الساعة تحريكًا بطيئًا منتظمًا يشير إلى الوقت، فكذلك لم يكن لتلك الحركات الإنسانية المعقدة التي تحرك أولئك المائة والستون ألف رجل من الروس والفرنسيين، ولم يكن لجميع تلك الأهواء التي عصفت بهم، والرغبات التي شبت في نفوسهم، وأنواع الحسرة التي ملأت جوانحهم، وألوان الإذلال التي ذاقوها، وفنون العذاب التي عانوها، واندفاعات الكبرياء التي شبَّت في قلوبهم، ومشاعر الخوف والحماسة التي اعترتهم، لم يكن لهذا كله إلّا نتيجة واحدة هي خسران معركة أوسترلتس التي تسمى معركة الأباطرة الثلاثة، أي تحرك «عقرب» التاريخ العام تحركًا بطيئًا على وجه ساعة تاريخ الإنسانية.

كان الأمير أندريه ذلك اليوم مناوبًا، فلم يترك رئاسة القيادة العامة.

ووصل كوتوزوف إلى مقر القيادة العليا في نحو الساعة السادسة من المساء. فبعد أن لقي الإمبراطور لقاء قصيرًا، ذهب إلى مارشال البلاط الأكبر، الكونت تولستوي[1].

فانتهز بولكونسكي هذه الفرصة ليمضي يلتمس تفاصيل أنباء الوضع من دولغوروكوف. كان الأمير أندريه بولكونسكي يحسّ أن كوتوزوف قلِق

---

(1) نيقولا ألكسندروفتش تولستوي (1761 - 1816)، ابن عم جد الكاتب ليون تولستوي.

مشوَّش ومستاء ممتعض، وأن القيادة العليا مستاءة منه أيضًا، وأن الجميع يخاطبونه بلهجة أناس يعرفون شيئًا يجهله الآخرون. لذلك كان يريد أن يتحدّث مع دولغوروكوف.

قال له دولغوروكوف وكان يشرب الشاي مع بيبلين:

- ها... يومك سعيد يا عزيزي. العيد غدًا. ما رأي صاحبك الشيخ؟ أهو ممتعض؟

- لا أقول إنه ممتعض، لكنني أعتقد أنه كان يتمنى أن يُصغى إليه.

- ولكنهم أصغوا إليه في مجلس الحرب، وسيصغون إليه أيضا حين يقول كلامًا فيه عقل. أما التأخير وانتظار ما لا يعلمه إلّا الله، بينما لا يخشى نابوليون الآن شيئًا كما يخشى قيام معركة شاملة، فهذا مستحيل.

قال الأمير أندريه:

- بالمناسبة، أنت رأيت بونابرت. فما رأيك فيه؟ ما الأثر الذي تركه في نفسك؟

- نعم رأيته، فأيقنت أنه لا يخشى شيئًا في العالم أكثر مما يخشى قيام معركة شاملة.

كذلك ردد دولغوروكوف الذي كان واضحًا أنه يحرص حرصًا شديدًا على هذا الرأي الذي استخلصه من مقابلته لنابوليون. وأردف:

- لو كان لا يخشى قيام المعركة، فهل كان يطلب هذا اللقاء بينه وبين الإمبراطور، وهل كان يُجري هذه المباحثات، وهل كان ينكفئ هذا الانكفاء، مع أن هذا التقهقر ينافي جميع أساليب الحرب ومناهجها؟ صدِّق أنه يخشى قيام معركة، معركة شاملة. لقد دقت ساعته. لقد حان حينه. أنا أقول لك هذا.

عاد الأمير أندريه يسال دولغوروكوف:

- ولكن حدّثني كيف هو. صِفهُ لي.

- هو رجل يرتدي ردنجوتًا رماديًا، ويحرص حرصًا شديدًا على أن أخاطبه بقولي «صاحب الجلالة»، وما كان أشد حزنه وأسفه لأنني رفضت أن أهب له أيّ لقب!

بذلك أجاب دولغوروكوف وهو يلقي نظرة سريعة على بيليبين مبتسمًا. وواصل كلامه قائلًا:

- رغم احترامي العميق للشيخ كوتوزوف، فإن من الحماقة أن ننتظر مزيدًا من الانتظار، فنهب له فرصة الإفلات، ونتيح له أن يخدعنا، بينما هو بين أيدينا حتمًا. يجب أن لا ننسى سوفوروف ومبدأه «لا تضع نفسك في موضع المهاجَم، بل بادر أنت إلى الهجوم». صدّقني إذا قلت لك إن طاقة الشباب تحسن اكتشاف الطريق في غالب الأحيان أكثر من تجربة أشيخ الكونكتاتورين[1].

قال الأمير أندريه:

- ولكن في أي وضع نهاجم؟ لقد ذهبت اليوم إلى الطلائع، فرأيت أن من المستحيل على المرء أن يعرف أين توجد قواته الرئيسية على وجه التحديد.

وود لو يحدِّث دولغوروكوف عن خطة الهجوم التي كان قد تصوّرها. ولكن دولغوروكوف انبرى يقول بحرارة وهو ينهض ويلقى خريطة على الطاولة:

- لقد تم تصور جميع الحالات، فإن كان في برون... وطفق يشرح، بسرعة وغموض، حركة الالتفاف التي يتصورها فايروتهر.

وقد أبدى الأمير أندريه اعتراضات، وعرض خطته التي يمكن أن تكون صالحة صلاح خطة فايروتهر، وإنما يعيبها أنها جاءت بعد خطة فايروتهر التي فازت بالتأييد. وما إن شرع في بيان مساوئ الخطة الأخرى ومحاسن خطته هو، حتى كف الأمير دولغوروكوف عن الإصغاء إليه. وبدلًا من أن ينظر إلى الخريطة أخذ ينظر في عيني الأمير أندريه ذاهلًا وقال:

- على كل حال، سينعقد اليوم مجلس حرب عند كوتوؤوف، فيكون في وسعك أن تبسط هذه الآراء كلها فيه.

---

(1) الكونكتاتور كلمة لاتينية معناها «المؤجل»، وقد أطلقت هذه الكلمة لقبًا للدكتاتور الروماني مابيوس، الخصم المتأني المتريث تجاه هانيبعل الشديد الحمية والاندفاع.

قال الأمير أندريه وهو يبتعد عن الخريطة:

- هذا ما سأفعله.

قال بيليبين الذي أصغى إلى المحادثة حتى ذلك الوقت مبتسمًا ابتسامة مرحة، وكان واضحًا أنه ينتوي الآن أن يمزح:

- ولكن علام تشغلان بالكما أيها السيدان! سواء أحققنا في غد نصرًا أم مُنينا بهزيمة، فإن مجد الجيوش الروسية مضمون مؤكد. فليس بين جميع قادة الجيوش قائد واحد روسي عدا صاحبك كوتوزوف. إن القادة هم: هر جنرال فميغن[1]، والكونت دولانجرون[2] والأمير دو ليشتنشتاين[3]، والأمير دو هوهنلوهه[4]، وأخيرًا برشـ... برشـ...[5]، وهلم جَرًّا، كسائر الأسماء البولندية.

قال دولغوروكوف:

- اسكت يا سليط اللسان. ليس ما تقوله صحيحًا. إن بين القادة الآن قائدَيْن روسيين هما ميلودرادوفتش[6] ودوختوروف، وسوف يكون بينهم

(1) جنرال نمسوي ألحق بهيئة أركان حرب كوتوزوف سنة 1805.

(2) ألكسندر دو لانجرون (1763 - 1831): خدم في الجيش الفرنسي، وقاتل بأمريكا سنة 1831. لقد هاجر حين قيام الثورة ودخل في خدمة روسيا سنة 1790، نال رتبة جنرال منذ 1805 وتميز في الحملات التي شنت على تركيا وفرنسا. في 30 آذار (مارس) 1814 كان على رأس جيشه في مونمارتر ودخل باريس. وقد كتب «مذكرات» شائقة.

(3) جان - جوزيف دو ليشتنشتاين (1760 - 1836)، فيلدمارشال نمسوي. بعد هزيمة أوسترلتس ترأس المفاوضات التي أدت إلى معاهدة برسبورج في كانون الأول (ديسمبر) 1805. وشارك بعد ذلك في معارك ايسلنج وفاجرام سنة 1809.

(4) فريدريك لويس دو هوهنلوهه (1746 – 1818)، جنرال نمسوي.

(5) هو الجنرال الروسي، اجناس برزيبسرفسكي، أصله بولندي، قاد إحدى فصائل الجيش في أوسترلتس وجُرّد من رتبته بعد أن استسلم للفرنسيين.

(6) ميشيل ميلودرادوفتش (1771 - 1825)، له أصول صربية بعيدة. جنرال في سلاح الفرسان يتصف ببسالة عظيمة. تميز في جميع الحروب منذ 1787 إلى 1814. وقد مُنحَ لقب كونت سنة 1816، وأصبح قائدًا للحرس وحاكمًا عامًا لمدينة بطرسبورغ.

قائد ثالث هو آراكتشييف[1] ولكن أعصابه ضعيفة.

قال الأمير أندريه:

- لا بد أن اجتماع ميخائيل ايلاريونوفتش قد انتهى.

وأضاف يقول:

- أتمنى لكم التوفيق يا سادة.

وخرج بعد أن صافح دولغوروكوف وبيليبين.

وفيما كان عائدًا إلى مقر القيادة العامة بصحبة كوتوزوف الذي كان صامتًا لا ينطق بكلمة، لم يملك إلّا أن يسأله رأيه في معركة الغد.

فألقى كوتوزوف على مرافقه نظرة قاسية، ثم قال يجيبه بعد صمت:

- أعتقد أننا سنخسر المعركة، وهذا ما قلته للكونت تولستوي وطلبت منه أن يوصله إلى الإمبراطور. فهل تعلم بماذا أجابني! قال لي: عزيزي الجنرال، أنا أهتم بالأرز وشرائح اللحم، فاهتم أنت بشؤون الحرب. نعم، ذلك هو الجواب الذي ظفرت به!

---

(1) ألكس أراكتشييف (1769 - 1834)، أثير بطرس الإول، خلع عليه لقب بارون وكونت سنة 1789. وقد عُيّن وزيرا للحرب من 1808 إلى 1810، وهو منشىء المستعمرات العسكرية منذ سنة 1817. رجعي محدود الفكر، كان له تأثير سيّئ على ألكسندر الأول في النصف الثاني من عهد حكمه.

الفصل الثاني عشر

في الساعة العاشرة من المساء، وصل فايروتهر مع خططه إلى مقر قيادة كوتوزوف، حيث دعا مجلس الحرب إلى الاجتماع. لقد استُدعي جميع قادة الجيوش إلى مقر القائد العام، فجاءوا كلهم في الساعة المحددة، إلا الأمير باغراتيون الذي رفض أن يأتي.

إن فايروتهر هو صاحب فكرة شن الهجوم، فكان بشدة حماسته وشدة اضطرابه نقيض كوتوزوف المستاء الممتعض الذي ألمَّ به الملل والنعاس وترأس الاجتماع على مضض. كان واضحًا أن فايروتهر يحس أنه على رأس حركة أصبحت لا تقاوَم. فكان مثله كمثل حصان مقرون إلى عربة، والعربة تهبط منحدرًا، فلا يدري أهو الذي يجر العربة، أم أن العربة تدفعه. إنه يجري بسرعة شديدة، لا يتسع وقته لأن يفكر في النتائج التي يمكن أن تنجم عن هذه الحركة. لقد ذهب في ذلك المساء مرتين ينظر بنفسه إلى طلائع العدو، وكتب للإمبراطورَيْن، إمبراطور روسيا وإمبراطور النمسا تقريرَيْن يقدم لهما فيهما إيضاحات شتى، وذهب كذلك إلى مكتبه يملي نص خططه باللغة الألمانية. فلما وصل إلى مقر قيادة كوتوزوف كان قد أنهكه التعب.

وكان واضحا أنه بلغ من انشغال البال واضطراب الفكر أنه كان يغفل حتى عن الاحترام الذي يجب أن يعامَل به القائد العام. فكان يقاطعه في الحديث، ويتكلم مسرعًا فلا يكاد يُفصِح، وكان لا ينظر إلى من يحدّثه ولا يجيب عن الأسئلة التي تُلقى عليه.

وكان ملطّخًا بالوحل، منهوك الهيئة، مشعّث الوجه، زائغ النظرة، طائش

اللب، ولكنه كان في الوقت نفسه زاخرًا بالغرور والكبرياء والصلف.

إن كوتوزوف يقيم في قصر صغير في ضواحي أوسترلتز، ففي الصالون الكبير الذي يتخذه الآن مكتبًا له، يجتمع كوتوزوف نفسه، وفايروتهر وأعضاء مجلس الحرب. إنهم يحتسون الشاي، ولا ينتظرون إلّا أن يصل الأمير باجَرَّاتيون حتى يفتتحوا الجلسة. ولكن أحد الضباط المرافقين للأمير باجَرَّاتيون وصل في الساعة الثامنة يقول إن الأمير لا يستطيع أن يجيء. فمضى الأمير أندريه إلى القائد العام يبلغه ذلك، واستفاد من الإذن الذي سبق لكوتوزوف أن أذن له به، فبقي في الغرفة.

قال فايروتهر وهو ينهض مسرعًا ويمضي إلى المائدة التي كانت قد بُسطت عليها خريطة كبيرة تصوّر ضواحي برون:

- نستطيع أن نبدأ ما دام الأمير باجَرَّاتيون لن يجيء.

وكان كوتوزوف، برقبته الثخينة الخارجة خروج التحرّر من بزّته التي حُلّت أزرارها، جالسًا على كرسيٍّ من طراز فولتير متكئًا على مسندَيه اتكاءً متناظرًا بيديه، يدَي الشيخ السمينين، وكان قد ألمَّ به وسَنٌ فهو غافٍ، فلما سمع صوت فايروتهر، فتح عينه الوحيدة بغير قليل من الجهد. وقال:

- نعم نعم، أرجوكم، لقد تأخّرنا...

وحرك يده بإشارة، ثم عاد يُخفِض رأسه ويُغمض عينيه. ولئن ظنَّ أعضاء المجلس في البداية أن كوتوزوف كان يتظاهر بالنوم تظاهرًا، فإن الشخير الذي صدر من أنفه أثناء قراءة النص بعد ذلك، قد برهن لهم أن القائد العام كان في تلك اللحظة يبرهن على شيء أخطر شأنًا من الرغبة في إظهار احتقاره للخطة، أو احتقاره لأي شيء آخر، ألا وهو النوم. لقد كان نائمًا بالفعل. فألقى عليه فايروتهر نظرة سريعة، وحرّك يده بإشارة خاصة معناها أنه أكثر انشغالًا من أن يضيع من وقته لحظة واحدة. ولما تحقَّق أن القائد العام نائم، استلَّ ورقة، وأخذ يقرأ 0

نص خطة المعركة التي كان عنوانها الذي قرأه أيضًا:

«خطة هجوم على مواقع العدو من خلف كوبلنتس وسوكولنتس، في العشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1805».

كان النص معقَّدًا كل التعقيد، غامضًا أشد الغموض. وإليكم النص الأصلي الذي كتب بالألمانية:

«لما كان العدو يعتمد في جناحه الأيسر على رواب فيها غابات، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوبلنتس وسوكولنتس وراء المستنقعات التي توجد فيهما، على حين أننا نسيطر نحن كثيرًا على جناحه الأيمن بجناحنا الأيسر، فمن الخير أن نهاجم هذا الجناح من جناحَيْ العدو، ولا سيما اذا احتللنا قريَتَيْ سوكولنتس وكوبلنتس[1]، فهذا يتيح لنا أن نقع على جنب العدو، وأن نطارده في السهل بين شلايانتس وغابة توراسا، مع تحاشينا فجاج جبال شلايانتس وبللوفتش التي تغطي جبهة العدو. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، يجب... يسير الرتل الأول... يسير الرتل الثاني... يسير الرتل الثالث... إلخ... إلخ».

كان يبدو على الجنرالات أنهم يسمعون هذه الجمل الملتوية غير مرتاحين إليها، فهم يصغون على مضض. وكان يبدو على بوكسهوفدن، وهو جنرال طويل أشقر، واقف تجاه الجدار، شاخص ببصره إلى شمعة مشتعلة أنه لا يصغي بل إنه لا يريد أن يظن أحد أنه يصغي. وأمام فايروتهر كان ميلورادوفتش، المزهر البشرة، العالي الشاربَيْن، المرتفع المنكبَيْن، يحدِّق إلى فايروتهر بعينيه الساطعتين المحملقتين. كان صامتًا في عناد، يتفرَّس في فايروتهر، ولم يحوِّل عنه بصره إلّا حين أنهى رئيس الأركان العامة النمسوي قراءة نصِّه، فألقى ميلورادوفتش عندئذ على الجنرالات الآخرين نظرة تفيض وقارًا، ولكن معنى هذه النظرة التي تفيض وقارًا يجعل صعبًا على المرء أن يعرف أهو راضٍ عن هذا النص أم هو مستاء منه. وكان الكونت لانغروف أقرب جار إلى فايروتهر، وهو رجل له ابتسامة رقيقة لا تفارق وجهه الفرنسي الجنوبي، لم يكفّ خلال قراءة النص عن تأمل أصابعه النحيلة التي كان يقلّب بينها علبة تبغ ذهبية مزدانة بصورة شخص. وفيما كان

---

(1) كوبلنتس وسوكولنتس وشلابانتس وبللوفتس... هذه كلها قرى تقع جنوب برنو، بأسمائها التشيكية. والفرنسيةن ينطقون أسماءها كوبلينس، سوكولنيس، سلابانيس، بيلوفيس.

فايروتهر يقرأ جملة من أطول جمل النص، توقف الكونت لانغروف عن تقليب علبة التبغ بين أصابعه، ورفع رأسه، وظهر في طرفَيْ شفتيه الرقيقتين تعبير عن تأدّب مصطنع مزعج، وقاطع فايروتهر، وأراد أن يقول شيئًا ولكن الجنرال النمسوي لم يوقف قراءته، بل قطب حاجبيه في غضب، وحرّك كوعيه حركة من يريد أن يقول: «ستعرض لي رأيك بعد قليل، بعد قليل، أما الآن فتابع النظر في الخريطة والإصغاء إلى نص الخطة». فرفع لانغروف عينيه معبرًا عن الارتباك والحيرة، واتجه بهما إلى ميلورادوفتش كأنه يريد أن يسأله إيضاحات، لكنه حين وقع بصره على تلك النظرة الوقور التي لا تعّبر عن شيء، خفّض عينيه حزينًا، وعاد إلى تقليب علبة التبغ بين أصابعه وقال بالفرنسية كمن يحدّث نفسه، ولكن بصوت مسموع:

- درس في الجغرافيا!

وكان برزولبيزفسكي قد جعل يديه وراء أذنيه متجهًا بهما إلى فايروتهر ليزيد أحكام إصغائه إلى النص، وكان وجهه يعبر عن احترام ولكنه يعبر كذلك عن وقار ورصانة. وكانت هيئته كلها هيئة رجل مستغرق في الإنصات إلى ما يسمع. وأمام فايروتهر تمامًا كان دوختوتروف القصير مائلًا على الخريطة الممدودة يدرس الخطة والأرض التي لا يعرفها، دراسة فيها كثير من الجد والاجتهاد. حتى لقد طلب من فايروتهر عدة مرات أن يعيد قراءة فقرات من النص لم يسمعها سماعًا واضحًا، وأن يعيد قراءة أسماء بعض القرى التي يصعب النطق بها. فكان فايروتهر يلبّي طلبه، وكان دوختوروف يسجّل بعض الملاحظات.

فلما انتهت قراءة النص التي دامت أكثر من ساعة، توقّف لانغروف عن تقليب علبة التبغ بين أصابعه من جديد، وأخذ يتكلّم من دون أن ينظر إلى فايروتهر، ومن دون أن ينظر إلى أحد بعينه، فتحدّث عن صعوبة تنفيذ مثل هذه الخطة التي تفترض معرفة وضع العدو، على حين أن من الممكن أن نكون جاهلين بوضع العدو هذا، لأن العدو يتحرّك وليس ساكنًا. ولقد كان اعتراض لانغروف يقوم على أساس وطيد، ولكن كان واضحًا أن هدفه الرئيسي هو أن يجعل فايروتهر، الذي قرأ خطته واثقًا بنفسه تلك الثقة كلها

كأنه يخاطب تلاميذ، يشعر بأنه لا يتّجه بكلامه إلى أناس بلهاء بل إلى أناس قادرين على أن يبزّوه في الفن العسكري. وحين صمت صوت فايروتهر الرتيب، فتح كوتوزوف عينيه وقد أيقظه توقف رحى طاحونة ذلك الصوت عن ضجيجها الذي يبعث على النعاس ويؤدي إلى الغفو. وأصاخ بسمعه إلى ما كان يقوله لانغروف، ثم عاد يغمض عينيه ويخفّض رأسه مزيدًا من الخفض كأنه يريد أن يقول: «ألا تزالون تتكلّمون في هذه الحماقات نفسها؟».

وجهد لانغروف أن يجرح شعور فايروتهر أقسى جرح من حيث هو مؤلّف في الشؤون العسكرية، فأخذ يبرهن على أن بونابرت يستطيع بسهولة أن يبادر إلى الهجوم فلا يدع لعدوه أن يهاجمه، فإذا بهذه الخطة كلها تغدو عقيمة لا فائدة منها. فكان فايروتهر يرد على جميع الانتقادات بابتسامة فيها ثقة بالنفس وازدراء للآخرين، وكان واضحًا أنه قد تهيأ سلفًا للرد على كل اعتراض أيًا كان هذا الاعتراض. وقال:

- لو كان يستطيع أن يهاجمنا لهاجَمنا اليوم.

فأجاب لانغروف يقول:

- أتظنه إذًا عاجزًا عن مهاجمتنا؟

رد عليه فايروتهر يقول بابتسامة طبيب تريد امرأة عامية من اللواتي يداوين الأمراض بالأعشاب أن تدلّه على وصفة:

- لا يكاد يبلغ عدد جنده أربعين ألفًا[1].

قال لانغروف وهو يبتسم ابتسامة سخرية ناعمة، ملتمسًا بنظرته التأييد مرة أخرى من جاره وهو ميلورادوفتش:

- إذا صح هذا فهو بانتظاره هجومنا ليعرِّض نفسه للدمار.

ولكن يبدو أن ميلورادوفتش كان يفكّر في موضوع المناقشة التي تجري بين الجنرالات أقل مما كان يفكّر فيها في أي وقت مضى، فقال:

- والله سنرى ذلك كله غدًا في ساحة المعركة.

---

(1) الواقع أن نابوليون حشد ثلاثة وسبعين ألف مقاتل، وكان جند عدوه يبلغ عددهم خمسة وثمانين ألفًا.

فابتسم فايروتهر مرة أخرى تلك الابتسامة التي تعني أنه يبدو له أن من الأمور المضحكة والعجيبة أن يلقى «هو» اعتراضات من جنرالات روس، وأن يكون عليه أن يبرهن على أشياء ليس وحده موقنًا بها كل اليقين، وإنما هو أقنع بها الأباطرة أيضًا. وقال:

- العدو أطفأ نيرانه، وإن جلبة تسمع في معسكره. فما معنى هذا؟ إما أنه ينسحب، وهذا هو الشيء الوحيد الذي علينا أن نخشاه، وإما أنه يغيّر موقعه.

قال فايروتهر ذلك وهو يبتسم، ثم واصل كلامه:

- ولكنه حتى لو احتل موقع توراس، لا يزيد على أن يجنّبنا متاعب كثيرة، ثم تبقى جميع الخطط الموضوعة ثابتة لا تتغيّر حتى في أيسر تفاصيلها.

وكان الأمير أندريه يترقّب منذ مدة طويلة أن تتاح له فرصة التعبير عن شكوكه ومخاوفه، فقال يسأل:

- كيف هذا؟

وفي تلك اللحظة استيقظ كوتوزوف، وتنحنح منظّفًا حنجرته، وأجال ببصره على الجنرالات، وقال:

- يا سادة، إن خطة الغد، أو قولوا خطة اليوم (فقد تجاوزنا منتصف الليل) لا يمكن تغييرها. لقد سمعتم نصَّها يُقرأ عليكم، وسنقوم جميعًا بواجبنا. ولكن لا شيء قبل المعركة أهم من... وتمهل هنا قليلًا، ثم أتم جملته فقال:

- لا شيء قبل المعركة أهم من النوم.

وهمَّ أن ينهض. فحياه الجنرالات وخرجوا، وكانت الساعة قد شارفت على الواحدة صباحًا. وخرج الأمير أندريه.

إن مجلس الحرب الذي لم يستطع الأمير أندريه أن يبسط له رأيه كما كان يأمل، قد خلّف في نفسه أثرًا هو مزيج من تشوّش واضطراب وقلق. من هو المحق المصيب: دولغوروكوف وفايروتهر اللذان يناديان بالهجوم، أم كوتوزوف ولانغروف وغيرهما ممن يعارضون هذا الرأي؟ إنه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال. وأخذ يحدّث نفسه متسائلًا: «ولكن أما كان في وسع كوتوزوف أن يبلغ الإمبراطور رأيه صريحًا؟ ألا يمكن أن تجري الأمور

بالفعل مجرى آخر؟ هل يُعقل أن تتعرض للهلاك حياة عشرات الألوف من البشر، وحياتي أنا، «حياتي أنا أيضًا» مراعاة لآراء تصرّ عليها حاشية؟».

وعاد يقول لنفسه: «نعم، من الجائز جِدًّا أن أُقتل غدًا». فإذا بفكرة الموت هذه تجعل سيلًا دافقًا من الذكريات يجتاح خياله على حين فجأة، وهي ذكريات بعيدة حميمة. تذكر وداعه الأخير لأبيه وزوجته. وتذكر الأوقات الأولى من تولّهه بحبها. وتذكّر حملها، فاستيقظت في قلبه شفقة عليها وعلى نفسه. ثم إذا هو يخرج ثائر الأعصاب فائر الانفعال من البيت الذي كان يسكن فيه مع نزِفتسكي، وأخذ يسير أمام البيت ذاهبًا آيبًا.

كانت الليلة يلفّعها الضباب، وكان شعاع من القمر يتسلل من خلال الضباب تسلّلًا مستترًا. قال الأمير أندريه يحدث نفسه: «نعم، غدًا، غدًا قد ينتهي أمري كله، غدًا، فلا يبقى لهذه الذكريات كلها وجود، ولا يبقى لهذه الذكريات كلها أي معنى لي. ربما غدًا، بل غدًا حتمًا. إنني أحس بهذا منذ الآن. سيكون عليَّ في الغد أن أظهر كل ما أنا قادر عليه». وتصوّر المعركة والهزيمة، وتصوّر تركز القتال على نقطة واحدة، وتخيّل البلبلة التي ستصيب القادة، فإذا لحظة الحظ التي طالما انتظرها توافيه. إذا «تولون» الذي طالما ارتقبه يعرض له. ها هوذا يعرض آراءه على كوتوزوف وفايروتهر والأباطرة عرضًا جازمًا قاطعًا وواضحًا جليًا، فإذا هم جميعًا يدهشون بصحتها وصوابها، ولكن لا يرضى أحد أن يأخذ على عاتقه أن يضعها موضع التنفيذ، فيحصل على إذنٍ بألا يتدخل أحد في ما وضع من خطط، فيقود فرقته إلى النقطة الحرجة، ويحقّق النصر وحده. ويهتف صوت قائلًا: «والموت والعذاب؟»، ولكن الأمير أندريه لا يجيب هذا الصوت، ويواصل النجاح متتاليًا متتابعًا. وينفرد بوضع خطة المعركة التالية وهو لا يحمل من الألقاب إلّا أنه ملحق بكوتوزوف. ولكنه هو الذي يفعل كل شيء، ويتم النصر في المعركة التالية بفضله هو وحده. ويُزاح كوتوزوف عن القيادة. ويعيَّن هو قائدًا... هتف الصوت الآخر مرة أخرى يقول: لنفرض أنك لم تُجرح عشر مرات، ولم تُقتَل، ولم يخونوك... فماذا بعد ذلك؟ ويجيب الأمير أندريه نفسه بقوله: «ماذا بعد ذلك؟ أعرف ما عسى يحدث بعد ذلك، ولا أريد أن

أعرفه، ولا أستطيع أن أعرفه. ولكنني إذا أردت هذا، إذا أردت المجد، إذا أردت أن أكون ذائع الصيت، وأن يحبني الناس، فليس ذنبي أن أريد ذلك، وألا أريد إلّا ذلك، وأن لا أحيا إلّا في سبيل هذا. نعم، ألا أحيا في سبيل أي شيء إلّا هذا. لن أقول هذه الحقيقة لأحد في يوم من الأيام، ولكن ما حيلتي إذا كنت لا أحب شيئًا غير المجد، وإعجاب الناس. الموت لا يفزعني، الجَرّاح لا تخيفني، فقدان أسرتي لا أخشاه. لا شيء يدخل الجزع إلى نفسي. ومهما يكن عدد من الأشخاص أعزاء في نفسي، مهما يكن أبي وأختي وزوجتي أعزاء في نفسي، وهم الذين أوثرهم على كل من عداهم، وأحرص عليهم أكثر من حرصي على أي إنسان آخر، فإنني - ولو بدا ذلك رهيبًا فظيعًا منافيًا للطبيعة - مستعد بلا تردد لأن أضحّي بهم الآن جميعًا، في سبيل لحظة من مجد وانتصار.. في سبيل الظفر بحب أناس لا أعرفهم ولن أعرفهم في يوم من الأيام... في سبيل نيل حب هؤلاء الناس». بذلك ختم الأمير أندريه مناجاته لنفسه وهو يصيخ بسمعه إلى ضجة أصوات في فناء مقر كوتوزوف. هي أصوات الخدم يحزمون الأمتعة. وهذا صوت واحد منهم، غالب الظن أنه صوت الحوذيّ يناكد ويغيظ طباخ كوتوزوف، وهو طبّاخ طاعن في السن يعرفه الأمير أندريه، هذا هو صوته ينادي الطباخ قائلًا:

- تيته، هيه، تيته!

فيجيبه الطباخ سائلًا:

- ماذا تريد!

فيقول له الرجل المازح:

- ألا ذهبت تدرس القمح!

فأجابه الصوت الآخر وقد غشته ضحكات الجنود والخدم:

- شيطان يأخذك!

وقال الأمير أندريه لنفسه: «رغم كل شيء، فإنني لا أحب إلّا أن انتصر عليهم جميعًا. إنني لا أحرص إلّا على هذا، أحرص على تلك القوة الغيبية السرية، على ذلك المجد الذي أحس بأنه يحلّق فوقي في هذا الضباب».

الفصل الثالث عشر

في تلك الليلة، كان روستوف يقوم بدورية استطلاع مع فصيلة جنوده في طليعة مفرزة باجَرَّاتيون. كان فرسانه مقسَّمين اثنين اثنين على صورة حبل، فكان يطوف هو بهذا الحبل على حصانه، مقاوِمًا النعاس الذي كان يفرض عليه سلطانه على نحوٍ تصعب مقاومته. ووراءه على مساحة واسعة كانت نيران معسكر جيشنا تشتعل هنا وهناك ملفَّعة بالضباب فلا تُرى إلّا غامضة. أما أمامه فلا شيء إلّا ظلمات فوق ظلمات. فكان روستوف لا يستطيع أن يرى شيئًا مهمًا يبذل من جهد في سبيل أن يخترق ببصره هذا الفضاء المظلم الذي يملأه الضباب: وكان يخيَّل إليه أنه يلمح أشكالًا رمادية تارة، وسوداء تارة أخرى. وربما تصوَّر في بعض اللحظات أن لألاء نيران يتراقص في المكان الذي لا بد أن العدو مرابط فيه، ثم لا يلبث في لحظات أخرى أن يحسّ بأن هذا البصيص هو في عينيه وليس في أي مكان. لقد كانت عيناه تغمضان، فإذا هو يرى بخياله الإمبراطور تارة، ودينيسوف تارة أخرى، وذكريات موسكو تارة ثالثة. ويسرع يفتح عينيه، فيرى كل ما هو قريب أمامه: رأس حصانه وأذنيه، وربما رأى في بعض الأحيان قامات فرسان إذا هو صار منهم على مسافة ست أقدام، أما أمامه فلا شيء إلّا تلك الظلمات التي يملأها الضباب. وكان يحدّث نفسه قائلًا: «من يدري! إنه لمن الجائز جِدًّا أن يلقاني الإمبراطور فإذا هو يكلّفني بمهمة من المهمات كأي ضابط من الضباط، فيقول لي: اذهب إلى هناك لترى ما يحدث! وكثيرًا ما رووا عنه كيف كان يتعرَّف ضابطًا من الضباط مصادفة، فإذا هو يلحقه بشخصه. آه... ليت هذا يحدث لي! لأسهرنَّ عليه إذًا سهرًا متصلًا، ولأحافظنَّ عليه

محافظة لا تهن دقيقة واحدة، ولأقولنَّ له الحقيقة كلها، ولأزيحنَّ له القناع عن وجوه أولئك الذين يغشّونه ويخدعونه!». ومن أجل أن يرى روستوف حبه للإمبراطور وإخلاصه له في صورة أملأ بالحياة، كان يتخيّل عدوًا أو ألمانيًا خائنًا، فلا يهب روستوف إلى قتله مبتهجًا فحسب، وإنما يتلذّذ كذلك بصفعه أمام الإمبراطور. وفيما كان روستوف مسترسلًا في هذه الأحلام، إذا بصرخة بعيدة توقظه، فينتفض، ويفتح عينيه. قال يسأل نفسه:

«أين أنا؟ آ... نعم... في الطليعة. إن كلمة التعارف هي: تيمون، أولموتس. يحزنني أن كتيبتنا ستكون غدًا في الاحتياط. لسوف أطلب أن أشارك في القتال غدًا. لعل هذه فرصتي الوحيدة لرؤية الإمبراطور. ليست ساعة تبديل الدورية بعيدة. سأجول جولة أخرى. حتى إذا انتهت مدة دوريتي ذهبت أتقدّم إلى الجنرال بهذا الطلب». ونصب جذعه على السرج، ووخز حصانه ليقوم بآخر جولة على فرسانه. وأحس بأن الظلام أصبح أقل حلكة. فعلى الشمال رأى منحدرًا ليّنًا مضاء، وفي الجهة الأخرى رأى أكمة سوداء تبدو قائمة كأنها سور. ورأى على الأكمة بقعة بيضاء لم يستطع روستوف أن يدرك أهي فسحة في الغابة يضيئها نور القمر أم هي بقايا ثلج أم هي منازل بيضاء. حتى لقد تصور أنه يرى شيئًا يتحرك على هذه البقعة البيضاء. فقال في نفسه: «لا بد أن هذه البقعة ثلج، بقعة، ليس إلّا!».

«ناتاشا، أختي، عيناها السوداوان، نا.. تاشا! (هل يصيبها الدهش حين أقول لها إني رأيت الإمبراطور!). ناتاشا... إليك السيف والحزام...».

قال صوت فارس مر روستوف أمامه غافيًا: «سر يمنة يا صاحب السعادة. هاهنا أدغال». فرفع روستوف رأسه الذي كان قد بلغ في انخفاضه عرف الحصان، ووقف بقرب الفارس. إن نومًا كنوم الأطفال كان يجتاحه اجتياحًا لا يُغالب. وجعل يقول لنفسه: «هم... في أي شيء كنت أفكر؟ يجب ألا أنسى ما كنت أفكر فيه. أهو ما يجب أن أقوله للإمبراطور؟ لا، ليس هذا. هذا موعده الغد. آ... نعم نعم... حزام السيف... امش على حزام السيف... اجعلهم يمشون على حزام السيف... امش! من؟ الفرسان. الفرسان والشوارب. الفارس ذو الشاربين الذي كان يقطع شارع تفير. حتى

إنني كنت قد فكرت فيه. تمامًا أمام منزل غورييف... غورييف الشيخ... إيه! يا له من فتى شجاع باسل، دينيسوف! ولكن هذا كله حماقات! الأمر الأساسي الآن هو أن الإمبراطور هنا. يا للنظرة التي رمقني بها، ولقد أراد أن يقول لي شيئًا، لكنه لم يقُل. ولكن هذه أيضًا حماقات. إن ما يجب هو ألا أنسى أنني كنت أفكّر في أمر مهم، نعم. ناتاشا، نحن نسير، نـ... سير، نعم، نعم، نعم. هذا حسن».

وعاد رأسه يهوى على غارب الحصان. ولكنه لم يلبث أن بدِا له فجأة أن رصاصًا يُطلق عليه. «كيف؟ كيف؟ ماذا حدث؟ كذلك قال وقد ثاب إلى نفسه، وارتدّ إليه وعيه. وفي اللحظة التي كان يفتح فيها عينيه سمع أمامه صيحات طويلة تطلقها آلاف الحناجر آتية من جهة العدو. ونصب حصانه وحصان مرافقه آذانهما. وفي الجهة التي كانت ترد منها هذه الصيحات اشتعل نور صغير لحظة، ثم اشتعل نور آخر، ثم سطعت نيران على طول خط القطعات الفرنسية في الأكمة، وأخذت الصيحات تكبر وتتّسع. وتعرّف روستوف أنهم يتكلمون الفرنسية، لكنه لم يستطع تمييز شيء من كلامهم. فقد كانت الأصوات التي تدندن في آن واحد أكثر عددًا من أن يقدر المرء على فهم شيء منها. غير أن الكلام فرنسي، ليس في ذلك ريب.

اتّجه روستوف إلى الفارس الذي كان على مقربة منه يسأله؟

- ما معنى هذا؟ إنه آتٍ من جهة العدو، أليس كذلك؟

فلم يجب الفارس بشيء.

فعاد روستوف يسأله بعد انتظار طويل:

- ماذا؟ أأنت لا تسمع؟

فأجاب الفارس على مضض يقول:

- أين لي أن أعرف يا صاحب السعادة!

وعاد روستوف يقول مرة أخرى:

- الاتجاه يدل على أن الرصاص من جهة العدو.

قال الفارس:

- قد يكون هو العدو، وقد لا يكون هو العدو. نحن في الليل.

وصرخ يؤنّب حصانه الذي كان يتواثب تحته:

- هلّا هدأت!

وكان حصان روستوف نافد الصبر أيضًا، يضرب بحافره الأرض المتجلدة، ويوجّه أذنه إلى الجلبة الصاخبة، وينظر بعينه صوب الأضواء الملتمعة. وكانت الصيحات ما تنفك تقوى وتنصهر في هدير هتاف واحد لا يمكن أن يصدره إلّا جيش مؤلف من عدة آلاف من الرجال. وتكاثرت النيران، على طول خط المعسكر الفرنسي في غالب الظن.

ذهب النعاس عن روستوف. إن الصيحات الفرحة الظافرة في جيش العدو تكهربه. وأصبح يسمع الآن بوضوح هذا الهتاف بالفرنسية: عاش الإمبراطور، عاش الإمبراطور!

قال للفارس:

- لا بد أنهم قريبون، على الضفة الأخرى من جدول الماء، أليس كذلك؟

فاقتصر الفارس على أن تنهد من دون أن يجيب بشيء، وسعل غاضبًا بعض الغضب. وهذا خبب حصان يقرقع على طول خط الطلائع، ثم إذا بقامة ضخمة كأنها قامة فيل، وهي قامة ضابط صف من سلاح الفرسان تنبجس من الضباب الدامس.

قال ضابط الصف وهو يوجّه حصانه نحو روستوف:

- صاحب السعادة، ها هم أولاء الجنرالات!

فخفّ روستوف — من دون أن يكف عن الالتفات نحو الأضواء والصيحات - خف إلى لقاء طائفة من الخيالة كانت تتقدّم على طول خط الطلائع. كان أحدهم يركب حصانًا أبيض. إنه الأمير باجَرَّاتيون، يصحبه الأمير دولغوروكوف ومرافقوه، قد جاؤوا يرصدون هذه الظاهرة الغريبة، ظاهرة الصيحات والأضواء والهتافات في جيش العدو. دنا روستوف من باغراتيون، يروي له ما سمع وما رأى، ثم انضم إلى المرافقين، مصغيًا إلى ما كان يقوله الجنرالات.

قال الأمير دولغوروكوف للأمير باغراتيون:

- صدّقني. ما هذا إلّا حيلة لقد انسحب، وأمر جند المؤخرة بأن يشعلوا النيران، وأن يُحدِثوا صخبًا ليضلّلونا ويخدعونا.

قال باغراتيون:

- هذا بعيد عن الاحتمال. لقد رأيتهم هذا المساء على هذه الأكمة. فلو أنهم رحلوا لكانوا جلوا عن الأكمة أيضًا.

وأضاف باغراتيون يسأل روستوف:

- سيادة الضابط، ألا يزال جنود الجنب على الأكمة؟

- كانوا عليها في المساء، أما الآن فلا أستطيع أن أؤكد ذلك ولا أن أنفيه. فإذا أصدرت إليَّ أمرك مضيت إلى هناك مع فرساني نستطلع.

لم يُجِبْ باغراتيون، وإنما توقف محاولًا أن يميّز وجه روستوف في الضباب. ثم قال بعد صمت قصير:

- لم لا؟ اذهب فانظر ماذا يحدث!

- أمرك مطاع.

ولكز روستوف حصانه، ونادى فدتشنكو وفارسَيْن آخرَيْن، وأمرهم بأن يتبعوه، وجرى يقطع الرابية سريعًا في اتجاه الصيحات التي لا تزال تدوّي. كان يشعر بقلقٍ وفرحٍ في آنٍ واحدٍ من ذهابه وحده مع ثلاثة جنود فرسان إلى ذلك المكان الخطرِ المظلم المحاط بالسر، الذي لم يذهب إليه أحد قبله. وقد صاح به باغراتيون من أعلى ألا يتجاوز جدول الماء. ولكن روستوف أصمَّ أذنيه عن سماع هذا الكلام، وتابع جريه من دون توقف موغلًا أبعد فأبعد بغير انقطاع، فيحسب بعض الأدغال أشجارًا، ويظن بعض الجحور رجالًا، ولا ينفك ينتحل لأخطائه أعذارًا. وبعد أن هبط المنحدر، أصبح لا يرى لا نيراننا ولا نيران العدو، ولكنه أصبح يسمع صيحات الفرنسيين أقوى وأوضح. حتى إذا صار في قاع الوادي الصغير أبصر أمامه شيئًا بدا له نهرًا، ولكنه حين بلغه عرف أنه ليس إلّا طريقًا. فلما صار في هذا الطريق كبح حصانه متسائلًا أيجب عليه أن يسير في هذا الطريق أم يقطعه صاعدًا خلال الحقول السوداء التي يراها أمامه. إن السير في الطريق الذي يبرز في الضباب واضحًا أقل تعرّضًا للخطر، لأن المرء يستطيع أن يميّز فيه وجود

ناس بسرعة أكبر. وصاح روستوف بفرسانه يقول: «اتبعوني»، وقطع الطريق وحاول أن يصعد في الأكمة إلى المكان الذي كان فيه بالأمس رهط من الفرنسيين.

قال أحد الفرسان وراءه:

- هوذا يا صاحب السعادة!

فما كاد روستوف يبصر شيئًا أسود ينبثق من الضباب فجأة، حتى سطعت شعلة، وأزت طلقة رصاص، وصفرت رصاصة في الضباب عالية كأن صوتها صوت شكوى أو أنين، ثم انطفأ الصوت. ولم تنطلق رصاصة ثانية، ولكن شعلة قد انبجست. فأدار روستوف حصانه وعاد أدراجه سريعًا، وانطلقت أربع طلقات أخرى تفصل بينها فترات مختلفة ولكل منها صوت خاص، فكانت الرصاصات تصفر في مكان مجهول من الضباب. ولجم روستوف حصانه، فرحًا مثله بهذه الانفجارات، وأخذ يسير بالحصان خطوًا لا عدوًا. وقال في نفسه صوت جذلان: «هيا، هيا، مزيدًا، مزيدًا!». ولكن لم تنطلق رصاصات أخرى.

ولم يعد روستوف إلى الجري بحصانه إلّا حين صار قريبًا من باغراتيون، فلما وصل إليه توقف أمامه رافعًا يده بالتحية إلى حافة عمرته.

كان دولغوروكوف لا يزال مصرًّا على رأيه، وهو أن الفرنسيين، انسحبوا ولم يشعلوا النيران إلّا ليخدعونا. وفي اللحظة التي وصل روستوف كان دولغوروكوف يقول مجيبًا عن سؤال أُلقيَ عليه:

- على أي شيء تدل طلقات الرصاص هذه؟ لعلهم انسحبوا وتركوا رهطًا من الجنود.

قال باغراتيون:

- يجب ألا نظن أنهم رحلوا يا أمير. فلننتظر إلى صباح الغد، فنعرف كل شيء.

قال روستوف منبئًا، وهو ينحني إلى أمام، رافعًا يده بالتحية إلى حافة عمرته، عاجزًا عن كبح ابتسامة يسطع فيها الفرح الذي أيقظه فيه أزيز الرصاص:

- إن على الأكمة رهطًا من الجنود.

فقال باغراتيون:

- طيّب طيّب. شكرًا سيادة الضابط.

قال روستوف:

- هل لي أن أتقدّم بطلب يا صاحب المعالي!

- ما الذي تريده؟

- إن كتيبتنا ستكون غدًا في الاحتياط. فاسمح أن أرجوك أن تلحقني بالكتيبة الأولى.

- ما اسمك؟

- الكونت روستوف.

- ها... حسنًا! ابقَ معي ضابطًا مرافقًا.

قال دولغوروكوف:

- أأنت ابن إيليا آندرتش؟

ولكن روستوف لم يجب. وعاد يسأل:

- هل يمكنني أن آمل يا صاحب المعالي؟

- سأصدر أوامري.

قال روستوف محدثًا نفسه: «جائز جِدًّا أن يبعثوني غدًا برسالة إلى الإمبراطور. الحمد لله!».

إن الصيحات والنيران في جيش العدو كان سببها حضور نابوليون الذي كان يطوف بالمخيّمات على صهوة جواده، بينما كانت كلمة نابوليون تُقرأ على قطعات الجيش. فكان الجنود إذا رأوه يوقدون مشاعل من قش، ويهتفون صارخين: عاش الإمبراطور! ويركضون وراءه. وكانت كلمة نابوليون هي التالية:

«أيها الجنود! إن الجيش الروسي ماثل أمامنا من أجل أن يثأر لهزيمة الجيش النمسوي في أولم. إنها تلك الكتائب نفسها التي غلبتموها في

هولابرون[1]، والتي ظللتم تطاردونها منذ ذلك الحين مطاردة مستمرة حتى وصلتم إلى هنا. إن المواقع التي نحتلها هائلة. فحين سيسيرون ليلتفوا حول جناحي الأيمن، سيعرضون لي جنبهم. فيا أيها الجنود! لسوف أقود معارككم بنفسي. وسأبقى بعيدًا عن النار إذا أنتم ببسالتكم المعهودة أدخلتم الفوضى والاضطراب إلى صفوف العدو. أما إذا كان النصر لحظة مشكوكًا فيها، فلترون إمبراطوركم يعرض نفسه لأولى طلقات رصاص العدو، لأن النصر لا يعرف التردد، ولا سيما في هذا اليوم الذي يتوقّف عليه مجد سلاح المشاة الفرنسي، هذا المجد الذي يهم مجد الأمة إلى أقصى حد».

«ألا لا يتعلّلن أحد بنقل الجرحى فيترك الصفوف، ألا فلتكن نفس كل منكم ممتلئة أعمق الامتلاء بهذه الفكرة: إن علينا أن نهزم مأجوري إنجلترا هؤلاء الذين يكرهون أمتنا كرهًا شديدًا كل هذه الشدة. إن هذا الانتصار سينهي حملتنا، فنستطيع أن نعود إلى ثكناتنا الشتوية حيث ستنضم إلينا الجيوش الجديدة التي تتشكّل في فرنسا. وسوف يكون السلام الذي أحقّقه حينئذ جديرًا بشعبي وبكم وبي».

«نابوليون»

(1) هي معركة شونغرابن التي كان نابوليون ينسب إلى نفسه فيها نصرًا. وقد وقعت المعركة في 15 و16 تشرين الثاني، فصمدت مفرزة باغراتيون صمودًا باسلًا ضد قوات مورا وأودينو، وانسحبت في مساء اليوم التالي من دون أن تخلف وراءها إلّا اثني عشر مدفعًا مخرَّبًا. وتُعرف هذه المعركة أيضًا باسم معركة هولابرون (شمال فيينا.

الفصل الرابع عشر

في الساعة الخامسة من الصباح، كان الظلام لا يزال حالكًا. وكانت قوات الوسط والاحتياط والجنب الأيمن من جند باغراتيون لا تزال ساكنة لم تتحرّك. أما الجنب الأيسر فقد كانت أرتال المشاة والخيالة والمدفعية فيه أخذت تضطرب وتسعى وتترك مخيماتها، وكان عليها أن تهبط المرتفعات أول الهابطين لتهاجم الجنب الأيمن من الفرنسيين فتدحرهم إلى جبال بوهيميا وفقًا للخطة. وكان دخان نيران المعسكر التي يلقى فيها كل ما هو زائد لا فائدة منه، يلسع الأعين لسعًا. وكان الجو باردًا ودامس الظلمة. الضباط يشربون الشاي ويأكلون على عجل، والجنود يقضمون بسكويتًا ويضربون الأرض بنعالهم استدفاء، ويتجمّعون أمام النيران يلقون فيها بقايا الخصاص والكراسي والموائد والعجلات وكل ما لا يستطيعون نقله. وكان أدلاء الرتل النمسويون يذهبون ويجيئون بين القطعات الروسية، فكان حضورهم يؤذن بالسير. ومتى ظهر واحد من أولئك الضباط في مركز قيادة كولونيل قامت بلبلة في الفوج، فالجنود يبارحون النيران راكضين، ويخفون غلايينهم في سيقان جزماتهم، ويضعون أكياسهم على عربات النقل، ويحملون بندقياتهم، وينتظمون في صفوفهم، والضباط يعقدون أزرار بزاتهم، ويتمنطقون بأسيافهم، ويضعون خُرُجِهم على ظهور خيولهم، ويطوفون بالصفوف يصدرون أوامرهم صياحًا. وحمالو المؤن والجنود الخدم يسرجون الدواب، ويحملون الأمتعة، ويحزمون العربات. والضباط المرافقون وقادة الكتائب أو الأفواج يثبون إلى ظهور أفراسهم، ويرسمون إشارة الصليب على صدورهم، ويصدرون أواخر أوامرهم، ويلقون

تعليماتهم إلى حمّالي المؤن الذين سيبقون في الاحتياط. ثم إذا بآلاف الأقدام يُسمع سيرها يقرع الأرض. لقد مشت الأرتال من دون أن تعرف إلى أين هي ماضية، ومن دون أن ترى - بسبب هؤلاء الذين يحيطون بها، وبسبب الدخان والضباب الذي كان يتكاثف - لا الأرض التي تغادرها ولا الأرض التي راحت تسير فيها.

إن الجندي السائر يحيط به فوجه، ويحدق به من كل جانب، ويجري به كما تجري السفينة في البحار. فمهما يوغل في سيره، ومهما يكن الأفق الذي يلجه غريبًا وخطرًا، فإن بصره يقع دائمًا على القادة أنفسهم، والرفاق أنفسهم، والرقيب إيفان متريتش نفسه، والكلب غوتشكا نفسه أيضًا. تمامًا كما يقع بصر البحار دائمًا على الجسور نفسها والصواري نفسها والحبال نفسها أو الأسلاك. وقلما يحرص الجنود على أن يعرف خط الطول الذي تبحر عليه الباخرة التي تحملهم على ظهرها، ولكن متى حان يوم المعركة فإنهم جميعًا، بغير استثناء، يشعرون بنغمة قوية تدوّي في قرارة نفوسهم، نغمة هي نوع من نداء لا يدري إلّا الله من أين يجيء. ولكنه نداء يوقظ ما كان نائمًا فيهم من حب الاطلاع، ويبلغهم أن شيئًا حاسمًا خطيرًا يوشك أن يحدث. فإذا هم يجهدون أن يخترقوا أفقهم المحدود، وإذا هم يصغون ويلاحظون ويسألون وقد تأجّجت نيران شراهتهم إلى معرفة ما يجري حولهم مندفعين.

كان الضباب قد بلغ من التكاثف أن المرء لا يبصر شيئًا على بعد عشر خطوات، رغم أن النهار قد طلع. فقد يحسب دغلًا من أدغال الشجيرات الصغيرة أشجارًا ضخمة، وقد يظن الأرض المنبسطة هوَّة عميقة أو منحَدرًا وعرًا. كان يمكن في كل مكان ومن جميع الجهات أن يبدأ الاصطدام بالعدو الذي لا يُرى على مسافة عشر خطوات. ولكن الأرتال ظلت تسير زمنًا طويلًا خلال ذلك الضباب، هابطة تارة، صاعدة تارة، محاذية بساتين وأسيجة في ذلك البلد الجديد المجهول، من دون أن تلقى العدو في أي مكان، ولكنها من جميع الجهات، في الأمام تارة وفي الخلف تارة أخرى، ترى أرتالنا الروسية سائرة كلها في اتجاه واحد، فكان كل جندي يشعر بلذة

حين يلاحظ أن أعدادًا كبيرة كبيرة من جندنا ذاهبون إلى حيث هو ذاهب، أي إلى حيث لا يدري.

وكانت أصوات في الصفوف تقول:

- هه! هؤلاء فتيان كورسك[1] أيضًا!

- نحن آلاف وآلاف يا أخ! جموع رهيبة! نظرتِ أمس مساء حين أشعلت النيران فكان عددنا لا نهاية له. لكأنها موسكو، حَقًّا!

رغم أن أي واحد من قادة الأرتال لم يقترب من الصفوف ولم يكلّم الجنود (ذلك أن قادة الأرتال، كما رأينا في مجلس الحرب، كانوا منقبضي النفس، معتكري المزاج، ممتعضين، مستائين من هذا القتال الذي يشرع فيه الجيش مهاجمًا، فكانوا لا يزيدون على تنفيذ الأوامر من دون أن يهتموا بما عليه الجنود من حالة معنوية) فقد كان الجنود يسيرون مرحين فرحين، كما يحدث دائمًا حين يسيرون إلى القتال، ولا سيما في الهجوم. ولكن ما إن انقضت على سيرهم ساعة في ذلك الضباب الكثيف نفسه، حتى كان أكثر الجند قد توقفوا، وشاع في الصفوف إحساس شاق أليم بالفوضى والبلبلة والحيرة والاضطراب. إنه ليصعب على المرء أن يعرف كيف يسري هذا الإحساس وينتقل من فرد إلى آخر. ولكن مما لا شك فيه هو أنه يسري قويًّا قوة خارقة لا يخامرها ريب، وينتشر انتشارًا سريعًا لا يحس المرء بسرعته، ويذيع ذيوعًا لا سبيل إلى مقاومته، كأنه الماء يجري في وهد أو يتساقط في هوة، أو كان الجيش الروسي وحيدًا بغير حلفاء. ولربما مضى وقت طويل قبل أن يصبح هذا الإحساس بالفوضى والبلبلة والاضطراب يقينًا عامًّا في جميع النفوس. ولكن السبب في أن هذا الإحساس غزا جميع النفوس يقينًا راسخًا هو أن كل واحد كان يشعر بتلك اللذة الإنسانية الخبيثة إذ يلقي تبعة هذه الفوضى والبلبلة والاضطراب على عاتق هؤلاء «الألمان العجيب أمرهم»، هؤلاء الناس «الذين يأكلون النقانق».

- لماذا هذا الوقوف؟ هل الطريق مسدود؟ أم إننا وقعنا على الفرنسيين؟

(1) فوج المشاة من خط كورسك.

- لا، لسنا نسمعهم. وإلا لبدأوا إطلاق الرصاص.
- ما أشد ما استعجلونا لنسير جريًا، ثم ها هم يقفون في وسط الحقول لغير سبب، وما علة هذا كله إلّا هؤلاء الألمان المناجيس الذين يدخلون البلبلة والارتباك في كل شيء. يا لهم من حمقى بلهاء!
- لو كان الأمر بيدي لجعلتهم في المقدّمة. لا شك أنهم مرتاحون في المؤخرة كل الارتياح، بينما نحن لا نجد لقمة نضعها في أفواهنا.
قال أحد الضباط:
- متى ننتهي من هذا؟ يقولون إن سلاح الفرسان هو الذي يسدُّ الطريق.
وقال ضابط آخر:
- تعسًا لهؤلاء الألمان المناجيس! حتى بلدهم لا يعرفونها!
فصاح ضابط مرافق يسأل مقبلًا:
- من أيّ فرقة أنتم؟؟
- من الفرقة الثامنة عشرة.
- فماذا تفعلون هنا؟ كان ينبغي لكم أن تكونوا في المقدمة منذ زمن طويل. أما الآن فقد تضطرون إلى الانتظار حتى المساء.
قال الضابط:
- انظروا إلى هذه الأوامر الغبية. إنهم لا يعرفون هم أنفسهم ماذا يفعلون.
وابتعد.
ثم مر جنرال، وصرخ غاضبًا ساخرًا حانقًا يقول شيئًا بلغة ليست هي الروسية.
فقال جندي وهو يحاكي الجنرال ساخرًا بينما كان الجنرال يبتعد.
- تافا - لافا... لا سبيل إلى فهم ما يرطنون به. لو كنت صاحب الأمر والنهي، لأمرت بإعدام هؤلاء الأوغاد كلهم رميًا بالرصاص!
- توجب الأوامر أن نكون قد اتخذنا مواقعنا في الساعة التاسعة، وها نحن أولاء لم نقطع حتى نصف الطريق. يا لها من أوامر!
كذلك كانت تتردد أصوات شتى في جهات مختلفة.
وشيئًا فشيئًا كان يحل محل الحماسة والطاقة اللتين كانتا تتأججان

في صدور القطعات حين سارت تبغي القتال، غضب وحنق على الأوامر السخيفة وعلى الألمان.

وكان سبب البلبلة أن القيادة العليا قد ارتأت أثناء تقدّم سلاح الفرسان النمسوي الذي كان يسير على الجنب الأيسر، أن وسطنا كان بعيدًا مسرفًا في البعد عن الجنب الأيمن، فتلقى سلاح الفرسان أمرًا بالانتقال إلى اليمين. فأخذ آلاف الفرسان يمرّون أمام المشاة، فكان على هؤلاء أن ينتظروا.

ونشب في المقدمة نزاع بين دليل نمسوي وجنرال روسي.. كان الجنرال الروسي يصرخ مطالبًا بوقف الفرسان. وكان النمسوي يؤكّد له أن الخطأ في هذا ليس خطأه بل خطأ القيادة العليا. وبقيت القطعات أثناء ذلك الوقت في مكانها قد دب فيها الضجر، وأخذت تفقد عزيمتها وشجاعتها. وبعد توقف طال ساعة، استأنفت القطعات سيرها، وأخذت تهبط. وكان الضباب الذي أخذ ينقشع عن المرتفعات يزداد كثافة في الوهاد التي نزلت إليها.

وانطلقت في الأمام وسط الضباط رصاصتان تبعتهما رصاصات متفرقة، ثم ازدادت كثافتها. وبدأ قتال على شطئان غولدباخ[1].

كان الجنود لا يتوقّعون أن يلقوا العدو على شطئان النهر تحت، فإذا هم يصطدمون به فجأة على انتظار في الضباب، من دون أن يسمعوا من قادتهم كلمة تشجيع، وخاصةً من دونِ أن يروا أمامهم ولا حولهم شيئًا في الضباب الكثيف. فكانوا يبادلون العدو طلقات من الرصاص برخاوة وبطء، ويتقدّمون ويتوقّفون، ولا يتلقّون أي أمر من القادة أو الضباط المرافقين الذين كانوا يطوفون في الضباب هنا وهناك على أرض مجهولة باحثين عن وحداتهم. هكذا بدأت المعركة بالنسبة للأرتال الثلاثة التي نزلت من المرتفعات: الرتل الأول، فالرتل الثاني، فالرتل الثالث. أما الرتل الرابع الذي كان بجانبه كوتوزوف نفسه فقد كان على روابي براتسن.

وكان الضباب لا يزال كثيفًا في الوهاد التي بدأ فيها القتال. أما على الروابي فقد صفا الجو قليلًا، ولكن المرء لا يزال عاجزًا عن رؤية شيء مما

---

(1) نهر صغير يجتاز سهل اوسترلتز.

يجري أمامه. أكانت جميع قوى العدو على مسافة عشرة فراسخ من ذلك المكان، كما افترضنا ذلك، أم كان ينتظرنا وراء خط الضباب هذا؟ ذلك ما لم يستطع أن يعرفه أحد حتى الساعة التاسعة.

أزفت الساعة التاسعة. إن بحرًا من الضباب يمتد تحت. ولكن الجو صافٍ كل الصفاء قرب قرية شلابانتس على الرابية التي كان يقف عليها نابليون محاطًا بمارشالاته. كانت تعلوه سماء صافية زرقاء، وكان قرص الشمس يتموَّج تموّج عوّامة ضخمة بلون الأرجوان على سطح هذا البحر الذي يشبه لونه لون اللبن. كان الجيش الفرنسي كله، ونابليون نفسه مع هيئة أركان حربه، مرابطين لا في الجهة الأخرى من الأنهار والغدران في قريتي سوكولنتس وشلابانتس، وهي الأماكن التي كنا ننتوي أن نتخذ مواقعنا بعدها ونبدأ المعركة، بل كانوا في هذه الجهة نفسها، وكانوا يبلغون من القرب من قطعاتنا أن نابليون كان يستطيع بالعين المجردة أن يفرق بين جندي من الفرسان وجندي من المشاة. كان نابوليون واقفًا أمام مارشالاته متقدّمًا عليهم بضع خطوات، ممتطيًا صهوة جواد عربيّ ضامر أشهب، مرتديًا معطفه الأزرق الذي كان يرتديه في حملة إيطاليا. إنه صامت يتأمل الروابي التي تبدو منبجسة من بحر الضباب، والتي تتقدّم عليها القطعات الروسية، ويصيخ بسمعه إلى ضجة إطلاق الرصاص في الوادي. ما من عضلة تتحرك في وجهه الذي كان لا يزال نحيلًا. وكانت عيناه المتألقتان ثابتتين جامدتين على نقطة. لقد صدقت تنبؤاته. إن جزءًا من القطعات الروسية كانت منذ ذلك الوقت قد نزلت الوادي متّجهه صوب المستنقعات والبحيرات، بينما كان جزء آخر يتهيأ لمغادرة روابي براتسن التي كان في نيته أن يهاجمها، والتي كان يعدّها مفتاح الموقع. وكان يرى الأرتال الروسية من خلال الضباب قد جعلت حرابها في بنادقها تسير متعاقبة متلاحقة فتغيب رتلًا بعد رتل في بحر الضباب المتجمّع في عمق الفج الذي يفصل رابيتين متجاورتين من روابي قرية براتسن. إن المعلومات التي تلقّاها أمس، وضجّات وقع الأقدام وقرقعة العربات التي لمحتها طلائعه أثناء الليل، والاضطراب الذي ظهر في حركات العدو، كلها علائم أبانت له إبانة واضحة أن الحلفاء يظنونه

بعيدًا كل البعد عنهم. وأدرك أن الأرتال السائرة قرب براتسن هي وسط الجيش الروسي، وأن هذا الوسط قد صار منذ الآن أوهن وأضعف من أن ينجح في مهاجمته. ومع ذلك لم يبادر إلى الشروع في بدء القتال.

وكان ذلك اليوم عنده يومًا جليلًا. إنه عيد تتويجه. وقد استطاع أن يصيب حظه من الراحة بنوم بضع ساعات في الصباح. فهو الآن منتعش نشيط، بل كان في تلك الحالة النفسية السعيدة التي يبدو له فيها كل شيء ممكنًا، ويبدو له فيها أن كل شيء سيتكلل بالنجاح.. وقد ركب حصانه للذهاب إلى أرض المعركة. إنه الآن في جموده وثبات بصره على تلك التلال التي تبدو وراء الضباب، يعبّر وجهه الساكن الذي لا حركة فيه عن سعادة هو بها جدير ولها مستحق، سعادة مفعمة بالطمأنينة، وفيها من الثقة ما يراه المرء في عاشقين مولّهين سعيدَيْن.

وكان الجنرالات واقفين وراء لا يجسرون أن يذهلوه عن انتباهه وتيقّظه. إنه ينظر تارة إلى روابي براتسن، وينظر تارة أخرى إلى الشمس التي تخرج من الضباب.

حتى إذا خرجت الشمس من الضباب خروجًا تامًا، وأغرقت البرية بضيائها المبهِر (وكأنه كان لا ينتظر إلّا هذا لشن الحرب) نزع قفازه عن يده الجميلة وحرّكه بإشارة لمارشالاته، مصدرًا أمره ببدء المعركة. فهرع المارشالات مع مرافقيهم يطوون الأرض طيًّا على صهوات الجياد في جميع الاتجاهات، فما انقضت خمس دقائق حتى كانت القوات الرئيسية من الجيش الفرنسي تصعد مسرعة إلى روابي براتسن التي كانت القطعات الروسية تجلو عنها أكثر فأكثر لتنزل إلى الوادي شمالًا.

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة اتجه كوتوزوف على صهوة حصانه نحو براتسن، حتى بلغ الرتل الرابع، وهو رتل ميلورادوفتش الذي كان عليه أن يأخذ مكان رتل برزبيسزفسكي ورتل لانغروف اللذين نزلا الوادي. وهناك حيّا رجال الفوج بحركة من رأسه، وأصدر أمره بالسير، مشيرًا بذلك إلى أنه ينتوي أن يتولى قيادة هذا الرتل بنفسه لقتال العدو. فلما بلغ قرية براتسن توقّف. وكان الأمير أندريه، من بين الأشخاص الكثر الذين تتألف منهم حاشية القائد العام، يقف وراءه. كان يحسّ أنه مهتاج، متوتر الأعصاب، ولكنه في الوقت نفسه متحفّظ هادئ، كما يكون المرء عند دنو لحظة طالما تمنّاها. كان مقتنعًا اقتناعًا جازمًا بأن هذا اليوم هو له يوم تولون، أو يوم جسر آركول[1]. صحيح أنه كان لا يعرف كيف سيتم الأمر، ولكنه كان لا يخامره فيه شك. ولقد كان يعرف الأرض ووضع قطعاتنا كما لا يعرفهما أي رجل في الجيش كله، لذلك نسي خطته الإستراتيجية الخاصة التي أصبح يستحيل تنفيذها طبعًا، وتبنّى خطة فايروتهر، فهو يتصوّر الآن مفاجآت قد تحدث ويتخيّل افتراضات جديدة، هي أن من الممكن أن يحتاجوا بديهته الحاضرة ونظرته السريعة وما يتصف به من القدرة على اتخاذ القرار الحازم.

وكانت تُسمع إلى الشمال، تحت، أصوات إطلاق رصاص بين قطعات يغشاها الضباب فلا تراها الأعين. فكان الأمير أندريه يفترض أن المعركة

---

(1) في سنة 1796 انتزع نابوليون هذا الجسر من النمسويين سائرًا في طليعة جنوده من حملة القنابل، حاملًا الراية بيده. إن الأمير أندريه يريد أن يقلّده.

ستتركز في ذلك المكان، وأن الاصطدام بعقبة من العقبات سيكون في ذلك المكان، فكان يقول لنفسه: «إلى هناك سأُطلب إرسالي مع لواء أو فرقة، وهناك سأسير في طليعة جنودي حاملًا الراية بيدي، وأحطم كل ما يقف في وجهي».

وكان لا يستطيع أن ينظر بغير اهتمام إلى رايات الكتائب التي كانت تمر. فكان حين يراها لا ينفكّ يقول لنفسه: «لعل هذه الراية هي التي سأرفعها بيدي سائرًا في طليعة جنودي».

لم يترك ضباب الليل على الروابي إلّا صقيعًا كان يستحيل إلى ندى، أما في الوهاد فكان لا يزال الضباب يمتدّ بحرًا بلون اللبن. كان لا يُرى شيء على الشمال في الوادي الذي نزلت إليه قطعاتنا والذي تترامى منه أصوات إطلاق الرصاص. وكانت الشمس فوق التلال زرقاء زرقة غامقة صافية، وكان قرص الشمس يُرى على اليمين كبيرًا ضخمًا. وكان المرء يرى في البعيد أمامه، على الشاطئ الآخر من بحر الضباب، تلالًا مكسوّة بالغابات، لا بد أن العدو كان يحتلّها لأن المرء يلاحظ ملاحظة غامضة أن فيها شيئًا ليس مألوفًا. وكان الحرس في اليمين يدخل منطقة الضباب وسط وقع حوافر الخيل، وقرقعة سير العربات، والتماعات نصال الحراب. وبعد القرية في الشمال، كانت تتقدّم كتل من الخيالة، وتغيب في بحر الضباب، وفي الإمام وفي الخلف يسير جنود سلاح المشاة. وكان القائد العام واقفًا عند مخرج القرية يستعرض القطعات مارة أمامه. كان كوتوزوف يبدو في ذلك الصباح مكدودًا مرهقًا سريع الاهتياج. فلما توقّف المشاة لعقبة من العقبات في غالب الظن، من دون أن يصدر إليهم أمرٌ بالتوقف، ثارت ثائرة كوتوزوف على الجنرال الذي كان يقودهم، وصرخ يقول له:

– ماذا تنتظرون من أجل أن تنظّموا أرتالكم، وتلتفّوا حول القرية؟ اسمع أيها السيد العزيز، أقصد يا صاحب السعادة: أهكذا يسير الجند ممتدين على طول شارع إذا كانوا ماضين إلى قتال العدو؟

فأجاب الجنرال يقول:

– معذرة صاحب السعادة السامية، لقد كنت أنوي أن أشكّل جنودي في نهاية القرية.

فضحك كوتوزوف ضحكة ساخرة وقال:
- حَقًّا؟ تريد أن تنشر جبهتك على مرأى العدو؟ شيء جميل!
- لا يزال العدو بعيدًا يا صاحب السعادة. إن نص الخطة يقول..
فصرخ كوتوزوف ساخطًا:
- نص الخطة... من قال لك هذا!... افعل ما تؤمر به، من فضلك!..
- أمرك سيدي.
تمتم نزفتسكي يقول للأمير أندريه بالفرنسية:
- مزاج الشيخ معتكر جِدًّا يا عزيزي!
وهذا ضابط نمسوي يرتدي بزة بيضاء، يندفع بحصانه نحو كوتوزوف، ويسأله بلسان الإمبراطور هل دخل الرتل الرابع.
فأشاح كوتوزوف عنه من دون أن يجيبه، ووقع بصره مصادفة على الأمير أندريه الذي كان بقربه. فلما رآه تلطّف ما كانت تعبر عيناه عنه من سوء وشر ومرارة، كأنه يدرك أن مرافقه لا شأن له بجميع هذه الحماقات التي تُرتَكب. وقال للأمير أندريه بولكونسكي من دون أن يجيب الضابط النمسوي:
- اذهب فانظر هل تجاوز الرتل الثالث القرية، وقل له أن يقف وينتظر أوامري.
فما كاد الأمير أندريه ينصرف حتى استوقفه وأضاف يقول له:
- واسأله هل اتخذ الرماة أماكنهم.
وأردف يقول لنفسه وهو لا يزال مشيحًا عن الضابط النمسوي لا يجيبه:
- ما هذا الذي يفعلونه! ما هذا الذي يفعلونه!
ومضى الأمير أندريه على حصانه عدوًا ليقوم بالمهمة التي كُلّف بها.
حتى إذا تجاوز جميع الأفواج التي كانت تواصل سيرها، استوقف الفرقة الثالثة فلاحظ أن أرتالنا لا يتقدّمها أي خط رماة فِعلًا. حتى لقد دهش قائد الفوج دهشًا كبيرًا من الأمر الصادر إليه بنشر خط من الرماة في طليعة الأرتال. لقد كان على يقين مطلق أن قطعات أخرى تتقدّمه، وأن العدو لا تزال تفصله عنا عشرة فراسخ في أقل تقدير. والواقع أن المرء كان لا يرى أمامه إلّا مساحة خالية مقفرة تهبط غارقة في الظلام الكثيف.

ورجع الأمير أندريه بعد أن نقل أمر القائد العام بإصلاح الخطأ، فرأى كوتوزوف لا يزال في ذلك المكان نفسه، متهالكًا بجسمه الضخم على السرج من وَهَنِ الشيخوخة، يتثاءب تثاؤبًا ثقيلًا وقد أغمض عينيه. وكانت القطعات قد كفّت عن التقدّم، فهي تنتظر وقد أنزل الجنود أسلحتهم عن أكتافهم يستريحون من حملها.

فقال كوتوزوف للأمير أندريه:

– طيّب، طيّب.

ثم التفت إلى الجنرال الذي كان يقول له، وهو حامل بيده ساعة، أن أوان استئناف السير قد آن، لأن جميع أرتال الجنب الأيسر قد انتهت من نزول الوادي، وقال له وهو يتثاءب مكررًا:

– في الوقت متّسع، في الوقت متّسع.

وفي تلك اللحظة سُمعت من بعيد وراء كوتوزوف هتافات جيوش تصيح محيية، وسُمعت أصوات تقترب اقترابًا سريعًا على طول الأرتال الروسية. إن المرء يحس بأن الشخص الذي يعلو الهتاف تحية له يجري سريعًا جِدًّا. فلما أخذ جنود الفوج الذي كان بقرب كوتوزوف يهتفون هم أيضًا، تنحّى كوتوزوف قليلًا، وألقى نظرة إلى ما وراءه مصعرًا وجهه. فرأى على طريق براتسن ما يقرب من سرية من الفرسان المبرقشين. وكان في طليعتهم اثنان يجري أحدهما إلى جانب الآخر عدوًا سريعًا. فأما الأول فهو يرتدي بزة سوداء ويضع على رأسه قبعة ذات ريشة بيضاء، ويمتطي صهوة حصان هجين، وأما الثاني فهو يرتدي بزة بيضاء ويركب حصانًا أسود. هؤلاء هم الإمبراطوران وحاشيتَيْهما. فأسرع كوتوزوف يصطنع مسلك ضابط عجوز في السلاح، فصاح يهيب بالقطعات المرابطة: «تهيّأ»، ورفع سيفه محييًا، وأقبل على الإمبراطور. لقد تغيّر وضعه كله فجأة، وتغيّرت حركاته كلها. إنه الآن مأمور ليس عليه أن يفكّر. وبتوقير مصطنع ضاق به الإمبراطور ألكسندر، تقدّم كوتوزوف منه وحياه. ولكن شعور الانزعاج هذا كان أشبه ببقية ضباب في سماء صافية، فلم يزد على أن مرّ مرورًا عابرًا بهذا الوجه الشاب السعيد، وجه الإمبراطور. كان في ذلك اليوم بعد الوعكة التي أصابته

أنحل قليلًا مما كان في ساحة مناورات أولموتس، حيث رآه روستوف أول مرة منذ أن خرج من روسيا. ولكن كان لا يزال يوجد ذلك المزيج الساحر نفسه من الأبّهة والجلال والرقّة والعذوبة في عينيه الجميلتين الشهباوين، وكانت شفتاه الرقيقتان لا تزالان تملكان تلك القدرة على التعبير السريع التي ترين على كل ما له من هيئة الشباب الباشّة، السمحة، البريئة.

كان في استعراض أولموتس أفخم أبّهة وأعظم جلالًا، أما هنا فهو أكثر جذلًا وانشراحًا، وأمضى عزيمة وأقوى نشاطًا. كانت تلك الفراسخ الثلاثة التي قطعها على ظهر حصانه عدوًا سريعًا قد نضَّرت بشرة وجهه. فلما توقّف عن الجري تنفس تنفسًا عميقًا، والتفت إلى ضباط حاشيته يتفرَّس في وجوههم التي كانت لا تقل فتوَّة ونضارة عن وجهه. هم كزارتورسكي ونوفوسلتزيف والأمير فولكونسكي[1] وستروغانوف[2] وغيرهم. إنهم جميعًا يرتدون ثيابًا ثرية، وجميعًا مبتهجون، يركبون خيولًا رائعة غضَّة لم ينل منها التعب، وقد وقفوا وراءهم يتحدّثون ويبتسمون. وكان الإمبراطور فرانسوا، وهو شاب طويل الوجه زاهي البشرة، يقف في أقصى اليمين راكبًا فحله الأسود، ويجيل بصره على ما حوله وقد لاح في وجهه الهَمّ. وها هو ينادي أحد الضباط من مرافقيه ويلقي عليه سؤالًا. فقال الأمير أندريه لنفسه وهو يلاحظ صاحبه القديم مبتسمًا ابتسامة لم يستطع أن يكبحها حين تذكر اللقاء الذي تمَّ بينهما: «لا بد أنه يريد أن يعرف في أي ساعة مضوا». وكانت حاشية الإمبراطورَيْن تتألف من ضباط مختارين من أفواج الحرس والجيش روسيين ونمسويين. وكان سائسون يجرّون بالأعنّة خيولًا جميلة للتبديل أُخذت من الإسطبلات الإمبراطورية وغُطيت أسرجتها بسجّادات مطرَّزة.

وكنسمة طرية من هواء الحقول هبّت من النافذة على غرفة خانقة كذلك أشاعت هذه الفئة المتألقّة من الشبيبة في أركان حرب كوتوزوف الذين كان

---

(1) بطرس ميخائيلوفتش فولكونسكي (1776 – 1852)، جنرال، ضابط مرافق منذ سنة 1801، رئيس أركان الحرب منذ 1815، وزير البلاط عام 1826.

(2) الكونت بولس ستروغانوف (1774 – 1817) صديق طفولة ألكسندر الأول، عضو «لجنة الخلاص العام»، معاون وزير الداخلية منذ سنة 1803.

المرح قد زايلهم، نسمة من عزيمة وطاقة وثقة بالنجاح خليقة بالشباب.

قال الإمبراطور ألكسندر يسأل كوتوزوف وهو يلقي نظرة مهذَّبة على الإمبراطور فرانسوا:

- لماذا لا تبدأون يا ميشيل لاريونوفتش؟

فأجابه كوتوزوف وهو ينحني احترامًا:

- إنني انتظر يا مولاي.

فقطب الإمبراطور حاجبيه قليلًا، ووضع راحتَيْ يديه وراء صيواني أذنيه ليدل بذلك على أنه لم يسمع.

فعاد كوتوزوف يقول:

- إنني انتظر يا مولاي. لم تتجمّع الأرتال كلها بعد يا مولاي. (وقد لاحظ الأمير أندريه أن شفته العليا قد اختلجت اختلاجًا غير طبيعي حين كان ينطق بهذه الكلمات).

ففهم الإمبراطور، ولكن كان واضحًا أن هذا الجواب لم يحظ برضاه، فرفع كتفيه المقببين، ونظر إلى نوفوسلتزيف الذي كان بجانبه، كأنه بهذه النظرة يشكو من كوتوزوف.

وقال الإمبراطور وهو ينظر من جديد إلى عيني الإمبراطور فرنسوا يدعوه إلى سماع ما يقوله إن لم يكن إلى المشاركة في الحديث:

- لسنا في «ساحة مارس» يا ميشيل لاريونوفتش، فلا نبدأ الاستعراض إلّا حين تصل الأفواج جميعها. ولكن الإمبراطور فرانسوا الذي كان لا يزال يجيل بصره على ما حوله لم يصغِ إلى كلام ألكسندر.

وقال كوتوزوف بصوت قوي كأنه يخشى ألا يُسمع كلامه، بينما سَرَت في وجهه اختلاجة مرة أخرى:

- ذلك بالضبط ما يحملني على أن لا أبدأ يا مولاي. إنني لا أبدأ يا مولاي لأننا لسنا في استعراض ولسنا في «ساحة مارس».

نطق كوتوزوف بهذه الكلمات واضحة جلية متميزة.

فسرعان ما تبادل جميع الضباط نظرات تدل على الاستياء والامتعاض واللَّوم. وكانت وجوههم كلها تعبر عن هذا المعنى. «مهما يكن شيخًا، لا

يجوز له، لا يجوز له بحال من الأحوال أن يتكلم بهذا الأسلوب!».

ونظر الإمبراطور إلى كوتوزوف مليًّا، مثبتًا نظرته على عينيه، منتظرًا أن يضيف كوتوزوف شيئًا. ولكن كان يبدو على كوتوزوف، وقد حنى رأسه احترامًا، أنه هو أيضًا ينتظر أن يقول الإمبراطور شيئًا. ودام الصمت قرابة دقيقة.

وقال كوتوزوف أخيرًا وهو يرفع رأسه ويعود إلى لهجة جنرال محدود الفكر يطيع بغير مناقشة:

- على كل حالٍ، إذا كنت جلالتك تأمر...

وهمز حصانه، ونادى قائد الرتل ميلورادفتش، ونقل إليه الأمر بالهجوم.

فتحرّكت القطعات من جديد، ومرّت أمام الإمبراطور كتيبتان من فوج نوفغورود، وكتيبة من فوج آبشرون[1].

وحين مر فوج آبشرون، فإن ميلورادوفتش، الزاهي لونه، المستغني عن ارتداء معطف، المزدان بالأوسمة منثورة على بزته، المعتمر بقبّعة ذات ريشة ضخمة موضوعة فوق الأذن افتخارًا، اندفع بحصانه نحو الإمبراطور بأقصى سرعة، ثم وقف أمامه يحييه تحية عريضة زاخرة بمعنى الإجلال. فقال له الإمبراطور:

- الرب في عونكم يا جنرال.

فأجاب ميلورادوفتش بلغة فرنسية ركيكة:

- والله... يا مولاي... سنفعل ما سيكون في إمكاننا...

فكان من شأن ركاكة لغته الفرنسية أن أشاعت في ضباط حاشية الإمبراطور ابتسامًا.

وأدار ميلورادوفتش لجام حصانه بحركة سريعة مباغتة حتى وقف وراء الإمبراطور قريبًا منه.

أما جنود فوج آبشرون فإن وجود عاهلهم قد أثار هِمَمهم وأيقظ

---

(1) فوج مشاة شكله في القوقاز بطرس الأكبر أثناء حملته على فارس سنة 1723. وقد برز وتجلّى في الاستيلاء على برلين سنة 1760 وفي إيطاليا عام 1799 بقيادة سوفوروف.

حماستهم، فمروا أمام الإمبراطورين وحاشيتيهما بخطى عسكرية محكمة الوزن نشيطة الحركة.

وبلغ ميلورادوفتش من الاهتياج من سماع ضجة إطلاق الرصاص، وانتظار بدء المعركة، ورؤية شجعان آبشرون، رفاقه في عهد سوفوروف، الذين كانوا يسيرون بخطى عسكرية رائعة أمام الإمبراطورين، إنه نسي وجود إمبراطوره، فصرخ يقول بصوت قوي:

- أبنائي، هذه ليست أوّل قرية تحتلونها. ما أكثر ما أبليتم بلاء حسنًا من قبل. ألا فلتتجلّوا مرة أخرى!

فصرخ الجنود يجيبونه:

- سنبذل قصارى جهدنا.

لما سمع حصان الإمبراطور هذه الصرخات التي لم تكن متوقّعة تزحزح من مكانه قليلًا. إن هذا الحصان الذي كان الإمبراطور يركبه في الاستعراضات التي تجري في روسيا، لا يزال يحمل فارسه هنا في ميدان معركة أوسترلتز، ويتحمّل اللكزات التي يوقّعها على جنبه بقدمه اليسرى ذاهلًا، وينصب أذنيه حين يسمع أزيز الرصاص، وذلك كما كان يفعل في «ساحة مارس» تمامًا، من دون أن يفهم ما معنى طلقات الرصاص هذه، وما معنى مجاورة فحل الإمبراطور فرانسوا له، ومن دون أن يفهم شيئًا مما قد يقول راكبه أو قد يفكر فيه أو قد يحسّه.

والتفت الإمبراطور إلى أحد خلصائه مبتسمًا، وهو يشير إلى شجعان آبشرون، وقال له شيئًا.

الفصل السادس عشر

سار كوتوزوف بحصانه يتبع حمَلة البنادق. حتى إذا قطع زهاء نصف فرسخ، توقف بقرب منزل منعزل مهجور (لا بد أنه نزل قديم) عند تقاطع طريقين. وكان الطريقان هابطين، وكانت القطعات تسير فيهما كليهما.

أخذ الضباب ينقشع، حتى لقد أصبح يمكن للمرء أن يرى قطعات العدو على التلال المقابلة منذ الآن. وعلى الشمال، تحت، أصبح إطلاق الرصاص أوضح وأبين. فتوقف كوتوزوف يتحدّث مع جنرال نمسوي. وكان الأمير وراءهم قليلًا، فكان يلاحظهم، والتفت إلى ضابط مرافق يسأله أن يعيره منظاره المقرّب.

قال له الضابط المرافق وهو لا يحدق إلى بعيد بل ينظر إلى سفح الرابية نفسها:

- انظر! انظر! هؤلاء هم الفرنسيون.

وأخذ جنرالان وضباط مرافقون يتخاطفون المنظار المقرّب. فسرعان ما انقلبت سحنتهم وارتسم الرعب على قسمات وجوههم: إنه العدو الذي كانوا يظنون أنه على مسافة فرسخين من هذا المكان، فإذا هو ينبجس أمامنا فجأة على غير توقّع.

وأخذت أصوات تقول:

- أهو العدو؟... مستحيل! بلى! انظر! إنه هو. ما معنى هذا؟

ومن غير منظار رأى الأمير أندريه رتلًا من الفرنسيين على اليمين تحت، مقبلًا على فوج آبشرون، لا يبعد عن مكان كوتوزوف أكثر من خمسمائة خطوة في أكثر تقدير. فقال الأمير أندريه لنفسه: «هي ذي اللحظة الحاسمة

قد وافت. جاء دوري». وهمز حصانه وأسرع إلى كوتوزوف. ورفع صوته يقول:

- يجب إيقاف فوج آبشرون يا صاحب السعادة!

ولكن كل شيء تغطى بالدخان في تلك اللحظة نفسها، وراح الرصاص يئز قريبًا. وعلى مسافة خطوتين من الأمير أندريه صاح صوت مرتاع مذعور يقول: «هلكنا يا شباب!». فكان هذا الصوت أشبه بأمر صادر عن قائد، فما أن سُمع حتى أخذ الجميع يركضون هاربين. وإذا جموع خليطة ما تنفك تكبر، تنكص على أعقابها مرتدة إلى المكان الذي كانت القطعات فيها تمر أمام الإمبراطورين قبل خمس دقائق. لم يكن إيقاف هذه الجموع وحده أمرًا مستحيلًا، بل كان مستحيلًا كذلك ألا ينساق المرء معها، وألا ينقاد لها ويجري وراءها. إن بولكونسكي وحده حاول ألا يبقى في الخلف، وكان يلقي على من حوله نظرات حائرة، عاجزًا عن فهم ما يحدث. وصرخ نزفتسكي حانق الهيئة، محمرّ اللون، منقلب السحنة فلا يكاد يُعرف، صرخ يقول لكوتوزوف إنه إذا لم ينصرف حالًا، فسوف يؤسَر حتمًا. وبقي كوتوزوف في مكانه، وأخرج منديله من جيبه من دون أن يجيب. كان يسيل على خده دم. وشق الأمير أندريه لنفسه طريقًا إليه، وسأله وهو يسيطر بكثير من المشقة على اختلاج فكّه الأسفل:

- هل جُرحت؟

فأجابه كوتوزوف وهو يضغط بمنديله على خده الجريح، ويشير إلى الهاربين:

- ليس الجرح هنا بل هناك!

وصاح في الوقت نفسه يقول:

- أوقفوهم!

لكنه سرعان ما اقتنع بعقم هذا الأمر الذي يُصدره، فهمز حصانه، ومضى إلى اليمين.

فإذا بموجة جديدة من الهاربين تحيط به وتردّه إلى الوراء.

كان الهاربون يفرّون كتلة تبلغ من الكثافة أن المرء إذا أحاطت به

جموعهم يصعب عليه أن يتخلّص منهم، أو أن ينسَلّ من بينهم. وكان منهم من يصيح مؤنبًا رفيقه: «أسرع! ما بالك تبطئ هكذا!».

وكان واحد آخر يطلق رصاص بندقيته في الهواء وهو هارب. حتى إن أحدهم أخذ يضرب حصان كوتوزوف.

فلما استطاع كوتوزوف وحاشيته التي نقص أكثر من نصفها أن يتملّصوا من الجموع الكثيفة الهاربة، ساروا نحو أصوات مدافع كانت تقذف قنابلها على شمالهم قريبة منهم كل القرب. وحين تخلص الأمير أندريه من جموع الفارّين، وكان لا يريد أن يتخلف عن كوتوزوف، رأى عند الوسط من انحدار الرابية سرية مدفعية روسية لا تزال ترمي قذائفها، ورأى الفرنسيين مسرعين إليها للانقضاض عليها. وكان جنود المشاة الذين يرابطون فوقها على الرابية لا يتحرّكون من أماكنهم، ولا يهبّون إلى أمام لنجدة سرية المدفعية، ولا ينكصون على أعقابهم فينضمّون إلى جموع الفارّين. واتجه الجنرال قائدهم نحو كوتوزوف. ولم يكن قد بقي من حاشية كوتوزوف إلّا أربعة رجال كانوا كلهم صفر الوجوه ينظر بعضهم إلى بعض صامتين.

قال كوتوزوف لاهثًا يخاطب قائد الفوج وهو يشير إلى الفارين:

- أوقفوا هؤلاء الأشقياء!

ولكن رصاصات انطلقت في تلك اللحظة نفسها صافرة، وانهالت على الفوج وعلى حاشية كوتوزوف كسرب عصافير صغيرة، كأنما لتعاقب كوتوزوف على كلماته.

كان الفرنسيون يهاجمون سرية المدفعية، فلما رأوا كوتوزوف أخذوا يرمون نحوه. فلما تساقط الرصاص هذا التساقط الغزير وضع قائد الفوج يده على ساقيه، وهوى على الأرض عدد من الجنود، وأرخى حامل الراية رايته، فترنّحت الراية وسقطت مشتبكة ببنادق الجنود المجاورين. ومن دون أن يتلقّوا أي أمر، أخذ الجنود يرمون من بنادقهم بعض الرصاص.

قال كوتوزوف بصوت أنين ولهجة يأس:

- أووه ا

وبصوت جعله الشعور بعجز الشيخوخة، يختلج اختلاجًا، دمدم يقول

لبولكونسكي وهو يشير إلى الكتيبة المبعثرة والعدو المقاتل:

- بولكونسكي، ما هذا؟

ولكن ما إن أنهى كوتوزوف جملته حتى شعر الأمير أندريه بدموع العار والغضب تخنق حلقه خنقًا، فوثب عن حصانه إلى الأرض بحركة نشيطة سريعة، وركض إلى الراية، وصاح يقول بصوت حاد كصوت طفل:

- إلى الأمام يا شباب!

وقال لنفسه وهو يمسك عصا الراية، ويسمع أزيز الرصاص متلذّذًا، وكان الرصاص مسددًا إليه من غير ريب: «ها قد أزفت اللحظة!».

صرخ الأمير أندريه وهو يحمل الراية الثقيلة بيديه في كثير من المشقة:

- هورررا!...

واندفع إلى الأمام موقنًا بأن الكتيبة كلها ستتبعه. وصدق ظنه.

فإنه لم يسر وحيدًا إلّا بضع خطوات، حتى تبعه جندي، فجندي آخر، وما إن تعالت صيحات «هورررا» حتى كانت الكتيبة كلها تركض إلى الأمام وتتجاوزه. وهبَّ ضابط صف فتناول الراية التي كان ثقلها يرنّح الأمير أندريه، ولكن ضابط الصف لم يلبث أن قُتل. فعاد الأمير أندريه يمسك الراية من جديد، وظل يركض مع الكتيبة وهو يجر الراية من عصاها جرًّا. كان يرى أمامه رماة مدافعنا الذين كان بعضهم لا يزال يقاتل، وكان بعضهم الآخر يترك مدافعه ويهرع إلى لقائه. وكان يرى كذلك المشاة الفرنسيين يستولون على خيول المدفعية، ويديرون المدافع. وأصبح لا يبعد هو وكتيبته عن سرية المدفعية إلّا عشرين خطوة. وكان يسمع صفير الرصاص فوقه متصلًا لا ينقطع، ويسمع أصوات جنود يئنون ثم يسقطون مجندلين على يمينه وعلى شماله. ولكنه كان لا ينظر إليهم، وإنما هو يتفحّص ببصره ما كان يحدث أمامه عند سرية المدفعية. إنه يميز الآن راميًا أحمر الشعر قد ارتدّ معطفه إلى جانب، وراح يشد إليه مِدَكّ مدفع كان جندي فرنسي يشده إليه من طرفه الآخر. إنه يرى الآن رؤية واضحة ما كان يعبّر عنه وجها هذين الرجلين من الشرود والحنق في آن واحد، وكان جليًا أنهما لا يعرفان ماذا يفعلان. سأل الأمير أندريه نفسه وهو ينظر إليهما: «ماذا يفعلان؟ لماذا

لا يهرب الرامي ما دام لا يملك سلاحًا؟ لماذا لا يطعنه الفرنسي بحربته؟ يكفي أن يتذكر الفرنسي حربته حتى لا يتسع وقت الروسي للهرب».

وها هو ذا فرنسي آخر يهرع إلى الخصمَيْن المشتجرين مشرعًا حربته. إن مصير الرامي ذي الشعر الأحمر، الذي كان لا يزال غير مدرك ما ينتظره، وكان شاهرًا مدك المدفع الذي استطاع أن ينتزعه من خصمه سيتقرر الآن. ولكن الأمير أندريه لم ير كيف انتهى الأمر. لقد بدا له أن أحد الجنود الذين يحيطون به قد هوى على رأسه بضربة عصا قوية. لم يكن الألم شديدًا جِدًّا، غير أن ما ضايق الأمير أندريه خاصة هو أن هذا الألم قد صرف انتباهه عن المشهد الذي كان يراه.

وسأل الأمير أندريه نفسه: «ماذا؟ أأسقط؟ أتصطك ساقاي؟»، وسقط منقلبًا على ظهره. وفتح عينيه آملًا أن يرى نهاية الصراع بين الفرنسيين وبين رجال المدفعية، راغبًا في أن يعرف أَقُتِلَ الرامي ذو الشعر الأحمر أم لا، وهل أخذت المدافع أم هي أنقذت؟ ولكنه لم ير شيئًا. وأصبح لا يبصر إلّا سماء فوقه، عالية علوًا كبيرًا، تتهادى فيها غيوم رمادية تهاديًا بطيئًا. قال الأمير أندريه يحدّث نفسه: «ما أروعه من صمت! ما أبدعها من سكينة! وما أعظمه من جلال! ما أكبر الفرق بين ركضنا المسعور بين الصياح والقتال، ما أكبر الفرق بين الحنق الغبي يستعر في رجلين يتنازعان مدك مدفع... وبين تهادي هذه السحب تهاديًا هادئًا بطيئًا في هذه السماء العميقة التي لا نهاية لها؟ كيف لم ألاحظ ذلك حتى الآن؟ ما أسعدني باكتشاف هذا الأمر أخيرًا! نعم، كل شيء باطل، كل شيء كذب إلّا هذه السماء التي ليس لها حدود... وربما كان هذا نفسه ضلالًا ووهمًا. ربما لم يكن هناك شيء عدا الصمت، عدا الراحة. الحمد لله!.... ».

الفصل السابع عشر

في الجنب الأيمن من جند باغراتيون لم يكن القتال في الساعة التاسعة قد بدأ بعد. لقد أبى باغراتيون أن يأخذ بآراء دولغوروكوف الذي كان يريد بدء القتال، ورغب في ألا يتحمّل تبعة هذه الآراء، فاقترح على دولغوروف أن يرسل أحَدًا لتلقي الأوامر من القائد العام. وكان باغراتيون يعلم أن المبعوث الذي سيوفده لا يمكن أن يرجع قبل حلول المساء (هذا إذا لم يقتل، وذلك جائز جِدًّا) فالمسافة التي تفصل أحد الجنبين عن الآخر تبلغ عشرة فراسخ، عدا أن العثور على القائد العام أمر صعب جِدًّا.

أجال باغراتيون عينيه الكبيرتين اللتين غلبهما النعاس واللتين لا تعبّران عن شيء على أفراد حاشيته فإذا بوجه روستوف الذي يشبه وجه طفل، والذي أضناه الانفعال والأمل رغم إرادته، يلفت نظره أكثر من سائر ضباط الحاشية، فيقع عليه اختياره مبعوثًا إلى القائد العام.

قال روستوف وقد رفع يده إلى عمرته بالتحية:

- فإذا لقيت صاحب الجلالة قبل أن ألقى القائد العام يا صاحب السعادة؟

فانبرى دولغوروكوف يجيبه مسرعًا من ذون ان يدع لباغراتيون وقتًا للإجابة:

- في إمكانك أن تتلقّى الأوامر من صاحب الجلالة.

كان روستوف، بعد انفكاكه عن الحراسة، قد استطاع أن ينام بضع ساعات في الفجر، فكان يشعر بفرح وجسارة وعزم، وكان يمتاز بتلك

المرونة في الحركات، ويحسّ تلك الثقة بحسن حظه. كان في تلك الحالة النفسية التي تجعل المرء يرى كل شيء سهلًا فرحًا ممكنًا.

لقد تحقّقت في ذلك الصباح جميع رغباته. نشبت معركة شاملة وهو يشارك فيها. وهو عدا ذلك ضابط يرافق أشجع الجنرالات طرًّا. وأكثر من هذا هو يوفَد بمهمة إلى كوتوزوف، وربما إلى الإمبراطور نفسه.

وكان الجو صحوًا جميلًا، والحصان الذي يركبه من جياد الخيل. وكانت نفسه مبتهجة، ويشعر بأنه سعيد. فما إن تلقّى الأمر حتى اندفع بحصانه يعدو عدوًا سريعًا وسار محاذيًا جند باغراتيون الذين لم يدخلوا المعركة بعد، ولا يزالون ساكنين جامدين، ثم وصل إلى الأرض التي يرابط عليها فرسان أوفاروف[1]، فلاحظ هنالك حركة وعلائم تأهّب لدخول المعركة والشروع في القتال. حتى إذا تجاوز فرسان أوفاروف، سمع سماعًا واضحًا ضجيج قنابل المدفعية ينطلق في أمام، ولاحظ أن القصف يشتد مزيدًا من الاشتداد لحظة بعد لحظة.

ليس الأمر في هذا الصباح الطري كما كان من قبل، أي انفجاران أو ثلاثة انفجارات تنطلق مَعًا على غير نظام ولا اطراد، ثم قذيفة أو قذيفتان من مدفع في وقت من الأوقات. إن إطلاق الرصاص يهدر الآن على طول المنحدرات أمام براتسن، وقذائف المدافع غزيرة غزارة تجعل المرء لا يميز بين رصاص وقنابل، وإنما تنصهر الطلقات كلها في هزيم واحد متّصل غير منقطع.

وكانت الأدخنة الصغيرة التي ترافق طلقات الرصاص تنزل إلى تحت، بينما الأدخنة الضخمة التي تنطلق مع قذائف المدافع تتموج وتمتد ويختلط بعضها ببعض.

ويتصور المرء من التماع الحراب في وسط الدخان تحرّك كتل ضخمة من جنود المشاة، وأشرطة ضيقة من المدفعية مع صناديقها الخضراء.

---

(1) الجنرال فيدور أوفاروف (1773 – 1824)، قائد فوج من «الفرسان – الحرس» قاد سلاح الفرسان الروسي في اوسترلتز سنة 1805، وفي بورودنير سنة 1812.

أوقف روستوف حصانه لحظة على تلة صغيرة ليفهم ما يحدث. ولكنه رغم كل ما بذل من جهد الانتباه لم يستطع أن يفهم شيئًا ولا يستبين شيئًا، إن أناسًا يمشون هناك في الدخان، وجموعًا من الجند تتحرّك إلى الأمام والى الوراء. ولكن مَنْ هم هؤلاء الجنود؟ والى أين يذهبون؟ وماذا ينتوون؟ ذلك كله لم يستطع أن يفهم منه روستوف شيئًا. ويجب أن نذكر أن هذا المشهد وهذا الضجيج لم يُفقداه شجاعته ولا أيقظا فيه شيئًا من الخوف بل بثا في نفسه مزيدًا من العزم وتدفّق الطاقة وروح التصميم.

وكان يخاطب هذه الانفجارات في ذهنه قائلًا لها: «هلمي! ازدادي! اشتدي!». ولكز حصانه، واستأنف جريه خببًا، فسرعان ما بلغ ذلك الجزء من الجبهة الذي كانت فيه القطعات تقتتل. وتساءل: «ترى ما الذي سيحدث هناك؟ لا أدري. لكنني واثق بأن كل شيء سيجري مجرًى حسنًا وسينتهي نهاية طيّبة».

حتى إذا تجاوز وحدة من وحدات الجيش النمسوي، وصل إلى المواقع التي يحتلها الحرس. ولكن الحرس كانوا قد دخلوا المعركة.

حدّث نفسه يقول: «هذا أفضل. سأرى الأمر من كثب».

وأوشك أن يعبر الخط الأول. فإذا ببضعة فرسان يظهرون له. إنهم فرسان من حرسنا راجعون من الهجوم. وحين مرّوا على مقربة منه رأى بعين ذاهلة أن واحَدًا منهم كان مضرَّجًا بالدم. فقال لنفسه؟ «لا يهمني هذا». وقطع بضع مئات من الخطوات، فإذا هو يرى على شماله كتلة ضخمة من الفرسان يسدّون الأفق على امتداد الحقل كلّه. إنهم يرتدون بزات بيضاء لامعة، ويركبون أحصنة سوداء، ويجرون في اتجاهه خفافًا.

فأرخى روستوف العنان لحصانه من أجل أن يفسح لهم الطريق، وكان يمكن أن يتحاشى لقاءهم لو أنهم حافظوا على سرعتهم، ولكنهم كانوا لا يفتأون يزيدونها، حتى إن بعض الخيول أخذت تعدو قماصًا. أصبح يسمع وقع حوافر الخيل وقرقعة السلاح على نحوٍ يزداد وضوحًا، وأصبح يرى قامات الرجال بل يرى وجوههم بأكثر جلاء. إنهم رجالنا من «الفرسان

الحرس» يكرّون على الفرسان الفرنسيين الذين كانوا سائرين إليهم.

إن الفرسان الحرس يتقدّمون، ولكنهم لا يزالون يشدون أعنّة أفراسهم. وإن روستوف ليرى الآن وجوههم. وها هوذا يسمع أحد الضباط يهتف آمرًا «أسرعوا»، ويعدو بحصانه أسرع العدو. وخشي روستوف أن يُداس أو أن يجرفه الكر، فكان يجري شادًا لجام حصانه، ولكنه لم يستطع رغم كل شيء أن يتحاشاهم.

صعَّر آخر «الفرسان الحرس» وجهه وقطب حاجبيه غضبًا، حين رأى أمامه روستوف الذي كان لا بد أن يلتقي به. إنه رجل عملاق مجدور الوجه. ولا شك أنه كان سيقلبه عن ظهر حصانه «بدوي» (ولقد كان روستوف يحس بأنه صغير جِدًّا ضعيف جِدًّا تجاه هؤلاء الرجال وهذه الخيول الضخمة)، ولولا أن كانت بديهة روستوف سريعة، فلطم بسوطه مطية المجدور على عينيها، فإذا هي تشب متنحية وقد أنامت أذنيها فنجا روستوف. ولكن «فارس الحرس» المجدور الوجه أسرع يلكز جنبيها بمهمازيه لكزًا قويًّا حتى لكأنه يغرس المهمازين فيهما غرسًا، فإذا هي تزيد عدوها رافعة ذيلها مادَّة عنقها.

وما إن تجاوز «الفرسان الحرس» روستوف حتى سمعهم يصيحون هاتفين: «هوررررا»، فالتفت فإذا هو يرى صفوفهم الأولى تختلط بفرسان آخرين لهم كتفيات حمراء فلا بد أنهم فرنسيون. ثم لم يستطع بعد ذلك أن يرى أي شيء آخر، لأن المدفع لم يلبث أن أخذ يقصف في مكان من الأمكنة فإذا كل شيء يلفّه الدخان.

وحين كان، «الفرسان الحرس» الذين تجاوزوه يغيبون في الدخان تردد روستوف متسائلًا هل يجب عليه أن ينضمّ إليهم أم يجب عليه أن يمضي إلى حيث كان عليه أن يمضي. إن هذا الهجوم الرائع الذي قام به «الفرسان الحرس» أثار إعجاب الفرنسيين أنفسهم.

وما أشد الشعور بالهول الذي هزَّ روستوف هزًّا قويًّا حين عرف بعد ذلك أن هذه الكتلة من الرجال الشجعان الرائعين، هؤلاء الشبان الأثرياء المتألقين الراكبين أفراسًا يساوي ثمن الفرس منها ألوف الروبلات، هؤلاء

الضباط والمرشَّحين الذين مروا أمامه، لم يبق منهم على قيد الحياة إلّا ثمانية عشر فارسًا رجعوًا من هذا الهجوم سالمين.

قال روستوف لنفسه: «لماذا أحسدهم؟ سيحين وقتي وسيجيء دوري، وربما أتيح لي الآن أن أرى الإمبراطور!».

وتابع طريقه.

حتى إذا أقبل على المشاة من الحرس، كانت القذائف تنهمر عليهم انهمار المطر، لاحظ ذلك لا من سماع أصوات القذائف وهي تئز، بل من رؤية القلق على وجوه الجنود، ورؤية اصطناع التجلّد والجسارة على وجوه الضباط.

ومرَّ وراء أحد الأرتال، فسمع صوتًا يناديه باسمه:

- روستوف!

فأجاب يقول من دون أن يتعرف مناديه:

- ماذا؟

فقال بوريس وهو يبتسم تلك الابتسامة السعيدة التي تضيء وجوه الشبان حين يشتركون في قتال أول مرة:

- هيه! نحن في الخط الأول! وقد مضى فوجنا يهاجم.

فتوقف روستوف، وقال:

- حَقًّا؟ فماذا حدث؟

أجاب بوريس بحماسة وقد أصبح ثرثارًا:

- دحرناهم! تخيَّل!

وأخذ بوريس يقصُّ على روستوف كيف أن الحرس حين وصل إلى موقعه ورأى قطعات أمامه، ظنّها قطعات نمسوية، فلما رأى هذه القطعات تقذفه فجأة بوابل من القنابل، أدرك أنه في الخط الأول واضطر أن يشرع في القتال على حين غرة.

فلم يصغ روستوف إلى نهاية كلام بوريس بل تركه وسار. فسأله بوريس:

- إلى أين؟

فأجاب روستوف:

- إلى صاحب الجلالة، موفد بمهمة.

فقال بوريس وقد ظن أن روستوف يبحث عن «صاحب السمو» لا «صاحب الجلالة»:

- هو ذا.

وأشار له إلى الدوق الأكبر[1]، على مسافة مائة خطوة من هناك.

كان الدوق الأكبر يضع على رأسه خوذة ويرتدي سترة «الفرسان الحرس»، وكان رافعًا كتفيه مقطبًا حاجبيه، صارخًا ينهر ضابطًا نمسويًا ممتقع اللون يرتدي بزة بيضاء.

قال روستوف:

- ولكن هذا هو الدوق الأكبر، وأنا انشد القائد العام أو الإمبراطور.

وهمز حصانه.

صاح بيرج الذي كان لا يقل تحمسًا عن بوريس، وقد هرع من جهة أخرى:

- كونت، كونت، كونت! لقد جرحت يدي اليمنى...

قال ذلك وهو يريه قبضة يده المدمَّاة مضمدة بمنديل، وأردف:

- جرحت يدي اليمنى وبقيت في الصف أقاتل، حاملًا سيفي باليد اليسرى يا كونت. إن جميع أفراد أسرتنا، إن جميع آل بيرج، كانوا شجعانًا.

وظل بيرج يتكلّم، ولكن روستوف لم يصغِ إليه أكثر من ذلك، وعاد ينطلق.

فلما تخطّى الحرس واجتاز مساحة خالية، حاذى في سيره جبهة الاحتياط حتى لا يجد نفسه في الخط الأول كما حدث له ذلك حين قيام «الفرسان الحرس» بهجومهم، واضطر من أجل هذا أن يدور دورة طويلة متجنبًا المكان الذي كان فيه إطلاق الرصاص وقصف المدافع على أشد حال من العنف. وإنه لكذلك إذ هو يسمع على حين فجأة صوت إطلاق رصاص على مقربة منه، في موضع لم يستطع لحظة أن يفترض وجود

(1) قسطنطين بافلوفتش، قائد الحرس، أخو ألكسندر الأول.

العدو فيه. فقال لنفسه: «ما معنى هذا؟ أيكون العدو قد التفّ على قطعاتنا؟ مستحيل!». واعتراه جزع على نفسه، وراوده خوف على نتيجة المعركة. قال محدّثًا نفسه: «مهما يكن الأمر، فليس يفيدني الآن أن أدور هذه الدورة. وإنما يجب أن أبحث عن القائد العام هنا. وإذا ضاع كل شيء، فمن واجبي أن أموت مع سائر من يموتون».

وقد أخذت نذر الشؤم التي أحسَّها فجأة تصدق مزيدًا من الصدق كلما أوغل مزيدًا من الإيغال في المنطقة التي تحتلها طوائف جند ينتمون إلى شتى الأسلحة وراء قرية براتسن.

كان روستوف يسأل الجنود الروس والنمسويين الذين يركضون جماعات مختلطة تسدّ عليه الطريق:

- ماذا حدث؟ على من يطلقون النار؟ من الذي يطلق؟

فكان الفارّون، وهم لا يعرفون عمَّا حدث أكثر مما يعرف هو، يجيبونه بالروسية والألمانية والتشيكية.

- الشيطان وحده يعلم! ذُبح الناس جميعًا! ضاع كل شيء!

وكان أحدهم يصرخ قائلًا:

- سحَقًا للألمان.

وكان ثانٍ يقول:

- لعنة الله على الخونة!

وكان ألماني يجمجم باللغة الألمانية:

- شيطان يأخذ هؤلاء الروس.

وكان عدد من الجرحى يسيرون على الطريق. وكانت الشتائم والصرخات وأنات الشكوى تختلط كلها في جلبة واحدة عامة. وقد هدأ إطلاق الرصاص. وكما علم روستوف في ما بعد، كان جنود روس ونمسويون هم الذين أطلقوا الرصاص بعضهم على بعض.

قال روستوف محدثًا نفسه: «يا رب! ما هذا؟».

وكيف يحدث هذا هنا، حيث يمكن أن يراهم الإمبراطور في كل

لحظة؟... ولكن لا... فأغلب الظنّ أن هؤلاء ليسوا إلّا نفرًا من الأشقياء. سينقضي هذا كله. ليس هذا هو الأمر. مستحيل. فلأسرع. فلأتجاوزهم بسرعة!».

لم يكن من الممكن أن تخامر فكرة الهزيمة أو الانكسار ذهن روستوف. ورغم أنه رأى سرايا المدفعية الفرنسية وقطعات الجيش الفرنسي على روابي براتسبن هذه نفسها التي صدر الأمر إليه بأن يبحث عن القائد العام فيها، فإنه كان لا يستطيع ولا يريد أن يصدق ما رأته عيناه.

الفصل الثامن عشر

لقد أُمر روستوف بأن يسعى إلى كوتوزوف وإلى الإمبراطور بقرب قرية براتسن. ولكنهما لم يكونا هناك، بل لم يكن أي قائد هناك، وإنما هي زُمر متفرقة شتى من الجند تبعثرت صفوفها ودبت فيها الفوضى. ولكز حصانه المكدود الذي أصبح عاجزًا عن السير ليتجاوز هذه الجماهير الهاربة المختلطة بأقصى سرعة. ولكن كان كلما تقدّم مزيدًا من التقدّم وجد الفوضى أشد والفرار أكبر. وكانت الطريق الواسعة التي سار فيها مزدحمة بمركبات وعربات من جميع الأنواع، وجنود روس ونمسويين من جميع الأسلحة، جرحى وسالمين. وكان ذلك كله يهدر ويغزر مع الهزيم المشؤوم الحزين الذي ينطلق مع قذائف سرايا المدفعية الفرنسية المستقرة على روابي براتسن.

كان روستوف يسأل جميع الذين يستطيع أن يستوقفهم:

- أين الإمبراطور؟ أين كوتوزوف؟

ولكنه لم يظفر بجواب من أحد.

وأخيرًا أمسك بياقة أحد الجنود وأجبره على الإجابة قسرًا. فقال الجندي وهو يضحك محاولًا أن يخلّص نفسه من روستوف:

- إيه يا صديقي! لقد ذهبوا جميعًا إلى هناك منذ مدة طويلة! هربوا!...

فترك روستوف هذا الرجل الذي كان واضحًا أنه سكران، وأوقف حصان جندي خادم أو سائس لا بد أنه يعمل في خدمة كبير من الكبراء، وسأل راكب الحصان، فأجابه هذا بأن الإمبراطور قد أُركب عربة وساروا به

على هذه الطريق نفسها بأقصى سرعة، وكان قد أصيب بجرح بليغ.

قال روستوف:

- مستحيل. لا بد أن الذي تتكلّم عنه شخص آخر غير الإمبراطور.

فقال الخادم وهو يبتسم ابتسامة فيها مباهاة:

- رأيته بعيني. لكأنني إذًا لا أعرف الإمبراطور. لقد رأيته كثيرًا جِدًّا في بطرسبورغ. وكان في المركبة شاحب اللون... شحوبًا فظيعًا. لا يتصوّر كيف كانوا يستحثون الأفراس السوداء الأربعة. ومرَّت العربة مقرقعة قرقعة شديدة. أظن أنني قد آن لي أن أعرف خيول الإمبراطور، وإيليا ايفانتش. إن الحوذي إيليا لا يقود عربة ليس فيها الإمبراطور أبدًا.

أرخى روستوف زمام الحصان وأراد أن يتابع سيره. فتقدّم منه ضابط جريح كان يسير على قدميه وسأله:

- عمَّن تبحث؟ عن القائد العام؟ قتل بقنبلة سقطت على صدره بينما هو يتقدّم فوجنا في الطليعة.

فقال ضابط آخر مصححًا:

- لم يقتل بل جرح.

فسأل روستوف:

- من؟ كوتوزوف؟

- لا، ليس كوتوزوف، بل ذلك الآخر... والأمور كلها سواء على كل حال... قليلون هم الذين لا يزالون أحياء. اذهب إلى هناك، نحو تلك القرية، فالقادة كلهم مجتمعون فيها.

قال له الضابط ذلك وهو يشير بيده إلى قرية غوستيرادك. وانصرف.

فأخذ روستوف يسير بحصانه خطوًا وهو لا يدري من الذي يسعى إليه ولا لماذا يسعى إليه، بعد أن جُرح الإمبراطور وهُزمنا في المعركة. لقد أصبح يستحيل عليه ألا يصدق هذا.

مضى في الاتجاه الذي دلّوه عليه، فكان يرى أمامه في البعيد برجًا وكنيسة. وسأل نفسه قائلًا: «علام العجلة؟ ما عساني أقول الآن للإمبراطور

أو لكوتوزوف، هذا إذا كانا سليمين لم يصبهما سوء ولم يمسسهما أذى؟».

وصاح جندي يقول له:

- سر في الطريق الأخرى يا صاحب السعادة. هذه الطريق خطرة. هنا تُقتل حتمًا.

فتدخل جندي آخر يقول:

- أوه! ما هذا الذي تقوله. إلى أين عسى يفضي به ذلك الطريق؟ من هنا المسافة أقصر!

وبعد لحظة من تفكير تعمد روستوف أن يسلك الطريق التي وُصفت له بأنها خطرة وقيل له إنه سيقتل فيها.

وقال محدثًا نفسه: «لا تهمّني الآن حياتي. إذا كان الإمبراطور قد جُرح فما حرصي على نفسي؟». وتوغل في المنطقة التي كان فيها أكبر عدد من الضحايا بين الفارّين من براتسن. إن الفرنسيين لم يحتلوا هذه المنطقة بعد، وقد جلا عنها الروس الذين نجوا من الموت والذين أصيبوا بجِراح. جلوا عنها منذ مدة طويلة. وكانت الأرض قد تناثرت عليها الجثث أو الجرحى تناثر رزم القمح في حقل خصيب، بنسبة عشرة أو خمسة عشر في كل آربانت[1]. وكان الجرحى يجرّون أنفسهم مجتمعين اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة. وكانت تُسمع صرخاتهم وأنّاتهم الحادّة التي بدا بعضها لروستوف تظاهرًا مصطنعًا. فأسرع يجري بحصانه خببًا حتى لا يرى هؤلاء الرجال الذين يتألّمون ويتعذّبون، واعتراه خوف. إنه لا يخشى على حياته، وإنما يخشى أن يفقد شجاعته التي هو في حاجة إليها والتي كان يعلم أنها لا تصمد لنظر هؤلاء المساكين التعساء.

لقد كفَّ الفرنسيون عن دَكّ هذا الحقل الذي تناثر عليه القتلى والجرحى، لعلمهم بأن أحَدًا لم يبقَ فيه على قيد الحياة، واقتصروا على أن سدّدوا إليه مدفعًا وقذفوه بعدد من القنابل. فكان الإحساس الذي ملأ جوانح روستوف

(1) مساحة قدرها مائة قصبة مربعة، أي نحو خمسة آلاف متر مربع.

من سماع هذا الأزيز المشؤوم الحزين ومنظر هؤلاء الموتى الذين يحيطون به ينصهر فيه شعورًا واحَدًا هو الرعب والإشفاق على نفسه. تذكر آخر رسالة تلقّاها من أمه.

فتساءل: «بماذا عساها تحسّ لو رأتني هنا في هذه الساحة وقد سُدّدت إليَّ المدافع؟».

حتى إذا وصل إلى قرية غوستيرادك وجد قطعات روسية أحسن نظامًا، وإن تكن خليطًا، ترجع من ساحة المعركة. كانت القنابل الفرنسية لا تبلغ هذا المكان، وكان هزيم انفجاراتها يبدو للسامع بعيدًا. وكان جميع الناس هنا يرون رؤية واضحة ويقولون بصراحة إن المعركة قد خُسرت. ولم يستطع أحد من بين الذين اتجه إليهم روستوف بالسؤال أن يقول له أين الإمبراطور ولا أين كوتوزوف. وكان بعضهم يقول له إن إشاعة جرح الإمبراطور صحيحة، وكان بعض آخر يقول له بل إنها كاذبة، ويفسرون إشاعة جرحه الكاذبة بأن الكونت تولستوي، مارشال البلاط الأعظم كان بين أعضاء الحاشية التي صحبت الإمبراطور إلى ساحة المعركة، وأنه مرَّ شاحب اللون أصفر الوجه مرتاعًا مذعورًا في مركبة الإمبراطور. وقال أحد الضباط لروستوف إنه رأى أحد كبار القادة وراء القرية شمالًا، فاتجه روستوف قاصدًا ذلك المكان رغم أنه كان لا يأمل أن يجد أحَدًا، ولكنه اتجه قاصدًا ذلك المكان إراحة لضميره. فلما قطع نحو ثلاثة فراسخ وتجاوز أواخر القطعات الروسية، رأى فارسَين واقفين بقرب بستان تحدّه حفرة. فاحس روستوف — من دون أن يعرف لهذا الإحساس سببًا – أنه يعرف منهما الضابط الذي تزيّن قبعته ريشة. وأما الضابط الآخر، وهو شخص لا يعرفه روستوف وكان يمتطي صهوة جواد رائع (وقد اعتقد روستوف بأنه سبق أن رآها) فها هوذا يقترب من الحفرة، فيهمز حصانه مرخيًا له العنان فإذا الحصان يقفز الحفرة بغير عناء ولا يزيد على أن يثير بحافريه ترابًا من حافتها الأولى. ثم لم يلبث الضابط أن استدار فجأة، فقفز الحفرة مرة أخرى، واتجه إلى ذي الريشة باحترام يدعوه في غالب الظن إلى أن يفعل مثلما فعل. ولكن الضابط الذي

أحس روستوف بأنه يعرفه والذي أسر انتباهه أسرًا رغم إرادته، حرَّك يده بإشارة رفض، فلم يلبث روستوف أن أدرك من هذه الإشارة فورًا أن الرجل هو إمبراطوره المعبود الذي كان روستوف يبكي حظه العاثر السيئ. وقال يحدث نفسه: «ولكن لا يمكن أن يكون هو الإمبراطور وحيدًا في وسط هذا الحقل الخالي المقفر..». وفي تلك اللحظة لفت ألكسندر رأسه، فرأى روستوف الملامح التي كانت عزيزة في قلبه، والتي نُقشت نقشًا عميقًا في ذاكرته. كان الإمبراطور شاحب الوجه، خاسف الخدين، غائر العينين. ولكن ذلك كله كان يضفي على وجهه مزيدًا من الفتنة والرقّة. وقد أسعد روستوف أن يرى أن إشاعة إصابة الإمبراطور بجرح كانت إشاعة كاذبة. وأسعده أن يراه. وكان يعلم أنه يستطيع بل يجب عليه أن يتقدّم منه وأن ينقل إليه رسالة دولغوروكوف.

ولكنه كالعاشق الشاب الذي يرتجف وتخور عزيمته، فلا يجرؤ أن يقول ما يحلم به في الليل، ويلقي على ما حوله نظرات مرتاعة بحثًا عن معين يعينه، والتماسًا لوسيلة تؤخر الاعتراف أو تسمح بالهروب حين توافي اللحظة المنشودة فيجد نفسه منفردًا بالحبيبة. كان روستوف، وقد تحقّقت له أغلى أمنية، لا يعرف كيف يواجه الإمبراطور، وأخذ يتصوّر ألف حجّة تبرهن له على أن مواجهة الإمبراطور أمر محرج مخالف للأدب ومستحيل.

حدَّث نفسه يقول: «ماذا؟ سأكون إذًا كمن يسرّه انتهاز فرصة وجوده وحيدًا مهدَّمًا محطمًا! إن رؤية وجه لا يعرفه في هذه اللحظة من الحزن الشديد قد تكون مقيتة لديه أليمة في نفسه. وماذا أقدر أن أقول له إذا كانت النظرة إليه تستطيع وحدها أن تحطّم قلبي وأن تيبِّس فمي؟». ما من حديث واحد من الأحاديث التي أنشأها في خياله ليخاطب به الإمبراطور إذا أتيح له أن يخاطبه، يوافي الآن ذاكرته. وكان مدار تلك الأحاديث يناسب ظروفًا غير هذه الظروف، ويصلح للحظات انتصار وظفر، وتصلح خاصة للحظة يكون هو فيها جريحًا يعاني سكرات الموت فيأتيه الإمبراطور ليحمد له بطولته ويشكر له بلاءه الحسن في القتال، فيعبّر له روستوف، وهو يموت،

عن حبِّه كله مؤيدًا صدق كلامه بالأفعال. ثم... علام يسأل الإمبراطور أوامر تتعلّق بالجنب الأيمن، بينما الساعة الآن هي الرابعة بعد الظهر وقد خسرنا المعركة وتمت الهزيمة؟ لا... يجب ألا أتقدّم إليه حتمًا! يجب ألا أعكّر عليه تأمّله! لأن أموت فذلك خير ألف مرة من أن ينظر إليَّ نظرة شزراء، وأن يرى فيَّ رأيًا سيِّئًا». ذلك كان قرار روستوف. وعاد ممتلئ القلب حزنًا ويأسًا وكمدًا، وابتعد وهو ما ينفك يلتفت صوب الإمبراطور الذي لا يزال على وضعه، ولا يزال على حاله من التردّد والجمود.

وفيما كان روستوف يفكّر هذا التفكر، ويبتعد حزينًا أشدَّ الحزن، مر الكابتن فون تول[1] هناك مصادفة، فلما رأى الإمبراطور وجَّه حصانه إليه، وعرض عليه خدماته، وأعانه في اجتياز الحفرة سيرًا على قدميه. وكان الإمبراطور يريد أن يرتاح، وكان يحسّ بأنه مريض، فجلس في ظل شجرة تفاح، وبقي تول بجانبه. فما كان أشد الحسد والأسف اللذين شعر بهما روستوف حين رأى تول يكلم الإمبراطور طويلًا، ويحدّثه بحماسة وحرارة، بينما كان الإمبراطور الذي لا شك أنه كان يبكي، يغطي عينيه بإحدى يديه ويمسك يد تول باليد الأخرى.

قال روستوف لنفسه: «كان يمكنني أن أكون في مكانه!». ولم يستطع أن يحبس دموع الحنان على الإمبراطور، والحزن لمصيره إلّا في كثير من العناء. وتابع سيره يائسًا كل اليأس، لا يدري إلى أين يذهب، ولا لماذا يذهب إلى حين يذهب.

وكان كمده وكربه ويأسه أشد وأقوى لشعوره بأن سبب حزنه إنما هو ضعفه.

كان يمكنه... بل كان يجب عليه أيضًا، أن يتقدّم من الإمبراطور. كانت

---

(1) كارل فان تول (1777 – 1842)، من أسرة بلطيقية، كان لا يزال سنة 1805 برتبة كابتن، برهن على أنه استراتيجي قدير، ونال رتبة جنرال وعُيِّن رئيسًا لهيئة الأركان العامة الروسية سنة 1812، ومنح لقب كونت سنة 1829 بعد حملة تركيا.

تلك هي الفرصة الوحيدة التي تتاح له، ليعبّر فيها للإمبراطور عن ولائه وإخلاصه وتفانيه. ثم هو لم يحسن الانتفاع بهذه الفرصة... قال لنفسه: «ما هذا الذي فعلت؟». ثم إذا هو يدير حصانه، ويرجع مسرعًا إلى المكان الذي رأى فيه الإمبراطور. ولكن الجهة الأخرى من الحفرة كانت قد خلت. وليس هناك إلّا عربات نقل وعربات ركوب تمر متزاحمة. وعلِمَ من أحد الرجال أن أركان حرب كوتوزوف ليست بعيدة، فهي في القرية التي تتجه إليها القوافل. فانضمّ روستوف إليهم.

كان في طليعة القافلة سائس خيل كوتوزوف يقود أحصنة في أحسن حلة من الزينة. وكانت تسير بعده عربة نقل، ويسير وراء عربة النقل خادم عجوز مقوَّس الساقين، يضع على رأسه كسكيتة ويتدثّر بفروة قصيرة.

قال السائس:

- تيت! هيه! تيت!

فأجابه الخادم العجوز ذاهلًا:

- ماذا؟

- امض فانظر إلى البنات!

فأجاب العجوز وهو يبصق غضبًا:

- أهبل!

وانقضى وقت في حركة صامتة، ثم تجدَّد هذا المزاح نفسه.

وفي نحو الساعة الخامسة من المساء كانت المعركة قد خُسرت في جميع النقاط، وكان الفرنسيون قد استولوا على أكثر من مائة مدفع.

كان برزيبسزفسكي قد ألقى السلاح. وكانت الأرتال الأخرى التي مات زهاء نصف رجالها تنكفئ جماعات متفرقة خليطة قد دبت فيها الفوضى.

وكانت بقايا جيوش لانغرون ودوختوروف التي اختلط بعضها ببعض تسرح إلى السدود وشواطئ الغدران قرب قرية آوغست.

حتى إذا كانت الساعة السادسة أخذ قصف المدافع الشديد لا يهدر إلّا قرب سدِّ آوغست. كان الفرنسيون قد نصبوا عددًا كبيرًا من سرايا المدفعية

على منحدرات رابية براتسن، فكانوا يضربون قطعاتنا المتراجعة.

وقد استطاع دوختوروف وآخرون أن يعيدوا تجميع بعض الكتائب في المؤخرة، وأخذوا يطلقون النار على الفرسان الفرنسيين الذين كانوا يطاردون جنودنا. وحلَّ الليل.

على سدٍّ آوغست الضيّق، الذي كان الطحان العجوز الذي يضع على رأسه طاقية من قطن يصطاد عنده السمك بالصنارة خلال عدد كبير من السنين هادئ البال مطمئن النفس بينما كان حفيده المشمور الأكمام يضع في المسقاة ما يكون الجد قد اصطاده من أسماك بلون الفضة، على ذلك السد الذي كان أناس من أهل مورافيا الذين يضعون على رؤوسهم طاقيات ذات ريش، ويرتدون سترات زرقاء، يمرون عليه مع عربات النقل التي يجر كلًا منها حصانان، والتي تحمل قمحًا، ليعودوا بها بعد ذلك بيضاء من ذرات الطحين، وليعودوا هم أنفسهم مرشوشين بالطحين رشًّا، على ذلك السد الضيق إنما يتزاحم الآن خلال عربات النقل وحاملات المدافع، وتحت سنابك الخيل وبين العجلات، رجال قد انقلبت سحنهم هلعًا من الموت الذي كان يسحقهم بعضًا وراء بعض، وكانوا يموتون، وكانوا يدوسون جثث الموتى، وكان يسحق بعضهم بعضًا ثم لا تكون الثمرة التي يجنونها إلّا أن يلقوا هذا الموت نفسه بعد بضع خطوات...

وكلما انقضت ثوانٍ عشر شقت الهواء قنبلة أطلقها مدفع أو قذفتها يد، فإذا هي تنفجر في وسط هذا الجمهور الكثيف، فتقتل البعض، أو تضرِّج بالدماء أولئك الذين يكونون قريبين من المكان الذي انفجرت فيه. وقد جرح دولوخوف في ذراعه، وفي قدمه، مع زهاء عشرة من كتيبته (لقد رُدَّ ضابطًا، فكان هو وهؤلاء الرجال العشرة والجنرال الراكب حصانًا كل من بقي من أفراد الفوج حيًا. وقد جرفهم الجمهور فكانوا يتزاحمون عند مدخل السد، وحوصروا من جميع الجهات، واضطروا إلى أن يتوقفوا لأن حصانًا كان قد سقط تحت مدفع فكان الرجال يخرجونه من تحت المدفع. وسقطت قذيفة فقتلت رجلًا وراءهم، ثم هوى رجل آخر فلطخ دولوخوف

بالدم. وهرع الحشد إلى الأمام يتكوّم ثم يقف من جديد.

كان كل واحد يقول لنفسه: «هي مائة خطوة ثم أنجو. ولكن إذا بقيت هنا دقيقتين أخريين فقد هلكت لا محالة».

لكن دولوخوف الذي جرفه الجمهور وحصره، استطاع بحركة عنيفة أن يبلغ ضفة السد، فيقلب جنديين ويلقي بنفسه على الجليد الزلق الذي يغطي ماء الغدير.

وصاح يقول لسائقي مدفع من المدافع، وهو يقفز على الجليد الذي قرقع تحته:

- هاتوا المدفع إلى هنا! الجليد متين!...

كان الجليد يحمله ولكنه يتكسّر ويقرقع، وكان واضحًا أنه سيتهشم من ثقله هو، فكيف لا يتهشم من ثقل مدفع أو جمهور. فكان الناس ينظرون إليه ويتدافعون إلى الضفة متراصّين، ولكنهم لا يجسرون أن ينزلوا إلى الجليد بعد. وهذا هو الجنرال الذي كان واقفًا بحصانه عند مدخل السد، يرفع يده ويفتح فمه يريد أن يقول له شيئًا، فإذا بقنبلة تئز فوق رؤوس الجمهور واطئة جِدًّا، فيخفض الرجال قاماتهم، ويسمع صوت اصطدام رخو، فإذا الجنرال وحصانه يسقطان في بركة من دم، ولكن أحَدًا لا يوليه نظرة، ولا يحاول أن يرفعه.

وبعد مرور القذيفة التي أصابت الجنرال، صاحت أصوات كثيرة لا تعرف هي نفسها لماذا تصيح:

- امضوا إلى الجليد! إلى الجليد! تعالوا! ما بالكم لا تجيئون؟ أأنتم صمٌّ لا تسمعون؟

وكان مدفع يسير على السد، فحرف اتجاهه سائرًا نحو الغدير الذي كان الجنود الواقفون على السد يهرعون إليه جمهورًا كبيرًا. انكسر الجليد تحت قدمي واحد من أوائل الهاربين فغاصت ساقه، فأراد أن يخلصها، فلم يفلح إلّا في أن يغوص هو نفسه حتى الخصر. فتمهل الجنود القريبون من الغدير، وأوقف سائق المدفع حصانه، ولكن الأصوات في الخلف كانت

لا تزال تصيح: «إلى الجليد! لماذا الوقوف؟ هلموا! هلموا!». وانبعثت من الجمهور صرخات فزع شديد. وكان الجنود الذين يحيطون بالمدفع يضربون الخيل لتدور وتقفل راجعة. فغادرت الخيل الضفة. ثم إذا بالجليد الذي حمل عددًا من المشاة حتى ذلك الحين، يتحطم منه جزء كبير، فيأخذ الرجال الأربعون الذين يسيرون عليه يسعون مسرعين، فمنهم من يتقدّم إلى أمام ومنهم من يرجع إلى خلف، يريدون أن يتمسّكوا بعضهم ببعض، فيغرقون جميعًا.

وتستمر القنابل في صفيرها وسقوطها على الجليد وفي الماء مطّردة بغير انقطاع، وكثيرًا ما تسقط في وسط الجمهور الذي يغطّي السد والغدير والشطئان جميعًا.

الفصل التاسع عشر

على رابية براتسن، كان يرقد الأمير أندريه في المكان الذي سقط فيه حاملًا الراية، وكان ينزف دمه، وكان يطلق من صدره أصوات شكاة واهنة محزنة طفولية.

حتى إذا كان المساء كفَّ عن الأنين وصمت صمتًا تامًا. إنه لا يدري كم دامت غيبوبته، ولكنه أحس بأنه حي من جديد، وأحس بألم كاوٍ يثقب رأسه ثقبًا. وكانت أول فكرة خطرت بباله هي هذا التساؤل: «أين تلك السماء العالية التي كنت أجهلها حتى الآن، ثم اكتشفتها اليوم؟ وهذا الألم أيضًا كنت أجهله. نعم. كنت أجهل كل شيء حَقًّا حتى الآن، كل شيء... ولكن أين انا؟».

وأنصت فسمع ضجة خيول مقبلة، وأصوات رجال يتكلمون بالفرنسية. فتح عينيه، فرأى فوقه تلك السماء العالية نفسها لا تزال تمتد فوقه. ورأى فيها تلك السحب نفسها تتهادى متموّجة، ولكنها ارتفعت الآن مزيدًا من الارتفاع. ومن خلالها يرى المرء زرقة لازوردية لا نهاية لها. لم يلفت الأمير أندريه رأسه ولم ير أولئك الذين تدل ضجة سنابك الخيول وتدل أصوات الرجال على أنهم أقبلوا عليه وتوقفوا عنده.

إن هؤلاء الفرسان هم نابوليون واثنان من مرافقيه. كان نابوليون، وهو يطوف بساحة المعركة يصدر أواخر أوامره لتعزيز سرايا المدفعية التي كانت تطل بنيرانها على سد آوغست، وينظر إلى الجرحى والقتلى الذين لا يزالون راقدين على أرض القتال.

قال وهو يرى قتيلًا روسيًا من رماة القنابل اليدوية، وكان وجهه مدفونًا

في التراب ورقبته مسودّة. كان راقدًا على بطنه وإحدى ذراعيه ممتدة امتدادًا عريضًا وقد تصلّبت الآن، قال:

- ما أجملهم رجالًا!

وفي تلك اللحظة وصل ضابط مرافق من سرايا المدفعية التي كانت تقصف آوغست، وقال:

- نفذت ذخيرة مدافع الموقع يا سيدي الإمبراطور!

فأجابه نابوليون يقول:

- جيئوها بذخيرة الاحتياط.

وبعد أن سار بضع خطوات توقف عند الأمير أندريه، الراقد على ظهره، ورأى عصا الراية متروكة إلى جانبه (كان الفرنسيون قد أخذوا الراية كما تؤخذ الغنائم)، فقال وهو ينظر إلى الأمير أندريه بولكونسكي:

- هذه ميتة جميلة!

أدرك الأمير أندريه أنه هو المقصود بهذا الكلام، وأن المتكلّم هو نابوليون. فقد كان سمع الضابط المرافق يخاطب قائده قائلًا هاتين الكلمتين: «سيدي الإمبراطور». ولكنه سمع هذه الجملة كما يسمع طنين ذبابة. إن هذه الجملة لا تهمه ولا تعنيه، بل إنه لم يولِها أيَّ انتباه، وسرعان ما نسيها. كان رأسه يحترق احتراقًا، ويحسّ بأن دمه ينزف. وكان يرى فوقه السماء البعيدة العالية الأبدية. إنه يعلم أن الرجل هو بطله نابوليون، ولكن نابوليون يبدو له في هذه اللحظة صغيرًا كل الصغر، حقيرًا كل الحقارة، بالقياس إلى ما يحدث بين نفسه وبين هذه السماء العالية التي تطوف فيها سحب خفيفة متموّجة. كان لا يهمه إطلاقًا في هذه اللحظة أن يعلم من هذا الرجل الواقف عليه، الناظر إليه، المتكلّم عنه. وكان لا يهمه إطلاقًا أن يعرف ما يقوله هذا الرجل. وإنما كان يسرّه أن رجالًا قد توقّفوا عنده، وكانت رغبته الوحيد هي أن يغيثوه وأن يردّوه إلى الحياة التي تبدو له جميلة. بل رائعة الجمال، لأنه أصبح يفهمها الآن فهمًا مختلفًا عن فهمه لها من قبل كلَّ الاختلاف. واستجمع قواه كلها

ليقوم بحركة وليصدر صوتًا، فاستطاع أن يحرك إحدى ساقيه تحريكًا خفيفًا، وأخرج من صدره صوت شكاة ضعيفة أليمة أثارت شفقته هو نفسه.

قال نابوليون:

- إنه حي. ارفعوا هذا الفتى وليُنقل إلى مركز الإسعاف.

نطق نابوليون بهذا الكلام ومضى يستقبل المارشال لان الذي أقبل على الإمبراطور مبتسمًا خافضًا قبعته ليهنّئه بالنصر.

لم يعرف الأمير أندريه بعد ذلك شيئًا، فالألم الرهيب الذي أحسّ به حين وضعوه على النعش الذي كان يهتزّ اهتزازات شديدة أثناء نقله، وحين كشفوا عن الجرح في مركز الإسعاف، قد أفقده وعيه. ثم لم يفق من إغمائه إلّا في آخر النهار حين نُقل إلى المستشفى مع عدد آخر من جرحى الضباط الروس. وقد شعر في طريقه إلى المستشفى بأنه أحسن حالًا، واستطاع أن ينظر إلى ما حوله، واستطاع حتى أن يتكلّم.

وكانت الكلمات الأولى التي سمعها حين صحا من غيبوبته هي كلمات ضابط فرنسي كان يخفر القافلة ويقول متعجلًا:

- يجب التوقف هنا، فسوف يمر الإمبراطور، وسوف يُسرّه ويُفرح قلبه أن يرى هؤلاء السادة أسرى.

فيجيبه ضابط آخر قائلًا:

- ما أكثر الذين تمَّ أسرهم اليوم! لكأنهم الجيش الروسي كلّه! فلا بد أن الإمبراطور شبع من رؤية الأسرى.

فأجاب الضابط الأول وهو يشير إلى ضابط روسي يرتدي بزة بيضاء من بزات «الفرسان الحرس»:

- مع ذلك! إن هذا يبدو أنه كان يقود كل حرس الإمبراطور ألكسندر.

نظر الأمير أندريه بولكونسكي إلى حيث أشار الضابط الفرنسي فتعرف

الأمير ريبنين[1] الذي كان قد قابله في مجتمع بطرسبورغ. وكان إلى جانبه جريح آخر من «الفرسان الحرس» وهو فتى في نحو التاسعة عشرة من العمر.

لما وصل بونابرت على صهوة جواده الذي كان يعدو قماصًا، توقّف وقال يسأل حين رأى الأسرى:

- من أعلاهم رتبة!

فسمِّي له الكولونيل الأمير ريبنين. فسأله نابوليون:

- أأنت قائد فوج «الفرسان الحرس» عند الإمبراطور ألكسندر؟

فأجابه ريبنين قائلًا:

- بل أنا قائد كتيبة.

قال نابوليون:

- إن فوجكم قام بواجبه كاملًا.

قال ريبنين:

- إن مديح قائد كبير لهو أجمل مكافأة ينالها جندي.

- إنه ليسرني أن أمدحكم هذا المديح. من هذا الشاب بجانبك؟

فسمَّاه له ريبنين قائلًا إنه الليوتنانت سوختيلن.

فنظر نابوليون إلى الشاب مبتسمًا وقال:

- جاء يحتك بنا وهو فتى يافع!

فقال سوختيلن بصوت متقطع:

- لأن يكون المرء فتى يافعًا، فهذا لا يمنع أن يكون شجاعًا باسلًا.

قال نابوليون:

---

(1) الأمير نيقولا غريغوريفتش فولكونسكي (1778 - 1845)، هو ابن عم أم الكاتب، ورث عن جده لأمه الفيلدمارشال الأمير ريبنين، هذا الاسم الشهير لتلك الأسرة التي اندثرت، فصار يعرف باسم ريبنين - فولكونسكي. كان قائد الكتيبة الرابعة من كتائب الفرسان الحرس في اوسترلتز. وقد جُرح جرحًا بالغًا وأسر. وكان يقود الفرقة التاسعة من فرق الفرسان سنة 1812، وسُمّي نائب ملك ساكس سنة 1813، وكان والد تولستوي مرافقه في ذلك الحين.

- ردٌّ بديع. أيها الفتى، سيكون لك شأن!

وكان الأمير أندريه قد وُضع في الصف الأول إكمالًا للغنيمة من الأسرى، ليكون تحت بصر نابوليون، فكان لا بد أن يلفت انتباه نابوليون. لا شك أن نابوليون تذكّر أنه سبق أن رآه في ساحة المعركة، وأنه حين خاطبه قد ناداه باسم «الفتى»، وان بولكونسكي نقش في ذاكرة نابوليون بهذا الاسم. فها هو ذا يقول له سائلًا:

- وأنت أيها الفتى؟ كيف حالك الآن يا صاحبي الشجاع؟

ولكن الأمير أندريه، رغم أنه منذ خمس دقائق قال بضع كلمات للجنود الذين كانوا ينقلونه، لم ينطق الآن بحرف، وصمت صمتًا كاملًا وهو يحدِّق إلى نابوليون بنظرة ثابتة. إن الأمور التي تهم نابوليون وتشغل باله كانت تبدو له بالقياس إلى هذه السماء الملأى عدالة وخيرًا، هذه السماء التي رآها وفهمها، تافهة كل التفاهة، وكان نابوليون نفسه يبدو له صغيرًا كل الصغر، هو وهذا الغرور المسكين الذي يملأ نفسه وهذا الفرح بالنصر الذي يغمر قلبه، فلم يستطع الأمير أندريه أن يجيبه.

وكان كل شيء كذلك يبدو له تافهًا لا جدوى منه، باطلًا لا قيمة له، بالقياس إلى ما كان يتّصف به فكره من زهد وعظمة ولَّدهما نضوب قواه من فرط النزف والألم وانتظار موت قريب. كان الأمير أندريه وهو ينظر إلى نابوليون يفكر في غرور العظمة، وفي غرور الحياة التي لا يفهم أحد معناها، وكذلك في غرور الموت الذي لا يستطيع أي حي أن ينفذ إلى سره وأن يفسِّر دلالته.

فلما لم يسمع الإمبراطور جوابًا أشاح وجهه، وقال لأحد قادته وهو ينصرف:

- ليُعتنى بهؤلاء السادة، وليُنقلوا إلى مخيَّمي: إن طبيبي الدكتور لاري هو الذي سيتولى فحص جِراحهم. إلى اللقاء يا أمير ريبنين.

وهمز حصانه وتابع جريه.

كان وجهه يشعّ زهوًا بنفسه وسعادة.

الجنود الذين كانوا ينقلون الأمير أندريه والذين انتزعوا من عنقه الميدالية الذهبية التي كانت الأميرة ماريا قد وضعتها في عنق أخيها، أسرعوا يردون إلى الأمير أندريه وسامه حين رأوا اهتمام الإمبراطور بالأسرى وبشاشته لهم وحسن احتفائه بهم.

لم ير الأمير أندريه ذلك الذي ردَّ الميدالية إلى عنقه، ولا كيف ردَّها، ولكن الميدالية وسلسلتها الذهبية عادت فجأة إلى صدره فوق بزته.

قال لنفسه وهو ينظر إلى هذه الميدالية التي علّقتها أخته بعنقه متّقدة العاطفة الدينية: «ما أحسن أن يكون كل شيء واضحًا وضوحه في نظر ماريا، بسيطًا بساطته في ظن ماريا. ما أحسن أن يعلم المرء أين يجد عونًا في هذه الحياة، وما الذي ينتظره بعد أن يسجى في القبر ويُهال عليه التراب! لشد ما أكون سعيد النفس هادئ البال مطمئن القلب لو كنت أستطيع أن أقول: اللهم رحمتك! ولكن لمن عساي أقول هذا! لمن عساي أتوجّه بهذا الدعاء؟ هذه القوة التي لا نستطيع تحديدها، ولا نقدر أن نتصورها، ولا نملك أن نخاطبها، ولا يمكننا أن نعبِّر عنها بألفاظ، أهي الكل الأكبر أم هي العدم؟ أم تراها تكون هذا الإله الذي أراه موضوعًا هنا في هذا الكيس بيد ماريا؟ لا شيء مؤكَّدًا إلّا أن ما أستطيع أن أفهمه ليس له قيمة، وما أعجز عن فهمه، وهو الأهمّ، له قيمة عظيمة وشأن كبير».

وتحرك النعش، فعاد الأمير أندريه يحس بألم لا يطاق عند كل اهتزازة، وتفاقمت الحمى التي اعترته، وأخذ يهذي. وتصور أباه وامرأته وأخته وابنه الذي سيولد، وتذكر عاطفة الحنان التي أحسّها في الليل قبل المعركة، وتخيّل وجه نابوليون الصغير التافه الحقير، ومرأى السماء التي لا نهاية لها فوق ذلك كلّه، كان هذا هو نسيج التهاويل التي يتألف منها هذيانه.

كان يتخيّل حياة مطمئنة وسعادة عائلية هادئة في ليسييه جوري. وفيما هو يتمتع منذ الآن بهذه السعادة، إذا بنابوليون الصغير يظهر فجأة بنظرته الباردة التي ليس فيها اكتراث، نظرته السعيدة بشقاء الآخرين، فإذا هو يرتد إلى شكوكه وعذابه، فكان منظر السماء وحده يمدّه بشيء من السكينة

والعزاء. واختلطت هذه الأحلام كلها وصارت سديمًا مظلمًا ونسيانًا تامًّا. وكان رأي الدكتور لاري، طبيب نابوليون، أن احتمال أن تؤدي هذه الحالة إلى الموت أكبر من احتمال أن تؤدي إلى الشفاء.

قال لاري:

- هذا شخص عصبيّ صفراوي. فلا نجاة له مما هو فيه.

فعُهد بالأمير أندريه وبالجرحى الآخرين الذين كانت حالتهم ميؤوسًا منها، إلى سكان البلاد يبذلون لهم ما يقدرون على بذله من عناية.

حاشية عن نشأة رواية
«الحرب والسلم»

في التقديم الذي كتبناه لقصة «الديسمبريين» ذكرنا أن عودة الديسمبريين من سيبيريا سنة 1856 قد أوحت إلى تولستوي أن يؤلف رواية تاريخية عن عصرهم. ولكن هذه الفكرة لم تبق في نفسه زمنًا طويلًا إلّا على صورة مشروع ينتوي أن يحقّقه، ولم يكتب تولستوي الفصل الأول من رواية لم تكتمل على كل حال، إلّا سنة 1862 بعد أن التقى في مدينة فلورنسا بالأمير الشيخ سرجي فولكونسكي، زعيم الديسمبريين؛ وهو فصل يصوِّر فيه تولستوي عودة الأمير لابازوف وأسرته إلى موسكو سنة 1856.

وفي تلك السنة نفسها كان تولستوي يحسّ بعد زواجه براحة كبيرة ونشاط شديد. فإذا بإطار روايته يتّسع، وإذا هو يخط صياغة أولى جعل عنوانها: «ثلاثة عصور. الجزء الأول: سنة 1813». وهذه العصور الثلاثة التي كان ينبغي أن تشملها الرواية هي: حرب 1812، ثورة 1825، العودة من سيبريا سنة 1856.

ويمضي بعض الوقت فتتسع آفاق الرواية مزيدًا من الاتساع. ويأخذ تولستوي يبحث عن الحقيقة بدلًا من التغنّي بالانتصار بعد الإخفاقات والعار، فيشرع في دراسة سنة 1805، وهي السنة التي تتميز بذلك الإخفاق الشهير في أوسترلتز. ويخط تولستوي صياغة للرواية يجعل عنوانها الآن:

«من 1805 إلى 1814». وتبدأ تلك الصياغة هذه البداية: «إن أولئك الذين يعرفون بطرس كيريلوفتش في بداية حكم ألكسندر الأول حوالى سنة 1800 يصعب عليهم أن يتعرّفوا في بطرس كيريلوفتش الذي عاد من سيبريا وقد صار شعره بلون الثلج بياضًا، يصعب عليهم أن يتعرفوا فيه ذلك الشاب المستخف المهمل الغليظ بعض الغلظة الشاذ بعض الشذوذ، الذي رأوه في بداية حكم ألكسندر الأول، حين كان عائدًا منذ مدة قصيرة من الخارج، حيث أتم تحصيله العلمي وفقًا لرغبة أبيه». ثم تلا ذلك قصة شباب بطرس. الابن الذي ولد لأبيه سِفاحًا ولا يعترف أبوه ببنوته (وأبوه هذا سيد كبير من أسياد الزمان الماضي)، وكان يسمّى باسم ميدنسكي نسبة إلى القرية التي ولد فيها.

تلك الصياغة الأولى للرواية إنما تدور إذًا منذ ذلك الحين على بطرس كيريلوفتش بيزوخوف، ذلك الظامئ إلى الحقيقة، الساعي دائمًا إلى معرفة معنى الحياة (مثل تولستوي)، فهو البطل الرئيسي للرواية. وكان تولستوي يريد أن يصوّره في ثلاث مراحل من حياته: سنة 1805، وهو في العشرين من عمره، وسنة 1825 وهو في الأربعين، وأخيرًا سنة 1856، وهو في الحادية والسبعين. وكان يريد أن يرسم هذه الشخصية في إطار تاريخي هو هذه الفترات الثلاث الحرجة المتحرّكة من تاريخ روسيا. وقد لخّص لنا تولستوي كيف اقتيد إلى تصوير سنة 1805، التي بها تبدأ رواية «الحرب والسلم» فقال إنه «حين كان يتأهب لوصف ديسمبري عائد من سيبريا رجع إلى عهد ثورة 14 ديسمبر، ثم إلى طفولة وشباب الرجال الذين شاركوا فيها، فافتتن عندئذ بحرب 1812، ولما كانت هذه الحرب متّصلة بحرب 1805، فقد اتخذ تلك الفترة بداية لروايته كلّها». وما كان يريد تولستوي أن يصوّره في روايته أول الأمر إنما هو شخصيات نموذجية لكنها من صنع خياله، جاعلًا الحوادث الكبرى والشخصيات التاريخية في المحل الثاني من عنايته. تشهد بذلك واحدة من مقدمات الرواية التي كانت تختمر في نفسه: «لن يكون أبطالي لا نابوليون، ولا ألكسندر، ولا كوتوزوف، ولا تاليران، سوف أكتب تاريخ الرجال الذين ينعمون بحرية أكبر من الحرية

التي ينعم بها رجال الدولة، سوف أكتب تاريخ الرجال الذين عاشوا في أحسن الظروف، الرجال الذين كانوا متحررين من الفقر والجهل، الرجال الذين كانوا لا يتّصفون بالعيوب اللازمة لترك أثر في سجِلّ الوقائع». وكان هؤلاء الرجال، مثل تولستوي نفسه، ينتمون إلى الطبقة النبيلة التي تملك الأراضي. وهي طبقة حرة فِعلًا، طبقة غير مكترثة، طبقة ملأى بالنقائص، ولكنها زاخرة أيضًا بعواطف الفروسية وزاخرة بالاندفاعات الصادقة. كان ينبغي أن تكون هذه الطبقة في المحل الأول من الرواية التي هي نفسها رواية تاريخية مستمَدة من رواية أسرة، كرواية بوشكين «بنت الضابط»، لكنها أوسع منها عشر مرات.

إن هذا الجزء الأول الذي كان عنوانه سنة 1805 قد ظهر في مجلة «الرسول الروسي» عام 1864. وهو يشتمل منذ ذلك الوقت على وصف لمعارك، ويروي وقائع تاريخية. ولكن تولستوي غير راضٍ عنه. وهو يود الآن أن ينقل الرواية كلها إلى الصعيد التاريخي. وها هو ذا يكتب في «يومياته» (19 آذار/ مارس 1865): «غرقت في قراءة تاريخ نابوليون وألكسندر. فإذا بفكرة تشبه أن تكون غمامة من الفرح ومن الشعور بصنع عمل عظيم، تلفّني وتغمرني، وهي أن أكتب تاريخًا سيكولوجيًا، أن أكتب رواية ألكسندر ونابوليون. فأحكي كل ما كان يتّصف به الرجال الذين يحيطون بهما، وما كانا يتصفان به هما أيضًا، من صغار، ومن كلام منمَّق لا معنى له، ومن جنون، ومن تناقضات كثيرة. أحكي هذا كله». ولكن هذا المشروع لن يتحقّق إلّا تحقّقًا جزئيًا، فلا يزيد تولستوي على أن «يزيح النقاب» عن عظمة نابوليون المفتعلة، ولا يزيد على أن يرسم من صورة طبع ألكسندر الأول خطوطًا أولى (وقد ظلت الصورة خطوطًا أولى، ربما خوفًا من قيام مشكلات بين المؤلف وبين الرقابة على المطبوعات)، ولا يزيد على أن يرسم صورة سبيرانسكي، وزير ألكسندر الأول.

وفي سنة 1866 يقول تولستوي كلمة سريعة عما ستكون عليه الأجزاء التالية من روايته التي يريد أن يجعل لها الآن عنوانًا جديدًا هو: «خير كل ما ينتهي بخير». وفي هذا الشرح الجديد نرى الأمير أندريه يبقى على قيد

الحياة، ويحب ناتاشا، ولكنه حين يرى أخته ماريا مولهة بحب نيقولا روستوف، يتنازل عن سعادته في سبيل أن تستطيع ماريا أن تتزوج نيقولا وأن يتدارك بمهرها عوز آل روستوف. ويتم الاحتفال بزفاف ماريا ونيقولا، وزفاف بطرس وناتاشا في يوم واحد. وبعد ذلك يشارك بطرس ونيقولا في حملات 1813 و1814، ويعودان من باريس إلى عروسيهما في أراضي آل روستوف سالمين لم يمسسهما من الحرب سوء. هنا نرى الرواية العائلية تعود إلى الظهور.

ولكن تولستوي أثناء استرساله في الكتابة سنة 1867، ينخرط في طريق أخرى مختلفة عن هذه الطريق اختلافًا تامًا. إن حرب سنة 1812 تحتل الآن منزلة الصدارة، وتوحي إلى الكاتب بنظرات فلسفية عن التاريخ، وواقع الحرب، والدور الذي يقوم به فيها «عظماء الرجال» من جهة، والشعب من جهة أخرى. وتتجسّد عندئذ فكرته الكبرى، وهي أن «عظماء الرجال» الذين يتغنى بهم كارلايل ويمجّدهم ليسوا هم الذين يصنعون التاريخ، وإنما التاريخ من صنع سواد الشعب، من صنع الشعب الذي يتألّم ويقاسي والذي به يتحقّق النصر. إن تولستوي يقترب هنا من دوستويفسكي الذي هتف يقول: «ضع من قدرك أيها الرجل المغتر، واتعب خاصة في الأرض التي ولدت عليها»، ويقترب أيضًا من دوستويفسكي الذي سيصف في تلك السنة نفسها (1866) هزيمة «السوبرمان»، هزيمة راسكولنيكوف، هذا النابوليون الفاشل. لذلك نرى التعارض بين نابوليون وكوتوزوف في الرواية يشتد وضوحًا وبروزًا. فنابوليون يبدو أنه يوجّه الحوادث ولكنه يتوه ويضل ضلالًا كبيرًا، وكوتوزوف يكاد يدع للحوادث أن تقوده، فتحمّله ثقة جنوده، وتحمّله ثقة الشعب. إن هذا الشعب الذي يسند إليه المؤلف شأنًا خطيرًا متزايدًا، ستجسده شخصية أفلاطون كاراتايف، الجندي البسيط الذي سيكشف لبطرس بيزوخوف عن المعنى العميق للحياة في البساطة المسيحية والمذلة المسيحية.

وفي شهر آذار/ مارس/ إنما اهتدى تولستوي إلى العنوان النهائي لروايته، العنوان الذي يناسبها أكثر من أي عنوان آخر: «الحرب والسلم».

وأنتم تعلمون أن تولستوي قد استمد هذا العنوان من كراسة بقلم برودون (الذي حادثه تولستوي بمدينة بروكسل والذي شدّت نظرياته الفوضوية اهتمام تولستوي). وبهذا العنوان إنما ظهرت في شهر كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1867 الكتب الثلاثة الأولى من هذه الرواية، أعني الكتاب الأول والكتاب الثاني في الطبعات اللاحقة. وفي سنة 1868 بدل الجزء الثاني من الرواية تبديلات كثيرة لا حصر لها. وكان موضوع حرب 1812 هو الذي يعود إليه المؤلف ويراجعه ويوسّعه. ثم وقف العمل الكبير عند هذا الحد. أصبح تولستوي لا يملك القوة (أو الرغبة) اللازمة لمتابعة أبطاله ومرافقتهم مع الجيش الروسي إلى باريس سنة 1814. وليس هناك إلّا خاتمة قصيرة تصوّر بطرس وناتاشا بعد ذلك بسبع سنين. وفي هذه الخاتمة يحس المرء سلفًا بأن بطرس الذي كان مستاء من نظام آراختشايف يمكن أن يصبح ديسمبريًّا، وأن ناتاشا قد تتبعه إلى منفاه، متفانية تفاني النساء الروسيات في ذلك العصر الذي تغنّى به الشاعر نكراسوف سنة 1870.

هكذا ظهرت الكتب الثلاثة التالية في المدة الواقعة بين شهر آذار/ مارس وشهر كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1869. وهي الآن الكتاب الثالث والكتاب الرابع من رواية «الحرب والسلم».

كذلك نرى أن تولستوي يعجز بعد ست سنين قضاها في عمل تلهبه حماسة شديدة عن إنجاز فكرته الكبرى: ألا وهي تصوير تاريخ العهود الثلاثة. إنه لم يستطع أن يعالج إلّا عهدًا واحَدًا من تلك العهود الثلاثة، أعني العهد الأول. ولكنه بلغ من التوسّع والتعمّق في وصف ذلك العهد، ووضع فيه شخصيات تبلغ من الكثرة (لقد أحصيت في الرواية 559 شخصية)، ورسم لوحات حية تبلغ من الوفرة، أن المرء ينسى أخيرًا إغفال المشروع الأصلي إزاء الغزارة الخارقة في الكتاب الذي أنجز.

كلمة أخيرة: في طبعة أعمال ليون تولستوي التي ظهرت سنة 1873 في ثمانية مجلدات، أدخل المؤلف على رواية «الحرب والسلم» تعديلات جديدة، فالكتب الستة الأصلية صارت أربعة، والنصوص المكتوبة بالفرنسية حلّت محلها نصوص روسية، والتأملات الفلسفية أودعت

في ملحق. وأخيرًا، في طبعة 1886، أعادت الكونتيسة صوفيا تولستوي النصوص الفرنسية مع إبقائها على تقسيم الرواية أربعة كتب، وأعادت الاستطرادات التاريخية والفلسفية إلى مواضعها. وقد وافق تولستوي ضمنًا على هذا التغيير الجديد، وفي هذه الصورة الأخيرة إنما ظهرت بعد ذلك جميع الطبعات اللاحقة لرواية «الحرب والسلم».

آلكسندر سولوفييف

خلاصة الفصول

الكتاب الأول

الجزء الأول

الفصل الأول - سهرة في المجتمع الراقي بمنزل الوصيفة آنا بافلوفنا شيرر. ربَّة الدار والأمير فاسيلي كوراجين. حديث عن نابوليون. آنا بافلوفنا تنتوي تزويج آناتول، ابن الأمير فاسيلي، بالأميرة الغنية ماريا بولكونسكي....

الفصل الثاني - ضيوف مادوموازيل شيرر: ابنة الأمير فاسيلي الجميلة هيلين، ابنه هيبوليت، الأميرة الصغيرة ليزا بولكونسكي. المهاجر الفرنسي الفيكونت مورتمار، القس موريو. طقس من الطقوس: الضيوف يذهبون إلى عمَّة ربَّة الدار يحيّونها. وصول بطرس بيزوخوف إلى السهرة.....

الفصل الثالث - حديث عن إقدام نابوليون على إعدام دوق آنجهين. الفيكونت يروي قصة لقاء الدوق وبونابرت عند الممثلة مادوموازيل جورج. حديث بين بطرس والقس عن التوازن السياسي. وصول الأمير أندريه بولكونسكي. لقاؤه ببطرس. انصراف الأمير فاسيلي وابنته هيلين وذهابهما إلى حفلة سفير إنجلترا.....

الفصل الرابع - الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تسأل الأمير فاسيلي أن يحصل لها من القيصر على نقل ابنها إلى الحرس. مناقشة في الصالون عن نابوليون. بطرس يدافع عن الثورة ونابوليون، فيهاجمه ضيوف آنا بافلوفنا شيرر، ويؤيده أندريه. الأمير هيبوليت يحكي نكتة عن سيدة من موسكو....

الفصل الخامس - بطرس بيزوخوف. انصراف ضيوف آنا بافلوفنا. هيبوليت كوراجين والأميرة بولكونسكي. وصول بطرس إلى بيت بولكونسكي حديثه مع الأمير أندريه عن اختيار بطرس طريقًا لحياته....

الفصل السادس - بطرس عند أندريه بولكونسكي وزوجته. قيام مشادّة بين الزوجين، الأميرة الصغيرة والأمير أندريه حول سفر الأمير أندريه إلى الحرب. تأملات يبديها الأمير أندريه عن نفسه وعن الزواج وعن النساء. يذهب بطرس بيزوخوف إلى سهرة عند آناتول كوراجين. دولوخوف ورهانه مع الإنجليزي ستيفنس...

الفصل السابع - الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي عند آل روستوف. الكونت والكونتيسة روستوف يستقبلان زوارًا بمناسبة عيد ناتاليا الأم وناتاليا البنت. زيارة السيدة كاراجين والآنسة كاراجين. حديث عن النبأ الأساسي في ذلك اليوم وهو مرض الكونت الشيخ بيزوخوف، وعن ابنه غير الشرعي بطرس الذي طرد من بطرسبورغ لقيامه بأعمال هي فضائح، وعن مآل الثروة الضخمة الطائلة التي يملكها الكونت الشيخ بيزوخوف، بعد موته....

الفصل الثامن - الشبيبة في منزل آل روستوف ناتاشا، نيقولا، بيتيا، صونيا، بوريس دروبتسكوي في الصالون. حكاية العروس ميمي.

الفصل التاسع - في الصالون. صونيا، قريبة نيقولا من جهة أبيه. حديث الكونت مع الزائرة عن دخول نيقولا الجيش، ومع الكونتيسة عن التربية. نيقولا وصونيا وفيرا روستوف...

الفصل العاشر - ناتاشا روستوف تختبئ في حديقة الشتاء. مشاجرة غيرة،

وقبلة يتبادلها نيقولا وصونيا. ناتاشا تنادي بوريس إلى حديقة الشتاء. وتقترح عليه أن يقبل دميتها (عروستها). ناتاشا تقبّل بوريس. حديثهما عن الحب...

الفصل الحادي عشر - العشاق في غرفة التدخين اثنين اثنين: صونيا مع نيقولا، وناتاشا مع بوريس. اشتجارهم مع فيرا. حديث بين صديقتي الطفولة: الكونتيسة روستوف تشكو من سوء حال شؤونهم وأعمالهم، والأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي تقول إنها أفلحت في إلحاق ابنها بوريس في الحرس، وتتشكّى من سوء حالها المالية، ومن عدم قدرتها على تجهيز بوريس. آمالها في الثروة التي سيتركها الكونت بيزوخوف....

الفصل الثاني عشر - آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي وابنها يذهبان إلى الكونت بيزوخوف المريض. التقاؤهما بالأمير فاسيلي. آنا ميخائيلوفنا تقرّر تولّي العناية بالمريض.

الفصل الثالث عشر - بطرس بيزوخوف في موسكو في منزل أبيه. وصوله والتقاؤه بالأميرات بعد طرده من بطرسبورغ. بوريس وبطرس يتصارحان. الأميرة دروبتسكوي وابنها يرجعان إلى منزل آل روستوف. حديثهم عن وصية الكونت بيزوخوف....

الفصل الرابع عشر - الكونتيسة روستوف تطلب من زوجها خمسمائة روبل، فلما عادت آنا ميخائيلوفنا أعطتها المبلغ لتنفقه في تجهيز ابنها بوريس. الصديقتان تذرفان دموعًا....

الفصل الخامس عشر - في منزل آل روستوف، قبل العشاء الفخم. إنهم ينتظرون وصول عرابة ناتاشا، ماريا ديمترييفنا آخروسيموفا. حديث بين شنشين وبين بيرج في مكتب الكونت. بطرس بيزوخوف في صالون آل روستوف. وصول السيدة آخروسيموفا. المدعوون يقومون إلى المائدة... العشاء.

الفصل السادس عشر - حديث أثناء العشاء عن محاربة بونابرت. كولونيل سلاح الفرسان. جواب نيقولا روستوف. «شيطنة» ناتاشا...

الفصل السابع عشر - الشبيبة تغني. دموع صونيا بسبب حبها لنيقولا وبسبب أبيات الشعر التي كتبها لها. تتكاشف الفتاتان. ناتاشا وبوريس وصونيا ونيقولا يغنون أغنية «الينبوع». رقصات. الكونت إيليا آندريتش روستوف يرقص على أنغام لحن «دانيلوكوبر» مع ماريا ديمترييفنا آخروسيموفا....

الفصل الثامن عشر - في منزل الكونت بيزوخوف المحتضر. الاستعداد للمسحة الأخيرة. أحاديث الحضور. الدكتور لوران. تواطؤ سري بين الأمير فاسيلي والأميرة كاتيش على إخفاء وصية الكونت....

الفصل التاسع عشر - بطرس بيزوخوف يرجع إلى المنزل ومعه آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي. يدخل بطرس صالون الاستقبال الخاص بأبيه المحتضر الذي طلب أن يراه. موقف الأشخاص الحاضرين منه...

الفصل العشرون - بطرس عند أبيه المريض. الكونت بيزوخوف. المسحة الأخيرة: الأميرات، السيدة دروبتسكوي، الأمير فاسيلي، الكهنة، الأطباء، الخدم، إلخ. كبرى الأميرات تسرق الوصية...

الفصل الحادي والعشرون - الأمير فاسيلي كوراجين والأميرة كاتيش. بطرس وآنا ميخائيلوفنا. مناقشة وصراع على المحفظة التي تضم الوصية. موت بيزوخوف......

الفصل الثاني والعشرون - أراضي آل بولكونسكي في ليسييه جوري. الأمير الشيخ نيقولا آندريتش بولكونسكي. ابنته الأميرة ماريا. درس هندسة. رسالة من جوليا كاراجين وجواب الأميرة ماريا...

الفصل الثالث والعشرون - وصول الأمير أندريه وزوجته إلى ليسييه جوري. التقاؤهما بالأميرة ماريا ووصيفتها الفرنسية مادوموازيل بوريين. لقاء الأمير الشيخ وابنه، وحديثهما في الحرب والسياسة.

الفصل الرابع والعشرون - عشاء في ليسيه جوري. مناقشة بين الأمير الشيخ وابنه عن سوفوروف وبونابرت بحضور المهندس المعمار ميخائيل ايفانتش....

الفصل الخامس والعشرون - استعدادات لسفر الأمير أندريه الذاهب إلى الالتحاق بالجيش. محادثته الأخيرة مع أخته. الأميرة ماريا تهدي إليه ميدالية. وداع الأمير أندريه أبيه وامرأته وأخته. السفر.....

الجزء الثاني

الفصل الأول - الجيوش الروسية في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1805، في النمسا، بقرب براوناو. فوج من أفواج المشاة يتهيأ لأن يستعرض القائد العام. قائد الفوج يصدر أمره إلى الجنود بتغيير ثيابهم. الجنرال يلوم الكابتن تيموخين لأن الضابط المجرّد من رتبته العسكرية دولوخوف يرتدي معطفًا أزرق، ويأمره بإصلاح الخطأ....

الفصل الثاني - كوتوزوف يستعرض الفوج. القائد العام يقف قرب السرية الثالثة ويكلم تيموخين. ويستدعي دولوخوف. فرح الجنرال بعد النجاح والتوفيق اللذين أصابهما الاستعراض. حديثه مع تيموخين. أحاديث الجنود بعد الاستعراض. المغنون. حديث جيركوف ودولوخوف....

الفصل الثالث - حديث بين كوتوزوف وجنرال نمسوي عضو في «المجلس الحربي الأعلى». الأمير أندريه بولكونسكي في هيئة أركان كوتوزوف. وصول الجنرال النمسوي ماك. جيركوف يهنئ الجنرال النمسوى شتراوخ وعضو «المجلس الحربي الأعلى» بوصول ماك..

الفصل الرابع - نيقولا روستوف، المرشح في فوج بافلوغراد من سلاح الفرسان، بينما كان فوجه معسكرًا بقرب براوناو، يرجع من قيامه بسخرة توزيع العلف. حديث طارئ بينه وبين الألماني صاحب المسكن. وصول الضابط تليانين. واختفاء كيس دينيسوف. روستوف يقنع تليانين بأن الكيس سرق..

الفصل الخامس - مناقشة حامية مع ضباط كتيبة دينيسوف عن قضية تليانين، وقيام خلاف بين نيقولا روستوف وقائد الفوج بسبب ذلك. وصول جيركوف وإبلاغه هزيمة ماك والأمر بالتحرك...

الفصل السادس - انسحاب الجيوش الروسية نحو فيينا. عبور نهر اينس. نزفتسكي والضباط. الجنرال يرسل نزفتسكي ليكرر على الفرسان أمره بأن يعبروا آخر العابرين، وبأن يحرقوا الجسر.

الفصل السابع - أواخر القطعات الروسية تعبر جسر إينس. تزاحم وتدافع على الجسر. أقوال الجنود الذين يعبرون. عربة نقل ألمانية تحمل نساء، وبقرة تلفت انتباه الجميع. نزفتسكي يلتقي على الجسر بدينيسوف. مرور كتيبة دينيسوف....

الفصل الثامن - القطعات الفرنسية تقترب من الجسر. الكتيبة تعبر الجسر وتنضمّ إلى القطعات الأخرى. جيركوف ثم ضابط آخر من حاشية الإمبراطور ونزفتسكي يحمل إلى كولونيل فرسان بافلوغراد أمر قائد مؤخرة الحرس بإحراق الجسر. الكولونيل يأمر كتيبة دينيسوف بأن تعود أدراجها وتفعل ما يجب. الفرسان يحرقون الجسر تحت مرمى نيران الفرنسيين. مشاعر نيقولا روستوف.

الفصل التاسع - انسحاب جيش كوتوزوف إلى أسفل نهر الدانوب. انتصار روسي بقرب كريمس. القائد العام يرسل الأمير أندريه إلى بلاط إمبراطور النمسا حاملًا رسالة تنبئ بهذا الانتصار. الأمير أندريه أثناء الرحلة وفي برون. وزير الحرب يستقبل الأمير أندريه من دون اكتراث. تغيّر حالة الأمير أندريه النفسية...

الفصل العاشر - الأمير أندريه ينزل ضيفًا على صديقه الدبلوماسي بيليبين. حديث الأمير أندريه بولكونسكي مع بيليبين عن الاستيلاء على فيينا ومعركة كريمس والتحالف مع بروسيا، وخيانة النمسا، والانتصار الجديد الذي حقّقه بونابرت..

الفصل الحادي عشر – الأمير أندريه عند بيليبين. حلقة من الشبان الدبلوماسيين الروس. هيبوليت كوراجين. الأمير أندريه يذهب إلى قصر إمبراطور النمسا..

الفصل الثاني عشر – الأمير أندريه يقابل الإمبراطور فرانسوا، إمبراطور النمسا. الأمير أندريه بولكونسكي يوشَّح بوسام «ماري تيريز». احتفاء رجال البلاط جميعًا به. عودة الأمير أندريه إلى عند بيليبين الذي يخبره باستيلاء مارشالات فرنسيين على جسر في فيينا. الأمير أندريه يقرر العودة إلى الجيش فورًا....

الفصل الثالث عشر – الأمير أندريه بين القطعات الروسية المتراجعة. منظر الجيش وهو يتقهقر بسرعة وفوضى. مشادة بين الأمير أندريه بولكونسكي وبين ضابط مسؤول عن القوافل بصدد عربة نقل كانت تقل امرأة طبيب. خوف وقلق في هيئة أركان القائد العام. كوتوزوف يكلف باغراتيون أن يذهب على رأس مفرزة ليناوش الفرنسيين فيؤخّرهم عن التقدّم....

الفصل الرابع عشر – كوتوزوف يتلقى نبأ خطيرًا يهدد الجيش الروسي الذي تلاحقه قوات فرنسية ضخمة. كوتوزوف يرسل مفرزة باغراتيون إلى هولابرون، وقوامها أربعة آلاف رجل لصد جيش العدو. يظن مورا أن هذه المفرزة هي أكثر الجيش الروسي فيقترح عقد هدنة. رسالة نابوليون إلى مورا، وفيها يأمره بقطع الهدنة....

الفصل الخامس عشر – الأمير أندريه في مفرزة باغراتيون. أندريه بولكونسكي يزور الموقع مع ضابط الأركان العامة. مشهد في خيمة قيّم الكانتين. الكابتن توشين. منظر القطعات الروسية. مشهد عقوبة جسدية يوقعها جنود من رماة القنابل اليدوية في أحد الجنود. الجندي سيدوروف يتكلم «بالفرنسية»، ضحكات الجنود الروس والفرنسيين....

الفصل السادس عشر – الأمير أندريه يلاحظ، وهو في سرية مدفعية توشين، مواقع القوات الروسية والقوات العدوة، ويرسم لها خريطة. يفاجئ حديثًا بين ضباط في الكوخ عن الخوف من الموت. أول طلقة رصاص من الجانب الفرنسي. توشين يخرج من الخص.

الفصل السابع عشر – نشوب معركة شونغرابن، الأمير أندريه ينضم إلى حاشية باغراتيون. المستمع وجيركوف. باغراتيون في سرية مدفحية توشين. أوامر يصدرها باغراتيون إلى القادة، ودوره في المعركة..

الفصل الثامن عشر - باغراتيون في الجانب الأيمن من مفرزته قرب المعركة. قائد فوج، شيخ يبلغ باغراتيون أن هجمة الفرسان الفرنسيين قد صُدَّت، وينبئه بالخسائر التي مني بها فوجه. ويضرع إلى باغراتيون ألا يعرّض نفسه للخطر. ظهور رتل فرنسي يتقدّم، وكتيبتين روسيتين. باغراتيون يقود الروس إلى الهجوم. رأي تبير ونابوليون في هذا الهجوم.

الفصل التاسع عشر - انسحاب الجانب الأيمن للقطعات الروسية. جيركوف يحمل إلى الجنرال الذي يقود الجانب الأيسر أمر باغراتيون بالانسحاب. نزاع بين قائدَي الجانب الأيسر، القائد العام لفوج المشاة الذي استعرضه كوتوزوف في براوناو وقائد فوج فرسان بافلوغراد. مباراة جسارة بين الجنرال والكولونيل. كتيبة فرسان دينيسوف تهاجم. نيقولا روستوف أثناء الهجوم. إصابته برض في ذراعه...

الفصل العشرون - أفواج من المشاة يباغتها الفرنسيون في الغابة. قائد الفوج الذي استعرضه كوتوزوف في براوناو يحاول صد الجنود الهاربين عن الهروب. الروس يدحرون الفرنسيين لحظة. بطولة دولوخوف. القتال الذي قامت به سرية مدفعية توشين المنسية. انتعاش رماة المدفعية وفرحهم بنجاح رميهم وإخفاق الهجوم الفرنسي. عالم خيالي ينشأ في رأس توشين، وصول ضابط إلى سرية المدفعية يحمل إليها أمرًا بالانسحاب فورًا. وصول الأمير أندريه حاملًا ذلك الأمر نفسه....

الفصل الحادي والعشرون - انسحاب سرية توشين ولقاء القادة والضباط المرافقين. توشين يأمر بإركاب نيقولا روستوف المرضوض على مدفع. القطعات تتوقف. توشين وروستوف بقرب النار. الجنرال يستدعي توشين. باغراتيون جالس إلى المائدة في منزل من منازل الفلاحين. قائد فوج مشاة يحكي لباغراتيون هجوم فوجه، ويشيد ببطولة دولوخوف. وصول توشين. اضطرابه وتشوّشه لدى رؤية القادة. باغراتيون يسأل توشين عن ترك مدفعين. تدخل الأمير أندريه وثناؤه على توشين.

الجزء الثالث

الفصل الأول - ما ينويه الأمير فاسيلي من تزويج بطرس بيزوخوف لابنته. بطرس في بطرسبورغ عند آل كوراجين. تبدل موقف أسرته ومعارفه وأصدقائه والمجتمع منه، منذ أصبح اسمه الكونت بيزوخوف وأصبح رجلًا ثريًا. الأمير فاسيلي يقوم بدور الناصح الأمين لبطرس. بطرس بيزوخوف في سهرة عند آنا بافلوفنا شيرر. هيلين وبطرس في ركن مع العمة. بطرس يقرر أن تكون هيلين زوجته...

الفصل الثاني - بطرس يقرر أن يسافر وأن يتحاشى هيلين، ومع ذلك يظل مقيمًا عند آل كوراجين ستة أسابيع، وهو في نظر الجميع يزداد التزامًا بها. سهرة عند الأمير فاسيلي بمناسبة عيد ابنته هيلين. الأمير فاسيلي يروي نكتة عن سرجي كوزمتش. بطرس وهيلين. خلوتهما في الصالون الصغير. تردد بطرس. الأمير فاسيلي يبارك الخطيبين. بطرس يتزوج هيلين..

الفصل الثالث - الأمير العجوز يتلقى نبأ الزيارة التي يزمع الأمير فاسيلي وابنه أن يقوما بها إلى ليسييه جوري. استياء وحنق الأمير الشيخ. غضبه على وكيله آلياتتش الذي أمر بكنس الثلج من الشارع، وإصداره أمره بإعادة تغطية الشارع بالثلج. عشاء. حياة الأميرة الصغيرة في ليسييه جوري: خشيتها المستمرة من حميها الأمير الشيخ. الأميرة الصغيرة لا تحضر العشاء. الأمير يذهب إليها في جناحها بالمنزل. وصول الزائرين. حديث بين الأمير فاسيلي وابنه قبل أن ينضما إلى أصحاب الدار. الأميرة الصغيرة ومادوموازيل بوريين تحاولان أن تلبسا الأميرة ماريا أحسن الثياب وأن تمشطا شعرها أحسن تمشيطة. الحالة النفسية للأميرة ماريا قبل لقاء الزائرين...

الفصل الرابع - الأميرة ماريا تنضم إلى الضيوف وترى آناتول، عريسها المفترَض. حديث عام: «تذكر حوادث لم تحدث في يوم من الأيام». آناتول يهتم بمادوموازيل بورِيين. الأمير الشيخ يرتدي ثيابه. خواطره عن مسألة زواج الأميرة ماريا. الأمير الشيخ يؤنّب ابنته لأنها تزينت وبدّلت تسريحة شعرها. حديث بين الأمير الشيخ وآناتول. الأمير فاسيلي يعرب للأمير الشيخ عن رغبته. أحلام الأميرة ماريا ومادوموازيل بورِيين. في حجرة التدخين. الأميرة ماريا تعزف على البيانو. آناتول يغازل مادوموازيل بورِيين...

الفصل الخامس - عواطف الأميرة ماريا، ومادوموازيل بورِيين والأميرة الصغيرة بعد السهرة. عواطف الأمير الشيخ بعد أن طُلبت منه الأميرة ماريا زوجة لآناتول. آناتول ومادوموازيل بورِيين يلتقيان في حديقة الشتاء. حديث الأمير الشيخ مع ابنته في أمر طلبها زوجة لآناتول. الأميرة ماريا تجتاز حديقة الشتاء وتباغت آناتول معانقًا مادوموازيل بورِيين. رفضها القاطع الجازم أن تتزوج الأمير آناتول فاسيلي. فرح الأمير الشيخ بهذا الرفض. أحلام تضحية وإيثار في ذهن الأميرة ماريا إذ تقرر أن تدبر زواج آناتول ومادوموازيل بورِيين مهما يكلفها ذلك..

الفصل السادس - آل روستوف يتلقّون من نيقولا رسالة يبلغهم فيها أنه أصيب بجرح وأنه رُقّي إلى رتبة ضابط. آنا ميخائيلوفنا تهيئ الكونتيسة لتلقّي النبأ. ناتاشا تحزر أن رسالة وصلت. وتخبر صونيا. رأي بيتيا في أخيه وأختيه. حديث بين ناتاشا وصونيا عن نيقولا. آنا ميخائيلوفنا تسلم الكونتيسة رسالة ابنها. الكونتيسة تقرأ الرسالة، والأسرة كلها تجيب نيقولا...

الفصل السابع - معسكر أولموتس. نيقولا روستوف يذهب إلى معسكر الحرس ليلقى بوريس دروبتسكوي الذي يجب أن يسلمه رسالة ومالًا وصلا إليه من أسرته. لقاء نيقولا وبوريس وبيرج. روستوف يقرأ رسائل أسرته. حديث بين بوريس ونيقولا عن وظائف الضابط المرافق. ضباط

الحرس يروون حملتهم، وروستوف يروي هجوم فرسان بافلوغراد. الأمير أندريه يزور دروبتسكوي وملاسنة بين روستوف والأمير...

الفصل الثامن - الامبراطوران، ألكسندر الأول وفرانسوا، يستعرضان القطعات الروسية والنمسوية. نيقولا روستوف يشعر بعاطفة حب وعبادة نحو الإمبراطور ألكسندر...

الفصل التاسع - بوريس دروبتسكوي يسافر إلى أولموتس سعيًا إلى لقاء بولكونسكي، ويحصل على وعد بإلحاقه ضابطًا مرافقًا لشخصية عالية المقام. مشهد في صالة الانتظار التي تفضي إلى غرفة القائد العام: حديث بين الأمير أندريه وبين جنرال شيخ. بولكونسكي ودروبتسكوي يذهبان إلى الأمير دولغوروكوف. دولغوروكوف يحدثهما عن جلسة مجلس الحرب وعن انتصار حزب الشباب أنصار الهجوم، وعن رسالة نابوليون، ويروي لهما نكتة عن نابوليون والكونت موركوف. الأمير أندريه يطلب من دولغوروكوف أن يدعم بوريس. انفعال بوريس دروبتسكوي من شعوره بأنه قريب من السلطة العليا...

الفصل العاشر - كتيبة فرسان دينيسوف، التي ينتمي إليها نيقولا روستوف تُجعل كتيبة احتياط. انتصار الروس على الفرنسيين في مدينة فيشاو. حسرات روستوف لأنه لم يشارك في القتال. روستوف يشتري من القوزاق حصان فارس فرنسي أسير. مرور الإمبراطور ألكسندر. حماسة روستوف. روستوف يلمح الإمبراطور في فيشاو مرة أخرى. دينيسوف يحتفل بترقيته إلى رتبة ميجر. روستوف يحلم بأن يموت في سبيل القيصر....

الفصل الحادي عشر - توعّك صحة الإمبراطور في فيشاو. وصول مفاوض فرنسي مقترحًا أن يتم لقاء بين الإمبراطور ألكسندر ونابوليون. إرسال الأمير دولغوروكوف في مهمة إلى نابوليون. حركة في دوائر الجيش العليا يوم 19 تشرين الثاني/ نوفمبر تأييدًا لبدء معركة أوسترلتز. الأمير أندريه عند الأمير دولغوروكوف. الأمير دولغوروكوف يصف مقابلته

لنابوليون، ويقول إن نابوليون يخشى نشوب معركة عامة شاملة. دولغوروكوف يعرض خطة حركة الالتفاف التي تصوَّرها فايروتهر. اعتراضات الأمير أندريه الذي يعرض خطته هو. كوتوزوف يرى أن المعركة خاسرة.

الفصل الثاني عشر - اجتماع مجلس الحرب. فايروتهر. كوتوزوف ينام أثناء المناقشات. فايروتهر يقرأ نص خطة معركة أوسترلتز. الجنرالات أثناء الجلسة. اعتراضات لانغرون. كوتوزوف يرفع الجلسة. تأملات الأمير أندريه في الليلة التي سبقت معركة أوسترلتز. أحلام طَموحة تغزو خيال الأمير أندريه عن حلول اللحظة التي يصبح فيها بطل «تولون» جديدة..

الفصل الثالث عشر - نيقولا روستوف في طلائع القطعات. أحلامه. صيحات في معسكر العدو. الأمير باغراتيون والأمير دولغوروكوف يجيئان لملاحظة هذه الظاهرة الغريبة، ظاهرة الصيحات والنيران في جيش العدو. باغراتيون يرسل روستوف للتأكد من أن الطلائع الفرنسية لم تنسحب. الفرنسيون يطلقون الرصاص على روستوف. الأمر اليومي الذي أصدره نابوليون إلى قطعات جيشه....

الفصل الرابع عشر - حركة الأرتال الروسية. شعور بالفوضى والبلبلة والاضطراب. استياء من النمسويين. القتال يبدأ على شطئان نهر غولدباخ. نابوليون قبل معركة أوسترلتز...

الفصل الخامس عشر - تحرّك الرتل الروسي الرابع بقيادة كوتوزوف. مشاعر وأحلام الأمير أندريه قبل القتال. غضب كوتوزوف على جنرال. كوتوزوف يرسل الأمير أندريه لإيقاف الفرقة الثالثة ووضع قناصة في الأمام. إمبراطورا روسيا والنمسا وحاشيتيهما تطوف بالقطعات. ألكسندر الأول يسأل كوتوزوف لماذا لا يشرع في القتال. كوتوزوف يصدر أمره بالسير. ميلورادوفتش يقود رتله إلى النار...

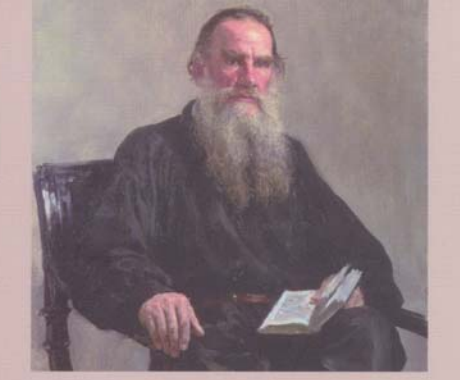
الفصل السادس عشر - اشتباك بين الرتل الرابع والفرنسيين. فرار القطعات الروسية. جرح كوتوزوف. الأمير أندريه يندفع هاجمًا بكتيبة، حاملًا

الراية بيده. إصابته بجرح. ما يخامر فكره من تأملات عن السماء العالية الأبدية..

الفصل السابع عشر - في الجانب الأيمن من القطعات الروسية عند باغراتيون. الأمير باغراتيون يرسل نيقولا روستوف في مهمة إلى القائد العام أو الإمبراطور. روستوف يمر بجبهة القطعات الروسية. هجمة «الفرسان الحرس». بينما كان روستوف يمر أمام المشاة الحرس، إذ هو يلقى بوريس دروبتسكوي وبيرج. روستوف يرى هاربين روسًا ونمسويين يمرون به ويجتازونه...

الفصل الثامن عشر - روستوف في قرية براتسن. جماهير متفرقة مبعثرة من الجند الروس. شائعات عن جرح الإمبراطور والقائد العام. ساحة القتال يتناثر عليها القتلى والجرحى. الفرنسيون يطلقون الرصاص على روستوف. بعد قرية غوستيرادك يلمح روستوف الإمبراطور، لكنه لا يجرؤ أن يقبل عليه ويواجهه. الكابتن فون تول يتحدّث مع القيصر. يندم روستوف على تردده ويبحث عن كوتوزوف. الجيش الروسي خسر معركة أوسترلتز. انسحاب الأرتال الروسية مفكّكة. الفرنسيون يقصفون بالمدافع سد آوغست.

الفصل التاسع عشر - جرح الأمير أندريه على روابي براتسن. نابوليون يطوف بساحة المعركة، فيلاحظ أن الأمير أندريه لا يزال حيًا، ويأمر بنقله إلى مركز الإسعاف. الجرحى من الضباط الروس يوضعون في الأمام ليراهم نابوليون. نابوليون يتحدّث مع الأمير ريبنين والليوتنانت سوختيلين. خواطر الأمير أندريه عن نابوليون: تفاهة العظمة، تفاهة الحياة والموت. استطراد عن الميدالية التي انتزعها الجنود الفرنسيون من عنق الأمير أندريه ثم ردوها إلى عنقه. الأمير أندريه وعدد من الجرحى الآخرين يعهد بهم إلى السكان...



ليف تولستوي

الحرب والسلام

I

على الرغم من صدور عدة ترجمات لهذه الرواية، فإن القرّاء دأبوا على السؤال عن ترجمة الدكتور سامي الدروبي الذي عرفوه في ترجماته المميّزة لأعمال دوستويفسكي.

وها هي دار التنوير تعيد نشر هذه الترجمة لهذا الكتاب العظيم الذي يصعب اختصاره، أو تلخيصه. فهذه الرواية التي لم تكفّ عن إثارة إعجاب ملايين القراء، وتعتبر من أكثر الروايات قراءة على مرّ العصور، كتب عنها شعراء وفلاسفة ونقّاد... حتى إن مؤلفه نفسه يقول عن عمله إنه: "ليس رواية، ولا هو قصيدة، ولا هو سجلّ لوقائع تاريخية. إنه ما أراد المؤلف، وما استطاع، أن يعبّر عنه في هذا الشكل الذي عبّر عنه". ولذلك فإن كل قارئ سيصل في قراءته إلى نتائج تخصّه من بين ما أراده المؤلف وتحدّث عنه هو نفسه في المقدّمة.

بالفعل إن هذا الكتاب يتجاوز التصنيف في فئة من فئات التأليف الأدبي. فهو إضافة إلى قيمته الأدبية، وقيمته التاريخية، يقدّم رؤى حول مسائل كبرى: حول تعارض حب الحياة مع مأساة الحروب، والدور الذي يمكن أن يلعبه الأشخاص في مجرى التاريخ، ودور الشعب بكل فئاته... فعبر هذا الكتاب نرى المسار الإنساني من جهتين: جهة الفرد وجهة الجماعة، ونتأمل في المصير الإنساني على طريق الحياة والموت.

إنها رواية تنفذ إلى روح المجتمع الروسي، معبّراً عنها في أحداث ووقائع وشخصيات يرسم تولستوي لكل منها دوراً يعبّر من خلاله عن نفاذ بصيرته في رؤية النفس الإنسانية عمومًا.

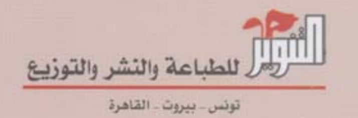
للأسف، لم يستطع الدكتور سامي الدروبي أن يكمل ترجمة هذا الكتاب. وقد ترجم لنا جزأين من هذا الكتاب الضخم، وأكمل عمله الدكتور صباح الجهيم.

لوحة الغلاف للفنان Chris Collingwood



ISBN 978-9938-886-94-8

9 789938 886948



التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

تونس - بيروت - القاهرة